ألكسندر إيسايفيتش سولجينيتسين

مئتا عام معًا

عن العقلية اليهودية

نقله إلى العربية

الدكتور حسان مخائيل اسحق




mohamed khatab

مئتا عام معاً

عن العقلية اليهودية

عنوان الكتاب : مئتا عام معاً عن العقلية اليهودية
Двести лет в месте

الكاتب : ألكسندر إيسايفيتش سولجينيتسين
Александр Исаевич Солженицын

نقله إلى العربية : د. حسّان مخائيل اسحق

الناشر : دار الفرقد

الطبعة الأولى : 2021م

التنفيذ والإشراف : دار الفرقد

الإخراج الفني : وفاء الساطي

تصميم الغلاف : 255 www.255studio.co

دار الفرقد

للنشر والتوزيع

دمشق - سورية

ص . ب : 34312

هاتف : 00963-11- 6618303 - 6660915

فاكس : 00963-11- 6660915

Email: info@daralfarqad.com

alfarqad70@gmail.com

www.daralfarqad.com

ألكسندر إيسايفيتش سولجينيتسين

مئتا عام معاً

عن العقلية اليهودية

نقله إلى العربية

د. حسّان مخائيل اسحق

المحتوى

مدخل إلى الموضوع

على مدى نصف قرن صرفتُه في العمل على موضوع الثورة الروسيّة لامست خلاله مرّات عدّة مسألة العلاقات الروسيّة - اليهوديّة. وتكمن المسألة هنا في أنّ هذه العلاقات كانت تمثّل إسفيناً يخترق الأحداث، ويدخل إلى عمق سيكولوجيا الناس ويثير نوازع من التوتُّر الشديد. لم أفقد الأمل في ظهور مؤلّف يلقي الضوء قبلي على مختلف جوانب هذا الإسفين الملتهب، ويتّخذ في أثناء ذلك موقفاً متوازناً من هذا الجرح النازف. بيد أنّنا غالباً ما نجد أنفسنا أمام اتهامات أحاديّة: إمّا عن خطأ الروس بحق اليهود، بل عن أزلية فجور الشعب الروسيّ، وفي هذا مبالغة مفرطة، وإمّا، من الجهة الأخرى: أنّ مَنْ مِنَ الروس كتب عن هذه المعضلة المشتركة، قد كتب بانفعالية، وتحيُّز وصلا به حدَّ عدم رغبته في أن يرى أيَّ مساهمة إيجابيّة للطرف الآخر في حياة البلاد.

ونحن لا يمكننا أن نقول: إنَّ هناك نقصاً في كتّاب الأدب الاجتماعي، فهم كثر، لا سيما لدى اليهود الروس، أكثر بكثير مما لدى الروس أنفسهم. لكن على الرّغم من حضور نخبة لامعة من العقول والأقلام، إلاّ أنّه لم يظهر حتى الآن عرض لتاريخنا المشترك، أو إضاءة عليه يمكن أن يلاقيا قبولاً متماثلاً لدى الطرفين. هذا يقتضي منّا أن نتعلم الاّ نشدَّ الخيوط المتشابكة أصلاً حتى الصليل. كم كنت سعيداً لو كنت قد أُعفيت من امتحان قواي في هذا الجرح الناكئ. بيد أنّني مؤمن بأنّه ينبغي الاّ يبقى هذا التاريخ، أو محاولة الولوج إليه، في دائرة "المحرّم".

فتاريخ "المسألة اليهوديّة" في روسيا (هل في روسيا فقط؟) خاصّة، تاريخ غني، الكتابة فيه تعني أن تسمع بأُذنيك أصواتاً جديدة وتنقلها إلى القارئ. (ستتعالى الأصوات اليهوديّة في هذا الكتاب أكثر بكثير من الأصوات الروسيّة).

لكنَّ السير في نزق الأجواء الاجتماعيّة يجعلك في غالب الأحيان كمن يسير على حدِّ السكين. من الجانبين تنهال عليك الاتهامات المعقولة وغير المعقولة. أمَّا الإحساس الذي يقودني عبر كتاب يتحدَّث عن مئتي عام من العيش المشترك بين الشعب الروسيّ والشعب اليهوديّ، فهو البحث عن نقاط الالتقاء كلّها، والكشف عن كلِّ الطرق الممكنة مستقبلاً، الخالية من مرارة الماضي الموجع. فكما الشعوب كلّها، وكما نحن كلّنا أيضاً، كان الشعب اليهودي فاعلاً نشطاً في التاريخ، كما كان أيضاً عنصراً منفعلاً سلبياً فيه، كثيراً ما أنجز حتى من غير أن يعي ذلك، مهمَّات كبرى كان التاريخ يمليها. وما يثير الفضول أنَّ "المسألة اليهوديّة" عولجت من وجهات نظر متعدّدة، لكنْ بطريقة تثير الاستغراب، كان يغلب عليها الخداع الذاتي في أحيان كثيرة. فالمعروف أنَّ الأحداث التي وقعت لأيِّ شعب في التاريخ، لم تكن له في غالب الأحيان اليد الطولى في تقريرها، بل للشعوب المحيطة به. فالحدّة المبالغ فيها من قبل الطرفين، هي سلوك مهين للطرفين معاً. بيد أنَّه ليس ثمّة مسألة دنيوية قط، غير خاضعة للنقاش العقلاني. وما يحزُّ في النفس أنَّ الذاكرة الشعبيّة راكمت كثيراً من الحيف والأذى المتبادلين. لكنَّنا إذا تجاهلنا ما يحدث فمتى سنداوي ذاكرتنا؟ وإلى أن يعثر الرأي العام الشعبيّ على قلم ناصع واضح فإنّه سيبقى مشوّشاً صاخباً وخطراً. وغني عن البيان القول: إنّنا لا نستطيع أن ندير ظهرنا لمئتي عام انصرمت كأنَ شيئاً لم يكن. خاصة أن كوكبنا بات الآن صغيراً، ونحن من جديد جيران في أي رقعة منه. لقد أرجأتُ هذا المؤلَف طويلاً وكنتُ أتمنَى لو لم يُلقَ على عاتقي عبء مهمة كتابته، بيد أنَ زمن حياتي أطلَ على نهاياته، وبات

لزاماً عليَ أن أبدأ. فأنا لم أعترف في حياتي كلها بحق أيٍ كان في إخفاء ما كان أو طمْسه. كما لا أستطيع أن أدعو إلى مثل هذه الموافقة التي تبدو كأنها تقوم على إضاءة جائرة على الماضي. إنَني أدعو الطرفين الروسي واليهودي إلى تفاهم أساسه التسامح، وأُقرِ بقسطي في الإثم، لأنَ تجاهله بمثل هذه البساطة ليس من قيمنا ...

إنَني أسعى صادقاً مخلصاً إلى فهم الطرفين. ومن أجل هذا أغوص إلى أعماق الأحداث وليس في خضمِ النقاش. أعمل على أن أُبيّن الحقيقة. وأدخل في مساجلات فقط عندما تكون الحقيقة مغيَّبة تحت ركام من الدجل. وأجرؤ على أن أتوقع ألاّ يُقابل كتابي هذا بغلٍّ المتطرِفين الذين لا يفقهون أهمية التسامح، بل أن يؤدي دوره في الوصول إلى التفاهم المنشود. وآمل أن ألقى بين الروس وبين اليهود محاورين نواياهم حسنة.

يرى المؤلِف غايته من وراء تأليف هذا الكتاب على النحو الآتي: أن يتبيَّن قدر الإمكان طرق المستقبل الممكنة لإقامة علاقات طيِّبة بين الروس واليهود.

.1995

لقد كتبت هذا العمل انطلاقاً من مقتضيات المادة التاريخيّة فحسب، وبحثاً عن قرارات مستقبليّة مقصدها صدق النيّة. بيد أنَّه ينبغي ألاّ ننسى أنَّ الوضع في روسيا تبدَّل في السنوات القليلة الماضي تبدلاً دراماتيكيا جعل الموضوع الذي نبحث فيه يتراجع ويخبو بالمقارنة مع الموضوعات الروسيّة الراهنة الأخرى.

.2000

دائرة البحث
ما هي الحدود التي يمكن أن تُرسم لهذا الكتاب؟

لا يخفى عليَّ أنَّ هذا الموضوع موضوع شائك جداً ولا حدود له، وأنا آخذ هذا كلّه بعين الحسبان. وأُدرك أنَّ له جانبه الميتافيزيقي. بل يقولون: إنَّ فهم المسألة اليهوديّة ليس ممكناً إلاّ من الوجهة الدينيّة والصوفيّة حصراً. ولا ريب في أنّني أعترف بهذا، فقد كُتبت فيه مؤلّفات لا عدَّ لها، لذلك لا يجوز تجاهل هذه الوجهة. لكنّي أرى أنّها محجوبة عن الناس، وليست متاحة من حيث المبدأ حتى للفقهاء. بيد أنَّ المسائل الأساس في مصير التاريخ البشريّ، لها من غير شكّ علاقاتها الصوفيّة، وتأثيرها الصوفيّ، لكنَ هذا لا يعوقنا عن دراستها من الوجهة التاريخيّة - الوجوديّة. وقد لا تكون الإضاءة السطحيّة ضروريّة دائماً لمعالجة الظاهرات الملموسة القريبة العهد منّا. ففي حدود وجودنا الزمني نستطيع أن نحكم على الروس، كما على اليهود، بالمعايير الدنيوية. أمّا المعايير السماوية فنتركها للإله. أنا أُريد أن أُضيء على المسألة من جوانبها التاريخيّة والسياسيّة والمعيشيّة والثقافيّة فقط، وفقط في حدود قرنين من التعايش بين الروس واليهود في دولة واحدة. لأنّي لا أُفكّر، ولا أجرؤ على أن ألامس أعماق أربعة أو خمسة آلاف عام من التاريخ اليهوديّ شكّلت كمّاً مهيباً من الكتب والموسوعات التي اهتمّت بالتاريخ المذكور. كما لن أتناول تاريخ اليهود في أقرب البلدان إلينا — في بولونيا وألمانيا والنمسا المجر - بل سأُركّز على العلاقات الروسيّة اليهوديّة، وسأُولي اهتمامي خاصة للقرن العشرين الذي شكّل علامة فارقة ومأساويّة في حياة شعبينا. سوف أُركّز على التجربة المريرة لتعايشنا معاً، وسأُحاول أن أُبدّد

الذكريات المغلوطة والاتهامات الباطلة، لكنّي لن أغفل عن الاتهامات المنصفة. فالكتب التي صدرت في العقد الأول من هذا القرن جاءت قاصرة جداً ولم تنجح في أن تحيط بهذه التجربة من جوانبها كلّها. وغنيٌ عن البيان القول: إنَّ المؤلّف المعاصر لا يستطيع في غضون ذلك أن يتجاهل نصف قرن انقضى على قيام دولة إسرائيل وتأثيرها المهوّل في حياة اليهود، بل وفي حياة غير اليهود في جميع أرجاء العالم. كما لا يمكن حتى لو من أجل سعة فهمنا الذاتي فقط، ألاّ نحاول الدخول إلى الحياة الداخليّة لإسرائيل والاطلاع على الاتجاهات الروحيّة فيها، وعندئذٍ شئنا أم أبينا فإنَّ هذا سينعكس لمحات جانبيّة في كتابنا هذا. وسوف تكون مبالغة كبيرة من جانب المؤلّف لو ادَّعى أنّه أدرج في موضوعات كتابه معالجة المسائل المبدئية في الفكر الصهيونيّ وحياة إسرائيل معالجة متقنة. لكنّي أُولي اهتماماً كبيراً لمنشورات المثقفين اليهود الروس المعاصرين الذين عاشوا عقوداً في الاتحاد السوفييتي، ثم انتقلوا إلى إسرائيل وعلى هذا النحو بات بإمكانهم أن يدرسوا من جديد العديد من المسائل اليهوديّة استناداً إلى تجربتهم الشخصيّة.

في روسيا قبل الثورة

الفصل الأول

القرن الثامن عشر ضمناً

لن نلقي الضوء في هذا الكتاب على حضور اليهود في روسيا قبل العام 1722. وسنكتفي هنا ببعض الصفحات التي تذكّر بعصر أكثر قدماً. فأوّل احتكاك بين الروس واليهود يمكن أن يُعزى إلى زمن حرب روس الكييفيّة (نسبة إلى مدينة كييف) مع الخزر، بيد أنَّ هذا ليس دقيقاً تماماً لأنّه لم يكن من الخزر يهود سوى النخبة من القبيلة اليهوديّة، أمَّا الخزر الأصليّن فقد كانوا من التورك الذين اعتنقوا الديانة اليهوديّة.

وإذا أخذنا بما يرويه المؤلّف اليهودي الرصين، يو. د. بروتسكوس الذي عاش في أواسط قرننا هذا، فإنَ فريقاً ما من اليهود انتقلوا من بلاد فارس عبر معبر دربينت إلى الفولغا السفلى، حيث ابتداء من العام 724م.، أخذت تنمو وتكبر هناك مدينة إيتيل، عاصمة الكاغانات الخزري. فزعماء التورك - الخزر القبليون (الذين كانوا عندئذٍ وثنيين)، رفضوا الإسلام كيلا يخضعوا لخليفة بغداد، كما رفضوا المسيحية كي يتفادوا وصاية الامبراطور البيزنطي؛ لذلك اعتنقت القبيلة الديانة اليهوديّة في حوالي العام732 م. كما كانت هناك مستعمرة يهودية في مملكة البسبور (القرم، شبه جزيرة تامان)، إلى حيث ساق الامبراطور الروماني هادريان الأسرى اليهود في العام 137 م. بعد إخماد بار - كوهبا. وفيما بعد رسَّخ السكان اليهود حضورهم في القرم بقوة في زمن سيطرة

الغوط، ثم في زمن سيطرة الهون، خاصة في كافا (كيرتش) التي حافظت على يهوديتها حتى النهاية. وفي العام 933 م. استولى الأمير إيغور على كيرتش لبعض الوقت، أمَّا سفيتوسلاف إيغوروفيتش، فقد انتزع حوض الدون من الخزر. وفي العام 969 م. كان الروس قد سيطروا على حوض الفولغا كلّه بما في ذلك مدينة إيتيل، وظهرت السفن الروسيّة عند سيميندرس (على سواحل دربينت). لقد أجهز تامرلان على الخزر.

وعلى وجه العموم يزعم عدد من الباحثين (من غير أدلَة قاطعة) أنَّ فريقاً ما من اليهود نزح غرباً، ونحو الشمال الغربي عبر الجنوب الروسي. فالمستشرق ابراهام هاركافي على سبيل المثال يقول: إنَّ "اليهود الذين نزحوا من سواحل البحر الأسود والقوقاز حيث كان يعيش أسلافهم بعد السبي الآشوري والسبي البابلي"، هم الذين أسَّسوا الطائفة اليهوديّة في روسيا المقبلة. ويقترب من وجهة النظر هذه يو. د. بروتسكي (هناك رأي آخر يقول: إنَّ هؤلاء كانوا بقايا القبائل الإسرائيلية العشر "التي اندثرت"). وقد تكون تلك الحركة قد بلغت حدَّها النهائي بعد سقوط تموتاركان (في العام 1097م.) على أيدي البولوفيين. وبحسب هاركافي أنَّ اللغة السلافية كانت هي اللغة المحكية لدى هؤلاء اليهود، على الأقلِّ ابتداء من القرن التاسع الميلادي. وفي القرن السابع عشر.، فقط عندما فرَّ اليهود الاوكرانيون من مذابح خميلنيتسكي في بولونيا، باتت لغتهم هي الإيديش (هي اللغة العامية اليهوديّة. ـح. إ.) التي كان يتحدَّث بها يهود بولونيا.

كما سلك اليهود طرقاً مختلفة إلى كييف حيث استقرُّوا فيها. فمنذ عهد إيغور كان الشطر السفلي من المدينة يُدعى كوزاري؛ وفي العام 933م.، ألحق إيغور بهؤلاء الكوزاري، الأسرى اليهود الكيرتشيين. ثمَ في العام 965م.، أضاف إليهم الأسرى من يهود القرم، وفي العام 969م.، كوزاري إيتيل وسيميندرس، ثم في العام 989م.، كوزاري كورسوني (كرسونيس)، وفي العام 1017م.، كوزاري تومتاراكاني. كما ظهر في كييف يهود غربيون: في سياق تجارة

القوافل بين الغرب والشرق، وربما بسبب الملاحقات التي كانوا يتعرَّضون لها في أوروبا إبَّان الحملة الصليبية الأولى في أواخر القرن الحادي عشر، كما يؤكِّد الباحثون الأحدث عهداً، على المنشأ الخزري "للعنصر اليهودي" في كييف القرن الحادي عشر، بل قبل ذلك: على تخوم القرنين الميلاديين التاسع والعاشر كانت في كييف "إدارة خزرية وحامية خزرية". أمَّا "في النصف الأول من القرن الحادي عشر، فقد كان للعنصر اليهودي والخزري في كييف ... دور فاعل". فكييف القرنين التاسع والعاشر كانت مدينة متعدّدة الأعراق ومتسامحة عرقياً. وعلى هذا النحو في أواخر القرن العاشر، عندما كان فلاديمير يختار ديانة جديدة للروس، لم يكن اليهود قلَة في كييف، وكان بينهم رجال علماء يدعون إلى الديانة اليهوديّة. بيد أنَّ الاختيار سار باتجاه مغاير لما كان في خازاريا قبل 250 عاماً. ويرى كارامزين أنَّ "فلاديمير بعد أن استمع إلى الدعاة اليهود سألهم: أين موطنهم؟ فأجابه الدعاة "في أورشليم، لكنَّ الإله غضب منَّا وشتتنا في شتى أرجاء الأرض". فقال لهم فلاديمير: "وأنتم الذين عاقبكم الإله كيف تتجاسرون على تعليم الآخرين؟ نحن لا نريد أن نخسر موطننا". ثم يضيف بروتسكوس أنَّه بعد أن اعتنقت روس المسيحيّة، اعتنقها تبعاً لذلك فريق من اليهود الخزر في كييف؛ بل كان منهم فيما بعد في نوفغورود واحد من أوائل الأساقفة والكتَّاب اللاهوتيين المسيحيين في روس كلِّها، وأنا أعني هنا لوقا الجيدياتي. ولم يكن لتعايش الديانتين المسيحيّة واليهوديّة في كييف إلاَّ أن يفضي بالرجال العلماء إلى عقد مقارنات يشوبها كثير من التوتُّر. وقد أنتجت هذه الحالة بحثاً اشتُهر في الأدب الروسي تحت اسم: "قول في الناموس والفضيلة" (أواسط القرن الحادي عشر): ترسيخ الوعي الذاتي المسيحي عند الروس لقرن آتٍ. "فالسجال كان هنا حيوياً وجديداً، كما كانت عليه الحال في رسائل الرسل". ولا غرابة في ذلك البتة، فقد كان ذلك القرن هو القرن الأول للمسيحيّة في روس. وقد أولى اليهود اهتماماً فائقا للمسيحيين الروس المبتدئين، خاصّة في ميدان الفكر الديني. وفي

كييف على وجه التحديد كانت ثمّة إمكانيّة للتواصل بين الطرفين. وقد كان ذلك الاهتمام أعلى مما أصبح عليه في زمن المجاورة الذي عرفه فيما بعد القرن الثامن عشر وبعد ذلك شارك اليهود على مدى أكثر من قرن مشاركة نشطة في تجارة كييف. "فالأسوار الجديدة التي أحاطت بالمدينة (انتهى العمل بها في العام 1037م.)، كانت فيها أبواب جيدوفية تجاور الحيَ اليهودي". ولم يفرض الأُمراء على اليهود قيوداً، ولم يناصبوهم العداء، بل حظي هؤلاء بحمايتهم. وقد تميَّز في هذا السياق سفياتوبولك إيزياسلافيتش، لأنَّ نشاط اليهود التجاري والاستثماري كان يخدم مصالح الخزينة العامة.

وفي العام 1113م.، بعد موت سفياتوبولك، وكان فلاديمير (الذي غدا مونوماخ)، مازال متردداً في قبول عرش كييف، قبل السفياتوسلافيتشيين، -" استغلَ العُصاة الفراغ في السلطة ونهبوا منزل تيسياتشسكي ... ومنازل كلِّ الجيديين الذين كانوا في العاصمة تحت حماية خاصة وفّرها لهم سفياتوبولك الجشع ... وكان سبب عصيان كييف هو على ما أظنُّ الرِّبا الفاحش الذي كان يفرضه اليهود على المقترضين: يبدو أنّهم استغلوا ندرة النقود في تلك الآونة وابتزُّوا المحتاجين بنسبة عالية جداً من الفائدة المئوية". (ثمّة في "ميثاق" مونوماخ إشارات إلى أنَّ المرابين الكييفيين كانوا يفرضون فائدة سنوية قدرها 50%). ويستند كارامزين في غضون ذلك إلى الحوليات، كما إلى هوامش ف. ن. تاتيشيف الذي نقرأ عنده ما يلي: "ثم قتلوا بعد ذلك كثيراً من الجيديين ونهبوا منازلهم لأنَّ هؤلاء أتوا قبائح كثيرة وتسببوا للمسيحيين بكثير من الأذى بتجارتهم. فاجتمع كثير منهم عند كنيسهم، وأقاموا المتاريس، والدفاعات الأخرى لكي يكسبوا أكبر قدر ممكن من الوقت حتى مجيء فلاديمير". وبعد مجيئه "طلب منه الكييفيون كلُّهم أن يُنزل قصاصاً عادلاً بالجيديين لأنّهم اغتصبوا المهن كلّها من المسيحيين، وكانت لهم في عهد سفياتوبولك حرية واسعة وسلطة قوية ... وأغووا كثيرين بشريعتهم". وبحسب م. ن. بوكروفسكي، إنَّ مذابح كييف في

العام 1113م كان طابعها اجتماعياً وليس سياسياً. (والحقيقة أنّ التزام هذا المؤرخ "الطبقي" بالتأويلات الاجتماعيّة أمر معروف جيداً). بعد أن شغل فلاديمير عرش كييف، أجاب المشتكين على النحو الآتي: "لأنّ كثيراً منهم [أي من الجيديين] استوطنوا في كلّ مكان من مختلف الإمارات، ولا يليق بي من غير مجلس الأمراء، بل سيكون مخالفاً للعدل أن تجيز النهب والقتل لأنّ كثيراً من الأبرياء يمكن أن يهلكوا. ومن أجل ذلك سأدعو مجلس الأمراء إلى الانعقاد فوراً". وقد أقرّ ذلك المجلس قانوناً قضى بتحديد نسبة الفوائد، وأدرج فلاديمير ذلك القانون في ميثاق الياروسلافيين. وينقل كارامزين على خطا تاتيشيف أنّ فلاديمير، عملاً بقرار المجلس، "طرد الجيديين كلّهم؛ ومنذ ذلك الوقت لم يعد لهم وجود في وطننا". لكنّه يتحفّظ في اللحظة عينها قائلاً: "لكنّ الحوليات على الضدّ من هذا تقول: في العام 1124م، [في الحريق الكبير] احترق الجيديون في كييف، وهذا يعني أنّهم لم يُطردوا منها". (يوضح بروتسكوس أنّ "حياً كاملاً كان في أفضل شطر من المدينة ... عند البوابات الجيدية قرب البوابات الذهبية قد احترق"). على الأقل كان هناك يهودي واحد يحظى بثقة أندريه بوغوليوبسكي في فلاديمير. "لقد كان بين المقربين من أندريه شخص يُدعى يفريم موزيتش، ويدلّ اسم والده موزيتش أو موسييفيتش على أُصوله الجيدية"، وعلى حدّ قول مدون الحوليات، إنّ هذا كان بين مدبري المؤامرة التي راح أندريه ضحيتها". بيد أنّ مدوّنة أخرى تقول: إنّه في عهد أندريه بوغوليوبسكي "جاء من مناطق الفولغا كثير من البلغار والجيديين وتقبّلوا سرّ المعمودية"، وبعد مقتل أندريه فرّ ابنه غريغوري إلى أمير يهودي في داغستان. وعلى وجه العموم لم يبق من عصر روس السوزدلية سوى معطيات شحيحة عن اليهود، ومن الواضح أيضاً أنّ أعدادهم بدورها كانت ضئيلة هناك. فالموسوعة اليهوديّة تشير إلى أنّ مصطلح "الملك اليهودي"، كان المصطلح المحبّب في الملحمة الروسيّة العتيقة للتعبير عن عدوّ الدين المسيحي"، مثله في هذا كمثل اليهودي - الجبار في القصائد الملحمية

الروسيّة التي أُنشئت بإيليا دوبرين. وقد تكون حاضرة هنا بقايا ذكريات الصراع مع خازاريا. كما تبرز هنا القاعدة الدينية لذلك العداء والانعزال اللذين بمقتضاهما حُرِّم على اليهود دخول روس الموسكوفية.

مع الغزو التتري توقف النشاط التجاري في روس الكييفية، فغادرها كثير من اليهود إلى بولونيا. (لكنَّ المستوطنات اليهوديّة في فولين وهاليسيا بقيت قائمة، ولم تتأذ كثيراً من الغزو التتري). فالموسوعة تقول: "في أثناء الغزو التتري (في العام 1239م) الذي دمَّر كييف، نال اليهود نصيبهم من الأذى، لكنْ في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي دعاهم الأُمراء العظام ليستوطنوا في كييف التي كانت تحت سيطرة التتر. غير أنَّ استغلال يهود كييف الحريات التي مُنحت لليهود في الإمارات التترية الأخرى أيضاً، أثار بُغض المشّان[1] لهم". ولم يقتصر هذا على كييف وحدها بل امتدَّ إلى مدن شمالي روسيا؛ لأنَّ الطريق إلى هناك باتت سالكة في ظلِ السيطرة التترية، "طريق كثير من التجار البيسيرمينيين، والخزريين أو الهيفينيين الذين كانوا منذ القدم ضليعين في شؤون التجارة ودهاء الجشعين: لقد اشترى هؤلاء الناس من التتر، حقَّ جباية إتاوات إماراتنا، وجبوا إتاوات فاحشة من الفقراء، ومن كان يعجز عن التسديد كانوا يستعبدونه. لكنَّ هذا أفضى بسكان فلاديمير وسوزدال وروستوف إلى الخروج عن طورهم في نهاية المطاف، فثاروا ثورة رجلٍ واحد وعلى قرع طبول المجالس الشعبية هاجموا هؤلاء المرابين الجشعين، فقتلوا بعضهم وطردوا من تبقَى". فهدَّد الثائرين تحرُك القوات التأديبية، لكنَّ ألكساندر نيفسكي توسَّط في الأمر، فأُوقفت الحملة. "تذكر وثائق القرن الخامس عشر، يهود كييف، جباة الإتاوات الذين كانوا يملكون ثروات كبيرة". وفي هذا القرن، "بدأ نزوح اليهود

(1) المشّان مصطلح كان مستخدماً في روسيا القيصرية، ويُقصد به الباعة والحرفيون وصغار الموظفين.

من بولونيا نحو الشرق"، بما في ذلك إلى بيلوروسيا: "نلقى في مينسك وبولوتسك متعهدي جباية الرسوم الجمركية وسواها من الجبايات الأخرى"، وفي سمولينسك أيضاً لكنَّهم لم يكونوا قد أنشأوا هنا بعد، بنية نمط عيش مشترك مستقر. أمَّا بعد أن طُرد اليهود لبعض الوقت من ليتوانيا (في العام 1495م.)، "فقد استؤنفت في أوائل القرن السادس عشر.، حركة النزوح نحو الشرق بنشاط ملفت".

أمَّا تسرُب اليهود إلى روس الموسكوفية (نسبة إلى موسكو) فكان ضئيلاً لا أهمية له على الرَّغم من أنَّ مجيء "اليهود النافذين من الخارج إلى موسكو، لم تكن تعترضه أيُ عقبات عندئذٍ". ولكنْ عند نهاية القرن الخامس عشر.، كانت تحدث في أوساط السلطة الروحية والإدارية في روس أحداث بدا أنَّها لم تكن مدوية، بيد أنَّها كانت مؤهلة لأن تتسبب بقلاقل خطرة، أو تفضي إلى نتائج عميقة في الميدان الروحي. لقد كانت تلك هي "هرطقة المتهوِدين". وبحسب تعبير خصمها اللدود يوسف فولوتسكي: "أنَ الأرض الروسيّة الطاهرة النقية لم تعرف مثل هذه الغواية منذ زمن أُولغين وفلاديمير".

تاريخ هرطقة المتهوِّدين

يقول كارامزين: إنّ القصة بدأت على النحو الآتي: في العام 1470م.، وصل إلى نوفغورود آتياً من كييف، يهوديٌّ يُدعى زكريا، "وقد نجح هذا في أن يُغوي هناك اثنين من الكهنة: ديونيسيوس وألكسي؛ فأقنعهما بأنَّ شريعة موسى هي وحدها الشريعة الإلهيّة؛ وأنَّ قصة المخلِّص هي محض اختلاق؛ وأنَّ المسيح لم يولد بعد؛ وأنَّه ينبغي عدم السجود للأيقونات وما في حكمها. فشاعت الهرطقة الجيدوفية". ويضيف س. سولوفيوف أنَّ زكريا بلغ مأربه هذا "بعون من خمسة شركاء، جيديين أيضاً"، وأنَّ تلك الهرطقة كانت "كما هو واضح، خليطاً من اليهوديّة والعقلانية المسيحية التي ترفض سرَّ الثالوث المقدس وأُلوهية يسوع المسيح". بعد ذلك "دعا الأب ألكسي نفسه أبراهام، ودعا زوجته سارة، وأفسد، ومعه ديونيسيوس، كثيراً من رجال الدين وجماهير المؤمنين ... بيد أنَّه يصعب علينا أن نفهم كيف نجح زكريا في أن يضاعف بمثل هذه السهولة أعداد تلاميذه النوفغوروديين إذا كانت حكمته كلُّها قد اقتصرت فقط على إنكار المسيحية ومباركة الجيدية ... ربما كان زكريا قد أغوى الروس بالقبَّالة اليهوديّة، فهي العلم الآسر للجهلة من الفضوليين، الذي شاع كثيراً في القرن الخامس عشر عندما كان كثير من كبار العلماء ... يبحثون فيه عن حلٍّ لأهمِّ الألغاز التي كانت تشغل العقل البشري. لقد كان القبَّاليون يفاخرون ... بأنهم يعرفون أسرار الطبيعة كلِّها، وبإمكانهم أن يفسروا الأحلام، ويقرؤوا المستقبل، ويأمروا على الأرواح ...".

أمّا يو. إ. غيسين المؤرّخ اليهودي في القرن العشرين، فهو على الضدّ من هذا يرى، لكن من غير أن يشير إلى أيّ مصادر كانت: "أنه من الثابت أنَّ اليهود لم تكن لهم أيُّ مساهمة من أيِّ نوع في غرس الهرطقة ... ولا في إشاعتها بعد ذلك". ويؤكّد المعجم الموسوعي الذي وضعه بروكهاوز وإيثرون أنَّ "العنصر اليهودي نفسه لم يكن له دور بارز في هذه التعاليم، وأنّه اقتصر على بعض الشعائر". أمّا الموسوعة اليهوديّة المعاصرة لهذا المعجم، فكتبت تقول: "ينبغي أن نرى أن المسألة الإشكالية المتعلّقة بالتأثير اليهودي على فرقة الهراطقة هؤلاء قد حُسمت الآن بالمعنى الإيجابي، بعد صدور ''مزامير المتهوِدين'' والآثار الأدبية الأخرى". "لقد حافظ هراطقة نوفغورود على لباقتهم الظاهرية، فقد بدا أنّهم متواضعون ودعاة صوّامون ملتزمون غيورون على تأدية مستلزمات الفضيلة كلّها"، وهذا ما "لفت نظر الشعب إليهم ومهد سبيل انتشار هرطقتهم بسرعة". وعندما زار يوحنا الثالث نوفغورود بعد سقوطها، اصطحب معه في العام 1480م.، أول هرطيقين: ألكسي وديونيسيوس إلى موسكو إكراماً لوقار فضيلتهما؛ ورقّاهما إلى رتبة قمُص في ديريّ أوسبينسكي وأرخانغل في الكريملين. "ورحل الانشقاق معهما إلى هناك تاركاً جذره في نوفغورود. ونال ألكسي عطفاً خاصاً لدى الملك، فكان يستطيع الدخول إليه متى شاء، وأغوى بتعاليمه الباطنيّة" عدداً من كبار رجال الدين والدولة، بل أقنع الأمير العظيم نفسه بأن يُنصِّب الأرشمندريت زوسيما أحد الذين استمالهم إلى هرطقته ميتروبوليتاً، أي رأس الكنيسة الروسيّة كلّها. وفضلاً عن ذلك أغوى إلى هرطقته يلينا، كنّة الأمير العظيم وأرملة يوحنا الفتي وأُم ولي العهد، "حفيد المبارك" ديميتري.

ويثير الدهشة فعلاً النجاح السريع السهل الذي حققته تلك الحركة. لكن من الواضح أنَّ سبب ذلك يكمن في وجود مصالح مشتركة. "فحينما تُرجمت من اللغة اليهوديّة إلى اللغة الروسيّة "مزامير المتهوِدين" وغيرها من المؤلفات التي كان الغرض منها إغواء القارئ الروسيّ الضعيف الخبرة، وكان لها في بعض الأحيان

طابعاً مناهضاً للمسيحيّة، كان يمكن أن نظن أنَّ لليهود واليهوديّة وحدهما مصلحة في ذلك". لكنَّ "القارئ الروسي بدوره كان مهتماً ... بترجمة النصوص الدينية اليهوديّة"، ومن هنا جاء "ذلك النجاح الذي لاقته دعاية ''المتهوِدين'' في مختلف أوساط مختلف شرائح المجتمع". وتذكِّرنا حدّة ذلك الاحتكاك وحيويته بتلك التي ظهرت في كييف إبّان القرن الحادي عشر.

لكنَّ غينادي، وهو رئيس أساقفة نوفغورود في العام 1487م.، اكتشف أمر الهراطقة وأرسل إلى موسكو براهينه التي لا ريب في صحتها، ثم تابع بحثه لفضح حقيقة فرقة الهراطقة إلى أن التأم للبتِّ في موضوعها، مجمع كنسي في العام 1490م (برئاسة الميتروبوليت زوسيما الذي كان قد عُيِّن في هذا المنصب لتوه). "لقد هال الحاضرين ما سمعوه من وثيقة الاتهام التي قدمها غينادي ... وأنَّ هؤلاء المرتدّين يفحشون في الافتراء على المسيح ووالدة الإله، ويتفلون على الصليب، ويدعون الأيقونات صوراً بلهاء، ويقضمونها بأسنانهم، ويرمون بها في أماكن قذرة، ولا يؤمنون بمملكة السماء، ولا بقيامة الأموات، ويصمتون عن هذا كله أمام المسيحيين الغيورين، لكنَّهم يغوون الضعفاء منهم". "ويتّضح من حكم المجمع أنَّ المتهوِدين لا يعترفون بأنَّ يسوع المسيح ابن الإله ... وكانوا يقولون: إنَّ المسيا (أي المخلِّص)، لم يظهر بعد ... ويقدّسون السبت التوراتي ''أكثر من أحد قيامة المسيح''. واقترحوا في المجمع إنزال عقوبة الإعدام بالهراطقة لكنَّ إرادة يوحنا الثالث قضت بالاكتفاء بسجنهم، وعَدِّ تلك الهرطقة هرطقة ملعونة. "وكان مثل ذلك العقاب بالنسبة لصرامة ذلك العصر وخطورة الفجور التي كانت تنطوي عليه الهرطقة المعنية، عقاباً متهاوداً". ويتّفق المؤرِخون على أنَّ حذر يوحنا الثالث كان سببه أنَّ الهرطقة كانت قد باتت تحت سقف بيته، فقد اعتنقها "أشخاص معروفون ونافذون"، بمن فيهم الدياك (أي ما يشبه وزير الخارجيّ)، فيودور كوريتسين "المعروف بثقافته الواسعة ومواهبه الفذة". "فليبرالية موسكو الغريبة انبثقت من ''صميم دكتاتورية'' ف. كوريتسين

المؤقّتة. وسحرُ ملتقاه السرِي أسر حتى الأمير العظيم نفسه وكنَّته ... لم تندثر الهرطقة بل ... ازدهرت وانتشرت ... في القصر الموسكوفي نفسه ... كان التنجيم والسحر ومعه غوايات التمحيص العلمي المنحول لكل ما هو قديم من رؤى العصور الوسطى،" بمثابة موضة"، لقد كان ذلك كله "استباحة فكرية، وغوايات تنوير، وسلطة الموضة".

كما تفترض الموسوعة اليهوديّة إضافة إلى ذلك، أنَّ اعتبارات سياسية منعت يوحنا الثالث من مناهضة فرقة الهراطقة تلك. فقد كان يأمل أن يدعمه زكريا في سعيه لترسيخ نفوذه في ليتوانيا، إضافة إلى أنّه لم يكن يرغب في أن يفقد تعاطف يهود القرم المتنفذين معه: "أمير شبه جزيرة تامان زكريا دي غويزولف"، ويهودي القرم الآخر عوزي كوكوس القريب من الخان مينغلي -هيريوس.

بعد مجْمع العام 1490م.، واصل زوسيما بناء الجماعة السرِيّة لبضع سنوات أُخر، لكنَّ أمره افتُضح، فأمره الأمير العظيم بأن يعتزل في الدير من غير صخب، ومن غير محاكمة. "بيد أنَّ حضور الهراطقة لم يضعف: في لحظة ما (في العام 1498م) كاد أنصارهم أن يستولوا على مفاصل السلطة كلها في موسكو، فقد كان صنيعتهم ديميتري ابن الأميرة يلينا قد توج ملكاً". لكن سرعان ما تصالح إيفان الثالث مع زوجته صوفيا باليولوغ، وابتداء من العام 1502م.، ورث العرش ابنه فاسيلي. (كان كوريتسين عندئذٍ قد توفي). بعد مجْمع العام 1504م.، أُعدم بعض الهراطقة حرقاً، وأُلقي ببعضهم الآخر في غياهب السجون، وفرَّ من تبقى منهم إلى ليتوانيا حيث اعتنقوا اليهوديّة هناك شكلياً.

ونشير في هذا السياق إلى أنَّ وضع حدٍّ لفرقة الهراطقة "المتهوِدين"، دفع بالحياة الروحية في روسيا الموسكوفية عند أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر خطوات واسعة إلى الأمام، وبيَّن ضرورة إدارة نشاط تنويري روحي، وإنشاء مدارس خاصّة لإعداد رجال الدين، وارتبط باسم الأُسقف غينادي، جمعُ أوّل توراة كنسية سلافية في روس وإصدارها، ولم تكن هذه من

قبـل موجـودة ككتـاب واحـد في الشـرق الأرثوذكسـي. مـع ابتكـار طباعـة الكتب، "بعد ثمـانين عامـاً كانـت تـوراة غينـادي هـذه نفسـها ... قـد طُبعـت في اوستروغ (في العام 1580 -1582م) كأول توراة كنسية سلافية مطبوعة، وكان ظهورهـا قـد سـبق عندئـذٍ كـل ظهـور لهـا في الشـرق الأرثوذكسـي". وكـان الأكاديمي س. ف. بلاتونوف قد أضاء على ذلك الظهور بكثير من الإسـهاب: لا ريـب في أنَ "حركـة المتهوِدين" كانـت تنطـوي علـى عناصـر العقلانيّـة الأوروبيّـة الغربية ... صحيح أنَّ تلك الهرطقة أُدينت، وخسر دعاتها وعانوا، بيد أنَّ روح النقد التي أشاعوها، والشك في صحة العقائد والنظام الكنسي لم يندثرا".

وتـذكّر الموسـوعة اليهوديّـة المعاصـرة بـأنَّ "الفرضـية الـتي تـزعم أنَّ روس الموسكوفية كان لها موقف سلبيّ حادٌّ من اليهوديّة واليهود، لم تكـن معروفـة هناك قبل أوائل القـرن السـادس عشـر"، وأنّهـا انبثقت مـن نمـط هـذا الصـراع مـع "المتهوِدين". وعلى المستوى الروحي ومستوى الدولة كان هذا الحدث متوافقاً تماماً مع واقع الأشياء. لكنَّ يو. إ. غيسين يعارض هـذا الـرأي: "مـا يـثير الانتبـاه أن مثل هذا النزعة الخاصّة التي اتسمت بها الهرطقة المعنية، أي النزعة "الجيدوفية" لم تعرقل نجاح الطائفة بل، على وجه العموم، لم تثر في تلك الأثناء موقفاً عدائياً ضدَّ اليهود".

بدء تسرُّب اليهود إلى روسيا

في تلك القرون، من القرن الثالث عشر حتى القرن الثامن عشر كانت تنشأ في بولونيا المجاورة أكبر طائفة يهوديّة، وتزداد قوّة ورسوخاً في بيئتها، وكان مقدّراً لها أن تغدو رافد اليهوديّة الروسيّة فيما بعد، ثمّ تشكِّل مع حلول القرن العشرين، الجزء الأساس من الحركة اليهوديّة العالمية. فمنذ القرن السادس عشر بدأ "نزوحٌ يهودي مكثف من بولونيا وتشيكيا" إلى أوكراينا، وبيلوروسيا وليتوانيا. وفي القرن الخامس عشر كان التجار اليهود مازالوا يتنقلون بحرية من الدولة البولونية - الليتوانية إلى موسكو. لكنَّ الحال تغيَّرت تماماً في عهد يوحنا الرهيب الذي منع دخول التجار اليهود. وعندما طالب الملك البولوني سيغموند - اوغسطس في العام 1550السماح لهم بحرية الدخول إلى روسيا، رفض يوحنا طلب الملك البولوني قائلاً: "لن نسمح للجيديين بالدخول إلى دولتنا أبداً لأنّنا لا نريد أن نرى في دولتنا أيَّ داهية، بل نريد أن يمنح الإله الناس في دولتنا السكينة من غير أيِّ قلاقل. وأنت يا أخي لا تكتب لنا بشأن الجيديين بعد ذلك"، فقد "أبعدوا الناس الروس عن المسيحية، وبثُّوا في أرضنا عقاقير سامَّة، وأضرُّوا بكثير من ناسنا".

وهناك خرافة تقول: عند الاستيلاء على بولوتسك في العام 1563م.، وبناء على شكاوى السكان الروس "من الأذى والاضطهاد" الذي نالهم من قبل اليهود المتعهدين والمفوَّضين من كبار الاقطاعيين والأثرياء البولونيين، أمر يوحنا الرابع اليهود كلّهم بأن يعتنقوا المسيحية في الحال، ويُقال: إنَّ الذين امتنعوا منهم وكان عددهم ثلاث مئة تماماً، أمر من توِهِ بإغراقهم أمام ناظريه في نهر دفينا.

بيد أنَّ المؤرخين الثقة، كفيسين على سبيل المثال، لا يأخذون بهذه الرواية لو من باب التذكير، بل يتجاهلونها تماماً.

لكنَّه يكتب بالمقابل قائلاً: إنَّ اليهود في زمن ديميتري الأول الدعي (1605 -1606م.)، ظهروا في موسكو "بأعداد كبيرة نسبياً"، مثلهم في هذا كمثل الأجانب الآخرين. أمَّا بعد أن انتهت القلاقل، فقد أُعلن أن ديميتري الثاني الدعي ("لص توشينا") –"جيديٌّ الأصل". (لا تتفق المصادر حول أصل "لص توشينا". بعضها يزعم أنَّه ماتفيه فيريوفكين ابن كاهن من أوكراينا: "أو جيديٌّ ... كما ورد في الأوراق الحكومية المعاصرة"، كان "يتقن، - ذا صدقنا أحد المؤرخين الأجانب - اللغة اليهوديّة، ويقرأ التلمود، وكُتب الرَّابيّين"، وأن "سيغموند أرسل الجيديَّ الذي كان يُدعى ديميتري وليَّ العهد"). وفي الموسوعة اليهوديّة المعاصرة أنَّ: "يهوداً كانوا في حاشية الدعي فأصابهم أذى كبير لدى الإطاحة به. ويحسب بعض الروايات ... إنَّ ديميري الثاني الدعي كان يهودياً اعتنق المسيحية وعمل في حاشية ديميتري الأول الدعي". وبعد القلاقل قُلّصت حقوق البولونيين - الليتوانيين الذين تدفقوا على روسيا في أثناء اشتعالها، وكان على "اليهود البولونيين - الليتوانيين أن يقاسموا مواطنيهم قدرهم هذا"، فقد منعوهم من السفر بالبضائع إلى موسكو وضواحيها. (ورد في الاتفاق الذي عُقد بين الموسكوفيين والبولونيين عن تتويج فلاديسلاف، التحفظٌ الآتي: "لا تجوز استمالة أيٍّ كان إلى الدين الروماني، أو أي دين آخر، ولا يخرج الجيديون في تجارتهم إلى دولة موسكو". ووفق معطيات أخرى أنَّ التجار اليهود حافظوا بعد موجة القلاقل على حرية الوصول إلى موسكو. "وتدلُ التعليمات المتضاربة على أنَّ حكومة ميخائيل فيودوروفيتش لم تتَّبع سياسة مبدئيّة تجاه اليهود". "ونقف في سنوات حكم ألكسي ميخايلوفيتش على كثير من المعطيات عن إقامة اليهود في روسيا – لا تحتوي القوانين على أيِّ قيود خاصّة باليهود... ففي ذلك الحين كان متاحاً لهم دخول أيِّ مدينة من مدن روسيا، بما فيها موسكو". وعلى حدِّ قول

غيسين: إنّه كان بين السكان الذين استولى عليهم الروس لدى هجومهم على ليتوانيا في ثلاثينات القرنالسابع عشر.، كثيرمن اليهود، وأنّهم "عاملوهم بحسب المعايير عينها التي عاملوا الآخرين بها". وبعد العمليات العسكرية التي جرت في الخمسينات والستينات "ظهر في الدولة الموسكوفية من جديد أسرى يهود، ولم يتعاملوا معهم بأسوأ مما كانوا يتعاملون به مع الأسرى الآخرين". أمّا بعد سلام أندروسوف في العام 1667م.، فقد "عرضوا على اليهود البقاء في البلاد. ويبدو أنّ كثيرين استغلُوا ذلك على أحسن وجه". واعتنق آخرون المسيحية و"صار بعض اليهود إلى أسلاف أسسوا بعض سلالات الأرستقراطيّة الروسيّة". (في القرن السابع عشر.، استقرَ عدد قليل من اليهود الذين اعتنقوا المسيحية في حوض نهر الدون، في بلدة ستاروتشركاسك وخرجت منهم حوالي عشر سلالات قوزاقية). وعند العام 1667م هذا نفسه، كتب الإنكليزي كوللينز يقول: "منذ زمن ليس بالبعيد، أخذ اليهود يتكاثرون في موسكو والقصر الملكي"، تحت رعاية طبيب القصر اليهودي".

وفي عهد فيودرور ألكسييفيتش حاولوا إصدار أمر يقضي بما يلي: "اليهود الذين يأتون بعد اليوم بالبضائع إلى موسكو خفية"، لا تُقبل بضائعهم في إدارة الجمارك، لأنّ "خروج اليهود من سمولينسك ممنوع، سواء ببضائع أو بغير بضائع". لكنّ "الممارسة العملية لم تكن متوافقة ... مع هذه القاعدة النظرية".

مواقف أباطرة روسيا من اليهود

في الأعوام الأولى من عهده (في العام 1702م) أصدر بطرس بياناً دعا فيه كلَّ الأجانب من البارزين في مهنهم للمجيء إلى روسيا، لكنَّه استثنى اليهود: "أريد ... أن أرى عندي أفضل المحمَّديين والوثنيين، ما عدا الجيديين. فهم نصَّابون محتالون. وأنا أستأصل الشرَّ من جذوره ولا أعطف عليه؛ لن يكون لهم في روسيا مأوى، ولا تجارة مهما حاولوا، ومهما نجحوا في أن يرشوا المحيطين بي".

بيد أنَّ أيَّ معطيات لم تصل إلينا عن اضطهاد اليهود إبَّان عهد بطرس الأكبر، ولم يصدر أيُّ قانون يقيد حركتهم أو يحدّ من حريتهم. بل على الضد من هذا فتح الترحيب بكلِّ أجنبي الأبواب كلّها أمام اليهود أيضاً، وبمقتضى الحاجة الماسّة إليهم في مجالات لا بديل عنهم فيها، نجدهم في الدائرة المقرَّبة من الامبراطور مباشرة: البارون بطرس شافيروف نائب المستشار (شخصية لامعة ناجحة لكنَّه كان يميل إلى الغشِّ والاحتيال فعاقبه بطرس وهو بعد على قيد الحياة، ثمَّ تابع السينات (أي مجلس الشيوخ. ـ ح. إ.)، التحقيق بعد موته؛ وكان أبناء إخوته: أبرام فيسيلوفسكي المقرَّب جداً من بطرس، واسحاق فيسيلوفسكي؛ وأنتون ديفير أو الجنرال - قائد شرطة بطرسبورغ؛ وفيفير مدير إدارة التحقيقات السرية؛ وشوت أكوستا وغيرهم. وفي رسالة أرسلها أ. فيسيلوفسكي إلى بطرس قال: "بالنسبة إليَّ الأمر سيان سواء كان المرء معمَّداً أم مختوناً، المهم أن يتقن عمله ويتسم سلوكه بالاستقامة". وكانت البيتوتات التجارية اليهوديّة الألمانية تطلب أن تضمن الحكومة الروسيّة أمن تجارتها مع فارس عبر روسيا، لكنَّها لم تحظ بذلك الضمان".

في أوائل القرن الثامن عشر طوّر اليهود تجارتهم في مالوروسيا أيضاً (روسيا الصغرى، هو الاسم الذي كان يُطلق قديماً على أوكرانيا. ـح. إ.)، قبل عام من حصول تجار روسيا العظمى على هذا الحق. وكان جيتمان سكوروبادسكي قد أعلن غير مرّة عن أوامر بطرد اليهود، لكنَّ أياً منها لم يوضع موضع التنفيذ، إنّما على الضدّ، زادت أعداد اليهود في مالوروسيا. وفي العام 1727م.، قبيل وفاتها بقليل نزلت كاترين الأولى عند إلحاح مينشيكوف وأصدرت أمراً بطرد اليهود من أوكرانيا ("كان يمكن أن يكون لمشاركة اليهود في صناعة الخمر" دور في هذا) والمدن الروسيّة. لكنَّ هذا الأمر وإنْ كان قد حظي بشيء من التنفيذ في البداية، إلاّ أنّه لم يصمد إلاّ أقل من عام واحد. ففي العام 1728م.، في عهد بطرس الثاني، صدرت تعليمات "بالسماح لليهود بدخول مالوروسيا، بصفتهم أُناساً ذوي منفعة لتجارة المقاطعة"، وقد سُمح لهم في بادئ الأمر "بزيارات مؤقتة"، بيد أنَّ "الزيارة المؤقتة ما لبثت أن تحولت إلى إقامة دائمة"، بذرائع شتى لم يكن من الصعب ابتكارها. وفي عهد آنّا امتدَ هذا الحقُ في العام 1731م ليشمل مقاطعة سمولينسك، وفي العام 1734م.، أوكرانيا السلوبودية (شمال شرقي بولتافا). وفي الوقت نفسه سُمح لليهود بعمليات استثمار لدى الاقطاعيين، والعمل في تجارة الخمور، وفي العام 1736م أطلقوا أيدي التجار اليهود باستيراد الفودكا من بولونيا إلى الخمارات الحكوميّة في روسيا العظمى. ويجدر بنا أن نذكر في هذا السياق، الرأسمالي البارز ليف ليبمان الذي كان ينتمي إلى حوض بحر البلطيق. فلمّا كانت الامبراطورة آنّا يوانوفنا مازالت تعيش في كورلياندیا، كانت في حاجة ماسّة إلى المال، "وربما أُتيحت الفرصة عندئذٍ لليبمان أن يكون ذا نفع لها". وكان هذا قد انتقل إلى بطرسبورغ في عهد بطرس الأول. وفي عهد بطرس الثاني "غدا مندوباً مالياً أو صائغاً في القصر الروسي". وفي عهد آنّا يوانوفنا "كانت له علاقات هامة جداً في القصر"، كما نال مرتبة ضابط. "وبما أنّه كانت له علاقات مباشرة مع الامبراطورة، فقد نشأت بينه وبين صفيّها بيرون

علاقات ودية وثيقة ... ويزعم المعاصرون أنَّ ... بيرون كان يستشيره في شؤون الدولة الروسيّة. وفي هذا السياق كتب أحد السفراء لدى القصر الروسي يقول ... يمكن القول... إنَّ "ليبمان هو الذي يحكم روسيا". فيما بعد قلّل المعاصرون من مستوى مثل هذه التقديرات. لكنَّ بيرون "سلّمه [أي سلّم ليبمان] إدارة الشؤون المالية كلّها تقريباً علاوة على مختلف شؤون الاحتكارات التجارية" ("تابع ليبمان تأدية مهماته لدى القصر حتى عندما نفت آنّا ليوبولدوفنا بيرون". فلم يبق ليبمان من غير تأثير على الموقف العام لآنّا يوانوفنا تجاه اليهود. وعلى الرَّغم من أنها عندما اعتلت العرش في العام 1730م عبَّرت في رسالتها إلى سفيرها لدى حاكم مالوروسيا عن قلقها حينما كتبت تقول: "نحن نسمع أنَّ عدد التجار المالوروسيين قليل جداً وأنَّ التجارة بين أيدي الاغريق والترك والجيديين" (يمكننا أن نستنتج من هذا مرَّة أخرى أنَّ عمليات الطرد التي حصلت في العام 1727م لم تكن حقيقيّة")، - كما بقيت قرارات آنّا حبراً على ورق - قرار العام 1739م القاضي بمنع اليهود من استثمار الأراضي لدى الاقطاعيين في مالوروسيا، وقرار العام 1740م القاضي بطرد حوالي 600 يهودي من هناك إلى خارج البلاد. (لا شكَّ في أن مصالح الاقطاعيين عوَّقت بدورها تنفيذ القرارات المذكورة).

أمَّا إليزابيت، فبعد عام من جلوسها على العرش أصدرت الأمر التالي (في كانون الأول من العام 1742م): "يُمنع على الجيديين العيش على أراضي إمبراطوريتنا كلّها؛ لكن من المعروف لنا الآن أنَّ هؤلاء الجيديين أنفسهم مازالوا مقيمين في إمبراطوريتنا بطرائق مختلفة، خاصّة في مالوروسيا، ولن يثمر هذا عن أيِّ شيء آخر يمكن أن يقدمه مثل هؤلاء الذين يبغضون اسم المسيح المخلِّص لرعايانا المؤمنين، سوى كل الأذى، لذلك نأمر بطرد كلّ الرجال والنساء الجيديين من جميع أنحاء إمبراطوريتنا مع مقتنياتهم كلّها إلى خارج البلاد، ومنعهم في المستقبل من دخولها لأيِّ سبب كان، ما عدا الذين يرغبون منهم باعتناق المسيحية على المذهب اليوناني". وقد كان ذلك التعصب الديني هو

التعصب الديني نفسه الذي اجتاح أوروبا لعدة قرون على التوالي. ومن وجهة نظر تلك الأزمنة لم يكن فيه أيُّ عداء روسي خاص نحو اليهود. ففي الأوساط المسيحية نفسها لم يكن التعصب الديني أقلَّ عداءً، - كما في روسيا نفسها حيث كانتَ ملاحقة أتباع الشعائر القديمة بالحديد والنار، وهؤلاء كانوا على وجه العموم من أتباع المذهب الأرثوذكسي نفسه. لقد أُولي أمر إليزابيت هذا "اهتماماً إعلامياً صاخباً. لكن سرعان ما جرت محاولات لثني الحكومة عن عزمها وتقديم تنازلات". فقد أبلغ الديوان العسكري في مالوروسيا السينات أنَّ مئة وأربعين شخصاً قد طُردوا، لكنَّ "منع اليهود من نقل البضائع إلى روسيا سيؤدي إلى تقليص موارد الدولة". فقدَّم السينات تقريراً إلى الامبراطورة جاء فيه: "إنَّ قرار العام الماضي الذي مُنع اليهود بموجبه من دخول أراضي الإمبراطورية تسبب لتجارة مالوروسيا ومناطق اوستيزيا بخسائر كبيرة، وفي الوقت نفسه عانت الخزينة من تقلُّص واردات الرسوم". فردَّت الإمبراطورة: "لا أُريد من أعداء المسيح أيَّة أرباح مهما كانت".

ويخلص غيسين إلى القول: "على هذا النحو بقيت روسيا في عهد إليزابيت خالية من اليهود". أمَّا المؤرخ اليهودي س. دوبنوف، فيقول: في عهد إليزابيت، و"بحسب إحصاء أحد المؤرخين المعاصرين ... كان قد طُرد من روسيا حتى العام 1753م 00035 يهودي". لكنَّ هذا الرقم مختلف كثيراً عن مخرجات قرار آنَّا يوانوفنا الذي لم يُعمل به، فخلال ثلاث سنوات قبل ذلك لم يُطرد من أوكرانيا كلها سوى 600 يهودي، ويبلِّغ تقرير السينات إلى إليزابيت عن طرد فعلي لمئة واثنين وأربعين يهودياً. وقد أدلى ف. إ. تيلنيكوف بلغز مؤداه أنَّ ذلك العمل لم يكن له مؤرخ - معاصر، أمَّا ذلك "المؤرخ المعاصر" الذي لسبب ما لم يذكر دوبينوف اسم عمله ولا حتى اسمه هو تحديداً، فقد كان ي. هيرمان الذي لم يُعلن هذا الرقم في حينه بل بعد مئة عام بالتمام أي في العام 1853م، من غير أن يشير إلى أيِّ مصدر كان، بل ألحق به إضافة غريبة قال فيها: "لقد أُمر اليهود

بمغادرة البلاد تحت طائلة عقوبة الإعدام لمن لا يمتثل"، وهذا يدل على جهل المؤرخ (هذا وذاك) بقرار إليزابيت بالذات لدى اعتلائها العرش، إذْ ألغتْ عقوبة الإعدام في روسيا (مرة أخرى بدافع ديني). ويشير تيلنيكوف في هذا السياق إلى أنَّ المؤرخ اليهودي الأبرز هنريخ غريتس (Graetz)، لم يكتب أيَّ شيء عن تنقيذ قرارات إليزابيت هذه. وللمقارنة فقط نقول: بحسب غ. سليوزبيرغ إنَّ عهد إليزابيت لم "يعرف سوى محاولات لطرد اليهود من أوكرانيا". ويبدو على أغلب الظنِ أنَّ علينا أن نعترف بوجود الاعتراضات الكثيرة التي أبداها اليهود ورجال الاقطاع، والعقبات التي لاقاها قرار إليزابيت في داخل جهاز الدولة، هذا كله أبقى القرار المذكور حبراً على ورق تقريباً مثله في هذا كمثل القرارات الأخرى المماثلة التي سبقته.

بل حتى في عهد إليزابيت نفسها كان ثمة يهود يشغلون مناصب رفيعة. فقد أُعيد الدبلوماسي إسحاق فيسيلوفسكي إلى العمل في الشأن الحكومي، "وأُحيط بكثير من العطف الإمبراطوري"، وانضم بدوره إلى جهود المستشار، أ. بيستوجيف - ريومين الداعية إلى عدم طرد اليهود. (فيما بعد ألقى دروساً في اللغة الروسيّة على وليِّ العهد الذي سيغدو الامبراطور بطرس الثالث؛ أمَّا شقيقه فيودور، فقد شغل مع نهاية عهد إليزابيت منصب قيِّم جامعة موسكو"). ويجدر أن نشير أيضاً إلى صعود التاجر الساكسوني غريوشتين، اللوثري الذي تحوَّل إلى الأرثوذكسية بعد فشل تجاري مني به في بلاد فارس واعتُقل هناك. لقد التحق هذا بفوج بريابراجينسكي، وكان واحداً ممن نشطوا في انقلاب إليزابيت، فمُنح رتبة ياور، وحق النبالة الوراثية، و927 فلاحاً قناً. لكنَّ "نجاحات الأعمال شوَّشت رأس غرينشتين" فيما بعد. فقد تجاسر مرَّة وهدد الحاكم العام بالقتل، ومرَّة أخرى وبَّخ قريب ألكسي رازوموفسكي في طريق ليلية وضربه ضرباً مبرحا (لم يكن يعلم من هو). لكنَّه لم يسلم من هذه الأخيرة ونُفي إلى اوستيوغ.

أمَّا بطرس الثالث فلم يُتح له في نصف السنة التي قضاها على العرش أن يعبِّر عن موقفه في المسألة اليهوديّة. (مع أنّه بقي في نفسه غلٌّ من "جيدي يُدعى موسا في كانت القروض تتمُ بوساطته" في زمن فتوَة بطرس في هولشتينيا، وقد أفضت إلى إفلاس خزينة هولشتينا، "ولمّا أُعلن أنَّ الأمير العظيم بلغ سنَّ الرشد، توارى الجيديٌّ من غير أن يترك أثر").

لكنْ حصل بعد ذلك الآتي (فهل كان ذلك مجرد مصادفة؟): لدى أول ظهور لكاترين الثانية في السينات بعد اعتلائها العرش، كانت على جدول أعماله مسألة السماح لليهود بدخول روسيا. (وكان أكثر أعضاء السينات قد نحو هذا المنحى). أمَّا كاترين نفسها فقد تركت مذكِّرة شرحت فيها كيف حصل ذلك، وكان من الواضح أنَّها تبرر فيها موقفها أمام الرأي العام الأوروبي. وفي اللحظة نفسها قرأ لها أحد أعضاء السينات للعلم فقط، نصَّ قرار تبرُؤ إليزابيت. وقد تعاطفت كاترين بوضوح مع مشروع قرار السماح لليهود بدخول روسيا، لكنَّها كانت مازالت مترددة بعد الانقلاب الذي وقع، لذلك آثرت أن تتمسَك بأرثوذكسيتها الحديثة العهد. "فأن تبدأ عهدها بقرار يقضي بالسماح لليهود بحرية الدخول إلى روسيا، كان وسيلة سيئة لتهدئة النفوس؛ من جهة أخرى كان من غير الممكن الإقرار بأنَّ السماح لليهود بدخول روسيا قرار مؤذ". لذلك أمرت كاترين بإرجاء مناقشة مشروع القرار. وبعد عدة أشهر تضمَّن البيان الذي سُمح بموجبه للأجانب أن يستقرُوا في روسيا التحفظ الآتي: "ماعدا الجيديين". (بعد عشر سنوات علّلت موقفها هذا لديدرو بقولها: إنَّ مسألة اليهود لم تُطرح حينئذٍ في الوقت المناسب"). لكنَّ استشعار اللحظة كان صائباً، فاليهود في الخارج كانوا يسعون بإلحاح للسماح لهم بدخول روسيا، وكانت تدعمهم وساطات كثيرة من بطرسبورغ نفسها، ومن ريغا، ومالوروسيا مبرِرة ذلك بأنَّ التجارة المحليّة "مهما كانت مدعومة فإنَّها مثلها كمثل التجارة الخارجيّة كلّها، مباحة للجيديين في مالوروسيا". وعلى الرَّغم من ميلها الكلّي

لمثل هذه الالتماسات، وخشيتها على سمعتها الأرثوذكسية، إلاّ أنَّ الامبراطورة وجدت نفسها مرغمة .... على اللجوء إلى العمل السرِي! فاختلقت، متجاوزة القوانين، مخرجاً مرضياً: لقد أجازت لبعض التجار اليهود أن يستعمروا نوفوروسيا (أي روسيا الجديدة. ــ ح. إ.) التي كان الاستيلاء عليها قد تمَّ منذ بعض الوقت، وهي مازالت خالية، وجعلت مركز قيادة هذه العملية في ريغا، لكنَّها حرصت على إخفاء انتمائهم القومي، ففي الوثائق كلّها كان هؤلاء اليهود يُدعون "تجار نوفوروسيا". لكنَّ حقيقة الأمر هي أنَّ التجار الذين دُعوا واستقرُوا في ريغا، "مارسوا فيها نشاطهم التجاري المعتاد". وفضلاً عن ذلك "استغلّت كاترين كلَ مناسبة لتوطين اليهود في نوفوروسيا شريطة ألاَّ يترافق ذلك بعلانية رسمية مبالغ فيها"، فقبلت هناك يهوداً من ليتوانيا وبولونيا، ومن عداد الأتراك الأسرى واللاجئين من الهايداماك (أي الذين شاركوا في حركة التحرر من النير التركي على الساحل الأُوكرايني. ــ ح. إ.). وفي تلك الأثناء كان العام 1772م قد اقترب، ووقع أول تقسيم لبولونيا استعادت فيه روسيا بيلوروسيا مع مئة ألف من سكانها اليهود. ومن ذلك العام ينبغي أن يبدأ تأريخ أوّل تقاطع تاريخي بين مصير اليهود ومصير الروس.

اليهود في بولونيا

ابتداء من القرن الحادي عشر بات دخول اليهود إلى بولونيا أكثر وضوحاً؛ فقد أخذ الأُمراء ثمَّ الملوك تحت حمايتهم "كلَّ رجال الأعمال النشطين الذين ينتمون إلى أوروبا الغربية". كان اليهود تحت الحماية الملكية، ونالوا امتيازات غير مرة (في القرن الثالث عشر من بوليسلاف الطاهر، وفي القرن الرابع عشر من كازيمير العظيم، وفي القرن السادس عشر من سيغموند الأول وستيفان باتوري)، مع أنَّ هذا ترافق بين الفينة والأخرى بملاحقات ومضايقات (في القرن الخامس عشر في عهد فلاديسلاف ياغيللو وألكساندر كازيميروفيتش، وفي القرن نفسه أُقيمت في اليهود مذبحتان في كراكوف). في القرن السادس عشر تأسست في عدد من المدن البولونية جيتوهات، غالباً للحفاظ على أمن اليهود وسلامتهم. فقد كانت اليهوديّة تعاني دائماً من عداء رجال الدين الكاثوليك. لكن على وجه العموم، كان واضحاً أنَّ ميزان العيش في بولونيا ملائمٌ بالنسبة إلى اليهود، لأنَّ "عدد السكان اليهود في بولونيا زاد زيادة ملحوظة في النصف الأول من القرن السادس عشر بفضل الهجرة". فقد أخذ اليهود "يشاركون الآن مشاركة واسعة في أعمال الاقطاعيين الزراعية، ما عدا ميدان الاستئجار ... وتجارة المشروبات الكحولية".

وبما أنَّ بقايا إمارة كييف أُلحقت بعد الغزو التتري بإمارة ليتوانيا منذ القرن الرابع عشر ثمَّ صارت بعد ذلك جزءاً من الدولة البولونية - الليتوانية الموحدة، فقد "أخذ اليهود يتسربون شيئاً فشيئاً من بودوليا وفولينا إلى أوكراينا أيضاً"، ثمَّ إلى كييفشينا، وبولتافشينا، وتشرنيغوفشينا. وقد تسارعت هذه

العملية عندما أُلحق شطر كبير من أوكرانيا ببولونيا مباشرة (في العام 1569م) بمقتضى اتحاد ليوبلين. كان الفلاحون الأرثوذكس يشكلون هناك الجزء الأساس من السكان، وقد أُعفي هؤلاء لزمن طويل من تأدية الإتاوات. لكنَّ استعمار أوكرانيا من قبل الاقطاع البولوني بدأ الآن بتسارع مكثف، وبدعم من اليهود. "لقد قيَّدوا القوزاق إلى الأرض وأرغموهم على تأدية أعمال السخرة والإتاوات ... وأرهق الاقطاعيون الكاثوليك الفلاحين الأرثوذكس بشتى أنواع الضرائب والإتاوات .... كان دور اليهود في ذلك الاستغلال محزناً"، فقد "اشتروا من الاقطاعيين البولونيين حقَّ صناعة الفودكا وبيعها "، وكذلك باقي فروع الاقتصاد. "وبعد أن شغل المتعهِّد اليهوديّ مكان الاقطاعيّ البولونيّ نال، إلى حدٍ ما طبعاً، تلك السلطة نفسها التي كانت لمالك الأرض على الفلاحين، وبما أنَّ اليهودي كان متعهِّداً ... بالتالي عمل على أن يعتصر من الفلاح أكبر قدر ممكن من الربح، فقد انصبَّ حقد الفلاح ... على الاقطاعي الكاثوليكي والمتعهِّد اليهوديّ معاً. لذلك عندما اشتعلت في العام 1648م انتفاضة القوزاق الرهيبة التي قادها خميلنيتسكي، راح ضحيتها اليهود والبولونيون على حدٍ سواء"، فهلك فيها عشرات آلاف اليهود.

"إنَّ اليهود الذين أغرتهم ثروات أوكرانيا الطبيعية، وكبار الاقطاعيين البولونيين فاستعمروا البلاد، شغلوا مكانة مرموقة في حياتها الاقتصادية ... لكنَّهم إذْ خدموا مصالح مالكي الأرض ومصالح الحكومة ... جرُّوا على أنفسهم بغض السكان". ويضيف ن. إ. كوستوماروف إلى هذا أنَّ اليهود "لم يتعهدوا الميادين الرئيسة في الاقتصاد الاقطاعي (البولوني) فحسب، بل فرضت الكنائس الأرثوذكسية بدورها رسوماً على معمودية الأطفال".

وبعد الانتفاضة، وبمقتضى الاتفاق البيلوتسركوفي (الكنيسة البيضاء) (في العام 1651م)، "أُعيد إلى اليهود حق العودة إلى أوكرانيا والإقامة في أيِّ مكان منها ... وكما في السابق كذلك الآن كان الجيديون ذوي أُفق ضيق

محدود، ومتعهدين في أملاك عطوفته الملكية وأملاك رجال الاقطاع، كما يجب أن يكونوا الآن أيضاً". "في القرن الثامن عشر كاد العمل في ميدان الخمور أن يكون العمل الرئيس الذي كان يمارسه اليهود". "وقد تسببت هذه الصناعة بكثير من الصدامات بين اليهودي والموجيك، هذا "الكادح" المستلب الذي كان يتردد على الخمارات بسبب فقره المدقع ومرارة عيشه وليس كفايته". كان من بين القيود المؤقتة التي فُرضت على يهود بولونيا بإلحاح من الكنيسة الكاثوليكية، منعهم من استخدام المسيحيين خدماً. لكن إذا كان قد أُخذ بهذا التحريم بالنسبة إلى البولونيين، فمن روسيا المجاورة كانت تتدفق على بولونيا أعداد كبيرة من الروس الفارين من التجنيد والإتاوات الحكومية، ولم تكن لهؤلاء أيُّ حقوق في بولونيا. وكان يمكن أن نسمع في مناقشات لجنة كاترين حول قوانين (1767 -1768م)، أنَّ في بولونيا "لدى كلِّ جيدي عدة خدم من الفارين الروس". لكن على الرَّغم من علاقاتها الاقتصادية المتشعبة مع الوسط المحيط، إلاَ أنَ اليهوديّة البولونية نجحت على مدى خمسة قرون من إقامتها هناك في أن تحمي نفسها تماماً من تسرب أيِّ تأثيرات خارجية إلى داخل أوساطها. ومضت قرون وقرون بعد التطوُر الذي عرفته أوروبا في القرون الوسطى، لكنَّ اليهوديّة البولونية بقيت كتلة مقفلة على ذاتها في تكوين غير عصري. ولم تكن كتلة مبعثرةً، بل تنظيماً بنيته الداخلية شديدة التماسك. (مهما قلنا في هذا السياق: إنَّ هذه الشروط، مع أنَّها بقيت هي نفسها في روسيا حتى أواسط القرن العشرين، إلاَّ أنَّها لم تكن منذ بداية الشتات اليهودي ملائمة بأيِّ حال من الأحوال للحفاظ على الوجود اليهودي دينيّاً وقوميّاً). فحياة اليهود كلّها كانت خاضعة لإدارة الكاغالات[1] المحلية التي انبثقت من رحم نمط الحياة اليهوديّة نفسه. وفي بولونيا كانت الكاغال وسيطاً بين اليهوديّة والسلطات من جهة،

---

(1) الكاغالات هي المشاعات اليهوديّة. ـ ح. إ.

والماغسترات (أي أمانة المدينة، البلدية. ـــح. إ.) من جهة أخرى، فقد كانت تجمع الضرائب للتاج، لذلك كانت السلطات تساندها. كما كانت الكاغال تجمع جبايات لتغطية الاحتياجات الاجتماعيّة اليهوديّة، وتضع قواعد لتنظيم العمل التجاري والحرفي وضبطه: كان شراء الملكية وإعادة شرائها، كما الالتزام أو الاستئجار، لا يُوثّق إلاّ بإذن من الكاغال. كما كان لشيوخ الكاغالية سلطات تجيز لهم معاقبة السكان اليهود. ولم تكن محاكمة اليهودي واليهودي تجري إلاّ في إطار منظومة الكاغال، ومن يخسر قضيته في المحكمة الدينية، لا يحق له أن يستأنفها أمام محاكم الدولة، وإلاّ أُنزل به عقاب الحرمان (=لعنة دينية وطرد من الطائفة). "لقد نجحت الصفوة الأُوليغارشية منذ وقت مبكر في خنق المبادئ الديمقراطية التي قامت عليها الكاغال ... "، لكنَ المؤرِخ الليبرالي يو. إ. غيسين يكتب قائلاً: إنّ "الكاغال نفسها كانت تتحول في أحيان كثيرة إلى عائق أمام تطوُر الشعب". "عملياً لم يكن للناس العاديين مكان في أجهزة الإدارة الذاتية للمجتمع. فشيوخ الكاغالات، والرابيون كانوا يحرسون سلطاتهم بحمية وغيرة .... وأبعدوا الكتلة الجماهيرية عن مواقعهم". "فالرابين كان يستخدم استقلاليته المطلقة في الفصل في المسائل الدينية، لكنَّه في المسائل الأخرى كان تابعاً للكاغال، التي استخدمته". ومن جهة أخرى "لم يكن لتعليمات الكاغال وقراراتها أيُّ فاعلية إنْ لم تحمل توقيع الرابين". "ولمّا لم يكن للكاغالات نفوذ في الأوساط الشعبية، فقد لجأوا إلى سلطة الحكومة للحفاظ على سيطرتهم هناك".

مع نهاية القرن السابع عشر، ثمَّ على امتداد القرن الثامن عشر كلِه عصفت ببولونيا فوضى داخلية دمَرت حياتها الاقتصادية وأطلقت أيدي الاقطاعيين ليتعسفوا من غير أي رادع كان. "وفي أثناء الاحتضار الروحي الذي استمرَ طويلاً في بولونيا ... ضرب الشحُّ اليهوديّة فأدقعت روحياً ومعنوياً وعمهت في الإهاب القروسطي، وتخلفت كثيراً عن أوروبا". وكتب غ. غريتس عن هذا

ما يلي: "لم يقدِّم اليهود على مدى تاريخهم كله مثل هذا المشهد الكئيب، الذي قدَّموه منذ أواخر القرن السابع عشر، حتى أواسط القرن الثامن عشر، فبدا الأمر كأنّ هذا كان معداً من قبل ليبدو صعودهم من الأعماق السفلى معجزة حقيقيّة. ففي السياق التراجيدي لمجرى القرون أُذلَّ الذين كانوا من قبل معلِمي أوروبا حتى بلغوا حالة الطفولة، وربما أدنى، إلى مستوى عته الشيوخ". "في القرن السادس عشر، تركزت زعامة العالم اليهودي بين يدي اليهوديّة الألمانيّة - البولونيّة ... ولتفادي ذوبان الشعب اليهودي في محيطه السكاني كان القادة الروحيّون اليهود قد أدخلوا في التعامل اليومي لليهود مع الآخرين إرشادات وتعليمات كان الغرض منها عزلهم عن التواصل الوثيق مع جيرانهم. فقد استخدم الرابينيون نفوذ التلمود وهيبته ... كبَّلوا الحياة الاجتماعية والحياة اليومية للفرد اليهودي بشبكة معقَّدة من التصورات والمعتقدات ذات الطابع الديني - الطقوسي أعاقت تقاربه مع الآخر غير اليهودي". لقد قُدمت الحاجات الواقعية والروحية "قرباناً لشكليات عيش الشعب التي كان قد أكل الدهر عليها وشرب"، "لقد تحوَّل الالتزام الأعمى بتأدية الطقوس والشعائر الدينية بالنسبة إلى الشعب اليهودي إلى ما يشبه غاية وجود اليهوديّة نفسه ... وواصلت الرابينية التي كانت قد تكلَست في إطار ميت لا روح فيه، عملها على تكبيل فكر الشعب وإرادته".

إنَ الحفاظ على وجود الشعب اليهودي في الشتات على مدى أكثر من ألفي عام أمر يثير الذهول والاحترام. لكنْ إذا أنعمنا النظر: في مراحل ما كالمرحلة البولونية - الروسيّة منذ القرن السادس عشر مثلاً، بل حتى أواسط القرن التاسع عشر، فإنّنا نرى أنَّ هذه الوحدة تحققت بأساليب الضغط الكاغالية، ولا نعرف حتى إذا كان ينبغي أن نحترم تلك الأساليب فقط لأنَّها انبثقت من التقاليد الدينية. على أيِ حال بالنسبة إلينا نحن الروس فإنَّ الحدَ الأدنى من مثل هذه الانعزالية يجعلنا نتحمَّل وزراً ثقيلاً.

فلدى دخول اليهوديّة تحت سلطة الدولة الروسيّة، بقي كلُّ هذا التنظيم الداخلي الذي كانت للتراتبية الكاغالية مصلحة في استمراره، ورافقه كلُّ ذلك السخط على التقاليد التلموديّة المتحجرة الذي كان قد تنامى في الأوساط اليهوديّة المتنوِرة، كما رأى يو. إ. غيسين: "لقد بذل ممثلو الطبقة التي كانت سائدة في اليهوديّة كل جهد ممكن لإقناع الحكومة الروسيّة بضرورة الحفاظ على مؤسسة القرون تلك، التي كانت تخدم مصالح السطات الروسيّة ومصالح الطبقة اليهوديّة الحاكمة"؛ "لقد كان تحالف الكاغال مع الرابينية يمتلك سلطة متينة، وفي غالب الأحيان كان ذلك التحالف يسيء استخدام تلك السلطة: كان ينهب موارد المجتمع، وينتهك حقوق الفقراء، ويتعسف في فرض الإتاوات، وينتقم من خصومه". في أواخر القرن الثامن عشر كتب حاكم إحدى المقاطعات الطرفية التي كانت ضُمَّت إلى روسيا في تقريره يقول: "إنَّ الرابين، والمحكمة الروحية والكاغال يرتبط بعضها مع بعض بأواصر وثيقة، وبين أيديهم القوة كلها، بل وجدان اليهود نفسه، يحكمونهم باستقلالية تامة عن أيٍّ سلطة زمنية".

حركة الحسديين

في القرن الثامن عشر ظهرت في يهودية أوروبا الشرقية وتطورت حركة دينية قويّة هي حركة الحسديين، كما ظهرت فيها من جهة أخرى حركة تنويرية غير دينية عُرفت باسم حركة موسى مندلسون، وقد بذلت الكاغالات كل ما استطاعت لخنق هؤلاء وأولئك. ففي العام 1781م أعلنت رابينية فيلنوس "حرمان" الحسديين، وفي العام 1784م أعلن مؤتمر الرابينيين الذي انعقد في موغيليوف، الحسديين "خارج القانون، وأعلن ملكيتهم دنسة. وفي إثر ذلك أحرقت الدهماء منازل الحسديين في عدد من المدن"، أي وقعت مذبحة يهودية يهودية. لقد لاحقوا الحسديين بوحشية وأساليب دنيئة لم تستثن منها حتى الوشايات السياسية الكاذبة بهم إلى السلطات الروسيّة. وفي العام 1799م ألقت السلطات الروسيّة بوشاية من الحسديين، القبض على أعضاء كاغال فيلنوس لاختلاسهم الجبايات التي جمعوها. لكنَّ الحسدية واصلت تمدُّدها في بعض المقاطعات وحققت فيها نجاحات مهمة. وأحرق الرابيون كتب الحسديين علانية على الملأ، أمَّا الحسديون فقد قدَّموا أنفسهم حماة الشعب من تعسف الكاغالات. "ونحن نعتقد أنَّ الصراع الديني حجب عندئذٍ مسائل الحياة اليهوديّة الأخرى".

لقد شكَّلت بيلوروسيا التي ضُمت إلى روسيا في العام 1772م.، مقاطعتي بولوتسكايا (فيما بعد فيتيبسكايا)، وموغيلوفسكايا. وقد جاء في النداء الذي وُجه إليهما باسم كاترين أنَّ سكان تلك الأطراف "كائناً ما كان نوعهم واسمهم، لهم منذ اليوم الحقُّ في اعتناق أيِّ دين يريدون، وامتلاك أيِّ نوع من

الملكية"، وسوف يُكافؤون "بكل الحقوق والحريات والامتيازات التي يتمتع بها رعاياها القدماء". على هذا النحو تساوى اليهود في الحقوق مع المسيحيين، وهذا ما لم يكن لهم في بولونيا. وأُضيف إلى هذا عن اليهود على وجه الخصوص، أنَّ مجتمعاتهم "ستبقى ويُحافظ عليها مع الحريات التي تتمتع بها الآن كلّها ..."، أي لم يُنتزع شيء حتى من اليهود البولونيين. والحقيقة أنَّ هذا كان يعني في الوقت نفسه الحفاظ على السلطة التي كانت للكاغالات من قبل، وبقي اليهود بتنظيمهم الكاغالي معزولين عن باقي السكان، ولم ينخرطوا بعد في فئة التجار - الصناعيين ذات الصلة بالأعمال الأساسية التي كانوا يمارسونها.

فئة المشَّان في روسيا

في الآونة الأولى كانت كاترين تحاذر ردَّ الفعل العدائي من جانب الارستقراطيا البولونية التي كانت قد غضَّت الطرف عن الحكم، كما كانت تخشى نشوء انطباع سيء لدى رعاياها الأرثوذكس. لكنَّها كانت متعاطفة مع اليهود، وكانت تنتظر منهم منفعة اقتصادية للبلاد، لذلك أعدَّت لهم حقوقاً كبيرة. ومنذ العام 1778م كان إقليم بيلوروسيا قد خضع لأحكام المرسوم الروسي العام الذي كان قد صدر منذ وقت قريب: منذ الآن يؤلِّف الذين يملكون رأسمالاً يصل حتى 500 روبل فئة المشَّان، أمَّا من يملكون أكثر من ذلك فيؤلِفون فئة التجار وينقسمون إلى ثلاث طوائف حرفية بحسب درجة الملكية، ويُعفى هؤلاء من ضريبة النفس، لكنَّ عليهم أن يؤدوا 1% من الرأسمال الذي "يصرِحون به كلٌّ على ذمته".

كانت لهذا المرسوم أهمية كبيرة: لقد دمَّر عزلة اليهود القومية التي كانت لا تزال قائمة حتى تاريخه (وهذا ما كانت تسعى إليه كاترين). كما زعزع الموقف البولوني التقليدي من اليهود بصفتهم عنصراً خارج الدولة. وزعزع كذلك أسس التنظيم الكاغالي، وسلطة الكاغال التعسفية. "منذ اللحظة المشار إليها تبدأ عملية دمج اليهود في بنية الدولة الروسيّة ... وقد استغلّ اليهود على أكمل وجه حقَّ الانتماء إلى فئة التجار". فأُعلن على سبيل المثال أنَّ نسبة التجار شكَّلت بين يهود مقاطعة موغيليوف 10% (بينما لم تشكِّل بين السكان المسيحيين سوى 5%5. فقط). وأُعفي التجار اليهود الآن من تأدية الإتاوات للكاغالات، ولم يعودا مرغمين كما كانت عليه الحال من قبل، على

استئذانها إذا أرادوا أن يغيبوا عن المكان: باتت علاقتهم الآن مع موظف عام ووفق أسس عامة. (في العام 1780م عندما زارت كاترين موغيليوف وشيكلوف استقبلها يهود المقاطعتين بقصائد المدح وهتافات التعظيم). ومع ابتعاد اليهود - التجار اندثر أيضاً فصل من فصول دولة "اليهود". كما كان على باقي اليهود أن يلتحقوا بفئة ما من الفئات، وكان واضحاً أنَّها فئة المشان. لكنَّ عدد الراغبين في الانتقال كان قليلاً في بادئ الأمر، لأنّ جباية ضريبة النفس السنوية من المشان كانت عندئذٍ 60 كوبيكاً، بينما من اليهود 50 كوبيكاً. بيد أنَّه لم تبق لهم طريق أخرى. ومنذ العام 1783م حتى المشان اليهود مثلهم كمثل التجار اليهود، باتوا ملزمين بتأدية مساهمات تحددها معايير عامة، لكنْ ليس للكاغال بل لأمانة المدينة التي كانت وحدها المخوَّلة حق منح جواز السفر. وقد رسَّخ الوضع العام الجديد الذي حظيت به المدن في العام 1785م.، أسس هذه الحركة، فبات يُنظر إليها الآن على أنَّها مجرَّد فئة وليست قومية. ووفق هذه الحالة الجديدة نال المشان كلهم (وهذا يعني اليهود كلهم) حق المشاركة في الإدارة الذاتية الفئوية المحلية، وشغل مناصب اجتماعية. "وفي ظروف ذلك الزمن كان هذا يعني أنَّ اليهود باتوا الآن مواطنين متساويين في الحقوق ... فدخولهم فئة التجار أو فئة المشان كأعضاء لهم كامل الحقوق، كان حدثاً له أهمية اجتماعية كبيرة"، لأنَّه كان ينبغي أن يجعل من اليهود "قوة اجتماعية لا يمكن ألاَّ يُحسب لها حساب، بالتالي رفع من معنوياتهم". وقد مهّد هذا عملياً سبيل حماية مصالحهم الحيوية. "ففي ذلك الوقت كانت الطبقة التجاريّة - الصناعية مثلها كمثل المجتمعات المدينية، تحظى بإدارة ذاتية صلاحياتها واسعة ... وعلى هذا النحو أضحت بين أيدي اليهود على قدم المساواة مع المسيحيين، سلطة إدارية وقضائية معيَّنة، وبفضل ذلك اكتسب السكان اليهود قوة وأهمية في حياة المجتمع والدولة". فقد بات اليهود يشغلون الآن مناصب مثل رئيس البلدية، وعضو المجلس البلدي، والقاضي. وفي بادئ الأمر اتُخذت في المدن الكبرى إجراءات تحدُّ

من تقدُّم اليهود في المناصب العامة: كي لا تتجاوز أعداد اليهود في المناصب الانتخابية أعداد المسيحيين. لكنْ في العام 1786م.، "أرسلت كاترين إلى الحاكم العام البيلوروسي أمراً يحمل توقيعها هي شخصياً" قضى بأن تكون حقوق اليهود "في الإدارة الذاتية الفئوية ... موضع تنفيذ فوري ومن غير أيّ تأخير، وسيلاحق قضائياً كل من يعرقل تفعيلها".

إذن لقد نال يهود روسيا المساواة في حقوق المواطنة قبل أن ينالها أبناء جلدتهم في بولونيا وفرنسا وألمانيا. (في عهد فريدريك الثاني تعرَّض اليهود لملاحقات قاسية جداً). وما له أهمية استثنائية أيضاً هو أنَّ يهود روسيا نالوا منذ البداية تلك الحريّة الشخصيّة التي لم ينلها الفلاحون الروس أنفسهم إلاَّ بعد ثمانين عاماً. والمفارقة هي أنَّ اليهود نالوا حريّة أكبر من تلك التي كانت للتجار المشان الروس أنفسهم: كان على هؤلاء أن يقيموا بالضرورة في المدن، بينما كان يمكن للسكان اليهود أن يقيموا في القرى والبلدات ويمارسوا هناك صناعة الخمور. "وعلى الرغم من أنَّ جماعات كبيرة من اليهود لم تكن تقيم في المدن فقط بل في القرى والبلدات، إلاَّ أنَّ سجلاتهم كانت في مجتمعات المدن ... أُدرجوا في فئات المشان والتجار". "وبحسب طبيعة أعمالهم أدى هؤلاء الذين كانوا محاطين بفلاحين تابعين، دوراً اقتصادياً مهمَّاً – احتكروا التجارة في الريف، فكانوا يتعهّدون مختلف ضروب الواردات والجبايات الاقطاعية، وبيع الفودكا للمؤسسات الصغيرة" – وعلى هذا النحو "ساهموا في انتشار الإدمان على الكحول". فقد أشارت الإدارة البيلوروسية إلى أنَّ "وجود اليهود في القرى ينعكس أذى على الوضع الاقتصادي والمعنوي للفلاحين، لأنَّ اليهود ... ينشرون الإدمان في أوساط السكان المحليين". "وقد أشارت الإدارة في تقاريرها إلى أنَّ اليهود يبيعون الفودكا للفلاحين بالدَّيْن، ويرهنون أشياءهم ضماناً لسداد ثمنها، ويدفعونهم إلى الإدمان، والبطالة والفقر". لكنَّ "صناعة الخمور كانت مصدراً مغرياً لمداخيل" الاقطاعيين البولونيين والوسطاء اليهود.

غنيٌّ عن البيان القول: إنَّ الحقوق المدنية التي نالها اليهود كانت تحمل في طياتها خطراً من نوع آخر: من الواضح أنّه كان ينبغي على اليهود أن يخضعوا بدورهم للقاعدة العامة ويوقفوا صناعة الخمور في القرى ويغادروها. ففي العام 1783م أُعلن أنَّ "القاعدة المباشرة تفرض على كلّ مواطن أن يحدّد لنفسه الانتماء إلى التجارة أم الحرفة، ويختار الوضع اللائق به، أمَّا تقطير الخمور فهو صناعة لا تليق به"، وإذا عهد الاقطاعي ... "إلى التاجر، والمتموّل الصغير أو الجيدي بتقطير الفودكا في القرية، فسوف يُعَدُّ خارجاً على القانون". وها هم "أخذوا يطردون اليهود من القرى والبلدات إلى المدن ليمنعوهم من ممارسة مهن مارسوها قروناً تعهّد مصانع تقطير الخمور والخمّارات". لكنَّ اليهود لم يروا في خطر طردهم عن بكرة أبيهم من القرى إجراء حكومياً متماثلاً، بل إجراء خاصّاً موجهاً ضدهم كجماعة قوميّة دينيّة. وبعد أن حُرم المشَان اليهود من تلك الصناعة المريحة في المناطق الريفية وسيقوا إلى المدن، وجدوا أنفسهم في خضم منافسة قاسية في المدينة على وجه العموم، كما في داخل الأوساط اليهوديّة نفسها. فظهرت بين اليهود حالة توتّر شديد، - وفي العام 1784م جاء إلى بطرسبورغ وفد من الكاغالات ليلتمس إلغاء هذه الإجراءات. (في الوقت نفسه عولّت الكاغالات على مساعدة الحكومة لاستعادة كامل سلطتها على السكان اليهود). لكنَّ إجابة الامبراطورة كانت على النحو الآتي: "بما أنَّ اليهود الذين أشار إليهم القانون اليهودي ... نالوا المساواة مع الآخرين، فإنّه ينبغي في الأحوال كلها مراعاة الالتزام بالقواعد والمعايير، وصاحبة العظمة كانت قد أقرَّت أنَّ كلاً بحسب رتبته ووضعه يجب أن يستفيد من المنافع والحقوق من غير تفريق في الشريعة والعرق".

بيد أنّه كان ينبغي أن تؤخذ بعين الحسبان مصالح الإقطاعيين البولونيين الذين تراصُّوا في حلف قوي لم يكن بالإمكان ألاّ يُحسب له حساب. ومع أنَّ إدارة إقليم بيلوروسيا كانت قد منعتهم في العام 1783م من بيع حقّ تعهّد تقطير الخمور أو استثماره "لأشخاص لا يحق لهم ذلك، خاصة الجيديين" ... إلاّ أنَّ الاقطاعيين واصلوا بيع حقّ صناعة الخمور لليهود. لقد كان ذلك من حقّهم"، إنّه

إرث القرون الراسخ في الأنظمة البولونية". ولم يجرؤ السينات على إرغام الاقطاعيين. وفي العام 1786م ألغى قرار ترحيل اليهود إلى المدن. ولتحقيق ذلك ابتُكرت المساومة الآتية: فليُعدَّ اليهود مرحَّلين إلى المدن، وليبق لهم حق البقاء مؤقتاً في القرى. أي فليبقوا مقيمين في القرى، كلٌّ في القرية المقيم فيها. وعلى هذا النحو يكون قرار السينات في العام 1786م قد سمح لليهود بالعيش في القرى، "وأُجاز لهم أن يشتروا من الاقطاعيين حقّ إنتاج الخمور وبيعها، وفي الوقت نفسه لم يُمنح مثل هذا الحقّ للتجار والمشَان المسيحيين". كما لم تُمْنَ مساعي وفد الكاغالات في بطرسبورغ بالفشل. فهو لم يحصل على حقِ تأسيس محاكم يهوديّة مستقلَة تفصل في النزاعات بين اليهود، كما كان قد طلب، ولكنْ أُعيد للكاغالات (في العام 1786م) قسم مهم من الحقوق الإدارية والرقابة على الاستثمارات اليهوديّة الصغيرة، أي على أكثرية السكان اليهود: تحديد الإتاوات الاجتماعية، جباية ضريبة النفس، إعادة النظر من جديد في الغياب عن المشاعة. إذن لقد رأت الحكومة أنَّ مصلحتها تكمن عملياً في ألاَّ تُضعف سلطة الكاغال. وعلى وجه العموم لم تكن للفئة التجارية - الصناعية (أي التجار والمشَان) حرية التنقل، بل كانت مقيّدة بمكان قيدها (كي لا يتسبب انتقالها بتقليص واردات مجتمعاتها المدينية). لكنَّ السينات أصدر في العام 1782م استثناء خاصاً ببيلوروسيا قضى بمنح التجار حرية الانتقال من مدينة إلى أخرى "وفق ضرورات تجارتهم". ومرة أخرى منح هذا النظام التجار اليهود امتيازات جديدة.

بيد أنَّهم أخذوا يستخدمون تلك الحقوق على نطاق أوسع فأوسع مما كان تحدَّد: "أخذ التجار اليهود ينقلون قيودهم إلى موسكو وسمولينسك". "وراح اليهود يستقرون في موسكو مباشرة بعد أن ضُمَّ إقليم بيلوروسيا في العام 1772م ... وعند أواخر القرن الثامن عشر كان عدد اليهود في موسكو قد بلغ أرقاماً عالية ... وأدار بعض اليهود الذين انتموا إلى فئة التجار المحليين تجارة كبيرة... أمَّا اليهود الآخرون، فقد كانوا يبيعون البضائع الأجنبية في منازلهم، أو في الخانات والنُزل، كما كانوا يجوبون على المنازل ويبيعونها بالمفرَّق، وهو ما كان ممنوعاً

في تلك الآونة". في العام 1790م "أصدرت جمعية التجار الموسكوفيين قراراً " جاء فيه: إنَّ "عدداً غير قليل من الجيديين ظهروا في موسكو آتين من الخارج ومن بيلوروسيا، ومنهم من يسجل قيوده في سجل قيود تجار موسكو مباشرة، ويلجأ هؤلاء إلى أساليب ممنوعة في العمل التجاري، فيتسببون للتجارة "بكثير من الأذى الملموس، ويدلُّ تدني أسعار بضائعهم على أنَّهم مهرِّبون، وفضلاً عن ذلك من المعروف أن اليهود يبيِّضون الأموال؛ وقد يفعلون الأشياء نفسها في موسكو". ورداً على "نواياهم الخبيثة" طالب تجار موسكو بطرد اليهود منها. فتقدم التجار اليهود من جانبهم بشكوى إلى الجهات العليا ادَّعوا فيها "... أنَّ جمعيات التجار في سمولينسك وموسكو لا تقبلهم أعضاء فيها".

فنظر "مجلس الامبراطورة" في الشكويين. وتوصل بناء على القاعدة القانونية الروسيّة العامة إلى خلاصة مفادها أنَّه لا يحق لليهود "أن يسجِّلوا أسماءهم في المدن والموانئ التجارية الروسيّة"، بل في بيلوروسيا فقط. وأنَّه "لا يرى أيَّ جدوى إطلاقاً من السماح لليهود بدخول موسكو". وفي كانون الأول من العام 1791م صدرت إرادة عليا قضت بمنع اليهود من التسجيل في فئة تجار المقاطعات الداخلية، وسمحت لهم بالمجيء إلى موسكو لفترات محدّدة ينجزون في خلالها أعمالهم التجارية. وأجاز المرسوم لليهود ممارسة نشاطاتهم التجاريّة والاستثمارية في بيلوروسيا فقط. لكنَّ كاترين أضافت في غضون ذلك تسهيلات معينة: منح اليهود حقّ الإقامة والاستثمار في نوفوروسيا – إيالة يكاتيرينوسلافسك ومنطقة تافري (سرعان ما غدت هذه تشكِّل مقاطعات: يكاتيرينوسلافسك، وتافري، وكرسونيس)، أي أنَّها فتحت بهذا أمام اليهود مقاطعات جديدة شاسعة كان محرماً بموجب القانون الروسي على التجار والمشّان المسيحيين الانتقال من المقاطعات الداخلية والإقامة فيها. (في العام 1796م "شاع أنَّ جماعات من اليهود قد استقرت في ... مقاطعات كييف، وتشيرنيكوف، ونوفغورود - الشمالية، ففي تلك المقاطعات كان قد سُمح لليهود أن "يمارسوا التجارة والاستثمار".

لقد جاء في الموسوعة اليهوديّة التي صدرت قبل الثورة، أنَّ مرسوم العام 1791م "وضع بداية معالم نمط العيش المستقر، مع أنَّ الأمر لم يكن عن سابق قصد". ففي شروط ذلك النظام الاجتماعي - السياسي على وجه العموم، والحياة التي كان يعيشها اليهود على وجه الخصوص، لم يكن بمقدور الحكومة أن تضغط على اليهود بشكل خاصّ، وتسنَّ قوانين استثنائية خاصّة بهم، بمعنى تحديد حقوق إقامتهم. فوفق معطيات تلك الأزمنة لم يتضمّن المرسوم المعني أيَّ شيء له علاقة بحقوق الإقامة كان يمكن أن يضع اليهود في وضع أقل ملاءمة بالمقارنة مع المسيحيين ... فمرسوم العام 1791م لم يفرض أيَّ قيود على حقّ اليهود في موضوع الإقامة، ولم يضع "حدوداً" خاصة، بل "أُتيحت لليهود أقاليم جديدة كان القانون يمنع الاستيطان فيها"؛ "في مرسوم العام 1791م لم يكن اليهود مركز الثقل بل التجار؛ فالمسألة لم تُعالج من الجانب القومي أو الديني، بل من الجانب النفعي حصراً". كان هذا المرسوم أفضل بالنسبة إلى التجار اليهود منه إلى التجار المسيحيين، ومع الزمن تحوَّل إلى أساس لحدود "إقليم الاستيطان اليهوديّ" التي كانت ترخي بثقلها على الوجود اليهوديّ في روسيا حتى لحظة قيام الثورة تقريباً. لكنَّ مرسوم العام 1791م لم يعرقل في حينه "نشوء مستوطنة يهوديّة صغيرة في سانت - بطرسبورغ عند أواخر عهد كاترين الثانية": "المتعهد اليهودي الشهير ابراهام بيريتس"، ومعه عدد من التجار المقربين منه، "في زمن تفاقم الصراع الديني كان يقيم هناك أيضاً الرابين أفيغدور حاييموفيتش وخصمه الحسديُّ المعروف زالمان بوروخوفيتش". في العامين 1793 و1795م جرى ضمّ الشطرين الثاني والثالث من بولونيا، فدخل قوام روسيا ما يُقارب المليون يهودي ليتواني وبودولي وفوليني. كان ذلك الدخول في المستوعب الروسي أعظم حدث تاريخيّ سوف يكون له غير مرة تأثير كبير على مصير روسيا ومصير يهوديّة أوروبا الشرقية كلِّها. فها هي تجتمع الآن تحت سقف واحد وفي مشاعة واحدة، بعد قرون من التبعثر والتيه".

اليهود في عهد القيصر بافل

في الإقليم اليهودي الذي تمدّد الآن على نطاق واسع، طُرحت تلك الأسئلة نفسها. لقد نال اليهود حقوق التجار والمشّان التي لم تكن لهم في بولونيا، فبات من حقّهم أن يشاركوا على قدم المساواة في أجهزة الإدارة الذاتية المدينية الفئوية، ولكن كان عليهم في هذه الحال أن يقاسموا تلك الفئات القيود المفروضة عليها: عدم الانتقال للإقامة في المقاطعات الروسيّة الداخليّة، والخروج من القرى؟ في ظلِ وجود تلك الأعداد المهوّلة من السكان اليهود لم يعد بإمكان الإدارة الروسيّة الآن أن تخفي إبقاء اليهود في القرى تحت غطاء حق "الزيارة المؤقّتة". "فكانت المسألة الملحة ... هي أنّ الوضع الاقتصادي لم يقبل إقامة أعداد كبيرة من التجار والصناعيين بين الفلاحين". وللتخفيف من حدة المسألة جرت مساواة كثير من البلدات الصغيرة بالمدن، الأمر الذي منح اليهود إمكانيّة علنيّة للعيش هناك رسمياً. بيد أنّ كثرة أعداد السكان اليهود في الأرياف، والكثافة السكانية في المدن لم تجعل من تلك المحاولة حلاً. فقد بدا لليهود أنّه من الطبيعي أن يستوطنوا الآن تلك المساحات الشاسعة القليلة السكان من نوفوروسيا التي كانت كاترين قد أتاحتها لهم؟ كما مُنح المستوطنون الجدد امتيازات. لكنّ تلك الامتيازات "لم تكن مؤهلة لإطلاق حركة استيطانية في الأوساط اليهوديّة. فلم يكن إعفاء المستوطنين من الإتاوات إغراء" يدفع إلى النزوح. عندئذٍ عزمت كاترين في العام 1794م على أن تدفع باليهود إلى النزوح عبر إجراءات معاكسة: البدء بتهجير اليهود من القرى إلى المدن. وقرّرت في الأثناء أن تفرض على السكان اليهود إتاوة تساوي ضعف ما كان يؤديه المسيحيون. (كان المسيحيون من أتباع الطقوس

القديمة يؤدون مثل هذه الإتاوة منذ زمن بعيد؛ لكنَّها بالنسبة لليهود لم تكن ذات فاعلية ولم تستمر طويلاً). تلك كانت بعض الإجراءات الأخيرة التي اتخذتها كاترين. ومنذ أواخر العام 1796م استوى بافل الأول على العرش. وقد خلصت الموسوعة اليهوديّة إلى القول عنه: "لقد كان حكم بافل الأول الساخط ملائماً بالنسبة لليهود ... فمراسيمه بخصوص اليهود كانت كلُها تدلّ على أن القيصر كان متسامحاً ومتعاطفاً مع السكان اليهود"؛ "وعندما كانت مصالح اليهود والمسيحيين تتناقض لم يكن بافل الأول يأخذ المسيحيين تحت حمايته ويقف ضدّ اليهود". وإذا كان قد أمر في العام 1797م "باتخاذ إجراءات للحدّ من سلطة اليهود ورجال الدين على الفلاحين " فإنَّ ذلك "لم يكن موجهاً من حيث الجوهر ضد اليهود، إنَّما كان موجهاً لحماية الفلاحين". وقد "أقرَّ بافل للحسديّة بحق الوجود العلني". كما سحب حق اليهود التجار والمشّان على مقاطعة كورليلاند (سكانها من غير البولونيين ولم تدخل فيما بعد "حدود منطقة الاستيطان"). ورفض مراراً وتكراراً مساعي الطوائف المسيحيّة في كوفنا وكامنيس - بودولسك وكييف وفيلنا ("لقد تُركت لليهود حريّة التفوّق على المسيحيين") لطرد اليهود من مدنهم.

كان بافل قد ورث تركة ثقيلة تمثّلت في مقاومة الاقطاعيين البولونيين لأيِّ تغيير في حقوقهم، بما في ذلك حقوقهم على اليهود وحقّ محاكمتهم الذي كان لهم في بولونيا حيث استخدموه بتعسُف لا حدود له. فقد جاء في شكوى يهود بيرديتشيف ضدَّ الأمير رادزيفيل: "لكي نقيم شعائرنا الدينية علينا أن نؤدي إتاوة لمن يبيع الأمير له حق تعهُّد ديننا"؛ وعن صفيٍّ كاترين سابقاً أنَّه "لم يترك شيئاً لم يفرض عليه جبايات سوى الهواء". (في ظلِ التبعية لبولونيا كانت البلدات والمدن الأخرى مملوكة، وكان المالك يفرض على السكان جبايات إضافية تعسفية).

مهمة ديرجافين

في السنوات الأولى من عهد بافل على العرش، اجتاحت بيلوروسيا مجاعة كانت وطأتها شديدة على مقاطعة مينسك خاصة. ففوّض السناتور غافريل رومانوفيتش ديرجافين بزيارة المكان والاطلاع على أسباب المجاعة والتخلّص منها، ولم تُصرف له في غضون ذلك أيُّ موارد لشراء الخبز، بل مُنح حقّ مصادرة أملاك الاقطاعيين المهملين واستخدام احتياطاتهم لتوزيعها على المحتاجين. ولم يكن ديرجافين شاعرنا الفذَّ فحسب، بل كان رجل دولة من الطراز الأول أيضاً، وقد ترك شواهد فريدة بسطها بوضوح وجلاء. فلنتصفّحها. لقد ظهر أن المجاعة التي كشف ديرجافين الغطاء عنها كانت قد تفاقمت كثيراً. فكتب يقول: "عندما وصلت إلى بيلوروسيا اكتشفت بنفسي أنّ نقص الخبز لدى سكان الأرياف عظيم ... ووجدت مجاعة رهيبة، كان كلهم تقريباً يقتات بالأعشاب المخلوطة بكمية ضئيلة من الدقيق أو الجريش"؛ الفلاحون "عجاف شاحبون كالأموات". "ولتفادي ذلك عثرت لدى المالكين الأثرياء على مخازن من القمح"، فأخذته بالدَّين ووزعته على الفقراء، وأمرت بالحجز على أملاك أحد الاقطاعيين البولونيين المحتكرين. "ولمّا أخذ الاقطاعيون علماً بهذه الصرامة استيقظوا من غفلتهم، بل بمعنى أدق من استهتارهم بآلام البشر ولا مبالاتهم تجاهها: لجأوا إلى شتى الوسائل لإطعام الفلاحين، وجاؤوا بالأقماح من المقاطعات المجاورة. وبعد حوالي الشهرين آن أوان الحصاد فتراجعت المجاعة". وفي خلال جولته على المقاطعات دبَّ ديرجافين الذُعر في قلوب المسؤولين ورؤساء وحدات الشرطة، فنظّم الاقطاعيون "ضده مؤامرة أو إضرابا وأرسلوا افتراء عليه إلى الامبراطور".

لقد اكتشف ديرجافين أنَّ تجار الخمر اليهود استغلوا إدمان الفلاحين على الكحول: "كما رأى أنَّ الجيديين، انطلاقاً من جشعهم، كانوا يسلبون الفلاحين أقماحهم بولائم السُّكر، ويحوِلونها إلى خمر وبذلك يجوِعونهم، فأمر بإغلاق معامل تقطير الخمور التي أقاموها في قرية ليوزنو". وفي الوقت نفسه "جمع ديرجافين معلومات استقاها من أكثر السذج عقلانيّة" ومن النبلاء والتجار وسكان الأرياف "عن نمط عيش الجيديين، والمهن التي يعملون فيها، والخدع التي يلجؤون إليها وكل ألاعيبهم وحيلهم التي يستخدمونها لتجويع الفلاحين الفقراء الأغبياء، وماهي الأساليب التي يمكن اتباعها لحماية العامة من شرورهم وضمان وسائل عيش كريمة لهم ... تحويلهم إلى مواطنين ذوي نفع". كان ديرجافين قد وصف في أشهر الربيع التي تلت، كثيراً من التصرفات التعسفية التي أتاها الاقطاعيون البولونيون والمتعهدون اليهود وضمَّنها تقريره: "وجهة نظر حول تفادي المجاعة في بيلوروسيا وتنظيم واقع اليهود"، الذي رفعه إلى الامبراطور وكبار رجال الدولة. وقد جاءت "وجهة نظره" هذه شاملة استوعبت تقويم النظم الموروثة عن بولونيا والأساليب الممكنة لتخليص الفلاحين من فقرهم، كما تضمَّنت عرضاً لسمات الواقع اليهودي في ذلك الحين ومشروعاً لإصلاحه مع الأخذ بالحسبان محاكاة ما كان قائماً في بروسيا وتسيساريا (أي النمسا)، إضافة إلى دراسةٍ عملية دقيقة لكل الإجراءات المقترحة، وتثير "وجهة النظر" تلك اهتماماً خاصّاً بصفتها أول شهادة لرجل دولة روسي متنورٍ عن واقع حياة اليهود في روسيا، في تلك السنين المبكرة عندما كانت روسيا قد أدخلت لتوِّها اليهود في الكتلة السكانيّة. وتتألَف "وجهة نظر" ديرجافين من قسمين: تناول القسم الأول منها شؤون سكان بيلوروسيا على وجه العموم (لم تأت ردود الأفعال على "وجهة نظر" ديرجافين على ذكر هذا القسم الجوهري)، وكُرِّس القسم الثاني للحديث عن اليهود فقط.

لقد بدأ ديرجافين من الحالة المزرية التي كانت عليها الزراعة في بيلوروسيا. فالفلاحون المحليون "كسالى خاملون متقاعسون عن إنجاز أعمالهم، لا يتقنون أي صنعة، ويهملون أعمالهم الزراعية. ومن عام لعام يأكلون القمح من غير تذرية، في الربيع يأكلون خليطاً من الدقيق الممزوج بالماء، وفي الصيف "يكتفون بخليط من نوع ما من الجودار والأعشاب المطبوخة ... هكذا يعيشون في فقر مدقع ويلهثون دائماً وراء الحاجة". أمّا الاقطاعيون البولونيون المحليون "فلا يكترثون ... ولا يديرون أملاكهم بأنفسهم، بل عبر المتعهدين"، وهو العرف البولوني المعمول به، وليس للتأجير "معايير عامة يمكن أن تحمي الفلاحين من الأعباء المرهقة، أو الاستثمارات من الانهيار"، و"كثير من المتعهدين الجشعين ... يستهلكون الفلاحين بالأعمال المضنية والضرائب المرهقة، فيدفعون بهم إلى قاع الفقر وآفات الأمراض"، وما يزيد الطين بلّة أنَّ مدّة التعهد قصيرة: من عام واحد حتى الثلاثة أعوام، لذلك يسرع المتعهد إلى استخلاص أرباحه من غير أن يعير أيَّ اهتمام لإنهاك الأرض". ومن أساليب إنهاك الفلاحين أيضاً أنَّ بعض الاقطاعيين "كانوا يبيعون للجيديين حقّ بيع الخمور في القرى التابعة لهم، ويعقدون معهم اتفاقات تقضي بألاّ يشتري فلاحوهم أيّ شيء من حاجاتهم، وألاّ يقترضوا أيَّ قروض من أيٍّ كان، إلاّ من هؤلاء المتعهدين حصراً [بثلاثة أضعاف الثمن]، وألاّ يبيعوا أيَّ منتج من منتجاتهم إلاّ لهؤلاء المتعهدين الجيديين أنفسهم ... بأسعار أقل من الأسعار الحقيقيّة". وعلى هذا النحو كانوا "يدفعون بسكان الأرياف إلى براثن الفقر، خاصة لدى استرجاع القمح الذي كانوا قد اقترضوه ... كان عليهم أن يعيدوا ضعف الكميّة؛ ومن منهم يتأخر يُعاقب ... لقد سلبوا سكان الأرياف وسائل الاكتفاء والشبع كلها"

بعد ذلك حقّقت صناعة الخمور تطوّراً كبيراً، فقد بات أصحاب الأملاك يقطّرونها، وكذلك النبلاء، والكهنة، والرهبان، والجيديون. (من مجموع السكان اليهود الذي كان يقارب المليون، كان يعيش في القرى مئتان إلى ثلاث

مئة ألف نسمة، وكان العمل الأساس لهؤلاء هو تجارة الخمور). أمَّا الفلاحون "فمع جني المحاصيل كانوا ينفقون بلا حساب؛ يشربون ويأكلون ويلهون ويمرحون ويؤدّون للجيديين الديون السابقة، وموائد الخمرة مطلبهم الوحيد؛ لهذا السبب كانوا يقعون شتاء فريسة العوز ... لقد كان أصحاب الأملاك يبنون في كل قرية حانة، بل في بعضها أكثر من حانة واحدة تباع فيها خمورهم وخمور المتعهدين الجيديين في النهار والليل ... وفيها لم يكتف الجيديون بابتزاز خبز الفلاح اليومي بل كانوا يبتزون منه القمح الذي بذروه في الأرض أيضاً، ويسلبونه أدوات العمل الزراعي، وملكيّته ووقته وصحته وحياته نفسها". كان تقليد الكوليادا (احتفالات الميلاد ورأس السنة. ــ ح. إ.) يزيد الطين بلّة. "كان الجيديون يجوبون القرى، لا سيما في فصل الخريف وقت جني المحاصيل، فيُسكرون الفلاحين وأفراد عائلاتهم كلهم ويجبون منهم ديونهم، ويستولون على آخر لقمة منهم"؛ "فيزيدون الحساب على المخمورين ويسلبونهم كل شيء، وبذلك يغرقونهم في فقر مدقع". ثمَّ يعدّد ديرجافين أسباباً أخرى لحالة الشح التي يعاني منها الفلاحون.

ولا ريب في أنَّ الاقطاعيّين البولونيّين هم الذين كانوا يقفون خلف صناعة الخمور المهلكة هذه: كان الخمَّارون والمتعهدون ينفّذون تعليمات الاقطاعيين لتحقيق أطماعهم؛ وكما يؤكّد غيسين، "لم يكن هؤلاء من اليهود فقط، بل كان بينهم مسيحيون أيضاً"، خاصة رجال الدين. لكنَّ اليهود باتوا حلقة حاذقة لا بديل عنها في استغلال الفلاحين المنهكين الجهلة المحرومين من الحقوق كلها. ولو لم تُرفد القرى البيلوروسية باليهود - الخمَّارين واليهود - المتعهدين، لما أمكن ضبط منظومة الابتزاز الواسعة تلك، لذلك كان إخراج اليهود منها ينذر بانهيارها. ثم اقترح ديرجافين بعد ذلك إجراءات سريعة وفعالة لاستئصال تلك العيوب التي تفسد حياة الفلاحين. كان على الاقطاعيين أنفسهم أن يهتموا بإصلاحها. فهم وحدهم المسؤولون عن الفلاحين والقادرون على حل مسألة تقطير

الخمور "تحت رقابتهم المباشرة وليس في أي أماكن أخرى نائية، وعليهم الالتزام بأن "يترك الاقطاعي لديه ولدى فلاحيه في كل عام احتياطياً من القمح" يكفي لسد الحاجات الغذائية. "ومن يمتنع عن تنفيذ هذا، يعرِّض أملاكه لخطر حجزها لصالح الخزينة" –كان ينبغي ألاّ تفتح الخمارات أبوابها قبل منتصف شهر أيلول، ثمَّ تغلقها في أواسط شهر نيسان، أي يُمنع تناول الخمور طول فصل الأعمال الزراعية. كما يُمنع بيع الخمور في أثناء إقامة الشعائر الدينية وفي الليالي. ولا يُسمح بإدارة الحانات إلاّ "على الطرقات الخارجيّة، وفي المعارض، وعند الطواحين، والمراسي حيث يتجمَّع الناس عادة". أمَّا الحانات الزائدة المبنية من جديد في غير الأماكن المذكورة، فيستملكها الإقليم [بيلوروسيا]، وهي الآن كثيرة جداً، -"ويدمِرها في الحال، ويمنع بيع الخمور فيها". "في القرى والأماكن النائية الخالية يحرَّم وجودها تحريماً قطعياً، كي لا ينتشر الإدمان بين الفلاحين". أمَّا اليهود "فيُمنع عليهم بيع الخمور بالدّلاء أو إنتاج أقداح الخمرة، أو العمل في معامل تقطير الخمور ..."، كما يمنع عليهم استثمار الحانات. وتُمنع أيضاً احتفالات أعياد الميلاد ورأس السنة، وتأجير الأملاك لفترة زمنية قصيرة، وإبرام عقود دقيقة "تردع [المتعهد] عن تدمير العقار". ويجب وضع حدٍ لابتزاز الاقطاعيين لفلاحيهم إذْ يمنعونهم من شراء حاجاتهم من الخارج ويرغمونهم على بيع الفائض عن حاجاتهم إلى خمّاريهم حصراً". وهناك مقترحات أخرى ذات طابع اقتصادي كان من شأنها أن تساعد مقاطعة بيلوروسيا على تفادي النقص في المؤن مستقبلاً.

المعايير الأخلاقيّة عند اليهود

في القسم الثاني من "وجهة نظره"، يخرج ديرجافين عن حدود المهمة التي كلّفه بها السينات، فقد اقترح مشروع إصلاح شامل لحياة اليهود في الدولة الروسيّة، لكنَّ مشروعه لم يكن قائماً بذاته بل في سياق إفقار بيلوروسيا وإعادة إصلاح شأنها. فهو في هذا لم يتردّد في عرض التاريخ اليهوديّ عرضاً موجزاً، خاصّة في الحقبة البولونيّة، لكي يستخلص منه شرحاً للمعايير الأخلاقيّة عند اليهود. كما استخدم لهذا الغرض أحاديثه مع المنوِّر اليهودي (البرليني الثقافة) الطبيب إيليا فرانك الذي كان قد عرض رؤاه مكتوبة أيضاً وقال فيها: "إنَّ المعلمين الشعبيين اليهود حرَّفوا الروح الحقيقيّة للدين اليهودي عن طريق تأويل التوراة تأويلاً صوفيّا تلموديّاً ملفّقاً ... وسنُّوا شرائع صارمة لكي يعزلوا اليهود عن الشعوب الأخرى، وغرسوا في نفوسهم كرهاً عميقاً لكلّ دين آخر"؛ "وبدلاً من غرس روح التعايش المشترك سنُّوا طقساً سخيفاً للتعبُّد الإلهي"؛ "في القرون الأخيرة تغيَّر الطابع الأخلاقيّ لليهود نحو الأسوأ؛ ونتيجة لذلك أصبحوا رعايا أشراراً"؛ "وللنهوض باليهود أخلاقيّاً وسياسيّاً يجب العودة بهم إلى النقاء الديني الأول"؛ "وينبغي أن يبدأ الإصلاح اليهوديّ في روسيا بافتتاح مدارس اجتماعيّة تُدرس فيها اللغات الروسيّة والألمانية واليهودية". ومن الضروري الخروج نهائياً من الوهم الذي يزعم أن دراسة العلوم الدنيوية هي بمثابة خيانة للدين والشعب، وأنَّ العمل الزراعي لا يليق باليهوديّ. وقد اقتبس ديرجافين في "وجهة نظره" مشروع ميثاق حايموفيتش نوتكين، وهو تاجر كبير من شكلوف كان ديرجافين قد تعرف به والتقاه. ومع أنَّ نوتكين رفض الاستنتاجات والمقترحات الأساس التي وضعها ديرجافين بخصوص اليهود، إلاّ أنّه ساند الدعوة إلى إبعاد

اليهود قدر الإمكان عن مهن تقطير الخمور، وأقرّ بضرورة أن توفّر لهم فرص العمل المنتِج، خاصّة في ميدان الصناعة، وسلّم في الوقت نفسه بإيجابية انتقالهم للعيش في "السهوب الخصبة ليعملوا هناك بتربية الأغنام والزراعة".

في إثر فرانك، خصم سلطة الكاغالات، انطلق ديرجافين بدوره من الاستنتاج العام نفسه، وهو أنَّ "المنطلقات الأولى لتعبُّدهم [أي لتعبُّد اليهود] وأخلاقياتهم"، مغايرة وقد تحولت "إلى مفاهيم معقّدة"، وعبر ذلك جعلوا من الشعب اليهودي الساذج البسيط "قطيعاً أعمى وما فتئوا يغرِّرون به حتى ارتفع بينه وبين أتباع الديانات الأخرى جدار يحيطه بالظلمات، ويبقيه حبيس عزلته عن كل الذين يعيشون حوله". على هذا النحو يربُّون الأطفال أيضاً، "فهؤلاء يدفعون غالياً جداً ثمن تعلُّم التلمود ولا يبخلون بشيء ... وما دامت المدارس حاضرة في حياتهم فلن يكون ثمّة أمل في أن يطرأ أيُّ تحسن على أخلاقياتهم ... فالتعاليم الخرافية تتجذَّر في وعيهم، ويرون أنَّهم وحدهم الأتقياء الورعون، أمَّا أتباع الديانات الأخرى فهم بالنسبة إليهم كائنات وضيعة لا تستحق ... هناك يُدخلون في وعي الشعب عقيدة المسيح المنتظَر ... وأنَّ مسيحهم هذا سيُخضع لملكته الزمنية كل الشعوب الغريبة، وسيملك عليهم بحضوره بالجسد، ويعيد بناء مملكتهم السابقة ومجدهم وعظمتهم". كما تطرَّق ديرجافين إلى موضوع الفتيان "الذين يزوِّجونهم في سنٍّ مبكرة جداً، أحياناً في سنِّ العاشرة، ومع أنَّهم ينجبون، لكنَّهم ضعفاء جداً". ثم تحدَّث عن التنظيم الكاغالي فقال: إنَّ الجبايات الداخلية "تشكِل مورداً كبيراً للكاغالات يفوق كثيراً ضريبة النفس التي يؤديها اليهود لخزنة الدولة. ولا يقدِّم شيوخ الكاغالات أيَّ حساب عنها لأيٍّ كان. لذلك تعيش دهماؤهم الفقيرة في عُسر وفقر مدقع، وهذه هي حال القسم الأعظم منهم ... أمَّا أثرياء الكاغالات فهم على الضدِّ من هذا يعيشون في بحبوحة ويُسر؛ ويديرون سلطة خفية مزدوجة، أي سلطة روحيّة وسلطة زمنيّة ... ولهم نفوذ هائل على شعبهم. بهذه الوسيلة يبقون عليه حبيس عبودية حقيقية، وخوف مزمن".

فالكاغالات "تصدر مختلف الأوامر والتعليمات إلى الشعب ... فينفذها بحذافيرها وبسرعة تجعل المرء يستغرب".

لقد حدَّد ديرجافين جوهر المسألة على النحو الآتي: "إنَّ كثرة أعدادهم [أي أعداد اليهود] في بيلوروسيا ... لو قيست وفق معيار التفاوت بين أعدادهم وأعداد العاملين في الزراعة وحدها، فإنّها تمثّل عبئاً ثقيلاً على هذه البلاد ... هي وحدها في ذلك الإقليم كلّه التي تعاني نقصاً في الخبز وسواه من المواد الغذائية الأخرى". "فلم يكن أيٌّ منهم في أيِّ يوم من الأيام يعمل بالزراعة، بينما كلٌّ منهم يملك من الخبز ويبدِّد منه أكثر ممّا يتوفر لأيِّ عائلة فلاحيّة مهما كانت كبيرة، تحصل على لقمة عيشها بعرق جبينها". "كلّهم يمارس في القرى إقراض الفلاحين كلّ ما يحتاجونه، لكنْ بنسبة فائدة عالية جداً؛ لذلك عندما يقع الفلاح بين براثنهم وحيداً لا حول له ولا قوة، لا يعرف كيف يتخلّص من شراك ديونه لهم". وعلاوة على هذا كلّه هناك الاقطاعيون "السذَج المستهترون الذين يعهدون للجيديين بقراهم لا لزمن معلوم إنّما لزمن غير محدّد". والاقطاعيون سعداء برمي كامل المسؤولية على عاتق اليهود: "إنَّ السبب الوحيد لنهب فلاحيهم وإفقارهم هم الجيديون وحدهم"، ونادراً ما تلقى إقطاعياً لا يقرُّ "بأنّه إذا طردهم من أملاكه فإنّه سيتكبَّد خسائر كبيرة، لأنّه يحصل منهم على موارد كبيرة لقاء تأجير أراضيه لهم".

لكنَّ ديرجافين لم يغفل أن يحيط بالمسألة من مختلف جوانبها. فقد لاحظ: "أنَّ الأمانة التاريخية تقتضي أن نقرَّ لهؤلاء الأخيرين [أي اليهود] بأنّهم في ظل نقص الخبز القائم الآن، زوّدوا به أعداداً غير قليلة من الفلاحين المحتاجين؛ وعلى وجه العموم كلهم يعرف أنّهم لم يفعلوا هذا بغير حساب، فعندما يحين الحصاد سيستردون ما أعطوه ثلاثة أضعاف". وعن هذا كتب الحاكم العام ديرجافين في مذكراته الخاصة ما يلي: "من الصعب أن تكون عادلاً تماماً لدى اتهام أيٍّ كان من غير أن تقع في خطأ. فالفلاّحون يقايضون الجيديين الخمور بقمحهم، لذلك

يعانون نقصاً فيه. وليس بمقدور أصحاب الأملاك أن يمنعوا السُكْر لأنَّ بيع الخمور يكاد يكون المصدر الوحيد لمواردهم كلّها. كما لا يمكن إلقاء المسؤولية على الجيديين وحدهم واتهامهم بتحصيل لقمة عيشهم على حساب آخر بقايا قوت الفلاحين". مرَّة قال ديرجافين لفرانك: "إذا كانت هذه الصناعة قد حافظت حتى الآن على وجود هذا الشعب الصغير المشتت، فإنَّنا نحن بدورنا ينبغي علينا أن نهتمَّ بالحفاظ عليه". وكتب في تقريره ببساطة ذلك الزمن وصراحته الفظة: "إذا كانت هذه الصناعة الكليّة الجبروت، ولتحقيق أغراضها الخفية، قادرة على أن تُبقي على هذا الشعب حياً على وجه الأرض، ولا تفنيه، على الرَّغم من أنَّه يحمل أخلاقيات شديدة الخطورة؛ فإنَّه يجب علينا أن نصبر على وجوده، ويجب على الحكومات التي لجأ إلى كنفها أن تبسط حمايتها على الجيديين بشكلٍ يكون فيه منفعة لهم وللمجتمع الذي استقروا بين ظهرانيه".

لقد نال ديرجافين على ملاحظاته عن بيلوروسيا، واستنتاجاته، وعلى "وجهة نظره" كلها، لا سيما هذه الأسطر الأخيرة، وربما أيضاً من أجل مديحه "فراسة كبار الكهنة الروس ... الذين عارضوا بشدة دخول هؤلاء اللصوص المحترفين أراضي الإمبراطورية" - على هذا كله نال ديرجافين شرف أن يحمل "اسم عدوٍّ اليهود المتعصب"، وعدوٍّ الساميّة اللدود. لقد اتهموه (وهذا غير صحيح، كما رأينا) بأنَّه "بموجب وثائق رسمية، ألقى على عاتق اليهود وحدهم مسؤوليّة إدمان الفلاحين البيلوروس على الكحول وفقرهم"، أمَّا إجراءاته العملية فقد وصفوها من غير أيِّ براهين كانت، بأنَّها ليست سوى غطرسة ذاتيّة لا معنى لها. وما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق أنَّ ديرجافين لم يحمل أيَّ حكم مسبق على اليهود ولم يحابهم، بل صيغت "وجهة نظره" كلّها على أساس وقائع إفلاس الفلاحين والمجاعة التي فتكت بهم في العام 1800م، وكانت موجَّهة لمساعدة الشعب البيلوروسي، واليهود أنفسهم – توطين فريق منهم في الأراضي التي كانت مازالت خالية، وهو ما كانت قد قالت به كاترين في حينها.

فديرجافين رأى أُسَّ المعضلة هنا في عدم استقرار السكان اليهود، وحالة الأُميّة والجهل التي يعيشونها، لكنْ بالكاد كان سدس تقريره يعتمد على الفحص والتفتيش. "فمن غير وسيلة استثنائية خاصة كان من الصعب عليه أن يُجري إحصاء صحيحاً: لأنَّ عيشهم في المدن، والضواحي، ومزارع السادة، والقرى، والخانات، وضرورة لجوء واحدهم إلى الآخر دائماً، كان يجعلهم يدعون أنفسهم سكاناً غير محليين، بل ضيوفاً جاؤوا من نجوع أو قرى أخرى"، عداك عن أنّهم "متماثلون في الشكل ... والأسماء"، ومن غير كنى عائلية ينتسبون إليها، "وفضلاً عن هذا كلّه كانوا كلّهم يرتدون الرداء الأسود نفسه، هذا كان يربك الذاكرة ويخلط المفاهيم لدى إحصائهم والتمييز بينهم، خاصّة عندما يتعلق الأمر بالتحقيق والتقصي". وعلاوة على ذلك كلّه كان الكاغالات يخشون الكشف عنهم كلّهم، كيلا يرهق الأثرياء بالإتاوات عن المسجّلين. أمّا الحلّ فقد بحث ديرجافين عنه في "ضرورة إيجاد طريقة لتخفيض أعدادهم [أي أعداد اليهود في قرى بيلوروسيا] من غير التسبب بالأذى لمصالح أيٍّ كان ... وبذلك يتيسر تزويد سكانها الأصليين بالمؤن، وما يتبقى منها يُعطي أفضل وسائل العيش وأقلها أذى للآخرين". وفضلاً عن ذلك يجب "التخفيف من حدّة تعصبهم، والعمل بطريقة غير مباشرة على تواصلهم مع الثقافة والتنوير، لكن من غير المس بأيِّ شكل من الأشكال بمبادئ التسامح بين الأديان؛ وعلى وجه العموم ينبغي أن يُنتزع من نفوسهم ذلك البغض الذي يحملونه لأتباع الديانات الأخرى، والقضاء على نواياهم الخبيثة في الاستيلاء على أرزاق الآخرين". ثم عرض بعد ذلك معالجة مرحليّة للإجراءات التي اقترحها داعياً إلى إشراك النوايا الاقتصادية للدولة. أولاً "كيلا يُثير الأمر قلقهم [أي قلق اليهود] وامتعاضهم فيولّون الأدبار"، - ينبغي أن يصدر مرسوم امبراطوري يضعهم تحت حماية الدولة وفي كنفها، ويؤكد على التسامح مع عقائدهم الدينية والحفاظ على الامتيازات التي كانت قد منحتها كاترين لهم، "مع إلغاء بعض تعليماتها القديمة". (ومن "يرفض الانصياع لهذا القرار يُمنح حق مغادرة البلاد"، - وهذا

ما تجاوز كثيراً من حيث حرية الاختيار ما كان قد فرضه السوفييت في القرن العشرين). ثم بعد ذلك مباشرة، ووفق روزنامة دقيقة تُمنع مؤقتاً شتى أنواع القروض، وتُعالج وتوثّق كل ادّعاءات القروض بين المسيحيين واليهود ويُبتُّ بها، "ويُعاد بناء الثقة المتبادلة والعمل على ألاّ تشكل في المستقبل أيُّ صلة أو عائق أمام دفع اليهود إلى نمط عيش آخر" –"وألاّ تعوق انتقالهم للعيش في مناطق أخرى أو"البقاء في أماكنهم القديمة، "واستيعاب نمط العيش الجديد". ومن الضروري "الإسراع بتخليص اليهود من الديون والدفع بهم أحراراً إلى معركة الإصلاح". ومن لحظة إعلان المرسوم تُخصص الجبايات التي تُجبى من اليهود كلُّها للإنفاق على الفقراء"، أي على الفقراء من اليهود، لتسديد ديونهم المرهقة وتمويل النازحين منهم. ولا تجبى الجبايات المفروضة عليهم إلاّ بعد ثلاث سنوات من بعضهم وستٍّ سنوات من بعضهم الآخر، ثم تُخصص هذه لإنشاء معامل وورش يدوية لهم. وينبغي على الاقطاعيين أن يقدموا ضمانات عن اليهود المقيمين في مزارعهم يتعهدون فيها بأنَّ هؤلاء سيؤسسون في خلال ثلاث سنوات معامل ومصانع وورشاً يدوية، ويزرعون القمح في الضياع التي يقيمون فيها لينتجوا حاجتهم منه بأيديهم"، وألاّ "يبيعوا الخمور اللاذعة سراً أو علناً في أيِّ مكان كان أو تحت أيِّ ذريعة كانت"، وإلاّ سيُحرم هؤلاء الاقطاعيون أنفسهم من حق صناعة الخمور. كما كان من غير المسموح به أيضاً إجراء إحصاء سكاني عام تحت إشراف شيوخ الكاغالات. ومن لا يستطيع أن يُظهر إمكانياته كتاجر أو مشّان فأمام مثل هؤلاء طبقات جديدة تمويلها أقل يمكن أن يلتحقوا بها: المشّان الريفيون أو "الفلاحون - الملاّك" (لأنهم كانوا لا يطيقون "اسم كريستيانين [بالروسية: فلاّح. –ح. إ.] لأنّه يشبه اسم خريستيانين [بالروسية: مسيحي. –ح. إ.] "). وفي غضون ذلك كان المستوطنون اليهود يفضلون أن يكونوا أحراراً وليسوا أقناناً"؛ بيد أنّه "كان ممنوعاً عليهم تحت أيِّ ذريعة وبأيِّ شكل من الأشكال أن يستخدموا عندهم مسيحيّين أو مسيحيّات"، أو يمتلكوا قرى مسيحيّة أو أيَّ نفس فيها، وعدم السماح لهم بالمشاركة في أعمال المجالس البلدية، أو أيِّ

مجالس أخرى كيلا يُمنحوا حقّ السلطة على المسيحيين". و"ليعربوا عن رغبتهم بنمط العيش الذي يرغبون الانتماء إليه"، "فيوجه العدد المطلوب من الفتيان" إلى بطرسبورغ وموسكو وريغا – بعضهم "ليتعلم المحاسبة التجارية"، وبعضهم الآخر المهن الحرفية، وبعضهم الثالث إلى المدارس "ليتعلم زراعة القمح وبناء المنشآت الزراعية". "ويُنتخب في تلك الأثناء عدد من اليهود النشطين الفطنين مندوبين ... إلى الأماكن التي يخصّصونها للاستيطان". (يلي ذلك تفاصيل وضع خطط مسْح الأرض، وبناء المساكن، ونظام متابعة المجموعات السكّانية، وحقوقها في الطرقات، وسنوات إعفاء المستوطنين من الجبايات. لكنّنا لن نتطرق إلى التفاصيل الدقيقة التي وضعها ديرجافين بصبر وأناة). وللبناء الداخلي للمشاعات اليهوديّة، "كي يكونوا على قدم المساواة مع الشعوب الأخرى الخاضعة لروسيا... عليهم أن يخضعوا [أي اليهود] لإدارة الدولة المركزية الواحدة ... وينبغي ألاّ يكون للكاغالات بعد ذلك أيُّ وجود بأيِّ شكل كان". ومع إلغاء الكاغالات "تُلغى كل الجبايات الربوية الكاغالية التي كانت تُجبى قبل الآن من الشعب اليهودي ... وتُجبى منه الجبايات الحكومية على النحو الذي تُجبى فيه من الرعايا الآخرين" (أي ليست مضاعفة)، وينبغي على "المدارس والكُنُس أن تكون تحت القانون". ويُمنع على الشاب أن يتزوج قبل سنِّ السابعة عشرة، كما لا تُزوَّج الفتاة قبل أن تبلغ الخامسة عشرة". يلي ذلك مقطع عن تعليم اليهود وتنويرهم. ففي المدارس اليهوديّة يتعلّم اليهودي حتى الثانية عشرة، ثمّ ينتقل بعدها إلى المدارس المشتركة ليختلط مع أتباع الديانات الأخرى ويتواصل معهم؛ "ومن منهم يبلغ مبلغ العلوم العليا يُسمح له أن ينتسب إلى الأكاديميات والجامعات وينال عضوية الشرف فيها، ويتاح لهؤلاء أن ينالوا درجة دكتور وبروفسور"، ولكن "لا يُمنحون رتب الضباط أو ضباط الأركان" لأنّه "على الرَّغم من أنَّ قبولهم في الخدمة العسكرية متاح" إلاّ أنّهم على سبيل المثال، "لا يقاتلون العدوَّ في يوم السبت، وهذا ما حدث غير مرة فعلاً". ويُسمح بتأسيس مطابع خاصة بالكتب اليهوديّة. كما يُسمح بتأسيس مشاف، ودور للمسنين، ودور للأيتام تابعة للكُنُس اليهوديّة.

هكذا خلص ديرجافين وهو واثق من نفسه الثقة كلّها إلى أنَّ "اليهود جنس حرون متمرِد ... وفي حالته المحزنة هذه [الشتات] يبني نمط رخاء عيشه". ونشير على وجه الخصوص إلى التنوُّر: "هذا العامل وحده، إذا لم يكن فوراً فعلى أقل تقدير بعد عدة أجيال سيعطي ثماره بطريقة غير ملحوظة"، وعندئذٍ سيغدو اليهود "رعايا العرش الروسي مباشرة". وبينما كان ديرجافين يضع "وجهة نظره" كان يسأل الكاغالات آراءها أيضاً، لكنَّ مقترحاته لم تسعد ممثليها البتة. فضمَّنوا إجاباتهم الرسمية على اسئلته الاعتراض الآتي: "لم يعتدْ اليهود وليس لديهم الإمكانيات التي تؤهلهم للعمل في الميدان الزراعي، عداك عن أن في شريعتهم ما يعوق ذلك"، "وما عدا ما يعملون فيه الآن، ليس لديهم أيُّ وسائل أخرى يحصلون بها لقمة عيشهم، وهم لا يحتاجون غيرها ولا يرون في الأفق وسائل أخرى، لذلك يؤثرون البقاء على ما هم عليه". بيد أنَّ الكاغالات كانت ترى أنَّ الحديث يدور في هذا التقرير عن زعزعة النظام الكاغالي ونسفه، ووضع موارد الكاغالات تحت الرقابة، فاتخذت من تقرير ديرجافين برمَّته موقفاً مناهضاً، مع أنَّه لم يكن علنياً إلاَّ أنَّها قاومته بقوة، ولزمن طويل. ورأى ديرجافين في الشكوى المستعجلة التي تقدمت بها إحدى اليهوديات الليوزنيات إلى الامبراطور شخصياً، مظهراً من مظاهر تلك المقاومة، فقد ادَّعت هذه أنَّه في أحد معامل تقطير الخمور "انهال عليها ديرجافين ضرباً بالعصا فأجهضت جنينها". تشكلت في السينات لجنة تحقيق في هذا الادعاء. أمَّا ديرجافين فقد أجاب: "إنَّه أمضى في ذلك المعمل ربع ساعة، ولم يضرب أيَّ جيدية كانت، بل لم يرها بعينه"، -وسعى جاهداً لكي يستقبله الامبراطور: "فليُلقِ بي في القلعة، لكنِّي سأُبرهن على غباء مثل هذا الأوامر ... كيف أمكنكم ... أن تقبلوا مثل هذا الادعاء المهووس الفظيع؟ (لقد حُكم على اليهودي الذي سطَّر ذلك الادعاء الكاذب بالإقامة عاماً كاملاً في مشفى المجانين، لكنَّ ديرجافين، كما كتب هو نفسه، سعى له بعد شهرين -ثلاثة، أي في عهد الإسكندر حتى أُطلق سراحه من هناك.

لجنة تنظيم شؤون اليهود

في العام 1801م اغتيل بافل قبل أن يتسنَى له اتخاذ أيٍّ قرار بصدد "وجهة نظر" ديرجافين. "وفي ذلك الحين لم يحقّق هذا التقرير النتائج العملية التي كانت مرجوة منه، لأنَّ مجيء امبراطور جديد أفقد ديرجافين نفوذه". وفي العام 1802م فقط شُكِّلت "لجنة لتنظيم شؤون اليهود" – للنظر في "وجهة نظر" ديرجافين وصوغ القرارات اللازمة على أساسها. وكان بين أعضاء اللجنة اثنان من الوجهاء البولونيين المقرَّبين من الإسكندر، هم الأمير آدم تشارتوريجسكي والكونت سيفيرين بوتوتسكي، إضافة إلى الكونت فاليريان زوبوف (يقول ديرجافين عن ثلاثتهم: إنَّهم كانوا يملكون ملكيات شاسعة في بولونيا، وإذا ما طُرد اليهود من القرى "ستكون خسائرهم كبيرة"، "لقد تغلَّبت المصالح الخاصة لهؤلاء الوجهاء على مصلحة الدولة"، كان وزير الداخلية عندئذٍ هو الكونت كوتشوبيه، ووزير العدل الذي عُين لتوه هو ديرجافين (الأول في تاريخ روسيا)؛ وكانت لميخائيل سبيرانسكي مشاركة فعالة. فتقرَّر أن يُستدعى مندوبون عن كل كاغالات اليهود في مختلف المقاطعات للمشاركة في أعمال اللجنة، وكان العدد الأكبر ممن أرسلتهم هذه، ينتمي إلى طائفة كبار التجار. "كما مُنح أعضاء اللجنة حق اختيار عدد من الشخصيات اليهوديّة المعروفين لهم بأنَّهم متنورون وذوو نوايا طيبة". فدعا هؤلاء كلاً من نوتا نوتكين الذي كان قد نزح من بيلوروسيا إلى موسكو ثمَّ إلى بطرسبورغ، والمتعهد البطرسبورغي ابراهام بيريتس الذي كانت له علاقات وطيدة مع سبيرانسكي؛ كما دعوا أيضاً ليب نيفاخوفيتش، وميندل ساتانوفير المقرَّبيْن من بيريتس، وآخرين غيرهما، لكنَّهم

لم يشاركوا جميعاً مشاركة مباشرة في الاجتماعات إلاّ أنّه كان لهم تأثيرهمٌ على أعضاء اللجنة. (ومن الطريف أن نشير هنا إلى أنّ غريغوري ابن ابراهام بيريتس أُدين في قضية الديكابريين وحكم عليه بالنفي، وربما كان قد أُدين فقط لأنّه بحث المسألة اليهوديّة مع بيستيل، من غير أن يكون على علم بمؤامرتهم، أمّا حفيده فكان سكرتير الدولة الروسيّة، وهو منصب عال جداً. وكان نيفاخوفيتش من المنوِرين أصحاب النزعة الإنسانية، لكنّه لم يكن كوسموبوليتياً، بل كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالحياة الثقافية الروسيّة، وكانت تلك ظاهرة فريدة في الأوساط اليهوديّة حينئذٍ، وأصدر في العام 1803م مؤلَفه الموسوم: "عويل ابنة اليهوديّة" الذي دعا فيه المجتمع الروسي إلى ألاّ ينسى أن حقوق اليهود منقوصة، وحاول أن يغرس في وعي الشعب الروسي فكرة عن اليهود "كمواطنين من أبناء جلدتهم"، ودعا المجتمع الروسي إلى قبول اليهود بين ظهرانيه.

لقد وافقت اللجنة على "ضمّ اليهود إلى الحياة المدنية العامة والثقافة العامة"، وتوجيههم ... نحو العمل المنتج"، وتسهيل أعمالهم التجارية - الصناعية: والتخفيف من انتقاص حقوقهم في التنقل واختيار مكان الإقامة؛ وتعويدهم على التحول إلى ارتداء الزي الألماني، لأنّ "الاعتياد على ملابس تثير السخرية يرسّخ الشعور بالازدراء". لكنّ المسألة الأكثر حدّة كانت مسألة عيش اليهود في القرى بهدف الاتجار بالخمور. فقد حاول نوتكين "أن يقنع اللجنة بإبقاء اليهود في أماكن إقامتهم والاقتصار على اتخاذ إجراءات ضدّ المستهترين والمتعسفين منهم".

وعلى حد قول غيسين: إنّ "إنشاء اللجنة بحد ذاته أحدث بلبلة في الكاغالات". فاقرّ اجتماعها الاستثنائي الذي التأم في العام 1802م في مينسك ما يلي: "نلتمس من امبراطورنا دام مجده وعلا، الاّ يدخلوا [أي الوجهاء] أيَّ جديد على حياتنا". وقرّر اجتماعها إرسال وسطاء مفوضين إلى بطرسبورغ، وأعلنت عن جمع تبرُعات لهذا الغرض، بل أعلنت الصوم العام ثلاثة أيام، "لقد أُعلن النفير

العام ... في شتى أنحاء مراكز الاستيطان اليهودي". عداك عن الحديث عن الخطر الوشيك بإبعاد اليهود من القرى، "فالكاغالات في سياق سعيها للحفاظ على حرمة المسِّ بنظام حياتها الداخلية ... اتخذت موقفاً سلبياً تجاه المسائل الثقافية". ورداً على الموضوعات الأساسية في التقرير "أعلنت الكاغالات أنَّه ينبغي على وجه العموم إرجاء تطبيق الإصلاح لخمسة عشرة، أو عشرين سنة أخرى".

وبحسب شهادة ديرجافين أنَّ الكاغالات "انطلقت من جهتها لكي تُبقي على دسائسها السابقة. وفي غضون ذلك حمل الكونت البيلوروسي غوركو، إلى ديرجافين رسالة كان قد احتجزها من أحدهم في بيلوروسيا، وكتبها أحد اليهود إلى ممثل الكاغالات في بطرسبورغ جاء فيها، أنَّها ألقت على ديرجافين الحرم أو اللعنة، في الكاغالات كلها بصفته مضطهداً متعسفاً، وأنَّها جمعت لهدايا هذا الأمر 1000000 وارسلته إلى بطرسبورغ، وطلبت بذل كل جهد ممكن لاستبدال المدعي العام ديرجافين، وإذا كان ذلك متعذراً، فعلى الأقل الاعتداء على حياته ... وكانت مصلحتها في ذلك تكمن في ألاَّ يُمنع على اليهود بيع الخمور في الحانات والقرى ... ولكي يستمر ذلك من غير عقبات"، فإنَّها ستجمع "من الأطراف الأخرى ومن مختلف الأماكن آراء الناس حول كيفية تنظيم حياة اليهود على نحو أفضل"، -وبالفعل أخذت تلك الآراء تتوارد إلى اللجنة مكتوبة باللغة الفرنسية تارة، والألمانية تارة أخرى.

في تلك الأثناء كان نوتكين "قد بات الشخصية المحورية التي نظَّمت عندئذٍ شؤون الطائفة اليهوديّة الصغيرة" في بطرسبورغ. وفي العام 1803م "قدَّم إلى اللجنة مذكرة حاول فيها أن يشلَّ مفاعيل مشروع ديرجافين"، وعلى حدِ قول ديرجافين نفسه: إنَّ نوتكين "جاء إليه يوماً متظاهراً بالتودد وحسن الطوية وقال له: إنَّه لن يستطيع وحده بمفرده أن يتغلَّب على زملائه كلهم [في اللجنة] الذين يأخذون جانب اليهود، -فهل يقبل بمائة ألف أو مائتي ألف روبل ويدعم موافقة زملائه الآخرين". "فقرَّر ديرجافين أن ينقل خبر محاولة الرشوة هذه إلى الامبراطور

ليؤكّد على صحة رسالة غوركين"، لقد كان الرجل "يظن أنّ مثل هذه البراهين تزيد من فاعلية تحرُّكه، وأنّ الامبراطور سيحاذر المحيطين به ممن يأخذون الجيديين تحت حمايتهم". لكنّ سبيرانسكي علم بالأمر، بعد الامبراطور، وكان سبيرانسكي هذا "مع اليهود من غير تحفظ"، -في "أول اجتماع للجنة اليهوديّة اتضحت مواقف أعضائها كلهم بالإبقاء على تجارة الخمور في أيدي اليهود كما كانت عليه الحال سابقاً". فاعترض ديرجافين. وبات موقف الإسكندر منه يزداد برودة يوماً بعد يوم، وسرعان ما أعفاه (في العام 1803م) من منصب وزير العدل. وعلى أيّ حال يتضح من "مذكرات" ديرجافين أنّه كان حاداً ومندفعاً سواء في خدمته العسكرية، أو خدمته المدنية، لذلك سرعان ما كان يُعزل. لكنْ ينبغي أن نعترف للرجل بأنه كان سبَّاقاً إلى قراءة كثير مما سيقع في المسألة اليهوديّة الروسيّة حتى في القرن العشرين، وإنْ لم يكن في تلك الصيغ المبالغة التي اتخذها واقع الأشياء فعلاً. تعابيره كانت فظة بالنسبة لعصره، بيد أنّ خطّته لم تتضمَن نيّة مبيّتة لاضطهاد اليهود، بل على الضِدّ من ذلك كانت ستفتح أمام اليهود مجالات لعيش أكثر حريّة وإنتاجيّة.

الفصل الثاني

في عهد الإسكندر

مع نهاية العام 1804م أنهت لجنة تنظيم شؤون اليهود عملها وصاغت "مواقف في المسألة اليهوديّة" (عُرفت بعد ذلك باسم "مبادئ العام 1804م") – هي أول تشريعات روسية لتنظيم حياة اليهود في البلاد. وأعلنت اللجنة أنَّ هدفها هو الانتقال باليهود إلى حالة أفضل، إلى ميادين الأعمال المفيدة، "وفتح الطريق أمامهم لتحقيق مصالحهم الذاتيّة فقط ... وإزاحة كل ما يمكن أن ينحرف بهم عن هذه الطريق، والامتناع في غضون ذلك عن استخدام أيٍّ سلطة كانت".

لقد أقر المبدأ مساواة اليهود في الحقوق المدنيّة (المادة 42): "كلّ اليهود المقيمين في روسيا، والذين يأتون من البلدان الأخرى للإقامة فيها من جديد، وممارسة الأعمال التجارية، لهم الحريّة نفسها وهم تحت حماية القانون مثلهم مثل الرعايا الروس الآخرين تماماً". (بحسب تفسير البروفسور غرادوفسكي أنّه لا يمكن "أن نرى في هذه المادّة سعياً لدمج هذا الشعب بسكان روسيا الآخرين كلهم".

وثمّة "مبدأ" آخر أتاح لليهود إمكانيات أكبر من تلك التي جاءت في مقترحات ديرجافين الأولى؛ فلدى إنشاء ورش لصناعة المنسوجات والجلود على سبيل المثال، ولدى الانتقال إلى استصلاح الأراضي البور واستثمارها، عُرضت على المعنيين مساعدة الدولة لهم مباشرة. كما نال اليهود حق امتلاك الأرض، لكن من غير الأقنان العاملين فيها، إلاّ أنّه سُمح لهم أن يفيدوا من عمل

العمال ـ المسيحيين المأجور. ومُنح اليهود من أصحاب الورش والتجار وأصحاب الحرف حقّ مغادرة حدود أمكنة إقاماتهم "لوقت معلوم يقضون خلاله أشغالهم"؛ وهذا ما خفف إلى حدّ مقبول من القيود التي كانت قد فُرضت منذ بعض الوقت على حرية تنقّلهم. (كان إلغاء الإتاوة المضاعفة في هذا العام لا يزال مجرد وعد، ثمَّ سرعان ما تحول إلى سراب). وتمَّ التأكيد على حرمة كلّ حقوق اليهود في الملكية، وضمان حريّتهم الشخصيّة، وحرية معتقدهم وحرية تنظيمهم الطائفي، أي أنَّ التنظيم الكاغالي بقي سليماً ولم تطرأ عليه أيُّ تغيُرات جديّة (مع أنَّ هذا كان يقوِّض خطة دمج اليهوديّة في التابعية الروسيّة)، فبقي لها حق جباية الإتاوات الذي كان يمنح الكاغالات سلطات واسعة، لكن من غير حق زيادة حجم جباياتها؛ كما مُنعت من إنزال العقوبات واللعنات (التحريم) الدينيّة، وهذا ما منح الحرية للحسديين (إحدى الطوائف اليهوديّة. ــح. إ.). ونزولاً عند إلحاح الكاغالات لم يُقرّ اعتماد خطة مدارس التعليم العام، لكنْ "كان يمكن للأطفال اليهود أن ينتسبوا مثلهم كمثل الأطفال الآخرين كلّهم إلى كلّ المدارس والمعاهد والجامعات الروسيّة"، وفي غضون ذلك "لن يُرغم أيُّ طفل من أطفال تلك المدارس بأيِّ شكل من الأشكال على الارتداد عن دينه، أو أن يتعلم ما يناهض عقيدته الدينيّة، أو لا يتوافق معها". أمّا اليهود "الذين ينالون في الجامعات بمواهبهم وقدراتهم درجات متميِّزة في الطِّب، والجراحة، والفيزياء، والرياضيات وسواها من المعارف، يُستدعون للعمل فيها ويُمنحون الدرجات الجامعية التي يستحقون". ورأوا أنّه من الضروري أن يتعلّم اليهود لغة الوسط المحيط، ويغيِّروا مظهرهم الخارجي، ويتخذوا أسماء عائلية. وخلصت اللجنة إلى أنّه في أيّ من البلدان الأخرى "لم يستخدموا لهذا وسائل أكثر اعتدالاً وأكثر تهاوداً وأكثر قرباً من مصالحهم [أي مصالح اليهود] ومنافعهم الخاصة". ويوافق إ. يو. إ. غيسين على أنَّ مبادئ العام 1804م الروسيّة فرضت على اليهود قيوداً أقل من تلك التي فرضها عليهم النظام البروسي في العام 1797م مثلاً. لا سيما في

ميدان الحريات؛ فاليهود في روسيا كانت لهم حريتهم الشخصيّة، وقد بقيت لهم بينما كان ملايين الأقنان الروس محرومين منها. "إنَّ مبادئ العام 1804م تنتمي إلى عداد التشريعات المشبعة بالتسامح".

وكانت مجلة "بشير أوروبا" الشائعة الانتشار عندئذٍ قد كتبت ما يلي: "يعرف الإسكندر أنَّ العيوب التي تُنسب إلى الأمَّة اليهوديّة هي نتيجة حتمية لهذا الاضطهاد المزمن الذي يرزح اليهود تحت نيره على مدى قرون كثيرة". وهدف القانون الجديد هو منح الدولة مواطنين ذوي نفع، ومنح اليهود وطن. بيد أنَّ المبادئ لم تعط المسألة الأكثر إلحاحاً الحلّ الذي كان يرغب فيه اليهود كلهم – السكان اليهود، ومندوبو الكاغالات، وأعضاء اللجنة من اليهود. فقد نصّت المبادئ على: "لا يُسمح لأيٍّ يهودي ... في أيٍّ قرية أو بلدة أن يستأجر أيَّ مؤجَّر كان، لا خمَّارة، ولا حانة، ولا نُزل، لا باسمه ولا باسم غيره، ولا يُسمح له أن يبيع الخمور في أيٍّ من هذه المؤسسات، بل لا يُسمح له حتى أن يقيم فيها"، - كان ينبغي إخراج السكان اليهود نهائياً من القرى في خلال ثلاث سنوات، أي حتى أوائل العام 1808م. (ونحن نتذكّر أنَّ مثل هذا الإجراء كان قد أُقِر في العام 1797م في عهد بافل، قبل أن يظهر مشروع ديرجافين: لم يكن المقصود عندئذٍ طرد اليهود عن بكرة أبيهم من القرى، لكن تقليص أعدادهم بحيث "لا تفوق الإمكانيات الاقتصادية للفلاحين بصفتهم الطبقة المنتجة، فقد اقترحوا توزيع اليهود على قرى المراكز والأقضية"). أمَّا الآن فيقضي التوجُه في هذه المسألة بالعمل على توجيه أكثر اليهود نحو العمل الزراعي في الأراضي الخالية داخل حدود الجغرافيا التي تحدّدت فيها إقامتهم: في نوفوروسيا، ومقاطعات أستراخان، وكييف مع إعفائهم لعشر سنوات من الإتاوة التي تؤدى الآن، ومنحهم حق "الحصول على قروض من الخزينة لإنشاء المؤسسات"، لا يبدأ سدادها إلاَ بعد عشر سنوات أيضاً، أمَّا اليهود الذين لديهم ملاءة مالية فقد عُرض عليهم أن يمتلكوا الأرض ملكية خاصة مع حق استخدام العمل المأجور لاستصلاحها.

وفيما يتعلَق بالامتناع عن الاتجار بالخمور علّلت اللجنة الأمر على النحو الآتي: "طالما بقي اليهود يمارسون هذه المهنة ... التي تحمل إليهم في نهاية المطاف هذا اللوم كلّه، هذا الازدراء كلّه، بل حتى كره الجمهور الساذج البسيط، فلن يكفَّ الناس عن السخط عليهم". وفي غضون ذلك "هل يمكن أن نرى في هذا الإجراء [الترحيل من القرى] إجراءً يضيِّق على اليهود حينما تُتاح لهم في الوقت نفسه كثرة من الوسائل الأخرى لا ليحافظوا على حالة مادية جيدة فقط، بل لينالوا مكتسبات جديدة في الزراعة والصناعة والمهن، حينما يُتاح لهم فضلاً عن هذا أن يمتلكوا الأرض ملكية خاصة لهم. فعلى أيِّ نحو يمكن أن يؤدي فرض قيد على ميدان واحد من ميادين الصناعة إلى التضييق على هذا الشعب في مثل هذه الدولة التي يبقى له فيها آلاف المجالات الأخرى، حيث المجال أمامه مفتوح نحو الزراعة، وشتى ميادينها، في مقاطعات خصبة قليلة السكان ...؟"

يبدو أنَّ الحجج وازنة. لكنَّ غيسين يكتشف لدى اللجنة "وجهة نظر ساذجة ... تجاه طبيعة الحياة الاقتصادية للشعب ... فالظاهرات الاقتصادية يمكن أن تتغيّر بطريق آلية صرف، عن طريق القرارات". ومن جانبهم رأى اليهود في ترحيلهم المزمع من القرى، ومنعهم من العمل في النُزُل والحانات، "مهنة اليهود على مدى القرون"، قراراً ظالماً كريهاً للغاية. (وعلى هذا النحو عينه كان موقف التاريخ الوصفي اليهودي منه بعد قرن ونصف القرن).

وبحسب الرؤى الليبرالية التي كان يحملها الإسكندر الأول، ونواياه الطيبة تجاه اليهود، وطباعه المتقلبة، (التي ربما شوهها إلى حدّ كبير اعتلاؤه العرش عبر مقتل والده)، فإنّه من المشكوك فيه أن يكون تنفيذ إجلاء اليهود المعلن من القرى قد سار بهمَّة وحماس ولم يتوقّف حتى في طور استقرار الأوضاع في الدولة. وهنا بعد مبادئ العام 1804م مباشرة تقريباً اشتعلت الحرب مع نابليون في ميادين أوروبا، ثمَّ تبعتها مباشرة الإجراءات التي اتخذها نابليون لممالأة اليهود، إذ أنشأ في باريس سيندريون قوامه المندوبون اليهود. "بغتة اتخذت المسألة اليهوديّة منحى

مغايراً. ففي باريس أنشأ نابليون مجلس اليهود الذي كان الغرض الرئيس منه، منح القومية اليهوديّة مختلف الامتيازات، وإقامة صلات بين اليهود المشتتين في أوروبا". وفي العام 1806م أمر الإسكندر الأول بتأليف لجنة جديدة للنظر في المسألة الآتية: " أليس من الضروري اتخاذ إجراءات ما خاصة، وإرجاء ترحيل اليهود". وطالب الحكومة الروسيّة بألاّ تتخذ أيّ إجراء يوحي بأنّها تضغط على اليهود.

لقد كان ينبغي أن يبدأ ترحيل اليهود الذي أُقر في العام 1804م ابتداء من العام 1808م.، لكنّ بروز صعوبات عملية قُدِّمت عنها تقارير في العام 1807م إلى الإسكندر الأول، أوصت بضرورة إرجائها. عندئذٍ صدرت إرادة عليا نصَّت على ما يلي: "السماح للطوائف اليهوديّة كلها بانتخاب مندوبين تقدِّم عبرهم رؤاها عن الوسائل التي يرونها هم ملائمة لتنفيذ الإجراءات التي نصَّت عليها مبادئ التاسع من كانون الأول للعام 1804م ". وقد جرت انتخابات هؤلاء المندوبين اليهود في المقاطعات الغربية ونُقلت آراؤهم إلى بطرسبورغ. "فطلب المندوبون طبعاً إرجاء الترحيل إلى أمد طويل". (كما كان هناك اعتبار آخر هو أنّ الخمَّارين في القرى كانوا يقيمون في مساكن قدَّمها لهم الاقطاعيون مجّاناً، أمَّا في المدن والبلدات فإنَّ عليهم أن يدفعوا أجرها). أمَّا وزير الداخلية فقد رفع في تقريره الذي أكدَّ فيه أنّ ترحيل اليهود من أماكن إقامتهم الحالية في الأرياف إلى أراضي الدولة، "سيستغرق عشرات السنين، لأنَّ أعدادهم كبيرة جداً". ومع نهاية العام 1808م أوقف الامبراطور العمل بالبند الذي يحرِم على اليهود الاستئجار والعمل في ميدان الخمور، وأمر بالإبقاء عليهم في أماكن إقامتهم "إلى حين صدور أمر آخر". وفي الوقت نفسه (في العام 1809م) شُكِّلت لجنة جديدة هي "لجنة السيناتور بوبوف" كانت مهمتها دراسة المسائل اليهوديّة مع أخذ مساعي المندوبين اليهود بعين الحسبان. وقد "أقرَّت هذه اللجنة بضرورة وضع حدّ نهائي لعملية الترحيل المزمعة، والإبقاء على حق الاستئجار والاتجار بالفودكا لليهود ". وعملت اللجنة لثلاث

سنوات قدمت في نهايتها تقريرها إلى الامبراطور في شهر آذار من العام 1812م، لكنّ الاسكندر الأول لم يعتمد التقرير: لم يكن يرغب في تقويض أهمية القرار السابق ولا في تبديد حماس حركة الدفاع عن الفلاحين: "كان مستعداً للتخفيف من إجراءات الترحيل، لكنَّه لم يكن في وارد إلغائه نهائياً".

سلوك اليهود في حرب نابليون على روسيا

ها قد اشتعلت حرب كبيرة مع نابوليون، تلتها حرب أوروبية، فتغيَّرت أولويات الإسكندر ولم "يُعمل بعد ذلك أبداً بقرار الترحيل كإجراء عام ينسحب على جغرافيا إقامة اليهود كلّها، إنّما كأوامر خاصة بمناطق بعينها". وبحسب أحد المصادر أنَّ اليهود كانوا في زمن الحرب الفئة السكانية الوحيدة التي لم تغادر أماكن إقامتها وتهرب من الجيش الفرنسي إلى الغابات أو إلى أيٍّ مكان آخر؛ وفي ضواحي فيلنا رفضوا أمر نابليون الالتحاق بجيشه لكنَّهم زوَّدوه بالأعلاف والمؤن من غير تردد؛ وفي بعض الأماكن كانت جباية الإتاوات عنوة أمراً ضرورياً. وينقل إلينا مصدر آخر أنَّ "السكان اليهود نالهم كثير من الأذى بسبب عربدة جنود نابليون"، "فقد أحرق هؤلاء عدداً كبيراً من الكُنس، ثمَّ يضيف: "إنَّ القوات الروسيّة تلقّت عوناً كبيراً ممّا كان يُدعى البريد اليهودي الذي كان قد أنشأه التجار اليهود، وكان ينقل المعلومات بسرعة فائقة بالنسبة لذلك الزمن (كانت محطات البريد تُستخدم كنُزُل وحانات)"؛ فقد استخدموا حتى اليهود "سعاةً للتواصل بين وحدات الجيش الروسي". ولمّا عادت القوات الروسيّة "استقبلها اليهود بابتهاج عظيم وحملوا الخبز والنبيذ إلى الجنود". في ذلك الوقت كان نيقولاي الأول لا يزال الأمير الأعظم، وقد كتب هذا في مذكراته يقول: "من الغريب أنَّهم [أي اليهود] كانوا في العام 1812م صادقين في إخلاصهم لنا، بل ساعدونا حيث استطاعوا مع أنَّه كان في ذلك خطر على حياتهم". كما شاع خبر المشهد المعروف عندما نقل اليهود المحليون في بيريزينا إلى القيادة الروسيّة خبر المكان الذي ستعبر منه القوات الفرنسية المتراجعة مهزومة. بيد أنَّ ذلك كان حيلة ناجحة لعبها الجنرال لورانس: لقد كان على يقين من أنَّ اليهود سينقلون هذا الخبر إلى الروس (لذلك عبَرَ من مكان آخر).

تفاقم المعضلة اليهوديّة في روسيا

مـع ضـمٍّ بولونيـا الوسـطى إلى روسـيا في العـام 1814م.، انضـمَّ إليهـا أيضـاً أكثر من 400 ألف يهودي آخر، فغدت المسـألة اليهوديّـة أكثر إلحاحاً وتعقيداً بالنسبة إلى الحكومة الروسيّة. في العام 1814م أقر مجلس الدولـة في المملكة البولونية الذي كان يحكم كجهاز مستقل إلى حدّ كبير، البدء بترحيل اليهود من القرى، ولم يسمح لهم بالبقاء إلاّ إذا عملوا مباشرة في الزراعة فقط، ومن غير استخدام عمال مسيحيين. لكنَّ الإسـكندر (بمسـاعي مـن كاغـال وارسـو التي وصلت إلى الامبراطور في غمضة عين)، أمـر ببقـاء اليهـود في أمـاكن إقـامتهم في بولونيـا أيضـاً مـع السـماح لهـم بالاتجـار بالفودكـا مـع اسـتثناء واحـد فقـط: ألاّ يتاجروا بها بالدَيْن.

صحيح أنَّ معايير السينات في العام 1818م تضمنت مقـاطع مثـل: "وضْـع حد نهائي لوسيلة العقاب الجسدي الذي يُنزله الاقطـاعيون بـالفلاحين الـذين يعجـزون عن تسديد الديون التي عليهم لليهود، لأنَّ ذلـك كـان يـرغم الفـلاح علـى أن يبيع آخر ما يملك ... كما مُنع اليهود الذين يستأجرون الحانات والخمارات من تقديم قروض بفائدة للفلاحين ليشتروا بها خموراً، ثـم سـلبهم بعـد ذلـك مواشـيهم أو أيٍّ شـيء آخر من ضروريات عيشهم".

لكنْ على نحو ما كان يتسم به عهد الإسـكندر من تـردد، لم يوضع أيٌّ من الإجراءات المتخذة موضع التنفيذ الجدي؛ لقد كانت المعـايير توضـع وتُعلن إلاَّ أنَّها لم تكن تترافق بوضع آلية مراقبة حقيقية لتنفيذها. ومن مثل هذا على سبيل المثـال أنَّ "ميثـاق العـام 1817م عن الضـريبة المفروضـة علـى الخمـور في المقاطعات

الروسيّة العظمى، قضى بمنع اليهود من تقطير الكحول، إلاّ أنَّ هذا المنع رُفع في العام 1819 م"، - "إلى أن يتقن الحرفيون الروس صنعة تقطير الكحول". وغني عن البيان القول: إنَّ استئصال الصناعات الكحولية اليهوديّة من أرياف الإقليم الغربي قد عاند وقاوم مستنداً إلى الاقطاعيين البولونيين الذين كانت لهم فيها مصلحة حيويّة، أمّا الحكومة الروسيّة فلم تكن تجرؤ بعد على مواجهة الاقطاعيين. لكنَّ مقاطعة تشيرنيغوف التي لم تكن صناعة الخمور اليهوديّة الاقطاعية العريقة متجذّرة فيها بعد، نجحت في العام 1821م في وضع حد لها بعد أن نزلت بالمقاطعة رزية شحِّ المحصول، ورفع الحاكم إلى الجهات العليا تقريراً عن الوضع قال فيه: "إنَّ اليهود يستعبدون فلاحي الدولة والقوزاق ويضعونهم في وضع لا يُطاق". وفي العام 1821م وضعوا هذا الإجراء موضع التنفيذ في مقاطعتي موغليوف وفيتيبسك. لكنَّ هذه الإجراءات أُوقفت فيما بعد بمساعٍ من الكاغالات.

وعلى هذا النحو لم يخط الصراع ضدّ الصناعات الكحولية عبر ترحيل اليهود من القرى، خطوة واحدة على مدى عهد الإسكندر الأول الذي امتد ربع قرن كامل. لكنَّ تقطير الخمور لم يكن مصدر الريع الوحيد لدى الاقطاعيين في أماكن إقامة اليهود. فالمتعهدون اليهود كانوا يستأجرون قطاعات اقتصاديّة كاملة، وعقارات زراعيّة بطواحينها، ومصائد الأسماك فيها، وجسورها، بل كانوا يستأجرون في بعض الأحيان ملكيات كاملة، وعندئذٍ لم يكن الفلاحون الأقنان وحدهم يقعون تحت طائلة مفاعيل الريعيّة (كانت مثل هذه الحالات قد أخذت تتزايد ابتداء من أواخر القرن 18م)، بل "الكنائس المحليّة" أيضاً، أي المعابد الأرثوذكسيّة، كما ينقل عدد من المؤلفين – ن. إ. كوستوماروف وم. ن. كاتكوف. وف. ف. شولغين. فتلك المعابد التي كانت جزءاً لا يتجزّأ من الملكية الاقطاعيّة، كانت تُعدُّ ملكية خاصة من أملاك الاقطاعيين الكاثوليك، و"بصفتهم مستأجرين مستثمرين كان اليهود يرون أنَّ من حقّهم تحصيل رسوم

من المؤمنين الذين يأتون المعابد ويقيمون فيها طقوس تقديم القرابين. فإقامة طقس المعمودية أو الزفاف أو الدفن، كانت تقتضي الحصول على إذن من الجيدي لقاء رسم معلوم"؛ و"الأغاني التاريخية المالوروسية مليئة بالشكاوى المريرة من المستأجرين الجيديين الذين يضطهدون السكان". وكانت الحكومات الروسيّة قد تنبّهت لهذا الخطر منذ زمن، وعملت على ألاّ تنسحب حقوق المستأجرين على شخص الفلاح وعمله مباشرة "وألاّ يستغل اليهود عمل الفلاح الخاص، وهم بصفتهم غير مسيحيين لا يحق لهم على وجه العموم أن يمتلكوا الأقنان عن طريق الاستئجار". وكان هذا قد مُنع على التوالي: بموجب الأمر الصادر في العام 1784م، وتعليمات السينات الصادرة في العام 1801م و1813م: "يُمنع على اليهود منعاً باتّاً أن يمتلكوا القرى وفلاحي الاقطاعيين، أو أن تكون لهم حرية التصرّف بهم بأيّ طريقة كانت ولا تحت أيّ مسمّى كان".

لكنّ دهاء اليهود والاقطاعيين لم يعدم وسيلة للالتفاف على هذا التحريم. ففي العام 1816م اكتشف السينات أنّ اليهود ابتكروا وسيلة للتملك تحت مسمى "الكريستينتسيا"، أي بحسب شروط الاتفاق مع الاقطاعيين يُرفع من الحقول القمح الذي زرعه فلاحوهم هم أنفسهم، والدريس الذي جمعوه ليدرسوه، ويُحمل إلى مقطري الخمور الذين يعملون لدى اليهود أنفسهم، كما كان عليهم أن يعتنوا بالثيران الذين عُهد إليهم [أي للفلاحين] بتأمين العلف لها، وأن يقدموا لليهود العمال وعربات النقل ... وكانت لليهود حرية التصرف بهذه الملكيات من غير رقيب ... وفي الوقت نفسه كان الاقطاعيون يحصلون على ريع مجزٍ من العقار المؤجر لهم تحت مسمى كريستينتسيا، فيبيعون لليهود كامل المحصول الآتي الذي مازال زرعاً في الأرض: يمكننا أن نستنتج من هذا أنّهم بهذه الطريقة كانوا يجوّعون فلاحيهم".

ففي الظاهر يبدو كأنّ "الكريستينتسيا" وحدها التي تؤجّر وليس الفلاحون، لكنّ النتيجة هي عينها. ولكنّ على الرغم من إجراءات المنع كلها

إلاّ أنَّ ممارسة "الكريستينتسيا" بقيت مستمرة. وما زاد الطين بلة أنَّ كثيراً من رجال الاقطاع كانوا مدينين لليهود الذين يستأجرون عقاراتهم، وكان هؤلاء قد رهنوا أملاكهم ضماناً للمبالغ التي اقترضوها، -وعلى هذا النحو كان اليهود يتصرفون بالملكية المعنية وعمل الأقنان العاملين فيها. لكنْ عندما "أقر السينات انتزاع الملكيات من اليهود" في العام 1816م.، عاد وعهد إليهم هم أنفسهم تدبير أمر استعادة المبالغ المقترَضة. لكنَّ مندوبي الكاغالات ألحوا في اللحظة نفسها على إلغاء هذا التدبير، وقد نجح المدبِّر العام لشؤون الديانات الخارجية الكونت أ. ن. غوليتسين في إقناع القيصر بأنَّه "من غير العدل معاقبة فريق واحد من المذنبين وإعفاء الفريق الآخر"، أي الاقطاعيين والموظفين من العقاب. فالإقطاعيون "يمكن أن يكسبوا أيضاً إذا امتنعوا عن إعادة المبالغ التي أُعطيت لهم لقاء الكريستينتسيا وأبقوا على هذه الأخيرة نفسها في خدمة مصالحهم"؛ فهم الذين أعطوا الأرض لليهود بما يخالف القانون، وعليهم الآن أن يعيدوا إليهم أموالهم. وفي تلك السنوات كان الديكابري ب. إ. بيستل يخدم في الجيش في المقاطعات الغربية، ولم يكن هذا من أنصار النظام الملكي بأيِّ حال من الأحوال، بل كان جمهورياً غيوراً، وقد دوَّن في يومياته بعض مشاهداته عن اليهود المحليين. وأدرج بيستل مشاهداته هذه جزئياً في منطلقات مشروعه لإعادة بناء الدولة ("إرشادات للإدارة العامة المؤقتة"). "بانتظار المسيَّا يرى اليهود أنَّهم مقيمون إقامة مؤقتة في الإقليم الذين يسكنون فيه، لذلك يرفضون رفضاً قاطعاً أن يعملوا في الزراعة، ولعلّهم يزدرون العمل الحرفي أيضاً، فأكثرهم يعمل في التجارة وحدها". -"ويبقي رجال الدين اليهود الذين يدعونهم رابينيين أبناء شعبهم تحت وصايتهم وتابعين لهم تبعية لا تُطاق، ويحرِمون عليهم باسم الدين قراءة أيِّ كتب ما عدا كتاب التلمود ... والشعب الذي لا يبحث عن منوِّر، يبقى إلى الأبد تحت سلطة الخرافات والرؤى الباطلة"؛ "إنَّ تبعية اليهود للرابينيين توغل بعيداً إلى درجة أنَّ أيَّ أوامر يُعطيها هؤلاء تُنفذ في الحال ومن غير تردّد". -"وتتيح الصلات

الوثيقة بين اليهود إمكانيّة جمع مبالغ كبيرة وادخارها ... لاستخدامها لصالحهم العام، خاصة لاستمالة مختلف المسؤولين، والاتجار بالرّبا وما شابه من الأعمال القبيحة الأخرى التي تفيد اليهود". "وليس صعباً أن ترى كيف يصبح هؤلاء أثرياء بين ليلة وضحاها في المقاطعات التي يقيمون فيها. فالتجارة هناك كلها بين أيديهم، ولا تنجو من براثن ديونهم والتبعية لهم سوى قلة قليلة من الفلاحين؛ وبهذا ينهبون الإقليم الذي يقيمون فيه بوحشية قلَّ مثيلها". –"كانت الحكومة السابقة [حكومة كاترين] قد منحتهم كثيراً من الحقوق والامتيازات، التي زادت من شرورهم"، - مثلاً حق الإعفاء من التجنيد، وحق عدم الإعلان عن الأموات منهم، وحق التقاضي فيما بينهم بحسب أحكام الرابيين، "وفضلاً عن هذا كله كانت لهم الحقوق الأخرى التي للشعوب المسيحيّة كلّها". "ويمكن أن نرى بوضوح أنَّ اليهود يشكلون دولتهم الخاصّة المستقلة في داخل الدولة، وهم يتمتّعون اليوم في روسيا بحقوق أكبر بكثير من تلك التي للمسيحيين أنفسهم". ولا يمكن "أن يستمر نظام الأشياء على هذا المنوال، لأنّه رسَّخ موقف اليهود العدائي من المسيحيّين، ووضعهم في مواجهة النظام الاجتماعيّ السائد في الدولة".

في السنوات الأخيرة من عهد الإسكندر الأول زادت حدّة المحظورات الاقتصاديّة على نشاطات اليهود. ففي العام 1818م أصدر السينات القرار الآتي: من الآن وصاعداً "لا يؤدّي المسيحيون لليهود أيَّ علاوات كانت على القروض التي يقترضونها منهم". وفي العام 1819م صدر قرار آخر منع "أن تؤدى لليهود أيُّ أعمال وخدمات يؤديها الفلاحون وخدم القصور". ونقل غوليتسين هذا نفسه إلى اللجنة الوزارية أنَّ "المسيحيين الذين يقيمون لدى اليهود في منازلهم يغفلون عن تأدية واجباتهم الدينية ويهملونها، وليس هذا فحسب، بل يتخلّقون بعادات اليهود ويؤدون شعائرهم وطقوسهم". فصدر قرار "يمنع على اليهود استخدام المسيحيين في الأعمال المنزلية". ورأوا في غضون ذلك أنَّ "هذا يصبُّ في مصلحة فقراء اليهود، فقد بات بإمكانهم أن يشغلوا الآن مكان الخدم المسيحيين". بيد أنَّ ذلك لم

يحصل. (ومهما بدا الأمر غريباً إلاّ أنَّ الحقيقة هي أن أوساط اليهود المدينيين عرفت فقراء ومعوزين، "وكان أكثر فقرائهم بالكاد يحصل على لقمة عيشه"، ومع ذلك لم يحصل العكس أبداً: لم يعمل اليهود خدماً في منازل المسيحيين. معنى ذلك أنَّه كانت هناك قناعات تمنع، ووسائل عيش توفِّرها الطوائف المتلاحمة).

لكنْ في العام 1823م سُمح للمتعهدين اليهود بأن يستخدموا العمل المسيحي المأجور، بيد أنَّه كان من الصعب الالتزام الصّارم بالمحظورات المفروضة في هذا الميدان من مثل: لا يعمل المسيحيون في حراثة الأرض لدى اليهود. وفي تلك السنوات، ورداً على انتشار طائفة السبتيين وتمدّدها المتسارع في مقاطعات فورونج، وسامارا، وتولا وسواها من المقاطعات الأخرى، اتُخذت إجراءات تحذيرية شملت أماكن إقامة اليهود كلّها. ففي العام 1821م مثلاً "طُرد اليهود من أرياف مقاطعة تشيرنيغوف بعد اتهامهم باستعباد الفلاحين والقوزاق وإرهاقهم، وفي العام 1822م طردوا من قرى مقاطعة بالتافا".

في العام 1824م وفي خلال رحلته عبر سلسلة جبال الأُورال، لاحظ الإسكندر الأول أنَّ في معامل التعدين "عدداً كبيراً من اليهود الذين كانوا يشترون المعادن الثمينة خلسة، ويفسدون السكان المحليين بما يؤذي خزينة الدولة وأصحاب المصانع الخاصة"، فأمر "بألاّ يكون هناك أيُّ تهاون مع وجود اليهود في إدارة مصانع التعدين الحكومية والخاصة". وعلى نحو مشابه كانت عمليات التهريب الدائرة على امتداد الحدود الغربية لروسيا تزعزع خزينة الدولة بإدخال البضائع والمؤن إلى العاصمتين والاتجار بها من غير تأدية رسومها الجمركية. ونقل حكام المقاطعات أنَّ عصابات التهريب تتألَّف بشكل أساس من اليهود الذي يقيمون في الشريط الحدودي ذي الكثافة السكانية العالية. وفي العام 1816م صدرت تعليمات في مقاطعة فولينا قضت بترحيل اليهود كلهم عن الشريط الحدودي مسافة خمسين فرسخاً، في خلال ثلاثة أسابيع لا أكثر. لكنَّ

الترحيل من هذه المقاطعة استمر خمس سنوات، ولم يطبَّق إلاَّ جزئياً، بل منذ العام 1821م أذن حاكم المقاطعة الجديد لليهود بالعودة إلى أماكن إقامتهم السابقة. وفي العام 1825م صدر أمر عام لكنَّه كان حذراً أكثر بكثير: لم يُطبَّق الترحيل إلاَّ بحق أولئك اليهود الذين لم تكن لهم قيود في الكاغالات المحلية، أو لا يملكون ملكيات ثابتة في الشريط الحدودي. أي أنَّهم عزموا الآن على ترحيل الوافدين فقط. ومع ذلك لم يُطبَّق الإجراء إلاَّ انتقائياً.

الحكومات الروسيّة ومسألة ترحيل اليهود

مع مبادئ العام 1804م وبندها الذي ينص على ترحيل اليهود من قرى المقاطعات الغربية، كان من الطبيعي أن يواجه المسؤولون الحكوميون السؤال الآتي: إلى أين سيرحّلون اليهود؟ فالكثافة السكانيّة في المدن والبلدات كانت عالية جداً، وزادت المضاربات في ميدان تجارة الخردة هذه الكثافة تعقيداً، لاسيما في ظل ضعف مستوى تطوُّر إنتاجيّة العمل. في ذلك الوقت كانت تمتدّ جنوبي أوكرانيا منطقة شاسعة قليلة السكان وشديدة الخصوبة هي نوفوروسيا. كان هدف الدولة الرئيس هو دفع الجمهور اليهودي غير المنتج المرحّل من القرى، إلى العمل الزراعي في نوفوروسيا. وقبل عشر سنوات كانت كاترين قد حاولت تحقيق هذا الهدف عبر فرضها على اليهود إتاوة مضاعفة، وفي الوقت نفسه فتحت أمامهم الخلاص منها بالانتقال إلى نوفوروسيا ليعملوا بالزراعة. لكنّ تلك الإتاوة (جاء المؤرخون اليهود على ذكرها مراراً وتكراراً)، لم تكن حقيقية لأنّه لم يكن ثمة إحصاء للسكان اليهود أصلاً، ولم يكن أحد يعرف العدد الحقيقي لهؤلاء سوى الكاغال، وقد أخفت هذه عن الدولة ما يقارب نصف عددهم. (منذ العام 1808م توقفت جبايتها). ولم يدفع التسهيل الذي منحته كاترين بأيٍ يهودي إلى ترك مكان إقامته. والآن خُصص لليهود وحدهم "في المرة الأولى"، 30 ألف هكتار من الأرض في نوفوروسيا، أي كان يمكن أن تزداد هذه المساحة بعد ذلك بحسب الحاجة. وعرضت الحكومة على المستوطنين تسهيلات كبيرة: حيازة (وليس ملكية) 40 هكتاراً من أراضي الدولة في نوفوروسيا حيازة متوارثة لكلّ عائلة (كان متوسط ملكية الفلاح من الأرض في روسيا عدة هكتارات، ونادراً ما كان يتجاوز العشرة هكتارات)، وقروضاً نقدية للإنفاق على متطلبات

الانتقال وتدبير شؤون الاستثمارة الزراعية هناك (شراء المواشي، والأدوات، والحاجيات المنزلية وما إلى ذلك، ولا يبدأ تسديد القرض إلاّ بعد عشر سنوات، على دفعات مدتها عشر سنوات أخرى)، ومنازل خشبية جاهزة (في تلك الأرجاء لم تكن مساكن الفلاحين وحدهم مبنية من الطين المدقوق، بل منازل بعض الاقطاعيين أيضاً كانت طينية)، وإعفاءً من تأدية الإتاوات لمدة عشر سنوات، مع الحفاظ على الحريّة الشخصيّة لكل مستوطن (في زمن الأقنان ذاك)، وحماية السلطات له. (بحسب مبادئ العام 1804م كان اليهود معفيين من التجنيد لكنَّ بدله النقدي كان من ضمن الإتاوات).

في ذلك الزمن كانت الشخصيّات اليهوديّة المتنوِرة تُعدُّ على أصابع اليد الواحدة (نوتكين، وليفينزون)، وقد ساند هذان مبادرة الدولة هذه –"ينبغي أن يتحقق هذا بإجراءات تشجيعيّة من غير أيِّ وسيلة من وسائل الإرغام". كان هذا الموقف موقفاً عقلانيّاً نابعاً من إدراك ضرورة أن يتحوّل شعبهما إلى ممارسة العمل المنتج. وكانت ملحمة آلام اليهود مع العمل الزراعي في روسيا التي طالت 80 عاماً قد عُرضت في المؤلَف التاريخي الدقيق المسهب الذي وضعه المؤرِخ اليهودي ف. ن. نيكيتين، الذي كان قد سيق إلى الكانتون وهو طفل صغير بعد (وهناك نال اسمه هذا)، ثمَّ كرَّس فيما بعد غير قليل من السنين لدراسة أرشيفات المراسلات الرسمية بين بطرسبورغ ونوفوروسيا، ولم تكن تلك الوثائق منشورة، كما كانت أعدادها مهولة. وقد جاء ذلك كلّه وفيراً في كتابه الذي تضمن كثرة كثيرة من الوثائق والإحصاءات التي كانت تتكرّر مراراً وتحمل تناقضات تقارير مختلف المفتشين الذين كانت تفصل بعضهم عن بعض سنوات كثيرة، كما حمل كتاب نيكيتين هذا جداول تفصيليّة لم تكن مكتملة في أحيان كثيرة، وهذه المادة الشديدة الغنى التي لم يهتم أحد بعد ذلك بتنظيمها وتصنيفها، هي التي تشكّل مادّة عرضنا الموجز هذا. وسوف نحاول أن نسوق منها حشداً من الاقتباسات التي يمكن أن نستخلصها من لوحته الجلية الرَحبة.

يعترف نيكيتين بأنَّ الدولة تهدف، عدا عن استصلاح مساحات شاسعة من الأراضي غير المأهولة، إلى بعثرة اليهود، وجذبهم إلى العمل الفيزيائي المنتج وإبعادهم عن "المهن المؤذية" التي يرهقون بها عن قصد أم عن غير قصد، جماهير الفلاحين الأقنان المرهقين أصلاً. "لقد عرضت الدولة عليهم أن يلتفتوا إلى العمل في الزراعة"، وهي "ترمي من وراء ذلك إلى تحسين مستوى عيشهم ... والدولة ... لم تستدرج اليهود بالوعود، بل على العكس كانت تبذل جهدها كي لا ترحّل أكثر من ثلاث مئة عائلة في العام"، لقد كانت ترجئ الانتقال لحين الانتهاء من بناء المساكن، وتدعوا اليهود إلى إرسال من يستطلع المكان في نوفوروسيا. فالفكرة كانت نبيلة منذ البداية، لكنَّها لم تأخذ بالحسبان طباع اليهود الوافدين والإمكانيّات التنظيميّة المحدودة للإدارة الروسيّة. لكنْ سرعان ما تبيّن أنَّه لا أمل في تحقيق الغرض المنشود، لأنَّ العمل الزراعي يحتاج مهارات كبيرة تنتقل وتتراكم من جيل إلى جيل، وإذا لم تكن هناك رغبة ومشاركة فلا يمكن أن تنجح زراعة الأرض. ومنذ أن خُصَّ اليهود بأربعين ألف هكتار في نوفوروسيا بقيت هذه المساحة عشرات السنين وقفاً عليهم فقط. (كان الكاتب الاجتماعي إ. غ. أورشانسكي قد رأى أنَّ الزراعة اليهوديّة كان يمكن أن تنجح فقط لو منح اليهود أراضٍ حكومية هنا على مقربة، في بيلوروسيا، حيث كانوا على تواصل يومي مع الحياة الريفية). لكنَّ مثل هذه الأراضي لم تكن موجودة هناك، ففي مقاطعة غرودينسك على سبيل المثال لم يكن سوى مئتي هكتار من الأراضي التي كانت تربتها شحيحة، "وحيث كان السكان كلّهم يعانون من شحِّ المحاصيل". لكنَّ "اليهود لم يكونوا على عجلة من أمرهم ليتحوّلوا إلى فلاحين". في أول الأمر لم يتجاوز عدد الراغبين في النزوح، ستاً وثلاثين عائلة. وربما كان اليهود يأملون في إلغاء هذا الإجراء وألاّ يجري ترحيلهم من قرى الإقليم الغربي، ففي العام 1804م منحت مدة ثلاث سنوات إعفاء من الترحيل، لكنَّ تطبيق الإجراء لم يبدأ بعد أن انتهت مدة الإعفاء. أمَّا الآن فها هو الحدّ

النهائي المشؤوم -1 كانون الثاني 1808 - يقترب، وها هم منذ الآن يرحّلونهم من القرى إلى الأماكن المحدّدة، فمنذ العام 1606م بدأت حركة ترحيل اليهود، لا سيما بعد أن انتشرت الشائعات عن فائدته بالنسبة إليهم. فقد كانت الطلبات تُقدّم بشكل جماعي، "لقد اندفعوا ... كما لو إلى أرض الميعاد ... تماماً كما فعل أسلافهم حينما رحلوا من أرض بابل إلى أرض كنعان"، بل "ثمة جماعات رحلت إلى هناك خلسة، من غير إذن، بل حتى من غير وثائق سفر". (ثمَ باعوا وثائق السفر التي أُعطيت لهم إلى مجموعات دفعةٍ أخرى، وطلبوا وثائق جديدة بدل ضائع). لقد كانت أعداد الراغبين تتضاعف يوماً بعد يوم وكانوا يُلحُّون في طلب الأرض والمسكن والقوت.

لقد كان تدفق المهاجرين أقوى من قدرة الدائرة الوصائية التي أُنشئت في مقاطعة كرسونيس لاستقبال اليهود المهاجرين: لم يتسنَّ لهم الوقت لكي يبنوا المساكن، ويحفروا الآبار، كما عوّق عملهم امتداد السهوب ومساحاتها الشاسعة، وقلَة أعداد البنائين وسواهم من أصحاب المهن، فضلاً عن النقص في أعداد الأطباء، والأطباء البيطريين. "ولم تبخل الحكومة بالمال ولا بالتعليمات العقلانية، ولم ينقصها التعاطف مع المهاجرين" لكنَّ ريشيليه حاكم المقاطعة في العام 1807م طلب تقليص وتيرة الترحيل إلى 200 -300 عائلة في العام، وفتح الباب على مصراعيه أمام الذين يرغبون بالهجرة على نفقتهم الخاصة فقط. "ففي حال شحِّ المحاصيل كان يجب إعالة هؤلاء الناس عدة سنوات على التوالي" (كان المهجرون المعدمون يتلقون قوتهم يوماً بيوم). لكنَّ حكام المقاطعات الغربية أخذوا يطلقون من خارج الدور كل من يرغب أن يهاجر من غير أن يحسبوا أيَّ حسابات، فضاعت الإحصاءات الدقيقة لأعداد المهاجرين. وهذا ما تسبب لهم بمآسي الفقر والأمراض والموت وهم في الطريق. بل ثمة من فُقدوا واختفت آثارهم.

لقد أدى امتداد المسافات في السهوب (كانت المسافة بين المستعمرة والإدارة تتراوح بين مئة فرسخ وثلاث مئة فرسخ)، وعدم جاهزية الإدارة لإجراء إحصاء دقيق لتوزيع المهاجرين توزيعاً صحيحاً، إلى تلقي بعض المهاجرين الكثير وبعضهم الآخر القليل؛ لقد اشتكوا من عدم حصولهم على الأعلاف والقروض. كما كان عدد المشرفين على المستعمرات قليلاً جداً، فلم يستطيعوا أن يدبِّروا سوى شؤون عدد قليل منها. (كان المشرفون يتلقون راتباً هزيلاً، وغالباً لم يخصصوا لهم خيولاً فيضطرون إلى عبور الأرض سيراً على الأقدام). وكان من المهاجرين من مرَّ على إقامته في المكان الجديد عامان ولم تكن لديه زراعة ولا مزروعات ولا قمح. فأطلقوا من هؤلاء كلاً إلى حيث يشاء. وجاءتهم "طلبات من يهود يطلبون فيها شطب أسمائهم من سجلات الفلاحين"، فكان هؤلاء يُطردون عندئذٍ من صفوف المستوطنين ويعودون إلى سابق عهدهم كمشَان، لكنَّ "خمس عدد المطرودين لم يعودوا إلى أعمالهم السابقة، بل تحوّلوا إلى متسكعين". (مع شطب أسماء هؤلاء من السجلاَت كانت تُشطب قروضهم أيضاً وتضيع على الدولة". فبعض المستوطنين "كان يظهر في المستعمرات من جديد، وبعضهم الآخر كان يختفي من غير أثر ومن غير أن يطالبه أحد بشيء"، وبعضهم الثالث كان يتسكع في المدن المجاورة "ويتاجر كدأبه من قبل". ويعكس كثير من تقارير الإدارة والمفتشين، طريقة إدارة المستوطنين لاستثماراتهم. ومن منهم "لم يكن يعرف كيف يبدأ وأين ينتهي" كانوا يلحقون به فلاَحين حكوميين مأجورين ليرشدوه؛ وعلى هذا النحو "كان عمل الفلاَح الروسي المأجور هو الذي ينهض بالجزء الأكبر من أعمال الحراثة". فبات "إصلاح عيوب الاستثمارة الزراعية بالعمل المأجور" ديدناً معمولاً به. وفضلاً عن هذا كله لم يكن المستوطنون يزرعون سوى قسم ضئيل من مساحة الارض المعطاة لهم، كما لم يبذروا البذار الأفضل، وهناك من المستوطنين من أُعطي بذوراً خاصة ليبذرها، لكنَّهم لم يحرثوا الأرض أصلاً، ولم يزرعوا شيئاً البتة، أو إذا زرعوا كانوا يبددون البذور

بغير طائل، كما يبددون المحصول في أثناء الحصاد. ولمّا لم تكن لديهم أيّ خبرات في هذا المجال، كانوا يحطمون أدوات العمل الزراعي، بل ثمة منهم من كان يبيعها مباشرة. وفي ميدان تربية المواشي ورعيها كانت خبراتهم تساوي الصفر أيضاً. "فكانوا ينحرون الحيوانات ليستهلكوا لحومها في طعامهم، ثم يشكون بعد ذلك من أنّه ليس عندهم مواشي"، بعضهم كان يبيع الماشية التي مُنحت له ويشتري بثمنها مؤناً. ولم يعدوا مستلزمات التدفئة فأصبحت مساكنهم رطبة بسبب نقص التدفئة؛ وعندما كانت هذه تتداعى لم يرمّموها. ولم يزرعوا الحواكير بالخضار. كانوا يحرقون في مدافئ مساكنهم التبن المعدّ علفاً للحيوانات. وبما أنّهم كانوا لا يحسنون الحصاد والحشّ والطحن، لم يكن لهم حظّ في العثور على عمل في القرى المجاورة. وبسبب قذارة مساكنهم انتشرت الأمراض في أوساطهم. وغنيّ عن البيان القول: "إنّ هؤلاء لم يكونوا بانتظار أن يُرغمهم أحد على ممارسة الأعمال الزراعية"، ومن الواضح أنّهم أدركوا عدم جدوى عملهم في الزراعة، أو في ميدان العمل المأجور، وعندما كانت المواشي تتكاثر كانوا يتاجرون بها في الأسواق. مع ذلك "بقي المستوطنون يعوّلون على مساعدة الخزينة لهم". فكانوا يشكون من أنّ "حالتهم وصلت إلى أعلى درجات الفقر والعوز"، والحقيقة أنّ الأمر كان على هذا النحو فعلاً؛ فقد انحدروا إلى قاع الفقر المدقع، وهذه حقيقة أيضاً، لكنّ دائرة التفتيش تعارض هذا الرأي: "لم تكن عندهم ملابس لأنّهم كُسالى خاملون، فلم يحافظوا على الشياه، ولم يزرعوا الكتّان والقنّب، نساؤهم لم تغزل ولم تنسج. (وختم أحد المفتشين تقريره بقوله: لم يفلح اليهود في إدارة استثماراتهم "لأنّهم اعتادوا على الإهمال واللامبالاة والخمول، كما كانوا يفتقرون إلى الخبرة في ميدان العمل الزراعي". لكنّه رأى أنّ الأمانة تلزمه أن يقول: "إنّ الاعتياد على العمل الزراعي يجب أن يبدأ في سن مبكرة؛ واليهود الذين كانوا قد عاشوا حتى سنّ 40 -50 حياة منعمة مرفهة، لم يكن من السهل عليهم أن يتحوّلوا إلى فلاّحين). وقد تبيّن أنّ ما خصصته

الخزينة للإنفاق على المستوطنين كان أقل بضعفين أو ثلاثة أضعاف من النفقات الضرورية فعلاً، فقد كانوا يطلبون المزيد المرة تلو الأخرى. وأكّد ريشيليه أنَّ الشكاوى "لم تصدر إلاّ عن المستهترين، وليس عن أرباب العمل الناجحين" مع أنَّ تقريراً آخر يشير إلى أنّهم "لسوء طالعهم، منذ بداية استيطانهم لم يجمعوا أيَّ محصول مقبول". وكان تعليق بطرسبورغ على "كثير من الوقائع التي كانت تصل إلى الوزارة ... أنَّ اليهود امتنعوا عن العمل الزراعي عن سابق قصد": "لقد قدّمت لهم الحكومة معونات حكومية على أمل أن يصبحوا فلاَحين حقيقيين وليس بالاسم فقط". "وثمة من المستوطنين من كان على استعداد للعيش على نفقة الخزنة إلى أمد غير محدود، إذا لم يدفع به أحد إلى العمل.

في العام 1810م أُوقف طوفان المهاجرين اليهود على حساب الدولة إلى نوفوروسيا مؤقتاً، بسبب العجز عن التحكم به والتقصير في بناء المساكن. وفي العام 1811م أعاد السينات لليهود حق التزام تصنيع الخمور وبيعها في القرى الحكومية التابعة للمقاطعات الغربية التي كان اليهود يقيمون فيها، وعندما شاع هذا الخبر في نوفوروسيا، "اهتزت رغبة الكثيرين في مواصلة حياتهم الفلاحية، ومن غير أن يلقوا بالاً إلى منع منحهم إذناً بالمغادرة، مضى كثير منهم من غير إذن قانوني والتحقوا بالخمارات والحانات التي كانت في قرى الاقطاعيين وقرى الدولة". في العام 1812م تبين أنّه لم يبق من 848 عائلة التي خرجت مهاجرة، سوى 538، وغاب 88 من غير عذر (التحقوا بالعمل المهني في كرسونيس، ونيقولايف، وأوديسا، وحتى في بولونيا)، أمَّا ما تبقى فقد اختفوا من غير أثر. لقد كانت تلك التجربة برمَّتها "تجربة جديدة تماماً، ليس في روسيا وحدها إنَّما في أوروبا على وجه العموم.

لقد أدركت الحكومة الآن أنَّ "اشمئزازهم [أي اليهود] من العمل الزراعي، سببه جهلهم كيفية ممارسته، وأنَّ إهمال المراقبين لهم جعل من هذا الترحيل سبباً لوقوع كثير من الخلل، لذلك يمكن القول: إنَّ اليهود يستحقون التسامح

معهم". لكن "كيف تُستردُّ قروض الخزينة من أولئك الذين يمكن أن يُسمح لهم بالخروج من ميدان العمل الزراعي؛ وكيف يمكن أن تلبَّى حاجات أولئك الذين آثروا أن يبقوا فلاحين، من غير إنهاك الخزينة، وكيف يمكن تسهيل عيش هؤلاء الناس الذين كابدوا رزايا كثيرة وباتوا على حافة الهاوية"؟

على وجه العموم لم يكن النقص في عديد المراقبين وشح مواردهم هو العيب الوحيد الذي كان يعاني منه عمل هؤلاء، كما لم يكن الإهمال هو الشائبة الوحيدة التي كانت تشوبه، بل كان هناك التبذير، والغياب عن العمل، والتأخير في تسليم البذار أو الأدوات؛ والسلبية، واللامبالاة حيال بيع اليهود ممتلكاتهم؛ عداك عن سوء استخدام الصلاحيات المعطاة لهم: لقاء رشوة كانوا يحصلون على إذن بالغياب طويلاً عن مكان الإقامة والعمل، ولمّا كانت مثل هذه الأذونات تُمنح في الأساس للقوة العاملة في الأُسرة، لذلك سرعان ما كان ذلك يؤدي إلى انهيار الاستثمارة كلها.

ومن الصعب جداً أن نتحدث عن أيٍّ تحسُن في حالة المستعمرات اليهوديّة في الأعوام 1810 -1812م. "لقد تبددت أدوات العمل، أو تحطمت، أو أعطاها اليهود رهناً"، "ونُحرت الثيران من جديد، أو سُرقت وبيعت"، "كما كانت الحقول تُبذر في غير مواقيت البذار" (كانوا ينتظرون حلول أوان الدفء)، ولا يبذرون فيها إلاّ "البذار الرديء"، عداك عن أنهم ولم يزرعوا سوى الحقول القريبة من مساكنهم، وفي المكان نفسه، أمّا الأراضي البكر فلم يحرثوها، ومنهم من كان "يزرع الأرض عينها بالمحصول نفسه خمس مرات متتالية"، فلم يستبدلوا بالقمح البطاطا لو مرَّة واحدة. لذلك كان المحصول يأتي متدنياً في مرات كثيرة، بل في بعض الأحيان لم يكن يُعطي حتى بذاره. (لكنَّ شحَّ المحاصيل تحديداً هو الذي كان يسعى إليه المستوطنون كي يمنحوا الإذن بالغياب). ولم يحرصوا حتى على المواشي. فكانوا يؤجِّرون ثيرانهم، أو "يعملون عليها بالأُجرة، فيرهقونها، ولا يقدِّمون لها العلف، أو يستبدلون بها ثيراناً أخرى ينحرونها

ليستهلكوا لحومها في طعامهم، ثم يعلنون بعد ذلك أنَّها نفقت"، - فتمنحهم الإدارة ثيراناً جديدة بدلاً منها، أو إذناً بالعمل المأجور. "ولم يهتموا ببناء حظائر متينة تعوق اللصوص عن سوق الثيران منها ليلاً؛ وفي الوقت نفسه كانوا يغطون طول الليل في سبات عميق؛ كان الرعاة إمَّا من الأطفال، أو من الكُسالى العاطلين عن العمل الذين لم يولوا اهتماماً لسلامة القطيع"، وفي الأعياد وأيام السبت كانت القطعان تسرح وحيدة في المراعي (بل كانت ملاحقة اللصوص في يوم السبت محرَّمة). كما كانوا يلومون القلة من أبناء دينهم الذين كانوا يكدحون ويجمعون محصولاً مجزياً؛ كان يمكن أن تتهدد هؤلاء اللعنة التوراتية، وإلقاء التحريم عليهم: لأنَّهم "يُظهرون للمسؤولين أنَّ اليهود قادرين على النهوض بمتطلَبات العمل الزراعي، وعندئذٍ كانت الإدارة تُرغمهم على ممارسته". فهم "لم يثابروا على العمل في الزراعة ... وعزموا على التكاسل والإهمال ليبينوا أنَّهم غير مؤهلين لزراعة الأرض"، لقد كانوا يريدون أن يعودوا إلى "الاتجار بالخمور تحديداً، خاصة بعد أن سُمح لأبناء دينهم أن يتاجروا بها". كانت الدولة تشتري لهم أدوات العمل والبذار والمواشي مراراً وتكراراً، كما كانت تقدم لهم القرض تلو القرض ليشتروا الأعلاف. "كثيرون منهم كانوا يتسلمون القروض بصفتهم أرباب زراعات لكنَّهم لا يظهرون في مستوطناتهم إلاَّ وقت توزيع الأموال، ثم يرحلون بعد ذلك مع الأموال التي تسلموها إلى المدن والمستوطنات المجاورة ليعملوا في المهن"، "أمَّا الأراضي المعطاة لهم، فكانوا يتاجرون بها" وينطلقون ليجولوا من مكان إلى آخر، ويقيموا "في القرى الروسيّة أشهراً: أحياناً في أهم مواسم العمل"، "فيعللون الفلاحين بالوعود الكاذبة ويخدعونهم". وتبين جداول الإحصاء مراراً، أنَّ نصف العائلات متغيب من غير إذن أو بإذن، وأنَّ كثيراً منها غاب ولا أثر له. (وهاك مثالاً في مستعمرة عشوائية في مقاطعة كرسونيس تُدعى إسرائيل، "لم يكن مستوطنوها يتلقون أيَّ مساعدة من الدولة، لذلك رأوا أنَّ من حقهم العمل في مهن خفيفة، ولم يستوطنوا هنا إلاَّ كي يستفيدوا من

الامتيـازات": مـن 32 عائلـة لم يكـن يقـيم في المكـان فعـلاً سـوى 13 عائلـة، ولم تكن هذه العائلات تزرع إلاّ لتغطي نشاط العائلات الأخرى التي كانت تعمل في إدارة الخمّارات والحانات في المراكز المجاورة").

وأشـار كـثير مـن دوائـر التفتـيش مـرة أخـرى إشـارة خاصـة إلى أنَّ "عـزوف اليهوديـات عـن العمـل الزراعـي، كـان لـه دور حاسـم في تعويـق تحسـين مسـتوى معيشة المستوطنين اليهود". "فالنسوة اليهوديات اللواتي كنَّ قد بدأن يعتدن على العمل الزراعـي، ابتعدن بعد ذلك عنه". "وعنـدما كانـت اليهوديّة تتـزوج، كـان والـداها يشـترطان علـى العـريس في عقـد الـزواج ألاّ يرغمهـا علـى تأديـة الأعمـال الزراعية الشاقّة، ولا حتى على حمـل المـاء لتنظيـف المسـكن، بـل كـان عليـه أن يستأجر أحدهم لتأدية مثل هـذه الأعمـال؛ كمـا كـان عليـه أن يُعـدَّ لهـا "ثوبـاً، ومعطفاً من فراء الثعلب أو الأرنب، وإسواراً، وقبعة، بل ولؤلؤً أيضـاً". كانت هذه الشروط تُرغم الشبان "على تلبية مطالب زوجاتهم، فتفلس المزرعة؛ كانت "أشياء للبذخ والإسراف" عندهم مصنوعة مـن الحريـر، والفضـة، والـذهب، بينمـا كـان ثمة مستوطنون ليست لديهم ملابس شتوية. وكانـت الزيجـات المبكـرة تـؤدي إلى تكاثر اليهود "أسرع بكثير من تكاثر المستوطنين الآخـرين". ثم بعد أن تنقسم العائلات الجديدة يغدو هـؤلاء أقل عـدداً وأضـعف قـدرة علـى العمـل. أمَّـا احتشاد عدة عائلات في عدد قليل من المساكن، فقد كان يخلق بيئـة قـذرة، ويـؤدي إلى انتشـار مـرض الاسـقربوط (تُـزوَج الفتيـات الآن إلى مشَـان فيغـادرن المسـتوطنات نهائياً).

كانــت الإدارة الوصــائيّة قــد نقلــت أنَّ المســتوطنين اليهــود في مختلــف المستعمرات، يكـرِّرون شـكواهم مـن أنَّ أرض السـهوب "صـلبة إلى حـدٍّ يجعـل حراثتهـا تتطلـب اسـتخدام اربعـة ثيران"، كمـا كـانوا يشـتكون أيضـاً مـن شحِّ المحاصـيل، وقلـة المـاء، وغيـاب التدفئـة، وسـوء المنـاخ الـذي يـؤدي إلى انتشـار الأمـراض، عدا عن البرد الـذي يتلـف المحاصيل، والجـراد الـذي يـدمّر الخضـار.

كانت تُرفع شكاوى مبالغ فيها ضدّ المراقبين، لكنْ عندما كان يجري التحقق منها، كان يتبين أنّها مجرد لغوٍ لا معنى له. لقد كان المستوطنون لا يتوانون عن الشكوى من أبسط أمر يمكن أن يسبب لهم الإزعاج. "كانوا دائماً يبالغون في ادِّعاءاتهم" لكنْ "عندما تكون شكواهم محقّة، كانت الإدارة تلبي مطالبهم من غير تأخير". وما لم يشكوا منه هؤلاء هو الازدحام في أماكن العبادة، وقلة عدد المدارس (في العام 1829م لم يكن سوى أربعين مدرِّساً في ثمانية مستعمرات).

لكنْ، على حدّ قول نيكيتين: إنّه في ذلك السهل عينه، وفي تلك الأعوام نفسها، وفي تلك الأراضي البكر عينها، ومع وجود أسراب الجراد هذه نفسها، كان المستوطنون الألمان والمنيمونيتيون والبلغار يستصلحون الأرض نفسها، ويعانون من شحِّ المحاصيل عينه، ومن الأمراض نفسها؛ ومع ذلك كانت لديهم دائماً كفاية من المؤن والخبز والماشية، كما كانوا يقيمون في منازل رائعة ملحقة بها منشآت زراعية كثيرة، وبساتين غنية (كان الفرق يظهر بوضوح لا تُخطئه العين، عندما كانوا يدعون مستعمرين ألمان للإقامة في مستعمرات اليهود لينقلوا إليهم خبراتهم ويقدموا لهم نموذجاً، - عندئذٍ كانت منازل الألمان تتميز من بعيد، من النظرة الأولى). كما كانت هناك مستوطنات روسية مجاورة: محاصيلها أفضل بكثير من تلك التي كان يجمعها اليهود (وعلى أيٍّ حال كان منهم من بات مديناً لأغنياء اليهود، ويعمل في أراضيهم سداداً لديْنه). ويلاحظ نيكيتين في شرحه أنَّ الفلاَحين الروس على الرغم من "أنَّ عبء نظام القنانة الثقيل كان يرهقهم، إلاَ أنَّهم تحمّلوا وتجاوزوا الصعوبات كلّها بصبر وأناة". وها هم المستعمرون اليهود مع الخسائر التي تكبَّدوها جرَّاء مختلف النكبات، "جاءتهم بحبوحة السهوب لتقدم لهم بعض العون ... فقد جذبت هذه إليها الأقنان الهاربين من كل حدب وصوب، وكان هؤلاء يهبون المستعمرين المقيمين ما ينهبونه ويسرقونه من مواشي "وديكة حمراء" لقاء حمايتهم لهم من الملاحقات،

ويؤدون لهم عملهم الدؤوب المعتاد لقاء استضافتهم لهم. فالفلاحون اليهود بصفتهم أناساً دهاة عمليين، كانوا يستقبلون الفارين بودّ وترحاب، ولقاء ذلك كان هؤلاء يساعدونهم برحابة صدر على حراثة الأرض وبذرها وجمع المحصول"؛ كان بعضهم يعتنق اليهوديّة ليتمكّن من أن يتخفى بأمان أكثر. "لقد كان هذا يحدث فعلاً"، لذلك منعت الحكومة اليهود في العام 1820م من استخدام المسيحيين".

وفي تلك الأثناء، أي في العام 1817م كانت قد انتهت السنوات العشر التي مُنح المستوطنون اليهود فيها الإعفاء من تأدية الإتاوات، وباتوا الآن ملزمين بتأديتها مثلهم كمثل فلاّحي الدولة. فبدأت حركة واسعة للمطالبة بتمديد فترة الإعفاء خمسة عشر عاماً أخرى: كانت التماسات الإعفاء الجماعية ترد من المستوطنين والموظفين على حدٍ سواء. فأصدر الكونت غولتسين الذي كان صديقاً شخصياً للإسكندر الأول، ووزيراً للثقافة والشؤون الروحية والمسؤول عن تدبير شؤون اليهود، قراراً بإرجاء إتاوات اليهود لخمس سنوات أُخر، وتأجيل سداد القروض ثلاثين عاماً. "ووفاء للحقيقة التاريخية ينبغي أن نقول: إنَّ سلطات بطرسبورغ لم تُهمل أيَّ التماس رفعه اليهود سابقاً". وعثر نيكيتين بين تلك الالتماسات التي رفعها المستوطنون على "التماس فريد من حيث محتواه": "لقد بينت التجربة أنّه على الرغم من الأهمية العظيمة للزراعة في حياة البشرية، إلاّ أنّها تُعدُّ أكثر النشاطات بساطة، فهي تتطلب من القوى العضلية أكثر بكثير مما تتطلب من القوى الذهنية، لذلك يعهدون بها في شتى أرجاء الكرة الأرضية إلى أولئك الذين بسبب بساطتهم غير مؤهلين للعمليات المعقدة التي تؤديها طبقة الصناعيين أو التجار؛ فهؤلاء الأخيرون بصفتهم يمتلكون المواهب والمعارف، ويُعدُّون العامل الرئيس في ثراء الدول العظمى، كانوا يُمنحون في شتى الأزمنة الأفضلية على الفلاحين، ويُخصُّون باحترام خاص ... بيد أنَّ التصوّر الذي خلقه الافتراء على اليهود لدى الحكومة الروسيّة، نجح في سلب اليهود حرية التدرُّب على ما يتميزون به من مواهب في العمل التجاري، فأُرغموا على أن يتحولوا إلى مرتبة

الذين يحملون اسم الدهماء: الفلاحين. إنَّ المئتي ألف يهودي الذين رُحِّلوا في الأعوام 1807 -1809م من القرى (وأكثر هؤلاء من تجار الخمور)، كانوا مرغمين على الاستيطان في أماكن خالية ... غير مأهولة. لذلك التمسوا: إعادة تسميتهم من جديد "مشَان ... ومنحهم أُذونات رسمية ليغادر كلٌّ منهم إلى حيث يشاء". من الواضح إذن أنَّنا هنا أمام صيغ وضعها أُناس يدركون مغزاها بدقة ووضوح.

منذ العام 1814 حتى العام 1823 لم تحقق الاستثمارات اليهوديّة أي نجاح يُذكر. فقد بينت جداول الإحصاء أنَّ نسبة الأراضي المحروثة لا تتجاوز $\frac{2}{3}$ الهكتار من المساحة المخصصة لكل شخص! وتهرُّباً من العمل الشاق (كما يرى المراقبون) كان اليهود يلجؤون إلى العمل التجاري والمهني. وبعد حوالي نصف قرن كتب الباحث الاجتماعي اليهودي إ. غ. أورشانسكي يقول في سياق تفسيره لذلك السلوك: "كان من الطبيعي جداً أن يترك اليهود العمل الزراعي الذي انتقلوا إلى هنا ليمارسوه، بعد أن رأوا أمامهم ذلك الحقل الرحب من النشاط الصناعي غير المستثمَر، ويلتفتوا إلى الأعمال التي كانوا يألفونها أصلاً، عداك عن أنَّها كانت تعدهم بمردود أكبر من ذلك الذي كان يمكن أن يعطيه لهم العمل الزراعي ... فلماذا يُطلب منهم أن يعملوا في الزراعة التي لا يعرفون عنها أيَّ شيء وفشلهم فيها مؤكَد؟" -"بينما يغريهم العمل الذي اعتادوا عليه وهم يرونه يزدهر يوماً بعد يوم في المدن التي تولد لتوِها".

لكنَّ السلطات الروسيّة نظرت إلى هذا الأمر من وجهة مغايرة: يمكن أن يصبح اليهود في المستقبل "فلاحين ذوي نفع"، بينما لو "أُلحقوا بفئة المشَان لضاعفوا أعداد الطفيليين المدينيين". وها قد أُنفق على تسع مستعمرات يهودية 300 ألف روبل، وهو مبلغ مهول بأسعار تلك الأزمنة.

وها قد حل العام 1822م وانقضت بحلوله مدة الإعفاء الثانية من تأدية الإتاوات، بيد أنَّ الحالة المزرية التي كانت تعيشها الاستثمارات اليهوديّة كانت تقتضي مزيداً من الإعفاءات والدعم المالي: لقد رُصدت "أعلى حالات الفقر والإملاق في أوساط المستوطنين، وباتت الطفيلية حالة مستعصية، وتفشّت الأمراض، وارتفعت نسبة الوفيات، وشحّت المحاصيل وترسخ جهلهم بإدارة الأعمال الزراعية".

وفي غضون ذلك كانت محاصيل الأعوام 1816، 1817، 1822 ممتازة حتى بالنسبة إلى اليهود أيضاً. فجيل الشباب اليهودي أخذ يستوعب مهارات العمل الزراعي شيئاً فشيئاً. ولمّا رأى المستوطنون أنَّ جمع محصول جيّد أمر بمتناول اليد، أخذوا يستدعون أبناء جلدتهم من بيلوروسيا وليتوانيا حيث كانت المحاصيل هناك شحيحة في تلك الحقبة، فأخذت العائلات اليهوديّة تتوافد من هناك بموجب التماس رسمي أو من غير إذن، والأمر الرئيس هو أنّه في العام 1824م لاح خطر ترحيل الدفعة الأخيرة من سكان قرى الإقليم الغربي، ونحن كنّا قد رأينا أنَّ إجراءات كانت قد اتُخذت منذ العام 1821م مُنع على اليهود بموجبها الاتجار بالخمور في مقاطعة تشيرنيغوف، ثم امتدت بعد ذلك لتشمل ثلاث مقاطعات أخرى. وكان حكام الإقليم الغربي يأذنون بالرحيل لكلّ من كان يطلب ذلك، غير آبهين بما تبقّى من الأراضي الاحتياط المخصصة لليهود في نوفوروسيا. وجاءت التحذيرات من نوفوروسيا تؤكّد بأنّهم لا يستطيعون أن يستقبلوا أكثر من 200 عائلة في العام، بينما كانت قد اندفعت إلى هناك 1800 عائلة (تشتت في مختلف الأماكن، ومنها من وجد مستقراً له وهو في الطريق). فمُنعت مساعدة الخزينة الآن عن المستوطنين (مع أنَّ امتياز الإعفاء من تأدية الإتاوات لعشر سنوات كان لا يزال ساري المفعول)، لكنَّ الكاغالات نفسها كانت معنية بترحيل الفقراء كي تتقلص فيما بعد من حجم الإتاوات المفروضة عليها، فكانت تغطي جزءاً من نفقات رحيلهم على حساب موارد الطائفة. (كما

موقف الإسكندر الأول من اليهود

في العام 1823م منع الإسكندر الأول ترحيل اليهود. وفي العامين 1824 - 1825م شحَّت المحاصيل من جديد، ومرة أخرى ساندوا المستوطنين اليهود بالقروض (ولكنْ كيلا يوقظوا الآمال فيهم موَّهوا الأمر على المستوطنين وادَّعوا أنَّ السلفة دفعة شخصيّة يقدمها المراقب، أو أجر لقاء عمل ما). ومرة أخرى منحوا أُذونات بالانتقال إلى المدن. أمَّا الحديث عن بدء تسديد الإتاوات فلم يكن ممكناً حتى بالنسبة لمن كانوا قد هاجروا منذ ثمانية عشر عاماً. وبالتوازي مع ذلك، صدر في العام 1824م "مرسوم سامٍ ... قضى بأن يوقف اليهود تماماً مع حلول العام 1824م كل عملٍ لهم في ميدان الخمور في مقاطعات بيلوروسيا، وكل نشاط لهم في ميدان التعهدات والبريد، وعليهم حتى العام 1825م" أن يكونوا قد انتقلوا للإقامة نهائياً "في المدن والبلدات". ها هو الرحيل بدأ من جديد. ومع حلول شهر كانون الثاني من العام 1824م كان قد انتقل "حوالي عشرين ألفاً". وأمر القيصر علاوة على ذلك بالاهتمام بأساليب الصناعة وإطعام اليهود في أثناء ذلك الانتقال، حتى إذا بقوا من غير مأوى، لا يعانون من صعوبات في إيجاد القوت. لكنْ على الرغم من أنَّه تأسست لجنة خاصة من أربعة وزراء لتعنى بشؤون الترحيل (كانت الرابعة بخصوص المسألة اليهوديّة) إلاَّ أنَّه لم يُلحظ تحقيق أيِّ نجاح في موارد الخزنة، أو في تحسين أساليب عمل الإدارة، أو في البنية الاجتماعية للمجتمع اليهودي الذي لم تكن إعادة بنائه من الخارج سوى مهمة مستحيلة.

وفي هذا كما في كثير مما كان من قبل، نرى الإمبراطور الإسكندر الأول متهافتاً انفعالياً تعوزه الإرادة (كما في عجزه عن مواجهة الجمعيات السريّة التي كانت تنمو وتكبر وتخطّط للإطاحة بالعرش). بيد أنَّ قراراته لم تكن صادرة بأيِّ حال من الأحوال عن سوء نيّة تجاه اليهود. بل على الضد من هذا تماماً، كان الرجل صادقاً في تجاوبه مع مطالبهم، حتى في حرب 1812 -1814م كان في مقر قيادته العسكرية مندوبون يهود: زونديل زونينبيرغ، وليزير ديللون اللذان كانا يمثّلان اليهود (سرعان ما أُحيل ديللون إلى المحاكمة لاختلاسه ربع مليون روبل من خزينة الدولة وابتزاز الاقطاعيين. أمّا زونينبيرغ فقد حافظ طويلاً على مكانته لدى الامبراطور). وفي بطرسبورغ كان يعمل بأمر أصدره الإسكندر (في العام 1814م)، وفد يهودي دائم كانوا يجمعون له أموالاً من اليهود "لأنّه كان يبذل نفقات سرية كبيرة في المؤسسات الحكومية". فقد كان أعضاء الوفد يسعون للسماح لليهود "بالعمل في التجارة، والتعهدات، وتقطير الخمور" في شتى أرجاء روسيا؛ كما عملوا على "منحهم تسهيلات خاصة في تأدية الإتاوات"، "وإعفائهم من المستحقات المتأخرة"، وإلغاء السقف الذي يحد من عدد اليهود في عضوية المجالس البلدية، وكان القيصر يستمع بتفهم ويعد، لكنَّ هذه المطالب لم تتحقق.

في العام 1817م وصل إلى روسيا مبعوث الجمعية التبشيرية اللندنية المحامي المدافع عن حقوق اليهود، لويس فيبه بمهمة خاصة هي التعرف إلى أوضاع اليهود في روسيا، وقد استقبله الإسكندر الأول، فقدم له لويس مذكرة. "وبما أنَّ لويس كان على يقين بأنَّ اليهود أُمة ملكية خاصة فقد قال: إنَّ الشعوب المسيحيّة كلّها نالت الخلاص عبر اليهود، لذلك ينبغي عليها أن تخصَّهم بأرفع آيات التكريم والعرفان". وبما أنَّ الإسكندر كان في آخر سنيِّ عمره صوفيَّ النزعة، فقد أصغى بانتباه شديد لمثل هذا التعليل. وكان هو وحكومته يخشيان "أن يمسَّا الوصايا الدينية" اليهوديّة بسوء. كان الإسكندر يكنُّ احتراماً عميقاً

لشعب العهد القديم، ودينه، لذلك كان متعاطفاً مع حالته الراهنة. ومن هنا كان يبحث عن طريقة طوباوية يأتي عبرها بهذا الشعب إلى العهد الجديد. ولبلوغ هذا الهدف تأسست في العام 1817م بمباركة من الامبراطور "جمعية المسيحيين الإسرائيليين"، أي اليهود الذين اعتنقوا المسيحية (ليس بالضرورة على المذهب الأرثوذكسي)؛ وحصل هؤلاء على جملة من الامتيازات الوازنة: كان يمكنهم في كل مكان من روسيا أن "يعملوا بالتجارة، والحرفة، وينتسبوا إلى أيٍّ طائفة حرفية؛ كما أُعفوا هم وذريتهم كلّها إلى الأبد، من الخدمة الوطنية والعسكرية". لكنَّ هذه "الجمعية" لم تحظ بقبول واسع من جانب اليهود فانهارت.

الإسكندر الأول "وفطير صهيون"

تبعاً لحسن نوايا الإسكندر الأول تجاه اليهود، أوقف التحقيق بالاتهامات التي كانت توجَّه لهم بالقتل الطقوسي، ويبدو أنَّه كان على يقين تام ببطلانها (لم تكن مثل هذه الاتهامات معروفة في روسيا قبل انفصال بولونيا، لكنَّها انتقلت إليها من هناك. وفي بولونيا نفسها كانت هذه قد ظهرت منذ القرن 16م بعد أن انتقلت إليها من أوروبا، حيث كانت قد ظهرت لأول مرة في إنكلترا في العام 1144م، ثمَّ تكررت بعد ذلك في القرنين 12 -13م في اسبانيا وفرنسا وإنكلترا وألمانيا. وقد قاوم البابوات والملوك تلك الاتهامات، إلاَّ أنَّها لم تتوقف حتى في القرنين 14 -15م). وكان أول ادِّعاء عرفته روسيا في هذه المسألة قد حدث في العام 1799م، في سينو الواقعة في ضواحي فيتيبسك، لكنَّ المتهمين بُرِأت ساحتهم لعدم كفاية الأدلة. أمَّا غرودنينسكي (العام 1816م) فلم يوضع له حد بموجب "مرسوم سام" فقط، بل حفز وزير الشؤون الروحية غوليتسين ليرسل أمراً إلى سلطات المقاطعات كلّها مفاده: عدم اتهام اليهود من الآن وصاعداً "بقتل أطفال مسيحيين، إذا لم يكن هناك أدلّة دامغة، ولا يجوز الاستناد في قبول الاتهام إلى عقائد خرافية باطلة". وفي العام 1822 -1823م ظهر ادِّعاء آخر مثل هذا الادعاء في فيليج، في مقاطعة فيتيبسك أيضاً. لكنَّ محكمة فيتيبسك أقرَت في العام 1824م ما يلي: اليهود "الذين وُجه إليهم اتهام افتراضي بقتل هذا الفتى، بناء على شهادات كثير من المسيحيين الذين زعموا أنَّهم قتلوه ليستخرجوا دمه، غير مشتبه بهم". بيد أنَّ الإسكندر الأول الذي حكم ربع قرن، لم يركز اهتمامه يوماً في البحث عن حل للمسألة اليهوديّة في روسيا تقبل به الأطراف كلها.

فما العمل مع هذا الشعب المنعزل الذي لم يتلاءم بعد مع روسيا، وتتزايد أعداده يوماً بعد يوم؟ هذا ما فكّر به أيضاً خصم الامبراطور، الديكابري بيستيل في خلال بحثه عن حل لمستقبل روسيا التي كان يُزمع قيادتها. فاقترح في صحيفة "روسكايا برافدا" مخرجين. إمّا إدغام اليهود إدغاماً فعلياً بسكان روسيا المسيحيين: "قبل كلّ شيء يجب حماية المسيحيين من التأثير السلبي عليهم، الذي تمثّله العلاقة الوثيقة بين اليهود والموجهة أصلاً ضدّهم، وهي العلاقة التي تُبعدهم تماماً عن السكان الآخرين كلّهم ... ودعوة أكثر الرابيين علماً، وأكثر اليهود موهبة، والاستماع إلى رؤاهم ثم اتخاذ الإجراءات بعد ذلك ... إذا كانت روسيا لا تطرد اليهود، فينبغي عليهم ألاّ يضعوا أنفسهم في موقع العداء للمسيحيين". أمّا المخرج الثاني "فيتلخّص في مساعدة اليهود على إنشاء دولة خاصة بهم في شطر ما من آسيا الصغرى. ولتحقيق ذلك يجب إنشاء مركز يتجمع فيه الشعب اليهودي ويُلحق به عدد من القوات لدعمه" (الفكرة قريبة جداً من فكرة الصهيونية التي ستظهر فيما بعد). فاليهود الروس والبولونيون يشكلون معاً أكثر من مليوني نسمة. "وهذا العدد من الناس الذين يبحثون عن وطن، لن يكون عاجزاً عن تجاوز العوائق التي يمكن أن يضعها الاتراك أمامهم، وبعد أن يعبروا أوروبا وتركيا ويصلوا إلى آسيا ويشغلوا هناك ما يكفيهم من الأراضي، فلينشئوا عليها دولتهم اليهوديّة الخاصة بهم". لكنّ بيستيل يبادر من فوره ويضع تحفظاً سليماً تماماً: "لكنّ هذا المشروع العملاق يتطلب تقاطع شروط خاصة ومراساً حقيقياً مهولاً".

الكاغال في مواجهة تدخُّل الدولة في الشأن اليهودي

في مشروع الدستور الذي وضعه الديكابري الآخر نيكيتا مورافيوف، اشترط هذا الأخير أن يكون "لليهود حقوق المواطنية في الأماكن التي يقيمون فيها، لكنَّ حرية انتقالهم للإقامة في أماكن أخرى ستكون مشروطة بتعليمات خاصة تصدر عن الندوة الشعبية العليا". وفي غضون ذلك لجأ التنظيم الكاغالي الداخلي للسكان اليهود في روسيا إلى شتى الأساليب والوسائل، وبذل كل ما استطاع من قوى لمقاومة تدخّل سلطة الدولة، وأيِّ مؤثرات خارجيّة أخرى في حياة اليهود الداخليّة. لكن كيف نظروا إلى هذا؟ من وجهة النظر الدينيّة الأصوليّة، كما يشرح بعض المؤلفين اليهود، أنَّ العيش في الشتات ليس سوى عقاب أُنزل بإسرائيل على آثامها السابقة. وينبغي أن تُعاش معاناة هذا الشتات حتى يستحقّ اليهود مغفرة الرب، ويعودوا إلى فلسطين. ولبلوغ ذلك يجب العيش بحسب الناموس وعدم الاختلاط مع الشعوب المجاورة، وفي هذا على وجه التحديد يكمن الاختبار. أمَّا المؤرخ اليهودي الليبرالي في أوائل القرن العشرين فيرى: أنَّ "الطبقة الحاكمة عاجزة عن أيِّ عمل بنَّاء، وهي غريبة عن روح العصر، فوجهت طاقاتها كلّها لعزل الحياة الدينية الأهليّة المتحجرة عن طعنات الزمن سواء من الداخل أو من الخارج". فالكاغال كانت تخمد بقسوة حتى أضعف الأصوات الساخطة. "والإصلاح الثقافي التنويري الذي أعدت له مبادئ العام 1804م كان يتلخص في التخفيف بعض الشيء من الاغتراب الديني الأهلي اليهودي لو من حيث الشكل، لكنْ من غير اللجوء إلى الإرغام، بل مع الإبقاء على خرافاتهم"؛ "هذه التعليمات أقلقت الكاغال كثيراً ... ففيها كان يتخفَى الخطر على سيطرتها

على الشعب"، وكان أكثر بنود المبادئ حساسية بالنسبة إلى الكاغال هو "منع إنزال عقوبة الحرمان بالعُصاة"؛ "كي يبقى الشعب في تبعية عبودية كان ينبغي ألاّ يُسمح بإدخال أيّ جديد كان إلى النمط الاجتماعي الذي كان استقرّ على مدى قرون، حتى تغيير نمط الملابس كان ممنوعاً". بيد أنّنا يجب ألاّ ننكر أنّ الكاغالات كانت تستخدم معايير عقلانيّة لتنظيم حياة اليهود، كمعيار السماح أو عدم السماح لبعض أعضاء الطائفة بقبول التعهد المعني أو عدم قبوله، وهو ما كان يضع حداً للمبالغة في المضاربة بين المتعهدين اليهود أنفسهم. "لا تعتد على حدود قريبك".

في العام 1808م رفع أحد اليهود مذكرة مغفلة (خوفاً من الكاغال)، إلى وزير الداخلية حملت العنوان الآتي: "بعض الملاحظات بخصوص تدبير شؤون اليهود". وقد جاء فيها ما يلي: "كثيرون لا يرون في الطقوس والمعايير التي لا عدَّ لها طقوساً ومعايير مقدسة ... فهي تصرف الانتباه عن كل ما فيه منفعة، وتبقي الشعب عبداً للخرافات، وتشغل كثرتها جلَّ الوقت، وتسلب من اليهودي فرصة أن يغدو مواطناً صالحاً". ثم أشار إلى أنّ "الرابينيين يقيدون حياة اليهودي بشبكة من التعليمات والفرائض التي لا مصلحة لأحد فيها سواهم"، فاحتكروا الحياة الروحية والسلطة التشريعية، والسلطة البوليسية، وها هي "دراسة التلمود وتأدية الشعائر كسبيل وحيد للتميُّز واكتساب البحبوحة، أضحت الحلم الرئيس الذي يسعى اليهود لتحقيقه"؛ ومع أنَّ مبادئ "الحكومة قلّصت من حقوق الرابينيين والكاغالات، لكنَّ المبادئ الروحية السابقة بقيت هي السائدة في الأوساط الشعبية". ورأى مؤلّف المذكرة في الرابينيين والكاغالات، السبب الأساس لجهل الشعب وفقره".

وكتب الناشط الاجتماعي اليهودي الآخر، هيللر ماركيفيتش، وهو بروسي الأصل، كتب يقول: إنَّ أعضاء كاغال فيلنوس يلاحقون كل من يفضح ممارساتهم المخالفة للقانون، ويضطهدونه بقسوة؛ وبعد أن سُلبوا الآن حق المعاقبة

بالحرمان، باتوا يرمون بفاضحيهم "في السجن لزمن طويل ... وإذا استطاع أحدهم أن يجد طريقة يرفع بها شكوى من داخل السجن إلى السلطات العليا، يرسلونه بجهود المستخدَمين إلى العالم الآخر"؛ وعندما كان يُفتضح أمر مثل هذه الجرائم، كان أعضاء الكاغال ينفقون مبالغ طائلة لكتمان الأمر". وقد رأى إ. يو. غيسين أنَّ هذا الخبر "لا يفتقر إلى الأدلّة، وأنّه ينسحب إلى هذه الدرجة أو تلك على الكاغالات الأخرى". وثمة لدى مؤرخين يهود آخرين أمثلة غير قليلة على عمليات قتل تمّت بأمر من الكاغال مباشرة.

كان الكاغالات يعتمدون أساساً على المغزى الديني لتحركاتهم في مواجهة إجراءات الحكومة. "وفي سعيه للاحتفاظ بسلطته على الشعب، كان التحالف الكاغالي -الرابيني يؤكد للحكومة ... أنَّ كلّ فعل يأتيه اليهودي، خاضع بالضرورة لهذا الالتزام الديني أو ذاك؛ الأمر الذي زاد من الدور الذي يؤديه الدين"، ونتيجة لهذا "سادت في الأوساط البيروقراطية وجهة نظر لا ترى في اليهود أعضاء مجموعات اجتماعية مختلفة، بل أقلية دينية متماسكة متراصة"، لذلك كانوا يرون في عيوب أيِّ يهودي، وفي الأخطاء التي يرتكبها أفراد يهود، جزءاً لا يتجزأ من البنية اللاأخلاقية للعقيدة الدينية اليهوديّة. "ولم يكن التحالف الكاغالي - الرابيني يريد أن يرى أو يسمع أيَّ شيء. وبسط بسلطته حجاباً سميكاً على جماهير اليهود ... فكانت سلطة الكاغال تمتدّ وتمتدّ على الرغم من أنَّ حقوق شيوخ الكاغالات والرابينيين، كانت قد تقلّصت كثيراً" بموجب مبادئ العام 1804م. "لكنّهم عوّضوا ما خسروه باكتساب الكاغال – وإن كان إلى حدٍّ ما - دور المؤسسة التمثيلية الذي أدّته في بولونيا. كانت الكاغال مدينة بتعزيز أهميتها لمجلس المندوبين". ففي العام 1807م انتُخب مثل هؤلاء المندوبين عن المشاعات اليهوديّة في المقاطعات الغربية لمواصلة البحث مع الحكومة في الشؤون المتعلقة بحياة اليهود، وبقي مجلسهم يعمل بشكل دوري طول ثمانية عشر عاماً. وكان المندوبون يسعون قبل كل شيء من أجل إعادة حق الحرمان إلى الرابينيين؛

"فقد أعلنوا أنَّ حرمان الرابينيين من حق معاقبة العُصاة، مخالف لفريضة الاحترام الروحي التي ينبغي على اليهود أن يؤدوها بحسب الناموس للرابينيين. ونجحوا في أن يوحوا لأعضاء اللجنة (لجنة السناتور بوبوف، 1809م) بأنَّ سلطة الرابينيين هي سند لسلطة الحكومة الروسيّة. ولم يصمد أعضاء اللجنة أمام تهديد المندوبين بأنَّ اليهود حينما يتملّصون من سلط الرابينيين سينحرفون نحو الاستهتار والفساد والفجور، وكانت اللجنة على استعداد تام للحفاظ على حرمة كلّ ذلك النظام البدائي، فقط كي تتفادى التداعيات السلبية التي تحدَّث المندوبون عنها ... ولم تتبين اللجنة من هم الذين يرى فيهم المندوبون مجرمين بحق الناموس الروحي؛ فلم يخطر ببال أعضائها أنَّ المقصود بهؤلاء هم أولئك الذين كانوا يسعون لاكتساب الثقافة والعلم؛ فقد ركّز المندوبون جهودهم لتعزيز سلطة الكاغالات، ووضع حدّ لحركة التنوير وخنقها في مهدها. كما نجح المندوبون أيضاً في إلغاء القيود والإجراءات التي كانت قد فُرضت من قبل على زيِّ الملابس اليهودي التقليدي القروسطي، الذي كان يميز اليهود على نحو فاضح، عن العالم المحيط بهم كله. حتى في ريغا لم يُعمل بالقانون الذي فرض على اليهود ارتداء الرداء الألماني"، فأرجأ الامبراطور نفسه العمل بالقانون حتى التشريعات الجديدة.

لكنَّ مساعي المندوبين لم تتحقق كلّها، بل لم يتحقّق منها سوى بعضها فقط. كانت المساعي تحتاج مالاً "وليجمع المندوبون المال اللازم، بثُّوا الخوف في أوساط مجتمعاتهم حينما نقلوا إليها أخباراً قاتمة عن نوايا الحكومة، وضخّموا كثيراً من الشائعات التي كانت تتناقلها أوساط العاصمة". لكنَّ ماركييفيتش فضح نفاق المندوبين في العام 1820م.، إذْ "أشاعوا أخباراً كاذبة عن سابق قصد ... كي يرغموا السكان على أن يجمعوا المبلغ الذي تطلبه الكاغال".

في العام 1825م حُلَّ مجلس المندوبين اليهود. وما فاقم من حالة التوتُر بين السلطات والكاغالات، أنَّ الكاغالات وحدها التي كانت مخولة حق جباية

إتاوة النفس من السكان اليهود، فكانت تخفي عن لجان التفتيش عدد "النفوس" الحقيقي. "لقد كانت الحكومة تريد معرفة العدد الحقيقي للسكان اليهود، لتجبي منهم الإتاوة المناسبة"، وكانت معرفة هذا العدد ذات أهمية كبيرة. ففي بيرديتشيفا على سبيل المثال "كان عدد السكان اليهود غير المسجلين، يقارب دائماً نصف عدد السكان اليهود المقيمين فيها فعلاً". (بحسب المعطيات الرسمية التي استطاعت الحكومة تحديدها، كان عدد اليهود في العام 1818م 677 ألفاً، وكان هذا الرقم رقماً عالياً: مثلاً بالمقارنة مع العام 1812م تضاعف عدد الرجال على نحو مفاجئ، - لكنَّ الرقم بقي متدنيّاً جداً، ويجب أن نلحق به علاوة على ذلك حوالي 400 ألف يهودي في مملكة بولونيا). لكنْ حتى مع هذه الأرقام المتدنيّة التي كانت الكاغالات تعلن عنها، كان النقص في جباية الإتاوات يحصل في كلِ عام، بل كان يتزايد عاماً بعد عام. وقد عبَّر الإسكندر الأول بنفسه لممثليِّ اليهود عن سخطه من هذا الاختلاس المفضوح (ومعه عمليات التهريب الواسعة التي يقوم بها اليهود)، وتراكم المستحقات المتأخرة. وفي العام 1817م صدر أمر بإلغاء الغرامات المتراكمة، والمستحقات المتأخرة كلّها، كما أُعفي بموجبه من المساءلة كل الذين اتُهموا بتقديم إحصاءات سكانيّة مزورة، لكنْ شريطة أن تقدم الكاغالات ابتداء من الآن وصاعداً معطيات دقيقة. بيد أنَّ هذا بدوره لم يعط أيَّ نتيجة.

الزواج المبكّر عند اليهود وتداعياته

في العام 1820م أعلن وزير المالية أنَّ كلَّ الإجراءات التي كانت تهدف إلى تحسين الحالة الاقتصادية للشعب اليهودي، بقيت من دون نتيجة ... وكثير من اليهود يجوبون البلاد من غير وثائق؛ ثمَّ جاء الإحصاء السكاني الجديد ليعطي رقماً يزيد ضعفين، بل ثلاثة أضعاف عن الأرقام التي كانت قد صرَحت عنها المشاعات اليهوديّة من قبل. وفي الوقت نفسه كانت أعداد السكان اليهود تتزايد وتتزايد. وقد رأى كثير من الباحثين أنَّ شيوع الزواج المبكر في أوساط اليهود يكاد يكون السبب الرئيس في ذلك: كانوا يزوجون الفتى في سنِّ الثالثة عشرة، والفتاة في سن الثانية عشرة. ففي التقرير المغفل الذي أشرنا إليه من قبل، كتب اليهودي المجهول يقول: إنَّ عُرف الزواج المبكر هذا "هو علّة كثير من الشرور"، فهو يمنع اليهود عن ترك "تلك الأعراف والأفعال المتأصلة التي تجلب لهم السخط العام، وتجعل منهم عامل أذى للآخرين ولأنفسهم". فقد ساد بين اليهود عُرف "ازدراء من لم يتزوج في سنٍ مبكرة"، "حتى الفقراء منهم كانوا يعتصرون آخر قواهم ليتمكنوا من تزويج أبنائهم في سنٍ مبكرة، على الرغم من أنَّ معاناة مريرة وعيشة فقر مدقع كانتا بانتظار هؤلاء. كان الرابينيون هم الذين سنُّوا سنَّة الزواج المبكر التي كانت تدرُّ عليهم موارد مهولة. فمن يقرأ التلمود بغيرة ويلتزم بتأدية الطقوس، يوهب زيجة رابحة ... والناس الذين تزوجوا باكراً لا يفعلون شيئاً سوى دراسة التلمود، وحينما يحين في آخر الأمر أوان العيش المستقل، كان أرباب العائلات هؤلاء يجدون أنفسهم غير مؤهلين لأيِّ عمل كان، ولا يعرفون الحياة البتة، فيلتفتون إلى الاتجار بالخمور وتجارة الخردة".

والحالة نفسها في ميدان الحرفة: "عندما يتزوج التلميذ وهو بعد في الخامسة عشرة من عمره، وقبل أن يكون قد أتقن مهنته، يغدو ربَّ مهنة فيُفسد العمل فحسب". (في أواسط العشرينات "شاعت في مقاطعتي غرونـدين وفيلنوس شائعة مفادها أنَّ الزواج قبل بلوغ سنِّ الرشد، سوف يُمنع، فأسرعوا يعقدون عقود القران بين الأطفال حتى من كان لا يزال منهم في التاسعة من عمره"). لقد أوهنت الزيجات المبكرة الحياة الشعبيّة اليهوديّة. ففي ظل مثل ذلك العيش الصاخب والازدحام السكاني الكثيف والتنافس الحاد في مهن متماثلة، كيف لا يظهر الفقر؟ كما ساهمت سياسة الكاغالات نفسها في "تفاقم سوء الحالة الماديّة لليهود".

في العام 1807م أصدر التلمودي البارز ميناشيه إيلير كتاباً وأرسله إلى الرابينيين (سرعان ما سحبته الرابينية من التداول، أمَّا كتابه الثاني فقد أُحرقت أعداد كبيرة منه)، لقد أبرز إيلير في كتابه ذاك: "الجوانب المظلمة في حياة اليهود. فقال: إنَّ الفقر عظيم، لكنْ هل يمكن أن يكون الأمر على نحو آخر حينما يكون عدد الأفواه عند اليهود أكثر من الأيدي العاملة؟ ينبغي إفهام العامة بأنَّ وسائل العيش يجب أن تُكتسب بالعمل ... فالشباب يتزوجون من غير أن يكون لديهم أيُّ مورد رزق، بل يعتمدون على الرحمة الإلهية، ومحفظة والد العروس، وعندما ينهار هذا الدعم وتكون أعباء العائلة قد تضاعفت مع تضاعف عدد أفرادها، يتمسَّك ربُّ العائلة هذا بأول عمل يقع عليه، حتى لو لم يكن هذا العمل شريفاً. فيتهافتون على التجارة زرافات، بيد أن هذه عاجزة عن كفاية الكل، لذلك يلجؤون إلى الغش والخداع. ولهذا من المستحسن لو يتجه اليهود إلى العمل الزراعي. فثمة جيش من المتسكعين الذين لا يعملون شيئاً، يتسترون وراء قناع "العلم"، ويعيشون على الحسنات، وعلى حساب المشاعة. لا أحد يهتمّ بالشعب: الأثرياء مشغولون بالبحث عن الربح، والرابينيون بالنزاع بين الحسديين والميتناغديين" (اليهود الأُصوليين المتزمتين)، والهمُّ الوحيد الذي يشغل الشخصيّات اليهوديّة هو تفادي "الرزايا التي تلبس لبوس الأوامر الحكومية حتى لو كان فيها

خير الشعب". وهكذا "كان النشاط التجاري -الصناعي الصغير، والسمسرة أهمَّ مصدر لعيش السواد الأعظم من السكان اليهود"، "فقد أتخم اليهود المدن بالمصانع الصغيرة وتجارة الخردوات".

فكيف يمكن أن يكون اقتصاد الشعب اليهودي سليماً معافى في ظل مثل هذه الظروف؟ على أيّة حال، في أواسط القرن 20م كتب أحد المؤلفين اليهود عن تلك الآونة يقول: "صحيح أنَّ عامة اليهود عاشوا في فقر وضيق. لكنَّ الجماعة اليهوديّة على وجه العموم لم تكن فقيرة". وهنا تأتينا معطيات مثيرة من حيث لا ننتظر: كيف رأى جنود جيش نابليون في العام 1812م حياة اليهود في المقاطعات الغربية التي كانوا قد عبروها؟ في ضواحي داكشينا كان اليهود "أغنياء ميسوري الحال، يديرون تجارة واسعة مع بولونيا الروسيّة كلّها، بل كانوا يشاركون في معرض لايبزغ أيضاً". وفي غلوبوك "كان يحق لليهود استخراج الكحول وتصنيع الفودكا والعسل"، كما كانوا "متعهدي الخمارات والحانات والنُزل الواقعة على الطرقات الرئيسة، أو مالكين لها". ويهود ماغيلوف كذلك "ميسورو الحال، يديرون تجارة واسعة" (لكنْ "كان إلى جانبهم فقراء معدمون"). "لقد حظي اليهود المحلّيون كلهم تقريباً بامتياز المتاجرة بالكحول. وكانت العمليات الماليّة متطوِّرة جداً في أوساطهم". وثمة شهادة أخرى من شاهد حيادي: "في كييف ... أعداد لا تُحصى من اليهود". والطابع العام الغالب على حياة اليهود فيها هو الاكتفاء، لكنّه ليس عامّاً شاملاً.

من الوجهة السيكولوجية، اكتشف المراقبون في الحياة اليومية "سمات خاصة" تميز اليهوديّة الروسيّة: "الحرص الشديد ... على مستقبلها وخصوصية ... طرق صراعها ودفاعها عن نفسها". لقد حافظ نمط الحياة على الكثير – وجود صيغة اجتماعيّة سلطويّة مهيبة للحفاظ على خصوصية العيش"؛ "كانت عملية إعداد الشعب للتلاؤم مع الظروف المستجدة عملية جماعيّة إلى حدٍّ بعيد"، ولم تكن عملية فرديّة. وينبغي أن نثمّن حقاً التداخل والوحدة العضويين اللذين في

النصف الأول من القرن 20م.، "منحا اليهوديّة الروسيّة طابع العالم المتميز. لقد كان ذلك العالم عالماً متراصاً، محدوداً، يعاني من التعسف والاضطهاد، مرتبطاً بالمعاناة والآلام، والحرمان، بيد أنّه مع ذلك كان عالماً واحداً. لم يكن الإنسان فيه يختنق. بل كان يمكن للمرء أن يشعر فيه بسعادة العيش، كما كان يمكن أن تجد فيه ... الغذاء المادّي والغذاء الروحيّ، وأن تبني فيه حياتك على النحو الذي يروق لك ... وما كانت له أهمية خاصة، هنا هو أنَّ الصفات الروحيّة كانت ترتبط بالمعرفة التقليديّة واللغة اليهوديّة". مع أنَّ المؤلّف الآخر للمجموعة عينها عن اليهوديّة الروسيّة، يشير إلى أنَّ: "الحرمان من الحقوق، والعوز المادّيّ، والقهر الاجتماعيّ، حال دون تعزيز الشعور بالذات واحترامها في الأوساط الشعبيّة".

ومثلها كمثل كلّ مسألة تتعلّق باليهودية، تتسم لوحة تلك السنين هنا بكثير من التعقيد. ينبغي ألاّ نغفل هذه الحقيقة أبداً في المستقبل عندما نتحدَّث عن الحركة، بل يجب أن تبقى نصب أعيننا دائماً، وألاّ نشمئزّ من التناقضات الظاهرية بين مختلف المؤلفين.

"فاليهوديّة [اليهوديّة الأوروبيّة الشرقيّة] التي كانت في زمن ما، قبل الطرد من اسبانيا، تسير في مقدمة الشعوب الأخرى على طريق التقدُّم، وصلت الآن [في النصف الأول من القرن الثامن عشر] إلى حدّ الشحّ الثقافيّ الكامل. باتت مسلوبة الحقوق، معزولة عن العالم الخارجي فانكفأت وتقوقعت على ذاتها. تجاوزها عصر النهضة وعبر من غير أن يلامسها، كما تجاوزتها الحركة الفكريّة التي اجتاحت أوروبا في القرن الثامن عشر من غير أن تلقي إليها بالاً. بيد أنَّ هذه اليهوديّة كانت صلبة متماسكة في داخل ذاتها. فاليهوديّ المكبّل بعدد لا يُحصى من الفرائض والمحظورات الدينيّة، لم يكن يشعر بوطأتها أبداً، بل على الضدّ من هذا كان يرى فيها معيناً من السعادة لا ينضب. لقد وجد عقله رضى وقناعة في جدليّة التلمود الحاذقة، واحتشد شعوره في صوفيّة القبّالة. حتى دراسة التوراة تراجعت، وباتت معرفة قواعد النحو كفراً".

المنوِّرون اليهود الأوائل

لم تبدأ حركة اليهود نحو التنوير العصري إلاّ ابتداء من النصف الثاني من القرن الثامن عشر في بروسيا، وحملت هناك اسم هاسكالا (التنوير). كانت تلك الحركة حركة يقظة فكرية سعت إلى استيعاب الثقافة الأوروبية والنهوض بسمعة اليهوديّة ومكانتها التي كانت قد تدنّت في أعين الشعوب الأخرى. ومع البحث في ماضي اليهود التاريخي من موقع نقده، سعى نشطاء الهاسكالا – "المتصوِّفة" (المتنوِرون) إلى المواءمة بين الثقافة اليهوديّة والمعرفة الأوروبيّة. وعزموا في بادئ الأمر على عدم الخروج من اليهوديّة التقليديّة، لكنْ ما إن استغرقوا حتى أخذوا يتخلّون عن التقاليد اليهوديّة ويميلون إلى الادِّغام، بل عبَّروا في أثناء ذلك عن "ازدرائهم ... بلغتهم الشعبية" (أي للغة العبرية). وفي بروسيا لم تستمرّ هذه الحركة سوى جيل واحد، لكنّها سرعان ما قفزت إلى المقاطعتين السلافيتين في الإمبراطوريّة النمساويّة – بوهيميا، وهاليسيا. ففي هاليسيا كان أنصار الهاكسالا مستعدُين بمزيد من المَيْل نحو الادِّغام، إلى فرض التنوير على جماهير اليهود بالقوة، بل "غالباً ما كانوا يلجؤون إلى طلب العون من السلطات" لبلوغ ذلك. وكان عبور الناس والتأثيرات حدود هاليسيا مع المقاطعات الروسيّة الغربية، أمراً في غاية السهولة. على هذا النحو تسرَّبت هذه الحركة إلى روسيا، لكنّها تأخّرت مئة عام.

في روسيا منذ بداية القرن التاسع عشر، كانت الحكومة "قد سعت من خارج حدود الدين وطقوسه، إلى تجاوز ... العزلة اليهوديّة"، هذا ما عبَّر عنه مؤلِف يهودي بعبارات لطيفة، وأكّد هذا في غضون ذلك أنَّ الحكومة الروسيّة

لم تنهتك حرمة الديانة اليهوديّة في شيء، ولم تمسَّ الحياة الدينيّة لليهود. ونحن كنّا قد رأينا أنَّ مبادئ العام 1804م فتحت أبواب المدارس والمعاهد والجامعات على مصاريعها أمام أبناء اليهود. لكنَّ "الطبقة الحاكمة اليهوديّة وجهت مساعيها كلّها لخنق ذلك الإصلاح الثقافي التنويري في مهده"، "لقد استنفرت الكاغال قواها كلها، وحشدتها لتطفئ أيَّ بصيص نور قد ينير عقول اليهود". "وللحفاظ على أُسس الواقع الدينيّ الاجتماعيّ التي كانت قد تشكّلت منذ القدم ... عملت الرابينية والحسدية معاً على خنق أولى إرهاصات الثقافة الزمنيّة في مهدها".

"وها هي العامّة تنظر برعب وريبة إلى المدرسة الروسيّة، ولا تريد حتى أن تسمع عنها". في العام 1817م ثم في العام 1821م تمَّ رصد عدد من الحالات في مختلف المقاطعات، تمنع فيها الكاغالات الأطفال اليهود من تعلُّم اللغة الرّوسيّة، أو دخول أيِّ مؤسّسة تعليميّة روسيّة. وأصرَّ المندوبون اليهود في بطرسبورغ على أنَّهم "لا يرون من الضروري تأسيس أيِّ مدارس يهوديّة تُدرَّس فيها أيُّ لغة أخرى غير اللغة اليهوديّة". ولم يعترفوا إلاّ بالخيدير (أي المدرسة الابتدائية لتعليم اللغة اليهوديّة)، والإيشيبوت (أي المدرسة العليا لتعميق المعارف التلموديّة)؛ كان لكلّ مشاعة كبيرة إيشيبوتها تقريباً. لقد كانت جماهير اليهود في روسيا تعيش كما لو كانت مسحورة وعاجزة عن الخروج من حالة السحر تلك بمفردها.

لكنَّ المنوِرين الأوائل خرجوا من أوساط تلك الجماهير نفسها، إلاّ أنَّهم كانوا عاجزين عن زحزحة أيِّ شيء كان من غير مساندة السلطات الروسيّة. وكان أول أولئك المنوِرين هو اسحق بن ليفينزون، العالِم الذي عاش في هاليسيا على تواصل مع شخصيات الهاسكالا هناك، ولم ير هذا في الرابينية وحدها، بل في الحسدية أيضاً، علّة كثير من الرزايا التي حلّت بالشعب. فاستناداً إلى التلمود نفسه، والدراسات الرابينية، برهن في كتابه "إرشاد إسرائيل"، أنَّ معرفة اللغات الأخرى ليست محرَّمة على اليهوديّ، لا سيما اللغة الرسمية في الدولة التي يعيش

فيها، لأنَّ لها أهميّة كبيرة في حياته الخاصّة والعامّة؛ وأنَّ الاطلاع على العلوم الزمنيّة لا يشكّل هو الآخر أيَّ خطر على الشعور الديني - القومي؛ وأنَّ غلبة الأعمال التجاريّة هي التي تخالف التوراة والعقل، وأنّه من الضروري تطوير العمل المنتج. لكنَّ ليفينزون ألفى نفسه مضطراً إلى قبول إعانة من وزارة الثقافة لإصدار كتابه هذا، بل كان على يقين بأنَّ الإصلاح الثقافي في اليهوديّة لا يمكن أن يتحقق من غير مساندة السلطات.

أمَّا المنوِر الثاني، فهو المعلِّم الوارسوي غيزيانوفسكي الذي كتب مذكرة رفعها إلى السلطات لم يستند فيها إلى التلمود، إنَّما اتخذ موقفاً حاسماً ضده، واتهم الكاغالات والرابينات بأنَّهما السبب في "حالة الركود الروحيّ التي تحجِّر الشعب اليهودي فيها"؛ وأنَّ إضعاف سلطتهما وحده الذي يمكن أن يفتح الباب أمام إنشاء مدرسة زمنية؛ كما دعا إلى التحقّق من صلاحية الميلاميديين (أي المعلّمين الذين يعلّمون في الخيديرات)، وعدم السماح إلاّ لمن تثبت صلاحيته التربوية والأخلاقية بأن يدرِس فيها؛ ودعا إلى إبعاد الكاغال عن إدارة الشؤون المالية؛ وزيادة سنِّ السماح بالزواج.

وقبل هذين المنوِّرين كان هيللر ماركييفيتش الذي سبق ذكره، قد كتب في مذكرة رفعها إلى وزير المالية قال فيها: إنَّ إنقاذ الشعب اليهودي من حالة الانهيار الروحيّ والاقتصاديّ التي يتخبَط فيها يتطلَب وضع حدٍّ لوجود الكاغالات؛ ينبغي تعليم اليهود اللغات، وتنظيم عملهم في المعامل، والسماح لهم بالعمل التجاري في شتى أرجاء البلاد، والإفادة من عمل المسيحيين. فيما بعد، في ثلاثينات القرن، كرَّر كثيراً من هذه المطالب أيضاً، ليتمان فيغين، التاجر المستورد التشيرنيغوفي الكبير، وألحَّ بها على نيقولاي الأول، عبر بينكيندورف (كان فيغين يحظى بدعم قوي في الأوساط البيروقراطيّة). لقد دافع هذا عن التلمود، لكنّه اتهم الميلاميديين بأنَّهم "آخر الجهلة" ... يعلّمون اللاهوت "الذي يستند إلى التزمُّت"، و"يغرسون في وعي الأطفال ازدراء العلوم الأخرى وبغضَ أتباع

الديانات الأخرى". ورأى فيغين بدوره ضرورة حلّ الكاغالات (كان غيسين، الخصم العنيد للنظام الكاغالي قد قال: إنّ الكاغال خلقت "باستبدادها بغضاً غبياً" في أوساط الشعب اليهودي.

بيد أنّ الطريق كانت طويلة وطويلة قبل أن تنجح الثقافة الزمنية في إحداث خرق داخل الأوساط اليهوديّة. لكنّ فيلنوس كانت تشكّل استثناء في هذا السياق، حيث نشأت فيها بتأثير صلاتها مع ألمانيا، مجموعة من المثقفين - "الماسكيليم"، وفي أوديسا، - العاصمة الفتية لنوفوروسيا التي كانت فيها أعداد كبيرة من السكان اليهود ذوي الأصول الهاليسية (بسبب سهولة اجتياز الحدود)، لكنّها كانت مسكونة أيضاً بقوميات مختلفة، وتضج بالحركة التجاريّة، -لم تكن الكاغال تشعر بأنّها قويّة، بينما كان المثقّفون يشعرون بأنّهم مستقلّون، وتماهوا ثقافياً (بما في ذلك في الملابس والمظهر الخارجي)، مع السكان المحيطين بهم. وعلى الرّغم من أنّ "أكثر يهود أوديسا عارضوا إنشاء مدرسة" للتعليم العام، إلاّ أنّ القوى التي بذلتها الإدارة المحلية في ثلاثينات القرن أسفرت عن ظهور مدارس زمنيّة يهوديّة خاصّة في أوديسا وكيشينيوف حققت نجاحات ملحوظة.

وفي القرن التاسع عشر اتسع هذا الخرق، ومعه زحْف اليهوديّة الروسيّة نحو الثقافة والعلم، فكانت له في القرن العشرين تداعيات ذات أهمية تاريخية بالنسبة إلى روسيا والجنس البشري كلّه. لقد حشدت اليهوديّة الروسيّة كلّ ما استطاعت من قوى، ونجحت في الخروج من تلك الحالة من الجمود والتحجُّر، ونهضت بقامتها نحو حياة غنيّة متنوعة. منذ أواسط القرن التاسع عشر كانت قد لاحت بوادر نهوض اليهوديّة الروسيّة وازدهارها واندفاعها في حركة على نطاق تاريخي شامل لم يكن قد توقّعه أحد بعد.

الفصل الثالث

عهد نيقولاي الأول

كان نيقولاي الأول امبراطوراً ذا عزيمة قوية في الموقف من اليهود. فالمصادر تشير إلى أنَّ نصف التشريعات المتعلّقة بالمسألة اليهوديّة، منذ ألكسي ميخايلوفيتش حتى ألكساندر الثاني، صدرت في عهده، وكان هو نفسه يتدخل في وضع تلك التشريعات ويوجهها.

وفي التاريخ الوصفيّ اليهوديّ رسخت بثبات الرؤية التي تصف سياسته بالقسوة والظلم. بيد أنَّ تدخّله شخصياً لم يكن له دائماً تداعيات سلبية بالنسبة إلى اليهود. فواحدة من أوّل المسائل التي ورثها عن ألكساندر الأول هي "قضية فيليج"، التي استأنفها هذا الأخير قبيل موته مباشرة -اتهام اليهود المحليين بقتل طفل مسيحي لأغراض طقوسيّة. فيما بعد طال أمد هذه القضية عشر سنوات. وقد كتبت الموسوعة اليهوديّة تقول: "لا ريب في أنَّ اليهود كانوا مدينين للإمبراطور بحكم البراءة الذي صدر، لأنّه كان يسعى للوصول إلى الحقيقة على الرَّغم من مقاومة الأشخاص الذين كان قد وثق بهم ووضع المسألة بين أيديهم". وفي قضية معروفة أخرى كانت ترتبط باتهام يهود ("شغب ميستيسلافل")، "سعى الإمبراطور بطيب نفس إلى معرفة الحقيقة؛ وعندما أنزل العقاب باليهود في لحظة غضب، لم يتردد في أن يعترف بخطئه". وبينما كان قرار البراءة في قضية فيليج يُعدُّ، كتب نيقولاي قائلاً: إنّه يفعل هذا "بسبب عدم وضوح الأدلّة القانونية، ولا يجوز اتخاذ أيِّ قرار فيها بعد الآن"، لكنّه أضاف: "ليست عندي قناعة داخليّة بأنَّ اليهود لم يقتلوا، ولا يمكنني أن أحوز مثل هذه القناعة. فتكرار حوادث

مثل هذا القتل وبالقرائن نفسها"، ودائماً مع عدم كفاية الأدلّة كان يدفعه دوماً إلى الشك في وجود فرقة متعصّبة متوحّشة بين اليهود، "ولسوء الطالع، فإنَّ بيننا نحن المسيحيين أيضاً مثل هذه الفرق التي لا تقلُّ وحشيّة وغموضاً". "لكنَّ نيقولاي الأول والمقربين منه أقاموا على قناعتهم بأنَّ بعض فرق اليهود تمارس القتل الطقوسي". "وبسبب وقوع الإمبراطور سنوات عدة تحت وطأة انطباع تلك النميمة الدموية ... رسخ في ذهنه حكم مسبق، كما لو أنَّ الديانة اليهوديّة تمثل خطراً على السكان المسيحيين".

لقد رأى نيقولاي أنَّ الخطر يكمن في أنَّ اليهود سيحوِلون المسيحيين إلى الديانة اليهوديّة. فمنذ القرن الثامن عشر بقي في الذاكرة الحدث الصاخب الذي تمثل في اعتناق قائد الحرس الامبراطوري فوزنيتسن الديانة اليهوديّة. وفي روسيا "انتشرت انتشاراً واسعاً منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر مجموعات من المتهوِدين". ففي العام 1823م رفع وزير الداخليّة تقريراً تحدَّث فيه عن "انتشار هرطقات متهودة في شتى أنحاء روسيا، وقدَّر أعداد أعضائها بعشرين ألف نفر". فبدأت الملاحقات، وتحت وطأتها "عاد كثير من الهراطقة شكلياً إلى حضن الكنسية الأرثوذكسية، لكنَّهم واصلوا تأدية شعائر فرقهم وطقوسها سراً".

موقف الكاغال من إتاوة التجنيد

"لقد أفضى هذا كلّه إلى اصطباغ التشريعات التي صدرت بخصوص اليهود في عهد نيقولاي الأول كلها، بصبغة دينية"، فترك ذلك طابعه على قرارات نيقولاي الأول وأفعاله تجاه اليهود، كما على إصراره على منع اليهود من الإفادة من خدمات المسيحيين، لا سيما المرضعات المسيحيات لأنَّ "الخدمة لدى اليهود مهانة للنساء المسيحيات تضعف إيمانهنَّ المسيحي" (لكنْ على الرَّغم من التأكيد على هذه المحظورات إلاَّ أنَّها لم "تُطبَّق كاملة في أيٍّ يوم من الأيام ... وتواصل تقديم الخدمات". كان الإجراء الأول المتعلّق باليهود، والذي انشغل به نيقولاي منذ بداية عهده، هو مساواة اليهود بالسكان الروس في تأدية الإتاوات كلّها للدولة، لا سيما إتاوة التجنيد العام التي لم يؤدوها منذ انضمامهم إلى روسيا، فكان اليهود التجار يدفعون 500 روبل بدلاً نقديا عنها، ولم يكن غرض الدولة من هذا الإجراء مساواة السكان في تحمل الأعباء فقط (في الأحوال كلّها كانت المشاعات اليهوديّة تماطل دائماً في تسديد البدل النقدي، ثمَّ توقّف اليهود الذين جاؤوا إلى روسيا من هاليسيا عن دفعه، لأنَّهم كانوا خاضعين في هالسيا لقانون الخدمة العسكرية). فالتجنيد "يقلّص من أعداد اليهود الذين لا يؤدون عملاً منتجاً" (في تلك الأزمنة كانت مدة الخدمة العسكرية خمسة وعشرين عاماً)، وكان المجنَّد اليهودي سيبتعد عن الوسط اليهودي المزدحم المتماسك الأمر الذي يضعه في تواصل مع نظام العيش الذي وضعته الدولة، بالتالي مع الأرثوذكسيّة. وقد كان تطوّر هذه الاعتبارات هو على وجه التحديد الذي جعل فرض هذه الإتاوة يثقل كثيراً على كاهل اليهود، - أخذت دائرة المطلوبين للتجنيد تتسع شيئاً فشيئاً.

لكن لا يمكن القول: إنَّ تنفيذ مرسوم نيقولاي الذي قضى بفرض التجنيد على اليهود، قد مرَّ من غير مقاومة. بل على العكس، سرعان ما ظهر التسويف في مختلف مراحل تطبيقه. فقد دار نقاش في مجلس الوزراء حول مدى أخلاقية اتخاذ مثل هذا القرار بهدف "تقليص أعداد اليهود"، "وشراء الناس بالنقود بهذه الطريقة البشعة"، على حدٍّ تعبير وزير المالية ي. ف. كانكرين. فبذلت الكاغالات كلَّ ما استطاعت من قوى لتدرأ خطر هذا الإجراء عن السكان اليهود، أو تُرجئ تطبيقه بطريقة ما. وعندما ثارت ثائرة نيقولاي بسبب المماطلة في تطبيق إجرائه هذا، أمر من فوره بتقديم تقرير نهائي عن الموضوع في أقرب وقت –"من الواضح أنَّ هذا الأمر دفع بالكاغالات إلى تكثيف نشاطها من وراء الكواليس لعرقلة تقدُم هذه المسألة. وأظنُّ أنَّها نجحت في استمالة بعض الموظفين إلى جانبها". فلم ... "يصل التقرير في موعده المقرَّر". ففي الدوائر العليا من الجهاز الإمبراطوري، لم يؤدَّ هذا المشهد من غير مشاركة الكاغالات، كما يؤكد يو. إ. غيسين. ولم يجد التقرير طريقه إلى الامبراطور حتى فيما بعد، فاتخذ نيقولاي قراره في العام 1827م بتجنيد اليهود، وأهمل التقرير. (في العام 1836م صدر قرار مُنح بموجبه الجنود اليهود الذين يتميَزون، حقَّ المساواة في نيل الأوسمة).

"لقد أُعفي من التجنيد التجار على اختلاف طبقاتهم، وسكان المستعمرات الزراعيّة، ومعلمو الحرف، والميكانيكيون العاملون في الفبارك، والرابينيون، وكلُ اليهود الحاصلين على درجة التعليم المتوسِط، أو العالي". فدفع هذا بكثير من المشَان اليهود نحو الانتقال إلى فئة التجار، وحاولت جمعياتهم تعويق سوق أعضائها إلى الخدمة العسكرية، "لأنَّ هذا كان يؤدي إلى نضوب قوى المشاعة وعجزها عن تأدية الإتاوات". وحاول التجار من جانبهم الحدَّ من مسؤوليتهم عن تأدية الإتاوات التي فُرضت عليهم تأديتها نيابة عن بعض فئات اليهود الأُخرى. وهذا ما أدَّى إلى تفاقم العلاقة بين التجار اليهود وفئة المشَان، والموظفين اليهود – "في تلك الآونة كانت أعداد التجار قد تضاعفت، وزادت ثرواتهم، وباتت لهم

علاقات واسعة وراسخة مع الدوائر العليا في العاصمة". فأدارت كاغال غروندين مساعي في بطرسبورغ بهدف تقسيم الشعب اليهودي إلى أربع "طبقات" – طبقة التجار، وطبقة المشَان، وطبقة الحرفيين، وطبقة الفلاحين، ودعت إلى عدم مسؤولية أيِّ طبقة عن الأخرى (نحن بمكننا أن نرى في هذه الفكرة التي طرحتها الكاغالات في أوائل ثلاثينات القرن، قفزة نحو "خيار" نيقولاي في العام 1840م الذي دبَّ الرعب في الأوساط اليهوديّة). وعُهد إلى الكاغالات نفسها بإجراء القرعة العسكرية في هذه الأوساط اليهوديّة التي كانت بالنسبة إلى الحكومة كتلة هلامية لا سجلات لها، ولا تعرف عنها أيَّ شيء تقريباً. "فألقت الكاغالات بكامل عبء التجنيد على عاتق الفقراء"، لأنَّ "مغادرة الفقراء المشاعة كان أمراً مرغوباً فيه، أمَّا رحيل الأغنياء عنها فكان يضعها تحت خطر الإفلاس". وسعى كثير من الكاغالات لدى سلطات المقاطعات (لكنَّ مساعيهم لم تلق تجاوباً) للحصول على منحها حق "تجاوز قواعد دور سحب الدفعات"، كي تتمكّن من تسليم المتكاسلين المتسكعين الذين لا يؤدون الإتاوات، ويتسببون بالفوضى"، ولكي يتسنَّى لأرباب العائلات الذين ينهضون بأعباء المجتمع، ألاَّ يدفعوا بأبنائهم إلى التجنيد"، وفي الوقت نفسه كان هذا يمنح الكاغالات وسيلة لابتزاز أفراد الطائفة.

لكنْ لدى خضوع الأوساط اليهوديّة لإجراءات سحب التجنيد الدوري، أخذ الرجال المطلوبون للسحب يتسرَّبون، ولم تعط الحكومة لوائح بأعدادهم الكاملة. كما تبين هنا أيضاً، أنّه على الرغم من تخفيض الجبايات المالية المفروضة على الطوائف اليهوديّة، إلاَّ أنَّ ما كان يصل منها إلى الخزينة كان أقل من المطلوب بكثير. في العام 1829م وافق نيقولاي الأول على مساعي الغروندين الذي التمسوا أن يُستدعى من المجنَّدين اليهود، في بعض المقاطعات أكثر من العدد المقرَّر، تعويضاً عن المستحقات المتأخرة للخزينة. ("في العام 1830م صدر عن السينات مرسوم قضى بما يلي: في حال استدُعي من الكاغال عدد إضافي إلى

التجنيد، يُخفَّض من المتأخرات المستحقة على الكاغال المعني ألف روبل عن كلٍّ رجل، وخمس مئة روبل عن كلِ طفل"). لكنْ سرعان ما أُوقف العمل بهذا الإجراء بسبب مبالغة حكام المقاطعات في حماسهم لتنفيذه، على الرَّغم من أنَّ "الطوائف اليهوديّة نفسها كانت تطالب الحكومة بسحب المجنَّدين سداداً للمستحقات المتأخرة". لكنَّ الدوائر الحكومية لم تكن تميل إلى "هذا الاقتراح، لأنَّه كان من السهل عليها أن تُخمِّن بأنَّ هذا العرض يفتح أمام الكاغالات ميداناً جديداً للتعسف والابتزاز". بيد أنَّه بدا كأن الفكرة قد نضجت لدى الطرفين.

كتب غيسين يقول عن تكثيف إتاوة التجنيد في الأوساط اليهوديّة خلافاً للسكان الآخرين: إنَّ ذلك كان "خروجاً صارخاً على التشريعات الروسيّة، ففي روسيا على وجه العموم كان فرض إتاوات على اليهود أكبر من تلك التي تُفرض على غيرهم من السكان، عملاً غريباً عن التشريعات الروسيّة المتعلقة باليهود". أمَّا نيقولاي الأول ذو الذهنيّة المباشرة، والميل إلى تحديد الآفاق المرئيّة بسهولة (كما في الخرافة التي تقول: إنَّ سكة حديد بطرسبورغ - موسكو مُدَّت بالمسطرة)، وفق الإصرار على تحويل اليهود المعزولين إلى رعايا روس عاديين، وإذا كان ممكناً إلى أرثوذكس، فقد بقي متمسِّكاً بفكرة تجنيد اليهود وتحويلها إلى فكرة اليهود الكانتونيين. و"الكانتونيون" (تسمية ظهرت في العام 1805م) مؤسّسة لإعالة أبناء الجنود القصَّر (لتخفيف أعباء آبائهم الذين يخدمون خمسة وعشرين عاماً في الجيش)، لكنَّها تابعت عمل "إدارة فروع أيتام الجنود"، التي كانت قد تأسست في عهد بطرس، وكانت بمثابة مدارس تتعهدها الدولة فتمنح التلاميذ معارف تقنية لمتابعة خدمتهم في الجيش (وهذا ما رأت فيه عقلية الموظفين الآن عملاً مفيداً جداً للفتيان اليهود، ومطلوباً لإبعادهم لزمن طويل، وهم في سنٍ مبكرة عن المحيط اليهودي). في العام 1827م صدر قرار أخذ بالحسبان سلوك الطريق عبر الكانتونيين، "فمنح الطوائف اليهوديّة الخيار في أن

تقدم بدل كل رجل، فتى صغيراً" ابتداء من عمر الاثني عشر عاماً (أي لم يبلغ سنَّ الزواج بحسب العرف اليهودي بعد). وقد دعت الموسوعة اليهوديّة الحديثة هذا الإجراء "بالضريبة الأكثر إيلاماً". بيد أنَّ السماح لم يكن يعني بعد استدعاء الفتيان من سنِّ الثانية عشرة، فلم يكن هذا يعني بأيِّ حال من الأحوال "فرض الإتاوة العسكرية على الفتيان اليهود"، كما أشارت الموسوعة خطأً، ورسخ في الدراسات التي تناولت أوضاع اليهود في روسيا، ثم في الذاكرة الاجتماعيّة. فالكاغالات وجدت تلك المقايضة ملائمة بالنسبة إليها وأفادت منها قدر ما استطاعت، فكانت تسلِّم "الأيتام، وأبناء الأرامل (وأحياناً بما يخالف القانون – الولد الوحيد)، والفقراء" – غالباً "لحساب العائلات الثريّة". بعد ذلك كان الكانتونيون يتحولون حينما يبلغون الثامنة عشرة إلى الخدمة العسكرية المعتادة التي كانت مدّتها طويلة جداً حينئذٍ، -لكنْ ينبغي ألاّ ننسى أنّها لم تكن خدمة ثكنات خالصة، فالجنود كانوا يتزوّجون، ويعيشون مع عائلاتهم، ويمارسون أعمالاً أخرى، وكانوا بعد أن تنتهي خدمتهم، حيث تنتهي، ينالون حقَ الإقامة في المقاطعات الداخلية من الإمبراطورية. لكنَّ الذي لا ريب فيه أنّه كان من المؤلم جداً بالنسبة للجنود اليهود الذين حافظوا على إيمانهم بالعقيدة اليهوديّة، وطقوسها وشعائرها، أن ينتهكوا السبت ومحرمات الطعام. فاليهود الذين لم يبلغوا سنَّ الرشد بعد، وألفوا أنفسهم في الكانتونات معزولين عن وسطهم الأُم، لم يكن من السهل عليهم بالتأكيد أن يصمدوا أمام ضغوط مربِّيهم (الذين كانوا يسعون لنيل أوسمة إذا نجحوا في تحويل تلاميذهم عن عقيدتهم)، فدروسهم كانت في اللغة الروسيّة والحساب، و"قانون الإيمان الإلهي" أيضاً، ومن عوامل الضغط الأخرى: مكافأة الذين تحوّلوا إلى الارثوذكسية، واستغلال شعور الآخرين بالإهانة، لأنَّ مشاعاتهم تخلت عنهم، ودفعت بهم إلى التجنيد. لكنّهم أظهروا في مواجهة هذا كله، عناد الطبع اليهودي والوفاء الفطري لدينهم منذ الصغر. إضافة إلى أنَّ إجراءات اعتناق المسيحية هذه لم تكن

إجراءات مسيحية أصلاً، ولم تفض إلى شيء. لكنَّ قصص الإرغام على اعتناق الأرثوذكسية، وتهديد الكانتوني بالموت، بل إغراق كلّ من يرفض قبول المعمودية في النهر، وهي القصص التي اتخذت طابعاً علنياً على مدى العقود التي تلت، لم تكن سوى اختلاق. فقد كتبت الموسوعة اليهوديّة القديمة تقول في هذا السياق: إنَّ هذه "الخرافة الشعبية" التي زعمت أنَّهم أعدموا عدة مئات من اليهود الكانتونيين غرقاً في النهر، وُلدت من نبأ نشرته صحيفة ألمانية جاء فيه: "إنَّهم حينما ساقوا يوماً 800 من الكانتونيين ليعمِّدوهم بالماء، غرق منهم اثنان في النهر".

وبحسب المعطيات الإحصائيّة في أرشيف قيادة الأركان العسكرية، أنَّ السحب الأكبر لليهود الكانتونيين في الأعوام 1847 -1854م.، بلغ بالمتوسط 4%2. من العدد الكلي للكانتونيين في روسيا، أي أنَّ نصيبهم نسبياً لم يتجاوز نصيب السكان اليهود في البلاد، حتى وفق المعطيات المتدنيّة للإحصاءات التي كانت تقدّمها الكاغالات عندئذٍ.

ومن الواضح أنَّه كان ثمة تعداد خاص لمن تلقَوا سرَّ المعمودية، وبرَّروا موقفهم فيما بعد أمام أبناء جلدتهم، فبالغوا في الحديث عن مستوى الضغوط التي تعرَّضوا لها لدى تحوُّلهم إلى المسيحيّة، لا سيما أنَّهم نالوا بعد اعتناقهم المسيحية بعض الامتيازات في الخدمة. وعلى وجه العموم "بقي كثير من الكانتونيين الذين تحوَّلوا إلى المسيحية، مخلصين في السرِّ لدينهم اليهودي، وفيما بعد عاد بعضهم إلى اليهوديّة ثانية".

إخفاق نيقولاي الأول في إصلاح شأن اليهود

في آخر سنوات الإسكندر الأول، بعد جائحة الجوع الجديدة التي ضربت بيلوروسيا (في العام 1822م)، أُرسل بمهمة إلى هناك سناتوراً آخر، وعاد بالخلاصة نفسها التي كان قد وصل إليها ديرجافين قبل ربع قرن. عندئذٍ اقترحت "اللجنة اليهوديّة" التي تشكلت في العام 1823م من أربعة وزراء، أن تأخذ على عاتقها دراسة الموضوع الآتي: "ما هو الأساس الأنسب والأجدى الذي يمكن البناء عليه لتشريع إقامة اليهود في الدولة، وتحديد كلّ ما يمكن أن يحسِّن الحالة المدنية لهذا الشعب؟" لكنَّهم سرعان ما أيقنوا بعد ذلك أنَّ المهمّة الموضوعة تفوق طاقتهم، فاستُبدلت في العام 1825م "باللجنة اليهوديّة" الوزارية "لجنة من المدراء" (كانت هذه اللجنة هي اللجنة رقم خمسة). وكان هؤلاء المدراء هم مدراء الوزارات الذين عملوا على دراسة هذه المعضلة طول ثمانية أعوام أخرى.

كان نيقولاي الأول يلاحق بقراراته عمل اللجنة بنفاذ صبر. فسنَّ إتاوة تجنيد لليهود. وحدَّد مدة ثلاث سنوات لترحيل اليهود من قرى المقاطعات الغربية، ليضع حداً لاتجارهم بالكحول، لكنَّ الإجراء اعترضته عوائق كثيرة، وأُوقف، ثم أُلغي مثله كمثل سابقه. فيما بعد صدر قرار بمنع اليهود من إدارة النُزل والحانات والخمَارات، لكنَّ هذا القرار لم يُعمل به أيضاً. كما جرت محاولة لمنع اليهود من ممارسة عمل رئيس آخر من أعمالهم، هو امتلاك، أو إدارة وكالات البريد (كانت هذه تترافق دائماً بنزل وخمَارات)، بيد أنَّ هذا القرار أُلغي بدوره، لأنَّه لم يكن ثمّة من يرغب في هذا العمل غير اليهود.

في العام 1827م بدأ العمل في جميع أرجاء الإمبراطورية بنظام تلزيم صناعة الخمور، كما "هبطت أسعار التعهّدات هبوطاً ملحوظاً بعد أن أُخرج اليهود من السوق، وفي بعض الأحيان لم يكن ثمّة راغبين أصلاً في التزام التعهد"، فاقتضى الأمر السماح لليهود بالتزام أعمال صناعة الخمور والإتجار بها في المدن وفي الأرياف، بل حتى خارج حدود جغرافيا إقامتهم. وعلى هذا النحو تكون الحكومة قد تخلّت عن المهام التنظيميّة، وألقت بها على عاتق اليهود الذين تعهّدوا تحصيل عائدات الخمور، وضمنت لنفسها واردات ثابتة. "قبل زمن طويل من حصول تجار الفئة الأولى على حقّ الإقامة أينما شاؤوا في مختلف أرجاء الإمبراطورية، كان المتعهِدون اليهود قد نالوا عملياً حرية التنقل، وأقاموا لفترات طويلة من غير عائق، في مختلف العواصم والمدن الأخرى الواقعة خارج حدود جغرافيا استيطانهم ... وقد خرج من أوساط المتعهِدين بعض الشخصيّات الاجتماعيّة اليهوديّة البارزة"، مثل ليتمان فيغين الذي سبق ذكره، ويفزيل غينتسبورغ ("كان متعهِد تجارة الخمور في سيفاستوبل المحاصرة")؛ "وفي العام 1859م أسَّس في بطرسبورغ مؤسسة مصرفية ... كانت الأضخم في روسيا كلها"؛ فيما بعد "ساهم غينتسبورغ في توزيع القروض الحكومية الروسيّة والأجنبية"؛ وأسَس سلالة من البارونات. ابتداء من العام 1848م سُمح "للتجار اليهود من الفئة الأولى كلّهم بأن يديروا تعهُدات كحوليّة في الأماكن التي لا يُسمح لليهود أن يقيموا فيها إقامة دائمة"، كما اتسعت حقوق اليهود في مجال تقطير الكحول. ونحن نذكر أنّه منذ العام 1819م.، كان قد سُمح لليهود بالعمل في تقطير الكحول في المقاطعات الروسيّة الكبرى، "قبل أن يتقن المتخصّصون الروس هذا العمل". وفي العام 1826م.، أمر نيقولاي بإعادة هؤلاء إلى داخل حدود جغرافيا استيطانهم، لكنّه في العام 1827م كان قد بدأ يتراجع أمام التوسّلات الخاصّة بإبقاء المقطّرين اليهود حيث هم: في مصانع إيركوتسك الحكومية مثلاً.

ويسوق ف. س. سولوفيوف تأمُلات م. ن. كاتكوف: "في الأطراف الغربية يعمل اليهود في مجال الخمارات والحانات، لكنْ هل الحال في أنحاء روسيا الأخرى أفضل؟ ... وهل الخمارون اليهود الذين يُغرقون الشعب في السُكر، وينهبون الفلاّحين ويُهلكونهم، يشكّلون ظاهرة عامّة في مختلف أنحاء روسيا؟ في أنحائنا التي يُمنع على اليهود دخولها، يدير الخمارة خمّار أرثوذكسي، أو ملاّك ثري". فلنتسمع أيضاً إلى ليسكوف، وهو علاّمة في تاريخ الحياة الاجتماعيّة الروسيّة: "في المقاطعات الروسيّة الكبرى، حيث لا يقيم اليهود، يتساوى عدد المحكومين بسبب السُكر مع عدد المحكومين في الجرائم التي يرتكبها السُكارى، وهي دائماً أكثر من عدد الحوادث نفسها التي تقع في أماكن استيطان اليهود. والحال عينها تنسحب على حالات الوفاة بسبب الإدمان ... أي أنَّ هذا ليس جديداً، بل منذ القدم".

والحقيقة أنَّ الإحصائيات تقول: إنَّ لكل 297 نسمة في الأقاليم الغربية والجنوبية من الإمبراطورية خمَارة، بينما في الأقاليم الشرقية لكل 585 نسمة خمَارة. وكانت صحيفة "غولوس" (أي "الصوت". ـح. إ.) التي كان لها حينئذٍ نفوذ واسع، قد أطلقت على الخمَارات اليهوديّة اسم "قرحة الإقليم"، أي الإقليم الغربي على وجه التحديد، وقالت في غضون ذلك: إنَّها "قرحة مزمنة لا شفاء منها". فأخذ إ. غ. أورشانسكي على عاتقه مهمة الإثبات نظرياً، إنَّه بقدر ما تكون نقاط بيع الكحول كثيرة بقدر ما يكون السُكر أقل. (فالفلاَح لا تغريه الكحول إذا كانت نوافذ بيعه متوافرة ومتاحة دائماً، لنتذكّر ديرجافين: الخمَارات تعمل ليلاً أيضاً، فلماذا تغريهم البعيدة، التي عليهم أن يجتازوا طريقاً موحلة عبر الحقول ليصلوا إليها؟ لا، فمن المعروف أنَّ الإدمان لا يستند إلى الطلب على الفودكا فقط، إنَّما على عرضها أيضاً). ويبرهن أورشانسكي على هذا كذلك: عندما يقف اليهودي بين الاقطاعي الذي يقطّر الكحول، والفلاح السكير فإنَّه يقف بطبيعة الحال إلى جانب الفلاح، لأنَّه يبيعه الفودكا بثمن أقل، مع أنَّه يرهن

أشياء الفلاح ضماناً لسداد ثمنها. كما يكتب أيضاً، إنّه ثمة رأي مفاده أنّ لليهود الخمّارين "تأثيراً مؤذياً على مستوى عيش الفلاحين"، لأنّهم في تجارة الكحول "يتميّزون ... كما في أعمالهم الأخرى كلّها بالمهارة والشطارة والحيوية". والحقيقة أنّه في مكان آخر، في مقال آخر منشور في المجموعة نفسها يقرُّ: "بالصفقات الرابحة التي يبرمها اليهود مع الفلاحين"؛ "والحق يُقال: إنَّ فيها [التجارة اليهوديّة] كثيراً من الخداع، وإنَّ الخمّار وصاحب الحانة والمرابي اليهودي، كلُّهم يستغلُّ السكان الفقراء، لا سيما سكان الأرياف"؛ "وبالنسبة للإقطاعي فإنَّ الفلاح عنيد جداً [فيما يخصُّ السعر]، لكنَّه هين إلى حدٍّ يثير الضحك عندما يتعامل مع اليهودي، فهو يثق به ثقة عمياء، خاصّة إذا كان اليهودي يحمل في عبِّه فودكا"؛ وفي غالب الأحيان يرغم الفقر، وضرورة تأدية الإتاوات، والولع بالفودكا، يُرغم الفلاّح على بيع قمحه لليهودي بثمن زهيد. لكنَّ أورشانسكي يبحث عن مبرّرات تخفّف من وقع هذه الحقيقة العارية المريرة الصارخة. لكنْ من يبرِّر وهن إرادة الفلاح؟ ...

على الرَّغم من الدأب الذي أبداه نيقولاي الأول إلاّ أنَّ الفشل في إصلاح حياة اليهود كان رفيقه في مختلف الميادين على مدى عهده كلّه. وهذا ما حصل في ميدان العمل الزراعي اليهودي أيضاً. ففي "ميثاق إتاوة التجنيد وخدمة اليهود في القوات المسلَحة"، الذي صدر في العام 1827م.، استُثني الفلاحون اليهود الذين رُحِّلوا إلى أراض خاصة" هم وأبناؤهم، من إتاوة التجنيد لمدة خمسين عاماً. وفور إعلان هذا الميثاق عاد إلى المستوطنات من اليهود الهاربين أكثر من اليهود المغادرين بطريقة نظاميّة.

في العام 1829م.، صيغت "لليهود الفلاحين معايير" أكثر تفصيلاً: السماح لهم بالعمل التجاري بعد أن يؤدوا ما عليهم من ديون؛ السماح لهم بالغياب خلال توقّف الأعمال الزراعيّة لمدة ثلاثة أشهر يعملون فيها في الميدان الذي يريدون؛ معاقبة من يتغيب من غير إذن رسمي؛ مكافأة الذين يتميزون منهم. ويعترف

ف. ن. نيكيتين: إنَّه لدى مقارنة الالتزامات الصارمة التي فُرضت على الفلاحين اليهود، مع "الحقوق والامتيازات المعطاة لليهود حصراً، ومع تلك التي كانت ممنوحة للفئات المكلّفة الأخرى، لا يمكن ألاّ نعترف بأنَّ الحكومة كانت معهم [مع اليهود] في غاية التسامح.

ومنذ العام 1829 حتى العام 1833م.، "اجتهد اليهود في العمل الزراعي بدأب وكدٍّ، فكافأهم القدر بمحاصيل وفيرة جداً، وكانوا راضين عن الإدارة، وهذه بدورها لم تنغِّص عليهم إلاّ في بعض الحالات الطارئة التي لم تكن لها أهمية تُذكر (بعد الحرب التركية في العام 1829م.، أُعفي المستوطنون اليهود كما المستوطنون الآخرون كلهم من المستحقات المتأخّرة ... لقاء الأعباء التي تحملوها من جرَّاء حركة القوات). لكنَّ تقرير اللجنة الوصائيّة أفاد بأنَّ "شحَّ المحاصيل في العام 1833م.، جعل الإبقاء عليهم [أي على اليهود] في المستوطنات أمراً مستحيلاً، ووفَر الذريعة لكثير من ذوي النوايا السيئة، والذين لا يرغبون بالاستمرار في ممارسة العمل الزراعي، كيلا يزرعوا أيَّ زرع، أو أن يزرعوا القليل جداً، ويتخلصوا من المواشي، ويهيموا على وجوههم، ويبتزُّوا المساعدات، ويتهرَّبوا من تأدية المستحقات المترتبة عليهم". وفي العام 1834م حدث أن "باعوا القمح المعطى لهم، ونحروا المواشي، وعلى هذا النحو عينه تصرَّف حتى من لم يكن منهم مضطرّ لذلك"، أمَّا الإدارة المحليّة التي كانت تعاني من صعوبات في المراقبة والتفتيش، فلم تكن قادرة دائماً على أن تحاذر "الحيل الخبيثة التي كان يبتكرها المستوطنون". لقد "بات شحُّ المحاصيل يتكرّر عند اليهود أكثر مما عند المستوطنين الآخرين، لأنَّهم فضلاً عن كميات البذار الضئيلة التي كانوا يبذرونها، كانوا يحرثون الأرض بغير نظام، وفي غير المواقيت المناسبة"، وسادت "خبرة اليهود في الأعمال الخفيفة التي كانت تنتقل من جيل لآخر ... وإهمال المواشي وعدم العناية بها". وأظنُّ أنَّ الخبرة البائسة لثلاثين عاماً مع الفلاحة اليهوديّة، كانت كافية تماماً بالنسبة للحكومة الروسيّة كي ترمي إلى

الجحيم بهذه المحاولات والنفقات العبثية؟ لا! نحن لا نعثر على هذه التقارير البائسة قبل عهد نيقولاي الأول؟ كان الوزراء يلطّفونها؟ أم أن الهمّة التي لا تكلّ، والآمال التي لا تخبو هي التي كانت تدفع بالإمبراطور إلى محاولات جديدة؟ ...

ها نحن في العام الجديد، العام 1835م، نرى أنَّ المبادئ التي أقرتها السلطة العليا (ثمرة جهود "لجنة المديرين")، لم تتخلّ عن العمل الزراعي اليهوديّ، بل زادت من أمدائه، ووضعته في مقدمة الإجراءات المتّخذة للنهوض بمستوى عيش اليهود: "تُبنى حياة اليهود على قواعد تفتح أمامهم الطريق واسعة للحصول على وسائل عيش شريفة عبر الاشتغال في الزراعة والصناعة، وإصلاح شأن شبابهم شيئاً فشيئاً، لكنّها في الوقت نفسه تحول بينهم وبين التسيُّب وممارسة الأعمال غير القانونية". وإذا كان ينبغي على الطائفة أن تؤدي فيما مضى 400 روبل مسبقاً عن كلّ عائلة تريد أن تعمل في الزراعة، فقد بات بإمكان "أيّ يهودي أن يتحوَّل الآن إلى ممارسة العمل الزراعي من غير شروط"، ويُعفى في الحال هو وطائفته من كل المستحقات المتأخّرة عليهما؛ كما سُمح له بحيازة أراضي الدولة واستثمارها إلى أجل غير مسمى، وسُمح له علاوة على هذا وذاك بشراء الأراضي ملكيّة خاصّة، داخل الحدود الجغرافية للاستقرار اليهودي، وبيعها واستئجارها. وأُعفي الذين يتحوّلون إلى العمل في الزراعة من ضريبة النفس مدة خمسة وعشرين عاماً، ومن الضريبة الحكومية العامة مدّة عشر سنوات، ومن إتاوة التجنيد مدة خمسين عاماً. "ومُنع منعاً باتاً إرغام أيّ يهودي على أن يمارس العمل الزراعي رغماً عنه". "كما باتت المهن والحرف في قراهم قانونيّة". (مضى قرن ونصف القرن. وبسبب طول العهد ونسيان ما كان، بات حتى عالم الفيزياء اليهودي المتحضّر، يصف عيش اليهود في تلك الأزمنة على النحو الآتي: "داخل جغرافيا الاستقرار اليهودي مع تحريم [!] ممارسة العمل الزراعي". وها هو المؤرخ والكاتب الاجتماعي م. او. غيرشينزون يحاكِم على نطاق أوسع: "العمل الزراعي محرَّم على

اليهـودي بطبيعـة روحـه الوطنيـة نفسـها، لأنَّـه عنـدما يـزرع الأرض يـرتبط بهـا وبالمكـان". لقـد عـرض وزيـر المالية النافذ كـانكرين أن تُلحق أراضـي سـيبيريا الخاليـة، بمجـال العمـل الزراعـي اليهـودي، وعنـد نهاية العـام 1835م نفسـه، أقـرَّ نيقولاي الأول هذا الاقتراح. فقد عزموا على تخصيص كل مستوطن يهودي هناك "بخمسة عشرة هكتاراً من الأراضي الصالحة للعمل الزراعي"، إضافة إلى أدوات العمل الزراعي والماشية، ومنازل مبنية من الخشب، ونفقات الطريق، هـذا كلـه حتى الإطعام في الطريق على نفقة الخزينة. وعلى هذا النحو بدا كأنَّ دافعاً جدياً قد ظهـر الآن يحفّـز اليهـود الفقـراء أصحاب العـائلات الكبيرة على السـفر إلى سيبيريا. لكنَّ حسابات الكاغالات فُتحت الآن: كان فريق من هـؤلاء الفقـراء ضروري لها لتقدّمه للتجنيد (بدلاً عن أبناء العائلات الثرية)، وكانت الكاغالات قد أخفت عن هؤلاء أنَّهم معفيون من تأدية المستحقات المتأخرة، وطالبتهم بتأديتها أولاً. كمـا أنَّ الحكومـة تـدخلت أيضـاً (صـعوبات الترحيـل إلى تلـك الأراضـي البعيـدة؛ في سـيبيريا "لـن تتـوفَّر لليهـود القـدوة الطيبـة في حـبِّ العمـل، وإدارة الاقتصاد"، وسوف يواصلون هناك "نشاطهم التجاري العقيم القائم على الخداع، وهـو النشـاط نفسـه الـذي تسـبب بـأذى كـبير للشـطر الغربـي مـن الإمبراطوريـة، الاتجـار بـالخمور، ونهـب السـكان بـالترويج لمعـاقرة الخمـرة"). في العـام 1837م.، أُوقف الترحيل إلى سيبيريا من غير إعلان الأسباب.

لجنة كيسيليوف لإصلاح واقع اليهود في روسيا

في غضون ذلك كان جهاز التفتيش في نوفوروسيا قد توصّل في العام نفسه، إلى الخلاصة الآتية: "إنَّ الأراضي المتاخمة للمستعمرات [اليهوديّة]، والمعدَّة لإقامة مستوطنات جديدة، تتميَّز بتربة ذات نوعية عالية صالحة جداً للزراعة، والسهوب مراع رائعة لتربية المواشي" (لكنَّ الإدارة المحلية شكّكت في هذا الاستنتاج). وفي العام 1837م، أُحدثت وزارة أملاك الدولة (عُيِّن الأمير ب. د. كيسيليوف وزيراً لها)، التي كُلِّفت "الإشراف على الفلاَحين الأحرار" (أي فلاحي الدولة) (كخطوة انتقالية نحو إلغاء نظام القنانة)، الذين كان عددهم $7\frac{1}{2}$ مليون نسمة، لكنَّ هذا كان يعني في الوقت نفسه الإشراف على الفلاَحين اليهود الذين كان عددهم يتراوح بين 3 -5 آلاف عائلة، أي ليس أكثر من "قطرة في بحر الفلاحين الحكوميين. ومع ذلك منذ الأيام الأولى لإحداث الوزارة أخذت ترد إليها التماسات اليهود"، وشكاواهم المختلفة التي لا عدَّ لها. "وفي خلال نصف عام تبيَن أنَّ ما ينبغي تكريسه من وقت لليهود وحدهم سينعكس سلباً على مجمل العمل الرئيس للوزارة". لكنَّ كيسيليوف عُين في العام 1840م رئيس لجنة أُحدثت جديداً هي "لجنة تحديد إجراءات الإصلاح الجذريّ لواقع اليهود في روسيا" (كانت اللجنة رقم ستة)، وعلى هذا النحو يكون كيسيليوف قد انغمس في المسألة اليهوديّة.

في العام 1839م نجح كيسيليوف في إقناع مجلس الدولة بإقرار قانون سمح بالانتماء إلى فئة الفلاحين (لكنْ شريطة انتماء العائلة كلها)، حتى لليهود المطلوبين للخدمة العسكرية، فيعفون بذلك منها، كان هذا الامتياز امتيازاً

كبيراً آخر مُنح لليهود. وفي العام 1844م صدرت " بخصوص اليهود الفلاحين تعليمات" أكثر تفصيلاً شملت حتى اليهود الذين يسكنون في داخل حدود إقليم الاستقرار اليهوديّ، إذْ سُمح لهم بالإفادة من خدمات المسيحيين للسنوات الثلاث الأولى كي يعلّموهم طرائق العمل الزراعي. وعندما جاء إلى نوفوروسيا في العام 1840م "كثير من اليهود كما لو على نفقتهم الخاصة ("من المكتفين مادّياً، وانتقلوا على حسابهم الخاص إلى خارج حدود تسجيل إقامتهم من غير أن يطلبوا تعويضاً")، كانوا في واقع الأمر من الذين لا يملكون شيئاً، وأعلنوا وهم في الطريق بعد، أنَّ وسائلهم نفذت، وتطلّعوا إلى الاستيطان على نفقة الخزينة"؛ "بلغ عدد هؤلاء أكثر من 1800 عائلة، وكان بينهم مئات ممن لم تكن لديهم أيّ وثائق، ولا أدلّة وازنة تبيِّن من أين أتوا؟ ولماذا جاؤوا إلى نوفوروسيا؟"، -"ثمَّ تواصل تدفُّقهم من غير انقطاع، فكانوا يلحون في توسلاتهم بألاّ يُتركوا في حالة الفقر التي هم عليها"، فأمر كيسيليوف باستقبالهم على حساب المبلغ العام "المرصود للإنفاق على النازحين بغضّ النظر عن انتمائهم القبلي". أي أنّه ساعدهم من خارج المعايير. وفي العام 1847م.، صدرت "تعليمات إضافية" سهلت على اليهود إجراءات الانتقال إلى فئة الفلاحين. لقد عزم كيسيليوف على أن يقدم عبر وزارته مستوطنات يهودية نموذجية ليضع بذلك "بداية لحركة استيطان كبرى لهذا الشعب"، فأنشأ لذلك المستوطنة تلو الأخرى في مقاطعة يكاتيرينوسلاف، على أراض خصبة تكثر فيها مياه الأنهار والجداول، وتنتشر فيها المراعي والمروج، كانت تحدوه آمال كبيرة في أن ينقل المستوطنون الألمان تجربتهم وخبراتهم إلى المستوطنين الجدد (ولمّا كان من الصعب العثور على من يرضى منهم بالانتقال للإقامة في المستوطنات اليهوديّة، فقد تقرَّر إلحاقهم بها براتب معلوم). وتواردت المخصّصات المالية تباعاً لإنشاء تلك المستوطنات النموذجيّة، وأُعفي سكانها من شتى أنواع المستحقات المتأخرة. في العام الثاني من الاستيطان كان مطلوباً من العائلة اليهوديّة: حاكورة مزروعة، وهكتاراً مبذوراً واحداً، ثم تزايد عدد

الهكتارات المبذورة عاماً بعد عام. وبما أنّه لم تكن لهم خبرة في اختيار نوع الماشية، لذلك تُرك هذا الأمر للجهة الوصائيّة. لقد سهَّل كيسيليوف شروط الانتقال (للعائلات التي لم يكن فيها سوى عدد قليل من الأفراد العاملين)، وبحث عن طرائق خاصّة لتلقين أصول العمل الزراعي وقواعده لعدد مختار من المستوطنين. وللعائلات التي لم تكن لها معرفة في العمل الزراعي، ولا تخرج في أوان البرد القارص لتوفر العلف للحيوانات، كان يُعطى لكلّ عائلة معطف من الجوخ له كابيوشون.

في غضون ذلك لم يتوقف سيل اليهود إلى مناطق العمل الزراعي حتى في ظلِ شحِّ المحاصيل في الإقليم الغربي. كانوا يرسلون في أحيان كثيرة عائلات ليس فيها ما يكفي من الرجال العاملين، "كانت الكاغالات ترغم الفقراء والعجائز على الرحيل إلى المستوطنات بالقوة، أمّا المكتفون والأصحاء فأبقت عليهم لتتمكّن من جباية الإتاوات وتسديدها، وتكفي مؤسساتها الاجتماعية" من غير صعوبات. "وخشية من فيض حشود الفقراء والمعوزين، " طلبت الوزارة من حكام المقاطعات الغربية رقابة صارمة على المغادرة، بيد أنّهم كانوا يتعجلون دفعات المهاجرين من غير أن ينتظروا إتمام تجهيز المساكن في الأماكن الجديدة، كما كان التأخير بإرسال الأموال المرصودة للمهاجرين في موعدها يؤدي إلى ضياع عام زراعي كامل. وفي مقاطعة يكاتيرينوسلاف لم يتسنَ لهم تخصيص الأراضي للراغبين، فعرَّجت 250 عائلة على أوديسا ثم بقيت تقيم هناك. بيد أنَّ تقارير مختلف المفتشين التي وردت من أماكن مختلفة في هذه السنوات، تصبُ كلُها في البوتقة نفسها أيضاً. "وإذْ كانوا يُذعنون [اليهود] للضرورة، كان يمكنهم أن يتحوَّلوا إلى فلاحين، بل إلى فلاحين ناجحين، لكنْ مع أوّل تغيير ملائم كانوا يرمون المحراث فوراً ويتخلّون عن المزرعة وما فيها، ويهرعون من جديد إلى المضاربات وسواها من الأعمال المحببة إلى قلوبهم". "بالنسبة إلى اليهودي، تُعدُّ الصناعة هي العمل الأوّل، حتى لو كانت أصغر أنواع الصناعة وأقلها أهمية،

لكنَّها الصناعة التي تدرُ منافع كبيرة ... فطبيعته الروحية طبيعة صناعية، ولا تلقى الرضا في حياة الفلاح الساكنة"، "لم يكن العمل الزراعي يشكّل في أيِ يوم من الأيام، رغبة حقيقيّة لدى اليهودي؛ وأول ما أغراه إلى هناك غنى الإقليم، وقلّة السكان اليهود فيه، ثمَّ قربه من الحدود، والتجارة والصناعة العالية المردود، فضلاً عن الإعفاء من الإتاوات، وأهمُها إتاوة التجنيد. لقد ظنُّوا أنّهم لن يكونوا ملزمين إلاّ أن يكونوا أرباب عائلات، أمَّا الأرض، فقد عوَّلوا على تأجيرها بريعية كبيرة ليلتفتوا هم أنفسهم إلى العمل في الصناعة والتجارة". (كانوا قد أفصحوا عن هذا كله للمفتش بسذاجة ملفتة). ثمَّ "باشروا حراثة الأرض باشمئزاز". وفضلاً عن ذلك "لم تكن قواعد شريعتهم نفسها... في صالح اليهودي الفلاّح"، فكانت ترغمه على الخمول والتكاسل التزاماً بالواجب الديني: في موسم الزراعة الربيعية مثلاً، يحلُّ عيد الفصح الذي يستمرُ أياماً طويلة، وفي شهر أيلول عيد المظالِ الذي يستمر أربعة عشر يوماً متواصلة، بينما تكون الأعمال الحقليّة في ذروتها – إعداد الحقول للبذار، على الرَّغم من أنَّ المثقفين اليهود الذي يستحقون الثقة، يؤكّدون أنَّ الكتاب المقدس لا يفرض الالتزام الصارم بالعيد إلاّ في أول يومين وآخر يومين منه. زد على ذلك أنَّ الشخصيّات الروحيّة في المستوطنات اليهوديّة (كان في كلٍ منها بيتان عادة، واحد للأُصوليين "الميتاغديين" والآخر للحسديين)، كانت تساند أتباعها في عقيدتهم أنّهم كشعب مختار ليسوا معدّين للعمل الزراعي الشاق، لأنّه قدر الآخر المر. "لقد كانوا يستيقظون متأخرين ويهدرون ساعة في صلاة الصبح، ولا يخرجون إلى العمل إلاّ بعد أن تكون الشمس قد بلغت كبد السماء"، ثم يتوقفون عن أيِّ عمل من مساء يوم الجمعة حتى صباح يوم الأحد. انطلاقاً من وجهة النظر اليهوديّة يخلص إ.غ. أورشانسكي إلى ما خلص إليه المفتشون: "إنَّ الزراعة القائمة على استخدام العمل المأجور ... تلقى لدى اليهود استحساناً أكثر من التحوُّل الشاق على المستويات كلّها من المضاربات التجارية إلى العمل الزراعي ... فيلاحظ

تزايد سعي اليهود إلى ممارسة المهن الزراعية في صيغة استئجار الأراضي واستثمارها باستخدام العمل المأجور". في نوفوروسيا خسائر في العمل الزراعي اليهودي سببها "أنَّ هؤلاء لم يعتادوا العمل الفيزيائي الشاقّ، ولأنَّ المهن المدينية في الجنوب أكثر جدوى". كما يشير إلى أنَّ اليهود "بنوا في إحدى المستوطنات كنيساً بأيديهم"، وفي الأخرى كانوا يمارسون البستنة بأنفسهم.

لكنَّ تقارير المفتشين وحكام المقاطعات كانت تتوارد مؤكّدة أن ما يحدث في أربعينات هذا القرن في هذه المستعمرات "النموذجية" الجديدة، لا يختلف عمَّا كان يحدث في المستعمرات السابقة، "فواقع المستعمرين نفسه، وأعمالهم واقتصادهم كانت متخلفة كثيراً عن جيرانهم من فلاحي الدولة والإقطاعيين". ففي مقاطعة كرسونيس حتى في العام 1845م.، كان اقتصاد اليهود - المستعمرين "في حالة سيّئة جداً؛ أكثر أولئك المستعمرين كان يُعاني من الفقر: كانوا غرباء عن كل عمل في الأرض – كان بعضهم يواظب على حراثة الأرض لكنَّهم لم يحصلوا حتى في حال كان المحصول جيداً، إلاَّ على ما يسدُّ الرّمق"، "فأراضي الحواكير بقيت بوراً لم يقربها أحد"، والنساء والأطفال لا يعملون في الأرض، "وبالكاد كانت الثلاثين هكتاراً تعطي القوت اليومي للعائلة". "ولم يحذ حذو المستعمرين الألمان سوى عدد ضئيل من المستوطنين اليهود؛ أمَّا السواد الأعظم منهم، فقد أظهر اشمئزازاً تجاه العمل الزراعي، ولم يعملوا على تنفيذ مطالب الإدارة، إلاَّ ليحصلوا بعد ذلك على بطاقة مغادرة" ... لقد تركوا كثيراً من الأراضي بوراً ولم يحرثوا إلاَّ قطعاً صغيرة منها كانوا ينتقونها كيفياً ... كما أهملوا المواشي إهمالاً تاماً ... واستخدموا الخيل للركوب، ولم يطعموها إلاَّ قليلاً، لا سيما في أيام العطل"، أمَّا البقر الألماني اللطيف الهادئ، فكانوا يحلبونه في أوقات مختلفة، فجفَّ حليبه. "لقد مُنح اليهود مجاناً" الأشجار المثمرة، "لكنَّهم لم يعملوا في البستنة". كانت المساكن التي شيدت لهم مسبقاً "جميلة، جافة، متينة"، بينما كان بناؤها في أماكن أخرى سيئاً ومكلفاً، حتى

حيث "بنيت بالمتانة المطلوبة، واستُخدمت في بنائها مواد ذات نوعيّة عالية ... أودى بها إهمال اليهود وعدم معرفتهم بطرائق الحفاظ عليها، وصيانتها، حتى بات السكن فيها مستحيلاً من غير إصلاحات فوريّة"، فقد عششت فيها الرطوبة حتى أوصلتها إلى حافة الانهيار، كما كانت تتسبّب بالأمراض، فخلا كثير من المنازل من سكانه، وتجمّعت في مساكن أخرى عدة عائلات، "لا تربط بينها أواصر القرابة، ولمّا كان هذا الشعب يتسم بطبع قلق، ويميل إلى النزاع، فقد أفضى ذلك التواصل اليومي إلى عدد لا يُحصى من الشكاوى".

غنيٌّ عن البيان القول: إنَّ الذنب في عدم جاهزية الإعداد لهجرة كبيرة يقع على عاتق الطرفين: كانت تحركات الإدارة تأتي متأخرة وغير منسّقة، وفي بعض الأماكن كان بناء المساكن ذا نوعية رديئة بسبب ضعف الرقابة، وسوء استخدام الموارد وتبذيرها. (وهو ما أدى إلى تكرار عزل المسؤولين وإحالة بعضهم إلى القضاء). من الجانب الآخر لم يكن عرفاء اليهود الريفيّون يرغبون في ممارسة رقابة فعلية على المهملين المقصّرين في إدارة مزارعهم؛ لذلك عيّنوا عليهم مراقبين من ضباط الصف المتقاعدين، لكنَّ اليهود كانوا يرشونهم ويُسكرونهم. زد على ذلك أنَّ تحصيل الإتاوات من المستوطنين لم يكن ممكناً: إمَّا لعجزهم عن تسديدها "لأنّه لم يبق في أيِّ جماعة أكثر من عشرة بالكاد كانوا قادرين على أن يسدّدوا ما عليهم هم"، أو بسبب "ما يتّصف به اليهود من مماطلة وتسويف في تأدية الإتاوات"؛ كانت المستحقات المتأخرة تتزايد من عام إلى عام، فيعفون من تأديتها المرة تلو المرة. ولم يكن اليهودي الذي يغادر المكان من غير إذن رسمي يدفع سوى كوبيك واحد غرامة عن كل يوم، الأمر الذي لم يكن يشكّل بالنسبة إليه أيَّ صعوبة تُذكر، فالدخل من العمل في المدن كان يسهّل عليه دفع أيّ غرامة من هذا النوع. (للمقارنة فقط: كان الميلاميديون في المستوطنات يتلقون من 3 إلى 10 آلاف روبل في العام؛ وكانوا يديرون في القرى خيديراً واحداً لكل ثلاثين بيتاً؛ فضلاً عن الميلاميديين جرت محاولات لنشر

التعليم العام في المستعمرات – ما عدا اللغة اليهوديّة –اللغة الروسيّة والحساب، "لكنَّ عامّة اليهود كانت تنظر بعين الشكِّ إلى المؤسسات التعليميّة التي أنشأتها الحكومة").

"يوماً بعد يوم بات من البديهي أنَّ المستعمرات "النموذجيّة" التي كان يطمح كيسيليوف لإنشائها، ليست سوى حلم". وعلى الرّغم من أنّه أوقف إرسال عائلات جديدة (منذ العام 1848م) إلاّ أنَّ كيسيليوف لم يفقد الأمل، وفي العام 1852م دوَّن الخلاصة الآتية: "بقدر ما يكون الأمر صعباً بقدر ما ينبغي أن تحشد له من التصميم كي لا تستسلم أمام الإخفاقات الأولى". وما دام مراقب المستعمرة لم يصبح حاكماً فعلياً لها، "ويتعرَّض أحياناً، لسخرية المستوطنين الذين يدركون تماماً أنّه ليس له عليهم أيُّ سلطة"، فلن يكون بمقدوره سوى أن يقدِّم إليهم النصائح. وفي حمّى الغضب من الإخفاقات اقتُرحت غير مرّة مشاريع قضت بتكليف المستوطن بمهمات إلزامية عليه أن يُنجزها في خلال يومين أو ثلاثة، وضرورة التحقق من ذلك؛ وسلبه حق حرية التصرف بالملكية؛ وحرمانه من أن يتغيب عن المكان لأيٍّ سبب كان؛ بل ومعاقبته إذا لزم الأمر: في المرة الأولى حتى الثلاثين جلدة، وفي الثانية ضعف هذا العدد، وفي الثالثة يُسجن، وبحسب خطورة الحالة يُساق إلى التجنيد. (وينقل نيكيتين أنّه ما إنْ شاع خبر اقتراح هذه التعليمات حتى "دبَّ الذعر في قلوب الفلاحين اليهود فحشدوا كلَّ ما استطاعوا من قوى ... وبادروا فوراً إلى اقتناء المواشي، وأدوات العمل الزراعي ... وأظهروا اجتهاداً عجيباً في تدبير الشؤون المنزلية"). لكنَّ كيسيليوف أقرَّ مشروعاً متهاوداً (في العام 1853م): "ينبغي أن تكون المهمات متوافقة مع إمكانيات المكلَّف وخبراته"؛ يُمنع على المسؤول الريفي أن يحيد عن تعليمات اللجنة الوصائية إلاّ باتجاه تخفيف الأعباء؛ أُلغيت العقوبة على المخالفة الأولى، وخُففت على الثانية والثالثة إلى 10 و20 جلدة لا أكثر. (ولم يُعمل بتسليم المهملين إلى التجنيد أبداً، "لم يُسلَّم أيٌّ كان إلى التجنيد بسبب تقاعسه في إنجاز أعماله الزراعية"، وفي العام 1860م أُلغي هذا القانون نهائياً).

كل هذه القوانين والإجراءات اتخذت في ظلّ نظام القنانة طبعاً. لكن بعد نصف قرن من المحاولات الحكوميّة الصادقة لاستدراج اليهود إلى ممارسة العمل المنتج في الأراضي غير المستثمرة، ها هي تبرز أشباح مستوطنات عسكرية. وما يثير الدهشة أنَّ السلطة الإمبراطورية لم تدرك بعد ذلك كله، عبثيّة الإجراءات التي اتُخذت، وعُقم التدابير الزراعية. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد.

فبعد إخضاع السكان اليهود لإتاوة التجنيد، شاعت في أوساطهم شائعات مقلقة عن تشريعات جديدة مخيفة تُعدُّ لها "لجنة يهودية" خاصة. ثم صدرت أخيراً في العام 1835م مبادئ عامة خاصّة باليهود (حلّت محلَّ مبادئ العام 1804م)، "لم تلقِ عليهم قيوداً جديدة"، على حدِّ التعبير الحذر الذي ورد في الموسوعة اليهوديّة. وإذا فصّلنا أكثر، فإنَّ المبادئ الجديدة "أبقت لليهود على حق امتلاك أيِّ ملكية ثابتة ماعدا الأملاك المأهولة، وممارسة أيِّ عمل تجاري أُسوة بباقي الرعايا الروس الآخرين"، وإنْ كان داخل حدود الاستيطان اليهودي فقط. لقد أكّدت مبادئ العام 1835م على حماية حقوق الدين اليهودي كلّها، ومنحت الرابينيين حقّ منح المكافآت، وحقوق فئة كبار التجار. وحدَّدت للزواج سنّاً معقولة (18 و16 سنة). واتخذت إجراءات للتخفيف من حدّة تباين الزيِّ اليهودي عن زيِّ السكان المحيطين بهم. ووجَّهت اليهود نحو تحصيل المنفعة من العمل المنتج (منعت عليهم الاتجار بالخمور، والإقراض، ورهن الأشياء المنزلية)، وأجازت لهم العمل في شتى أنواع المصانع (بما فيها استثمار معامل تقطير الكحول). لكنَّ المبادئ منعت على اليهود استخدام المسيحيّين في الخدمة الدائمة، إلاّ أنّها أجازت لهم الإفادة من خدماتهم "في الأعمال المؤقتة" مع تحديد المدّة، كما أجازت استخدامهم "عمالاً في الفبارك والمصانع، ومعاونين في أعمال الفلاحة، والبستنة، وزراعة الخضار"، وهذا ما جعل الحديث عن "العمل الزراعيّ اليهوديّ" مثار سخرية. لقد دعت مبادئ العام 1835م الشباب اليهودي إلى التحصيل العلمي. ولم تُفرض أيُّ قيود على انتساب اليهود إلى مؤسسات التعليم المتوسط والعالي. وكلُّ

من كان يحصل من اليهود على درجة الدكتوراه في أيٍّ ميدان من ميادين العلوم، كان يُتاح له العمل بحسب إمكانياته في مؤسسات الدولة (كان الأطباء اليهود قد نالوا هذا الحقَّ من قبل). أمَّا فيما يتعلَّق بأجهزة الإدارة المحلية فقد رفعت المبادئ القيود السابقة عن مشاركة اليهود فيها: بات بإمكانهم أن يشغلوا الآن مناصب في الدوما والإدارات والبلديات "على الأسس نفسها التي كان يُنتخب ممثلو الديانات الأخرى على أساسها". (الحقيقة أنَّ بعض السلطات المحليّة اعترضت على هذا؛ خاصة في ليتوانيا: كان على حاكم المدينة أن يقود سكّانها في أيام معينة إلى الكنيسة، فكيف يمكن ليهوديٍ أن يفعل هذا؟ كما كان على المتخاصمين والشهود أن يقسموا على الصليب، فكيف يمكن أن يكون القاضي يهودياً؟ وقد تبين أنَّ الاعتراضات كانت قوية، فصدر في العام 1836م أمر قضى بألاّ يشغل اليهود من المناصب في إدارات وبلديات المقاطعات الغربية أكثر من الثلث).

أخيراً في المسألة الاقتصاديّة الملحّة المرتبطة بحركة تهريب البضائع من الخارج عبر حدود المقاطعات الحدودية التي كانت تتسبّب بأذى كبير لمصالح الدولة، أبقت المبادئ على اليهود الذين كانوا يقيمون على الشريط الحدودي حيث هم، لكنَّها منعت الهجرات الجديدة إلى هناك. وبالنسبة للدولة التي كانت تبقي على ملايين من سكانها تحت طائلة حق القنانة، فإنَّ كلّ ما ذكرناه هنا لا يشكِّل نظاماً من المظالم والتعسُّف.

في أثناء بحث مشروع قانون المبادئ في مجلس الدولة، انقسمت الآراء وتنوعت، حول إمكانية السّماح لليهود بالإقامة في المقاطعات الروسيّة الكبرى. قال بعضهم: "إنّه يمكن السّماح لليهود الذين يتميزون بسمات أخلاقيّة سامية، ويتوفرون على مستوى معين من التعليم، أن يقيموا في المقاطعات الداخلية". فاعترض آخرون على النحو الآتي: "يمكن لليهود أن يؤدوا منفعة كبيرة بأعمالهم التجاريّة - الصناعيّة، ولا يمكن تفادي المضاربات بمنع أحدهم من أن يعيش

ويتاجر"؛ "وينبغي أن يُطرح سؤال صريح وواضح: هل يمكن أن يُطاق وجود اليهود في الدولة؟ إذا اعترفنا بأنَّ وجود اليهود في الدولة لا يُطاق، ينبغي عندئذٍ طردهم جميعاً"، لا أن "تُترك هذه الفئة في داخل الدولة وهي على هذه الحال التي تثير فيهم السخط والاحتجاج دوماً". أمَّا إذا لم يكن من الصبر على وجودهم في البلاد بُدٌّ، فينبغي عندئذٍ تحريرهم من القيود المفروضة على حقوقهم".

في غضون ذلك خرجت بغتة إلى الواجهة في فيلنوس، ثم في كييف، "تلك الامتيازات البولونية القديمة التي كانت تجيز للجمعيات المدينية أن تفرض قيوداً على إقامة اليهود"، والتي كانت الحكومة الروسيّة قد رفضتها منذ عهد كاترين. ففي فيلنوس أفضى هذا الآن إلى منع إقامة اليهود في قسم معين من الأحياء. أمَّا في كييف، فاحتج التجار المحليون على "إدارة اليهود أعمالهم التجارية، وعقد صفقاتهم في داخل أسوار أديرة حيٍّ بيتشيرسك في كييف، ليغروا الكل ... واستيلائهم في بيتشيرسك على المؤسسات التجارية كلها، إذْ أزاحوا المسيحيين من ميدان التجارة"، هذا كلّه دفع بالحاكم العام إلى استصدار قرار (في العام 1827م) بمنع "اليهود من الإقامة في كييف، ولم يُسمح إلاّ لبعض فئاتهم بالمجيء إلى المدينة لوقت محدّد". "وكما يحدث دائماً في مثل هذه الحالات، كانت الحكومة مرغمة على أن ترجئ عدة مرات، الموعد المحدّد لترحيل اليهود من المدينة". فوصلت الخلافات إلى لجنة "المديرين"، وانقسم مجلس الدولة مناصفة، لكنَّ نيقولاي الأول أقرَّ بموجب مبادئ العام 1835م ترحيل اليهود من كييف. بيد أنّه سرعان ما أُجيز "لبعض فئات اليهود المكوث في المدينة لوقت محدّد". (لكنْ لماذا كان اليهود متفوقين هذا التفوق كلّه في ميدان التجارة؟ في غالب الأحيان كانت أسعارهم التي يبيعون بها أقل من تلك التي يبيع بها المسيحيون، فيكتفون "بربح أقل من ذلك الذين يطلبه المسيحيون"، على الرَّغم من أنَّ بضائعهم قد لا تكون مهرَّبة. وقد أشار محافظ كييف الذي كان يدافع عن اليهود، إلى أنّه "لو أراد المسيحيون أن يعملوا بدأب، لأزاحوا اليهود من سوق التجارة من غير أيِّ إجراءات ملزمة").

وعلى هذا النحو "أُجيز لليهود في بيلوروسيا أن يقيموا في المدن فقط، بينما سُمح لهم في مالوروسيا أن يقيموا في كلّ مكان ما عدا كييف والقرى التي تتبع خزينة الدولة، وفي نوفوروسيا منحوا حق الإقامة في المراكز السكانية كلها، ما عدا نيقولايف، وسيفاستوبول"، والموانئ الحربية التي كانوا قد رُحِّلوا منها في ذلك الوقت لاعتبارات تتّصل بأمن الدولة. "وجاءت مبادئ العام 1835م لتجيز للتجار وأصحاب الفبارك [اليهود]، المشاركة في أهمِّ المعارض التجارية التي تُقام في المقاطعات الداخلية، ومنحتهم بعض الحقوق لبيع البضائع خارج حدود إقامتهم". كما لم يكن الحرفيون محرومين من حقّ دخول المقاطعات الداخليّة، لكنْ لوقت محدّد. فوفق مبادئ العام 1827م مثلاً، "كان من حقّ قيادة المقاطعات التي تقع خارج حدود إقليم إقامة اليهود، أن تمنحهم إقامة لمدة ستة أشهر". وقد كتب غيسين يقول: إنَّ مبادئ العام 1835م، "ثم القوانين التي صدرت بعد ذلك، سهَّلت من شروط منح اليهود حقّ الإقامة المؤقتة خارج حدود إقامتهم الدائمة"، بل حتى السلطات المحلية كانت "تغضُّ النظر عن انتهاك اليهود لقيود الإقامة". وهذا ما يؤكّده ليسكوف أيضاً في مذكّرة أجاب فيها على تساؤلات اللجنة الحكومية: "في الأربعينات ظهر اليهود في قرى المقاطعات الكبرى التي يملكها الاقطاعيون، وعرضوا خدماتهم هناك ... كانوا يجولون طول العام على الملاّكين الذين كانوا يعرفونهم في المقاطعات الكبرى القريبة، وفي كلّ مكان كانوا يتاجرون ويعملون. ولم يطردوا اليهودي من هناك، بل كانوا يستبقونه. لقد كان السكان المحلّيون يرحبون دائماً بالحرفيين اليهود ويتستّرون عليهم ... كما كانت السلطات المحلّيّة تتساهل معهم في كل مكان، لأنَّ اليهود كانوا يوفّرون لهم وللسكان الآخرين كثيراً من أسباب الراحة. "كان اليهود ينتهكون بتسهيلات من المسيحيين أصحاب المصالح، التعليمات التي كانت تفرض القيود عليهم. وكانت السلطات نفسها مرغمة على التراجع عن مقتضيات القوانين ... ووصل الأمر حدَّ فرض غرامات على الإقطاعيين الذين كان يقيم اليهود عندهم في المقاطعات الروسيّة الكبرى".

على هذا النحو كانت سلطات الدولة الروسيّة التي تدفعها إلى حدٍّ ما، الحجج الوقائية (خاصة الذرائع الدينية) لتفادي إمكانية تخالط المسيحيين واليهود، كانت تجد نفسها مرغمة تحت ضغط الضرورات الاقتصاديّة التي تدفع باليهود إلى خارج حدود إقامتهم، على أن تتّخذ إجراء واضحاً وتنفّذه بوضوح. أمّا الطبع اليهودي المتمرِس السريع التبدُّل، فقد كان يُعاني من كثافة وجوده على أراض محدودة تبلغ المضاربات فيها مستويات حادة جداً؛ فكان من الطبيعي أن يسعى إلى التمدد والانطلاق. وقد كتب إ. غ. أُورشانسكي يقول في هذا السياق: "بقدر ما يتبعثر اليهود في أوساط السكان المسيحيين، بقدر ما يتزايد رخاؤهم".

إقليم الاستيطان اليهودي[1]

يصعب الجدال في أنَّ جغرافيا استقرار اليهود في روسيا لم تكن من حيث مداها الرسميّ رحبة مترامية الأطراف: عداك عن الكثافة اليهوديّة الموروثة في بولونيا، وعلاوة على مقاطعات فيلنوس، غرودين، كوفين، فيتيبسك، مينسك، موغيلوف، فولينسك، بودولسك وكييف (فضلاً عن مملكتي بولونيا كورليانديا)، أُلحقت بهذا كله مقاطعات بواتافسكايا، يكاترينسلافسكايا، تشيرنيغوفسكايا، تافريتشيسكايا، كيرسونيس وبسارابسكايا، وهي كلّها أراضٍ شاسعة وخصبة. وتفوق مساحة هذه مجتمعة، مساحة أيٍّ دولة من الدول الأوروبية، أو حتى مساحة مجموعة من هذه الأخيرة. (في الفترة الواقعة بين العام 1804 حتى أواسط ثلاثينات هذا القرن نفسه، أُضيفت إليها مقاطعتا آستراخان والقوقاز الثريتان. لكنَّ اليهود أنفسهم لم ينتقلوا إلى هناك، ففي العام 1824م "لم يدوَّن اسم أيٍّ يهودي في سجلات الضرائب" في آستراخان). لقد كانت تلك خمس عشرة مقاطعة شكلت "حدود" الاستيطان اليهودي المعترف بها، وكان العدد الكلي لمقاطعات "روسيا الداخلية" إحدى وثلاثين مقاطعة. ولم يكن سوى عدد قليل منها كثافته السكانية أعلى من

---

(1) هي الأقاليم التي أجازت سلطات الإمبراطورية الروسيّة لليهود أن يقيموا فيها إقامة دائمة ابتداء من العام 1791 حتى العام 1917. وقد شملت 15 إقليماً في بولونيا، ليتوانيا، بيلوروسيا، بيسارابيا، كورلياندا، وستة أقاليم في أوكراينا، والقوقاز، وآسيا الوسطى. ح. إ.

الكثافة السكانية في المقطعات الروسيّة الوسطى. كما لم يكن نصيب اليهود من عدد السكان فيها أكبر من نصيب المسلمين في مقاطعات الأورال والفولغا. لذلك لم تكن ضائقة اليهود فيها بسبب زيادة الكثافة السكانية، إنّما بسبب تماثل المهن. ففي روسيا المترامية الأطراف وحدها كان يمكن أن تبدو حدود الاستيطان النظامية تلك مزدحمة. بيد أنّه ثمة من يعترض على هذا قائلاً: إنّ رحابة تلك الحدود لم تكن سوى رحابة وهميّة: كانت مستثناة منها الأمداء الواقعة خارج المدن والبلدات. لكنّ تلك الأمداء كانت زراعية، للعمل الزراعي فقط، أي أنّها كانت متاحة لليهود، إلاّ أنّها لم تغرهم، أمّا الجدال، فقد تناول كيفية تكييف تلك الأمداء مع تجارة الخمور. وهذا تشويه للواقع.

فلو لم ينتقل السيل اليهودي من بولونيا المزدحمة إلى روسيا المترامية الأطراف، لما ظهر أصلاً مفهوم "حدود الاستيطان"، ولعاش اليهود في بولونيا المزدحمة بكثافة، وفقر، ولتكاثروا بتسارع ومن غير أيّ عمل منتج تقريباً. كان 80% منهم يعملون باعة وسماسرة.

على أيّ حال لم يكن اليهود مرغمين على العيش في المدن الروسيّة داخل غيتوات، كما كانت عليه حالهم في أوروبا (مع أنّهم في موسكو أعدوا للوافدين نُزُلاً).

وإذ نشير مرّة أخرى إلى أنّ حدود الاستيطان هذه عاشت في الوقت نفسه طول ثلاثة أرباع القرن مع نظام القنانة الذي كان أكثر سكان روسيا خاضعين له، بينما لم يكن اليهود يخضعون لأحكامه، فسوف نرى أنّ نير القيود التي وُضعت على انتقال اليهود لم يكن يمثّل ذلك العبء الثقيل كله. في الإمبراطورية الروسيّة كانت شعوب كثيرة تعيش ملايين كثيرة تزدحم في أقاليمها. فعلى أراضي الدول المتعدّدة القوميات، غالباً ما تعيش الشعوب معزولة وبكثافة، بمن فيهم الكارايميون واليهود الجبليون الذين كان لهم حق الانتقال لكنّهم لم

يستخدموه. ولا يُقارن بأيٍّ حال من الأحوال بالقيود الإقليمية التي فرضها المستعمرون الوافدون (الانكلوساكسون والإسبان)، على السكان الأصليين في الأراضي التي استولوا عليها.

بيد أنَّ افتقار اليهود لأرض أُمّ، إضافة إلى حركتهم الدائبة وفعاليتهم الاقتصاديّة العالية ونشاطهم الحيويّ، هذا كلُّه كان يوحي بأنَّهم على وشك أن يتحولوا إلى أهمِّ عامل مؤثِر في الحياة الروسيّة كلِها. كما يمكن القول: إنَّ ضرورة الشتات اليهودي التي كانت تقتضي بأن تكون الأماكن كلّها متاحة لهم، والخشية من أن يتجاوز نشاطهم الحدَّ المعقول، هذا كله كان يدفع بالحكومة الروسيّة إلى اتخاذ إجراءات احترازية. ومن المعروف أنَّ اليهود عزفوا عن العمل الزراعي في روسيا. وفي ميادين الحرفة كانوا يعملون في الغالب خياطين وحذّائين وساعاتية وصاغة. لكنَّ نشاطهم الإنتاجي لم يقتصر على المهن الصغيرة حتى في حالات الضيق التي كانت تتسبّب لهم بها حدود استيطانهم.

توجّهات الرأسمال اليهودي

كانت الموسوعة اليهوديّة قد كتبت قبل الثورة تقول: لتطوير الصناعات الكبرى كان اليهود "يولون أعظم أهميّة للتجارة النقديّة، ولا فرق قطّ بين أن يعمل اليهودي مرابياً، أو صرّافاً، أو متعهداً لجمع واردات الخزينة، أو واردات الإقطاعيين، أو مصرفيّا، أو خمّاراً، أو مستثمراً مستأجراً، فقد كان يعمل بشكل رئيس في الصفقات الماليّة". حتى في ظلّ غلبة الاقتصاد العينيّ في روسيا، "كان الطلب على المال قد أخذ يفرض حضوره بأحجام متزايدة". ومن هنا جاء الرأسمال اليهوديّ إلى الصناعة بهدف تحقيق مزيد من النموِ هناك. ومنذ عهد الإسكندر الأول كانت قد اتُخذت تدابير سريعة لتشجيع المساهمة اليهوديّة في الصناعة، لا سيما الصناعة النسيجيّة. "وقد أدّت هذه بعد ذلك دوراً كبيراً في تراكم رأس المال بين أيدي اليهود"، "فيما بعد لم يتردّد اليهود في استثمار هذا الرأسمال في الصناعات الاستخراجيّة، وبناء الفبارك والمعامل، وفي المواصلات والنقل والمصارف. على هذا النحو تكون قد بدأت عملية تشكّل البورجوازيّة اليهوديّة المتوسطة والكبيرة". كما "تضمّنت مبادئ العام 1835م امتيازات لليهود أصحاب الفبارك".

في أربعينيّات القرن التاسع عشر حقّقت صناعة السُكّر تطوراً ملحوظاً في الإقليم الجنوبي الغربي. وفي بادئ الأمر كانت رؤوس الأموال اليهوديّة تموِّل معامل السُكّر التي يملكها الإقطاعيّون، ثمّ تسلّموا إدارتها، ومن ثمّ تملّكوها، وأخذوا يبنون بعد ذلك مصانعهم. ففي أوكراينا ونوفوروسيا على سبيل المثال، برز كبار "ملوك السُكّر": لازر، وليف برودسكي. وفي غضون ذلك كان

"أكثر أصحاب مصانع السُكّر اليهود قد بدأوا مسيرتهم كمتعهدين [متعهدي خمور] ... كما كانوا يديرون خمارات". ثمَّ ارتسمت الصورة نفسها في صناعة الطحين.

مساعي إدماج اليهود في المجتمع الروسيّ

لم يفقه أحد من المعاصرين عندئذٍ، ولم يرَ، أيُّ قوّة ماديّة، ثمّ روحيّة كانت تتشكّل. ولا ريب في أنّ نيقولاي الأول نفسه لم يفهم ذلك أيضاً، ولم يره. فقد بالغ كثيراً في تصوُّره لمدى جبروت السلطة الإمبراطورية الروسيّة، ونجاح طرائقه العسكرية - الإدارية. لكنّه كان يولي أهميّة جديّة لإصلاح شأن اليهود وتجاوز حالة الاغتراب التي كانوا يعيشونها معزولين عن الكتلة السكانيّة الأساسيّة التي كانوا يرون فيها الخطر الرئيس عليهم. فمنذ العام 1831م كان قد لفت انتباه لجنة "المديرين" إلى أنّ "بين التدابير التي يمكن أن تحسِّن من أوضاع اليهود، ينبغي أن يولى الاهتمام لإصلاح تعليمهم ... وإنشاء الفبارك، ومنع الزيجات المبكرة، وتحسين أداء الكاغالات ... وتغيير الزيّ الذي يرتدونه". وفي العام 1840م لدى إنشاء "لجنة تحديد التدابير الضروريّة لإصلاحٍ جذري في أوضاع اليهود في روسيا"، رأت هذا اللجنة أوّل أهدافها في "التأثير على البنية الأخلاقيّة للجيل الجديد من اليهود، وإنشاء مدارس يهوديّة تعارض الروح التلمودية للتعليم المعمول به".

كما كان اليهود التقدميّون كلّهم يرغبون في مدارس التعليم العام (ولم تختلف مواقفهم إلاّ في أمر واحد: هل ينبغي استثناء التلمود نهائياً من خطّة التدريس، أم ينبغي أن يُدرَّس في الصفوف العليا من تلك المدارس "على أسس علميّة تنقيه من الناميات الضارة؟" كانت مثل هذه المدرسة اليهوديّة قد أُنشئت لتوّها في ريغا على أسس التعليم العام، وترأسها خريج جامعة ميونخ الشاب ماكس ليلينتال. كان هذا متعطشاً لإشاعة التعليم في أوساط اليهود الروس. وفي

العام 1840م استقبله بترحاب في بطرسبورغ وزيرا التعليم والداخلية، فوضع "للجنة إصلاح اليهود" مشروعي المجْمع اليهوديّ، والمدرسة الروحيّة اليهوديّة لإعداد الرابينيين والمعلِّمين "على أسس أخلاقيّة عامة منقاة"، على الضدِّ من "التلموديين المتحجّرين"؛ لكنَّ "تعليم العلوم الزمنية كان يحتاج إلى إقرار مسبق في المراجع الدينية العليا". فأُدخلت تغيرات على المشروع الوزاري: تضاعف عدد الحصص المخصّصة لتدريس المواد التعليميّة اليهوديّة. لقد عمل ليلينتال على دفع الحكومة إلى اتخاذ تدابير وقائية ضدَّ الحسديين، لكنَّه لم يلق تجاوباً: "كانت الحكومة ترغب في تحقيق وحدة شكليّة بين العناصر الاجتماعيّة المتعادية" في الأوساط اليهوديّة. وفي غضون ذلك عهدت الوزارة إلى ليلينتال الذي كان قد نجح نجاحاً باهراً في تنظيم مدرسة ريغا، بأن يجول على المقاطعات التي يستوطن فيها اليهود ويدعو إلى أهداف حركة التنوير في لقاءات جماهيرية عامة، واجتماعات مع الشخصيّات اليهوديّة المؤثّرة. وبدا في الظاهر أنَّ جولته كانت موفقة، فعلى وجه العموم لم يُقابل بعدائية صريحة، وبدا كأنّه استطاع أن يُقنع الفئات اليهوديّة النافذة. "كان ينبغي على خصوم الإصلاح أن يبدوا موافقة ظاهرية. لكنَّ المعارضة الضمنية كانت مهوّلة بالطبع. وعندما بدأ الإصلاح المدرسي فعلاً تخلّى ليلينتال عن مهمته. في العام 1844م رحل فجأة إلى الولايات المتحدة وأقام هناك. "كان رحيله من روسيا مبهماً تماماً – إذا لم يكن هروباً –".

على هذا النحو، لم تكتف السلطات الروسيّة في عهد نيقولاي الأول بعدم معارضة اندماج اليهود، بل شجّعت على ذلك ودعت إليه، لكنَّ الجماهير اليهوديّة بقيت خاضعة لنفوذ الكاغالات، خائفة من تدابير إرغام في الميدان الدينيّ، فامتنعت عن الاندماج. مع ذلك سار الإصلاح المدرسيّ في سياقه الطبيعيّ، منذ العام 1844م هذا نفسه على الرَّغم من المقاومة العنيفة التي أبدتها قيادة الكاغالات (مع أنَّ "إنشاء المدارس اليهوديّة لم يكن المقصود منه أبداً تقليص عدد اليهود في مؤسسات التعليم العام، وجرى التأكيد غير مرة على أنَّ المدارس

العامة يجب أن تبقى مفتوحة أمام اليهود كما في السابق"). لقد أُنشأ نوعان من المدارس الحكوميّة اليهوديّة ("وفق نموذج المدارس الابتدائية التي أُنشئت لليهود في النمسا"): نوع تستمرّ الدراسة فيه عامين، وهو يتوافق مع نظام الأبرشيّة الروسي، والنوع الآخر تستمر الدراسة فيه أربع سنوات، وهو يتوافق مع نظام التعليم في الأقضية الروسيّة. كان المعلمون اليهود فقط هم الذين يدرِّسون فيها المواد التربوية (باللغة اليهوديّة)، أمَّا المواد العامة فكان يدرِّسها معلمون روس. (وهاكم التقويم الذي أعطاه الثوريّ الحانق **ليف ديتش** لهذه العملية: "لقد أمر الوحش صاحب التاج بأن يعلّموهم [يعلّموا اليهود] مبادئ اللغة الروسيّة"). وعلى مدى سنوات طويلة كان مدراء هذه المدارس من المسيحيين، وبعد وقت فقط أخذوا يعيِّنون اليهود أيضاً.

"لقد كان أكثر السكّان اليهود مخلصين لليهوديّة التقليديّة، وبعد أن أدركوا أو خمّنوا الغرض الخفي الذي كان يرمي إليه أُوفاروف (وزير التعليم)، رأوا في التدابير التنويريّة التي اتخذتها الحكومة شكلاً من أشكال الاضطهاد". (أمَّا أُوفاروف ففي بحثه عن الطرق الممكنة لتقريب اليهود من السكان المسيحيّين عبر استئصال "القناعات الخرافية التي تغرسها وتكرسها تعاليم التلمود"، سعى إلى إبعاد هذه الأخيرة نهائياً عن العملية التعليمية، ورأى فيها شريعة معادية للمسيحيّة). ومع رسوخ عدم الثقة بالسلطة الروسيّة، بقي السكان اليهود لسنوات أخرى كثيرة عازفين عن تلك المدارس، خائفين منها: "كان السكان اليهود يتهرَّبون من تلك المدارس على النحو الذي كانوا يتملَّصون فيه من التجنيد. لقد كانوا يخافون أن يرسلوا أطفالهم إلى منابت "حريّة التفكير" تلك. كان الأثرياء اليهود يرسلون إلى المدارس الحكومية أبناء الفقراء بدلاً عن أبنائهم. (بهذه الطريقة تحديداً أُرسل ب. ب. أكسلرود إلى المدرسة الحكومية؛

ثم انتقل إلى الجمنازيوم[1]، ومنها إلى الشهرة السياسية بصفته من زملاء بليخانوف وديتش في هيئة "تحرير العمل"). وإذا كان عدد تلاميذ "الخيديرات النظامية" قد بلغ في العام 1855م 70 ألف طفل يهوديّ، فإنَّ عدد هؤلاء في نوعي المدارس الحكومية كان 3200 تلميذ فقط.

وبقي هذا الخوف من التعليم المدني راسخاً في الأوساط اليهوديّة لزمن طويل آخر. فيتذكر ل. ديتش أنَّه في ستينات القرن التاسع عشر وفي كييف نفسها، وليس في مكان منسيٍ ما: "أذكر جيداً ذلك الوقت الذي كان يرى فيه أبناء جلدتي أنَّ دراسة اللغة الروسيّة إثم كبير"، ولم يجيزوها إلاَّ للضرورة القصوى في عملية التواصل مع ... "الغرباء". ويتذكّر أ. غ. سليوزبيرغ أنَّ اليهود حتى في سبعينات القرن كانوا يرون في الانتساب إلى الجمنازيوم خيانة للروح اليهوديّة، كان زيُّ الجمنازيوم رمزاً للارتداد عن عبادة يهوه. "لقد كانت تفصل بين المسيحيين واليهود هوّة لم يستطع أن يجتازها سوى قليل من اليهود، بل حتى هذا لم يحدث إلاَّ في المدن الكبرى التي لم يكن بمقدور الرأي العام اليهودي فيها أن يقيِّد الإرادة الفرديّة إلى درجة كبيرة". ولم يسع الشباب اليهودي إلى الالتحاق بالجامعات الروسيّة، على الرُّغم من أنَّ نيل شهاداتها كان يمنح اليهوديّ بموجب قانون التجنيد الذي صدر في العام 1827م.، إعفاء نهائياً من الخدمة العسكرية. لكنَّ هوسين يلاحظ قائلاً: "إنَّ الأوساط اليهوديّة الروسيّة الميسورة الحال أخذت تنحو نحو المؤسسات التعليمة العامة".

ولم يقتصر الأمر في المدارس الحكومية اليهوديّة على أنَّ "أكثر المديرين كانوا من المسيحيين، بل أكثر المعلمين اليهود الذين كانوا يدرِّسون المواد اليهوديّة باللغة الألمانية، لم يكونوا على المستوى المطلوب". لذلك تقرَّر "مع إنشاء

---

(1) جمنازيوم. كلمة اغريقية = مدرسة متوسطة للتعليم العام. ح. إ.

المدارس الحكومية، إنشاء مدرسة عليا لإعداد المعلمين ... وإعداد كوادر متنوِّرة من الرابينيين الذين يمكن أن يدفعوا بالجماهير اليهوديّة نحو التقدُّم. "فأُنشئت مثل هذه المدارس الرابينية في فيلنوس، وجيتومير" (في العام 1847). "وعلى الرَّغم من كلّ سلبيات تلك المدارس، إلاّ أنَّها قدَّمت منفعة مهمّة"، وهذا ما أقرَّ به الليبرالي يو. إ. هوسين حين قال: "لقد بات الجيل الصاعد يتعرّف إلى اللغة الروسيّة ويكتب بها". كما كان للثوري م. كرول رأي مماثل في هذا الميدان، لكنْ في إطار إدانة الحكومة: "مهما كانت قوانين نيقولاي الأول في مسألة المدارس الابتدائية اليهوديّة، والمدارس الرابينية، رجعيّة ومعادية لليهود، إلاّ أنَّها سواء أراد نيقولاي الأول أم لم يردْ، عرَّفت فريقاً حتى ولو صغيراً من الأطفال اليهود على الثقافة المدنية". وغدا المتنورون ("الماسكيليم") الذين يحتقرون الآن "ذهنية الجمهور الخرافيّة، معزولين"، غرباء بين أبناء جلدتهم. "مع ذلك كان لهذه الحركة دور مهوّل في اليقظة الروحيّة التي عرفتها اليهوديّة الروسيّة في النصف الثاني من القرنالتاسع عشر". بيد أنَّ كلَّ من عزم من الماسكيليم على تنوير الجمهور اليهوديّ، كان يصطدم "بمقاومة ضارية من قبل اليهود السلفيين المتزمّتين الذين كانوا يرون في الثقافة المدنيّة وسوسة شيطانيّة".

في العام 1850م تأسست واحدة أخرى من مثل هذه البنى الفوقيّة: معهد "العلماء اليهود"، الخبراء - المستشارين لدى القيمين على الدوائر التعليميّة. ومن خريجي المدارس الرابينية المحدثة، أُنشئت منذ العام 1857م.، وظيفة "الرابينيين الحكوميين" الذين كانت مشاعاتهم تختارهم رغماً عنهم، ثمَّ تعتمدهم سلطات المقاطعة. لكنَّ مهام هؤلاء كانت تقتصر على الأعمال الإدارية: كانت المشاعات اليهوديّة ترى فيهم أشخاصاً غير ضليعين في العلوم اليهوديّة، أمَّا الرابينيون التقليديون فقد أُبقي عليهم "كرابينيين روحيّين" حقيقيّين. (ولمَّا كان كثير من خريجي المدارس الرابينية "لا يجدون وظائف رابينية، ولا وظائف في التعليم"، كانوا يتابعون تحصيلهم العلمي في الجامعات، فيختارون الطبَّ أو المحاماة).

لم تفتر همّة نيقولاي الأول في السعي لتنظيم الحياة الداخليّة للطائفة اليهوديّة. فالكاغال التي كانت لها من قبل سلطة طاغية على الطائفة، زادت هذه السلطة قوّة بعد أن فُرضت إتاوة التجنيد على اليهود، فبات لها الحق في "أن تدفع بأيٍّ يهودي إلى الخدمة العسكريّة في أيٍّ وقت تشاء، بحجة التأخُّر عن تأدية الجبايات، أو بذريعة التسكّع، وسوى ذلك من المشاغبات التي لا يطيقها المجتمع اليهوديّ"، وقد استخدمت الكاغال هذا الحق بتحيز فظ لصالح الأثرياء. "وكان طبيعياً أن يؤدي هذا إلى إثارة سخط العامّة على قادة الكاغال، فنشأت حالة من التوتر الشديد في داخل الطائفة تحوّلت إلى واحد من أسباب سقوط الكاغال نهائياً". ففي العام 1844م، "حُلّت الكاغالات في كلّ مكان، وأُحيلت وظائفها إلى بلديات المدن وإداراتها"، أي أنَّ الحالة في المشاعات المدينيّة اليهوديّة باتت كأنّها خاضعة للسياق الحكومي العام. بيد أنَّ هذا الإصلاح لم يكتمل أيضاً: أُحيلت مرّة أخرى إلى المشاعة اليهوديّة نفسها، مهمّة جباية المستحقات العسكرية المتأخّرة، والجبايات التي تمَّ التهرّب منها، وتجنيد المكلّفين، وكان "عرفاء التجنيد" و"جباة الضرائب" قد ورثوا الآن مهمّات شيوخ الكاغالات السابقين. وهذا يعني أنّ سجلّات الأحوال الشخصيّة، والإحصاء السكّاني بقيت في أيدي الرابينيين.

فيما بعد تدخّلت حكومة نيقولاي الأول في مسألة الجبايات الداخليّة اليهوديّة الشديدة التعقيد، لا سيما ضريبة "البقجة"، (ضريبة غير مباشرة كانت تُجبى من الذين يحملون "بقجة" ويجولون بها على القرى ليبيعوا الفلاحين مختلف البضائع). ففي العام 1844م صدرت تعليمات تقضي باستخدام جزء من ضريبة "البقجة" لتغطية المستحقّات المتأخّرة للحكومة على المشاعة، وبناء المدارس اليهوديّة، ومساعدة اليهود الذين تحوّلوا إلى العمل الزراعي. لكنَّ أمراً خفياً غير متوقّع برز هنا: على الرَّغم من أنَّ اليهود "كانوا يؤدّون ضريبة شخصيّة على قدم المساواة مع المشان المسيحيين"، أي ضريبة مباشرة، "إلاّ أنَّ السكّان اليهود

كانوا في وضع مميَّز، فيما يتعلق بوسيلة تحصيل الضريبة، وكان ذلك بفضل ضريبة البقجة". "فاليهود الآن، بمن فيهم الأثرياء، غالباً ما كانوا يسدّدون الضريبة عن طريق توزيع الحصص، أي بمساهمات شخصيّة ضئيلة يؤدّونها في الجبايات الحكومية، أمّا باقي الضريبة فكان يتحوَّل إلى باقي استحقاق مؤجَّل"، وكانت هذه المتأخّرات تتراكم عاماً بعد عام حتى تجاوزت في أواسط القرن، ثمانية ملايين روبل. عندئذٍ كانت تصدر من جديد إرادة عليا غاضبة تقضي: "بسحب مجنَّد واحد لقاء كلِ ألفيٍّ روبل من الضرائب الجديدة المتأخّرة".

في العام 1844م جرت محاولة أخرى لترحيل اليهود من القرى. وقد كتب هوسين عن ذلك بأسلوب تعبيريّ فقال: "يُسمع في القوانين الروسيّة التي كان ينبغي أن تنظِّم حياة اليهود، صوتٌ ما كأنّه صرخة قنوط من أنَّ الحكومة الروسيّة على الرَّغم من كلّ جبروت سلطتها، تجد نفسها عاجزة عن اقتلاع الحضور اليهوديّ من باطن الحياة الروسيّة". كلاً، لم تدرك الحكومة الروسيّة بعد مدى عبء الإرث اليهوديّ الذي منحه تقسيم بولونيا مكافأة: ما العمل مع هذا البنية العنيدة المتنامية في جسد الدّولة الروسيّة باندفاع لا يتوقف؟ لم يعثروا على حلول حاسمة، فما بالك بقدرتهم على قراءة المستقبل البعيد. توالت تدابير نيقولاي الأول واحداً بعد الآخر، لكنْ بدا كأنَّ الوضع يزداد تعقيداً.

ولاحق نيقولاي الأول إخفاقٌ مماثل في حربه ضدَّ عمليات التهريب اليهوديّة عبر الحدود. فأصدر في العام 1843م أمراً قاطعاً بإبعاد اليهود مسافة خمسين فرسخاً عن الشريط الحدوديّ مع النمسا وبروسيا، غير عابئ بكون "التجار في بعض النقاط الجمركية الحدودية هم تقريباً من اليهود فقط". لكنْ سرعان ما جرى تصويب التدبير باستثناءات واسعة من القاعدة: في أوّل الأمر مُنحت مدة عامين ليتسنّى لليهود بيع أملاكهم غير المنقولة هناك، ثمَّ جرى تمديد هذه المدَّة. وقُدِّمت للمرحَّلين مساعدة مادّية لتدبير شؤون إقامتهم في الأماكن الجديدة، وأُعفوا لخمس سنوات قادمة من تأدية الضرائب. ومرّت عدة سنوات لكنَّ الترحيل

لم يبدأ، ثمَّ سرعان ما تراجعت "حكومة نيقولاي الأول عن إصرارها على ترحيل اليهود مسافة خمسين فرسخاً عن الشريط الحدودي، ونجح فريق منهم في البقاء حيث كان". هنا تلقى نيقولاي تحذيراً آخر ربَّما لم يدرك حجم أبعاده ومدى تأثيره على روسيا كلّها: إنَّه الإجراء التحذيري القاضي بإبعاد اليهود عن الشريط الحدوديّ بسبب عمليات التهريب التي بلغت أحجامها حداً خطراً بالنسبة إلى الدولة، لكنَّ الإجراء لم يوضع موضع التطبيق، وقد أحدث في أوروبا سخطاً أثار الرأي العامّ الأوروبيّ ضدّ روسيا. أي قد يكون قرار العام 1843م هذا بداية العصر الذي تحركت فيه اليهوديّة الأوروبيّة للدفاع عن اليهود في روسيا، ثم لم تتوقف عن ذلك بعدئذٍ أبداً.

لا ريب في أنَّ وصول السير موزيس مونتيفيوريه في العام 1846م إلى روسيا حاملاً رسالة توصية من الملكة فيكتوريا إلى نيقولاي، كان مظهراً من مظاهر ذلك الاهتمام. لقد كان السير موزيس يسعى إلى "تحسين قدر السكان اليهود" في روسيا. فجال على بعض المدن التي كانت فيها كثافة كبيرة من السكان اليهود؛ ثمَّ أرسل بعد ذلك من إنكلترا رسالة مسهبة إلى القيصر يطلب فيها تحرير اليهود نهائياً من القوانين التي تحدُّ من حريّة حركتهم، ومنحهم "المساواة مع باقي الرعايا الآخرين" (ما عدا الفلاحين الأقنان طبعاً) "والإسراع بحسب الإمكان بإلغاء القيود التي تحدُّ من حقهم في اختيار مكان الإقامة، وانتقالهم في داخل حدود استيطانهم"، ومنح التجار والحرفيين حريّة السفر إلى المقاطعات الداخليّة، "والسماح باستخدام المسيحيين ... وإعادة بناء الكاغالات ...". كان نيقولاي يشبه بطرس الأول في موقفه الحازم من بناء الدولة كلّها والمجتمع وفق خطته هو، لكنَّ مصاعب المجتمع كانت تتلخّص في وجود فئات بسيطة وواضحة، فسار على نهج بطرس عندما "أزاح" في حينه كلَّ ما كان يشوب نقاء مجموعات الفئات الدافعة الضرائب.

تصنيف التجّار اليهود

بات تصنيف المشان اليهود هو المعيار الآن. في العام 1840م ظهر هذا المشروع لدى دراسة المهمّة الأساس: كيف يمكن تجاوز اغتراب اليهود دينيّاً وقوميّاً (جرت في هذا السياق دراسة رؤى ليفينزون، وفيغين، وغيزيانوفسكي)، و"دراسة جذور إصرارهم على الاغتراب عن الواقع الوطني العام، وابتعادهم عن كلّ نشاط إنتاجي، وميلهم إلى النشاطات المؤذية في ميادين الصناعات الصغيرة التي تترافق عندهم بشتّى ضروب الخداع والمكر. وقد عزت الدوائر الحكوميّة هذا الخمول الذي يجتاح الأوساط اليهوديّة إلى العادات المزمنة"، ورأوا أنّ "الجمهور اليهوديّ كان يستطيع أن يحصل على موارد عيشه، لكنّ التقاليد تجعله يعزف عن بعض أنواع العمل".

فاقترح الوزير كيسيليوف على القيصر التدبير الآتي: عدم المساس بالتجّار اليهود الذين استقروا وانتظمت شؤونهم، والالتفات إلى اليهود المشان وتقسيمهم إلى طائفتين: يُصنَّف في الطائفة الأولى أولئك الذين استقروا استقراراً راسخاً وامتلكوا ملكيّات ثابتة، ويُصنَّف في الثانية أولئك الذين لم يحققوا ذلك، فيُمنحون خمس سنوات لكي يتحولوا إلى حرفيين أو فلاحين. (كان يُعدُّ حرفياً كلّ من يُسجّل تسجيلاً نهائياً في ورشة؛ وكلّ من كان يُسجّل تسجيلاً مؤقتاً في ورشة، كان يُعدُّ مشاناً حضرياً). ومن لا يُحقّق ذلك في غضون خمس سنوات، ويبقى على وضعه السابق نفسه، يُعدُّ فاشلاً عاجزاً لا نفع فيه وتفرض عليه إتاوة عسكريّة خاصّة سخرة: يُساق منهم إلى التجنيد (من سنّ العشرين)، ثلاثة أضعاف العدد المعتاد، لكنّهم لا يخدمون مدة الخمسة والعشرين عاماً المعتادة،

بل عشر سنوات فقط يُستخدمون في أثناء ذلك في شتى ورش الجيش والأسطول ليتحوّلوا كلٌّ بحسب رغبته، إلى حرفيين أو فلاّحين"، أي يُمنحون إعداداً مهنياً رغماً عنهم. بيد أنَّ الحكومة لم تكن تمتلك الوسائل اللازمة لتحقيق ذلك، ولم تجد وسيلة أخرى غير استخدام ضريبة البقجة، لأنَّ المجتمع اليهوديّ لا يمكن ألاَّ تكون له مصلحة في إعداد أفراده للعمل المنتج.

في العام 1840م أقرَّ نيقولاي الأول هذا المشروع. وفي غضون ذلك، تلخّصت تدابير إصلاح حياة اليهود كلّها في مرسوم واحد أخذ بعين الحسبان أن تتوالى على النحو الآتي:

1) "تنظيم جباية ضريبة البقجة والقضاء على الكاغالات"؛
2) تنظيم شؤون مدارس التعليم العامّ لليهود؛
3) إنشاء "رابينيات في المقاطعات"؛
4) "إسكان اليهود على أراضي الدولة" ليعملوا في الزراعة؛
5) تصنيف اليهود؛
6) منع ارتداء الزيِّ اليهوديّ ذي الأذيال الطويلة.

وكان كيسيليوف يرى أنَّ تصنيف اليهود مسألة آجلة، بينما رأى فيها نيقولاي مسألة ينبغي أن تتحقّق قبل بند العمل الزراعي الذي كان قد مضى عليه ربع قرن من غير جدوى.

لكنَّ التصنيف كان يقتضي فترة تحضيرية لخمس سنوات يجري خلالها اختيار المهنة، بيد أنَّ التدبير نفسه لم يُعلن عنه إلاَّ في العام 1846م.، أي أنَّ التصنيف نفسه كان يجب ألاَّ يبدأ إلاَّ في كانون الثاني من العام 1852م. (في العام 1843م.، احتجَّ الحاكم العام في نوفوروسيا الكونت م. فورونتسوف على "التصنيف" فكتب يقول: إنَّ عمل هذه "الطبقة الكبيرة من الباعة والسماسرة مرذول، لقد صُنِّف في عداد الذين لا نفع فيهم 80% من السكان اليهود" — أي أنَّ

80% من اليهود كانوا يعملون في التجارة. لكنَّ فورونتسوف عوّل على أنَّ الإمكانيّات الاقتصاديّة الكبيرة والمتنوعة التي يتوفَّر عليها إقليم نوفوروسيا، ستنفي الحاجة إلى اتخاذ أيِّ تدابير قسريّة، أو ترحيل اليهود من القرى، وأنَّ كلَّ ما هو مطلوب، نشر التعليم في أوساطهم. كما حذر من امتعاض أوروبا من "التصنيف").

بعد أن أخذت الحكومة الروسيّة بالحسبان ردَّ فعل أوروبا على محاولتها ترحيل اليهود من الشريط الحدودي، أعدَّت الآن في العام 1846م إعلاناً عن إجرائها الجديد معلّلاً بإحكام: في بولونيا لم يكن لليهود حقّ المواطنة، ولا حقّ امتلاك ملكيّة ثابتة، لذلك اقتصر عملهم رغماً عنهم على التجارة الصغيرة والخمّارات؛ لكنَّهم بعد أن انتقلوا إلى روسيا، اتسعت حدود استقرار اليهود، ونالوا حقوق المواطنة، والانتماء إلى فئة تجار المدن، وحقَّ امتلاك الملكيات غير المنقولة، وحق الانتماء إلى فئة الفلاحين، وحق التعليم، بما في ذلك التعليم الجامعي والأكاديمي.

وينبغي أن نعترف حقاً بأنَّ اليهود نالوا هذه الحقوق كلها خلال السنوات العشر الأولى من إقامتهم فيما دُعي زوراً وبهتاناً "سجن الشعوب". لكنْ بعد مضيِّ قرن من الزمن سيقوِّم كتاب مجموعة الكتّاب اليهوديّ ما حصل على النحو الآتي: "لدى إلحاق الأقاليم البولونية وسكانها اليهود بروسيا، وُعدوا بحقوق، وجرت محاولات لتحقيق تلك الوعود [لقد تحقّقت الوعود فعلاً؛ وكانت المحاولات ناجحة]. لكنْ في الوقت نفسه، بدأت موجات طرد جماعيّ من القرى [لقد بدأت فعلاً بيد أنَّها لم تُنفَّذ في أيِّ يوم من الأيام]، وفرض ضرائب مضاعفة [لم تُجب بانتظام وسرعان ما أُلغيت]، وتحديد حدود الاستقرار" – لقد رأينا أنَّه وفق معطيات أواخر القرن الثامن عشر كانت حدود الاستقرار اليهودي في أول الأمر إرثاً جغرافياً. ونحن إذا رأينا في مثل هذا العرض للتاريخ عرضاً موضوعياً فإنَّنا والحقيقة على طرفيْ نقيض.

يقول نصُّ هذا الإعلان الحكومي بعد ذلك: إنَّ ما يؤسف له هو أنَّ اليهود لم يفيدوا من كثير من هذا، "وكانوا دائماً غرباء عن الاندماج في المجتمع المدني الذي كانوا يعيشون فيه، وبقي أكثرهم يعيش كما في السابق على حساب جهد الآخرين، لذلك كانت شكاوى السكان المحليين من تلك الحال تتوارد من كلِّ حدب وصوب". "وبهدف [رفع مستوى معيشة اليهود] ... كان من الضروري تحريرهم من التبعيّة لشيوخ العشيرة، وإشاعة الوعي والمعارف العمليّة في أوساطهم، وتأسيس مدارس يهوديّة خاصّة بالتعليم العامّ، ومنح وسائل تساعد على الانتقال إلى العمل الزراعي، والتخلُّص من ارتداء الملابس الخاصة "التي كان كثير من اليهود لا يطيقونها". "وترى الحكومة أنَّ من حقّها أن تأمل بأن يكفَّ اليهود عن رفض أيِّ أسلوب للعيش، والالتفات إلى العمل الحقيقيّ المنتج والمجدي". ومن يتهرّب من استحقاقات هذا الإعلان يعرِّض نفسه "لتدابير تحريضيّة بصفته عضواً طفيلياً يشكّل عبئاً على المجتمع".

في أول ردٍّ له على هذا، أدان مونتيفيوريه إجراء "التصنيف" المزمع، وأصرَّ على أنَّ البليّة كلّها تكمن في تقييد حركة اليهود وتجارتهم. لكنَّ نيقولاي عارض هذا الرأي وقال: إذا تكلّل توجيه اليهود نحو العمل المنتج بالنجاح، فإنَّ الزمن "نفسه كفيل بأن يؤدّي إلى تقليص القيود تدرُّجاً. لقد كان نيقولاي يعوِّل كثيراً على إعادة التأهيل بالعمل ... وبعد أن فشل في إصلاح حياة اليهود في هذا وذاك، وفي الثالث أيضاً، عزم على تمزيق شرنقة الانغلاق اليهودي وحسم مسألة اندماج السكان اليهود مع الآخرين عبر العمل، والعمل عبر التجنيد المكثَّف. لكنَّ تقليص مدة الخدمة العسكرية لليهود وحدهم (من 25 عاماً إلى 10 أعوام)، وكذلك أهداف إعدادهم للعمل المنتج، لم يكونا مرئيين، بينما كان سحب القرعات العسكرية من اليهود محسوساً، وقد زاد بمقدار ثلاثة أضعاف مقارنة مع سحب القرعات من المسيحيين –"كل عام عشرة مجندين من كل ألف رجل يهودي (بينما من المسيحيين سبعة رجال من كل ألف في كل عامين)".

وفي إطار مقاومة تعاظم سحوبات المجندين، تعاظم في الآن عينه التهرُّب من الخدمة العسكرية. فقد كان المكلَّفون يتركون مشاعاتهم ويختبؤون. ورداً على ذلك صدر (في العام 1850م) أمر قضى بسحب ثلاثة مجندين جدداً، زيادة على كل مكلَّف لم يلتحق بالخدمة في الموعد المحدّد! فباتت المشاعات اليهوديّة، وعرفاء التجنيد معنيون جداً الآن بإلقاء القبض على الفارين أو على آخرين لا ذنب لهم بدلاً عنهم. (في العام 1853م صدرت تعليمات بالسماح للمشتركات اليهوديّة وللأفراد اليهود أن يقدموا بدلاً عن مجنديهم أيَّ فارٍّ لا يحمل جواز سفر"). وسرعان ما ظهر في المشتركات اليهوديّة "صيادون" مأجورون، كانوا يُلقون القبض على الفارين – ومن كان قد تهرَّب فعلاً من الاستدعاء، أو من لديه جواز سفر صلاحيته منتهية، حتى لو كان من مقاطعة أخرى، أو مراهقاً لا عائلة له، وينالون على ذلك قسيمة علامات لصالح المشتركات التي استأجرتهم.

لكنَّ هذا كلُه لم يعوِّض النقص. فصدر في العام 1852م قراران آخران قضى أحدهما بإعفاء المشاعة من 300 روبل من المستحقات المتأخرة عليها لقاء كل مجند إضافي تسلّمه؛ وكان الآخر موجَّهاً "لتفادي إخفاء اليهود عن الخدمة العسكرية، فطالب بإنزال عقوبات صارمة بحق الفارين من التجنيد، وتغريم المشاعات التي وفرت لهم الملجأ والمخبأ، وسحب أقارب من أقاموا لديهم، أو سحب قادة المشاعة المسؤولين عن تقديم المكلفين في الوقت المحدد، لتأدية الخدمة العسكرية بدلاً من هؤلاء الفارين. وسعياً منهم لتفادي تأدية الخدمة العسكرية بأيِّ شكل كان، كان كثير من اليهود يهربون إلى خارج البلاد، أو إلى مقاطعات أخرى".

وهنا بدأت فوضى التجنيد: زاد عنف الصيادين، وفرَّ القادرون على العمل، وتواروا عن الأنظار، وزاد نقص المكلفين، وتراكمت ديون المشاعات. فظهرت احتجاجات الفريق الحضري العامل الذي كان يقول: إذا تحدّد حجم واحد للتجنيد ينسحب على "النافعين" وعلى الذين لا يؤدون عملاً منتجاً، فإنَّ غير

الحضريين قادرون دائماً على التخفي، عندئذٍ يقع العبء كله على من هم ذوو نفع، فتنهار استثماراتهم ويفلسون. وبدا واضحاً أنَّ الحيل الإدارية أفضت إلى حالة عبثية، ولم تؤد إلاّ إلى تفاقم حدّة التوتر في أوساط السكان اليهود، زد إلى هذا أنَّ التصنيف بات على الأبواب.

بيد أنَّ التصنيف بحدّ ذاته أُرجئ المرة تلو المرة بسبب العوائق التي نشأت – الحيرة حيال عدد من ميادين العمل: هل هي "نافعة" أم لا؟ وهذا ما أثار سخط دواوين بطرسبورغ. وواقع الحال هو أنَّ "التصنيف ... لم يحصل؛ ولم يجرِ توزيع السكان اليهود على طوائف مهنية". في العام 1855م مات نيقولاي الأول بغتة، ومات التصنيف معه.

في الخمسينات غرق نيقولاي الأول في بحر غروره، وارتكب أخطاء قاتلة، فأدخلنا بغبائه في دوامة حرب القرم ضدّ تحالف دول عظمى، وفي حمّى إوارها مات بغتة. وها هو موت الامبراطور المفاجئ يُدخل اليهود في مرحلة قاسية، كما سيحصل بعد مئة عام إثر موت ستالين. على هذا النحو كانت خاتمة الستين عاماً الأولى من الحضور اليهودي الكثيف في روسيا. وينبغي أن نقرَّ بأنَّ تلك المعضلة القديمة المعقّدة المتشابكة، فاقت مستوى وعي السلطات الروسيّة وإمكانياتها في ذلك الوقت. كما أنَّ وشم الحكام الروس "بوشم مضطهدي اليهود"، فيه تشويه لنواياهم ومبالغة في تقدير مؤهِّلاتهم.

الفصل الرابع

عصر الإصلاحات

مع استواء نيقولاي الثاني على كرسيَ العرش، كانت المسألة الفلاحية في روسيا قد نضجت منذ قرن، وأضحى حلّها أمراً ملحاً لا يحتمل التأجيل. لكنّ مسألة أخرى ما لبثت أن فرضت نفسها على الحياة السياسية الروسيّة: هي المسألة اليهوديّة التي لم يكن حلها أقل أهمية وإلحاحاً من سابقتها. ولم تكن هذه قديمة في روسيا قدم نظام القنانة الوحشيّ المغرق في القدم، كما لم تتخذ الطابع الشامل الذي اتخذه هذا الأخير في البلاد. (منذ ذلك الحين، وعلى امتداد القرن التاسع عشر كلّه كانت المسألة الفلاحية والمسألة اليهوديّة مترافقتين دائماً في مجلس دوما الدولة حتى العام 1917م ومتنافستين، كما تداخل مصير كلّ منهما مع مصير الأخرى). وعلاوة على ذلك تسلم نيقولاي الثاني العرش في دوامة وحولِ حرب القرم التي اتحدت فيها أوروبا كلّها ضد روسيا، وكان الحل في مخرجين أحلاهما مرّ: طردها من القرم أو عزلها دولياً.

مع بدء العهد الجديد "دوّت الأصوات دفاعاً عن السكان اليهود"، وبعد أسابيع قليلة أمر القيصر "بمساواة اليهود في مسألة التجنيد مع باقي السكان الآخرين، ومنع تجنيد صغار السن". (سرعان ما أُلغي بعد ذلك مشروع "تصنيف المشان اليهود، أي "أنَّ طبقات السكان اليهود تساوت في تأدية الإتاوة العسكرية"). وأيَّد هذا القرار ميثاق العرش الذي صدر في العام 1856م وجاء فيه: "يُقبل المجندون من اليهود بالسن نفسها، والصفة نفسها التي يُقبل بها المجندون

من الحالات الأخرى، ثم يُلغى تجنيد صغار السن اليهود". كان هذا يعني إلغاء مؤسسة العسكريين الكانتونيين على وجه العموم، فأُعيد الشبان اليهود الكانتونيون الذين لم يبلغوا العشرين من العمر إلى والديهم على الرّغم من أنّهم كانوا قد أضحوا جنوداً. أمّا الذين أدوا مدة الخدمة من الرتب الدنيا، فقد نالوا مع ورثتهم حقّ الإقامة والعيش في شتى أرجاء الإمبراطورية الروسيّة. (لقد أقاموا حيث انتهت خدمتهم، وتحوّل المستوطنون المستقرون في الأماكن الجديدة إلى مؤسسي مشاعات يهودية. ومن سخرية التاريخ أنّ القدر عاقب روسيا وسلالة رامانوف بواحد من أحفاد أولئك اليهود الكانتونيين المستقرين، هو ياكوف سفردلوف.

بموجب ميثاق العام 1856م هذا نفسه، أُعفي السكان اليهود "من كلّ المستحقات المتأخرة" عن الأعوام الماضية. "لكنْ في خلال السنوات الخمس التالية"، تراكمت مستحقات جديدة بلغت 22% من حجم الضريبة المفروضة. وأبعد من ذلك أعلن الإسكندر الثاني عزمه على حل المسألة اليهوديّة بشكل مرضٍ من حيث طابعه العام. لبلوغ ذلك أُعيد طرح المسألة على أسس جديدة تماماً: إذا كانت الحكومة في عهد نيقولاي الأوّل قد طرحت إصلاح الواقع اليهوديّ الداخليّ أولاً، وتخفيف حدّة التوترات فيه عبر العمل المنتج، ونشر التعليم وصولاً على هذا النحو إلى رفع القيود الإداريّة؛ فإنّ حكومة الإسكندر الثاني بدأت على الضد من ذلك، برفع القيود والمضايقات الخارجيّة، وعدم البحث عن جذور الأسباب الداخليّة المحتملة لحالة الانغلاق والسقم التي يعيشها اليهود، أملاً في أن تنتهي عندئذٍ المعضلات الأخرى المتبقية كلّها من تلقاء نفسها؛ فبدأت "بالعمل على دمج هذا الشعب بسكان البلاد الأصليين"، كما ورد في الإرادة العليا التي صدرت في العام 1856م.

ولبلوغ ذلك شُكّلت من جديد في العام 1856م، "لجنة تنظيم واقع اليهود" (كانت هي اللجنة السابعة التي جرى تشكيلها لمعالجة شؤون اليهود، بيد أنّها

لم تكن اللجنة الأخيرة). وقد ترأسها الكونت كيسيليوف هذا نفسه، فأبلغ هذا القيصر بأنَّ "دمج اليهود بالكتلة السكانيّة العامة، أمر دونه عقبات شتى، إذا ما أُضيفت إلى القوانين العامة فإنَّها تحمل في داخلها تناقضات كثيرة، سينشأ عنها كثير من الإرباك"، ورداً على هذا أمر القيصر "بإعادة النظر في كلّ التعليمات التي صدرت بشأن اليهود بهدف جعلها متوافقة مع مختلف أشكال دمج هذا الشعب بالسكان الأصليين، بالحدِّ الذي تجيزه الحالة الأخلاقيّة لليهود"، أي "ما يُنسب إليهم من تزمُّت وأذى اقتصادي".

كلاً، لم تذهب عبثاً في روسيا جهود غيرتسين و"جرَسِه"، ولا جهود بيلينسكي وغورنوفسكي، ولا جهود غوغول (على الرَّغم من أنَّه لم يضع لنفسه مثل هذا الهدف، إلاّ أنَّه سار بالاتجاه نفسه الذي سار فيه هؤلاء). فخلف حجاب عهد نيقولاي الصّارم، كانت تتراكم ضرورة الإصلاحات الحاسمة والقوى اللازمة لها، والناس الذين سينهضون بها، وما يثير الدهشة أنَّ المشاريع الجديدة أثَّرت في الوجهاء المتنوِّرين الذين كانوا يشغلون مناصب عليا في الدولة، أكثر مما أثَّرت في المثقفين من أفراد المجتمع الذين لا يشغلون أيَّ منصب. وسرعان ما انعكس هذا على المسألة اليهوديّة أيضاً. فقدَّم وزيرا الداخلية (لانسكوي وفالويف)، والنائبان العامَّان في الإقليم الغربي والإقليم الجنوبي الغربي، آراءهم إلى القيصر، فلاقت منه اهتماماً بالغاً. "بمبادرة منه، وتحت إشرافه مباشرة، أجرت الحكومة تحسينات جزئية على الوضع القانوني لليهود"، وأُلحقت بإصلاحات التحرير العامة التي كانت تخصّ اليهود من بين باقي السكان الآخرين.

ففي العام 1858م اقترح الحاكم العام في نوفوروسيا ستروغانوف، مساواة اليهود فوراً مع باقي السكان في الميادين كلّها من غير استثناء، بيد أنَّ اللجنة التي كانت حينئذٍ برئاسة بلودوف، سوِّفت، وأرجئت، ثم تبيَّن أنَّها ليست مستعدة لمثل هذا التدبير، وأشارت (في العام 1859) من باب المقارنة إلى أنَّه "في

الوقت الذي لم يتأخر فيه يهود أوروبا الغربية عن تلبية دعوة الحكومة لإرسال أبنائهم إلى مدارس التعليم العام، والتفتوا هم أنفسهم لممارسة أعمال نافعة إلى هذه الدرجة أو تلك، فإنَّ الحكومة الروسيّة تجد نفسها مضطرّة لمحاربة معتقدات اليهود الخرافيّة البالية، وتزمّتهم المزمن"، لذلك "لا يمكن مساواة اليهود مع السكان الأصليين في الحقوق إلاّ شيئاً فشيئاً ومع انتشار الوعي التنويري الحقيقيّ في أوساطهم، وتغيير نمط عيشهم واتجاه نشاطهم نحو الأعمال النافعة".

لكنَّ الحجج المناهضة للمساواة حظيت بمزيد من الدراسة في داخل اللجنة، فكان ثمّة من يقول هناك: إنَّ المسألة ليست مسألة يهوديّة بقدر ما هي مسألة روسيّة؛ وإنّه لمن الطيش فتح باب المساواة على مصراعيه أمام اليهود قبل رفع المستوى التعليميّ والثقافيّ للسكّان الروس الذين لن يكون بمقدور عامتهم الجاهلة أن تحمي نفسها من الضغط الاقتصاديّ للكتلة اليهوديّة المتلاحمة؛ وإنَّ ما يسعى إليه اليهود، ليس الاندماج مع مواطني البلاد بأيِ حال من الأحوال، بل الحصول على حقوق المواطنية مع احتفاظهم بعزلتهم وتلاحمهم الذي يفتقر إليه الروس.

بيد أنَّ هذه الأصوات لم تلق تأييداً، ولم يكن لها تأثير. ورُفعت القيود عن اليهود واحداً تلو الآخر. ففي العام 1859م.، رُفع الحظر الذي فُرض على اليهود منذ العام 1835م.، وحرِّم عليهم استئجار أراضي الاقطاعيين المأهولة أو إدارتها. (أي سُمح لهم الآن أن يتصرفوا بالفلاحين، والحقيقة أنَّ تجاوز هذا التحريم كان يجري سابقاً "في الخفاء، لكنْ في حالات معينة". وعلى وجه العموم، بعد العام 1861م لم تعد الأراضي التي بقيت بين أيدي الاقطاعيين تُعدُّ أرضاً "مأهولة"). لقد جاء التغيير الراهن "ليسهّل على الاقطاعيين أن يفيدوا من عون اليهود علانية" في أعقاب تداعي الاقتصاد الاقطاعي، و"ليفتح أمام اليهود ميداناً اقتصادياً محدوداً". فقد بات في وسع اليهود الآن أن يستأجروا هذه الأراضي ويقيموا عليها من غير أن

يمتلكوها. ففي الإقليم الجنوبي الغربي "كانت قد تراكمت بين أيدي بعض اليهود أموال كافية لشراء الأراضي ... وقد رفض اليهود أن يقدّموا لهم [أي للإقطاعيين] ، أموالهم قروضاً بضمان رهن أملاكهم ما داموا لا يستطيعون في حال الضرورة أن يمتلكوها". وسرعان ما نال اليهود حقّ شراء الأرض من الاقطاعيين في مناطق استقرارهم.

مع تطوّر شبكة الخطوط الحديدية وخطوط الملاحة، انهارت واحدة من المهن اليهوديّة الحيويّة، أي إدارة النُّزل ومحطّات البريد. كما أدت التعرفة الجمركية الليبرالية التي صدرت في العام 1857م و1868م وخُفضت بموجبها رسوم استيراد البضائع إلى روسيا، إلى انهيار "أرباح مهنة التهريب". وفي العام 1861م نفسه رُفع الحظر عن اليهود في مجال تعهد بعض جبايات الواردات من الملكيات. وفي العام 1861م هذا نفسه أُلغي نظام التعهدات الحكومية وتعهدات الخمور. وكانت تلك ضربة قصمت ظهر الاستثمارات اليهوديّة الكبرى. "فالمتعهد والمقاول عند اليهود، مردافان لكلمة ثري"؛ أمّا الآن، وفق ما يكتب أورشانسكي، فإنّهم يتذكرون فقط "زمن حرب القرم عندما كان المقاول يحصد الملايين بفضل مرونة ضميره ونظرته الفريدة إلى الخزينة في حالات معيّنة"؛ "كان آلاف من اليهود يعيشون ويجنون تحت غطاء التعهدات السخي"، أمّا الآن فباتت الأولوية للحرص على مصلحة الخزينة، ولم تعد المقاولات مجدية. كما لم تعد "تجارة الخمور بدورها مجدية، كما كانت الحال في زمن نظام التعهدات".

والحقيقة أنّه بعد أن حلّ في مهنة الخمور نظام رسم الإنتاج، محلّ نظام المقاولات، لم تُفرض على اليهود قيود خاصة: كان في وسعهم أن يبيعوا الخمور، ويستأجروا مصانع تقطيرها في نطاق مناطق استيطانهم وفق القواعد العامة المعمول بها. فقد تمتّع اليهود على مدى العشرين عاماً التالية على أوسع نطاق، بحق الاستئجار والتملك: مع ثمانينات القرن، كان اليهود يمتلكون في مقاطعات استقرارهم بين 32% و76% من مجموع عدد مصانع تقطير الخمور، وكان لهذه

كلها تقريباً "طابع الصناعات الكبرى". مع حلول العام 1872م.، كان بين أيدي اليهود 80% من مصانع تقطير الخمور في الإقليم الجنوبي الغربي. ومنذ العام 1863م سُمح لليهود بتقطير الخمور في غربي سيبيريا وشرقيّها ("لأنَّ أفضل المتخصّصين في ميدان التقطير كانوا تقريباً من اليهود حصراً")، ومنذ العام 1865م بات في وسع المقطرين اليهود أن يقيموا حيث يشاؤون.

أمَّا فيما يتعلق بالاتجار بالخمور في القرى، فإنَّ ثلث اليهود الذين كانوا يقطنون في مناطق الاستقرار كانوا يعيشون إبَّان الثمانينات في القرى: في كلّ قرية عائلتان أو ثلاث عائلات من بقايا الخمَّارين. وفي العام 1870م جاء في بيان حكومي رسمي، أنَّ "تجارة المشروبات في الإقليم الغربي تتركّز بالكامل تقريباً في أيدي اليهود، وأنَّ التعسّف والاستهتار الموجودين في تلك المؤسّسات، يفوقان حدود التحمّل". وطالب البيان اليهود بألاّ يتاجروا بالمشروبات إلاّ في بيوتهم. وقد شرح غ. ب. سليوزبيرغ مغزى هذا المطلب على النحو الآتي: في قرى مالوروسيا، أي خارج إرث التقاليد البولونية، لم يكن للإقطاعيين الحق في إنتاج الخمور والاتجار بها، وهذا يعني أنَّه لم يكن في وسع اليهود أيضاً أن يشتروه منهم. كما كان ممنوعاً على اليهود أن يشتروا حتى حفنة تراب من أراضي الفلاحين؛ لذلك كان اليهود يستأجرون منازل الفلاحين ويديرون فيها تجارة الخمور. وحينما منعوا تجارة المشروبات هذه من خارج منازل التجار أنفسهم، غالباً ما كان تجاوز هذا المنع يجري عن طريق التجارة "بالوكالة": كان الامتياز يُعطى شكلياً لمسيحي، أمَّا اليهودي فكان ظاهرياً مجرَّد عامل يعمل عنده بصفة "خبير".

منذ العام 1865م أُلغيت "مادة العقوبات" (على حدِّ تعبير الموسوعة اليهوديّة)، أي العقوبة التي كانت تُنزل باليهودي الذي يستخدم مسيحياً، بصفتها "لا تتفق مع الروح العامة لإجراءات التسامح المتخذة". "ابتداء من أواخر ستينات القرن، أخذ كثير من العائلات اليهوديّة يستخدم خدماً مسيحيين".

وما يؤسف له أنَّ كثيراً من مؤرخي اليهوديّة في روسيا عملوا وفق المبدأ الآتي: النجاح الذي حققته أمس لم تعد له اليوم قيمة. فقيل الكثير عن "الإتاوة المضاعفة" التي فُرضت على اليهود كأنَّها استمرت قروناً وليس سنوات قليلة، عداك عن أنَّها لم تُجبَ فعلاً في أيٍّ يوم من الأيام. أمَّا مبادئ العام 1835م التي قابلها اليهود حينئذٍ بارتياح، فقد وصفها س. دوبنوف عشية القرن العشرين بأنَّها "ميثاق الظلم". ورأى الثوري المقبل ليف دييتش الذي كان لا يزال صغير السنِّ في الستينات، أنَّ الإدارة "لم تطبِّق بدقة بعض القيود الهامة التي كانت تحدُّ من حقوق اليهود"، و"كانت تغض النظر عن الانتهاكات"، "وأنَّ اليهود في روسيا عاشوا في الستينات على وجه العموم، عيشة لا بأس بها ... فلم ألحظ على أيٍّ من أترابي اليهود تعابير الاضطهاد، أو القهر أو الاغتراب" عن رفاقهم المسيحيّين. بيد أنَّه بعقلية الثوري الحقيقي، يصف "كلَّ ما أُعطي لليهود في عهد نيقولاي الأول، بأنَّه لم يكن سوى تسهيلات ضئيلة لا أهميّة لها، ولم يغفل في هذا السياق عن التفاصيل الصغيرة: "جرائم الإسكندر الثاني"، مع أنَّه رأى أنَّ قتل هذا الأخير كان خطأً. ومن منصة أواسط القرن العشرين بدا الأمر على النحو الآتي: على امتداد القرن التاسع عشر كله كانت تتشكل لجان وهيئات لإعادة النظر في القيود التي كانت تحدُّ من حقوق اليهود، "فتوصلت إلى خلاصة مفادها أنَّ القيود الحاليّة لن تحقق الغرض المتوخى منها، وينبغي إلغاؤها ... لكنَّ أياً من المشاريع التي وضعتها اللجان ... لم يتحقق". فقد استُهلكت وعفا عليها الزمن، ولم تكن على المستوى المطلوب.

بعد التسهيلات الأولى التي منحها الإسكندر الثاني، بات القيد الرئيس الذي يعاني اليهود منه هو حدود استقرارهم. "ما إن لاحت الآمال بإجراء الإصلاحات الحكومية المنتظرة، وبالكاد هبت النسمات الأولى لتجديد الحياة الحكومية المأمولة، حتى ظهر في أوساط المثقفين اليهود ما يكفي من الشجاعة لطرح مسألة إلغاء حدود الاستقرار". كما كانت لا تزال غضّة في الذاكرة

اليهوديّة فكرة "التصنيف"، وفرض إتاوات على من يتنقلون من مكان إلى آخر ولا يمارسون عملاً منتجاً، -في العام 1856م أخذت مجموعة من اليهود الذين "كان بوسعهم من حيث موقعهم الاجتماعي ونوع العمل الذي يمارسونه، أن يدخلوا في علاقات قريبة من السلطة المركزية، ومثلهم فعلت مجموعة التجار اليهود البطرسبورغيين والمدن الأخرى"، أخذ هؤلاء كلّهم يسعون لدى القيصر "ملتمسين منه تسهيلات لفئات معينة من اليهود، وليس لليهود كلّهم"، تسهيلات للجيل الجديد "الذي نشأ وتربّى تحت أنظار الحكومة"، "ولكبار التجار"، "والحرفيين الذين يعملون بإخلاص ويحصلون على خبزهم بعرق جبينهم"، كي "تخصّهم الحكومة بحقوق واسعة تميّزهم عن أولئك الذين لم يبرهنوا بعد عن حُسن نيّة، ولم يُظهروا منفعة ولا محبة للعمل ... إنَّ التماسنا يتلخص في أن يمنَّ علينا القيصر فيميِّز بين الحنطة والشوفان، ويتكرّم بمنح بعض التسهيلات المعتدلة لكبار مثقفينا الأكثر وقاراً، تشجيعاً لهم على العمل الصالح". (على الرَّغم من كلِّ الآمال التي استيقظت، إلاَّ أنَّه لم يكن في وسعهم بعد أن يتخيّلوا مدى السرعة التي ستجري بها التغيُرات في واقع اليهود، ففي العام 1862م، بات يمكن لفريق من الذين كتبوا هذه الرسالة أن يطالبوا "بالمساواة لكلّ الذين أنهوا مرحلة التعليم المتوسط"، لأنّه لم يكن بالإمكان ألاَّ يُعدَّ "خريجو المدارس، من حاملي الثقافة الأوروبية"). بل حتى "القيصر لم يكن من حيث المبدأ ضدَّ تجاوز القوانين التي تحدّد جغرافيا الاستقرار اليهودي، وإعفاء بعض شرائح السكان اليهود من مفاعيلها". في العام 1859م نال التجّار اليهود الذين كانوا ينتمون إلى الفئة الأولى حق الإقامة والعيش في شتى أرجاء روسيا (منذ العام 1861م نال هذا الحق في كييف تجّار الفئة الثانية أيضاً، أمّا في نيقولاييف، وسيفاستوبول، ويالتا فقد نالته فئات التجّار الثلاث)، مع حق بناء معامل، وتأسيس مؤسسات مقاولات، وامتلاك أملاك ثابتة. وكان الأطباء وحاملو شهادات الماجستير قد نالوا من قبل حقّ الإقامة حيث يشاؤون في روسيا (مع حقّ

شغل مناصب في مؤسّسات الدولة؛ ويمكن أن نذكر في هذا السياق غ. أ. زاخارين البروفسور في العلوم الطبية الذي قُدِّر له فيما بعد أن يواجه حكماً بالإعدام بسبب مرض الإسكندر الثالث). منذ العام 1861م نال هذا الحق "مرشحو الجامعات"، أي الذين تخرجوا منها وحسب، كما ناله أيضاً "أصحاب المهن الحرة". ومن جهة أخرى لم تعد قيود الإقامة ضمن حدود الاستقرار اليهوديّ تنسحب على "من يريد أن ينال تحصيلاً علمياً عالياً ... لا سيما من ينتسب منهم إلى أكاديمية العلوم الطبيّة، والجامعات، والمعاهد التقنية. ثمّ نتيجة لمساعي بعض الوزراء وحكام المقاطعات والتجّار اليهود المتنفذين (يفزيل غينتسبورغ)، باتت روسيا كلّها، بما فيها بطرسبورغ، متاحة للحرفيين اليهود، لكنْ فقط للحرفيين الذين كانوا يمارسون مهنهم فعلاً قبل التاريخ المذكور (فيما بعد امتد مفهوم حرفي ليشمل مختلف العاملين في الميدان التقني: عمال التنضيد، وعمال المطابع).

كما ينبغي أن نأخذ بالحسبان في هذا السياق، أنَّ التجّار انتقلوا مع متاجرهم، ومُحاسبيهم، ومختلف مساعديهم، واليهود العاملين لديهم، والحرفيين وصبيانهم، والمتدربين لديهم. وقد شكّل هؤلاء معاً سيلاً ملحوظاً. وعلى هذا النحو لم يكن اليهودي الذي نال حقّ الإقامة خارج حدود الاستيطان اليهودي المعتادة، ملزماً بأن ينتقل ومعه عائلته فقط. ثمَّ لحقت بالقرارات الجديدة التماسات أخرى. ففي العام 1861م بعد "مرشحيِّ الجامعات" مباشرة، طلب الحاكم العام في الإقليم الجنوبي الغربي منح حقّ الخروج من منطقة الاستيطان اليهودي لكلّ من أنهى تحصيله في المدارس الحكومية اليهوديّة، أي في المؤسسات التعليمية المتوسطة، وأعطى وصفاً دقيقاً لحالة الخريجين: "يجد هؤلاء الشباب أنفسهم بعد أن يتخرجوا من المؤسسات التعليميّة، غرباء تماماً عن المجتمعات اليهوديّة ... لا يجدون في هذه المجتمعات أعمالاً تتوافق مع التعليم الذي تلقوه، فيعتادون على البطالة والتسكّع، وتهبط من جرّاء ذلك قيمة العلم في أعين المحيطين بهم، ويرون أنّهم غير جديرين به".

في العام نفسه أعلن وزيرا الداخلية والثقافة أنَّ "أهمَّ أسباب حالة البؤس التي يعاني اليهود منها يكمن في اختلال التناسب الكميّ بينهم بصفتهم في الغالب تجّاراً - صناعيين، وبين الكتلة الفلاحية المتبقية"، ولذلك "يقع الفلاحون بالضرورة ضحية اليهود، إذْ يبدو كأنّهم ملزمون بتقديم نصيب من مواردهم لإعالة هؤلاء". زد على هذا أنَّ المضاربة الداخليّة بين اليهود أنفسهم "تضعهم أمام مأزق تحصيل أسباب عيشهم بطريقة قانونية". لذلك يجب "أن يُمنح تجار الشريحة الثانية والثالثة منهم حقّ العيش حيث يشاؤون"، وكذلك الأمر بالنسبة لمن أنهى منهم تعليمه المتوسط". أمّا الحاكم العام في نوفوروسيا فقد طلب مرة أخرى في العام 1862م، "القضاء تماماً على حدود الاستقرار اليهوديّ": والبداية من "منح حق الإقامة في كلّ مكان لكلّ الشعب [اليهودي]". فانطلق منح حق الإقامة في كل مكان في بادئ الأمر لأفراد، وإن لم يكن بوتائر سريعة، إلاّ أنّه أخذ يشقّ طريقه. وفي العام 1865م سُمح بقبول الأطباء اليهود في وظيفة طبيب عسكري، ثم تلا ذلك (في العامين 1866، و1867م) السماح للأطباء اليهود بالعمل في وزارة الثقافة ووزارة الداخليّة. ومنذ العام 1879م نال اليهود حقّ العمل في ميدان الصيدلة والطب البيطري، ومختلف الأعمال ذات الصلة بكل مهنة من هذه المهن، كما نالوا أيضاً حقّ التخصّص والعمل في طبّ التوليد، وفي ميدان التمريض، لمن يرغب في ذلك.

أخيراً في العام 1880م، صدر قرار وزير الداخلية (ماكوف): يبقى مقيماً من اليهود خارج نطاق جغرافيا استقرارهم المعروفة، كلٌّ من منهم أقام هناك بطريقة غير قانونية. ومن المناسب أن نضيف إلى هذا، كلّ التعليمات التي كانت قد صدرت في ستينيّات القرن، وقضت "بإلحاق المحامين اليهود من غير أيِّ عائق، بالخدمة الوظيفيّة الحكوميّة ... في ضوء عدم وجود معهد حقوقيّ في ذلك الوقت". كما طالت التسهيلات منطقة الشريط الحدوديّ أيضاً. ففي العام 1856م، عندما تراجعت الحدود الدوليّة الروسيّة بموجب اتفاقية باريس، واقتربت من

كيشينيوف وأكيرمان، توقّف ترحيل اليهود من الشريط الحدوديّ الذي تشكّل حديثاً. وفي العام 1858م "أُلغيت نهائياً أوامر نيقولاي الأول التي قضت بإبعاد اليهود عن الشريط الحدودي مسافة خمسين فرسخاً". ومنذ العام 1868م. أُبيح انتقال اليهود من المقاطعات الروسيّة الغربية إلى المملكة البولونية وبالعكس (لو شكلياً في أول الأمر، مع أنّ منعه لم يكن حازماً).

إلى جانب التسهيلات الرسمية التي خففت من وطأة القيود المفروضة قانوناً على اليهود، كانت هناك استثناءات وتجاوزات على القواعد المعمول بها. ففي العاصمة بطرسبورغ على سبيل المثال، "على الرّغم من الحظر إلاّ أنّ اليهود كانوا يقيمون فيها لفترات زمنية طويلة"؛ "ومع جلوس الإسكندر الثاني على العرش ... أخذت أعداد اليهود في سانت بطرسبورغ تتزايد بتسارع واضح. وظهر فيها أصحاب رؤوس أموال أولوا اهتماماً كبيراً لتنظيم شؤون المشاعة" اليهوديّة فيها، "كالبارون غوراتسي غينتسبورغ ... ول. روزينتال، وأ. فارشافسكي وغيرهم". وعند أواخر عهد الإسكندر هذا، كان يشغل منصب سكرتير الدولة الروسيّة ي. أ. بيريتس (ابن المقاول أبرام بيريتس). وفي ستينات القرن التاسع عشر "أخذت بطرسبورغ تجذب إليها غير قليل من ممثلي الدوائر اليهوديّة التجاريّة - الصناعيّة والثقافيّة". وبحسب معطيات لجنة تنظيم شؤون اليهود أنّ 6290 يهودياً كانوا مسجلين قانوناً في بطرسبورغ في العامين 1880 و1881، وبحسب معطيات رسمية أخرى أنّ هذا العدد كان 8993 يهودياً، أمّا بحسب "الإحصاء المحلي" الذي جرى في العام 1881م.، فقد وصل هذا العدد إلى 16826، أي حوالي 2% من عدد السكان.

في العام 1856م أُلغيت في موسكو التعليمات التي كانت تقضي بوجوب إقامة التجار اليهود الوافدين في خان غليبوفسكي فقط، "وسُمح لهم أن يقيموا في أيّ حيٍّ من أحياء المدينة. وفي عهد الإسكندر الثاني ... أخذ عدد السكان اليهود في موسكو يتزايد بسرعة" حتى بلغ في العام 1861م قرابة 16 ألفاً.

وهكذا كانت الحال في كييف أيضاً. فبعد العام 1861م.، "بدأ عدد السكان اليهود في كييف يتزايد بتسارع ملحوظ" (من 1500 في العام 1861 إلى 81 ألفاً في العام 1913). فمنذ الثمانينات لوحظ تدفّق اليهود على كييف. "وعلى الرَّغم من الملاحقات البوليسيّة المتكرّرة التي اشتُهرت بها كييف إلاّ أنَّ عدد اليهود فيها كان يتجاوز المعطيات الرسمية بكثير ... فعند نهاية القرن التاسع عشر كان اليهود يشكلون 44% من تجار كييف". وبحسب يو. إ. هوسين أنَّ منح حقّ الإقامة للحرفيين اليهود في أيِّ مكان يختارونه (في العام 1865م)، كان القرار الأكثر أهميّة في هذا السياق. والحقيقة أنّه كانت هناك عقبات كثيرة تحول دون انتقالهم. فقد كانوا في حالة ضيق شديد، ليس لهم سوق يبيعون فيها منتجاتهم، مواردهم شحيحة، لكنْ "لماذا لم يفيدوا إلاّ فيما ندر، من حقّ الخروج من منطقة استقرارهم؟" ففي العام 1881م.، لم يكن في 31 مقاطعة من المقاطعات الداخلية من الحرفيين اليهود سوى 28 ألفاً (كان العدد الكليّ لليهود هناك 34 ألفاً فقط). ويشرح هوسين هذه المفارقة على النحو الآتي: لم يكن الحرفيون الأثرياء في حاجة إلى البحث عن أماكن جديدة، أمّا الفقراء منهم فكانوا عاجزين عن تغطية نفقات السفر، وأفراد الشريحة الوسطى "الذين كانوا يحصّلون لقمة عيشهم بطريقة ما يوماً بيوم، ولم يكونوا يعانون العوز"، فكانوا يخشون بعد رحيلهم أن تمتنع مشاعتهم السابقة لاعتبارات ضريبية، عن تمديد جوازات سفرهم السنوية أو حتى أن تطلب "إعادتهم إلى الديار". لكنَّ الإحصائيّة نفسها تثير الشك. ونحن كنا قد قرأنا منذ قليل أنَّ في بطرسبورغ وحدها، كان العدد الحقيقي لليهود ضعفيّ العدد الذي تحدثت عنه المعطيات الرسميّة. فهل كان باستطاعة جهاز الإحصاء الروسي المترهل، أن يحصي الزئبقيين من السكان اليهود الذين لم تكن تستقر بهم الحال في أيِّ مكان؟ لقد كانت أعداد اليهود في روسيا تتزايد باطراد، وبوتيرة متسارعة. ففي العام 1864م.، بلغت أعدادهم فيها، من غير يهود بولونيا، 51. المليون نسمة. أمّا العدد

مع يهود بولونيا فكان: في العام 1850م مليونين وثلاث مئة وخمسين ألفاً، ثم وصل في العام 1880م إلى ثلاثة ملايين وتسع مئة وثمانين ألفاً. ومن المليون الأول لدى تقسيمات بولونيا الأولى، خرج بحسب إحصاء العام 1897م.، خمسة ملايين ومئة وخمسة وسبعين ألف نسمة، أي أنَّ العدد ارتفع في خلال قرن واحد أكثر من خمسة أضعاف. (في أوائل القرن 19م.، كان يهود روسيا يشكلون 30% من عدد يهود العالم، وفي العام 1880م ارتفعت هذه النسبة إلى 51%).

لكنَّ هذه الظاهرة التاريخية الخطيرة لم تحظ بالدراسة المطلوبة في الوقت المناسب، لا من قبل المجتمع الروسي، ولا من قبل الإدارة الروسيّة. فهذا التنامي العدديّ المتسارع وحده، عداك عن كلّ السمات الخاصّة الأخرى التي ترافق المسألة اليهوديّة، وضع روسيا أمام معضلة كبيرة على مستوى الدولة كلّها. ومن الضروري أن نحاول، هنا كما في المسائل الأخرى كلّها، أن نفهم وجهتي النظر المطروحتيْن. ففي حالة التعاظم الخارق لليهودية الروسيّة، كانت تتصادم على طول الخط حاجتان وطنيتان ملحّتان. حاجة اليهود (وخاصية دينامية حياتهم التي تمتدُّ على ثلاثة آلاف عام) إلى الانتشار على أوسع مدى ممكن بين الغرباء، بحيث يتسنَّى لأكبر عدد منهم أن يعملوا في التجارة والسمسرة والإنتاج (ومن ثمَّ امتلاك أُفق مفتوح في ثقافة المحيط السكاني). أمَّا حاجة الروس فكانت من وجهة نظر الحكومة: ترسيخ عصب الحياة الاقتصاديّة (ثمَّ الثقافيّة)، وتطويرها على أيدي الروس أنفسهم. ومع كلّ هذه التسهيلات الخاصّة التي كانت تُعطى لليهود يجب ألاَّ ننسى أنَّ إصلاحات الإسكندر الثاني التحرريّة، ذات الطابع العام، كانت تجتاح روسيا بشكل مستمرّ، فتمتدُّ ظلالها في الوقت نفسه لتشمل اليهود أيضاً. في العام 1863م مثلاً، أُلغيت إتاوة النفس على سكان المدن، وكان ذلك يعني أنّها رُفعت أيضاً عن القسم الرئيس من كتلة السكان اليهود، ولم يبق سوى الإتاوات العامة التي كان اليهود يغطونها من ضريبة البقجة. لكنَّ الإصلاح الأعظم بين إصلاحات الإسكندر، الإصلاح الذي كانت له أهمية تاريخية

حقيقية، الإصلاح الذي شكّل منعطفاً في تاريخ روسيا، تمثّل على وجه التحديد، في تحرير الفلاحين وإلغاء نظام القنانة في العام 1861م؛ بيد أنَّ نتائجه على يهود روسيا كانت وخيمة، فقد أفلس كثير منهم. "لأنَّ التغيُرات الاجتماعيّة - الاقتصاديّة العامة التي ترتبت عن إلغاء نظام القنانة، وتبعية الفلاَحين ... أثخنت الحالة المادّية لفئات واسعة من جمهور اليهود في تلك المرحلة الانتقالية". لقد تلخّص التغيير الاجتماعي في اندثار طبقة تعدادها ملايين الفلاحين الذين كانوا محرومين من الحقوق كلها، بما فيها حق الانتقال، وهذا ما أدّى نسبياً إلى تدنّي أهمية الحريّة الشخصيّة التي كان يتمتّع بها اليهود. أمَّا التغيير الاقتصادي، فقد تلخّص في أنَّ "الفلاح الذي تحرّر الآن من التبعية ... باتت حاجته إلى خدمات اليهود أقل"، أي بات حرّاً الآن في أن يبيع بنفسه كامل إنتاجه، ويشتري كلّ ما يحتاج إليه من غير الوسيط الذي كان مفروضاً عليه (في المقاطعات الغربية كان هؤلاء الوسطاء من اليهود دائماً). وفضلاً عن هذا، كان الإقطاعيون الذين حُرموا الآن من عمل الأقنان المجاني "مرغمين على أن يباشروا إدارة إقطاعاتهم بأنفسهم، وكان لليهود فيها من قبل دور بارز بصفتهم متعهدين ووسطاء في مختلف الأعمال التجارية - الصناعية".

ونشير في هذا السياق أيضاً إلى أنَّ القرض الزراعي الذي سُنَّ في تلك السنين، أزاح اليهودي "بصفته مدبِّر القاعدة المالية للحياة الإقطاعية". كما أفضى تقدم المؤسسات الاستهلاكية والتمويلية "إلى تحرير الشعب من تعسّف المرابين". وفي هذا السياق، يصف لنا أحد المعاصرين المثقّفين، المزاج اليهودي في تلك الحقب. فعلى الرَّغم من أن الطريق إلى الخدمة في مؤسسات الدولة والعمل الحر باتت مفتوحة أمام اليهود، ومع أنَّ "حريّة النشاط الصناعي توسّعت أكثر أمام اليهود، "وزادت أيضاً مخصّصات التعليم"، "وبات التقارب بين السكان اليهود والمسيحيين ظاهراً للعيان ... في كل ركن"، ومع أنَّ " القيود المتبقّية ... كانت بعيدة جداً عن الجدية في التطبيق"، " والقائمون على تطبيق القانون يقفون

الآن من السكان اليهود موقفاً أكثر تقديراً واحتراماً بما لا يُقاس"، إلاّ أنَّ أوضاع اليهود في روسيا " في الوقت الراهن ... في غاية البؤس"، " وليس عبثاً أن ينوح اليهود على الزمن الماضي السعيد"، ففي كلّ مكان من أرض الاستقرار اليهودي يُسمع "أسى [اليهود] على الماضي". لأنَّ " الوساطة كانت في أوج ازدهارها" في زمن نظام القنانة، فالإقطاعي الخامل الكسول كان عاجزاً عن أن يخطو خطوة واحدة من غير " اليهودي - البياع"، كما لم يكن بوسع الفلاح المسحوق أن يستغني عنه: عبره فقط كان يبيع المحصول، ومنه كان يستدين. " وكانت الطبقة الصناعية اليهوديّة تستخلص من قبل، منافع كبيرة من عجز الفلاحين وتبذيرهم"، أمَّا الآن فقد بادر الإقطاعي يدير كل شيء بنفسه. وكذلك الفلاح بات " أقل تساهلاً وأكثر حرصاً"، وغالباً ما يسعى بنفسه إلى تاجر الجملة، كما بات استهلاكه للخمور أقل، "وكان من الطبيعي أن ينعكس هذا كله سلباً على تجارة الخمور التي كان يعيش عليها عدد كبير من اليهود". ويتمنى المؤلّف في خاتمة حديثه " لو يلتحق اليهود بالطبقات المنتجة، كما حصل في أوروبا، وألاّ يكونوا فائضاً لا لزومَ له في الاقتصاد الوطني".

لقد طوَّر اليهود الآن تعهُّد الأراضي وشراءها. فالحاكم العام في نوفوروسيا (العام 1869م) يطالب في تقاريره بمنع بيع الأراضي لليهود أُسوة بما كان قد حصل في تسع مقاطعات غربية، وفي العام 1872م.، جاء في تقرير الحاكم العام في الإقليم الجنوبي الغربي، أنَّ "اليهود لا يستأجرون الأرض ليعملوا في الزراعة، إنَّما لأغراض صناعية؛ فهم لا يستخدمون عمل الفلاحين في الأراضي المستأجرة لقاء المال، بل لقاء تأدية أعمال معيَّنة تفوق قيمتها المبلغ المعتاد المدفوع لقاء استئجار الأرض، " فيقيمون بذلك ما يشبه التبعية القنّية". ومع أنَّهم "ينعشون رأسمالهم بالتأكيد، وكذلك تجارتهم، وكذلك سكان الأرياف" إلاّ أنَّ الحاكم العام " لم ير من المفيد أن تتركز الصناعة والزراعية في بعض الأيدي القوية، لأنَّ المنافسة الحرة في ميدانيِ الزراعة والصناعة، وحدها التي يمكن أن

تدرأ عن الفلاحين "عبء تبعية عملهم والأرض للرأسمال اليهودي، هذه التبعية التي ستفضي بالتأكيد إلى هلاكهم مادّياً وأخلاقيّاً". لكنَّه إذْ افترض وضع حدّ لتأجير الأرض لليهود في الإقليم الذي يحكمه، اقترح "منح اليهود حقّ الاستيطان في المقاطعات الروسيّة الكبرى".

فوصل التقرير إلى "لجنة تنظيم شؤون اليهود" التي كانت شُكلت لتوها (وهي اللجنة الثامنة بين "اللجان اليهوديّة")، وكان أعضاؤها متعاطفين جداً مع أوضاع اليهود، لذلك كان موقفهم من التقرير سلبياً، وهذا ما رأته الحكومة بعد ذلك: كان منع تأجير الأرض لليهود سيشكّل بالنسبة للإقطاعيين "انتهاكاً صارخاً للقانون". زد على هذا أنَّ كبار المتعهدين اليهود " الذين تتفق مصالحهم مع مصالح ملاك الأراضي، سيتضامنون معهم من غير تردد ... والحقيقة أنَّ البروليتاريين اليهود يتجمعون حول كبار المتعهدين، ويعيشون على حساب شقاء سكان الأرياف ومواردهم. لكنَّ الحالة عينها قائمة أيضاً في الأملاك التي يديرها أصحابها الإقطاعيون المحليون الذين لا يستطيعون حتى الآن أن يتدبَّروا أُمورهم من غير الاستعانة باليهود". ولكنْ في منطقة جيش الدون قُيِّدت حركة الاندفاع الاقتصادي لليهود بمنعهم (في العام 1880م) من امتلاك أو استئجار أيٍّ أملاك ثابتة. فقد رأت إدارة المنطقة أنَّه "نظراً للوضع الاستثنائي الذي تتسم به منطقة الدون التي يؤدي سكانها القوزاق إتاوة عسكرية عامة، [فإنَّ هذه] هي الطريقة الوحيدة لإنقاذ اقتصاد القوزاق، والمهن والتجارة التي بالكاد بدأت تستوطن في المنطقة، من إفلاس مؤكد"، لأنَّ "التسرع الزائد في استغلال الثروات المحلية، وسرعة التطوُّر الصناعي ... يترافقان بشكل طبيعي بتفاوت كبير جداً في توزيع الرأسمال، بالتالي بالإثراء السريع لبعضهم وإفقار الآخرين. ولكنْ ينبغي أن تتوافر للقوزاق الكفاية، لأنَّهم يؤدون الخدمة العسكرية على خيولهم التي يملكونها، ومعداتهم التي يشترونها هم على نفقتهم الخاصة". بهذا سنتفادى الانفجار القوزاقي المحتمل. لكن كيف كانت الأحوال مع تأدية اليهود للخدمة

العسكرية بعد تسهيلات الإسكندر في العام 1856م؟ بالنسبة للستينات، كانت اللوحة على النحو الآتي: "عندما كان يُعد مرسوم سام باستدعاء دفعة جديدة من المجنَّدين، ويأخذ اليهود علماً به قبل صدوره، كان أفراد العائلات اليهوديّة المكلفين بالخدمة العسكرية ينفرون من أماكن سكنهم ويتفرَقون في شتى الاتجاهات قبل إذاعة المرسوم". فمن حيث الفرائض الدينيّة، "وغياب الروح الرِفاقيّة، والعزلة الأزليّة التي كان يعيشها الجندي اليهودي ... كانت الإتاوة العسكريّة هي الإتاوة الأكثر رعباً بالنسبة إلى اليهود، والأكثر تدميراً لحياتهم". وعلى الرَّغم من أنَّه بات متاحاً لليهود منذ العام 1860م أن يخدموا في الحرس الامبراطوري، ومنذ العام 1861م.، أن يرتقوا إلى رتبة صف ضابط، ويُقبلوا في دائرة الكتبة، إلاَّ أنَّ الارتقاء إلى مراتب الضباط لم يكن متاحاً لهم.

ويؤكِد إ. غ. أُورشانسكي الذي كان شاهداً على حقبة الستينات، أنَّ هناك "كثيراً من المعطيات التي تؤكد الرأي القائل: في السنوات الأخيرة لم يكن اليهود يؤدّون الإتاوة العسكريّة فعلاً، بل كانوا يشترون قسائم استدعاء قديمة، ويقدمونها للخزينة"، فهناك فلاحون احتفظوا بها منذ العام 1812م من غير أن يعرفوا أنَّ لها ثمناً، لكنَّ دهاء اليهود منحها قيمة؛ كما كانوا "يستأجرون هواة" بدلاً عنهم، ويؤدّون للخزينة مبلغاً معلوماً". "وحاولوا أيضاً أن يوزِعوا العائلات على وحدات أصغر"، وعلى هذا النحو كانوا يفيدون من امتياز إعفاء "الولد الوحيد" من الخدمة العسكرية. لكنَّ أُورشانسكي يتغاضى عن أنَّ "حيل التهرُب من التجنيد كلها ... حاضرة أيضاً في الزيمشتينا[1] الروسيّة الأصيل"، ثمَّ يسوق أرقاماً عن مقاطعة كاترين. بل يستغرب أن يرفض الفلاحون الروس الاستمرار في الخدمة العسكرية على الرغم من الراتب العالي الذي يتلقونه، ويفضلون العودة إلى العمل المفضل لدى الشعب الروسي: العمل الزراعي".

---

(1) جزء من الدولة الروسيّة أحدثه إيفان الرابع ومنحه حق الإدارة الذاتية. ـح. إ.

في العام 1874م استبدل بإتاوة التجنيد نظام الخدمة العسكرية العامة الذي حمل لليهود "انفراجاً ملحوظاً". "لم يحمل نصُّ النظام أيَّ بنود خاصة تفرِق اليهود عن غيرهم". ولكنْ لم يُسمح لليهود من الآن وصاعداً أن يقيموا في المقاطعات الداخلية بعد أن يؤدوا الخدمة العسكرية. كما وُضعت قواعد "تجعل أعداد الذكور من السكان اليهود معروفة وواضحة"، لأنَّها كانت لا تزال حتى الآن مبهمة وغير دقيقة. فقد عُمِّمت على حكام المقاطعات "معلومات عن الطرائق الملتوية التي يلجأ إليها اليهود للتهرب من الخدمة العسكرية". في العام 1876م اتخذت أولى "الإجراءات لضمان تأدية اليهود الخدمة العسكرية بانتظام". ورأت الموسوعة اليهوديّة فيها "شبكة قاسية من إجراءات التنكيل": "صدرت تعليمات بتسجيل اليهود في دوائر الاستدعاء، واستدعاء بدل اليهود غير المؤهلين للخدمة يهوداً آخرين مؤهلين لتأديتها"، إجراء تفتيش على دقة التسهيلات المعطاة بموجب الوضع العائلي: في حال انتهاك هذه التعليمات "يُسمح باستدعاء الابن الوحيد إلى الخدمة العسكريّة". وقد ساقت جريدة "غولوس" البطرسبورغية النافذة في ذلك العقد، رقماً رسمياً صادراً عن الحكومة يثير كثيراً من الدهشة، ونشرته "في تقرير عن استدعاء المتزوجين حديثاً في العام 1880م ... كان عدد المتزوجين حديثاً من اليهود [في شتى أرجاء الإمبراطورية الروسيّة] 3309؛ استُدعي إلى الخدمة العسكرية منهم3054 أي بنسبة 90%.

يسوق أ. شماكوف المحامي المعروف بعدائه لليهود، المعطيات الآتية استناداً إلى "الدليل الحكومي": في الفترة بين الأعوام 1876 -1883م.، "كان عدد المكلفين المدعوين إلى الخدمة العسكرية من اليهود 466282. شخصاً، تخلَف منهم 10589 . أشخاص أي 31%6. (على مستوى الإمبراطورية كان النقص 0%19.). وغنيٌ عن البيان القول: إنَّه لم يكن بوسع الإدارة أن تغفل عن هذا، فاتُخذت سلسلة "من التدابير لوضع حد لهذا الاستهتار". لكنَّ تلك التدابير لم تعط سوى نتائج على المدى القصير. ففي العام 1889م.، استدعي إلى الخدمة 46.

190 يهودياً، تخلف منهم 2554 . مكلفاً، أي 9%2.. لكنْ في العام 1891م.، "كان العدد الكلّي لليهود المطلوبين لتأدية الخدمة العسكرية 24851 . مكلفاً مسجلين في جداول الاستدعاء، فتخلف عن الالتحاق ... 6587. مكلفاً، أي 14 94%، بينما لم تصل نسبة من تخلفوا من المسيحيين إلى 2%67 .. وفي العام 1892م تخلّف عن الخدمة: 16%38. من اليهود، و3%18. من المسيحيين. وفي العام 1894م لبَّى الاستدعاء 2896. يهودياً، أي 13%6. (كانت النسبة العامة للمتخلفين 2%6.). لكنَّ هذه المادة نفسها تُظهر في العام 1894م: "أنَّ عدد المكلّفين المطلوبين للخدمة العسكرية من المسيحيين 143873 . مكلفاً، و80145. من اليهود، و42427. من المسلمين، و3111. من الوثنيين". والحقيقة أنَّ مقارنة هذه الأرقام بدورها تثير الدهشة: ففي روسيا كانت نسبة المسلمين (بحسابات العام 1870م) 8%7. من عدد السكان، أمَّا نسبتهم بين المكلفين المدعوين، فلم تبلغ سوى 2%9.! لكنَّ اليهود كانوا في وضع المغبون بالمقارنة مع المسلمين، والكتلة العامة للسكان: فنصيبهم في الاستدعاء كان 4%8.، ونسبتهم من عدد سكان البلاد 3%2. (في العام 1870)(أمَّا المسيحيون الذين كان نصيبهم في الاستدعاء 92% فكانت نسبتهم من عدد السكان 87%). بيد أنَّنا يجب ألاّ نستنتج مما ورد هنا، أنَّ الجنود اليهود لم يُظهروا بسالة وحنكة عسكريتين في الحرب التركية التي كانت تدور رحاها عندئذٍ في العام 1877 -1878م. فقد ساقت مجلة "اليهودي الروسي" أمثلة قاطعة تثبت شجاعتهم وحنكتهم في ميادين القتال. وعلى وجه العموم شاع في تلك الحرب تحريض مغرض ضدَّ اليهود، كان سببه الرئيس حوادث لا أخلاقيّة أتاها المقاولون الممونون، وكان هؤلاء من اليهود حصراً، بدءاً من مقاولي شركة غوروفيتس، وغريغير وكاغان". فهؤلاء زوَّدوا القوات (ويجب أن نفترض أنَّهم كانوا تحت حماية موظّفين متنفّذين) بذخائر فاسدة، "وأحذية كرتونية" ذاع صيتها، فبسببها تجمَّدت أقدام الجنود في جبال شيبكا.

في عهد الإسكندر الثاني انتهت إلى فشل تام خطة ربط اليهود بالعمل الزراعي التي تواصلت محاولات تحقيقها نصف قرن. فبعد أن ألغي في العام 1856م تجنيد اليهود بكثافة، فقدت الزراعة مباشرة كلّ جاذبيتها عند هؤلاء، أو، على حدّ قول موظف حكومي، "أوّلوا تأويلاً خاطئاً المرسوم الذي عدوا أنفسهم بموجبه معفيين الآن من ضرورة ممارسة العمل الزراعي"، وبات بوسعهم أن يتغيبوا متى أرادوا. "لقد توقف اليهود توقفا شبه تام عن التماس نقلهم إلى ميدان العمل الزراعي". أمّا حالة المستعمرات التي كانت قائمة، فقد بقيت على ما كانت عليه إنْ لم تكن قد ساءت: "كانت الحقول محروثة ومزروعة بشكل يثير الضحك، أو للمنظر فقط، مراءاة فحسب". ففي العام 1859م مثلاً، وصل الأمر ببعض المستعمرات إلى حدّ العزوف حتى عن انتقاء البذار المزروع". حتى في أحدث المستعمرات النموذجية لم تبن للمواشي معالف ولا حتى أسقف وحظائر. وكان المستعمرون اليهود يؤجرون القسم الأكبر من الأراضي للفلاحين أو للمستعمرين الألمان. وطلب كثير منهم الإذن باستخدام العمال المسيحيين، وإلاّ سيقلصون المساحات المزروعة، وقد منحوا الإذن بذلك بصرف النظر عن الحجم الفعلي للمزروعات. غنيٌّ عن البيان القول: إنّه ظهر بين المستعمرين عدد ما من الفلاحين الأثرياء الذين أحسنوا إدارة استثماراتهم. لقد نجحت نجاحاً باهراً تجربة إسكان المستعمرين الألمان بين المستعمرين اليهود الذين أخذوا عن هؤلاء خبراتهم في ميدان العمل الزراعي. وكان الجيل الجديد الذي وُلد هنا أكثر قبولاً للعمل الزراعي والتجربة الألمانية، كما نشأت عندهم "قناعة بأهميّة مكانتهم كمزارعين بالنسبة لما كانت عليه حالهم في المدن والبلدات" حيث الزحام والمضاربات المنهِكة.

لكنّ الأكثرية العظمى سعت إلى الابتعاد عن الأرض. وباتت تقارير المفتشين تكرّر نفسها: "كان نفور اليهود من الأعمال الزراعية موقفاً عاماً يثير الاستغراب، بينما كانوا يأسفون على ابتعادهم عن مهنهم السابقة وتجارتهم

وحرفهم"؛ ويظهرون "دأباً لا يكلُّ في ممارسة مختلف الأعمال الصناعية"، "ففي ذروة موسم الأعمال الحقلية مثلاً ... كانوا يتركون الحقول ساعة يعرفون أنَّ هناك على مقربة يمكنهم أن يجنوا نفعاً من بيع أو شراء فرس أو ثور أو أيِّ شيء"؛ لقد كان شغفهم كبيراً "بالعائدات التجارية الصغيرة" التي كانوا يرون أنَّها "تتطلب جهداً أقل وتُعطي عائداً أكبر"، كما كان يشدّهم بقوة، "الكسب السهل المنال الذي يحقّقه اليهود في القرى الألمانيّة والروسيّة واليونانيّة التي كان المستعمرون اليهود يعملون فيها خمارين وباعة". وما زاد الأمر سوءاً بالنسبة للأرض هو غيابهم عنها لفترات طويلة في أماكن بعيدة: كانوا يبقون على واحد أو اثنين من أفراد العائلة للعناية بالمنازل في المستعمرة، وينطلق الآخرون لكسب الأرباح، والسمسرة. وفي الستينيّات (خاتمة نصف قرن على تأسيس المستعمرات)، بات مسموحاً لعائلات بكاملها أو لأفراد منها بمغادرة المستعمرات؛ كما كان في المستعمرات من لم يسكن فيها في أيِّ يوم من الأيام، على الرَّغم من أنَّه كان مسجّلاً في لوائح سكانها. وعندما كانوا يُطلقونهم من المستعمرات، كانوا يُغفلون في غالب الأحيان تدوين تاريخ تنسيبهم إلى الطائفة المهنية في أماكن الإقامة الجديدة، وهناك "كان يبقى كثير منهم لسنوات مع عائلاتهم غير محسوبين على أيِّ طائفة مهنية كانت، بالتالي لم يؤدوا أيَّ ضرائب أو إتاوات". وفي المستعمرات كانت المساكن التي بُنيت لهم تبقى خالية، ثم لا تلبث أن تتحوّل إلى خرائب. ومنذ العام 1861م مُنح اليهود حق إدارة خمارات في المستعمرات.

في نهاية المطاف تحوّلت فكرة سلطات بطرسبورغ عن الزراعة اليهوديّة، إلى فكرة بائسة محزنة. وعلى صعيد آخر، كانت المستحقات المتأخرة (التي صدر فيها العفو في مناسبات حكومية أو إمبراطورية، مرات كثيرة كان آخرها مناسبة زفاف الامبراطور)، تتزايد وتتزايد، وكان كلُّ عفو يشجع أكثر على التهرُّب من تأدية الضرائب والإتاوات، وعدم تسديد القروض. (في العام 1857م.، انتهت السنوات العشر التالية من التسهيلات والتأجيل، فأُضيفت إليها خمس

أخرى. لكنْ في العام 1863م.، لم ينجحوا في تحصيل الديون). إذن لماذا كان الترحيل والإسكان في أماكن أخرى؟ ولماذا كانت تُمنح التسهيلات والقروض؟ إنَّ هذه الملحمة التي استمرت ستين عاماً، وفرت للفلاحين اليهود فرصة ثمينة للتملص مؤقتاً من تأدية الإتاوات الحكومية"، لكنَّها لم تخلق لدى أكثر اليهود "رغبة في ممارسة العمل الزراعي"؛ "ولم يكن الكسب متناسباً مع النفقات". بل على الضدّ إذْ "كان يكفي إذنٌ عادي بسيط يجيز الإقامة في المقاطعات الداخلية، من غير أيِّ تسهيلات، أو امتيازات حتى تتدفّق على تلك المقاطعات أعداد من اليهود أكثر بما لا يُقاس من اليهود المرحَّلين". لقد اندفعوا إلى هناك برغبة جامحة. إذا كان عدد المستعمرين اليهود المسجلين رسمياً قد بلغ في العام 1858م.، 64 ألف نسمة، أي 8 -10 آلاف عائلة، ففي العام 1880م لم تحص الوزارة سوى 14 ألف نسمة، أي أقل من 2000 عائلة. أمَّا اللجان التي كُلِّفت في العام 1872م بالتحقق مما إذا كانت الأرض تُحرث أم أنَّها متروكة مهملة، فلم تجد في الإقليم الجنوبي الغربي كله سوى أقل من 800 عائلة من المستعمرين اليهود.

لم يعد لدى السلطات الروسيّة أيُّ شكٍ الآن في أنَّها فشلت في أن تجعل من اليهود فلاحين حضراً. لم يعد بوسعهم أن يصدِّقوا أنَّ "الأمل المعقود على ازدهار المستعمرات سيتحقق". وكان من الصعب على الوزير كيسيليوف على نحو خاصّ، أن يتخلى عن هذا الحلم، لكنَّه أُحيل في العام 1856م إلى التقاعد. كانت الوثائق الحكومية الرسمية تُعلن الواحدة تلو الأخرى: "لم يتكلّل ترحيل اليهود إلى أماكن استيطان أخرى للعمل في الزراعة بالنجاح، ولم يعط أيَّ نتائج إيجابيّة". كانت مساحات شاسعة من الأراضي السوداء الخصبة قد بقيت في غضون ذلك بين أيدي اليهود بوراً". ومن المعروف أنَّ أفضل الأراضي قد استقطعت وخُصِّصت للسكان لليهود. وقد أعطى القسم الذي وُضع منها مؤقتاً بين أيدي الراغبين، مردوداً كبيراً (عليه عاشت المستعمرات اليهوديّة"): كان السكان في

الجنوب يتكاثرون، وكلّهم كان يطلب الأرض. وسرعان ما ارتفع ثمن الأراضي الأسوأ التي كانت تُعطى من الاحتياط، علاوة على الأراضي المخصصة للمستعمرات اليهوديّة. كان إقليم نوفوروسيا قد عرف كثيراً من المستوطنين النشطين، "ولم يكن بحاجة إلى استعمار مصطنع". على هذا النحو فقدت حركة الاستعمار اليهوديّة كلَّ مغزى حكومي.

في العام 1866م أقرَّ الإسكندر الثاني وقف العمل بكلِّ التعليمات الخاصّة بإلحاق اليهود بالفلاحين. فباتت المهمة الآن هي البحث عن سبل لمساواة الفلاحين اليهود بفلاحي الإمبراطورية الآخرين. فقد تبين أنَّ المستعمرات اليهوديّة لم تكن مؤهلة لنمط العيش المستقلّ الذي كان قد بدأ في كلّ مكان. ولم يبق الآن إلاَّ السماح لهم بالخروج من ميدان العمل الزراعي والانتقال إلى العمل الحر في التجارة. وقد سُمح لهم بشراء الأراضي التي كانت بين أيديهم، فاشتروها وأعادوا بيعها بربح كبير. وفي النقاش الذي دار في وزارة أملاك الدولة حول مختلف المشاريع المطروحة، طال الجدل في مسألة إصلاح المستعمرات اليهوديّة، بل توقف نهائيا في العام 1880م. وفي غضون ذلك كان قد صدر في العام 1874م نظام الخدمة العسكرية الجديد الذي أُسقطت منه التسهيلات التي كانت ممنوحة للفلاحين اليهود، وبذلك يكون هؤلاء قد فقدوا آخر دافع لهم للاهتمام بالعمل الزراعي. في العام 1881م، "غلبت في المستعمرات العزب التي تتألَّف فقط من المنزل السكني الذي لم يكن حوله ما يشير إلى نمط العيش الحضري، أي لا سياج، لا حظيرة للمواشي، لا منشآت اقتصادية ملحقة، لا حاكورة لزراعة الخضار، ولا حتى شجرة أو جفنة؛ وكانت الاستثناءات من هذا نادرة".

لقد كتب موظف بخبرة أربعين عاماً في الشؤون الزراعية (مستشار الحكومة إيفاشينتسيف الذي أُوفد في العام 1880م ليدرس أوضاع المستعمرات) يقول: في روسيا كلّها "لم يكن هناك مجتمع زراعي واحد تدفقت عليه المساعدات الماليّة كما تدفقت على الفلاحين اليهود، ولم يكن ممكناً أن تبقى

هذه المخصصات سرّاً على الفلاحين الآخرين، كما لم يكن ممكناً ألاّ تثير فيهم شعوراً بالغبن". فقد عمَّ أوساط الفلاحين المجاورين للمستعمرات اليهوديّة "السخط ... كان هؤلاء يجدون أنفسهم مضطرّين بسبب نقص الأراضي الزراعية لديهم، أن يستأجروا الأرض من اليهود بأسعار عالية جداً مع أنَّ هؤلاء تسلموها من الخزينة العامة مجّاناً وبمساحات تفوق حاجتهم الفعلية". وهذا على وجه التحديد هو الذي يفسر ... "إلى حدٍّ ما ضراوة الفلاحين غير اليهود ضدَّ الفلاحين اليهود، وقد انعكس هذا الموقف العدائي في نهب عدد من المستوطنات اليهوديّة" (في العام 1881 -1882م). ففي تلك الأثناء كانت تعمل لجان على اقتطاع الأراضي الفائضة لدى المستوطنات اليهوديّة ومنحها للفلاحين. لقد استردّت الحكومة المساحات المتروكة بوراً. "في مقاطعات بودولسك وكييف وفولينسك لم يبق [لدى الاستثمارات اليهوديّة] سوى 0824. هكتاراً من أصل 00039. هكتار كان موضوعة تحت تصرفها. ومع ذلك بقيت هناك مستوطنات زراعية يهودية شاسعة. فها هي ياكشيتسا الواقعة في مقاطعة مينسك الفقيرة إلى الأرض، نالت فيها 46 عائلة 740 هكتاراً، أي 16 هكتاراً لكلّ عائلة، وهو ما لا تجده كثيراً لدى فلاحيٍّ وسط روسيا. وها هي أنينغوف في مقاطعة موغيليوفسك، وهي أيضاً ليست فيها بحبوحة من الأرض: في العام 1848م حازت عشرون عائلة يهودية فيها من خزينة الدولة على عشرين هكتاراً من الأرض الزراعية لكل منها، لكنَّهم اكتشفوا في العام 1870م، أنَّ عشر عائلات فقط تقيم هناك، وأنَّ القسم الأعظم من الأرض متروك بوراً. وها هي فيشينكي في مقاطعة موغيلوفسك وزعوا فيها ستة عشر هكتاراً على كل عائلة يهوديّة، ووزعوا في اوردينوفشينا الغرودنينسكية اثني عشر هكتاراً على كلّ عائلة يهودية. أمّا في المقاطعات الجنوبية التي تتوفّر على مساحات طبيعية شاسعة، بقي لدى المستوطنات اليهوديّة الأولى: في ناغارتافا الكبرى 17 هكتاراً لكلّ عائلة، وفي سيديمينوخ 16 هكتاراً لكلّ عائلة، وفي نوفو -بريسلافا 17 هكتاراً لكلّ

عائلة. وفي قرية روسكوشنايا في مقاطعة يكاتيرينوسلافسكايا: 15 هكتاراً لكلّ عائلة، لكن إذا أضفنا إلى هذا أرض المستوطنة نفسها، فإنَّ المساحة تصل إلى 42 هكتاراً لكلّ عائلة. وفي فيسيولايا (في العام 1897م) نالت كلّ عائلة 28 هكتاراً، وفي ساغايداكا تسعة هكتارات، وكانت هذه تُعد فقيرة بالأرض. أمَّا إيليوفكا التي في مقاطعة كييف فلم يكن فيها سوى ست عائلات يهودية كانت تتصرف بأربع مئة هكتار، أي 67 هكتاراً لكلّ عائلة! وكانت "الأرض مؤجّرة للألمان". لكنَّنا نقرأ عند مؤلف سوفييتي في القرن العشرين، حكماً قاطعاً مفاده الآتي: "لقد حرَّم النظام القيصري على اليهود العمل بالزراعة تحريماً قاطعاً تقريباً".

في الصفحات التي يعمّم فيها بحثه المسهب والدقيق، يصل ف. ن. نيكيتين، الباحث في المسألة الزراعية اليهوديّة إلى الآتي: "إنَّ اتهام اليهود بالتقاعس عن ممارسة العمل الزراعي والهروب الكيفي من المستعمرات إلى المدن للعمل بالتجارة والحرف، هو اتهام مشروع تماماً ... ونحن لا ننفي إطلاقاً مسؤولية اليهود عن أنَّه على مدى 80 عاماً لم يتحول سوى عدد ضئيل منهم إلى فلاحين". ثمَّ يسوق الاعتبارات الآتية لتبرير سلوك الفلاحين اليهود هذا: "لم يولوهم أيَّ ثقة في أيِّ شيء؛ وغيَّروا نظام مستعمراتهم مرّات عدة"، وفي بعض الأحيان كانوا يفوِضون بتدبير شؤون حياتهم أُناساً لا يفقهون شيئاً في شؤون الزراعة، أو يتخذون منهم موقفاً لا مبالياً ... ومن أُناس أحرار ألفى اليهود أنفسهم يعيشون في القرية من غير أيِّ إعداد مسبق لمثل هذا الانتقال".

في ذلك الوقت نفسه تقريباً، أي في العام 1884م.، أشار ن. س. ليسكوف في مذكّرة أعدَّها للجنة حكومية أخرى، هي "لجنة بالين"، إلى أنَّ "انكفاء اليهود عن الأعمال الحقليّة ليس حصيلة سلوك جيل واحد"، ولن يصير اليهودي فلاحاً مرة أخرى إلاَّ بالتدرُّج. (أمَّا ليف تولستوي فقد حاكم المسألة بأُسلوبه المجازي على النحو الآتي: أيُّ بشر هؤلاء الذين "يحبسون شعباً كاملاً في زحمة

العيش في المدينة ولا يمنحونه فرصة الانتشار في الأرض ليعمل بالزراعة، العمل الوحيد اللائق بإنسانية الإنسان. إنَّ هذا لا يختلف في شيء عن منع هذا الشعب من أن يتنفس الهواء .... أين الضير في هذا ... في أن يسكن اليهود في القرى، ويعيشوا حياة عمليّة نقيّة كان هذا الشعب القديم الحكيم الرائع قد تحدّث عنها بالتأكيد ...". فوق أيِّ سُحب كان يعيش هذا الرجل؟ وما الذي كان يعرفه عن تجربة هذا الاستعمار الزراعي التي طالت 80 عاماً؟).

ومهما يكن من أمر، إلاّ أنّه بعد تجربة الاستيلاء على فلسطين، حيث أحسَّ المستوطنون اليهود أنَّهم في وطنهم، نجحوا نجاحاً باهراً في التعامل مع الأرض، وفي شروط أقل ملاءمة بكثير مما كانت عليه الحال في نوفوروسيا. لقد انتهت كلُّ محاولات دفع اليهود أو إرغامهم على حراثة الأرض في روسيا (ثمَّ في الاتحاد السوفييتي)، إلى الفشل (ومن هنا جاء الاستنتاج المهين بأنَّ اليهود غير مؤهلين للعمل الزراعي).

إذن على مدى ثمانين عاماً من الجهود التي بذلتها الحكومة الروسيّة، لم تكن حركة الاستعمار هذه برمتها سوى عمل مهوّل من غير جدوى: كثير من الجهود، وكثير من الموارد، وتعويق تطوير نوفوروسيا، هذا كله كان مجرد عبثٍ لا طائل منه. وقد بيَّنت التجربة أنَّه كان ينبغي ألاّ يبدأ ذلك أصلاً.

الاستثمار التجاري - الصناعي اليهودي في روسيا

في سياق وصفه المعالم العامّة للاستثمارات التجاريّة - الصناعيّة اليهوديّة، كتب إ. غ. أورشانسكي يقول: في أوائل السبعينيّات باتت مسألة النشاط الصناعي اليهودي "لبّ المسألة اليهوديّة برمّتها"، بها "كان يتعلّق مصير الشعب اليهودي في البلدان كلّها"؛ "لدى القبيلة اليهوديّة التجارية الحيّة الواسعة الحيلة والدهاء"، "ينهي الروبل خمس دورات قبل أن يدور بين يديّ الروسي دورتين". عند التجار الروس ركود، وكساد، واحتكار (بعد طرد اليهود من كييف مثلاً، انتعشت الحياة هناك فوراً). إنّ قوّة مساهمة اليهود في الحياة التجارية تكمن في تسريع الدورة التجارية مهما كان الرأسمال ضئيلاً. وفي سياق اعتراضه على الرأي الذي يقول: إنّ "الروح الجماعيّة" لدى اليهود تضمن لهم الغلبة في أيّ منافسة كانت، لأنّ "التجّار اليهود يساعد بعضهم بعضاً، وعندهم مصرفيوهم، ومقاولوهم، وحوذيوهم"، ينسب أورشانسكي الروح الجماعية اليهوديّة إلى الشؤون الاجتماعيّة والدينيّة فقط، وليس إلى العمل التجاري حيث تدور بين اليهود أنفسهم منافسة ضارية (وهو ما يناقض في بعض الأحيان الخازاكا – أي التوزيع الإلزامي لميادين العمل، التي كانت "قد اندثرت رويداً رويداً مع تغيُّر الوضع القانوني لليهود"). كما يسوق أورشانسكي رأياً آخر كان منتشراً عندئذٍ ومفاده أنّ أيّ تجارة يهودية لا يمكن أن تغني البلاد، لأنّها "تقوم فقط على استغلال الطبقات الكادحة والمنتجة"، وأنّ "أرباح اليهود خسارة صافية للبلاد"، ثم يناقش هذا الرأي فيقول: إنّ اليهود يبحثون دائماً عن أسواق جديدة "فيفتحون بذلك أمام السكان المسيحيين الفقراء مصادر دخل جديدة".

في العام 1861م تلقى الاستثمار التجاري - الصناعي اليهود في روسيا ضربتين موجعتين: إلغاء نظام القنانة، وإلغاء حقّ تعهدات الخمور، لكنَّه ما لبث أن تعافى منهما. وفي الستينيّات "بات الدور المالي الذي يؤديه اليهود مهماً على وجه الخصوص، لأنَّ أعمالهم السابقة ركّزت بين أيديهم رؤوس أموال كبيرة، وفي الوقت نفسه أفضى تحرير الفلاحين وإفلاس ''دشم النبلاء'' الذي رافقه، إلى طفرة في الطلب على السيولة النقدية عند طبقة الاقطاعيين. ويرقى إلى الحقبة المعنية إنشاء المصارف الزراعية التي كان للرأسمال اليهودي دور ملحوظ في تنظيمها". لقد تبدلت كلّ الحياة الاقتصادية في البلاد بوتائر سريعة جداً، وفي اتجاهات مختلفة دفعة واحدة، فنجح السعي اليهودي الأزلي، ومعه قدرة اليهود على الابتكار، إضافة إلى الرأسمال اليهودي في التلاؤم مباشرة مع المستجدات، بل تجاوزوها. ونحن كنَّا قد أشرنا إلى أنَّ رؤوس الأموال تدفقت على صناعة السُّكَر في الجنوب الغربي (في العام 1872م.، كان ربع مصانع السُّكَر كلها، وثلث شركات السُّكَر المساهمة ملكاً ليهود)، وعلى المطاحن وسوى ذلك من المعامل الأخرى سواء داخل نطاق منطقة الاستيطان اليهودي أو خارجه. بعد حرب القرم بدأت حركة مكثفة " لبناء الخطوط الحديدية، وتأسس مختلف المشاريع والمؤسسات التجاريّة والصناعيّة، ونشأت شركات مساهمة، ومصارف"، "فوجد كثير من اليهود في المشاريع المذكورة ميداناً خصباً لتوظيف قواهم ومواهبهم ... ونجح بعضهم في أن يجمع ثروات خيالية في زمن قياسي".

"منذ زمن بعيد واليهود يساهمون في تجارة القمح، لكنَّ دورهم فيها اكتسب أبعاداً مهمة بعد تحرير الفلاحين مباشرة، لا سيما بعد بناء الخطوط الحديدية". "ففي العام 1878م.، كان نصيب اليهود قد بلغ في تجارة تصدير القمح 60%، وفيما بعد بات تصدير القمح احتكاراً بين أيدي اليهود وحدهم تقريباً". "وبفضل الصناعيين اليهود باتت الأخشاب الروسيّة السلعة التصديرية الروسيّة الثانية (بعد القمح)". فمنذ العام 1835م.، كان قد سُمح لليهود باتفاقيات قطع

الغابات وامتلاك ملكيات حراجية. "لقد طوّر اليهود الصناعات الخشبية وتجارة الأخشاب. واليهود هم الذين أسّسوا تجارة تصدير الأخشاب إلى الخارج". "في الوقت عينه، تشكل تجارة الأخشاب ميداناً من أهم ميادين التجارة اليهوديّة، وواحداً من أبرز ميادين تركيز الرأسمال ... ويرجع تاريخ بدء تعاظم نمو تجارة الأخشاب اليهوديّة إلى ستينيّات - سبعينيّات القرن، عندما أغرق الإقطاعيون السوق بكمٍ من الأملاك والغابات إثر إلغاء نظام القنانة". "كانت الثمانينيّات هي حقبة أول اندفاع حاشد لليهود إلى ميدان الصناعة"، بما فيها: الصناعات الخفيفة. وصناعة الكتان، والصناعات الغذائيّة، والصناعات الجلديّة، والنجارة، وصناعة الموبيليا، أمّا "صناعة التبغ، فكانت قد تركزت في أيدي اليهود منذ زمن بعيد".

لقد جاء في وصف المؤلفين اليهود: "أنَّ البرجوازية اليهوديّة الثريّة كلّها، كانت موالية للنظام في عهد الإسكندر الثاني. ففي ذلك الوقت بالذات تكونت الثروات الضخمة التي كان يملكها آل غينتسبورغ، وآل بولياكوف، وآل برودسكي، وآل زايتسيف، وآل بالاخوفسكي، وآل أشكينازي". وكما قلنا سابقاً: "إنَّ المقاول يفزيل غينتسبورغ أنشأ في بطرسبورغ مصرفه الخاص". كما بنى صموئيل بولياكوف ستة خطوط حديدية؛ وبولياكوف هؤلاء ثلاثة إخوة صاروا نبلاء ووراثيين. وبفضل بناء الخطوط الحديدية التي ضمنتها الحكومة، وساهمت إلى حدٍ بعيد في تمويلها، تكوّنت الثروة المهولة التي كان يمتلكها آل بولياكوف، وإ. بليوخ، وأ. فارشافسكي وغيرهم". لكن كيف يمكن إحصاء الثروات الأصغر، ثروة أ. إ. زاك مثلاً؛ فقد كان هذا مساعد ي. غيتسينبورغ في المقاولات: بعد أن انتقل إلى بطرسبورغ أنشأ فيها مصرفاً للإيداع والتسليف، "وكانت دائرة أقاربه وأقارب زوجته واسعة جداً، فوظّفهم في المؤسسات التي كان يرأسها".

كما بدلت إصلاحات الإسكندر وما نتج عنها، الحياة الاجتماعيّة برمّتها أيضاً، وفتحت أمام النشطين من اليهود إمكانيات جديدة. "فالتعليمات الحكومية التي أجازت لبعض الجماعات اليهوديّة من أصحاب الشهادات العالية أن تلتحق بالوظائف الحكومية، لم تفرض أيَّ قيود تحدُّ من ارتقائهم السلَّم الوظيفي. وعندما كان اليهودي ينال مرتبة مستشار دولة أصيل، كان يرتقي بحسب القاعدة العامة إلى فئة النبلاء الوراثيين".

إصلاح العام 1864 في روسيا

في العام 1864م أُجري إصلاح على نطاق عام "طال الفئات كلَها. ولم تضع مبادئه أيَّ قيود على حقوق اليهود للمشاركة في الانتخابات العامة، ولا على شغل أيِّ منصب يُنتخبون إليه. وعلى مدى ستة وعشرين عاماً من سريان مفعول تلك المبادئ، كان يمكن أن ترى يهوداً أعضاء مجالس، وأعضاء في الإدارات العامة. كما لم تُلق مواثيق العام 1864م القضائية أيَّ قيود على اليهود. فقد أنشأ الإصلاح القضائي سلطة قضائية مستقلَة، وبدلاً من المساعي الفردية التي كانت تُبذل سابقاً في مختلف الدعاوى، نشأت الآن فئة مستقلة جديدة هي فئة المحامين التي كانت لها بنيتها الاتحادية الخاصة (مع حقها السيادي في رفض المرافعة عن أيِّ مدعٍ أو مدعى عليه "لاعتبارات تتعلَق بأخلاقيات المعني"، وهو ما يمكن الاستناد إليه عند الحاجة إلى إجراء تقويم سياسي). وكان يمكن لليهود أن ينتسبوا إلى هذه الفئة، من غير عائق. فقد كتب هوسين في هذا السياق: "عدا عن المحاماة التي شغل اليهود فيها مكانة بارزة، أخذوا يظهرون الآن، وإن كان نادراً، في الدواوين القضائية بصفة محقّقين قضائيين، وبين صفوف المدَعين العامين؛ كما شغلوا في بعض الأماكن مكانة مرموقة في مؤسسات قضاة الصلح والمحاكم الفرعية"، وشاركوا بصفتهم أعضاء محلَفين: في السنوات العشر الأولى من غير معايير نسبية. (ما تجدر الإشارة إليه هو أنَّ اليهودي لم يكن يؤدي اليمين أمام القاضي، بحسب فرائض الدين اليهودي). في تلك السنوات أُجري إصلاح الإدارة الذاتية في المدن. وعزموا في بادئ الأمر على ألاَّ يُسمح بأن يتعدى عدد اليهود في مجلس دوما المدينة والإدارة المدينية، نصف عدد الأعضاء،

لكنَّ معارضة وزارة الداخلية خفّضت هذه النسبة وفق نظام إدارة المدن الذي صدر في العام 1870م.، إلى الثلث، الأمر الذي قطع على اليهود الطريق إلى منصب رئيس المدينة: لقد توجسوا "من أن يؤدي التراصُّ الداخلي لليهود وعزلتهم الخارجيّة، إلى منحهم الدور القيادي في المؤسسات المدينيّة، والغلبة لدى تقرير القضايا الاجتماعية". لكنَّ اليهود نالوا الآن المساواة الكاملة في الانتخابات نفسها (لا كتراتبية قائمة بذاتها، كما كانت عليه الحال من قبل)، وهذا ما منحهم "دوراً مؤثِراً في تقرير قضايا المدن" (على أيِّ حال، كان هذا النظام اللاتراتبي قد رسخ في أوديسا الحرّة منذ ولادة المدينة، ثمَّ في كيشينيوف أيضاً. "وفي جنوبي روسيا على وجه العموم، لم يكابد اليهود مرارة الاحتقار الاجتماعي الذي كان دأب عليه البولونيون في زمن ما"). هكذا كان يتطور "ربما ... أفضل أطوار تاريخ اليهود في روسيا". فقد "فُتحت أمامهم آفاق الخدمة الاجتماعية ... وكان للتسهيلات القانونية، والمناخ العام الذي نشأ عن حقبة الإصلاحات الكبرى، تأثير ناجع على الحالة الروحية للسكّان اليهود". فتحت تأثير حقبة الإصلاحات الكبرى بدا أنَّ "الواقع التقليدي الذي كانت تعيشه الكتلة الشعبيّة اليهوديّة، قد التفت الآن نحو الوسط المحيط"، وغدت " اليهوديّة تساهم بفعالية في النضال من أجل الحقوق والحريّة ... فلن تجد ميداناً من ميادين الحياة الروسيّة الاقتصاديّة والاجتماعيّة والروحيّة، إلاَّ انعكست فيه الجهود المثمرة لليهود الروس".

أخيراً: منذ أوائل القرن فُتحت على مصراعيها أمام اليهود أبواب التعليم العام. مع أنَّ من دخلها من اليهود كانوا قلّة، حتى هؤلاء دخلوها من غير أيِّ رغبة.

يتذكَر رجل القضاء الشهير فيما بعد، يا. ل. تيبتل، مدينة موزير في الستينات فيقول: "غالباً ما كان مدير الجمنازيوم ... يخاطب يهود موزير مشيراً في خطابه إلى أهميّة التعليم ورغبة الحكومة في أن ترى مزيداً من اليهود يدخلون الجمنازيوم. ومن المؤسف حقاً أنَّ اليهود لم يلبُوا هذه الدعوة". بل حتى في السنوات

الأولى التي تلت الإصلاحات، لم يلتحق اليهود بمدارس التعليم العامّ، كما لم يلتحقوا بها حتى عندما أخذت الحكومة على عاتقها إعالة التلاميذ؛ مع أنَّ نظام التعليم في الجمنازيوم، ومرحلة ما قبل الجمنازيوم (في العام 1864م)، أعلن أنَّ المؤسسات التعليمية مفتوحة للجميع، بصرف النظر عن الانتماء الديني. "لقد سعت وزارة المعارف إلى تسهيل انتساب اليهود إلى مؤسسات التعليم العام"، وأظهرت "موقفاً ودّياً من الشباب اليهودي الذي كان يسعى لتحصيل العلم". (في هذا السياق يشير ل. ديتش على وجه الخصوص إلى المشرف عندئذٍ على دائرة التعليم في نوفوروسيا، الجرَاح الشهير ن. إ. بيروغوف: الذي أدّى دوراً مهماً في "التخفيف من موقف أبناء جلدتي العدائي تجاه مدارس الآخرين وعلومهم". بعد تتويج الإسكندر الثاني مباشرة، صاغ وزير المعارف برنامج الحكومة على النحو الآتي: "من الضروري نشر تدريس مواد التعليم العام بشتى الوسائل والطرق، والابتعاد قدر الإمكان عن التدخُل في التعليم الديني للأطفال، وترك أمر الاهتمام به للوالدين، من غير أيِّ قيود أو إرشادات يمكن أن تصدر عن الحكومة". أمَّا أبناء التجّار اليهود، وأبناء الشخصيات اليهوديّة الاعتباريّة، فقد كان تعليمهم في المؤسسات التعليميّة الحكوميّة إلزامياً (منذ العام 1859م).

لكنَّ هذه التسهيلات كلُها لم تحقق النجاح المنتظر، وأكثر ما استطاعت السلطات تحقيقه حتى العام 1863م، هو الوصول بنسبة اليهود في جمنازيومات روسيا إلى 3%2. ، أي معدلهم الطبيعي. وفضلاً عن عزوف الوسط اليهودي عن التعليم الروسي، أدى دوره هنا تغيُّر أولويات قادة المجتمع اليهودي: "عند حلول حقبة الإصلاحات الكبرى، أدغم ‘‘أصدقاء التنوير’’ مسألة تثقيف الكتلة الشعبية بمسألة الأهلية القانونية"، أي رفع القيود المتبقّية كلّها مرة واحدة. وقد اتضحت إمكانيّة هذا الأُفق الليبرالي بجلاء بعد الهزة العنيفة التي أحدثتها حرب القرم.

تدفُّق الطوفان اليهودي إلى التعليم العام

في العام 1874م، حدث تبدّل سحري في موقف اليهود من التعليم، إثر صدور النظام العسكري الجديد الذي "وفَر تسهيلات في تأدية الخدمة لحاملي الشهادات العلميّة": منذ تلك اللحظة "تدفق الطوفان اليهودي إلى التعليم العام". "فبعد الإصلاح العسكري الذي جرى في العام 1874م، حتى العائلات الأصوليّة المتزمتة أخذت ترسل أبناءها إلى مؤسسات التعليم المتوسط والعالي من أجل تقليص مدة خدمتهم العسكريّة". لكنَّ تلك التسهيلات لم تكن مجرد تأجيل من الخدمة العسكرية وتسهيل تأديتها، إنّما بات في وسع اليهود الآن، كما يتذكّر مارك ألدانوف، أن يتقدموا إلى امتحان الترقّي إلى رتبة ضابط، "ونيل رتب الضباط". "ونالوا في بعض الأحيان ألقاب النبلاء". في السبعينيّات "ارتفعت أعداد اليهود الذين يتعلمون في المؤسسات التعليميّة العامة ارتفاعاً مهولاً، وتشكَلت شريحة كبيرة من حملة الشهادات العليا اليهود". ففي العام 1881م ارتفعت نسبة الطلاب اليهود في جامعات البلاد كلها، إلى 9%، وفي العام 1887م.، إلى 13%.5، أي كلُّ تاسع طالب كان يهودياً. وفي بعض الجامعات كانت هذه النسبة أعلى بكثير: في كلية الطب بجامعة خاركوف، بلغت نسبة الطلاب اليهود 42%، وفي جامعة أوديسا 31% في كلية الطب، و41% في كلية الحقوق. وفي التعليم الجمنازيومي وما قبل الجمنازيومي تضاعفت نسبة الطلاب اليهود في البلاد كلها بين العام 18801870 ، فبلغت 12% (بزيادة قدرها أربعة أضعاف بالمقارنة مع العام 1865)، وفي دائرة التعليم في أوديسا بلغت النسبة في العام 1886م 32%، ووصلت في بعض المؤسسات التعليمية إلى 75% وأكثر.

(عندما بدأ د. أ. تولستوي وزير المعارف منذ العام 1866م.، يُدخل المدرسة ابتداء من العام 1871م.، في نظام التعليم "الكلاسيكي"، حيث مالت الكفَة نحو علوم العصر الكلاسيكي القديم، عمَّ السخط أوساط المثقفين الروس، أمَّا اليهود فلم يتخذوا من ذلك الإصلاح موقفاً سلبياً، على حدِّ قول كثير من مؤلفي المذكرات).

لكنَّ تلك الحركة التعليميّة لم تطل بعد سوى "البرجوازية اليهوديّة والإنتيليجينتسيا اليهوديّة. أمَّا الجماهير اليهوديّة فقد بقيت وفية ... للخيدير ولليشيبوت"، "ولم تقدّم المدرسة الابتدائية الروسيّة أيَّ جديد في مجال الامتيازات". "لقد بقي اليهودي العادي في عزلته السابقة بسبب الشروط الخاصّة لحياته الداخليّة والخارجيّة". "في الأوساط الجماهيرية، في مدن منطقة الاستيطان وقراها التي كانت تعيش في مناخ الالتزام الصارم بالتقاليد الدينية وضوابطها، كانت عملية التواصل مع الثقافة الإنسانيّة الحديثة تشقُّ طريقها بصعوبة بالغة، وبالكاد تمكّنت إرهاصات الجديد من أن تخترق القشرة، وتظهر على السطح". "فلم تكن الجماهير اليهوديّة المتراكمة في داخل نطاق إقليم الاستيطان اليهودي تشعر بحاجة إلى اللغة الروسيّة في حياتها اليومية ... فبقيت كما في السابق متقوقعة داخل جدران المدرسة - الخيدير الابتدائية التي اعتادت عليها" —وما يكاد واحدهم يتعلم القراءة، حتى يتوجب عليه مباشرة أن يقرأ التوراة، بالعبرية.

أمَّا فيما يتعلق بالحكومة، فإنَّ فتح أبواب التعليم العام على مصاريعها أمام اليهود، أفقد المدارس الحكومية اليهوديّة كلَّ مغزى. ومنذ العام 1862م تقرَّر إسناد منصب المشرفين العامين عليها إلى يهود. فبات "الكادر العامل فيها يُرفد بتربويين يهود أكثر عقائدية؛ تربويين أخذوا بروح العصر فوجهوا جهودهم لرفع سوية تدريس اللغة الروسيّة، وتقليص عدد ساعات تدريس المواد اليهوديّة". في العام 1873م.، تمَّ إلغاء هذه المدارس جزئياً، وتحويل المتبقي منها إلى مدارس ابتدائية يهودية على نمط التعليم العام، تستمر الدراسة فيها ثلاث سنوات، وست

سنوات، أمّا المعهدان الرّابينيان في فيلنوس وجيتومير، فقد تحولا إلى معهدين لإعداد المدرسين. لقد وضعت الحكومة نُصب عينيها من الآن وصاعداً ... أن يتجاوز اليهود حالة الاغتراب والعزلة عبر التعليم المشترك. لكنّ "لجنة تنظيم شؤون حياة اليهود" تلقت تقارير من يهود مؤيدين كانوا في غالب الأحيان من فئة كبار الموظفين، وأخرى تعبِّر عن آراء معرقلة تدعو إلى "عدم جواز التعامل مع اليهود... على قدم المساواة مع شعوب الإمبراطورية الأخرى ... وعدم السماح لهم بالسكن غير المشروط على امتداد أراضي روسيا كلّها؛ ولا يجوز أن يُسمح بهذا إلاّ بعد أن تُجرَّب كلُّ الإجراءات الممكنة لتحويلهم إلى مواطنين منتجين حيث هم الآن، في أماكن إقامتهم الحالية، وبعد أن تثبت جدوى تلك الإجراءات".

خطة برافمان

في غضون ذلك كانت الهزَّة التي أحدثتها تلك الإصلاحات، لا سيما إلغاء إتاوة التجنيد البغيضة (في العام 1856م)، ثم إلغاء الإتاوة الخاصة المرتبطة بها (في العام 1863م)، "قد أظهرت أن السلطة الإدارية لزعماء المشاعات أضعف بكثير من ذلك الجبروت المطلق" الذي انتقل إليهم من الكاغال التي أُلغيت (في العام 1844م) بعد أن كانت الحاكم المطلق على حياة اليهود. وفي تلك الأعوام بالذات، في أواخر الخمسينات وبداية الستينات، قدَّم يعقوب برافمان، وهو يهودي اعتنق المسيحية، أمام الحكومة، ثم علناً أمام الناس، خطة لتحقيق إصلاح جذري في واقع اليهود اليومي. وكتب مذكَرة بهذا الخصوص قدمها إلى الامبراطور، فعُقد سينودوس في بطرسبورغ للتشاور. لقد أخذ برافمان على عاتقه مهمة فضح منظومة الكاغالات، ولبلوغ غايته تلك ترجم إلى اللغة الروسيّة محاضر جلسات كاغال مينسك في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، ونشرها في الأول أجزاء، ثمَّ (في العامين 1869 و1875م)، جمعها في كتاب واحد سمَّاه "كتاب الكاغال"، وضَّح فيه مختلف جوانب الظلم الشخصيّ والاقتصاديّ الذي يقع على عضو المشاعة. وقد نال هذا الكتاب "احتراماً كبيراً لدى الإدارة فاعتمدته مرشد عمل، ونال بذلك حقَّ المواطنة في أوسع دوائر المجتمع الروسي"، كان ركب برافمان الظافر" بمثابة "نجاح استثنائي". لقد تمكّن "كتاب الكاغال" أن يغرس في نفوس الكثيرين بغضاً سلفيّاً للشعب اليهودي بصفته "عدواً كونياً للمسيحيين"، ونجح هؤلاء في إشاعة تصوُر باطل مسيء عن الحياة الباطنيّة التي يعيشها اليهود".

إنَّ سعي برافمان هذا لجمع محاضر جلسات الكاغالات وترجمتها إلى اللغة الروسيّة، "أشاع الذُّعر في المجتمع اليهودي"؛ وبناء على طلب اليهود وبمشاركتهم، أُنشئت لجنة تحقيق حكوميّة. "ولم يتأخر بعض الكتّاب اليهود عن نشر براهينهم ليثبتوا أنَّ برافمان حرّف جزءاً من محاضر جلسات الكاغالات عندما ترجمها، وأضاء على الجزء الآخر إضاءة ملفّقة"، بل "ثمة ناقد شكك في أصالة بعض الوثائق". (بعد مئة عام، أي في العام 1976م أكّدت الموسوعة اليهوديّة الحديثة أنَّ "الوثائق التي استخدمها [برافمان]، كانت وثائق أصلية، وأنَّ ترجمته لها كانت ترجمة دقيقة تماماً"، لكنّها اتهمته بالبهتان في تأويلها. وفي العام 1994م أعطت "الموسوعة اليهوديّة الروسيّة" الأحدث، التقويم الآتي: "إنَّ الوثائق التي نشرها برافمان تُعدُّ مصدراً قيِّماً لدارسة تاريخ اليهود في روسيا أواخر القرن الثامن عشر و أوائل القرن التاسع عشر"). (وللمناسبة: إنَّ الشاعر حدسييفيتش هو حفيد أُخت برافمان).

لقد زعم برافمان "أنَّ قوانين الدولة لن تستطيع القضاء على تلك القوّة الشريرة الكامنة في الإدارة الذاتية اليهوديّة ... فعلى حدِّ قوله: إنَّ هذا التنظيم لا يقتصر على الكاغالات المحلية... بل يشمل كما يزعمون، الشعب اليهودي في العالم كلّه ... ونتيجة لهذا لن تستطيع الشعوب المسيحية أن تتخلَص من الاستغلال اليهودي قبل أن يُقضى على كلّ ما من شأنه أن يرسِّخ عزلة اليهود". فلم يكن برافمان "يرى في التلمود قانوناً ذا طابع ديني - قومي، إنَّما رأى فيه "قانونا مدنياً سياسياً"، يناهض "حركة التقدُم السياسيّ والأخلاقيّ في البلدان المسيحية"، ويبني "جمهورية التلمود". كما ألحَّ برافمان "على أنَّ اليهود يمثلون دولة في داخل الدولة"، وأنَّهم "لا يرون أنفسهم ملزمين بأن يتقيّدوا بالقوانين التي تصدرها الدول"، وأنَّ "أحد الأهداف الرئيسة للطائفة اليهوديّة هو ''غسل أدمغة المسيحيين'' من أجل تحويلهم إلى مجرد مالكين صوريين لما يملكون". وأبعد من ذلك "أعلن برافمان عن جمعية لنشر الوعي بين يهود روسيا والاتحاد اليهودي

العالمي (أليانس إسرائيل)، بهدف تعريفهم بأنَّهم ليسوا جزءاً من المؤامرة الكونية اليهوديّة. وبحسب تقويم هوسين إنَّ "كتاب الكاغال" ... لم يدع إلاّ إلى اجتثاث الإدارة الذاتيّة لليهود من جذورها"، غير آبه "بالحرمان من الحقوق المدنية".

وقد أعلن مجلس الدولة "بعد أن لطّف من حدة تعابير ''كتاب الكاغال''، أنّه حتى إذا نجحت التدابير الإداريّة في محو الفروق الظاهريّة التي تميز اليهود عن باقي السكان، فإنَّ هذا لا يعني بأيِّ حال، تجاوزَ حالة الانغلاق التي تعيشها الجماعات اليهوديّة، وموقفها العدائي من المسيحيين، ولا يمكن القضاء على تقوقع اليهود على أنفسهم الذي يتسبب بأذى كبير للدولة، إلاّ بإضعاف الصلة الاجتماعية التي تربط اليهود بعضهم مع بعض إلى أقصى حدٍ ممكن، ووضع حدٍ للسلطة التعسُّفية التي يمارسها رؤساء اليهود، والأهمُّ من هذا وذاك، نشر الوعي في أوساط الجمهور اليهودي". وهذه العملية نفسها، عملية نشر الوعي، بدأت فعلاً في المجتمع اليهودي نفسه. فحركة الهاسكالا التي نشأت في الأربعينات، قامت أساساً على خلفيّة الثقافة الألمانيّة، بينما بقيت اللغة الروسيّة غريبة عنها (لقد كانوا يعرفون غوته وشيللر، لكنَّهم لم يعرفوا بوشكين وليرمونتوف). "وحتى منتصف القرن التاسع عشر لم تكن سوى قلّة نادرة من المثقفين اليهود تعرف اللغة الروسيّة، والأدب الروسي، بينما كانوا يتقنون اللغة الألمانية إتقاناً تاماً". لكنَّ حركة أولئك "الماسكيليم" الذين اهتموا أولاً بثقافتهم هم، وليس بنشر الوعي لدى جمهور الشعب اليهوديّ، كانت قد خبت عند حلول ستينات القرن. "ففي ستينات القرن التاسع عشر كانت النزعات الروسيّة قد اقتحمت البيئة اليهوديّة. وقبل ذلك كان اليهود يقيمون في روسيا، لكنَّهم لا يعيشون فيها": كانوا يرون أنَّ مشاكلهم لا صلة لها بالواقع الروسي. فقبل حرب القرم لم يكن المثقفون اليهود في روسيا يعترفون إلاّ بالثقافة الألمانية؛ لكنَّ الإصلاحات دفعت بهم نحو الثقافة الروسيّة، واللغة الروسيّة ليتقنوها، وأيقظت فيهم ... شعور احترام الذات". فمنذ الآن أخذت حركة التنوير اليهوديّة

تتطوَّر تحت قوة تأثير الثقافة الروسيّة. "ولم ينس أفضل المثقفين اليهود -الروس هموم شعبهم"، "ولم يغرقوا في ميدان نوازعهم الشخصيّة وحدها"، بل اهتموا "بالتخفيف من وطأة مآسيه"، بل حتى الثقافة الروسيّة كانت تدعو إلى الاهتمام بالأخوة الأصغر".

لكنَّ توجُّه الحكومة الجديدة هذا إلى جماهيرها الشعبيّة، كان يحول دونه ارتباط هذه الأخيرة بالدين، وهو بالنسبة إلى التقدميين "عامل رجعي". أمّا حركة التنوير اليهوديّة التي انطلقت، فقد كانت بالتأكيد متوافقة مع روح العصر: حركة زمنية بامتياز. ومن الجدير قوله: إنَّ حركة تحرير الوعي الاجتماعي اليهودي "سارت بصعوبة بالغة، بسبب الدور الاستثنائي الذي كان يؤديه الدين على مدى قرون بصفته الأساس الذي قام عليه الوعي القومي اليهودي في الشتات"، لذلك "لم يبدأ الوعي القومي اليهودي المدني يتشكل" على نطاق واسع إلاّ في أواخر القرن. "ولم يكن ذلك نتيجة جمود أو ضيق أُفق، بل عن سابق وعي وقصد: لم يشأ اليهودي أن يعرِّض نفسه لخطر الابتعاد عن الإله".

لكنْ ها هم المثقفون اليهود - الروس تلاقوا منذ نشأتهم مع الثقافة الروسيّة، وكان لقاؤهم معها في المرحلة التي كان المثقفون الروس أنفسهم يعيشون أوج تطوُرهم، زد إلى هذا تدفُّق طوفان الثقافة الغربية على روسيا في تلك السنين (بوكل، هيغل، هينه، هوغو، وصولاً إلى كانت وسبينوزا). ويشيرون إلى أنَّ شخصيات الرعيل الأول من المثقّفين اليهود - الروس الذين تركوا بعد ذلك أثراً ملحوظاً على الحركة اليهوديّة العالميّة، كانوا قد ولدوا في تلك السنين تقريباً، 1860 -1866م: س. دوبنوف، م. كرول، غ. سليوزبيرغ، او. غروزينبيرغ، وشاول غينزبزرغ (وفي هذه السنين نفسها وُلد أيضاً أترابهم من الثوريين اليهود البارزين: م. غوتس، غ. غيرشوني، ف. دان، آزيف، ول. أكسيلرود -"الأصولي"، أمّا ب. أكسيلرود، ول. دييتش وكثير من الثوريين اليهود الآخرين، فكانوا قد وُلدوا في الخمسينات).

جمعية نشر المعارف في أوساط يهود روسيا

في العام 1863م تأسست في بطرسبورغ بدعم من الثريين يفزيل غينتسبورغ وأ. م. برودسكي، "جمعية نشر المعارف بين اليهود في روسيا"، وكان كادرها في بادئ الأمر محدوداً، واقتصر نشاطها في السنوات العشر الأولى بعد تأسيسها على نشر المطبوعات، ولم تعمل في مجال التعليم، لكنْ حتى هذا العمل أثار مناهضة قوية من جانب اليهود الأصوليين المتزمتين (كما احتجّ هؤلاء على نشر كتب الشريعة الخمسة باللغة الروسيّة، ورأوا في ذلك العمل تطاولاً دنّس قدسيّة التوراة). منذ السبعينات أخذت الجمعية تقدّم مساعدات مالية للمدارس اليهوديّة. وبات نشاطها الثقافي مُرَوْسناً، ولم تكن ثمة استثناءات في هذا إلاّ للعبرية، لكنْ ليس للعبرية "العامية"، كما كان كلهم يدعوا لغة اليهود عندئذٍ. وبحسب الروائي اوسيب رابينوفيتش أنّ "العامية العاجزة" التي يتحدث بها يهود روسيا، "عاجزة عن تسريع عملية التنوير، لأنّها ليست قاصرة عن استيعاب المفاهيم المجرّدة فحسب، بل لا يمكن التعبير بها عن أيّ فكرة ذات مغزى". "إنّنا نحن اليهود الروس بدلاً من أن نستوعب اللغة الروسيّة الرائعة، نبقى متمسكين بعاميّتنا الفاسدة، العاجزة، والفقيرة". (كان "الماسكيليم" الألمان قد سخروا في حينهم من العامية اليهوديّة سخرية أشدّ مرارة من هذه). على هذا النحو تكون قد ظهرت في اليهوديّة الروسيّة "قوّة اجتماعيّة جديدة لم تتردّد في مواجهة تحالف الرأسمال مع المعبد"، فدخلت معهما في صراع مرير، صراع كسر عظم على حدّ قول الليبرالي يو. إ. هوسين. وقد كانت تلك القوة، ـ مع أنّها كانت مازالت في طور الولادة هيّابة وجلة، ـ هي المطبوعات اليهوديّة الدورية التي كانت تصدر باللغة الروسيّة.

كانت مجلة "الفَجْر" الأُودسيّة التي أصدرها او. رابينوفيتش هذا نفسه، هي باكورة تلك المنشورات، لكنَّ صدورها لم يستمرَّ سوى عامين (1859 -1861م). كان ينبغي على هذه المجلة أن تكون "وسيلة لنشر المعارف العلميّة، والمعارف الدينيّة الحقَة، وقواعد التعايش المشترك، والقيم الأخلاقيّة"، وأن ترغّب اليهود بتعلُّم اللغة الروسيّة، "والتآلف مع الثقافة الوطنية". وأولت "الفجر" اهتماماً للسياسة، فأبدت "محبّة للوطن" ونيّة "للعمل على تطوير أشكال عمل الحكومة". "والعيش عيشة مشتركة مع الشعوب كلّها، والمساهمة في تثقيفها ونجاحاتها، والحفاظ في الوقت نفسه على السمات الخاصة لتراثها القومي وتطويره". وقد حدَّد أحد أبرز العاملين في "الفجر"، الكاتب الاجتماعي ل. ليفاندا هدف المجلة في اتجاهين: "الهجوم والدفاع، - الدفاع ضدَّ الهجمات من الخارج، حينما يجري الحديث عن حماية جقوقنا الإنسانيّة ومصالحنا الدينيّة، والهجوم ضدَّ عدونا الداخلي: جنون الجهل، والروتين، والفوضى الاجتماعيّة، وعيوبنا الذاتيّة، وكسلنا".

وقد أثار هذا الاتجاه الأخير "للكشف عن مواطن الخلل في حياة اليهود الداخليّة"، مخاوف في الدوائر اليهوديّة من أن "يفضي إلى ملاحقات قانونيّة جديدة". وكانت الصحف اليهوديّة التي ظهرت حتى ذلك الحين (باللغة العبرية)، قد "رأت في توجهات ''الفجر'' توجهات ليبرالية متطرِفة". لكنَّ ظهور تلك الصحف المعتدلة بحدٍّ ذاته أحدث خللاً "في النظام الأبوي الذي كانت تستند إليه الحياة المشاعيّة، ولم يكن هذا النظام يلقى أيَّ اعتراض من قبل الشعب". وغنيٌّ عن البيان القول: إنَّ الصراع بين الرّابينيين والحسديين في المجتمع اليهودي لم يهدأ، وزاد عليه في الستينات صراع الكتّاب الاجتماعيين التقدميين ضدَّ الثوابت الاجتماعية المتكلّسة. ويعلّق هوسين قائلاً: "في الستينيّات لم يكن حتى كبار المثقفين يشعرون بأيِّ حرج تجاه التنكيل بخصومهم الأيديولوجيين،" فالكاتب الاجتماعي أ. كوفنير، أو "بيساريوف اليهود" كما كان يُدعى، لم يتردّد مثلاً

في أن يشي بإحدى الصحف اليهوديّة إلى الحاكم العام في نوفوروسيا (في السبعينات كان بيساريوف "يحظى بشعبية واسعة جداً بين المثقفين اليهود ...).

ويرى م. ألدانوف أنَّ مشاركة اليهود في الحياة الثقافيّة والسياسيّة الروسيّة لم تبدأ فعلاً إلاّ في أواخر السبعينيّات. (أمَّا مشاركتهم في الحركة الثوريّة فكانت قد بدأت قبل عشر سنوات). ففي السبعينيّات بدأ التعاون بين الكتَّاب الاجتماعيين اليهود الجدد: ل. ليفاندا، والناقد س. فينغيروف، والشاعر ن. مينسكي، والصحافة الروسيّة (ينقل غ. أرونسون أنَّ مينسكي عزم على أن يمضي إلى الجبهة ليقاتل إلى جانب الأُخوة - السلاف في الحرب الروسيّة ـ التركية). وفي ذلك الحين عبَّر وزير المعارف الكونت إيغناتيف عن ثقته بارتباط اليهود الروس بروسيا. وبعد الحرب الروسيّة - التركية 1877 -1878م، شاعت في الأوساط اليهوديّة شائعة عن قرب إجراء إصلاحات مشجعة واسعة. في غضون ذلك كان مركز المثقفين اليهود قد انتقل من أوديسا إلى بطرسبورغ، فبرز هناك أُدباء ومحامون جدد كانوا يوجهون دفّة الرأي العام. في مناخ تلك الآمال الجديدة عادت مجلة "الفجر" لتصدر في بطرسبورغ من جديد في العام 1879م. وكتب م. إ. كوليشير في افتتاحيتها يقول: "كي تكون لسان حال مطالب اليهود الروس ... هذا يتطلب أن تأخذ بالحسبان مصلحة روسيا أيضاً ... وبهذا لا يميز مثقفو فريق من اليهود الروس أنفسهم عن المواطنين الروس". وإلى جانب تطوّر الصحافة اليهوديّة، كان ينبغي بالضرورة أن يتطوّر الأدب اليهودي أيضاً: باللغة العبرية الحديثة أولاً، ثم بالعامية اليهوديّة بعد ذلك، ومن ثمَّ باللغة الروسيّة، مستلهماً نماذج الأدب الروسي. في عهد الإسكندر الثاني "لم يكن عدد الكتَّاب اليهود قليلاً، وقد سعى هؤلاء إلى إقناع أبناء جلدتهم بتعلُم اللغة الروسيّة، والنظر إلى روسيا على أنَّها وطنهم".

في الستينيّات ـ السبعينيّات كان المنوِرون اليهود لا يزالون قلّة تحيط بها الثقافة الروسيّة من كلِّ صوب، ولم يكن بوسعهم أن يتقدموا إلاّ نحو الادِّغام،

"وبالاتجاه الذي أفضى في شروط مماثلة، بالمثقفين اليهود في أوروبا الغربية، إلى الادّغام الأحادي الجانب بالشعب الذي له السيادة"، مع فارق وحيد هو أنّ المستوى الثقافي العام لشعب البلاد الأصلي في بلدان أوروبا، كان دائماً أرقى، أمّا في روسيا فلم يكن الاندماج مع الشعب الروسي الذي لم تكن الثقافة قد مسّته إلاّ قليلاً، ولا مع الطبقة الروسيّة الحاكمة (الموالاة والمعارضة)، إنّما فقط مع حفنة المثقفين الروس الذين كانوا بالمقابل ذوي نزوع زمنيٍ تام، رافضين إلههم رفضاً قاطعاً. وعلى النحو عينه قطع المنوِرون اليهود الآن مع التديُّن اليهوديّ، "ولمّا لم يجدوا صلة أخرى مع شعبهم، أداروا له ظهرهم وابتعدوا عنه وعدُّوا أنفسهم روحيّاً، مواطنين روساً فحسب".

في المجتمعيْن الروسي واليهودي نشأ "تقارب في التعايش اليومي بين جماعات المثقفين الروس واليهود". وهذا ما قاد إليه أيضاً الحراك العام، وعيش فئة ما من اليهود خارج نطاق إقليم استقرارهم، أضف إلى ذلك تطوّر شبكة الخطوط الحديديّة (والسفر إلى خارج البلاد)، "هذا كلّه مهد سبيل التواصل الوثيق بين الجيتو اليهودي، والعالم المحيط". أمّا في أوديسا، فمع حلول حقبة الستينيّات "كان ثلث اليهود يتحدثون اللغة الروسيّة". كما كانت أعداد السكان هناك تتعاظم بسرعة "على حساب انتقال حشود من اليهود الروس والأجانب، لا سيما اليهود الألمان والهاليسيين للعيش في أوديسا". كان الازدهار الذي حققته أوديسا حتى أواسط القرن، بشير ازدهار الحركة اليهوديّة الروسيّة عند تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين. فمنذ أوائل القرن التاسع عشر كانت أوديسا مدينة حُرّة تتطوّر وفق قوانينها الخاصة المستقلة عن قوانين الدولة الروسيّة، ـ أحياناً بورتو ـ فرانكو[1]، وأحياناً مفتوحة أمام السفن التركية، على الرَّغم من أن رحى

(1) (مصطلح إيطالي –porto-franco، معناه منطقة حرة –ميناء حرة) –ميناء، مدينة، أو منطقة ساحلية يُسمح في نطاقها باستيراد البضائع الأجنبية وإعادة تصديرها من غير رسوم جمركية. –ح. إ.

الحرب مع تركيا كانت على أشدها." لقد كانت تجارة الحبوب هي العمل الرئيس ليهود [أوديسا] في تلك المرحلة، كما كان أكثرهم يعملون باعة، ووسطاء (بين الإقطاعيين والمستوردين)، وسماسرة، ووكلاء لشركات كبرى محليّة وأجنبيّة، لا سيما شركات تجارة الحبوب اليونانية ... وعملوا في بورصة الحبوب مخمِّنين، وصيارفة، وأصحاب موازين، وحمالين"؛ "لقد كان اليهود يهيمنون على تجارة الحبوب: في العام 1870م استقر القسم الأكبر من صادرات الحبوب بين أيديهم. وفي العام 1910م كانت قد تركّزت بين أيديهم 89%2. من الصادرات". "وبالمقارنة مع مدن إقليم الاستيطان الأخرى، كانت أعداد اليهود في أوديسا أكثر: أشخاص يمارسون الأعمال الحرة ... نشأت بينهم وبين مثقفي المجتمع الروسي علاقات طيبة، وأخذتهم إدارة المدينة تحت حمايتها ... لكنّ رئيس دائرة التعليم الأُوديسية في الأعوام 18581856 - م ن. بيروغوف، كان أكثر من وفّر الحماية لليهود". وكان أحد المعاصرين قد وصف هذا التخالط الأُوديسي، حيث كان التنافس على أشده بين التجار اليهود واليونانيين، "ففي سنوات المواسم الوفيرة كان نصف المدينة يعيش على بيع منتجات الحبوب، بدءاً من الصفقات الكبيرة وانتهاء بسقط المتاع"، - في ذلك الهرج والمرج كانت اللغة الروسيّة هي حلقة الوصل " التي كان من غير الممكن من دونها مدُّ خطٍ يحدّد أين ينتهي في أوديسا تاجر الحنطة، أو المصرفي، وأين يبدأ الذي يمتهن مهنة ثقافية".

وهكذا "تعاظم في الأوساط اليهوديّة المتنوِرة النزوع نحو محاكاة كلِّ ما هو روسي". "لقد غدت الثقافة الأوروبيّة، ومعرفة اللغة الروسيّة ضرورتين ملحّتين لا غنى عنهما"، "فاندفعوا جميعهم لتعلم اللغة الروسيّة، والأدب الروسي؛ وكانوا كلّهم يفكرون بالبحث عن أسرع وسيلة للانخراط في الوسط المحيط، والاندماج فيه فحسب"، ولم يقتصر سعيهم على تعلم اللغة الروسيّة وحدها، بل دعوا إلى "الروْسنة التامة، إلى التماهي مع الروح الروسيّة، وإلى ألاّ يختلف اليهود عن غيرهم من المواطنين الآخرين إلاّ بالدين. وقد نقل معاصر تلك الحقبة،

م. غ. مورغوليس ذلك على النحو الآتي: باتوا كلُّهم يرون في أنفسهم مواطنين في الوطن الذي يعيشون فيه، ونال كلٌّ منهم وطناً جديداً. ورأى ممثلو المثقفين اليهود أنَّهم ملزمون بأن يتخلوا عن سماتهم القومية من أجل غايات الدولة، ويدَّغموا في الأُمَّة السائدة على الدولة المعنية. في هذا السياق كتب أحد اليهود من دعاة التقدم في تلك الآونة يقول: إنَّ اليهود لا وجود لهم كأُمَّة، وإنَّهم يرون في أنفسهم روساً موسويين ... واليهود يدركون أنَّ خلاصهم يكمن في الادِّغام بالشعب الروسي".

وربما يجدر بنا أن نذكر هنا الطبيب والكاتب الاجتماعي بنيامين بورتوغالوف. ففي شبابه كانت له ميول ثورية، بل سُجن في قلعة بطرس وبولس، ومنذ العام 1871م استقر في سامارا. وكان له "دور رائد في تطوير الطب والرعاية الصحية في البلاد ... وهو واحد من رواد معالجة الإدمان ومحاربته في روسيا"، نظَّم مطالعات شعبية. "منذ أن كان شاباً تشرَّب رؤى الشعبيين عن الدور المدمِّر الذي يؤديه اليهود في الحياة الاقتصاديّة للفلاحين الروس. وقد قامت هذه الرؤى في أساس عقائد الحركة اليهوديّة - المسيحية في العام 1880م". (هي أخوية روحية -توراتية). ورأى بورتوغالوف أنَّه من الضروري تحرير الواقع اليهوديّ من سيطرة الشعائر والطقوس وأنَّ "اليهودية لا يمكن أن تعيش، وتطوِّر ثقافة وحضارة إلاَّ إذا ذابت في شعوب أوروبا" (والمقصود هنا هو الشعب الروسيّ).

كما يمكننا أن نشير في الوقت نفسه، إلى تناقص أعداد المعموديات في عهد الإسكندر الثاني، فلم يعد لها لزوم بعد "حقبة الكانتونيين"، وزيادة حقوق اليهود. منذ تلك السنين باتت طائفة "المتهوِّدين" تمارس طقوسها الدينيّة علانيّة.

في ذلك الوقت كان موقف أثرياء اليهود هذا تجاه روسيا التي رأوا فيها وطناً وحيداً لهم، لا سيما موقف اليهود خارج نطاق إقليم الاستيطان، ومثله موقف اليهود الذين تلقوا تعليماً روسياً، كان موقفاً جديراً بالاهتمام. "فالإصلاحات الكبرى جعلت اليهود الواعين كلهم من غير استثناء، وطنيين روساً، وملكيين

اتسم موقفهم من الإسكندر الثاني بما يشبه العبادة. كما اتخذ الحاكم العام في الإقليم الشمالي الغربي م. ن. مورافيوف الذي اشتُهر بصرامته الشديدة تجاه البولونيين الذين انتفضوا في العام 1863م، اتخذ موقف الحامي لليهود، واتبع سياسة عاقلة كان هدفها جذب أكبر عدد ممكن من يهود الإقليم الغربي نحو مبادئ الدولة الروسيّة". ومع أنَّ يهود بولونيا شاركوا مشاركة فعالة إلى جانب البولونيين في انتفاضة العام 1863م، إلاّ أنَّ يهود فيلنوس، ويهود مقاطعتي كونفينسك وغرودينسك "أوحت لهم فطرتهم الشعبية ... أنّه ينبغي الوقوف إلى جانب روسيا، بصفتها الجانب الذي يمكنهم أن ينتظروا منه عدالة أكثر، وموقفاً إنسانياً أرقى من ذلك الذي عند البولونيين الذين على الرَّغم من أنَّهم أخذوا يتسامحون مع اليهود منذ زمن بعيد، إلاّ أنَّهم كانوا دائماً ينظرون إليهم نظرة دونيّة". (وقد شرح يا. تيبتل هذا الموقف على النحو الآتي: "كان يهود بولونيا يقفون دائماً على مسافة من يهود روسيا"، وينظرون إليهم "كبولونيين غيورين". وكان البولونيون أنفسهم قد أفصحوا له بودٍّ عن اليهود الروس في بولونيا فقالوا: "إنَّ أفضل اليهود أعداء لنا. واليهود الروس الذين أغرقوا وارسو ولودز وغيرهما من المدن البولونية الكبرى، هم ناقلو الثقافة الروسيّة التي لا نكنُّ لها أيَّ ودٍّ").

في تلك الآونة كان تروْسن اليهود الروس "محبَّذاً جداً" بالنسبة للحكومة الروسيّة أيضاً. لقد كانت السلطات الروسيّة ترى في "التواصل مع الشباب الوسيلة المضمونة لإعادة تربية الشباب اليهودي، وتطهيره من العداء للمسيحيّة". وعلى أيِّ حال كانت لهذه الروح الوطنيّة الوليدة لدى اليهود نحو روسيا، حدود واضحة ودقيقة. فالمحامي والكاتب الاجتماعي إ. غ. أورشانسكي تحفّظ على ذلك مؤكداً على أنَّ تسريع العملية يتطلّب "بالضرورة وضع اليهود في موقع يمكن لهم أن يعوا فيه أنَّهم مواطنون أحرار في بلاد حرة متحضِّرة". وكان ليف ليفاندا "العالِم اليهودي" العامل لدى حاكم فيلنوس قد كتب عندئذٍ يقول: "لن أكون [وطنياً روسياً] إلاّ بعد أن تلقى المسألة اليهوديّة حلاً نهائياً ومُرضياً".

فأجابه المؤلِّف اليهودي المعاصر الذي اجتاز تجربة القرن العشرين المريرة، وهاجر إلى إسرائيل: "لم ينتبه ليفاندا إلى أنَّ أحداً لا يضع شروطاً على الوطن الأم؛ بل يحبُّه من غير تحفظات، من غير مواصفات وشروط مسبقة، يحبُّه لأنَّه أُمٌّ فحسب. هذه الخطة، خطة الحبِ غير المشروط، التزم بها المثقفون اليهود الروس، ما خلا استثناءات نادرة، على مدى مئة عام، متبعين في الأحوال الأخرى كلِّها رؤسنة خالصة لا تشوبها شائبة".

ومع ذلك لم ينخرط في "المواطنة الروسيّة إبَّان الحقبة التي نحن بصددها، سوى جماعات ضئيلة من المجتمع اليهودي، حتى في هذه الحالة اقتصر الأمر على المراكز التجارية - الصناعية الكبرى ... فنشأ على هذا النحو تصوُّر مبالغ فيه عن المسيرة الظافرة للغة الروسيّة إلى عمق الحياة اليهوديّة". لكنَّ "الجمهور الواسع بقي بعيداً عن النزعات الجديدة ... ولم يكن منعزلاً عن المجتمع الروسيّ فقط، إنَّما عن المثقفين اليهود أيضاً". ففي الستينيّات والسبعينيّات كانت الجماهير الشعبية اليهوديّة مازالت خارج بوتقة الانصهار، وكان يهدِّدها خطر انعزال المثقفين اليهود عنها" (في ألمانيا لم تكن هذه الظاهرة حاضرة لدى اندماج اليهود في المجتمع الألماني، لأنَّه لم يكن هناك جماهير شعبية يهودية: كان كلُّهم يتبوأ مكانة عالية على درجات السُلَم الاجتماعي ولم يعيشوا في مثل ذلك الزحام التاريخي). حتى في داخل أوساط المثقفين اليهود أنفسهم، ارتفعت في الستينات أصوات دقت ناقوس الخطر من تحوُّل المثقفين اليهود إلى مجرَّد وطنيين روس. وكان بيريس سمولينسكين أول من نبَّه في العام 1868م إلى أنَّ الادِّغام في الإهاب الروسيّ، يحمل "طابع الخطر الشعبيّ" بالنسبة لليهود؛ وعلى الرَّغم من أنَّه ينبغي ألاَّ نخشى من التنوُّر، بيد أنَّه يجب ألاَّ نقطع مع ماضينا التاريخيّ؛ ونحن إذْ ننخرط في الثقافة العامّة، علينا أن نعرف كيف نحافظ على موروثنا الروحيّ، وكياننا القوميّ، "فاليهود ليسوا طائفة دينية، بل أُمة". وإذا ابتعد المثقفون اليهود عن شعبهم، لن ينقذه أحد من الاضطهاد الإداري، والذهول الروحي (وقد صاغ

الشاعر إ. غوردون الأمر على النحو الآتي: "كن إنساناً في الشارع ويهودياً في بيتك").

فسارت في هذا الاتجاه مجلتا بطرسبورغ "الفجر" (1879 -1882م)، و"اليهودي الروسي"، اللتان حرَّضتا الشباب اليهوديّ على دراسة ماضي اليهود وحياتهم الراهنة. وفي أواخر السبعينيّات وأوائل الثمانينيّات، نشأ حدٌّ فاصل بين الاتجاه الكوسموبوليتي، والاتجاه القومي في اليهوديّة الروسيّة. "من حيث الجوهر، لم يعد قادة مجلة الفجر يؤمنون بصوابية الاندماج ... ومن غير وعي منها سارت ''الفجر'' على طريق إيقاظ الوعي القومي ... ونحت منحى قومياً جلياً ... دلَّ على تبدّد وهم الروْسنة".

وهذا ما حرَّض عليه أيضاً السياق التاريخي العام في أوروبا النصف الثاني من القرن التاسع عشر الانتفاضة البولونية العارمة، توحيد إيطاليا، ثم ألمانيا، فالسلاف البلقانيين بقوة السلاح. في كلِّ مكان كانت الفكرة القوميّة تتوهَّج وتنتصر. كان واضحاً أنَّ هذا الاتجاه سيترسخ في أوساط الإينتيليجينتسيا اليهوديّة، حتى لو لم تقع أحداث العامين 1881 -1882م. ففي أثناء ذلك كان قد تغيَّر خلال حقبة السبعينايّت نفسها موقف المجتمع الروسي من اليهود في ذروة أُوار إصلاحات الإسكندر، لكنْ نحو الأفضل. ومن الجدير أن نشير إلى أنَّ منشورات برافمان كان لها دور فاعل في إيقاظ المجتمع الروسي الذي أخذها على محمل الجد.

الاتحاد اليهوديّ العالميّ

ثمَّ اتفق أيضاً أن تأسس في العام 1860م في باريس، الاتحاد اليهودي العالمي (Alliance Israélite Universelle) بلجنته المركزية (سرعان ما شغل أدولف كريميه منصب الرئيس فيها)، وأعلن الاتحاد أنَّ "هدفه هو حماية مصالح اليهوديّة" في العالم كله. "ولمّا كانت المعطيات المتوفِرة لدى الاتحاد اليهودي العالمي عن يهود روسيا ضعيفة، أخذ يولي اليهوديّة الروسيّة اهتماماً متزايداً، وسرعان ما شرع يعمل بدأب لتحقيق مصالح اليهود الروس". لكنَّ الاتحاد لم تكن له فروع في روسيا، "ولم يعمل على أراضيها". ما عدا الأعمال الخيريّة والتنويرية، تواصل الاتحاد غير مرة مع الحكومة الروسيّة مباشرة ليدافع عن اليهود الروس، لكنَّه لم يكن محقاً في أكثر الأحيان (كما حصل في العام 1866م مثلاً، حين تدخَّل كي لا يُعدم إتسكا بارداي المتهم بإشعال حريق عمداً بدوافع سياسية، بينما لم يكن الرجل محكوماً بالإعدام أصلاً، أمَّا اليهود الآخرون المتورّطون في الواقعة فقد بُرِئت ساحتهم من غير أيِّ وساطات؛ ومرّة أخرى احتجَّ كريميه على ترحيل اليهود إلى القوقاز وآمور، بينما لم تكن لدى الحكومة الروسيّة مثل هذه النيّة البتّة؛ وفي العام 1869م احتجَّ الاتحاد على ملاحقة اليهود في بطرسبورغ، ثمَّ تبيَّن بعد ذلك أنَّ هذا غير صحيح؛ كما شكى لرئيس الولايات المتحدة على ما زعمه من اضطهاد يطال العقيدة اليهوديّة نفسها من قبل الحكومة الروسيّة). في غضون ذلك كان الاتحاد (وشعاره ألواح موسى تخيِّم على الكرة الأرضية)، بحسب ما نقله السفير الروسي في باريس، قد غدا "ذا نفوذ مهوّل على المجتمع اليهوديّ في الدول كلها". وكان من الطبيعي أن تأخذ

الحكومة الروسيّة والمجتمع الروسيّ حذرهما بناء على تلك المعطيات. كما شنَّ برافمان هجوماً عنيفاً ومتواصلاً ضد الاتحاد اليهودي العالمي، فأكّد على أنَّ هذا الاتحاد "مثله كمثل الجمعيات اليهوديّة الأخرى، ذو وجهين (وثائقه الرسمية تقول للحكومات شيئاً، ووثائقه السرية تقول شيئاً مغايراً)"، وأنَّ هدفه الرئيس هو "تحصين اليهوديّة ضدَّ تأثير الحضارة المسيحيّة الذي يشكّل خطراً على وجودها نفسه" (رداً على ذلك اتهموا "جمعية نشر المعارف بين يهود روسيا" التي كانت قد تأسست في العام 1863م، بأنَّها تهدف إلى "تحقيق التضامن العالمي بين اليهود، وترسيخه في إطار التقوقع على الذات".

يبدو أنَّ مؤسسي الاتحاد أنفسهم كانوا يخشون عليه من الانحراف، وهو ما تجلى واضحاً في ندائهم الأول: "إلى يهود البلدان كلها". فقد جاء النداء مليئاً بالانفعالات العاطفيّة. وعن ضرورة تكاتف اليهود قال النداء: "أيُّها اليهود! إذا كنتم تؤمنون بأنَّ الاتحاد لكم، وأنَّكم تشكّلون جزءاً من شتى الشعوب، ومع ذلك يمكن أن تكون لكم مشاعر، وأمان، وآمال مشتركة ... وإذا كنتم تظنون أنَّ قواكم المشتّتة، ونواياكم الطيّبة، ومساعي بعض الأفراد منكم، يمكن أن تشكّل قوة كبرى، فتوحّدوا إذن في كلّ واحد، وتقدّموا باتجاه واحد نحو غاية واحدة ... ساندونا بتعاطفكم ودعمكم". ثم ظهرت بعد ذلك وثيقة فرعيّة طُبعت في فرنسا وحملت عنواناً هو "إلى يهود الكرة الأرضية". وقد زعموا أنَّ الوثيقة هي نداء أدولف كريميه نفسه. لكنْ من الجائز جداً ألاّ تكون هذه سوى وثيقة مزيّفة. ونحن لا نستبعد أن تكون الوثيقة إحدى مسودات النداء الأول التي لم يعتمدها منظمو الاتحاد (لكنّها جرت مجرى اتهامات برافمان بأنَّ للاتحاد أغراضاً خفيّة): "نحن نعيش في أراض غريبة، نحن لا نستطيع أن نهتمَّ بالمصالح المتغيّرة لهذه البلدان ما دامت مصالحنا الأخلاقيّة والماديّة في خطر ... التعاليم اليهوديّة يجب أن تملأ العالم كله ..." فاشتعلت في الإعلام الروسيّ معركة حامية الوطيس خلص إ. س. أكساكوف في خاتمتها إلى القول في

جريدته "روس": إنَّ "مسألة زيف النداء لا تحمل في الوقت الراهن أهميّة خاصّة، لأنَّ الرؤى والأماني اليهوديّة التي عبَّر عنها صحيحة".

وكتبت الموسوعة اليهوديّة القديمة تقول: منذ السبعينيّات "أخذت تخفت في الاعلام الروسي الأصوات المدافعة عن اليهود ... وأخذت تترسَّخ في المجتمع الروسي فكرة تزعم أنَّ يهود بلدان العالم كلّهم توحّدوا في تنظيم سياسي قوي مركز توجيهه في Alliance Israélite Universelle ". وعلى هذا النحو يكون إنشاء الاتحاد قد أحدث في روسيا، وربما ليس في روسيا وحدها، ردود أفعال معاكسة للغاية التي تأسس من أجلها. ولو استطاع مؤسسو الاتحاد أن يتوقعوا كم سيترتَّب على إنشائه من إدانات، بل واتهامات للتضامن اليهودي العالمي بالتآمر، ربما كانوا قد تخلوا عن الفكرة، لا سيما أنَّ الاتحاد لم يغيّر اتجاه سير حركة التاريخ الأوروبي. فبعد العام 1874م.، عندما صدر في روسيا نظام الخدمة العسكرية الجديد الذي فُرضت بموجبه الخدمة العسكرية العامة على المواطنين كلهم من غير تمييز، "أخذت الكراهية ضدَّ اليهود تتأجج في المجتمع عبر كثرة من المقالات الصحفيّة التي سلّطت الضوء على تهرُّب اليهود من تأدية الخدمة العسكريّة ". كما اتهموا الاتحاد اليهودي العالمي أيضاً بأنّه يعتزم "أن يأخذ على عاتقه الاهتمام بمستقبل الشباب اليهود الذين يغادرون روسيا بسبب إعداد قانون جديد للخدمة العسكرية. واعتماداً على الدعم الذي يتلقونه من الخارج، ستكون أمام اليهود فرصة أكبر مما لدى الرعايا الآخرين لمغادرة روسيا". (بعد مئة عام، أي في سبعينيّات القرن العشرين طُرحت هذه المسألة بحدة مرَّة أخرى ...). فأجاب كريميه: إنَّ مهمة الاتحاد هي "مواجهة الاضطهاد الديني"، وإنَّ الاتحاد أقرَّ "عدم تقديم العون مستقبلاً لأيِّ يهودي يتهرَّب من تأدية الخدمة العسكرية" في روسيا، وفضلاً عن ذلك وجَّهنا "نداءً إلى أبناء ديننا في روسيا ندعوهم إلى الالتزام الصارم بكلّ مقتضيات القانون الجديد".

عدا عن مغادرة البلاد إلى الخارج لجأ اليهود إلى طريقة أخرى للتهرُّب من الخدمة العسكرية: تشويه أجسادهم. فقد روى الجنرال دينيكين المعروف بليبراليته (قبل الثورة، بل وفي أثناء الثورة أيضاً)، عن مئات من مثل هذه الواقعات المريرة التي شاهدها بأُمِ عينه. كان الرجل يشهد لسنوات عمل لجان الفحص الطبي للمكلّفين اليهود في مقاطعة فولينسك – الحقيقة أنَّ ذلك كان في أوائل القرن العشرين، ما يجعل شهادته مثيرة للدهشة من كلِّ أولئك القانطين الذي شوَّهوا أجسادهم بأنفسهم. وكما ذكرنا قبل حين: إنَّ نظام الخدمة العسكرية الذي صدر في العام 1874م.، وما ترتَّب عنه من امتيازات للمتعلِّمين، دفع بطوفان من اليهود إلى الانتساب إلى مؤسسات التعليم العام المتوسط والعالي. والحقيقة أنَّ تلك القفزة كانت قفزة ملحوظة تماماً. بل يمكن أن تبدو الآن أيضاً قفزة كبيرة جداً. من الإقليم الشمالي الغربي كانت قد انطلقت من قبل "دعوة للحدِّ من قبول اليهود في المؤسسات التعليميّة العامّة". وفي العام 1875م أبلغت وزارة المعارف الحكومة "بعدم قدرتها على استقبال كلِّ اليهود الراغبين بالانتساب إلى مؤسسات التعليم العامة، إلاّ على حساب تقليص أعداد المسيحيين". ونضيف هنا شهادة غ. أرونسون التي يعاتب فيها مينديلييف في جامعة بطرسبورغ على "مواقفه المعادية للساميّة". وقد رأت الموسوعة اليهوديّة في هذا كلّه: "منعطفاً حدث عند أواخر السبعينيّات، في مزاج فريق من المثقفين الروس ... كان قد ارتدَّ عن قيم العقد السابق ومُثُله، خاصّة تجاه ... المسألة اليهوديّة".

ومع ذلك، كانت السمة البارزة التي ميزت العصر، هي الموقف الحذر (لكنَّه لم يكن معادياً بأيِّ حال من الأحوال)، الذي أبداه الإعلام نحو مشروع منح اليهود حقّ المساواة الكاملة، ونحن نقصد هنا الإعلام اليميني، لا الدوائر الحكوميّة. فقد كان يمكن أن تقرأ في وسائل النشر آراء مثل: "كيف يمكن منح حقوق المواطنة كلّها لهذا ... الجنس المتزمت العنيد، والسماح له بالوصول إلى المناصب الإداريّة العليا؟! إنَّ التعليم ... والتقدّم الاجتماعي وحدهما القادرين بحق

أن يقرِبا بين اليهود والمسيحيّين ... أدخلوهم إلى عائلة الحضارة المشتركة، ونحن أوّل من سيقول لهم كلمة محبّة وتسامح". "فالحضارة على وجه العموم هي الرابحة من مثل هذا التقارب الذي يعدها بمساندة جنس ذكيٍ نشط قويِّ العزيمة ... واليهود ... سيصلون إلى قناعة" بأنّه قد آن أوان التخلّص من عبوديّة التعصب التي قادتهم إليها تأويلات التلموديين الصّارمة". أو: "إلى أن يرسِّخ التعليم في ذهن اليهود ضرورة التخلي عن فكرة العيش على حساب المجتمع الروسيّ وحده، ويغرس فيهم فكرة العمل لمصلحة هذا المجتمع أيضاً، إلى ذلك الحين لا يمكن مجرَّد الحديث عن أيِّ مساواة تتجاوز حدود المساواة القائمة الآن". أو: "حتى إذا كان من الممكن أن يُمنح اليهود حقوق المواطنيّة، ففي الأحوال كلّها ينبغي ألاّ يمكّنوا من المناصب التي تكون لهم فيها الكلمة الفصل في تقرير مجرى حياة المسيحيين، وألاّ يكون لهم أيُّ تأثير على إدارة بلاد مسيحية وتشريعاتها".

كما يمكن أن نرصد نبض الإعلام الروسي في ذلك الوقت عبر ما كانت تنشره مجلة "غولوس" البطرسبورغية: "لا يحقّ لليهود الروس أن يشتكوا من أنَّ وسائل الإعلام الروسيّة لا تقف موقفاً ملائماً تجاه مصالحهم. ففي أكثر أجهزة هذه الوسائل يظهر توجُه واضح يدعو إلى مساواة اليهود في حقوق المواطنيّة العامّة"؛ ومن المفهوم أن يسعى اليهود لزيادة حقوقهم، ومساواتهم مع المواطنين الروس الآخرين"؛ لكنْ ... "ثمة قوى ظلامية تدفع بالشباب اليهوديّ نحو ميدان الجنون السياسيّ! فلماذا لا تكاد تكون هناك عمليّة سياسيّة إلاّ ويظهر اليهود فيها في أدوار رائدة؟ ... إنَّ ظاهرة كظاهرة تهرُّب اليهود من غير استثناء، من تأدية الخدمة العسكريّة، ومشاركة اليهود واليهوديّات في كلّ عمليّة سياسيّة، هذا كلّه، لا يمكن أن يكون لصالح المطالبة بزيادة حقوق اليهود"؛ "فإذا كنت تريد أن تحصل على الحقوق، عليك إذن أن تُظهر أولاً أنّك قادر على تأدية الواجبات التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتلك الحقوق"، "وعلى السكان اليهود ألاّ يتفرّدوا في موقفهم من مصالح الدولة، والمصالح الاجتماعيّة، فيجدوا أنفسهم في

الظل القاتم". ثمَّ تشير الموسوعة إلى أنَّه "على الرَّغم من هذه الدعاية إلاَّ أنَّ الأوساط البيروقراطيّة بقيت على قناعتها بأنَّ حلَّ المسألة اليهوديّة ليس ممكناً إلاَّ عبر تحرير اليهود: منذ آذار 1880م كان أكثر أعضاء ''لجنة تنظيم شؤون اليهود'' قد أصبح يميل نحو فكرة مساواة اليهود في الحقوق مع باقي سكان البلاد". فبيروقراطيا عهد الإسكندر التي عايشت إصلاحاته، ونشأت وتربَّتْ في أجوائها طول عقدين من الزمن، كانت مفتونة بالانتصارات التي حقّقتها الإصلاحات المذكورة، ونحن كنَّا قد اطلعنا في تقارير الحكام العامين لمنطقة الاستقرار اليهوديّ، على مقترحات راديكالية حملت مواقف تعبِّر عن حسن نيّة تجاه اليهود.

ولن نغفل الإشارة إلى الخطوات الفاعلة الجديدة التي اتخذها السير موزيس مونتيفيوريه الذي جاء إلى روسيا مرة أخرى في العام 1872م؛ ولا إلى الضغوط التي مارسها بنيامين دزرائيلي، بل بيسمارك أيضاً، على غورتشاكوف في مؤتمر برلين عام 1878م. ولمّا وجد هذا نفسه محرجاً أعلن أنَّ روسيا لم تكن يوماً ضدَّ الحريّة الدينيّة، وأنَّها تمنحها كاملة، لكنْ "ينبغي عدم الخلط بين الحريّة الدينيّة ومنح اليهود حقوق المواطنة".

بيد أنَّ الوضع في روسيا كان يمضي نحو منح هذه الحقوق بالذات. فمنذ العام 1880م.، حلّت أيضاً "دكتاتورية قلب" لوريس - ميليكوف، وباتت آمال اليهوديّة الروسيّة بحتميّة نيل حقّ المساواة عظيمة، تستند إلى أسس، وأنَّها أضحت قاب قوسين أو أدنى من أن تتحقق. في تلك اللحظة بالذات اغتال حزب الإرادة الشعبية الإسكندر الثاني، الذي كان قد تخطى حدود كثير من العمليات الليبيرالية في روسيا، بما في ذلك الدفع نحو منح اليهود حقّ المساواة الكاملة. وقد أشار سليوزبيرغ في هذا السياق إلى أنَّهم قتلوا القيصر عشية البوريم. وبعد عدد من المحاولات الفاشلة لاغتيال الإسكندر الثاني، لم يستغرب اليهود ما حدث، لكنَّهم قلقوا على مستقبلهم.

الفصل الخامس

بعد مقتل الإسكندر الثاني

لقد أحدث مقتل القيصر - المحرِّر هزَّة عميقة في الوجدان الشعبيّ، وهذا ما عوَّل عليه حزب الإرادة الشعبية، وأغفله المؤرخون عقوداً، بعضهم عن سابق قصد وبعضهم الآخر عن جهل. فبقي في طي الكتمان أنَّ من خلَفه، وكذلك قياصرة القرن السابق: ألكسي بيتروفيتش، وإيفان أنتونوفيتش، وبطرس الثالث، وبافل، لم يموتوا حتف أُنوفهم، بل ماتوا قتلاً أيضاً. لقد أثارت جريمة الأول من آذار للعام 1881م بلبلة عامّة في عقول الناس. فبالنسبة إلى الجمهور العاديّ، لا سيما جماهير الفلاحين، بدا كأنَّ أسس الحياة نفسها قد تخلخلت. ومرة أخرى وقع ما كان يعوِل عليه حزب الإرادة الشعبية: حدوث انفجار ما. وقد حدث فعلاً: أُقيمت في اليهود مجازر لا مثيل لها في نوفوروسيا وأوكراينا.

موجة العنف التي خلّفها اغتيال الإسكندر

بعد ستة أسابيع من مقتل القيصر، تحوّل تدمير حوانيت اليهود ومؤسساتهم ومنازلهم "على حين غرة إلى وباء اجتاح أرجاء واسعة". "فعلاً ... ظهرت سمات لها طابع الجائحة ... فالسكان المحليون الذين كانوا يريدون لأسباب مختلفة أن ينكلوا باليهود، علّقوا دعوات، ونظّموا قوات التدمير الأساسية التي سرعان ما التحق بها مئات من المتطوعين الذين أغرتهم حالة الاستهتار والعربدة والنهب والكسب السهل. وكان في ذلك كلّه شيء من العفوية. لكنْ ... حتى الحشود التي أهاجتها المشروبات الروحيّة لم توجّه ضرباتها في أثناء عمليات النهب والعنف إلاّ باتجاه واحد، باتجاه اليهود، وسرعان ما كان الانفلات والعربدة يتوقفان عند أبواب منازل المسيحيين".

في 15 من نيسان وقعت المجزرة الأولى في يليزافيتغراد. "تزايدت الفوضى حينما وصل الفلاحون من الضواحي لينهبوا أرزاق اليهود". في بادئ الأمر لم تتحرك القوات بفاعلية، لكنْ سرعان ما زُج بقوات كبيرة من سلاح الفرسان، فوضعت حداً للدمار والتخريب". "لقد وضع وصول قوات جديدة حداً للتدمير". "لم تحدث في هذا التخريب حالات اغتصاب وقتل". وبحسب معطيات أخرى: "أنَّ يهودياً واحداً قُتل. وفي 17 من نيسان أخمد الجيش عمليات الفوضى بإطلاق النار على حشود التخريب". بيد أنَّ "الحركة انتقلت من يليزافيتغراد إلى القرى المجاورة؛ وفي أكثر الحالات اقتصرت أعمال الشغب على تدمير الخمارات والمواخير". وبعد أسبوع وقعت أعمال التخريب والنهب في قضاء أنانييف في مقاطعة أوديسا، ثمَّ في أنانييف نفسها، "حيث أثار الحركة واحد من المشان أشاع شائعة

زعم فيها أنَّ اليهود هم الذين قتلوا القيصر، وأنَّ أمراً قد صدر بقتل اليهود لكنَّ السلطات تخفي ذلك". وفي 23 نيسان اشتعلت أعمال الشغب في كييف فأخمدتها القوات العسكرية. لكنَّ موجة جديدة من أعمال العنف اندلعت في كييف في 26 نيسان، ثم في اليوم التالي، وامتدت بعد ذلك إلى الضواحي، وكانت تلك هي الموجة الأقوى بين كل ما سبقها؛ "لكنَّها كلها انقضت من غير ضحايا بشرية". (بيد أنَّ الموسوعة تؤكد أنَّ "عدداً من اليهود قتلوا).

بعد كييف اجتاحت أحداث الشغب خمسين قرية أخرى من قرى مقاطعة كييف، وفي أثناء ذلك "تعرضت أرزاق اليهود للنهب، كما حدثت في حالات معيَّنة أعمال قتل". في نهاية نيسان وقعت أعمال الدمار في كونوتوب، "كان العمال والفنيون العاملون في الخطوط الحديدية هم القوة الضاربة الرئيسة فيها، وقد قُتل فيها شخص واحد؛ لكنَّ أحداث كونوتوب عرفت حالات مقاومة من جانب اليهود". كما ترددت أصداء أحداث كييف في جميرينك، "وعدد من مستوطنات مقاطعة تشورنيغوف"، وفي أوائل أيار، في محلة سميلا، "لكنَّ القوات التي وصلت في اليوم التالي وضعت حداً للتخريب والنهب هناك" ("نهبوا مخزناً لبيع الألبسة الجاهزة"). في شهر أيار، بل في أوائل الصيف أيضاً، ترددت أصداء أعمال السلب والنهب والتدمير في بعض أنحاء مقاطعتي يكاترينوسلاف وبولتافا (في ألكساندروفسك، وورومني، ونيجي، وبيريياسلافل، وبوريسوف). "كما وقعت بعض القلاقل البسيطة في بعض أنحاء قضاء ميليتوبولسك. وفي بعض الأحيان كان الفلاحون يعوِضون اليهود ما خسروه فوراً". "في كيشينيوف أُخمدت في مهدها الحركة التي كانت قد ظهرت في 20 من نيسان". أمَّا بيلوروسيا فلم تقع فيها أيُّ أحداث من هذا النوع لا في ذلك العام ولا في الأعوام التالية، على الرَّغم من حالة الهلع التي اجتاحت الأوساط اليهوديّة على خلفيّة شائعات عن وقوع أعمال نهب وسلب وتدمير في الإقليم الجنوبي الغربي، لم تكن متوقَّعة البتة.

ثم في أوديسا أيضاً. في أوديسا بالذات كانت أعمال العنف قد اندلعت ضدّ اليهود: في الأعوام 1821 و1859 و1871. "لكنّ تلك الأحداث كانت أحداثاً عرضيّة طارئة نتجت عن بغض السكان المحليين الإغريق لليهود"، على خلفية التنافس التجاري. ففي العام 1871م أسفرت أعمال العنف التي تواصلت لثلاثة أيام، عن تدمير مئات الخمارات والحوانيت والمنازل اليهوديّة، لكنّها لم تسفر عن سقوط ضحايا بشرية.

وقد كتب إ.غ. أورشانسكي عن تلك الأحداث بإسهاب فقال: لقد دُمّرت أملاك اليهود تدميراً: أكوام من الساعات الذهبية، لم يسرقوها بل أخرجوها ووضعوها على قنطرة الجسر وسحنوها. ويؤكد أنّ عداء التجّار الإغريق لليهود كان "عصب" أعمال العنف التي وقعت، لا سيما أنّ التجّار اليهود انتزعوا من الإغريق في أعقاب حرب القرم تجارة البقوليات وبضائع المستعمرات. لكنّ السخط على اليهود كان "عامّاً لدى سكان أوديسا المسيحيين أيضاً ... بيد أنّ هذه العداوة تجلّت لدى الطبقة المثقّفة والثرية بوعي وعمق أكبر مما لدى الفئات الشعبيّة". لكنّ أوديسا كانت تتعايش فيها أقوام مختلفة، "فلماذا كان اليهود وحدهم يثيرون بغض الآخرين نحوهم؟" لقد علّل أحد المعلمين هذه الحالة لتلاميذه على النحو الآتي: "إنّ اليهود وضعوا أنفسهم في علاقات اقتصاديّة مناوئة لمصالح باقي السكان". فيعترض أورشانسكي قائلاً: إنّ مثل هذا التفسير يُسقط "عبء المسؤولية الأخلاقيّة". ويرى أنّ السبب يكمن أيضاً في التأثير السيكولوجيّ للتشريع الروسي الذي يضع على اليهود وحدهم قيوداً قانونيّة. ويرى الناس في محاولات اليهود للتخلص من تلك القيود، "وقاحة، وجشعاً، واغتصاباً".

ففي العام 1881م كانت الإدارة في أوديسا قد اكتسبت خبرة لم تكن لدى الإدارات المحلية الأخرى، لذلك سرعان ما أخمدت أعمال العنف التي اشتعلت عدة مرات، "وسيقت حشود المخربين إلى سفن أُبعدت عن الشاطئ"، كانت تلك الطريقة طريقة مبتكرة حقاً (خلافاً للموسوعة اليهوديّة قبل الثورة، كتبت

الموسوعة اليهوديّة المعاصرة تقول: إنَّ أعمال التخريب هذه تواصلت في أوديسا ثلاثة أيام. وتقرُّ موسوعة قبل الثورة بأنَّ "الحكومة رأت من الضروري إخماد محاولات العنف ضدَّ اليهود بحزم، وهكذا كان، فقد نجح وزير الداخلية الجديد الكونت ن. ب. إيغناتيف الذي حلَّ محلَّ لوريس - ميليكوف منذ أيار من العام 1881م.، في تهدئة المخربين، مع أن وضع حدٍ لأعمال التخريب، التي اشتعلت "بقوة الوباء"، على حين غرّة، لم يكن بالأمر السهل، لا سيما أنَّ عدد رجال الشرطة الروسيّة كان لا يزال محدوداً جداً في ذلك الحين (لم يكن ثمة وجه مقارنة بينه وبين أعداد رجال الشرطة في أوروبا الغربية، فما بالك بكادر رجال الشرطة السوفييتي)، كما كانت مرابطة القوات العسكرية في تلك الأصقاع أمراً نادر الحصول. "لحماية اليهود من أعمال التخريب استُخدمت الأسلحة النارية". وأُطلقت النار على الحشود الهائجة، فسقط قتلى وجرحى. في بوريسوف على سبيل المثال، "أطلق الجنود النار فقتلوا عدداً من الفلاحين". وفي نيجني أيضاً "أوقفت قوات الجيش أعمال التخريب والسلب والنهب، بعد أن أطلقت الرصاص على حشود الفلاحين الهائجة؛ فقتل وجرح عدد من الناس". في كييف قُتل 1400 شخص. ومن الواضح أنَّ هذا كله يرسم لوحة مؤثرة جداً. بيد أنَّ الحكومة أقرَّت بضعف فاعلية إجراءاتها. فقد جاء في إعلان رسمي: إنَّ "التدابير التي اتُخذت لردع الحشود في أثناء أحداث كييف لم تُتخذ في الوقت المناسب، ولم تكن بالفاعلية المطلوبة". وفي تموز من العام 1881م قال رئيس إدارة الشرطة ف. ك. بليفي في تقريره عن الوضع في مقاطعة كييف: "إنَّ أحد أسباب تطور أعمال العنف هو البطء في إخمادها، وموقف المحكمة العسكرية المتعاطف مع المتهمين والمتهاون في هذا الأمر كله". فذيَّل الإسكندر الثالث التقرير بالملاحظة الآتية: "لا كفّارة لهذا".

لكنْ سواء في حينه أو فيما بعد لم تسلم الحكومة من الاتهام بأنَّها هي التي كانت وراء أعمال العنف والنهب تلك؛ لكنَّ هذا الاتهام يفتقر إلى أدلّة، بل

ليس أكثر من اتهام سخيف لا معنى له، لا سيما أنَّ رئيس الحكومة في نيسان من العام 1881م.، كان الليبرالي المعروف لوريس -ميليكوف، وكان رجاله على رأس الإدارة العليا. بعد العام 1917م فُتحت الأرشيفات الحكومية أمام الباحثين، فانبرت مجموعة من الباحثين: س. دوبنوف، وغ. أدموني -الأحمر. وس. لوزينسكي، للبحث عن براهين تؤيد مثل هذا الاتهام، لكنَّهم لم يعثروا إلاّ على ما يؤكد العكس، بدءاً من أنَّ الإسكندر الثالث نفسه كان قد أمر بإجراء تحقيق دقيق وسريع. (لكنَّ مجهولاً لفّق افتراء مسموماً وأشاعه في مختلف أنحاء العالم، وزعم فيه أنَّ الإسكندر الثالث قال: - ليس معروفاً لمن قال، ولا متى قال، ولا في أيِّ مناسبة قال -"أنا أعترف بأنَي أشعر بالسعادة والرضا عندما يقتِلون اليهود!" وقد أخذوا بهذا الافتراء ونشروه في كتيبات خاصة كان يوزعها المفتريون، وبات جزءاً من الفولكلور الليبرالي، بل ها هم بعد مرور مئة عام يسرِّبون هذه السخافة في المطبوعات كما لو كانت حقيقة تاريخية لا لبس فيها. حتى الموسوعة قالت: "كانت السلطات تتعاون تعاوناً وثيقاً مع الوافدين"، أي مع غير المحليين. بل حتى تولستوي المقيم في ياسنا بوليانا كان يرى أنَّ الأمر كلَه تحت سيطرة السلطات. "إنْ أرادوا وقعت أعمال العنف، وإنْ لم يريدوا فلن تقع". بيد أنَّ واقع الحال هو أنَّ الحكومة لم تحرّض عليها، بل على حدِّ قول هوسين: "إنَّ نشوء كثرة من جماعات التدمير في وقت قصير على مساحات شاسعة، إضافة إلى طابع تحرّكها نفسه، ينفيان فكرة أن يكون لها مركز تنظيمي واحد".

وهاكم شهادة حية أخرى من جهة تثير الاستغراب إلى حدٍ ما — من "منشور عمالي"، أي من منشور يخاطب الشعب، مؤرَخ في شهر حزيران من العام 1881م. يصف هذا المنشور الثوري الصورة على النحو الآتي: "إنَّ حكام المقاطعات كلَهم، ومعهم الموظفون الآخرون، ورجال الشرطة، والجيش، والبلديات، والصحف، هؤلاء كلهم وقفوا إلى جانب أثرياء الفلاحين اليهود ... إنَّ الحكومة تحمي

اليهود وتصون أملاكهم"، فقد أعلن حكام المقاطعات: "سيكون الموقف من مثيريّ أعمال الشغب والعنف صارماً إلى أقصى حدٍّ تبيحه القوانين ... لقد حدّد رجال الشرطة الأشخاص الذين كانوا بين الحشود [المخرِبين]، وأطلقوا النار عليهم، ثمَّ قادوهم إلى المخافر ... ونكّل بهم الجنود والقوزاق بكعاب البنادق والسياط ... كانوا يضربون الناس بالبنادق والكرابيج ... وساقوا بعضهم إلى المحاكم، وزجُوا بهم في السجون، كما جلدوا بعضهم الآخر في أقسام الشرطة نفسها". بعد عام، أي في العام 1882م، في فصل الربيع أيضاً، "استؤنفت أعمال العنف والتخريب من جديد، لكنَّ عددها كان أقل، ونطاقها أضيق، كالأحداث الأولى". "غير أنَّ يهود مدينة بالتا عانوا من أعمال العنف معاناة مختلفة"، كما وقعت أعمال الشغب في قضاء بولتسكي وبعض الأقضية الأخرى أيضاً. "بيد أنَّ أحداث العام 1882م كانت من حيث عدد الواقعات وطابع أعمال العنف، أكثر هدوءً من أحداث العام 1881م، لم يكن نهب أملاك اليهود فيها ظاهرة تكرّرت كثيراً". فقد نقلت الموسوعة اليهوديّة قبل الثورة، أنَّ أحداث بالتا لم يُقتل فيها سوى يهودي واحد.

وينقل لنا يهوديٌّ معاصر معروف الشهادة الآتية: في أحداث الثمانينيّات "نهبوا اليهود البائسين، وضربوهم، لكنَّهم لم يقتلوهم" (إلاَّ أنَّ مصادر أخرى سجَلت سقوط 6 -7 ضحايا). أمَّا في الثمانينيّات - التسعينيّات، فلم يأت أحد على ذكر أيِّ واقعة قتل أو اغتصاب جماعي. لكنْ بعد أن مضى نصف قرن، أخذ كثير من الكتَّاب الاجتماعيين الذين لم يكلفوا أنفسهم عناء الغوص عميقاً جداً في الوقائع الروسيّة، لكنَّ لهم دائرة واسعة من القراء الذين يثقون بهم، أخذوا يكتبون الآن عن أعمال وحشيّة جماعيّة منظَمة ومعدّة مسبقاً. فنحن نقرأ مثلاً في كتاب م. ريزين الذي أُعيد نشره مرات كثيرة: إنَّ أعمال العنف التي وقعت في العام 1881م.، ترافقت "باغتصاب النساء، وأعمال القتل، كما أسفرت عن تشويه آلاف الرجال والنساء والأطفال. ثمَّ تبين فيما بعد أنَّ الحكومة نفسها

هي التي حرَضت على تلك الأعمال، وعوَّقت اليهود عن اتخاذ ما يلزم للدفاع عن أنفسهم".

وفي العام 1933م.، أعلن غ. ب. ليوزبيرغ، من خارج البلاد، وكان على معرفة دقيقة بعمل جهاز الدولة الروسيّة، أنَّ أحداث العام 1881م.، لم تشتعل من تحت بل من فوق، أشعلها الوزير إيغناتيف (لكنَّ هذا لم يكن قد غدا وزيراً بعد، لقد خانت العجوز ذاكرته)، "ولا ... ريب في أنّه كان يمكن العثور على خيوط أعمال التدمير والتخريب في إدارة الشرطة"، - على هذا النحو أجاز هذا المحامي الخبير، لنفسه مثل هذه الترَهة الخطيرة الحمقاء. وها نحن نقرأ في مجلة يهودية رصينة معاصرة، ولدى كاتب معاصر، خلافاً للوقائع المعروفة كلها، ومن غير تقديم أيٍّ وثائق جديدة: أنَّ أعمال عنف اجتاحت أوديسا في العام 1881م لمدة ثلاثة أيام؛ وأنَّ الجنود ورجال الشرطة شاركوا مباشرة في أعمال العنف في بالتا، "فقُتل وأُصيب إصابات بالغة أربعون يهودياً، وجُرح منهم 170 جروحاً خفيفة". (ونحن قرأنا لتونا في الموسوعة اليهوديّة القديمة: أنَّ يهودياً واحداً فقط قُتل في بالتا، وأنَّ بعض الأشخاص أُصيبوا. أمّا في الموسوعة اليهوديّة الحديثة، وبعد أن مضى قرن على الأحداث، فإنّنا نقرأ: في بالتا "انضمَّ الجنود إلى المخرِبين ... فقُتل عدد من اليهود، وجُرح المئات منهم، واغتُصبت نساء كثيرات". وعن أعمال العنف في كييف كتبت الموسوعة تقول: "اغتُصبت حوالي عشرين امرأة"). وغنيّ عن البيان القول: إنَّ أعمال العنف والتخريب والنهب، هي من أشكال التنكيل الوحشيّة الرهيبة، ولا يمكن حصر أعداد ضحاياها. فهذا مرميٌ هنا، وذاك مُلقى هناك، فهل نعيد البحث في كلّ مرة؟

لقد أولى المعاصرون اهتماماً دؤوباً لتقصي أسباب أعمال العنف الأولى ومناقشتها. فمنذ العام 1872م.، بعد الأحداث التي وقعت في أوديسا، نبَّه الحاكم العام في الإقليم الجنوبي الغربي في تقريره إلى أن ما حدث يمكن أن يتكرر في إقليمه أيضاً، لأنَّ "كره اليهود والعداء لهم لهما هنا تربة تاريخية، ولا يمنع انفجار

سخط السكان الروس الآن ضدَّ اليهود، سوى تبعية الفلاحين مادّياً لهؤلاء، إضافة إلى التدابير التي تتخذها الإدارة". إذن من الواضح أنّ الحاكم العام لخّص لبَّ المسألة في العامل الاقتصادي: "لقد أحصى الأملاك التجاريّة - الصناعيّة التي يملكها اليهود في الإقليم الجنوبيّ الغربيّ، وقدَّر قيمتها، ثمَّ أشار في الوقت نفسه، إلى أنَّ اليهود كثَّفوا استئجار الأراضي من الإقطاعيين، وأعادوا تأجيرها للفلاحين بشروط في غاية الإجحاف". هذه العلاقة السببيّة "نالت قبولاً عاماً في العام 1881م العاصف". ففي العام 1881م.، هذا رفع لوريس -ميليكوف تقريره إلى القيصر، وقد جاء فيه: "إنَّ العلّة الأساس لأعمال العنف الراهنة، هو البغض الذي يحمله السكان المحلّيون لمستعبديهم اليهود، ولكنْ لا ريب في أنَّ ذوي النوايا الخبيثة استغلوا هذا الواقع أسوأ استغلال".

وهذا ما أكَدت عليه أيضاً الصحف عندئذٍ. "في تعليلها للأسباب التي أدت إلى اشتعال أعمال العنف، لم تشر سوى قلَة من وسائل الإعلام إلى حالة الكره العرقيّ والدينيّ؛ أمَّا الصحف الأخرى فقد رأت أنّ حركة العنف والتدمير انطلقت من دوافع اقتصادية؛ وفي غضون ذلك رأى بعضهم في أعمال الشغب حركة احتجاج موجّهة ضدَ اليهود على وجه الخصوص، بسبب سيطرتهم الاقتصاديّة على السكان الروس"، بينما رأى آخرون أنَّ الجماهير الشعبيّة المستلبة اقتصادياً على وجه العموم، "كانت تبحث عمَّن تصبُّ عليه جام غضبها"، وكان اليهود هم المادّة الملائمة لذلك بسبب حرمانهم من الحقوق. فقد رأى معاصر تلك الأحداث، المنوِر الذي عرفناه من قبل ف. بورتوغالوف "في أعمال العنف التي طالت اليهود في العام 1881م.، تعبيراً عن سخط الفلاحين وفقراء المدن على الظلم الاجتماعيّ".

وبعد مضي عقد من الزمن أكّد يو. إ. هوسين أنَّ "السكان اليهود في المقاطعات الجنوبيّة" وجدوا "مصادر للعيش لدى الرأسماليين اليهود، بينما كان الفلاحون المحلّيون يعيشون أوقاتاً صعبة": لم يكن بين أيديهم ما يكفي من الأراضي الزراعية، "كما كان للأغنياء اليهود دورهم في نشوء هذا النقص

وتعاظمه، فقد كان هؤلاء يستأجرون أراضي الإقطاعيين، فترتفع نتيجة ذلك قيمة تأجير الأراضي التي لم يكن بوسع الفلاحين تحمُّلها". ولن نغفل شاهداً آخر معروفاً بتجرّده وعمق تفكيره، ولم يتهمه يوماً أحد "بالرجعية" أو "معاداة السامية"، إنَّه غليب أُوسبينسكي. فقد كتب هذا في أوائل الثمانينيّات يقول: "لقد حطّموا اليهود لأنَّ هؤلاء نهبوا عوز الآخرين وجهدهم، ولم يكسبوا شيئاً بعرق جبينهم وعمل أيديهم"؛ " تحت العصا والسوط ... لقد عانى الشعب معاناة مريرة من التتر والألمان، ثمَّ أخذ الجيد يضنيه بالروبل، فطفح الكيل وانفجر! وهاكم ما نخلص إليه. في أوائل أيار من العام 1881م، بعد أعمال العنف مباشرة، جاء إلى الإسكندر الثالث وفد من وجهاء يهود العاصمة وعلى رأسهم البارون غ. غينتسبورغ، أعلن القيصر بكلِّ ثقة أنَّ اليهود لم يكونوا سوى ذريعة للأعمال الإجرامية التي وقعت في جنوبي روسيا، وأنَّ الذين أشعلوا أعمال الشغب هم الفوضويون". في تلك الآونة أعلن الأمير فلاديمير ألكساندروفيتش، شقيق القيصر لغيتسيتبورغ هذا نفسه: إنَّ "أعمال العنف، تبين للحكومة الآن على نحو ما، أنَّ هدفها ليس التأليب ضدَ اليهود حصراً، إنَّما إثارة القلاقل على وجه العموم". كما كتب الحاكم العام في الإقليم الجنوبي الغربي في تقريره يقول: إنَّ "حالة التوتُّر العام التي تسود بين السكان، يقف وراءها محرِضون دعائيون". وهذا ما أخذت السلطات به علماً. فالبيانات التي صدرت عنها مباشرة، تُظهر أنَّ الوقت لم يفلت من بين يديِّ السلطات، بل أجرت تحرياتها في الوقت المناسب. لكنَّ سوء الفهم الذي اعتادت عليه الإدارة الروسيّة في تلك الأزمنة، وعدم تقديرها لأهمية الدور الذي تؤديه الشفافية، وقفا حائلاً أمام ظهور نتائج التحقيقات إلى الرأي العام. وكان سليوزبيرغ قد اتهم السلطات المركزية بهذا علانية: لماذا لم "يحاولوا أن يتبرَّؤوا من الاتهام الذي وُجِه إليهم بالسماح بأعمال العنف؟ (مهما كان الأمر فإنَّ الاتهام مشروع. بيد أنَّ الحكومة اتُهمت مباشرة كما رأينا، بإشعال أعمال العنف وتوجيهها. ومن الغباء أن تشرع تبرهن على أنَّك لست مجرماً).

ولكنْ لم يكونوا يريدون أن يصدِّقوا اتهام الثوريين بالتحريض. فيتذكَّر كاتب مذكرات يهودي من مينسك: أنَّ الإسكندر الثاني لم يكن بالنسبة لليهود "محرِّراً"، لأنَّه لم يلغ حدود الاستقرار اليهودي، ومع ذلك كان اليهود صادقين في حزنهم لموته، لكنَّهم لم يقولوا كلمة سوء واحدة بحقِ الثوريين، بل تحدَّثوا عنهم باحترام وقالوا: إنَّ البطولة وحسن النوايا كانا وراء ما قاموا به. ولدى اشتعال أحداث ربيع - صيف العام 1881م، لم يصدِّقوا البتة أنَّ الاشتراكيين هم من حرَّض عليها: إنَّ هذا كله من القيصر الجديد وحكومته. "إنَّ الحكومة هي التي تريد إشعال أعمال العنف، لأنَّها تحتاج إلى كبش الفداء". وعندما أكَّد فيما بعد شهود ثقة من الجنوب، أن الاشتراكيين دبَّروا شيئاً ما، بقي هؤلاء على ثقة بأنَّ الحكومة هي المذنبة. لكنْ عند بداية القرن العشرين، اعترف مؤلِّفون جدِّيون بأنَّ "الصحف تحتوي على معطيات عن مشاركة بعض أعضاء حزب الإرادة الشعبية في أعمال العنف، إلاَّ أنَّ حجم تلك المشاركة لا يزال غير واضح ... وبحسب الجهاز الحزبي أن أعضاء الحزب رأوا في أعمال الشغب تلك شكلاً مناسباً من أشكال الحراك الثوري؛ فقد افترضوا أنَّها تدرِب الشعب وتعوِده على الانتفاضات الثورية"؛ "وأنَّ الحراك الذي كان من السهل جداً توجيهه ضدَ اليهود، سوف يتحوَّل في أثناء تطوُره، ضدَ النبلاء والموظفين. وتبعاً لهذا أُعدَت منشورات تدعو إلى مهاجمة اليهود". ولكنَّ الحديث عن هذا كواقع معروف، بات يجري الآن على عجل: "الدعاية النشطة التي يديرها الشعبيون (سواء أعضاء حزب "الإرادة الشعبية" أو حزب " تشورني بيريديل" (الحدُّ الأسود. ح. إ.) المستعدون لإثارة حركة شعبية على أيِّ خلفية كانت، بما في ذلك معاداة الساميّة".

من المهجر هلّل لأعمال العنف حينئذٍ، تكاتشوف سلف لينين في تكتيك المؤامرات. ولم يستطع حزب الإرادة الشعبية (ومثله حزب التشورني بيريديل) أن ينتظر طويلاً بعد أن خاب أمله عندما لم يثر مقتل القيصر الثورة المنتظرة على الفور. وفي حالة الذهول والارتباك التي أحدثها اغتيال القيصر المحرِّر في الأوساط الشعبية، كانت تكفي صدمة خفيفة كي تنحو العقول المتأرجحة باتجاه معيَن.

وبما أنَّ الجهل في تلك الأثناء كان سيد الموقف، لذلك كان يمكن أن يتخذ ذلك الانعطاف اتجاهاتٍ مختلفة. (في تلك الأسابيع شاع على سبيل المثال تأويل شعبي مفاده أنَّ النبلاء هم الذين قتلوا القيصر انتقاماً منه على تحرير الفلاحين). وشاعت في أوكرانيا دوافع معادية لليهود. وقد تكون التحرُكات الأولى في العام 1881م تجاوزت مقاصد الشعبيين، فاحتاروا في أيِّ اتجاه ينبغي أن يتحرَكوا. فاتجهوا ضدَ اليهود: ينبغي ألاّ نتخلَف عن الشعب! الحركة من غور الشعب، فكيف لا نستغلّها؟ اضربْ اليهود، ومن هناك نصل إلى الإقطاعيين! وعلى أغلب الظنِ أن أعمال الشغب التي فشلت في أوديسا ويكاترينوسلاف، أزكى إوارها الشعبيون. أمَّا حركة المخرِبين على طول الخطوط الحديدية تحديداً، ومشاركة عمال هذه الخطوط في أعمال العنف، فهي تجيز لنا أن نفترض واقعة تحريض الدعاة المتنقلين الحاملين معهم هذه الشائعة المثيرة: "يخفون أمر القيصر" بقتل اليهود الذين اغتالوا والده (لقد صرَّح المدَّعي العام لدى قضاء أوديسا قائلاً: "إن الشعب وهو يدمِر كلّ ما هو يهوديّ، كان على يقين بشرعية ما يقوم به، ويؤمن إيماناً راسخاً بوجود أمر من القيصر يسمح بتدمير كلِّ ما لليهود، بل يقضي بذلك". وبحسب هوسين إنَّنا هنا أمام "قناعة راسخة في وعي الشعب بأنَّ اليهودي خارج القانون، وإنَّ السلطة لا يمكن أن تقف ضدَّ الشعب وتحمي اليهودي". فعمل الشعبيون على استغلال هذا المعتقد الوهمي).

لقد حفظ التاريخ لنا عدداً من مثل هذه المناشير الثورية؛ ومنها على سبيل المثال منشور 30 آب للعام 1881م الذي يحمل توقيع اللجنة التنفيذية لحزب الإرادة الشعبية (طُبع في مطبعة حزب الإرادة الشعبية)، وكُتب مباشرة باللغة الأُوكرانية: "على الرَّغم من أنَّ الأرض والغابات باتت بين يديه، لكنْ الخمارات؟ - يملكها الجيد. وبين يديٍّ من يقف الموجيك ساعات يذرف دموعه متوسّلاً أن يمكِّنه من تحقيق مطلبه ...؟ - بين يدي الجيد. ومهما طلبت من عند الجيد، لن تصل إلى شيء، فالجيد شحيح مقتِّر. إنَّ الجيد شخص كذَّاب، نبيذه

مغشوش، ومشروبه الدم" ... ثم يختم المنشور بالدعوة إلى: "انهضوا أيُّها العاملون الشرفاء! ..."، وورد بعد ذلك في صحيفة "الإرادة الشعبية"، 6 N: "إنَّ اهتمام الشعب المقاوم يتركز كله الآن على التجار، وأصحاب الخمّارات، والمرابين، باختصار على اليهود، هذه البورجوازية المحليّة التي تنهب الشعب العامل بجشع لا تجده في أيٍّ مكان آخر". ثم تبع ذلك ملحق بمنشور الإرادة الشعبيّة (في العام 1883م) أدخل بعض "التعديلات": "إنَّ أعمال التخريب هي بداية حركة شعبيّة عامة، لكنْ ليس ضدَّ اليهود بصفتهم يهوداً، إنّما ضدَّ ''الجيديف''، أي ضدَّ مستغِلِي الشعب". وثمة في المنشور الذي أشرنا إليه "نواة" التشورنوبيريدليين: "لم يعد الشعب العامل يطيق الابتزاز اليهودي. فحيثما تولّى يجد أمامه في كلٍّ مكان تقريباً كولاكاً[1] يهودياً. فاليهوديّ يدير الخانات والحانات، واليهودي يستأجر الأرض من الإقطاعي ثمَّ يعيد تأجيرها للفلاح بثلاثة أضعاف، وهو يشتري القمح بثمن زهيد ويحتكره، ويعمل بالرِبا، فيفرض نسبة فائدة عالية جدّاً، حتى إنَّ الشعب أطلق عليها اسم الفائدة الجيدوفية ... إنَّها دماؤنا يمتصُّها هؤلاء! هذا ما قاله الفلاحون لرجال الشرطة الذين جاؤوا ليستردوا منهم ما استولوا عليه من اليهود". لكنَّ التعديل نفسه ورد في منشور "النواة" أيضاً: "... أبداً، ليس اليهود كلّهم أثرياء، وليس كلّهم كولاك ... فدعكم من العداء العرقي والديني"، واتحدوا معهم "ضدَّ العدوِ المشترك": القيصر، والشرطة، والإقطاع، والرأسماليين. لكنَّ هذين "التعديلين" جاءا متأخرين. فيما بعد وزِعت مثل هذه المناشير في يليزافيتغراد وسواها من مدن الجنوب الأخرى، كما وزَّعها "الاتحاد العمالي الروسي الجنوبي" في كييف، إلاَّ أنَّ أعمال العنف كانت قد توقفت، بينما تابع الشعبيون تأجيجها حتى العام 1883م آملين إشعالها من جديد ليطلقوا عبرها ثورة روسيّة عامّة.

---

(1) كولاك. تسمية أطلقها الروس على الفلاح الثري الذي يستغلُ جهد الآخرين. ــح. إ.

موقف الإعلام الروسيّ من المسألة اليهوديّة

كان من الطبيعي أن تثير موجة العنف التي اجتاحت الجنوب، أصداء واسعة في إعلام العاصمة. ففي "الكشوفات الموسكوفية"، "الرجعية" قال م. ن. كاتكوف الذي كان يدافع دوماً عن اليهود: إنَّ أعمال العنف ليست سوى نتيجة "لدسائس شريرة"، "تضلل الوعي الشعبيّ عن سابق قصد، لترغم على حلّ المسألة اليهوديّة عن طريق إثارة الكولاك، بعيداً عن دراسة المسألة من مختلف جوانبها".

وبرزت في هذا السياق مقالات الكتّاب: إ. س. أكساكوف الذي كان دائماً مناهضاً لتحرير اليهود، وكان قد حاول منذ أواخر الخمسينات أن يمنع الحكومة عن أن "تخطو خطوات بالغة الجرأة" على هذه الطريق. وعندما صدر قانون تمكين اليهود الذين يحملون شهادات علميّة من العمل في مؤسسات الدولة، أعلن معارضته صراحة للقانون المذكور (في العام 1862م)، وعلّل موقفه على النحو الآتي: إنَّ اليهود "حفنة من الناس يرفضون رفضاً قاطعاً تعاليم المسيحيّة، والمُثُل، والقيم الأخلاقيّة المسيحيّة (أي كلّ الأسس التي يقوم عليها واقع البلاد الاجتماعيّ)، ويعتنقون تعاليم معادية ومخالفة". ولم يُسلِّم أكساكوف بمساواة اليهود في الحقوق السياسيّة، مع أنّه أقرّ مساواتهم في الحقوق المدنية، ودعا إلى "منحهم الحرية الكاملة في العيش وفق نمطهم الخاص، وحقّ إدارة شؤونهم إدارة ذاتية، وتطوير واقعهم، ونيل المعارف، وممارسة العمل التجاري ... بل ... منحهم أيضاً حقّ الإقامة على الأراضي الروسيّة أينما يشاؤون". وكتب في العام 1867م يقول: من الوجهة الاقتصاديّة "يجب ألاّ يجري الحديث عن تحرير اليهود، إنّما عن تحرير الروس من اليهود". وأشار إلى لا

مبالاة الإعلام الليبرالي بأوضاع الفلاحين واحتياجاتهم. ورأى في موجة أعمال العنف التي اجتاحت البلاد في العام 1881م تجلياً لحالة الغضب الشعبي من "نير اليهوديّة الذي يرخي بثقله على كاهل السكان الروس"، ومن هنا لا نرى "للنهب والسلب حضوراً" في أعمال العنف، فهم يدمّرون الأملاك فحسب، "ولديهم يقين ساذج بشرعيّة ما يفعلونه"؛ ثمَّ كرَّر دعوته إلى عدم طرح "مسألة مساواة اليهود بالمسيحيّين، إنَّما مساواة المسيحيّين باليهود، ووضع حدٍّ للامتيازات التي يتمتع بها اليهود ويُحرم منها السكان الروس".

أمَّا مقالة م. ي. سالتيكوف - شيدرين فكانت على الضدّ، مليئة بالسخط: "لم يعرف التاريخ مسألة أكثر تعقيداً وأكثر لا إنسانيّة، وأكثر مرارة، من المسألة اليهوديّة ... ليس هناك شيء أكثر جنوناً وامتهاناً للكرامة الإنسانية من الخرافة التي خرجت من سراديب الماضي البعيد ... وحملت وصمة عار النبذ والتحيُّز والكراهية ... مقدَّر لليهودي أن يحمل دائماً عار تلك الوصمة". ولم ينف شيدرين "أنَّ بين اليهود شريحة كبيرة من المرابين والمستغِلين من مختلف الأنواع"، لكنَّه يتساءل: كيف يمكن أن يُتهم العرق كلّه بسبب فئة؟ وفي معرض اجتلاء ذلك السجال كتب مؤلّف يهودي معاصر يقول: "إنَّ الإعلام الليبرالي، أو ما اصطُلِح على تسميته بالإعلام التقدّمي، برَّأ المخرِبين". وهذا ما خلصت إليه الموسوعة اليهوديّة القديمة أيضاً: "لكنَّ الدوائر التقدُمية لم تعبِّر عن تعاطفها مع مأساة الشعب اليهودي بما يكفي من الوضوح ... فقد نظروا إلى هذه الكارثة بعين المتعسِّف المغتصِب الذي تراءى له فيها الفلاح البائس، وتجاهل تماماً المعاناة الأخلاقيّة والحالة الماديّة للشعب اليهودي المدمَّر". حتى الراديكاليين: "المذكرات الوطنية"، قوَّموا الأحداث على النحو الآتي: لقد قام الشعب ضدَّ اليهود لأنَّهم "أخذوا على عاتقهم تأدية دور الطليعة الرأسماليّة، ولأنَّهم يعيشون وفق الحقيقة الجديدة، وينهلون من هذا المعين الجديد، أسباب رخائهم على حساب شقاء الآخرين"، لذلك "من الضروريّ أن يحتاط الشعب ضدَّ اليهوديّ، واليهوديّ ضدَّ الشعب، ولتحقيق ذلك ينبغي تحسين أوضاع الفلاحين".

وفي "رسالة مسيحيّ في المسألة اليهوديّة" نشرتها مجلة "الفجر" اليهوديّة، دعا الكاتب المتعاطف مع اليهود د. موردوفستسيف، هؤلاء إلى الهجرة إلى فلسطين أو أمريكا، ورأى أنَّ حلَّ المسألة اليهوديّة في روسيا يكمن في هذا فقط". وقد حمل الأدب الاجتماعي اليهودي والمذكرات اليهوديّة عن تلك المرحلة، استياء، وأسى من أنَّ الهجوم الإعلامي على اليهود انطلق بعد أعمال العنف ضدَّهم مباشرة، وقد جاء من اليمين، ومن اليسار الثوريّ على حدٍّ سواء. ثم سرعان ما كثّفت الحكومة من جديد، الإجراءات التي تحدُّ من حريّة اليهود. ومن الضروريّ التأكيد على هذا السخط وفهمه. لكنْ يجب التمحيص في موقف الحكومة من جوانبه كلّها. ففي الدوائر الحكوميّة - الإداريّة دارت نقاشات، وبحثوا عن حلول شاملة للمعضلة. ففي تقريره إلى القيصر، صوَّر وزير الداخلية الجديد ن.ب. إيغناتيف، حجم المسألة في عهود القياصرة السابقين كلّهم على النحو الآتي: "على الرَّغم من أنَّ نشاط اليهود الاقتصاديّ، وتقوقعهم على أنفسهم، وتعصبهم الديني الأعمى يترك آثاراً سلبيّة على سكان البلاد المسيحيّين، إلاَّ أنَّ الحكومة اتخذت في العشرين عاماً الأخيرة جملة من الإجراءات التي تمهّد سبيل ادّغام اليهود بالسكان الآخرين، ووضعتهم على قدم المساواة في الحقوق، مع سكان البلاد الأصليّين". لكنَّ الحركة الراهنة المناهضة لليهود "تثبت بما لا يترك مكاناً للشك، أنَّه على الرَّغم من كلّ الجهود التي بذلتها الحكومة، إلاّ أنَّ العلاقات بين السكّان اليهود والسكان الأصليّين في هذه المناطق لا تزال على ما كانت عليه في الماضي"، لاعتبارات ذات طابع اقتصادي: منذ أن خُفّفت القيود القانونية، استولى اليهود على التجارة والمهن، وامتلكوا مساحات شاسعة من الأراضي، "وبفضل تكاتفهم وتضامنهم وجّهوا، ما خلا استثناءات نادرة، قواهم كلّها لا نحو مضاعفة قوى الإنتاج في الدّولة، إنّما نحو استغلال الطبقات الأكثر فقراً من السكّان المحيطين بهم". والآن، بعد إخماد القلاقل وحماية اليهود من أعمال العنف، "بات من الضروريّ بشكل ملحٍّ، بل من العدل اتخاذ تدابير عاجلة

وحاسمة لتجاوز الحالة الشاذّة القائمة بين السكان الأصليّين واليهود، وحماية السكان من تبعات النشاط التخريبيّ الذي يمارسه اليهود". وبالتوازي مع ذلك تأسست في العام 1881م.، في خمس عشرة مقاطعة، وكذلك في مقاطعة خاركوف " لجان من ممثلي الشرائح الاجتماعيّة والجمعيات كلّها (بما فيها الجمعيات اليهوديّة)، وكانت مهمة تلك اللجان الإضاءة على المسألة اليهوديّة، وطرح أفكار تساعد على إيجاد حلول لها". لقد طُلب من اللجان أن تجيب على كثير من الأسئلة العمليّة الصرف مثل: "ماهي جوانب النشاط الاقتصاديّ اليهوديّ التي تتسبب بأكبر أذى للحياة اليوميّة للسكان الأصليين في المناطق المعنيّة؟" ما هي الصعوبات التي تحول دون إصدار قوانين تنظّم شراء اليهود للأراضي واستئجارها، وتضبط بيعهم المشروبات الروحيّة، وممارسة الربا؟ ما هي التغيرات التي تبدو ضروريّة لوضع حدٍّ لالتفاف اليهود على القوانين؟ "وما هي الإجراءات القانونيّة والإداريّة التي ينبغي اتخاذها لتعطيل مفاعيل النشاط المؤذي الذي يمارسه اليهود في شتى ميادين الاقتصاد؟ وقد أشارت "اللجنة الوزارية العليا" التي شُكّلت بعد عامين لإعادة النظر في القوانين المتعلّقة باليهود، إلى أنَّ الخطة التي وُضعت أمام لجان المقاطعات تبدو كما لو كانت قد أقرِّت مسبقاً "بأنَ اليهود عنصر شرير مؤذ وفاسد".

لكنَّ الإداريين أنفسهم كانوا قد نشأوا وتربوا في بيئة إصلاحات الاسكندر، وكان كثير منهم مشبعاً بالفكر الليبرالي، كما شاركت في أعمال تلك اللجان شخصيّات اجتماعيّة أيضاً. فتلقّت وزارة إيغناتيف إجابات كثيرة مختلفة ومتناقضة. بعض اللجان اقترح إلغاء حدود الاستيطان اليهودي. "ورأى بعض أعضاء اللجان، ولم يكن عددهم قليلاً"، أنَّ الحلَّ الصحيح الوحيد للمسألة اليهوديّة، هو إلغاء القيود كلّها. أمَّا لجنة فيلنوس فقد رأت أنَّ اليهود "لم يفرضوا سيطرتهم الاقتصاديّة إلاّ بسبب الفهم الخاطئ لفكرة تساوي البشر وتطبيقها على اليهود بطريقة تسبّبت بالأذى للسكان الأصليّين؛ فالشريعة

اليهوديّة تبيح استغلال كلّ نقطة ضعف لدى الآخر غير اليهودي. فليقلع اليهود عن عزلتهم وتقوقعهم، وليعلنوا عن خفايا تنظيمهم الاجتماعي، فليسلّطوا الضوء على ما لا يرى فيه الآخرون إلاّ سراديب مظلمة، عندئذٍ فقط يمكن التفكير بفتح أبواب ميادين نشاط أخرى أمام اليهود، من غير خوف من أن يستغلوها للسيطرة على الثروة القوميّة، لا سيما أنّهم لا ينتمون إلى الوطن، ولا يتحمّلون أيّ نصيب من العبء الوطنيّ.

"وفيما يخصُّ الإقامة في القرى والبلدات الريفيّة، أقرَّت اللجان ضرورة تقليص حقوق اليهود في هذا المجال: إمَّا تحريم إقامتهم هناك على وجه العموم، أو اشتراط موافقة المجتمعات الريفيّة عليها. واقترح بعض اللجان إلغاء حقِّ اليهود في امتلاك الملكيات غير المنقولة خارج المدن وضواحيها، بينما طالب بعضها الآخر بوضع قيود على استخدام هذا الحقّ. وقد اتفقت اللجان كلُها تقريباً، على منع اليهود من الاتجار بالخمور في القرى. كما طلبت الوزارة الاطلاع على آراء حكّام المقاطعات، "ما عدا استثناءات قليلة لم تأت آراء السلطات المحلّية في مصلحة اليهود: كان كلهم يبحث عن سبل لحماية السكان المسيحيّين من أذى عرق متغطرس كالعرق اليهودي"؛ "فلا يمكن أن تنتظر من اليهود أيَّ عمل لصالح الوطن"؛ "لأنَّ الأخلاقيّات التلموديّة تبيح لهم كل سلوك كان، إذا كان الحديث يجري عن الكسب على حساب أبناء الديانات الأخرى، ولا تضع أمامهم أيَّ عائق يكبح مثل هذا السلوك، أو يحدُّ منه". لكنَّ الحاكم العام في مقاطعة خاركوف على سبيل المثال، لم ير أنَّ لديه إمكانيّة لاتخاذ أيِّ إجراءات تحدُّ من حركة السكان اليهود في مقاطعته، "من غير تفريق بين المذنب والبريء"؛ فاقترح "أن يُمنح اليهود مزيداً من حريّة الحركة، ونشر الوعي في صفوفهم".

"لجنة شؤون اليهود"

في خريف ذلك العام نفسه تأسّست، بناء على اقتراح إيغناتيف، لجنة خاصّة (كانت اللجنة رقم تسعة)، دُعيت "لجنة شؤون اليهود" (بين أعضائها الثابتين الثلاثة اثنان يحملان لقب بروفسور)، كانت مهمتها دراسة المواد التي جمعتها لجان المقاطعات، والتوصل على أساسها إلى صياغة مشروع قانون موحّد. (كانت "لجنة تنظيم شؤون اليهود" التي تأسست منذ العام 1872م.، هي اللجنة الثامنة، لكنّها سرعان ما أُلغيت "لعدم توافق مهماتها مع واقع حال المسألة اليهوديّة"). لقد انطلقت اللجنة الجديدة من قناعتها بأنَّ السعي إلى إدغام اليهود بباقي السكان المحلّيين، وهو ما كانت الحكومة تسعى على مدى السنوات الخمس والعشرين الأخيرة إلى تحقيقه، ليس هدفاً واقعياً. لذلك "فإنَّ صعوبة حلِّ المسألة اليهوديّة الشائكة ترغم على اللجوء إلى استشارة الماضي، إلى زمن لم تكن فيه مختلف المستجدات قد تسرّبت بعد لا إلى تشريعاتنا، ولا إلى تشريعات الآخرين، ولم يتسنَّ لها بعد أن تحمل معها تلك التداعيات المحزنة التي تحدث عادة حينما يطبِّقون في البلاد المعنيّة مبادئ تعارض الروح الشعبيّة". منذ زمن بعيد واليهود يُعدّون غرباء، وينبغي أن يبقوا كذلك.

ويعلّق هوسين على هذا قائلاً: "لم يكن للفكر الأكثر رجعيّة أن يمضي أبعد من ذلك". أمّا إذا أخذنا الثوابت الوطنيّة بعين الحسبان، فخلال السنوات العشرين الماضية كان الأحرى أن يتركز الاهتمام على إتمام تحرير الفلاحين فعلاً. فحقيقة الأمر أنَّ الحريّة التي منحها الإسكندر للفلاحين تحوّلت بعد ذلك إلى حريّة مبهمة، ناقصة، غير مكتملة، وافسدت البيئة الفلاحيّة.

لكنْ: "كان لا يزال في الدوائر الحكوميّة من يرى أنّه لا يمكن أبداً تغيير سياسة العهد السابق"، وكان هؤلاء يشغلون مناصب عليا، وذوي نفوذ قويّ. كما عارض عدد من الوزراء مقترحات إيغناتيف. ولمّا لاقى هذا تلك المقاومة، جزّأ التدابير التي اقترحها إلى تدابير أساسيّة (لذلك يجب أن تسلك طريقها الطبيعية عبر الحكومة ومجلس الدولة)، وتدابير مؤقّتة كان القانون يجيز إقرارها وتطبيقها بطريقة إداريّة مبسَّطة وسريعة. "لكي يقتنع سكان الأرياف بأنَّ الحكومة تحميهم من استغلال اليهود"، يجب أن يُمنع اليهود من الإقامة خارج المدن وضواحيها ("في القرى لا تستطيع الحكومة أن تحميهم من أعمال العنف")، كما ينبغي منعهم من الاتجار بالخمور، وشراء الملكيّات الثابتة واستئجارها هناك. أمّا فيما يخصّ اليهود المقيمين في القرى من قبل، فينبغي منح المجتمعات الريفية حقَّ "ترحيل اليهود من القرية بقرار يصدر عن الاجتماع العام لسكّان القرية". لكنَّ وزراء آخرين، لا سيما وزير المالية ن. خ. بونغه، ووزير العدل د. ن. نابوكوف، لم يسمحا لإيغناتيف بتطبيق إجراءاته هذه: لقد رفضا مشروع القانون استناداً إلى أنَّ اتخاذ مثل هذه التدابير المانعة الواسعة النطاق، لا يجوز "قبل بحثها وفق الأصول التشريعيّة المعمول بها". فهل لكَ أن تحدِّثنا بعد هذا عن التعسّف اللامتناهي الذي كانت تمارسه السلطة القيصريّة في روسيا؟

لم تنل تدابير إيغنانتيف الأساسيّة الموافقة، أمّا تدابيره المؤقّتة فقد عبرت، لكنْ بعد تشذيبها إلى أقصى حدٍّ ممكن. فرُفض اقتراح ترحيل اليهود من القرى التي كانوا يعيشون فيها من قبل؛ ورُفض اقتراح منعهم من الاتجار بالخمور؛ واقتراح منعهم من استئجار الأراضي وشرائها. وخشية من تكرار أعمال العنف على مقربة من فصح العام 1882م.، أُقرَّ منع اليهود من أن ينتقلوا ابتداء من الآن للإقامة خارج المدن والضواحي، أو أن يستأجروا ويشتروا الملكيّات الثابتة خارجها، كما حُرِّم عليهم "العمل التجاري في أيام الآحاد والأعياد المسيحيّة"، لكنْ كتدبير مؤقت لحين الانتهاء من دراسة كلّ القوانين ذات الصلة باليهود.

كما اتُخذت إجراءات مؤقّتة قضت "بإيقاف تسجيل عقود بيع الأملاك المحلية الثابتة إلى اليهود، وتسجيل عقود الرّهن باسم اليهود ... ومنع تصديق ... عقود استئجار الأملاك الثابتة ... والتفويض بالتصرّف بالأملاك نفسها". وفي الثالث من أيار للعام 1882م.، أُقرَّ هذا الحطام المتبقي من التدابير التي اقترحها إيغنانيف، ولكنْ "كقواعد مؤقّتة" (عُرفت بتدابير "أيار"). لكنَّ إيغناتيف نفسه ومعه حطام تدابيره هذا، أُحيلا معاً إلى التقاعد بعد شهر واحد، فتوقّف عمل "لجنة شؤون اليهود" التي أسّسها، وسرعان ما أصدر وزير الداخليّة الجديد الكونت د. أ. تولستوي أمراً دورياً صارماً ضدَّ أعمال العنف التي قد تشتعل من جديد، وألقى على السلطات المحليّة في المقاطعات، بكامل المسؤولية عن تفادي وقوعها في الوقت المناسب.

وعلى هذا النحو لم يُرحَّل، عملاً بمقتضيات "القواعد المؤقّتة" التي أُقرَّت في العام 1882م.، اليهود الذين كانوا يقيمون في القرى قبل الثالث من أيار من العام المذكور؛ ولم تُلق قيود جديّة على نشاطهم الاقتصاديّ هناك. وفضلاً عن هذا "لم يُعمل بهذه القواعد إلاّ في مقاطعات الاستيطان اليهوديّ الدائم"، أمّا المقاطعات الروسيّة الداخليّة، فلم تتأثّر بها. كما لم تطل القيود الأطباء والمحامين والمهندسين، أي الأشخاص الذين يملكون "حقّ الإقامة حيث يشاؤون بموجب كفاءاتهم العلميّة". كما لم تمسَّ هذه القيود "المستعمرات اليهوديّة القائمة التي يعمل سكانها بالزراعة"؛ وعلاوة على هذا لم تطل مفاعيل "القواعد المؤقّتة" لائحة طويلة من القرى التي كان يُسمح لليهود بالانتقال والإقامة فيها.

ما إنْ نُشر نصُّ "القواعد" حتى انهال فيض من التساؤلات التي وردت من الأرياف، وتبعتها توضيحات من السينات يُفهم منها مثلاً، أنَّ "قانون الثالث من أيار للعام 1882م.، لا يمنع الأشخاص الذين ليس لديهم إقامة دائمة من التجوُل في الأرياف، والتوقُف فيها لبعض الوقت، بل الإقامة فيها مؤقّتاً"؛ وأنَّ "الممنوع هو فقط استئجار الأراضي، أمّا باقي أنواع الملكيّات الثابتة كمعامل تقطير

الكحول، ومباني العمل التجاريّ والمهنيّ، والشقق السكنيّة، وما إلى ذلك، فلم يكن استئجارها ممنوعاً"؛ "كما أجاز السينات تصديق عقود تلزيم قطع الغابات لليهود، حتى لو كانت مدّة العقد طويلة، بل حتى لو كان العقد يمنح المتعهِّد حق استخدام أراضي الغابات التي تُقطع أشجارها"؛ أخيراً لم يكن انتهاك قانون الثالث من أيار يستدعي ملاحقة جنائيّة.

غني عن البيان القول: إنَّ توضيحات السينات كانت بمثابة تسهيلات، وهي في الغالب متعاطفة مع اليهود، "ففي العام 1880م وما بعده، كان السينات يكافح التأويلات التعسّفيّة للقوانين". بيد أنَّ هذه القواعد نفسها، وتحريم "الإقامة خارج المدن وضواحيها"، "وتحريم امتلاك الأملاك الثابتة ابتداء من تاريخه، ضيَّق كثيراً على اليهود مجال العمل في تقطير الكحول"، أمَّا "مشاركة اليهود في صناعة التقطير قبل صدور قواعد الثالث من أيار، فكانت ذات شأن عظيم".

لقد كان إجراء الحدِّ من مشاركة اليهود في تجارة الكحول في الأرياف، قد اتُخذ لأوّل مرّة منذ العام 1804م، وها نحن في العام 1882م لكنَّه لم يُطبَق إلاَّ جزئياً وبالحدِّ الأدنى، ومع ذلك أثار "الجور الاستثنائي" الذي تميزت به "قواعد الثالث من أيار"، السخط في كلّ مكان. ووجدت الحكومة نفسها أمام خيار صعب: إمَّا فتح الأبواب على مصاريعها أمام انتشار مهنة صناعة الخمور في ظلِّ ضعف الفلاحين ومفاقمة فقرهم، أو الحدُّ من حريّة تطوُّر هذه المهنة كي يبقى اليهود المقيمون في القرى حيث هم، ولا يهاجرون منها. فخيارها بالحدِّ من تطوُر هذه المهنة عُدَّ تعسُّفاً وجوراً. ولكن كم من اليهود كان يعيش في الأرياف عند العام 1882م؟ نحن كنَّا قد اطلعنا على تقديرات ما بعد الثورة لدى استخدام أرشيف الدولة: كان يعيش في الأرياف ثلث سكان إقليم الاستيطان اليهودي، والثلث الآخر في الضواحي، 29% في المدن المتوسطة و5% في المدن الكبرى. وها هي "القواعد" تعوق الآن الثلث "الريفي" من أن يتطوَّر؟ "وقواعد أيار" هذه تُقدَّم

الآن على أنَّها حدٌ تعسُفيٌ فارق في التاريخ الروسي ولا رجعة عنه. ويكتب مؤلّف يهودي في هذا السياق فيقول: إنَّ هذا شكّل الصدمة الأولى التي دفعت نحو الهجرة! الهجرة "الداخلية" في أوّل الأمر، ثمَّ الهجرة الجماعية إلى ما وراء المحيط. لقد كانت "قواعد إيغناتيف المؤقّتة" السبب الأول لهجرة اليهود، فقد رمت بحوالي مليون يهوديٍ من القرى والبلدات إلى مدن إقليم الاستيطان وضواحيها".

لكنْ كيف رمت بمليون نسمة؟ ربما لم يسمحوا لمهاجرين جدد فحسب؟ لا، لا! فقد بدأت ولم تتوقف: زعموا أنَّهم منذ العام 1882م لم يكتفوا بأن حرَّموا على اليهود العيش في القرى، بل في المدن أيضاً، ما عدا مدن ثلاث عشرة مقاطعة؛ وأنَّهم أعادوهم من جديد إلى داخل حدود منطقة الاستيطان، وهذا ما أفضى إلى اندفاع طوفان اليهود إلى خارج البلاد.

هجرة اليهود الروس إلى أمريكا

يمكننا أن نستذكر الآن بهدوء أنَّ مؤتمر الاتحاد اليهودي العالمي كان قد طرح فكرة الهجرة اليهوديّة من روسيا إلى أمريكا، أول مرة في العام 1869م.، وأرفقها بفكرة أخرى مفادها أنَّ الذين يهاجرون ويستقرون هناك، "يمكن أن يتحولوا بدعم من الاتحاد، واليهود المحلّيين، إلى عامل جذب لأبناء دينهم من اليهود الروس". وأنَّ "بداية الهجرة [هجرة اليهود من روسيا]، ترقى إلى أواسط القرن التاسع عشر، ثمَّ تسارعت بخطى حثيثة بعد أعمال العنف في العام 1881م. لكنَّ الهجرة لم تتحوَل إلى ظاهرة عظيمة الشأن في الحياة الاقتصادية اليهوديّة، وتتّخذ أبعاداً جماعيّة جماهيريّة، إلاّ ابتداء من تسعينيّات القرن"، ونؤكِّد هنا أنَّها كانت ظاهرة لها شأن عظيم في الحياة الاقتصاديّة فقط، وليس في الحياة السياسيّة.

على المستوى العالميّ كانت هجرة اليهود إلى الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر حدثاً تاريخيّا طبع القرن المذكور بطابعه. وقد سارت تلك العمليّة في ثلاث موجات مهوّلة: الموجة الاسبانية - البرتغالية، تلتها الموجة الألمانية (من ألمانيا والنمسا - المجر)، ثمَّ فيما بعد فقط، الموجة الأوروبية الشرقية والروسية. ولأسباب لا مجال لبحثها هنا، اندفعت في القرن ذاته الحركة التاريخيّة الكبرى لليهود نحو الولايات المتحدة، وليس من روسيا وحدها أبداً. ومن الصعب جداً تقدير أهمية تلك الهجرة في التاريخ اليهودي الطويل.

فمن الإمبراطورية الروسيّة "اندفع سيل المهاجرين اليهود من كلِّ مقاطعات إقليم الاستيطان اليهودي، لكنَّ العدد الأكبر من المهاجرين جاء من بولونيا

وليتوانيا وبيلوروسيا"، وليس من أوكرانيا التي عانت موجات من أعمال العنف. والسبب هو نفسه: الازدحام الذي أطلق التنافس الاقتصادي بين اليهود أنفسهم. وفضلاً عن ذلك، يلفت ف. تيلنيكوف انتباهنا استناداً إلى الإحصائيّات الروسيّة، إلى أنَّ العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر، بعد أعمال العنف التي وقعت في العامين 1881 -1882م مباشرة، لم تكن أعداد المهاجرين اليهود من الإقليم الغربي الذي لم تقع فيه أعمال عنف، إلى الإقليم الجنوبي الغربي الذي وقعت فيه أعمال عنف، لم تكن أقل، إنْ لم تكن أكثر من أعداد اليهود الذين هاجروا من روسيا. وإذا كان عدد اليهود في المقاطعات الداخليّة لم يتجاوز بحسب الإحصاءات الرسميّة، 34 ألف نسمة في العام 1880م.، فقد ارتفع هذا العدد في العام 1897م إلى 315 ألف نسمة، أي تسعة أضعاف.

المثقفون اليهود وفكرة الادِّغام

غنيٌّ عن البيان القول: إنَّ أعمال العنف التي اشتعلت في العامين 1881 - 1882م، أثارت من غير شكٍّ صدمة قويّة، لكنْ في أوكرانيا كلِّها؟ فسليوزبيرغ يكتب مثلاً: "إنَّ العنف في العام 1881م لم يوقظ يهود بالتافا، وسرعان ما غاب من ذاكرتهم". في الثمانينات "لم يكن الشباب اليهودي في بالتافا يعرف شيئاً عن وجود مسألة تُدعى المسألة اليهوديّة، وعلى وجه العموم لم يشعروا بأنَّهم يتميَّزون عن الشباب الروسيّ". وكان يمكن أن يبدو أنَّ أعمال العنف المباغتة التي عرفها العامان 1881 -1882م، لن تتكرّر، فقد فازت جاذبية اليهود الاقتصاديّة الخفيّة: يستوطن العويل حيث يندر وجودهم.

لكنَّ الذي لا ريب فيه ولا جدال، هو أنّه ابتداء من العام 1881م، بدأ انقلاب حاسم في موقف المثقّفين اليهود حيال آمال الادِّغام الكامل في بلاد "روسيا وسكان روسيا". بل يخلص غ. هوسين إلى أنَّ "أعمال العنف التي كانت قد وقعت في أوديسا في العام 1871م"، هي التي "حطّمت أوهام الادِّغام هذه". لكنْ لا! ليست وحدها التي أدَّت إلى هذه النتيجة. فإذا تتبّعنا سيرة أبرز المثقفين اليهود الروس، فسوف نلاحظ أنَّ مواقف أكثرهم من روسيا، والادغام الكامل، قد تبدّلت تبدُّلاً حاداً ابتداء من أوائل العامين 1881 -1882م. وعلى الرَّغم من أنّه كان قد اتضح عندئذٍ من غير جدال، الطابع العفوي لموجة أعمال العنف، ولم يثبت بأيِّ شكل من الأشكال ضلوع السلطات فيها، بل الذي ثبت هو ضلوع الشعبيّين الثوريّين، إلاّ أنّهم لم يسامحوا الحكومة الروسيّة تحديداً على وقوعها – ولا حتى فيما بعد. ومع أن السكّان الأُوكرينيين هم الذين أدوا

الدور الأكبر في تلك الأحداث، إلاّ أنَّهم ألصقوها بالروس إلى الأبد، ولم يغفروا لهم.

لقد جاءت أحداث الثمانينات لتعيد كثيراً من [أنصار] الادِّغام إلى وعيه (لكنْ ليس الجميع، فقد بقيت فكرة الادِّغام حيّة). وها هم كتّاب اجتماعيّون يهود آخرون انعطفوا باتجاه مغاير: لا يمكن لليهود على وجه العموم أن يعيشوا بين الشعوب الأخرى، وسيبقون دائماً يرون فيهم غرباء. فأخذت "الحركة الفلسطينية" تتعاظم متسارعة.

تحت تأثير الانطباع الذي تركته أحداث العام 1881م تحديداً، أصدر الطبيب الأُوديسي ليف بينسكر (في العام 1882م في برلين)، كتيِّبه المغفل: "التحرير الذاتي. دعوة يهودي روسي إلى أبناء جلدته"، "الذي أحدث انطباعاً مهوّلاً لدى الحركة اليهوديّة الروسيّة والأوروبيّة الغربيّة". وهذا ما سنتحدَّث عنه في الفصل السابع من هذا الكتاب.

يؤكِد ب. أكسلرود أنَّ الشباب اليهوديّ الراديكاليّ اكتشف بدوره عندئذٍ بالذات، أنَّ المجتمع الروسي لم يقبله كجزء لا يتجزأ من نسيجه، فأخذوا في هذه السنوات ينكفئون عن الحركة الثوريّة. وكان أكسلرود قد رأى هذا الانكفاء في وقت مبكّر جداً. ولو استثنينا الشعبيّين فإنَّ باقي الحركات الثوريّة الأخرى كلّها، كانت دائماً ترى في اليهود جزءاً لا يتجزأ من المجتمع الروسي.

"لجنة بالين"

لكنْ على الضدّ من فتور المثقّفين اليهود تجاه فكرة الادّغام، فإنّ الدوائر الحكوميّة كانت لا تزال تعمل وفق إيقاع عصر الإسكندر الثاني، وبقي التعاطف مع المسألة اليهوديّة حاضراً لعدة سنوات أخرى، قبل أن يُستبدل به موقف تقييديٌ صارم. فبعد عام قضاه الكونت إيغناتيف في الوزارة، وواجه فيه موقفه من المسألة اليهوديّة معارضة عنيدة من قبل القوى الليبرالية في الدوائر الحكومية العليا، أُقرّ في أوائل العام 1883م.، من أعلى مرجعية، تشكيل "اللجنة العليا لإعادة النظر في القوانين النافذة في الإمبراطورية حيال اليهود"، أو ما عُرف بعد ذلك "بلجنة بالين"، نسبة إلى رئيسها الكونت بالين (كانت تلك اللجنة هي "اللجنة اليهوديّة" العاشرة). تألّفت اللجنة من 15 -20 شخصيّة ينتمون كلّهم إلى الإدارة العليا: أعضاء في المجالس الوزارية، مدراء عامون (بعضهم يحمل أسماء عائلات لامعة مثل: بيستوجيف -ريومن، وغوليتسين، وسبيرانسكي)، كما ضمّت أيضاً سبعة من "الخبراء اليهود" كانوا من كبار المتمولين، كالبارون غوراتسي غينتسبورغ، صموئيل بولياكوف، وأبرز الشخصيات الاجتماعية: عالم الفيزيولوجيا يا. غالبيرن، عالم الاجتماع ن. باكست ("ربما يكون الموقف المؤاتي الذي اتخذه أكثر أعضاء اللجنة من حلّ المسألة اليهوديّة قد تبلور تحت تأثير" باكست هذا)، والرّابين أ. درابكين. وكان هؤلاء الخبراء قد أدّوا دوراً رئيساً في إعداد المواد التي وُضعت أمام اللجنة.

لقد عبّر أكثر أعضاء لجنة بالين عن قناعتهم بأنّ "الهدف النهائي من التشريعات التي تتناول اليهود، [ينبغي ألاّ يكون] شيئاً آخر سوى إبطالها"،

"فليس هناك سوى مخرج واحد وطريق واحدة، ـ إنّها طريق تحرير اليهود وتوحيدهم مع السكان الآخرين في ظلِ قوانين واحدة". (في واقع الحال إنَّ تاريخ التشريع الروسي نادراً ما عرف مثل هذا التعقيد والتناقض اللذين شاعا خلال عقد من محاولات وضع تشريعات خاصّة باليهود: 626 مادة حتى العام 1885م! ثمَّ زيد عليها بعد ذلك، ثمَّ في السينات حقّقوا فيها وأولوا صيغها ...). وإذا كان اليهود لا يؤدّون التزاماتهم أمام الدولة على نحو ما يفعل الآخرون، فإنّه لا يجوز مع ذلك "حرمان اليهودي من الأسس التي يقوم عليها واقعه المعيشي، وتستند إليها مساواته كمواطن". وإذْ وافق أكثر أعضاء اللجنة على "أنَّ بعض جوانب حياة اليهود الداخليّة تتطلَب إصلاحاً، وأنَّ بعض أنواع نشاط اليهود يقوم على استغلال السكّان المحيطين"، إلاّ أنّهم أدانوا "تدابير التنكيل والإجراءات الاستثنائيّة". لقد حدّدت اللجنة هدف التشريعات "بمساواة اليهود في الحقوق مع الرعايا الآخرين كلِهم"، لكنّها نصحت في الوقت نفسه "بمراعاة أقصى درجات الحذر، والتدرُّج في العمل على بلوغ الهدف".

لكنَّ اللجنة عملياً لم تفعل شيئاً سوى التخفيف من صرامة القوانين التي تفرض قيوداً قاسية على اليهود. وقد تركَزت مساعيها الرئيسة في هذا السياق على التخفيف من وطأة "القواعد المؤقتة" التي فُرضت في العام 1882م، خاصّة فيما يتعلَق بحقِّ اليهود في استئجار الأراضي. وبنت اللجنة حججها كأنّها دفاع عن الإقطاعيين، وليس عن اليهود. فادّعت أنَّ حرمان اليهود من استئجار أراضي الإقطاعيين، لا يعرقل تقدُم المهن الزراعية فحسب، إنّما يُفضي أيضاً إلى ركود بعض ميادين الاقتصاد في الإقليم الغربي، فلا أحد يريد أن يستثمر في الميادين المذكورة، وهذا ليس في مصلحة الإقطاعيين. لكنَّ وزير الداخلية د. أ. تولستوي، وافق مع الأقلّية من أعضاء اللجنة على عدم إلغاء الحظر المفروض على الصفقات الجديدة لتأجير الأراضي واستئجارها.

لقد عاشت لجنة بالين خمس سنوات، أي حتى العام 1888م، وكان الصدام في عملها بين الأكثريّة الليبراليّة والأقليّة المحافظة دائماً لا يتوقف. في البداية "لم يكن في نيّة الكونت تولستوي أن يوجّه بإعادة النظر في القوانين نحو تدابير الاضطهاد مباشرة"، وهو ما تؤكِّده السنوات الخمس التي عاشتها لجنة بالين. "ولم يشأ القيصر بدوره أن يستخدم في تلك الآونة، نفوذه الشخصيّ في مسألة تشديد الاضطهاد ضدّ اليهود". فالإسكندر الثالث الذي اعتلى سُدة العرش في تلك اللحظة العصيبة، لم يُبدِ أيَّ عجلة لإزاحة الموظفين الليبراليين السابقين، ولا لاعتماد سياسة صارمة لحكومته: لقد تروَّى طويلاً. "على امتداد عهده كلّه بقيت مسألة إعادة النظر في التشريعات التي تخصُّ اليهود مفتوحة". لكنَّ رأي القيصر مال في العامين 1886 -1887م نحو تشديد القيود الخاصّة على حركة اليهود، فبقي عمل اللجنة من غير نتائج تُذكر.

وكان يمكن أن يكون استمرار تهرُّب اليهود من تأدية الخدمة العسكريّة، أحد دوافعه الأولى لفرض مزيد من الصرامة أو الضغط عليهم، عداك عمَّا كان في عهد والده. فبالمقارنة النسبيّة مع المكلَّفين المسيحيّين، كان تخلُّف اليهود عن تأديتها ملحوظاً جداً. وبحسب نظام العام 1874م الذي ألغى القُرعة، باتت الخدمة العسكرية الآن واجباً إلزامياً على مواطني الإمبراطوريّة كلِّهم من غير تمييز، لكنْ شريطة أن يكون هناك بديل لغير المؤهلين لتأديتها: مسيحيّ بدلاً عن مسيحي، ويهوديٌّ بدلاً عن يهودي. بالنسبة لليهود، كان هذا الشرط يتحقّق بصعوبة. فقد شاعت بين هؤلاء هجرة المكلَّفين تهرُّباً من الخدمة العسكريّة، كما كان الإبهام في إحصاء عدد السكّان اليهود، والإهمال في مسك سجلات الأحوال الشخصيّة، وعدم دقّة المعلومات عن الحالة العائليّة للمكلَفين، وتحديد مكان إقامة كلٍّ منهم، هذا كلّه شكّل وسيلة ناجعة استخدمها المتخلِّفون عن تأدية الخدمة العسكرية على أحسن وجه. (كان تقليد هذه الالتباسات كلّها، قد امتد منذ أزمنة الكاغالات، وقد حافظوا عليه عن

سابق قصد لتخفيف وطأة الإتاوات). "في العامين 1883 و1884م.، لم يكن للحالات التي اعتُقل فيها خلافاً للقانون، اليهود المتزوجون حديثاً، سوى ذريعة واحدة، هي أنّهم يمكن أن يتواروا". (من الجدير ذكره أنّ هذه الطريقة كانت تُستخدم سابقاً في أماكن معيّنة ضدّ المكلّفين المسيحيّين أيضاً). في بعض الأماكن أخذوا يطلبون من اليهودي المكلّف صورة شخصيّة، في الوقت الذي لم تكن فيه هذه الطريقة مستخدمة في تلك الأزمنة إطلاقاً. أمّا في العام 1886م.، فقد صدر "قانون مجحف جداً فرض بعض التدابير التي تهدف إلى تصحيح تأدية اليهود الخدمة العسكريّة"، ومن بين الإجراءات الأخرى التي أقرّها القانون المعني، إجراء قضى "بتغريم كلّ يهودي يتهرب من تأدية الخدمة العسكريّة بثلاث مئة روبل يدفعها أقاربه". "منذ العام 1887م أوقفوا إجازة اليهود المتطوعين [أي الذين يفيدون من امتياز الدرجة العلمية في الخدمة العسكرية]، للتقدم إلى امتحان رتبة ضابط". (في عهد الإسكندر الثاني كان يحقّ لليهود أن ينالوا رتبة ضابط). لكنّ وظائف الأطباء الضباط، بقيت متاحة أمام اليهود.

وإذا أخذنا بعين الحسبان أنّ عشرين مليوناً من "الجنسيات الأخرى" التي تعيش على أراضي الإمبراطورية، أُعفوا في تلك السنوات نفسها من الخدمة العسكرية، أفلم يكن حرياً أن يُعفى منها اليهود حينئذٍ أيضاً، بدلاً من أن يُمنحوا تسهيلات على مضايقات أخرى؟ ... أم أنّ إرث مقصد نيقولاي الأول: إدغام اليهود بالمشترك الروسي عبر الخدمة العسكرية، واصل حضوره في هذا الميدان؟ إشغال الذين "لا عمل لهم"؟ وإلى جانب هذا، انخرط اليهود حشوداً غفيرة في مؤسسات التعليم العام. فمنذ العام 1876حتى العام 1883 زادت أعداد اليهود في المدارس والمعاهد بمعدّل الضعف، أمّا في الجامعات فقد زاد عدد الطلاب اليهود بين العام 1878 والعام 1886 بمعدّل ستة أضعاف، فبلغ 14%5.. وعند نهاية عهد الإسكندر الثاني كانت قد وردت من السلطات المحليّة تقارير تعبّر عن قلقها من هذا الوضع. ففي العام 1878م كتب الحاكم العام في مينسك يقول في تقريره:

"إنَّ اليهود بما يملكون من مال، يوفرون لأبنائهم تربية أفضل من الروس، وإنَّ الحالة الماديّة للطلاب اليهود أفضل من تلك التي يعيشها الطلاب المسيحيّون، وكيلا يتفوّق العنصر اليهودي على السكان الآخرين، ينبغي اعتماد معيار نسبي لدى قبول اليهود في المدرسة المتوسِّطة". ثمَ بعد قلاقل اندلعت في بعض المدارس الجنوبية في العام 1883م.، أعلن المشرف العام على الدائرة التعليميّة في منطقة أوديسا، الموقف نفسه. وفي العامين 1883 و1885 أعلن الحاكمان العامَّان اللذان حكما على التوالي في نوفوروسيا (أوديسا)، أنَّ "المؤسسات التعليمية هناك تغصُّ باليهود"، لذلك ينبغي إمَّا "تقليص أعداد اليهود في المدارس والمعاهد" بمعدل خمسين بالمئة من "العدد الكلي للطلاب"، أو "اعتماد معيار أكثر عدالة يتوافق مع نسبة اليهود في التعداد العام للسكان". (في العام 1881م بلغت نسبة التلاميذ اليهود في بعض مدارس دائرة أوديسا التعليمية 75% من العدد الكلي للتلاميذ. وفي العام 1886م وصل تقرير من محافظ خاركوف "يشكو فيه من فيض التلاميذ اليهود في المدارس العامة".

في الحالات المذكورة كلِّها لم تر اللجنة الوزارية أيَّ إمكانية لاتخاذ قرارات عامة تقلِّص من أعداد التلاميذ اليهود، فاكتفت بإرسال التقارير لدراستها في لجنة بالين، إلاَّ أنَّها لم تلق فيها أيَّ مساندة. منذ السبعينيّات برزت مشاركة نشطة للطلاب على وجه الخصوص، في القلاقل الثوريّة. وبعد مقتل الإسكندر الثاني انصبَّت جهود الدولة على إخماد الحركة الثورية، وما كان لهذا التوجُه أن يغفل "البؤر الثوريّة" الطلابيّة (كانت تغذّيها صفوف المدارس العليا). هنا برز موقف آخر أثار قلق الحكومة: فضلاً عن تضاعف أعداد اليهود في أوساط الطلاب، تعاظمت أيضاً بشكل ملحوظ مشاركتهم في الحركة الثوريّة. فتميَّزت بثوريّتها بين المؤسسات التعليميّة العليا: أكاديمية الطب الجراحي (التي صارت بعد ذلك إلى أكاديمية طبية عسكرية). وكان اليهود يفضِّلون الانتساب إليها خاصة. فقد سجَّلت محاكمات السبعينيّات حضوراً ليهود

كانوا من طلاّب هذه الأكاديميّة. وفي العام 1882م صدر أول قرار خاصّ قضى بألاّ يشكّل الطلاب اليهود بين طلاّب الأكاديميّة الطبيّة العسكريّة أكثر من 5%. ثمّ تبعه في العام 1883م قرار مماثل بخصوص معهد التعدين، تلاه في العام 1884م قرار بخصوص معهد الاتصالات. وفي العام 1885م صدر قرار قضى بتقليص قبول الطلاب اليهود في معهد خاركوف التقني إلى عشرة بالمئة، أمّا في العام 1886م.، فقد صدر قرار بمنع انتساب اليهود إلى معهد البيطرة في خاركوف منعاً باتّاً: لأنّ "مدينة خاركوف كانت دائماً مركزاً للتحريض السياسيّ، ووجود اليهود فيها بأعداد كبيرة إلى هذا الحدِ أو ذاك، ليس أمراً محبّذاً، بل خطيراً". لقد توهّموا أن مثل هذه الإجراءات يمكن أن تساعدهم على تخفيف وقع ضربات الحركة الثوريّة.

الفصل السادس
في الحركة الثوريّة الروسيّة

في ستينيّات ـ سبعينيّات القرن التاسع عشر، وفي مسيرة الخطوات الواسعة التي كانت تخطوها الإصلاحات في روسيا، لم تكن تتوافر الأسس الاقتصاديّة والاجتماعيّة لانطلاق حركة ثوريّة نشطة في هذه البلاد. بيد أنّها انطلقت مع النضوج المبكر لثمار الأيديولوجيا، في عهد الإسكندر الثاني تحديداً، ومع بدء خطواته التحريريّة: القلاقل الطلابيّة التي وقعت في العام 1861م،، في بطرسبورغ، والحرائق المهوّلة التي أُضرمت هناك أيضاً في العام 1862م ورافقها تحريض على سفك الدماء شنّته حركة "روسيا الفتيّة"، ثمّ في العام 1866م جاءت طلقة كاراكوزوف لتعلن بدء حقبة جديدة من الإرهاب امتدت نصف قرن آخر. في عهد الإسكندر الثاني هذا بالذات، حينما بلغ تخفيف القيود عن حياة اليهود في روسيا حدّه الأقصى، أخذت تظهر في أوساط الثوريّين أسماء يهوديّة. ولم يكن في دوائر ستانكوفيتش، وغيرتسن -أوغاريوف، ولا في أوساط البيتراشيفسكيين، أيُ يهودي بعد (نستثني من هذا بولونيا). لكنّنا نصادف في الاضطرابات الطلابية التي اجتاحت بطرسبورغ في العام 1861م، كلاً من ميخوئيلاس، وأُوتين، وغين. وسوف نرى أُوتين هذا بعد ذلك، في حلقة نيتشايف. إنّ مشاركة اليهود في الحركة الثوريّة الروسيّة تتطلّب منّا أن نوليها اهتماماً، لأنّ الراديكالية الثوريّة تحوّلت إلى اتجاه متعاظم الشأن في الأوساط الطلابيّة اليهوديّة. لقد أضحت الحركة الثوريّة اليهوديّة جزءاً نوعياً لا يتجزّأ من العملية الثوريّة في روسيا. والنسبة العدديّة بين الثوريّين الروس واليهود في مختلف الأعوام،

تعطي انطباعاً يثير الفضول. ومن النافل أن نشير في هذا السياق إلى أنَّه، إذا كان الحديث سيجري في الصفحات التالية عن الثوريين اليهود بشكل أساس، فلأنَّ هذا هو ميدان عرضنا، ولا يعني في أيٍّ حال من الأحوال أنَّه لم يكن بين الروس كثير من الثوريّين العظماء.

خلاصة القول: لم يلتحق بالحركة الثوريّة قبل بداية السبعينيّات، سوى قلّة من اليهود، ولم يؤد هؤلاء سوى أدوار ثانويّة (السبب الرئيس في هذا هو أنَّ الطلاّب اليهود كانوا لا يزالون قلّة). وما تجدر الإشارة إليه هو أنَّ ليف دييتش، الذي كان عمره في العام 1866م عشر سنوات فقط، استاء أشدَّ الاستياء من طلقة كاراكوزوف، وكان هذا يعدُّ نفسه "وطنيّا" مخلصاً لروسيا. كما لم تكن لليهود مساهمة رائدة في الحركة النهلستية (العدمية ـ ح. إ.) الروسيّة إبّان الستينيّات، مع أنَّ فكرهم العقلانيّ مكّنهم من أن يستوعبوها بسهولة وحماس. مع ذلك "أدّت النهلستية في أوساط الطلاب اليهود، دوراً مثمراً أكثر من ذاك الذي كان لها في أوساط الطلاب المسيحيّين".

لكنْ مع بداية السبعينيّات، أخذت حلقة الشباب اليهود التي تشكّلت حول المدرسة الرَابينية في فيلنوس، تؤدي دوراً مهماً في الحركة الثوريّة الروسيّة (كان بينهم ف. يوهيلسون الذي سيغدو إرهابياً معروفاً، وأ. زونديليفيتش ــ كان الاثنان ناجحين في دراستهما، وقد بلغا درجة الرّابين؛ وأ. ليبرمان الذي سيصدر جريدة "البرافدا" الفيينيّة، وآنّا إيبيشتين، ومكسيم رومّ، وفينكلشتين). وتأتي أهمية هذه الحلقة من أنّها كانت على اتصال وثيق مع المهرِبين اليهود الذين كانوا ينقلون الدراسات السريّة، والمطلوبين أنفسهم عبر الحدود.

في العام 1868م.، بعد أن أنهى دراسته في الجمنازيوم، انتسب ناتاسون إلى أكاديمية الطِبِّ الجراحي (الأكاديمية الطبية العسكرية، فيما بعد)، وغدا منذ ذلك الحين من أعظم التنظيميّين الثوريّين، وشخصية من الشخصيّات الثوريّة الرئيسة. وسرعان ما وضع من زميلته في الصفِّ اولغا شليسنر (دعاها تيخوميروف

"صوفيا بيروفسكايا الثانية"، مع أنَّها كانت تسبقها زمنياً)، ثم زوجته بعد ذلك، أسس نظام الحلقات "التثقيفيّة"، أي الدعائيّة ("وهو عمل ثقافيّ ثوريّ تحضيريّ في أوساط الشباب المثقَف")، في عدد من المدن الرئيسة. (لقد أُطلق على هذه الحلقات بغير حقٍ، لقب "التشايكوفسكيين"، نسبة إلى ن. ف. تشايكوفسكي الذي كانت مشاركته فيها ثانويّة ليس لها أهمية تُذكر). ثمَّ سرعان ما ابتعد ناتاسون عن حلقة نيتشايف (بل لم يتردّد فيما بعد في أن يعرض رؤى أفراد هذه الحلقة على المحقّق). في العام 1872م رحل ناتاسون إلى زيوريخ، إلى بيوتر لافروف (المرشد الأكبر "لتيار الدعاية السلميّة"، لا العصيان)، ليؤسّس هناك هيئة ثورية دائمة. وفي العام نفسه حُكم عليه بالنفي إلى مكان قريب، إلى شيتكورسك، لكنَّ مساعي حميّه، والد أولغا شليسنر، نجحت في نقله إلى فورونيج، ثمَّ إلى فنلندا، ومن ثمَّ حرّاً طليقاً إلى بطرسبورغ. حيث وجد هناك الكآبة، والانهيار، والخمول. فجاب وجمع ووحّد بين المجموعات المبعثرة، فأسس بذلك تنظيم "الأرض والحريّة" الأول (لم يكن معروفاً تقريباً، طغى عليه التنظيم الثاني). كما سافر إلى أوروبا الغربية؛ فجمع مئات آلاف الروبلات التي استخدمها لدعم التنظيم.

كان ناتاسون واحداً من المنظِّمين الرئيسين للشعبويّة الروسيّة، وأبرز ثوريٍ في النصف الأول من سبعينيّات القرن التاسع عشر. ففي محيطه ظهر ليف دييتش الذي سيغدو فيما بعد أشهر من نار على علم، أمَّا الشعبيُّ الصلب ألكساندر ميخايلوف، فقد عدَّ نفسه تلميذ "مارك الحكيم". كان ناتاسون يعرف كثيراً من الثوريين معرفة شخصية. لكنَّه لم يكن خطيباً ولا كاتباً، إنَّما كان رجلاً تنظيمياً بارعاً: لقد بدا كأنَّه لا يهتم بالرؤى النظريّة، ولا بالأيديولوجيا، فلم يدخل يوماً في سجال نظريٍ مع أحد، لذلك كان في حالة سلام مع مختلف الاتجاهات (ما عدا التكاتشوفيين المتطرِفين، أسلاف لينين)، لقد كان يضع كلّ أعضاء التنظيم في المكان المناسب بحسب الكفاءة والإمكانيات. وفي سنوات الصراع المرير بين الباكونيين واللافروفيين، اقترح ناتاسون وضع حدٍ

"للجدال في موسيقى المستقبل"، والالتفات إلى متطلّبات النضال الواقعية. في صيف العام 1876م.، خطّط لهروب بيوتر كروبوتكين المدوِي من المشفى العسكرية، ونفَذ الهروب على صهوة الجواد "بربر". في كانون الأول من العام نفسه، دبّر وحشد أوّل تظاهرة شعبيّة عند دير قازان (لحظة نهاية الخدمة الدينية في يوم عيد القديس نيقولاي المغبوط)، فاجتمع الثوريون كلّهم هناك، وفي تلك التظاهرة ألقى غريغوري بليخانوف خطبته الشهيرة الأولى، وفيها رُفعت لأوّل مرّة أيضاً، الراية الحمراء، راية حزب "الأرض والحريّة". لكنْ في العام 1877 م.، أُلقي القبض على ناتاسون، وبعد ثلاث سنوات قضاها في السجن نُفي لسنوات طويلة إلى ياقوتيا، فأُبعد عن الشؤون الثوريّة المباشرة حتى العام 1890م.

لقد كان في حلقة "التشايكوفسكيين" من اليهود بقدر ما كان في حلقات بطرسبورغ، وموسكو، وكييف، وأوديسا. (في حلقة كييف: ب. ف. أكسلرود، وغريغوري غوريفيتش، الدبلوماسي والناشر المعروف، وسيميون لوريه، وليزير ليفينتال اللذان سيغدوان بروفسورين فيما بعد، والاختان كامينر). أمَّا أول حلقة نهليستية أسّسها ل. دييتش في كييف، "فكانت تتألّف حصراً من الطلاب اليهود". وبعد مظاهرة ميدان قازان قُدم ثلاثة من اليهود إلى القضاء (لكنَّ ناتاسون لم يكن بينهم). وفي "قضية الخمسين" الموسكوفيّة عام 1877م.، وردت أسماء بعض اليهوديّات اللواتي كنَّ يعملن بالتحريض في أوساط عمال المعامل. أمَّا "قضية ال193"، فكان فيها ثلاثة عشر متهماً يهوديًا. كما يمكن أن نشير بين الشعبيين إلى يوسف أبتيكمان وألكساندر خوتينسكي.

كان ناتاسون هذا نفسه، صاحب فكرة ضرورة استقرار الثوريّين في الأوساط الشعبية (بين الفلاحين)، ليتحوّلوا إلى قادة للشعب. وفي العام 1873م بدأت هذه الحركة الشهيرة التي عُرفت منذ ذلك التاريخ بحركة "السعي إلى الشعب" التي كانت قد أطلقت شرارتها الاولى حلقة "الدولغوشينيّين" (دولغوشين، ودموخوفسكي، وغاموف وآخرون)، ولم يكن فيها أيُّ يهوديّ البتة. لكنَّ

اليهود ما لبثوا أن "انطلقوا إلى الشعب" بدورهم. (وأيضاً على الضدّ: في أوديسا حاول أكسارود استقطاب جليابوف إلى تنظيم ثوريّ سرّيّ، لكنّ هذا رفض: كان لا يزال عندئذٍ "كولتوتورتريجر"[1]). في السبعينيّات لم يكن عدد مثل هؤلاء "الشعبويّين" يتجاوز 15 -20 شخصاً، وكانوا كلّهم تقريباً من أتباع لافروف، وليس باكونين. (المتطرفون فقط كانوا متحمسين لدعوات باكونين إلى العصيان. ومن هؤلاء دييتش الذي أثار مع ستيفانوفيتش "عصيان تشيغيرينسك"، إذْ خدع الفلاحين وقال لهم: إنّ القيصر محاط بالأعداء، لذلك أمر بأن ينقلوا عنه إلى الشعب أن يطيح بهذه السلطات ويستولي على الأرض ويقيم نظاماً حراً).

ومن الجدير أن نشير هنا إلى أنّ أيّ ثوريّ يهوديّ من ثوار تلك العقود، لم يمارس العمل الثوريّ بدافع من فقره، فأكثرهم كان ينتمي إلى عائلات ثريّة (في سير الشخصيّات التي تضمّنتها مجلدات الموسوعة اليهوديّة الروسيّة الثلاثة، غير قليل من أمثال هؤلاء)، ما عدا بافل أكسلرود الذي كان ينتمي إلى عائلة في غاية الفقر، ونحن كنّا قد نوّهنا إلى أنّ الكاغال كانت قد أرسلته إلى مدرسة عامّة بحكم التوزيع الإلزاميّ فقط (ومن ثمّ أُرسل بشكل طبيعي إلى جمنازيوم ماغيلوف، وبعدها إلى ليسيه نيجني). وإلى العائلات التجاريّة الثريّة كان ينتمي كلٌّ من ناتاسون، وليف دييتش، ويوسف أبتيكمان (في سلالته كثير من التلموديين، وعارفي الشريعة، ومن هؤلاء أعمامه كلّهم)؛ وأ. خوتينسكي، وغ. غوريفيتش، وسيميون لوريه (كانت عائلة هذا الأخير تُعدُّ حتى "بين اليهود، من عائلاتهم الارستقراطيّة، بل كانوا قد أعدُّوا الصغير شمعون ليصبح رابيناً، لكنّ موجة التنوير دفعت والده غيرتس لوريه ليرسله إلى الجمنازيوم": فليغد

(1) kulturtrager —كلمة ألمانية معناها: حامل الثقافة. صفة هزلية تُطلق على من يخفي مأرب خاصة خلف قناع نشر الثقافة والمعرفة (تُطلق على المستعمرين عادة). —ح. إ.

بروفسوراً)؛ وأوّل ماركسية إيطالية آنّا روزينشتين (منذ طفولتها كانت تحيط بها الوصيفات، واللغات الأجنبيّة)، والتراجيديون موسى رابينوفيتش، وبيتي كامينسكايا، وفيليسيا شيفتيل، ويوسف غيتسوف وكثيرون آخرون. فضلاً عن كريستينا (خاسيا) غرينبيرغ "التي كانت تنتمي إلى عائلة تجاريّة ثريّة متزمّتة"، وانتسبت في العام 1880م إلى "الإرادة الشعبية" ... وكانت مديرة شقة سرّية؛ كما شاركت في الإعداد لاغتيال القيصر الإسكندر الثاني، وباتت في العام 1882م مدبِّرة ورشة سرِّية لتصنيع الديناميت، حتى انتهى بها المطاف أخيراً منفيّة. كما لم تكن فاني مورينيس من عائلة فقيرة، وقد "شاركت هذه بدورها في الإعداد لاغتيال الإسكندر الثاني"، فأمضت عامين أشغال شاقة في سجن كاريا. ومن العائلات الرّابينية: ليوبوف أكسلرود ("أورثوذكس") التي ستغدو دكتورة في الفلسفة، وإيدا أكسلرود؛ أومن المشّان الأثرياء بما يكفي ليرسلوا أبناءهم إلى الجمنازيوم مثل: أيزيك أرونتشيك (بعد أن أنهى دراسته في المدرسة انتسب إلى معهد هندسة الاتصالات في بطرسبورغ، لكنَّه غادره بعد ذلك ليتفرّغ للعمل الثوري)، وألكساندر بيبيرغال، وفلاديمير بوغوراز، ولازار غولدنبيرغ، والأخان ليفينتالي. وليس من النادر أن تتراءى في السير الأكاديميّة الطبيّة العسكريّة – لدى ناتاسون، وبيبيرغال، وإسحاق بافلوفسكي الذي سيغدو من مناهضيِّ العمل الثوريّ، وم. رابينوفيتش، وأ. خوتينسكي، وسولومون تشودنوفسكي، وسولومون أرونزون الذي ألفى نفسه مصادفة في هذا الوسط. إذن لم يكن الشحُّ المادّي هو دافع هؤلاء للعمل الثوري، إنّما قوّة العقيدة، اليقين.

ما يثير الفضول، أنَّ التحاق الشباب بالثورة لم يثر شقاقاً في العائلات اليهوديّة بين "الآباء والأبناء"، أو نادراً ما كانت مثل هذه القطيعة تقع. "فلم يكن الآباء اليهود يُعنِّفون أبناءهم كثيراً، كما كان يحدث عندئذٍ في العائلات المسيحيّة، فيقع الشقاق فيها". (مع أنَّ غيسيا غيلفمان، تركت عائلتها التوراتيّة التقليديّة خلسة). ففي غالب الأحيان "لم يكن الآباء اليهود خصوماً لأبنائهم

البتة". هكذا كان غيرتس لوريه مثلاً؛ وأكثر من ذلك كان الطبيب الكييفي إسحاق كامينير: لقد شارك أفراد عائلته كلّهم في الحركة الثوريّة إبّان السبعينيّات، وهو نفسه "قدّم كثيراً من الخدمات للثوريين من منطلق التعاطف معهم"، وصار أزواج بناته الثلاث شخصيّات ثوريّة (في التسعينيّات التحق الطبيب بالحركة الصهيونية، وصار صديقا لآخاد -غاعام). إذن، لا يجوز في أيٍّ حال من الأحوال أن تُنسب إلى الثوريون اليهود الأوائل في سبعينيّات القرن 19 م.، دوافع فطرية لمعاداة الروس، كما يرى بعضهم في روسيا اليوم.

لقد بدأ كلُّ شيء من "نهليستية" الستينات. فبعد أن التحق الشباب اليهوديّ في روسيا بحركة التنوير "الأجنبيّة الغريبة عنه"، وقرأ الأدب الروسي، "سرعان ما انضمّ بعدئذٍ للنهليستية الأكثر تقدُّماً في ذلك الحين، وما سهّل له ذلك أنّه رمى بوصايا العاديات اليهوديّة بعيداً عنه". حتى "اليشيبوتي المتزمِت الغارق في دراسة التلمود، كان بعد حوارين - ثلاثة مع النهليستي، يهجر تلك الرؤى الأبوية"، بل كان يتخلّى عن مظاهرها الخارجيّة أيضاً. "لقد كان التواصل السطحيّ مع ألفباء "الآخر" الذي بالكاد يكون قد أحدث خرقاً في رؤاه الأصوليّة (ينسحب هذا حتى على اليهوديّ التقيّ الورع)، كافياً وحده ليجعله قادراً على أن يمضي بعيداً حتى آخر الشوط". بلمح البصر استولت على فكر هؤلاء اليهود الشباب القيم الكونيّة العامّة: تحرير الإنسانيّة من الفقر والعبوديّة!

فضلاً عن هذا كله، كان للأدب الروسيّ حضوره الفاعل في حياة الشباب اليهوديّ. ففي الجمنازيوم تربّى بافل أكسلرود على أيدي تورغينيف، وبيلينسكي، ودوبروليوبوف (وفيما بعد دفع به لاسال إلى الثورة مباشرة). كما أُولع أبتيكمان بتشرنيشيفسكي، ودوبروليوبوف، وبيساريوف (وبوكليم أيضاً). وقرأ لازار غولدينبيرغ كلاً من دوبروليوبوف، تشيرنيشيفسكي، بيساريوف ونيكراسوف، أمّا رودين، فقد أسره بموته على المتاريس. وكان سولومون تشودنوفسكي من أكبر المولعين ببيساريوف، فقد بكاه بحرقة حينما مات.

ومن الأدب الروسيّ انبثقت نهلستيّة سيميون لوريه أيضاً. وعلى هذا النحو كان كثيرون آخرون يستعصي إحصاؤهم. لكنْ الآن، بعد أن بتنا على مسافة قرن منهم، قلّما يتذكَر أحد ألوان طيف تلك الحركة الأولى للشباب اليهوديّ في روسيا. لم تكن قد ظهرت "في الشارع اليهوديّ" عندئذٍ أيٌّ حركة سياسية جدّية؛ أمّا في الشارع الروسيّ، فكانت قد بدأت حركة الشعبيّين التي ادّغمت بحركة التحرر الروسيّة. وكان الأدب الروسيّ، والأدب الاجتماعيّ الراديكاليّ، قد أديا دوراً عظيماً في إعداد سبيل ذلك الادّغام.

لكنّ الانعطاف نحو ما هو روسيّ رافقه انعطاف عمّا هو يهوديّ. فبين هؤلاء اليهود الأوائل، ثوريّون "نشأ لدى كثير منهم عداء مرير لليهودية القديمة كلها، فازدروها، واحتقروها كما لو كانت حركة طفيليّة شاذّة تعيش خارج التاريخ. ففي السبعينيّات تشكّلت خلايا الشباب اليهودي الراديكالي الذي من أجل قيم الشعبيّة ومثلها، أخذ يبتعد عن شعبه ... ويدّغم بحمية في المجتمع الروسي، ويتخلّق بالطباع القوميّة الروسيّة. قبل السبعينيّات لم ير الاشتراكيون اليهود ضرورة للعمل الدعائي في أوساط أبناء جلدتهم، لأنّ فكرتهم عنهم كانت أنّهم غير مؤهّلين لاستيعاب الأفكار الاشتراكيّة بحكم قطيعتهم تاريخيّاً مع العمل الزراعي. فلم يكن بين اليهود فلاحون. "ولم يخطر لأيٍّ من الثوريّين اليهود في السبعينات أنّه ينبغي العمل من أجل الأُمة كلّها فقط". وغنيٌّ عن البيان القول: إنّهم كانوا يستخدمون اللغة المهيمنة، ويتوجّهون إلى الفلاحين الروس فقط. "بالنسبة إلينا لم يكن للكادحين اليهود وجود. كنّا ننظر إليهم بعين المتروسنين: ينبغي على اليهودي أن يدّغم بالسكان الأصليّين"، حتى الحرفيين رأوا فيهم مستغِلّين محتملين: يعمل لديهم صبية صنّاع، وصبية متدرّبون. كما لم يعطوا أهمية للعمال والحرفيين الروس بصفتهم طبقة مستقلة قائمة بذاتها — لم يهتمُوا بهم إلاّ من باب تحويلهم إلى اشتراكيين، كي يسهل عبرهم العمل في أوساط الفلاحين.

وإذْ استغرقوا في عملية الادّغام، جنحوا بحكم وضعهم نفسه نحو الراديكاليّة: لم تكن لديهم جذور محافظة راسخة في التربة التي اكتسبوها للتو. "لقد أعددنا عدتنا لننزل إلى الشعب، إلى الشعب الروسيّ طبعاً. ورفضنا الدين اليهوديّ وكلّ دين آخر من غير شكٍّ، ورأينا في اللهجة العاميّة لغة مصطنعة، أمّا اليهوديّة القديمة، فرأينا فيها لغة ميتة ... لقد كنّا دعاة صادقين للإدّغام، ورأينا في التعليم الروسيّ منقذاً لليهود ... لكنْ لماذا سعينا للعمل في أوساط الشعب الروسيّ وليس اليهوديّ؟ هذا ما يفسره اغترابنا في تلك الآونة عن الثقافة الروحيّة لليهوديّة الروسيّة، وموقفنا السلبي من قادتها الأصوليين والبرجوازيين الذين خرجنا نحن أنفسنا من أوساطهم ... لقد افترضنا أنّ تحرير الشعب الروسيّ من براثن الاستبداد، ونير الطبقات المالكة، سيفضي حتماً إلى تحرير شعوب روسيا الأخرى كلّها، بما في ذلك الشعب اليهودي، سياسياً واقتصادياً. ينبغي أن نعترف أيضاً بأنّ الأدب الروسيّ، خلق لدينا تصوُراً عن اليهود بأنّهم طبقة طفيليّة وليسوا شعباً".

كما كان ثمّة حضور هنا للشعور بالواجب تجاه الشعب الروسيّ العظيم، فضلاً عن أنّ " الشعبيّين الثوريّين الداعين للعصيان عندئذٍ، كانوا على يقين بأنّ اشتعال انتفاضة شعبيّة يمكن أن يكون وشيكاً". في السبعينيّات "مضى الشباب اليهودي المثقّف ... إلى الشعب، معوّلاً على أنّه سيتمكّن بيديه العاريتين الضعيفتين من أن يدفع بالثورة الفلاحيّة في روسيا إلى الأمام". فقد كتب أبتيكمان يقول عندئذٍ: إنّ ناتاسون "مثله كمثل متسير ليرمونتوف، كان يعرف سلطة فكرة واحدة فقط، شعوراً ملتهباً واحداً لا غير: تحقيق سعادة الشعب، والولع بالنضال من أجل تحريره". أمّا أبتيكمان، فكان بحسب وصف دييتش له "ذا بنية فيزيائيّة منهكة، صغير القامة، شاحب الوجه"، لكنّ "شخصيّته كانت تتميّز بسمات قوميّة صارخة"، فبعد أن عُين مساعد طبيب في القرية، أخذ يدعو إلى الاشتراكيّة بين الفلاحين مستعيناً بالإنجيل. ولم يكن ذلك التحوُل للاستناد

إلى المسيحيّة، أو استخدامها قد حصل لدى الشعبيين اليهود الأوائل إلاّ تحت تأثير حلقة الدولغوشيّين السابقة الذين كانوا يكتبون مباشرة على عوارض على شكل صليب: "باسم المسيح. الحريّة. المساواة. الأُخوَّة"، كان الإنجيل متداولاً عندهم كلّهم تقريباً. فأبتيكمان يكتب عن نفسه: "أنا اعتنقت المسيحيّة بدافع داخلي عميق، اعتنقتها بحبّي للمسيح" (ويجب ألاّ نخلط بين دوافع أبتيكمان ودوافع تان - بوغوروز الذي اعتنق المسيحيّة في الثمانينيات "ليتخلّص من المضايقات التي تسبّب له بها منشأه اليهوديّ". أو بينها وبين التظاهر الصريح الذي افتعله دييتش عندما مضى ليحرِض المولوكانيّين بصفته "أرثوذكسياً حقيقياً"). لكنَّ أبتيكمان يُضيف: "ليست التوبة ضروريّة البتّة كي يهب المرء نفسه لخدمة الشعب"؛ في موقفي من الشعب الروسي "لم يكن لديَّ أيُّ إحساس بالندم. بل أين كان يمكن أن يتولّد عندي مثل هذا الإحساس؟ لقد كان أحرى بي وأنا ابن شعب مضطهد أن أُبرز كمبيالتي المستحقة وأُطالب بتسديدها، لا أن أُبادر إلى تأدية دينٍ وهميّ ما! كما لم ألحظ مثل هذا الشعور بالندم لدى رفاقي النبلاء الآخرين الذين ساروا معي على الطريق نفسها".

حركة النزول إلى الشعب

نشير في هذا السياق إلى أنّ فكرة التقريب بين الاشتراكيّة المرجوّة والمسيحيّة، شاعت في تلك الآونة لدى كثير من الثوريّين الروس، سواء كوعي ذاتيّ تبريريّ سامٍ، أو كطريقة عمليّة مناسبة. فقد كتب ف. ف. فليروفسكي يقول: "لم تفارق ذهني يوماً المقارنة بين الشباب الذي يُعدُّ نفسه للنزول إلى سوق العمل، وبين المسيحيّين الأوائل". ثمّ كانت الخطوة التالية مباشرة: "إنّي وصلت بعد تفكير متواصل، إلى قناعة مفادها أنّ تحقيق النجاح ممكن بطريقة واحدة فقط: تأسيس دين جديد ... ينبغي إقناع الشعب بتكريس جهوده لخدمة نفسه فقط ... وقد سعيتُ إلى تأسيس دين الأُخوُّة"، ثمّ حاول أنصار فليروفسكي الشباب أن يجروا تجربة من هذا النوع في الأوساط الشعبيّة: كيف سينظر الشعب إلى دين من غير إله وقديسين". بل كتبَ نصيره الدولغوشيني غاموف بصراحة: "يجب ابتكار دين ضدّ القيصر والحكومة ... ووضع تعاليم دينيّة، ونظم صلوات بهذه الروح".

وهناك تفسير آخر للثورية اليهوديّة في روسيا. يحلّله أ. سيريبرينيكوف ويرفضه: "هناك وجهة نظر مفادها إنّه لو أُلغيت حدود الاستيطان اليهوديّ في أثناء إجراء إصلاحات الأعوام 1861 -1863م.، لسار كلُ شيء في تاريخنا بشكل مختلف ... فلو ألغى الإسكندر الثاني حدود الاستيطان اليهوديّ، لما كان هناك لا البوند ولا التروتسكيّة!" وهو يشير هنا إلى سيل الأفكار الاشتراكيّة الأمميّة الذي تدفَق على روسيا من الغرب. "لو كان إلغاء حدود الاستيطان أمراً جوهرياً فعلاً بالنسبة إليهم، لتوجه نضالهم كله في هذا الاتجاه. لكنَّهم لم يعملوا على

حركة النزول إلى الشعب

نشير في هذا السياق إلى أنَّ فكرة التقريب بين الاشتراكيّة المرجوّة والمسيحيّة، شاعت في تلك الآونة لدى كثير من الثوريّين الروس، سواء كوعي ذاتيّ تبريريّ سامٍ، أو كطريقة عمليّة مناسبة. فقد كتب ف. ف. فليروفسكي يقول: "لم تفارق ذهني يوماً المقارنة بين الشباب الذي يُعدُّ نفسه للنزول إلى سوق العمل، وبين المسيحيّين الأوائل". ثمَّ كانت الخطوة التالية مباشرة: "إنّي وصلت بعد تفكير متواصل، إلى قناعة مفادها أنَّ تحقيق النجاح ممكن بطريقة واحدة فقط: تأسيس دين جديد ... ينبغي إقناع الشعب بتكريس جهوده لخدمة نفسه فقط ... وقد سعيتُ إلى تأسيس دين الأُخوَّة"، ثمَّ حاول أنصار فليروفسكي الشباب أن يجروا تجربة من هذا النوع في الأوساط الشعبيّة: كيف سينظر الشعب إلى دين من غير إله وقديسين". بل كتبَ نصيره الدولغوشيني غاموف بصراحة: "يجب ابتكار دين ضدَّ القيصر والحكومة ... ووضع تعاليم دينيّة، ونظم صلوات بهذه الروح".

وهناك تفسير آخر للثورية اليهوديّة في روسيا. يحلّله أ. سيريبرينيكوف ويرفضه: "هناك وجهة نظر مفادها إنّه لو أُلغيت حدود الاستيطان اليهوديّ في أثناء إجراء إصلاحات الأعوام 1861 -1863م.، لسار كلُ شيء في تاريخنا بشكل مختلف ... فلو ألغى الإسكندر الثاني حدود الاستيطان اليهوديّ، لما كان هناك لا البوند ولا التروتسكيّة!" وهو يشير هنا إلى سيل الأفكار الاشتراكيّة الأمميّة الذي تدفَق على روسيا من الغرب. "لو كان إلغاء حدود الاستيطان أمراً جوهرياً فعلاً بالنسبة إليهم، لتوجه نضالهم كله في هذا الاتجاه. لكنَّهم لم يعملوا على

هذا، بل حلموا بإسقاط النظام القيصريّ!" وها هم حملوا توقهم هذا، وتركوا الأكاديميّة الطبيّة العسكريّة وغيرها من المؤسسات التعليميّة واحداً بعد الآخر حتى قبل أن يكملوا الصفَ الرابع، ونزلوا "إلى الشعب". لقد باتت الشهادة العلميَة نفسها مقيتة بالنسبة إليهم، فهي وسيلة لاستغلال الشعب. لقد تخلّوا عن المستقبل الوظيفيّ، ومنهم من قطع صلته مع أهله. ورأوا أنَّ "كلّ يوم يضيع هو خسارة لا تعوَّض بالنسبة إلى الإسراع في تحقيق الخير للجماهير المغلوبة على أمرها".

لكنَّ "النزول إلى الشعب"، كان يقتضي منهم التجرُّد عن الغاية المعنويّة، والتواضع في الهدف العمليّ: "كي يكسبوا ثقة الجماهير الشعبيّة، كان عليهم أن يتوغلوا فيها على هيئة عامل أو فلاح". لكنَّ دييتش يتذكَر: كيف كان يجب أن تنزل إلى الشعب ليسمعك ويثق بك؟ فاليهود "كان يفضحهم مظهرهم الخارجي، وطباعهم من اللقاء الأول". فضلاً عن ذلك كان التقرُّب إلى الشعب يقتضي إتقان رواية الطُرف والفُكاهات الشعبيّة؛ كما كان يجب أن تُظهر نفسك بمظهر العارف بشؤون العمل الزراعي المرهق والغريب تماماً عن سكان المدن. ليكتسب هذه "المهارات" كلها، عمل خوتينسكي في الأول عند أخيه في المزرعة حتى اعتاد على حراثة الأرض وزراعتها، كما تدرَّب الأخان ليفينتال على مهنة النجارة، والتحقت بيتي كامينسكايا بالعمل عاملة في مصنع للنسيج. كما عمل كثيرون في مهنة التمريض (لكنَّ دييتش يكتب قائلاً: لقد نجح الثوريّون اليهود أكثر ما نجحوا في العمل داخل الحلقات، وفي العمل السرِّي، والاتصالات، والمطابع، والنقل عبر الحدود).

لقد بدأ "المسير في الشعب" بزيارات قصيرة، وإقامة في البيئات الشعبية لعدّة أشهر، وكان ذلك المسير بمثابة سيل "جارف". لقد عوّلوا في بادئ الأمر على الدعاية فقط. لأنَّ الأمر تراءى لهم على النحو الآتي: يكفي أن نفتح عينيِّ الفلاح على النظام المعاصر، وقباحة الاستغلال الذي يتعرَّض له، وأنَّ الأرض وأدوات العمل يجب أن تكون ملكيّة عامّة، حتى يقتنع بذلك من فوره.

لكنَّ "مسير" الشعبيِّين تبدّد هباءً. ولم يكن السبب في ذلك هو الطلقة المباغتة التي أُطلقت على القيصر (أطلقها سولوفيوف في العام 1879م)، وأرغمتهم كلّهم على الفرار من القرى والتوجُّه إلى المدن للتخفِّي فيها. لكنَّ السبب الأساس هو أنَّ الفلاحين أبدوا لامبالاة تامة تجاه دعاية الشعبيِّين، بل كانوا على استعداد لتسليمهم إلى السلطات. فأيُّ حديث كان يمكن أن يجري عن جرِهم إلى انتفاضة؟! عندئذٍ فقد الثوريّون الروس (وكانوا قد أصابوا بعض النجاح)، واليهود على حدٍّ سواء "إيمانهم ... بالثوريّة الفطريّة والاشتراكيّة الغريزيّة" للفلاحين، بل "طغى عليهم التشاؤم. أمَّا العمل السرِّي فكان يسير بنجاح، إذْ نجح ثلاثة من المينشانيين هم: يوسف غيتسوف. وشاول ليفكوف، وشاول غرينفيست، في إنشاء مطبعة سريّة في مينسك كانت تقدِم الخدمات للثوريِّين في شتى أرجاء روسيا، وقد استمرت تعمل حتى العام 1883م. وعندما اغتيل الإسكندر الثاني، أصدر هؤلاء عن "إعدامه" منشوراً كتبوه بحروف ذهبية، ثمَّ نشروا بعد ذلك منشورات حركة الإرادة الشعبيّة. ونسب دييتش هؤلاء إلى "الدُعاة السلميّين". ومن الواضح أنَ مصطلح "سلمي" ينسحب هنا على كلِّ شيء، ما عدا رمي القنابل، بما في ذلك: الصلات النَشطة مع عصابات المهرِّبين، واستمرار عمليات النقل والانتقال عبر الحدود التي كانت تمارسها تلك الحلقة نفسها في مدرسة فيلنوس الرَابينيّة. أو دعوة لازار غولدنبيرغ الفلاحين إلى الامتناع عن تأدية الإتاوات.

كان من نصيب عدد من الثوريّين اليهود قضاء مدد غير قصيرة في السجون. وتسنَّت لبعضهم تسهيلات خاصّة هناك (لقد وفّر والد سيميون لوريه لابنه إقامة مريحة في السجن عن طريق الرشاوى). كما تحقّقت تسهيلات أخرى فرضها المزاج الاجتماعي الذي كان سائداً في تلك الآونة. فيخبرنا أبتيكمان ما يلي عن العام 1881م (بعد مقتل الإسكندر الثاني): "كانت إقامتهم في سجن كرانويارسك مريحة نسبياً"، "لقد بات الوحش الهائج"، مدير السجن "أليفاً داجناً ومنحنا مختلف التسهيلات في التواصل مع المنفيين الآخرين، والمعارف وعقد

اللقاءات". بعد ذلك "لم تعد حراستنا حراسة مساجين، بل حراسة وجهاء معتقلين"؛ فمرَّة في أثناء المرور النهاري تبللنا، فجاء إلى زنزانتنا "رئيس الحراسة ويرفقته جنود يحملون أطباقاً عليها شاي وبسكويت ومربَّيات – لكلٍّ حصة، وعلاوة على ذلك، كأساً من الفودكا لكلٍ منَّا. أيٌّ نعيم؟ لقد أثَّرت هذه اللفتة فينا".

ونحن نتصفّح سير هؤلاء الشعبيّين الأوائل، لا نستطيع إلاّ أن نلاحظ أنَّ كثيراً منهم كان حماسه مفرطاً، لكنَّهم لم يكونوا على مستوى من الاتزان والتوازن. ينقل ليف دييتش أنَّ الإرهابي ليف زلاتوبولسكي "كان شخصاً غير متزن نفسيّاً". وأبتيكمان هذا نفسه بعد اعتقاله في العام 1879م.، وسجنه في الانفرادية "اختلَ توازنه النفسي اختلالاً شديداً، ولم يكن بعيداً عن الخبل أبداً". أمَّا بيتي كامينسكايا، "ففي الشهر الثاني من السجن الانفرادي ... كانت قد فقدت رشدها تماماً"، فنُقلت إلى المشفى، ثم أخرجها والدها التاجر من هناك على مسؤوليته. ولمّا علمت من قرار الاتهام بأنَّها لن تُحال إلى القضاء، همَّت بأن تعلن للنائب العام أنَّها سليمة معافاة ومستعدة للمحاكمة؛ لكنَّها سرعان ما تجرَّعت السُمَّ وماتت. كما حدث لموسى رابينوفيتش في سجنه الانفرادي أن "اختلّت أعصابه ... وأخذت تعصف به حالات من الهلوسة". فقرَّر أن يتظاهر بالندم والتوبة، ويذكر أسماء الذين كان يعرف يقيناً أنَّ التحقيق يعرفهم، فقط كي يطلقوا سراحه. فكتب تصريحاً عرض فيه كلَّ ما يعرفه، بل لم يكتف بهذا فقط، إنَّما أعلن أيضاً أنَّه بعد أن يخرج إلى الحريّة سوف يجمع كلَّ ما يستطيع من معلومات وينقلها. لكنَّهم اعتصروا منه كلَّ ما يعرف ولم يطلقوا سراحه، بل نفوه إلى مقاطعة إيركوتسك؛ وهناك جُنَّ ومات "ولم يكن له من العمر إلاَّ ما يزيد قليلاً على العشرين عاماً". ونحن يمكننا أن نسوق مزيداً من مثل هذه الأمثلة. فما إن وصل ليزير تسوكرمان إلى نيويورك حتى أطلق النار على نفسه، فوضع حداً لحياته. وبعد رحيله إلى برلين عانى ناخمان ليفينتال "حالة عصبية

عسيرة" فاقمتها قصّة حبٍّ فاشلة، "فشرب حمض الكبريت ورمى بنفسه في النهر"، ولم يكن له من العمر أكثر من تسعة عشر عاماً. لقد اندفع هؤلاء الشباب إلى مجال يفوق بما لا يُقاس قدراتهم ومتانة أعصابهم.

حتى غريغوري غولدنبيرغ الذي قتل محافظ خاركوف من غير أن يرفَّ له جفن، وطلب أن يمنحه رفاقه شرف قتل القيصر (لكنَّهم أبعدوه عن العملية ليهوديّته، خوفاً من تداعيات غضب الشعب؛ وانطلاقاً من هذا الاعتبار نفسه عهد الشعبيّون بعملية الاغتيال إلى أكثرية روسية)، عندما اعتُقل في العام 1879م.، ومعه شحنة من الديناميت، اكتأب كآبة الموت في زنزانته الانفرادية في حصن ترويبيتسكي، فانهار وأدلى باعترافاته التي كانت لها تداعيات كارثية على الشعبيّين، ثمَّ تقدَّم بطلبات رحمة مكتوبة وشفهية كي يضعوه في زنزانة واحدة مع أهرون زونديليفيتش (كان زينديليفيتش أكثر الشعبيّين تفهُماً لخطيئته). ولمَّا رُفض طلبه رفضاً قاطعاً، وضع حداً لحياته.

كما تورَط في هذا أيضاً من لم تكن له فيه ناقة ولا جمل، كموسى إيدلشتين الذي لم يكن شريكاً أيديولوجياً، بل مجرَد مهرِب ينقل المنشورات لقاء أجر. لقد ذاق هذا المرَّ في الحبس الانفرادي، فصلّى إلى يهوه من أجل نفسه وعائلته. وأعلن ندمه وتوبته أمام المحكمة: "لم يكن بإمكاني أن أتخيَّل أبداً أن تكون مثل تلك الكتب الرهيبة في الشحنات التي كنت أنقلها". أو س. أرونزون الذي "اختفى من الحركة الثورية مباشرة بعد "محاكمة ال193".

كما يثير الاهتمام أمر آخر: لم يتردد لحظة واحدة ليغادر روسيا كثير من أولئك الشعبيّين الذين كانوا عقدوا العزم قبل ذلك على إنقاذها. مع أنَّ الثوريّين في السبعينيّات كانوا يرون في الهجرة تخاذلاً وهروباً: حتى لو كانت الشرطة تلاحقك، تخفَ، لكنْ لا تهاجر. غير أنَّ تان ـ بوغوروز هاجر إلى نيويورك، وقضى هناك عشرين عاماً. كما كان لازار غولدنبيرغ - غيترويتمان قد "انتقل

إلى نيويورك منذ العام 1885م.، وأخذ يلقي هناك محاضرات في تاريخ الحركة الثورية الروسيّة". وبعد أن صدر العفو، "عاد إلى روسيا في العام 1906م.، لكنّه سرعان ما غادرها إلى بريطانيا" وبقي فيها حتى وفاته. في لندن نفسها غدا أحد الأخوين فاينير، صاحب ورشة موبيليا كبيرة، فاستقرّ هناك. وصار كلٌّ من م. أرونزون وم. رومَ طبيبين معالجين في نيويورك. وبعد أن قضى إ. غيتسوف عدة سنوات في سويسرا غادرها إلى أمريكا. وإذْ ألقى ليزير ليفينتال نفسه في سويسرا، أنهى دراسته في كليّة الطِبّ في جنيف، ثمَّ غدا مساعداً لفيزيولوجيٍ شهير هناك، وتسلَّم بعد ذلك رئاسة قسم النسج. وفي لوزان قطع صلته نهائياً بالحركة الاشتراكيّة. ومثله سيميون لوريه الذي أنهى دراسته في كليّة الطِبّ في إيطاليا (لكنَّه سرعان ما مات بعد ذلك). أمَّا ليوبوف أكسلرود ("أرثوذكس")، فقد أقامت طويلاً في المغترب، ونالت درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة برلين (هي التي أدخلت تدريس مادّة المادّيّة الدياليكتيكية إلى المؤسسات التعليميّة السوفييتيّة). وفي بيرن انتسب أ. خوتينسكي إلى كليّة الطِبّ (لكنَّه مات بالسل الرئوي بعد عام واحد). وحقّق غريغوري غوريفيتش نجاحاً مرموقاً في الدانمرك، إذْ عاد إلى روسيا قنصلاً للدانمرك في كييف، التي أقام فيها حتى العام 1918م.

ويبين هذا في الوقت عينه كم من الموهوبين كان بين الثوريّين. فهؤلاء الذين كانوا ذوي عقول نشطة فعّالة، على الرَّغم من إقامتهم لفترات طويلة في المنفى السيبيريّ، لم يتبلّدوا، ولم يفقدوا رشدهم بسبب حرمانهم من ممارسة العمل الثوريّ، بل التفتوا إلى الشعوب التي كانت تعيش حولهم هناك، فتعلّموا لغاتها، ودرسوا واقعها وكتبوا عنها مؤلَّفات إيثنوغرافية: هذا ما فعله ليف شتيرنبيرغ الذي كتب عن الجلياكيين، وتان - بوغوروز الذي كتب عن الشوكتشيين، وفلاديمير يوهليسون عن اليوكاغيريين، ونعوم غيغاسير عن النمط الفيزيائي للياقوتيين، كما كتب موسى كروا شيئاً ما عن البورياتيين.

وثمّة ثوريّون يهود انخرطوا بحماس في الحركات الاشتراكيّة التي كانت تعمل في الغرب: ف. يوهيلسون، أ. زونديليفيتش مثلاً، اندفعا يعملان في الحملة الانتخابيّة إلى الريخستاغ الألماني دعماً للاشتراكيّين الديمقراطيّين، بل لقد اعتقل زونديليفيتش لمخالفته الطرائق المعمول بها. وسجنت آنا روزينشتين في فرنسا لمخالفتها قواعد المشاركة في المظاهرات؛ فسعى تورغينيف من أجلها حتى اكتفوا بطردها إلى إيطاليا، لكنّها سجنت هناك مرتين بسبب نشاطها الدعائي لصالح الفوضويّة (تزوّجت فيما بعد من ف. توراتي وجعلت منه اشتراكياً، ثمَّ صارت هي نفسها إلى أوّل ماركسيّة في إيطاليا). وفي أمريكا على مدى سبعة عشر عاماً، كان أبراهام فالت - ليسين المينسكي، ينشر أعماله في مجلة "فورويست" الاشتراكيّة، وكان له تأثير واضح في بناء الحركة العماليّة الأميركيّة (وسيسلك هذه الطريق نفسها كثير من اشتراكيّينا فيما بعد).

في بعض الأحيان كانت تسود بين الثوريين حالة من خيبة الأمل بالثورة. فموسى فيللير مثلاً، ابتعد عن الحركة الثوريّة بعد وساطة تورغينيف له لدى لوريس - ميليكوف، وعودته إلى روسيا (لكنّه سرعان ما انتحر). كما كانت طريق إسحاق بافلوفسكي أكثر غرابة: في باريس حظي باستقبال تورغينيف له بصفته ثورياً معروفاً، وتعرَّف عبره إلى إميل زولا، وألفونس دودييه، وكتب قصة عن النهليستيين الروس (نشرها تورغينيف في "بشير أوروبا")، ثم عمل مراسلاً لمجلَة "العصر الحديث" (تحت اسم مستعار هو إ. ياكوفليف)، بل قدَّم نفسه بحسب دييتش، من "مناهضي الساميّة" البارزين، ثمَّ توسَّل عفواً من القيصر، فعفا هذا عنه، وعاد إلى روسيا.

لكنَّ أكثر الثوريّين اليهود شكلوا إلى جانب الثوريّين الروس، مجموعات جماهيريّة، أو غابوا وطواهم النسيان. وقد كتب دييتش في هذا السياق يقول: "ما عدا اثنين أو ثلاثة من كبار الشخصيات ... لم يكن باقي أبناء جلدتي سوى أفراد من الدرجة الثانية بل الثالثة أيضاً". وهذا ما بيَّنه كتاب "مقتطف من تاريخ

التنظيمات الثوريّة في أوساط يهود روسيا

لم ينخرط الجيل المبكر من الثوريّين اليهود في سياق الثورة الروسيّة العامّة مباشرة، فلم يكن كلهم على استعداد للارتداد عن يهوديّته. لذلك اقترح أ. ليبرمان منذ العام 1875م، وهو في حينه علاّمة في تعاليم التلمود، وأكبر سناً من رفاقه الشعبيّين الآخرين، مباشرةَ دعاية اشتراكيّة في أوساط الجماهير اليهوديّة. وفي العام 1877م أصدر في فينّا مع غ. غوريفيتش لهذا الغرض مجلة اشتراكية بالعامية اليهوديّة دعاها "إيميس" (أي "الحقيقة"). وقبل ذلك، في السبعينيّات كان أ. زونديليفيتش قد "باشر إصدار صحيفة باللغة اليهوديّة القديمة" دعاها أيضاً "الحقيقة" (يجيز ل. شابيرو أن تكون هذه الأخيرة "السلف البعيد "للحقيقة" التي أصدرها تروتسكي فيما بعد. لقد عاش هذا الاسم طويلاً جداً). وألحَّ بعضهم، مثل فالت - ليسين، على ضرورة الجمع بين الرؤية الأمميّة والرؤية القوميّة اليهوديّة. "ففي محاضراته المرتجلة ومواعظه، كان النبي أشعيا وكارل ماركس يظهران شخصيّتين متساويتين في الهيبة والمرجعية". وتأسست في جنيف المطبعة اليهوديّة الحرَة لطباعة المناشير الموجّهة إلى العاملين اليهود.

كما تشكّلت حلقات يهوديّة خاصّة في بعض المدن. فقد أشار ميثاق "منظمة الاتحاد الاشتراكيّ الثوريّ بين يهود روسيا"، الذي تشكّل في بداية العام 1876م.، إلى ضرورة أن يكون العمل الدعائي باللغة اليهوديّة، بل دعا أيضاً إلى تشكيل عدد من الأقسام الاشتراكيّة الثوريّة بين يهود الإقليم الغربي تكون علاقات بعضها مع بعض، وكذلك علاقاتها مع الفرق خارج البلاد ذات طابع اتحاديّ". "يؤلّف الاشتراكيون في العالم كلّه أخوية واحدة، وينبغي أن تُدعى المنظَمة: "الفرع اليهوديّ للحزب الاشتراكيّ الثوريّ الروسيّ".

يعلِّق غيسين على هذا فيقول: إنَّ هذا الاتحاد "لم يلق قبولاً كافياً في البيئة اليهوديّة"، لأنَّ أكثر هؤلاء الاشتراكيّين اليهود، كرَّسوا جهودهم كلَّها للعمل المشترك"، أي للعمل الثوريّ في روسيا كلِّها. وفي واقع الحال إنَّ حلقاتهم لم تنشأ في فيلنوس، وغرودنو، ومينسك، ودفينسك، وأوديسا فقط، إنَّما في يلتس، وساراتوف، وروستوف الدون أيضاً.

ونحن يمكننا أن نقرأ في وثيقة تأسيس هذا "الاتحاد الاشتراكيّ الثوريّ بين يهود روسيا"، كثيراً من الأفكار المدهشة، كما على سبيل المثال: "ليس لشيء معتاد الحقّ في الوجود إنْ لم يكن له مبرِّر منطقيّ"! وعند أواخر السبعينيّات كانت الحركة الثورية في روسيا قد انحدرت صوب الإرهاب: لقد هزمت الباكونيّة الفتنويّة عندئذٍ اللافرية التنويريّة هزيمة نهائيّة. فمنذ العام 1879م كانت وجهة نظر حركة "الإرادة الشعبية" القائلة: إنَّ إقامة الشعبيّين بين الفلاحين لا جدوى منها، قد تغلَّبت على رفض التشورنوبريديليين للإرهاب. الإرهاب وحده!! بل الإرهاب المنظَّم! (لم يقلقهم عدم استجابة الشعب، ولا شحُّ صفوف المثقفين). فتتالت العمليات الإرهابيّة واحدة تلو الأخرى حتى ضدَّ القيصر مباشرة!

وبحسب دييتش أنَّ 10 -12 يهودياً فقط شاركوا في الإرهاب الذي بدأه الشعبيّون، بدءاً من هارون غوبست (أُعدم)، وسولومون فيتينبيرغ (أعدَّ في العام 1878م لاغتيال الإسكندر الثاني، فأُعدم في العام 1879م)، وآيزاك أرونتشيك (شارك في تفجير قطار القيصر فحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبَّدة)، وغريغوري غولدنبيرغ. ومثله كمثل غولدنبيرغ اعتُقل أ. زونديليفيتش قبل أن تتسنَّى له المشاركة في اغتيال القيصر، علماً أنَّ هذا كان أبرز منظِّميّ العمليات الإرهابيّة. كما كان ثمّة إرهابيّ نشط آخر هو ملوديتسكي. أمَّا روزا غروسمان، وكريستينا غرينبيرغ، والأخان ليف وسافيلي زلاتوبولسكي، فقد كانوا ينشطون في الميادين الثانويّة (لكنَّ سافيلي انتُخب في 1 آذار من العام

1881م عضواً في اللجنة التنفيذيّة). وانخرطت هيستيا غيلفمان في أعمال المجموعة الرئيسة لحركة الأول من آذار. لكنَّ عقد الثمانينيّات كان عقد تراجع حركة الشعبيّين واندثارها. لقد انتصرت قوّة الدولة، وبات الانتماء إلى أيّ تنظيم ثوريّ عقابه 8 -10 سنوات سجن وما فوق. بيد أنَّ الحركة الثوريّة كانت لها قوّة استمرارها، فقد بقي من شاركوا فيها على قيد الحياة، على الرَّغم من كلّ شيء. ويمكننا أن نذكر هنا صوفيا غينسبورغ التي لم تكن قد بدأت نشاطها الثوري إلاّ في العام 1887م. فحاولت أن تعيد ترميم تنظيم "الإرادة الشعبيّة" الذي كانت الاعتقالات قد دمَرته؛ وبعد مجموعة أُوليانوف، أخذت تُعدُّ لاغتيال الإسكندر الثالث. لقد واصل الشعبيّون نضالهم على الرَّغم من أنَّ بعضهم كان في المنفى، وبعضهم الآخر أنهى مدة عقوبته هناك وعاد، وبعضهم الثالث حُكم عليه بالنفي للتوِ.

تستحقُ الذكر في هذا السياق ثورة غضب معروفة انفجرت في العام 1889م، وتحوّلت إلى عصيان في سجن ياقوتيا، وقد وصفها معاصروها في مذكراتهم. فقد أُعلن عن نقل مجموعة كبيرة من السياسيين الذين عزمت السلطات على التخلِص منهم، وسوقهم تحت الحراسة إلى فيرخويانسك وكاليمسك الوسطى. وكان أكثر أفراد هذه المجموعة من اليهود. في غضون ذلك قلَصوا للمجموعة كلِها وزن الامتعة المسموح اصطحابها: فبدلاً من 5 بودات[1] من الكتب والملابس والبيّاضات، وخمس بودات من المؤن، وبودين من اللحوم والزبدة والسكر والشاي (كان هذا كله يُنقل على الأيائل أو الخيل)، كما كان مقرّراً لكلِ شخص، لم يسمحوا لهم إلاّ بخمس بودات من هذا كلِه مجتمعاً. فقرَر المنفيون أن يقاوموا، وكانوا قد أخذوا منذ فترة يتجولون في ياقوتيا بحريّة، واستطاعوا أن يحصلوا عبر السكان المحليين على أسلحة. "بما

(1) بود: وحدة وزن تساوي 3816. كغ.

أنّهم كانوا هالكين في الأحوال كلّها، إذن من الأفضل أن يهلكوا في خضمّ معركة تتردد أصداؤها في جميع أنحاء العالم ليعرف الكون كلّه مدى بشاعة الحكومة الروسيّة. فليهلكوا إذن بحيث يوقظ موتهم روح النضال لدى الأحياء". ولمّا جاؤوا يستدعونهم إلى قيادة الشرطة، بادروا إلى إطلاق النار على القادة، فردّ الفصيل بإطلاق النار عليهم. ونتيجة لذلك حُكم بالإعدام على كلٍّ من ن. زوتوف الذي كان أول من أطلق النار على نائب المحافظ، ول. كوغان -بيرنشتين، وأ. غاوسمان. وحُكم بالأشغال الشاقة المؤبدة على كلٍّ من كاتب المذكرات نفسه و. مينور، وم. غوتس، وأ. غوريفيتش، وم. اورشوف، وم. برامسون، وم. براغينسكي، وم. فونداميتسكي، وم. اوفلاند، وس. راتين. وأو. إيستروفيتش، وصوفيا غوريفيتش، وفيرا غوتس، وبولينا بيرلي، وأ. بولوتينا، ون. كوغان - بيرنيشتين. ونقلت الموسوعة اليهوديّة أنَّ 26 يهودياً و6 من الروس كانوا ضحايا تلك المحاكمة.

في العام 1889م هذا نفسه عاد مارك ناتاسون من المنفى وباشر من توِه إعادة تجميع التنظيمات الشعبيّة التي دُمرت، ثمَّ أنشأ منها تنظيماً جديداً هو "نارودنويه برافو" ("الحقيقة الشعبيّة". ـح. إ.)، الذي حمل أعضاؤه اسم "ناروdoبرافي". لقد كان ناتاسون هذا شاهداً على ولادة الماركسية التي انتقلت إلى روسيا من أوروبا، وعايش صراعها مع الشعبيّين، فبذل كل جهد ممكن للحفاظ على الحركة الثوريّة، والتحالف مع الليبراليّين ("أفضل الليبراليّين كانوا بدورهم شبه اشتراكييّن"). وكما كان في السابق، كذلك هو الآن يرفض أيَّ تباين في القناعات: على الجميع أن يتّحدوا للإطاحة بالاستبداد القيصريّ، وبعد ذلك، في روسيا الديمقراطيّة، سوف نتفاهم. لكنَّ تنظيمه في هذه المرة كان هشّاً، خاملاً، ولم يُعمِّر إلاَ قليلاً، لأنّه أهمل قواعد العمل السرِّي. وقد كتب إسحاق غورفيتش عن هذا يقول: "بسبب غياب العمل السرِّي كانت الجماهير تقع بين براثن الشرطة، لكنَّ أعداد الثوريين الآن كبيرة إلى حدٍّ لا تبدو عنده ثمّة حاجة

لأخذ الخسائر بعين الحسبان: يقطعون شجر الغابة فتتطاير الشظايا!".

لكنْ غنيٌّ عن البيان القول: إنَّ التحوّل العام الذي حدث في وعي اليهود الروس بعد العامين 1881 -1882م.، لم يكن له إلاّ أن ينعكس بالطبع، على وعي الثوريّين اليهود في روسيا أيضاً. فهؤلاء الشباب ابتعدوا عن اليهوديّة في بادئ الأمر، ثم ما لبث كثير منهم أن عاد إلى كنفها بعد ذلك: "مغادرة الشارع اليهوديّ ثمَّ العودة إلى حضن الشعب، مصيرنا التاريخيُّ كلّه يرتبط بالجيتو اليهوديّ، ومنه تنبثق ماهيتنا القومية". قبل أعمال العنف التي وقعت في العامين 1881 -1882م.، "لم يخطر لأيٍّ منّا نحن الثوريّين ... أنَّ هناك ضرورة للحديث علناً عن دور اليهود في الحركة الثوريّة، وشرح أهميّته. لكنَّ الأحداث أثارت "لدى ... الشريحة الكبرى من أبناء جلدتي، موجة سخط عارمة". وها هم "بعض الثوريين اليهود الذين لم يكن لديهم من قبل أيُّ إحساس بصلتهم القوميّة ... يستيقظون بغتة ويُقرُّون بأنَّهم ملزمون بأن يكرِّسوا قواهم وإمكانياتهم لمدِّ يد العون لأبناء جلدتهم الملاحقين المضطهدين ظلماً". "لقد أيقظت أعمال العنف المشاعر التي كانت مخفيّة خامدة، وجعلت الشباب أكثر تفاعلاً مع معاناة شعبهم، كما جعلت الشعب أكثر تفهّماً للأفكار الثوريّة. فليكن هذا منطلقاً لمبادرة جماهيريّة يهوديّة ذاتيّة"، "سوف نعمل من غير كلل على تحطيم نظام الحكم المعاصر".

زد إلى هذا أيضاً، دعماً غير منتظر لأعمال العنف ضدّ اليهود جاءها من مناشير حركة "الإرادة الشعبيّة"! ففي رسالة إلى أكسلرود الذي كان مرتبكاً بدوره، عبَّر دييتش عن سخطه الشديد تجاه ذلك الموقف: "إنَّ المسألة اليهوديّة لا تزال فعلاً غير محسومة بالنسبة إلى الثوريّ. فما عليهم الآن أن يفعلوا في بالتا مثلاً، حيث يقتلون اليهود؟ إنَّ الدفاع عنهم يعني ... إثارة البغض ضدَ الثوريّين الذين لم يكتفوا بقتل القيصر، بل ها هم يدافعون عن الجيديين أيضاً ... ويبدو أنَّ قبول الأوساط الشعبيّة الآن الدعوة إلى التسامح والمصالحة، أمر في غاية

الصعوبة بالنسبة إلى الحزب". كما أعرب الزعيم الملهم ب. ل. لافروف عن شكوكه فقال: "أعترف بأنَّ المسألة اليهوديّة مسألة شائكة جداً، وهي بالنسبة إلى الحزب الذي يسعى إلى التقرُب من الشعب لإثارته ضدَ الحكومة، معضلة في غاية الصعوبة ... نظراً لخوف الشعب الظاهر للعيان وضرورة أن يكون هذا الشعب إلى جانبك حيث يمكن ذلك". وعلى هذا النحو أيضاً كان يفكِر كثير من الثوريين الروس وليس لافروف وحده.

في الثمانينيّات ظهر في أوساط الاشتراكيين من جديد تيار دعا إلى تحويل الاهتمام نحو شنِ دعاية ثوريّة بين أعضاء الحلقات اليهوديّة نفسها، ومن الأفضل تركيز الاهتمام على الحلقات العمالية. بيد أنَّ البروليتاريا بصفتها بروليتاريا، لم يكن لها وجود يُذكر في البيئة اليهوديّة: ما خلا النجّارين، وصانعي الشباك، والحذّائين. لكنَّ العمل بين العاملين في المطابع كان الأكثر سهولة، لأنَّهم أكثر ثقافة ووعياً. وينقل إلينا إسحاق غورفيتش كيف عزم مع موسى خورغين، وليف روغاللير، ويوسف ريزنيك "على أن يُنشئوا في مينسك نواة لحلقة من العمال المثقّفين". لكنْ تبيَّن أنَّه ليس في بيلوستوك وغرودنو "أيُّ حلقات عمالية"، فعجزوا عن إيجاد أعضاء لنواتهم المزمعة.

لكنَّ إنشاء مثل هذه الحلقات كان يتطلَّب مهارة عالية في إتقان أساليب العمل السرِّي: في بعض الأحيان كانت الاجتماعات تُعقد في ضواحي المدن، أمَّا عندما كانت تُعقد بشكل منتظم، في شقق سكنية، فقد كان ينبغي في بادئ الأمر دراسة اللغة الروسيّة والعلوم الطبيعية، وفي سياق تلك الدراسات فقط كان يجري انتقاء كوادر الدعاية الاشتراكيّة. وبحسب يو. مارتوف أنَّ هذا الإعداد العلمي التحضيري هو على وجه التحديد الذي جذب كثيرين إلى الانخراط في الحلقات الثورية: "مثل هؤلاء الفطنين الحاذقين المؤهلين ليكونوا شخصيات مستقلَة تدير شؤونها بنفسها، هم الذين كانوا في حلقاتنا وتخرَّجوا منها، وفيها تطورت ثقافتهم وأتقنوا اللغة الروسيّة التي كانت الأداة الحاسمة في المنافسة

الحادة بين التجارة الصغيرة والصناعة "؛ بعد ذلك كان خريجونا هؤلاء الذين حالفهم الحظُ وتخلّصوا من ويلات العمل المأجور، يتعهدون علناً بالابتعاد عنه وعدم اللجوء إليه، لكنَّ ضرورات السوق كانت ترغمهم على اللجوء إليه. وإلاَّ كان العامل الذي تشكَّل في مثل هذه الحلقات يترك مهنته ويتحوَّل إلى "طالب غير مداوم".

لم تلاق مشاركة الشباب في هذه الحلقات رضاً، بل لاقت مقاومة شرسة من قبل البرجوازية اليهوديّة المحلية التي كانت أسرع من الشرطة في إدراك المنحى الذي ستتخذه الأوضاع. ومع ذلك تحقق بعض النجاح في بعض الأماكن، فقد استُخدمت الكتيّبات والمناشير الاشتراكيّة التي كانت تُطبع في مطبعة لندن، كما نجحوا هم أنفسهم في صياغة صيغ اشتراكيّة - ديمقراطيّة عكست كلَ قضايا برامجهم. وهكذا استغرق الإعداد لإنشاء البوند عشر سنوات من الإعداد الدعائي له. لكنَّ "بدء الهجرة إلى أمريكا عوَّق عملنا أكثر من ملاحقات الشرطة بما لا يُقاس. فألفينا أنفسنا في آخر الأمر أنَّنا عملياً نُعدُّ عمالاً اشتراكيين لأمريكا". وهاكم مقتبس قصير من مذكرات إسحاق غورفيتش عن "الحلقات العماليّة اليهوديّة الأولى" المرفقة بكمٍ كبير من الملاحظات العابرة: الطالب الداعية شفارتس "هاجر فيما بعد إلى أمريكا، وهو يعيش الآن في نيويورك". ومن إحدى الحلقات حضر الاجتماع الذي عُقد في شقة يوسف ريزنيك "عاملان، ونجّار، ونجّار موبيليا واحد، وكلاهما الآن في أمريكا". ثمَّ يُخبرنا بعد صفحتين أنَّ ريزنيك هذا نفسه "هاجر إلى أمريكا" بعد أن أمضى عقوبة النفي. ومن أمريكا جاء "الشاب غيرشفيلد ليعمل في المجال الدعائيّ ... وهو يعمل الآن طبيباً في مينيابوليس"، وقدَم ترشيحه عن الاشتراكيين لمنصب المحافظ. "ومن أكثر أعضاء حلقة أبراموفيتش الأولى نشاطاً، يعقوب زفيرين ... قضى عاماً في السجن ... ثمَ هاجر إلى أمريكا وهو يعيش الآن في نيويورك". وفي العام 1889م أُرغم "شومليفيتش" ("كيفيل") على الهروب من روسيا، فأقام في سويسرا حتى

العام 1896م حيث كان عضواً نشطاً في منظمات الاشتراكيّين الديمقراطيّين"، ثمَّ "هاجر بعد ذلك إلى أمريكا ... وهو يعيش الآن في شيكاغو". وأخيراً حتى مؤلف المذكرات نفسه: "في العام 1890 غادرت أنا نفسي روسيا"، مع أنَّنا قبل سنوات "كنَّا ننظر إلى الأمر بمنظار مختلف. إنَّ نشر الدعوة الاشتراكيّة في الأوساط العماليّة واجب كلِّ مثقّف شريف؛ فبهذا نحن نؤدي واجباً تاريخياً" أمام الشعب. "وبما أنَّ نشر الدعاية من واجبي، إذن من البديهي أن يكون لي الحق في أن أُطالب بأن تتاح لي الفرصة لتأدية هذا الواجب". وحين وصل غوريفيتش إلى نيويورك في العام 1890م.، وجد هناك "الجمعيّة العماليّة الروسيّة للتطوير الذاتيّ"، التي كانت تتألَّف فقط من الحرفيين المينسكيّين "نسبة إلى مدينة مينسك"، وعشية "رأس السنة الروسيّة"، أقام في نيويورك حفل استقبال للاشتراكيّين المينسكيّين". وفي نيويورك "كانت الحركة الاشتراكيّة المحلية تتألَّف أساساً من اليهود".

على هذا النحو نرى أنَّ المحيطات لم تكن تمثِّل عندئذٍ عائقاً جدياً أمام وحدة العمل الثوريّ اليهوديّ وتواصله. وهذه الصلة الحيّة كما سيتبيَّن، سوف يتردّد صداها في روسيا. فقسم كبير من الشباب اليهوديّ لم يتخلَ عن التقليد الثوريّ الروسيّ، ولم يبتعد عنه حتى في الثمانينيّات والتسعينيّات، بل على العكس، إذْ أدت أعمال العنف وقوانين الإسكندر الثالث التقييديّة، على حدِّ قول د. شوب، إلى تعاظم شراسة الصراع. وبرزت عندئذٍ ضرورة ملحة لإفهام الجمهور الروسي البسيط، لماذا يشارك هذا العدد الكبير من اليهود في الحركة الثورية؟ وفيما يتعلق بالمستوى الثقافي المتدني، صيغت في الكتيبات مسوغات وعبارات اصطلاحية خاصة. وقد بقيت هذه مستخدمة حتى العام 1917م، وفي خلال العام 1917 نفسه، ونحن نستطيع استرجاعها استناداً إلى الكتيّبات التي من هذا النمط.

لقد كان قدر المواطن الروسيّ قاسياً جداً، فالحكومة أمسكت به بقبضة من حديد، لكنَّ "قدر اليهوديّ الروسيّ الفقير كان أكثر مراراً": "كانت السلطات تذلّه وتعتصر منه آخر رمق، حتى بات عيشه موتاً يومياً من الجوع"، أمّا "إخوته في العمل والفقر، الفلاحون والعمال الروس ... فقد كان الجهل يفتك بهم، فيتحاشونه ويتجنبونه ويتنكرون له". حينئذٍ تتالت الأسئلة التعليليّة واحداً في إثر الآخر. "هل الرأسماليون اليهود أعداء للشعب الروسيّ الكادح؟" كلُّ رأسماليٍّ عدوٌّ – هل ثمّة فرق بالنسبة للكادح أيُّ رأسمالي من الرأسماليين يستغلَه؟ لذلك ينبغي ألاّ تحرق نار الحقد الرأسماليين اليهود وحدهم. "ليس لليهودي أرض، ليس له مكان يقف عليه، إذا سقط فأين سيستقرُّ؟". لا يحرث اليهوديّ أرضاً، "لأنَّ الحكومة الروسيّة تحرِم عليه أن يقيم في القرية". بيد أنَّهم في مستعمراتهم "فلاحون مجدّون. حقولهم محروثة حراثة ممتازة ... بأيدي اليهود أنفسهم: لا يستخدمون عمل أيِّ غريب. ولا يمارس المستعمرون أيَّ عمل آخر ... فاليهود يعشقون العمل الزراعي الخشن". "فهل ثمّة ضرر في أن يخدم الفقراء اليهود المصالح الاقتصاديّة للشعب الروسيّ العامل؟ لا يمارس اليهود العمل التجاريّ "حباً به ... إنّما الحاجة هي التي تدفع بهم إليه: كلُّ الأبواب الأخرى مقفلة في وجوههم؛ وعليهم أن يحصِلوا لقمة عيشهم بطريقة ما"؛ "سوف يكون اليهودي سعيداً إذا ما أُتيح له أن يترك تجارته ويتحرّر من قيودها". أمّا وجود النصَابين بين التجّار فسببه سلوك الحكومة القيصريّة نفسها. "لقد بدأ العمال اليهود نضالهم في سبيل تحسين أحوالهم منذ أن كان الشعب الكادح في أرجاء روسيا كلِّها تقريباً، لا يزال خانعاً". فصبر العمال اليهود كان قد نفذ "قبل أن يقع ذلك للآخرين كلِّهم"؛ "زد إلى هذا أنَّ عشرات آلاف اليهود ينخرطون في صفوف الأحزاب الاشتراكيّة الروسيّة. وهم ينشرون في البلاد كلِها نار الحقد على النظام الرأسمالي والحكومة القيصريّة"، لقد قدَّموا "للشعب الروسي الكادح خدمة جليلة"، لهذا السبب يكرههم الرأسماليون الروس. وبات واضحاً

اليوم أنَّ الحكومة الروسيّة "شاركت عبر شرطتها في الإعداد لأعمال العنف ضدّ اليهود؛ وأرسلت الشرطة والقوات العسكرية لمساعدة من قاموا بتلك المجازر"؛ "ومن حسن الحظِّ ... أنَّ العمال والفلاحين نادراً ما شاركوا فيها". "نعم، إنَّ الجماهير اليهوديّة الكادحة تبغض الحكومة القيصريّة المتقاعسة عن تأدية واجباتها"، "بأمر من الحكومة حطّموا رؤوس الأطفال اليهود على الجدران ... واغتصبوا النساء اليهوديات في الشوارع من غير أن يميزوا بين عجوز وفتاة أو طفلة". "لكنَّ من يدعو اليهود أعداء الشعب الروسيّ، يكذب بوقاحة ... فكيف يمكنهم أن يكرهوا روسيا؟ ألديهم اليوم وطن آخر سواها؟"

في بعض الأحيان تطفو التقاليد الثوريّة على السطح بطريقة مدهشة. فمرّةً، في العام 1876م أُدين أ. بيبيرغال لمشاركته في مظاهرة في ميدان قازان. وها هي ابنته الكبرى انتسبت في بطرسبورغ إلى الدراسة في الصفوف العليا، وفي العام 1901م، في الذكرى 25 لمظاهرة ميدان قازان أُلقي القبض عليها هناك في المكان نفسه. (وفي العام 1908م حُكم عليها بالأشغال الشاقة بسبب مشاركتها كعضوة في مجموعة الاشتراكيّين الثوريّين التي اغتالت الأمير فلاديمير ألكساندروفيتش). نعم لقد كان الثوريّون الروس بحاجة متزايدة للمشاركة اليهوديّة، وشيئاً فشيئاً أخذوا يدركون مدى جدوى استخدام اليهود كخليط ضروري لإشعال نار الثورة، واستغلال حماسهم المزدوج: ضدّ المضايقات القوميّة والاقتصاديّة التي يتعرّضون لها.

في العام 1883م ظهرت في جنيف ما تشبه الهيئة القياديّة للاشتراكيّة الديمقراطيّة الروسيّة الصاعدة: مجموعة تحرير العمل. وقد شارك في تأسيسها إلى جانب بليخانوف وفيرا زاسوليتش كلٌّ من ل. دييتش وب. أكسلرود. (في العام 1885م التحق بها إينغيرمان ليحلَّ محلَّ إيغناتوف المتوفى).

وفي روسيا تجمّع ضمن جمهور التشورنوبريديليين (كانت أعدادهم تفوق كثيراً أعداد الشعبيّين) المبعثرين المشتّتين، تيارٌ وقف إلى جانب "مجموعة تحرير

العمل" ("التحريريون"). وكان بين هؤلاء غير قليل من الشباب اليهوديّ من أشهرهم: إسرائيل غيلفاندا، ورافائيل سولوفيتشيك. وفي العام 1889م بعد أن اعتقل سولوفيتشيك الذي كان قد جال على كثير من مدن روسيا ساعياً إلى نشر العمل الثوري وترسيخه، تابع "التحريريون" ما كان هذا قد بدأه، وكانت بين هؤلاء أسماء يهودية أيضاً. كما التحق بهذا الاتجاه الاشتراكي الديمقراطي نفسه، دافيد غولدينداخ الذي سيغدو فيما بعد من البلاشفة البارزين، متخذاً لنفسه اسم "ريزانوف" (في العام 1889م هذا عينه فرَّ من أوديسا إلى خارج البلاد هرباً من الخدمة العسكرية).

لكنَّ مجموعة الشعبيّين حتى بعد تدميرها، "بقيت أعداد أعضائها غير قليلة. كان منهم على سبيل المثال: ديمبو، وروديفيتش، وماندلشتام. وبوريس، ورينشتين، وليودفيغ ناغل، وفيك، وصوفيا شينتسيس، وفيليبو، وليفينتس، وشيفتيل، وفيرنيخوفسكي وآخرون".

يدلُّ هذا كله على أنَّه بقيت هناك قوى كافية للتنافس الثوريّ والنزاع الفكريّ بين الشعبيّين، والتشورنوبريديليّين، و"التحريريّين". "فالمقتطف التاريخي الثوريّ" الذي نستخدمه هنا بمجلداته الثلاثة المكرَّسة للعشرين عاماً السوفييتية الأولى، يحتوي على تلك المشاحنات بإسهاب قلَّ نظيره، إذْ كانوا يرون أنَّها أكثر أهميّة وسموّاً من مسائل الفكر الإنسانيّ والتاريخ العالميّ الأخرى كلِّها. ففي تفاصيلها مادّة هائلة عن الماهية الروحيّة لثوار روسيا في الثمانينيّات والتسعينيّات التي قد تكون لا تزال تنتظر من يدرسها ويحلِّلها. لكنْ منذ ثلاثينيّات العصر السوفييتي حلَّ في المنشورات التاريخيّة الثوريّة محلَّ السرد التفصيليّ لما قام به الثوريّون بالأسماء تابو ما غير طبيعي على الإشارة إلى أعداد اليهود الذين شاركوا في الحركة الثوريّة الروسيّة، والدور الذي أدَّوه فيها، منذ ذلك الحين بات مجرَّد الإسناد إلى تلك المعطيات، أمراً موجعاً. بيد أنَّ كلَّ إغفال مقصود للحقائق التاريخيّة، هو سلوك لا أخلاقيّ، وخطير: يولِّد فيما بعد تطرُّفاً عكسياً.

تقول الموسوعة اليهوديّة في هذا السياق: "إذا أخذنا بالحسبان الأهميّة الحقيقيّة للعنصر اليهوديّ في حركة التحرّر الروسيّة على وجه العموم، فسوف نكتشف أنّ التعبير عنه إحصائيّا أمر مستحيل"، بيد أنّ تنوّع المصادر يمكن أن يرسم بعضاً من اللوحة.

ففيسين يقول: إنّ "في النصف الأول من العام 1879م لم يشكّل اليهود بين 376 شخصاً من المتهمين بجرائم ضدّ الدولة، سوى 4%، وبين الذين استجوبهم السينات في العام 1888م "شكل اليهود $6\frac{1}{2}$%. بين 1054 متهماً". كما يمكننا أن نجد تقويمات مشابهة لدى مؤلفين آخرين.

لكنْ، من عقد إلى عقد كان ظهور اليهود في الحركة الثوريّة يتعاظم، ودورهم يغدو أكثر فعاليّة وتأثيراً. ففي السنوات الأولى من حياة السلطة السوفييتيّة، عندما كان مثل الدور يُعدُّ مفخرة، أخبرنا الشيوعي البارز لوريه - لارين، أنّ اليهود "كانوا يشكّلون ربع أعداد المعتقلين والمنفيين في السجون القيصرية". أمّا المؤرخ الماركسي م. ن. بوكروفسكي، فقد قدّر استناداً إلى معطيات مختلف المؤتمرات، أنّ "اليهود كانوا يشكّلون بين $\frac{1}{4}$ و$\frac{1}{3}$ الكادر التنظيمي في الأحزاب الثوريّة كلّها (لكنّ الموسوعة اليهوديّة الحديثة تشكّك في صحة هذا التقدير).

في العام 1903م أشار فيته في لقاء مع هرتزل، إلى أنّ اليهود الذين كانوا يشكلون 5% من عدد سكان روسيا: ستة ملايين من مئة وستة وثلاثين مليوناً، استطاعوا أن يجنِدوا من صفوفهم 50% من الثوريّين. في الأول من كانون الثاني للعام 1905م، أجرى قائد الدائرة العسكرية السيبيرية الجنرال ن. ن. سوخوتين، إحصاءً للسياسيين الموضوعين تحت المراقبة في سيبيريا كلِّها، وصنَّفهم بحسب الانتماء القوميّ. فتبيَن: أنّ عدد الروس 1898 (42%)، وعدد اليهود 1678 (37%)، وعدد البولونيين 624 (14%)، وعدد القوقازيين 147، وعدد البلطيقيين 85، وعدد الآخرين 94 (ما تجدر الإشارة إليه أنّ هذه المعطيات لا تشمل إلاّ المنفيين وحدهم،

ولا تشمل المساجين والمحكومين بالأشغال الشاقّة، كما لا تنسحب إلاّ على العام 1904 فقط، لكنَّها مع ذلك تعطي فكرة ما). ويثير الاهتمام هنا التعبير الآتي: "بمن فيهم المتخفّين". فتتغيَر النسبة عندئذٍ لتصبح على النحو الآتي: الروس 17%، واليهود 64%، والباقي 19%.

وها هو ف. شولغين يشهد: في العام 1899م وصلت إلى كييف أنباء عن قلاقل طلابيّة في بطرسبورغ. "لقد اكتظّت ممرَّات الجامعة الطويلة بحشود من الطلبة الغاضبين. وأذهلتني غلبة اليهود على تلك الحشود. أنا لا أعرف ما إذا كانت أعدادهم أكثر أو أقلّ من أعداد الروس، بيد أنَّ الذي لا ريب فيه، أنَّهم كانوا يشكِّلون الأغلبيّة، أي أنَّهم كانوا يقودون ذلك الخليط الهائج المتمرِّد". ثم أخذوا بعد ذلك يخرجون الأساتذة والطلبة الذين لا يشاركون في التمرُّد، إلى خارج القاعات. وزوَّروا صوراً رسموا عليها صور القوزاق وهم يجلدون الطلبة؛ وزعموا أنَّ هذه الصوَر صوراً "حية" مأخوذة من الواقع مباشرة، ونسخوا عنها نسخاً. "لم يكن اليهود كلّهم يساريين ... فبعض الطلاب اليهود كانوا إلى جانبنا"، فخسروا من جراء موقفهم هذا الكثير بعد ذلك: لقد نبذتهم مجتمعاتهم. "والحقيقة أنَّ دور اليهود في إشاعة الروح الثوريّة في الجامعات كان بارزاً جداً، ولم يكن يتناسب أبداً مع عددهم في البلاد".

وقد رأى ميليوكوف أنَّ هذا ليس أكثر من "خرافات عن ثوريّة اليهود ... فقد كانوا [رجال الحكومة] يحتاجون الخرافة، كما كان البدائي يحتاج النثر المقفَى". أمَّا غ. ب. فيدوتوف فقد كتب العكس: "إنَّ المثقّفين اليهود الذين تحرّروا روحيّاً منذ الثمانينات ... مثلهم كمثل المثقّفين الروس في عصر بطرس، كانوا يفتقرون إلى الحدِّ الأقصى من المرتكزات، فوعيهم أُمميّ، وهم نشيطون غاية النشاط ... لذلك سرعان ما شغلوا المراكز القياديّة في الثورة الروسيّة ... فتركوا على السمات المعنوية للثوري الروسي طابعاً عنيفاً قاتماً. منذ الثمانينات كان المثقفون الروس واليهود قد ادَّغموا، لا في العمل الثوري وحده إنَّما في النزوات الأخرى كلِّها أيضاً، لا سيما في الافتقار إلى المرتكزات.

في أوائل القرن العشرين رأى المواطن المعاصر العادي (زينايدا ألتايسكايا مراسلة الكاتب كريوكوف مثلاً)، في هؤلاء الشباب اليهود: "... عشاقاً للنضال، لديهم مهارة فائقة في أساليبه. برامجهم فيه عامّة شاملة، وجسورة، لديهم شيء ما خاصّ بهم، نقيّ وأثير. مع الأسف كانوا محسودين!"، أي أنَّ الشباب الروسي لم يكن على المستوى نفسه.

في هذا السياق طرح م. أغورسكي الرؤية الآتية: "كانت المشاركة في الحركة الثورية شكلاً من أشكال الادّغام [الأكثر] لياقة من الادّغام العادي الذي كان يقتضي تأدية طقس المعموديّة؛ عداك عن أن طريقة الادّغام الثوريّة كانت، طريقة نبيلة على وجه الخصوص؛ لأنّها كانت بمثابة تمرُّد ضدَّ برجوازيتنا اليهوديّة نفسها، وديننا اليهودي الذي أقصاه الثوريون الآن من حساباتهم نهائياً. بيد أنَّ هذا الادّغام "اللائق"، لم يكن تامّاً في أيِّ حال من الأحوال، بل لم يكن حقيقيًا: كثير من الشباب اليهودي المتسرِّع اقتلع نفسه من تربته، لكنَّه لم يغرسها في التربة الروسيّة، فبقي خارج القوميات والثقافات، أي بعيداً عن المادّة التي لا غنى للموقف الأُممي عنها. وبما أنَّ مساواة اليهود بقيت أحد الشعارات الأساس لدى الحركة الثوريّة الروسيّة، فقد بقي في ذهن وقلب كلِّ شاب من هؤلاء الشباب اليهود الذين ساروا مع الثورة الروسيّة، أنّه لا يزال يخدم مصالح اليهوديّة، لأنَّه بممارسته العمل الثوري يناضل في الآن عينه من أجل تحقيق المساواة لليهود. وكان بارفوس قد طرح الموضوعة الآتية ودافع عنها طول حياته، ولقّنها للشباب اليهودي: يرتبط تحرير اليهود في روسيا ارتباطاً عضوياً بإسقاط السلطة القيصرية. وقد لاقى هذا المفهوم تأييد فئة كبار السنِ من اليهود الروس الأثرياء المتوازنين البعيدين البعد كلَه عن روح المغامرة. فمنذ أواخر القرن التاسع عشر كان مزاج هؤلاء قد بات ساخطاً على نمط الحكم الروسي، وبهذه الروح نفسها تربَّى الشباب اليهوديّ قبل انفكاكه عن اليهوديّة. فقد أشار البوندي البارز م. رافيس إلى أنَّه عشيّة القرن العشرين "عبَّرت البرجوازية اليهوديّة

عن آمالها وأمانيها التي عقدتها على تطوّر الحركة الثوريّة ... ودعت إلى ضرورة أن يحلّ التعاطف معها، بدل الموقف السلبي السابق منها". وقد أعلن غ. غيرشوني أمام المحكمة قائلاً: "إنَّ ملاحقاتكم هذه هي التي ساقتنا إلى الثورة". والحقيقة أنَّ هذا التفسير يمدُّ جذوره في تقاطعات التاريخ اليهوديّ والروسيّ.

لنستمع الآن إلى غ. أ. لانداو الكاتب الاجتماعيّ اليهوديّ البارز. فبعد العام 1917م مباشرة كتب هذا يقول: "هل كان هناك كثير من العائلات اليهوديّة البرجوازيّة، أو المشانية التي لم يكن أربابها سواء المشان أو البرجوازيون، ينظرون بعين الرضى، وغالباً بفخر، أو بالحد الأدنى بلا مبالاة إلى الطابع الشائع الذي تركه أبناؤهم على أيديولوجيا من الأيديولوجيات الثورية الشائعة؟". بل حتى هم أنفسهم "مالوا بشكل مبهم إلى الأيديولوجيا المناهضة لمضطهديهم على وجه العموم، من غير أن يدركوا أين يكمن مغزى الاحتجاج، وأين يكمن الاضطهاد". على هذا النحو "نشأت رويداً رويداً هيمنة الاشتراكيّة على المجتمع اليهوديّ ... – رفْضُ المجتمع المدني والدولة المعاصرة، وازدراء الثقافة البرجوازيّة وإرث القرون؛ وكان من السهل على اليهود أن يتخلوا عن هذا الأخير خاصّة، لأنهم كانوا قد تخلوا إلى حدٍ بعيد، عن تراثهم هم في أثناء تأوروبهم". لقد كانت للأفكار الثوريّة "قوة تدميريّة مضاعفة في الوسط اليهودي ..." – أي بالنسبة إلى روسيا وبالنسبة إليهم هم أنفسهم. "من حيث شدّة التأثير، تشرّب الوسط اليهوديّ بها أكثر من الوسط الروسي".

كما يخبرنا الصائغ الكييفي (الذي زخرف كنائس كييف بمصنوعاته) فيقول: "حتى في الأوساط البرجوازية الكبيرة أُصبتُ [بعدوى الثورية]". وهذا ما تُظهره لنا أيضاً الشحنة الروحيّة التي انبثقت في بوغروف الشاب الذي قضى فتوّته في كنف عائلة ثرية. فوالده ثري ليبرالي منح ابنه الإرهابي كامل الحريّة. كما خرج الأخان الإرهابيان غوتس من سلالتي القارونين الموسكوفيين غوتس وفيسوتسكي صاحب مصنع للشاي، ولا ريب في أنّه كان مليونيراً لا حدود

لثرائه، ولم يكتف جدّاهما بعدم ردعهما، بل تبرَّعا لحزب الاشتراكيين الثوريين بمئات آلاف الروبلات. "لقد كانت صفوف الاشتراكيين تفيض باليهود"، على حد قول لانداو. وفي واحدة من خُطبه في الدوما (في العام 1909م) ساق أ. إ. غوتشكوف شهادة شابة من حزب الاشتراكيّين الثوريّين أشارت فيها إلى أسباب خيبة أملها، وذكرت بين ما ذكرت من تلك الأسباب، أنَّ "الحركة الثوريّة برمَّتها تحت سيطرة اليهوديّة، وأنَّ اليهوديّة ترى في انتصار الثورة انتصاراً لها هي نفسها". ويشير إ. او. ليفين إلى أنَّ الحماس الثوري عصف باليهودية عمودياً: "لم تكن الشرائح الاجتماعية الدنيا من يهود روسيا هي وحدها التي وقعت تحت سلطان الجائحة الثورية"، بل شملت هذه الحركة "الكادر الأساس من المثقّفين وأشباه المثقفين اليهود الروس أيضاً" (أشباه المثقفين هؤلاء هم الذين تحوّلوا في العشرينات إلى أكثر عملاء النظام السوفييتي نشاطاً، على حدِّ قول ليفين هذا). "كما كانت أعداد اليهود أكبر في أوساط المتطرفين من مختلف المستويات: بدءاً من أطباء الأسنان حتى الجامعيين الذين يسعون لنيل حقِّ الإقامة في خارج حدود الاستيطان اليهوديّ. فعناصر الشعب اليهوديّ هذه، التي فقدت الماهيّة الثقافيّة لليهوديّة القديمة، بقيت في الوقت نفسه غريبة عن الثقافة الروسيّة، وعن أيِّ ثقافة أخرى على وجه العموم. هذا الخواء الروحي الذي كان يتخفّى وراء القناع الواهي للاستيعاب السطحي للثقافة الأوروبية، جعل اليهود، بحكم مزاولتهم العمل التجاري والصناعي بشكل رئيس، ميّالين إلى الرؤية الماديّة، شديديِ التأثر بالتعاليم السياسية المادّية ... فالتفكير العقلاني الذي يتميَّز به اليهود ... يجعلهم مستعدّين لاستيعاب عقائد من نمط العقائد الثوريّة الماركسية".

ويشير المؤلف المشارك لهذه المجموعة من المقتطفات، ف. س. ماندل إلى أنَّ: "الماركسيّة الروسيّة بصيغتها الخالصة المنسوخة عن الماركسيّة الألمانية، لم تكن في أيِّ يوم من الأيام حركة قوميّة روسيّة، أمَّا أولئك اليهود الروس الذين كانوا ذوي ميول ثوريّة، فلم يكن استيعاب التعاليم الاشتراكيّة من الكتب

الألمانية مباشرة يشكّل أيَّ صعوبة بالنسبة إليهم، لذلك كان من الطبيعي أن تكون لهم مساهمة كبيرة في غرس هذه النبتة الأجنبية في التربة الروسيّة". وقد عبَّر ف. أ. ستيبون عن هذا على النحو الآتي: كان الشباب اليهوديّ يناقش بجرأة مقتبساً عن ماركس رؤيته للطرق التي ينبغي على الفلاح الروسيّ أن يسلكها ليمتلك الأرض. إنَّ الحركة الماركسيّة نفسها بدأت في روسيا على أيدي الشباب اليهوديّ في إقليم استيطانهم.

وفي سياق تطويره لهذه الفكرة يسترجع ف. س. ماندل "بروتوكولات حكماء صهيون" ... هذا التزوير الشرير الغبي". إذن، "يرى هؤلاء اليهود في هذيان البروتوكولات مقصداً شريراً من مقاصد أعداء الساميّة الذين يسعون إلى اجتثاث اليهوديّة من جذورها"، لكنَّهم "هم أنفسهم، وبدرجة تزيد أو تقلُ، ليسوا ضدَّ بناء العالم على أسس جديدة، ويؤمنون بأنَّ الثورة ليست سوى خطوة على طريق تحقيق مملكة الإله على الأرض، أي أنَّهم تحولَوا الآن من إدانة الشعب اليهودي إلى مديحه، إذْ ينسبون إليه دور قائد الحركات الشعبيّة التي تناضل من أجل الحريّة والمساواة والعدالة الاجتماعيّة، قائد يقودها لبلوغ هذه الغاية السامية، ولن يقف بالطبع أمام تدمير نظام الدولة القائم، والنظام الاجتماعيّ الذي كرّسه". ثمَّ يسوق مثالاً على أوضح تعبير جاء في كتاب فريتس كانْ عن "اليهود كعرق وشعب حامل للثقافة": "قبل 1250 عاماً من المسيح كان موسى أوّل شخص في التاريخ أعلن عن حقوق الإنسان ... ودفع المسيح حياته ثمناً لتبشيره بالأفكار الشيوعيّة في دولة رأسمالية"؛ "ثمَّ في العام 1848م صعد النجم من جديد فوق بيت لحم — ومرَةً أخرى فوق سطوح اليهوديّة: كارل ماركس".

إذن، "من هذا الكنف الثوريّ ... تبرز تيارات الوسط الشعبي اليهودي التي يحدوها القنوط ووهم الصبيانية المستحيل، فتميل نحو الفتنة والشغب، لا في روسيا وحدها إنَّما في كلِّ مكان على وجه العموم". لكنَّ الماركسية دخلت بوعودها وعي روسيا المثقَفة ورسخت فيه. أخيراً اكتسبت الثورة أسساً علمية وباتت الاستنتاجات والتنبُؤات حتميّة لا فكاك منها.

لينين، مارتوف وسياسة حزب البوند اليهوديّ

كان من بين الماركسيّين الشباب، يوليوس تسيديرباوم، وهو نفسه مارتوف، أبرز قائد بين قادة المنشفية فيما بعد؛ وها هو مع أقرب أصدقائه، أي لينين، يؤسس في بادئ الأمر "اتحاد النضال من أجل تحرير الطبقة العاملة"، لكنْ بما أنَّه لم تكن تتوافر له الحماية التي كانت للينين، حُكم عليه بالنفي إلى إقليم مينوسين، فأمضى ثلاث سنوات في توروخان. ثم خطّط مع لينين لإصدار صحيفة "الإيسكرا"، وأعدَّ لها شبكة واسعة من الموزِعين.

لكنَّه قبل أن يتعاون مع لينين في تأسيس الحزب الاشتراكيّ الديمقراطيّ الروسيّ، كان مارتوف هذا نفسه قد وضع في العام 1895م حيث كان يقيم في فيلنوس، الأسس الأيديولوجيّة والتنظيميّة لتنظيم "الاتحاد العماليّ اليهوديّ العام في ليتوانيا وبولونيا وروسيا". كانت فكرة مارتوف تهدف إلى الانتقال بالعمل منذ الآن، من نشر الدعاية إلى التحريض في أوساط الجماهير اليهوديّة؛ ولتكييف التحريض الاشتراكيّ مع واقع هذه الجماهير، ينبغي أن "نجعله أكثر يهوديّةً"، وهذا يعني من جملة ما يعني، ترجمته إلى العامية اليهوديّة. في تقريره البرامجي أسس مارتوف الاتحاد الجديد على النحو الآتي: "نحن كنَّا دائماً ننتظر أن يأتينا كلّ شيء من الطبقة العاملة الروسيّة، ونرى في أنفسنا مجرَد ملحق بالحركة العماليّة الروسيّة ... لقد غفلنا عن إقامة صلة مع الجماهير اليهوديّة التي لا تعرف اللغة الروسيّة". بيد أنَّنا في غضون ذلك "نهضنا بالحركة العمالية اليهوديّة، عن غير قصد منَّا، إلى قمة لم تبلغها الحركة العمالية الروسيّة نفسها بعد". وحان الوقت الآن لتحرير الوعي الذاتي للحركة العماليّة اليهوديّة "من نير العبء

الفكري الذي تُثقلها به البرجوازيّة اليهوديّة" التي تُعدُّ "أكثر البرجوازيات تفاهة ودناءة في العالم كلِّه"، "وتأسيس تنظيم عماليّ يهوديّ مستقلٍ يمكن أن يكون قائداً للبروليتاريا اليهوديّة، ومرشداً لها. لقد رأى مارتوف في الطابع القومي لحركتنا انتصاراً على البرجوازية، وهذا ما يقينا تماماً من ... الشوفينية القومية". في العام التالي 1896م عُقد مؤتمر الاشتراكيّة الدوليّة، وفيه دعا بليخانوف الحركة الاشتراكيّة الديمقراطيّة اليهوديّة، "طليعةَ الجيش العمالي في روسيا". وهي التي تحوّلت فيما بعد إلى حزب البوند (في العام 1897م في فيلنوس) قبل ستة أشهر من تأسيس الحزب الاشتراكيّ الديمقراطيّ الروسيّ. بعد ذلك في العام 1898م عُقد المؤتمر الأول لهذا الحزب في مينسك (حيث كان مقرُّ اللجنة المركزية لحزب البوند). وتنقل الموسوعة اليهوديّة أنَّ " خمسة من بين ثمانية مندوبين ... كانوا من اليهود. وهم ممثِّلو ''جريدة العمال'' الكييفية: ب. إيدلمان، ن. فيغدورتشيك ... [و] بوندا –أ. كريمير، أ. موتتيك، ش. كاتس. [كما كان هناك أيضاً كلٌّ من رادتشينكو وبيتروسيفيتش وبانكوفسكي]. وقد انبثقت عن المؤتمر لجنة مركزية للحزب تألَّفت من ثلاثة أشخاص كان منهم أ. كريمر وب. إيدلمان". وعلى هذا النحو يكون حزب العمال الاشتراكيّ الديمقراطيّ الروسيّ قد وُلد من رحم واحدة تقريباً مع حزب البوند. (قبل "الإيسكرا" كانوا قد اقترحوا إسناد رئاسة تحرير جريدة حزب البوند إلى لينين").

لم يكن تأسيس حزب البوند في فيلنوس تحديداً من قبيل المصادفة. ففيلنوس كانت "أُورشليم الليتوانية"، وكانت فيها دائماً إينتيليجينتسيا يهودية مؤثِّرة، عبرها كانت تتسرَّب المنشورات السرية الممنوعة، وكلُّ الشحنات الأخرى، من الغرب إلى بطرسبورغ وموسكو.

لكنْ ها هو حزب البوند، وعلى الضدِّ من أيديولوجيته الأمميّة، "بات عاملاً قوميّاً في الحياة اليهوديّة"، على الرَّغم من أنَّ "قادته كانوا يتحاشون القوميّة كما يتحاشون العدوى". (مثلهم كمثل الاشتراكيين الديمقراطيين

الروس تحاشوها حتى النهاية). لكنْ مع أنَّ حزب البوند كان يتلقى معونات ماليّة ضخمة من تبرُعات الدوائر اليهوديّة الثرية في خارج البلاد، إلاّ أنّه اعتمد مبدأ عدم وجود شعب يهوديّ واحد، وتخلّى عن فكرة "القوميّة اليهوديّة العالميّة"، وأخذ بفكرة وجود طبقتين متناحرتين في اليهوديّة. (لقد خشي البوند من أن يطغى المزاج القوميّ اليهوديّ على الوعي الطبقي للبروليتاريا).

لكنَّ البروليتاريا اليهوديّة بالكاد كان لها وجود حقيقيّ: نادراً ما كان اليهودي يسعى للعمل في المصانع. وهذا ما يعلِله ف. كون على النحو الآتي: "كان اليهودي يرى أنَّ من العار عليه ألاّ يكون سيّداً مستقلّاً"، حتى لو كان فقيراً معدماً – حرفياً، أو حتى مساعد حرفي، لكنَّه يأمل في أن يكون له مشغله الخاصّ في يوم ما. "لذلك كان العمل في أيِّ مصنع كان، يسلبه أحلامه كلَها في أن يكون يوماً ما ربَّ عمل حراً مستقلاً: كان العمل لدى الآخر بالنسبة إليه مهانةً، عاراً". (والحقيقة كان ثمة عائق آخر، هو أنَّ أصحاب المصانع لم تكن لهم مصلحة في استخدام عمال عطلتهم الأسبوعيّة يوم السبت، وليس يوم الاحد). عندئذٍ أعلن حزب البوند أنَّ "البروليتاريّ اليهودي" هو كلُّ حرفيٍ، وبائع، وصاحب دكان، بل حتى الوسيط التجاري. ومن الضروري الآن نشر الدعاية الثورية بين هؤلاء كلهم، وحشد قواهم ضدَّ الاستبداد القيصري. بل لقد أعلن البوند أنَّ اليهود هم "أفضل بروليتاريا في العالم". (بيد أنَّ البوند لم يتخلَّ عن دوره في "تعزيز العمل الثوري بين المسيحيّين أيضاً").

كان غ. ب. سليوزبيرغ البعيد البعد كلُه عن الميول الاشتراكية قد كتب يقول في هذا السياق: لقد تسبّبت الدعاية الضخمة التي شنَّها البوند، "بضرر مباشر للتجارة والصناعة اليهوديّة التي كانت قد بدأت لتوِّها تتطوَر". فقد ألّب الفتيان الحرفيين المتدرِبين من عمر 14 -15 عاماً ضدَّ معلِميهم؛ وحطَّم البونديّون زجاج "منازل الأثرياء اليهود". وها هم "شباب البوند يقتحمون المعبد الكبير [في فيلنوس] في يوم كيبورا، وهم يشربون البيرة، فأحدثوا فيه شغباً كبيراً، وعوَقوا

إقامة الصلوات...". لكنْ بصرف النظر عن تأجيجه الحقد الطبقيّ، إلاَّ أنَّ البوند كان ينحدر أكثر فأكثر نحو التيار العالميّ الذي كانت تتصف به الليبراليّة البرجوازيّة: "فقد نشرت هذه في العالم المتحضر رؤية مؤداها أنَّ الفكر القومي يؤدي الدور الرائد في إيقاظ الوعي الذاتي لدى الإنسان، الأمر الذي أرغم مفكّريّ الدوائر البروليتاريّة على طرح المسألة القوميّة من موشور أعرض"، فأخذت النزعات القوميّة لدى البوند تزيح شيئاً فشيئاً النزوع لديهم نحو الادّغام". وهذا ما يؤكِّده جابوتينسكي أيضاً: "قياساً على تناميه، كان البوند يستبدل بالأيديولوجيا الكوسموبوليتيّة الأيديولوجيا القوميّة". كما حاول أبرام أمستردام، "وهو واحد من أبرز قادة البوند، أن يوفّق بين تعاليم الماركسيّة والفكر القوميّ". في العام 1901م قال مارك ليبير (م. إ. غولدمان) الذي لم يكن له من العمر حينئذٍ سوى 20 عاماً، قال أمام المؤتمر الدوري لحزب البوند: "نحن كنّا حتى الآن كوسموبوليتيين إلى حدٍّ بعيد. بيد أنّه ينبغي علينا أن نصبح قوميّين. يجب ألاَّ نخشى هذه الكلمة. فالقومي لا يعني الشوفيني". (ليتنا ندرك هذا لو بعد تسعين عاماً). لكنْ مع أنَّ البيان الذي صدر عن ذلك المؤتمر أعلن رفضه "لتأجيج الشعور القوميّ الذي يُفضي إلى الشوفينية"، إلاَّ أنّه دعا في الوقت نفسه إلى منح اليهود حكماً ذاتيّاً، "بصرف النظر عن الأرض التي يقيمون فيها".

وسوف يطوِر البوند شعار الاستقلال القوميّ هذا بعد عدة سنوات، في دعايته التي كان ينشرها في المجتمع، على الرَّغم من أنّه بالكاد كان هناك من يفهم بدقة عندئذٍ ما الذي يعنيه شعار الحكم الذاتي من غير أرض. كما جرى الحديث عن حقِّ كلِّ يهوديّ في أن يستخدم لغته اليهوديّة في تواصله مع الآخرين: مع الإدارة المحليّة ومؤسسات الدولة. لكن كيف كان يمكن تحقيق ذلك فعلاً؟ (حتى بالنسبة إلى من ينتمي إلى أيِّ قوميّة أخرى؟).

ومن النافل القول أيضاً: إنّه بصرف النظر عن صبغته الاشتراكيّة، إلاَّ أنَّ حزب البوند "رفض في برنامجه الاشتراكي الديمقراطي مطلب بولونيا استعادة

استقلالها ... ورفض تأسيس جمعيّات تأسيسيّة للأقاليم الطرفيّة في روسيا". إذن كان البوند يدعو إلى منح الاستقلال القوميّ لليهود فقط؟

انطلاقاً من مواقفه هذه لم يقبل البوند في صفوفه إلاّ اليهود. وهو إذْ سار على هذه الطريق، وعلى الرَّغم من عدائه الشديد للكهنوت، فإنّه، التزاماً منه بمصداقيّته، امتنع حتى عن قبول اليهود الذين تخلوا عن دينهم واعتنقوا ديناً آخر. وبات يدعو المنظمات الاشتراكيّة الديمقراطيّة الأخرى "مسيحيّةً". وهل كان لهم أن يفكروا بطريقة أخرى؟ الغرض مفهوم تماماً: بهذا وجّه البوند إهانة كبيرة إلى لينين: نسبه إلى "المسيحيّة"؟! ...

إذن، لقد تحوّل حزب البوند إلى محاولة جماهيريّة للدفاع عن مصالح اليهود وحدهم، خاصّة في وجه المصالح الروسيّة المشتركة: يعترف سليوزبيرغ هذا نفسه: بأنَّ "عمل البوند كان يهدف إلى النهوض بسمعته هو، وتحديد مكانته لدى السكان العاملين اليهود". بناء على ذلك كان من الطبيعي أن تتفاقم العلاقات بين حزب البوند والحزب الاشتراكيّ الديمقراطيّ الروسيّ، وتزداد تعقيداً. وينسحب هذا على علاقات البوند مع الحزب الاشتراكيّ البولونيّ الذي لم يكنْ يكنُّ أيَّ "ودٍّ للبوند" منذ تأسيسه، وأعلن أنَّ "انعزال البوند يضعه موضع الخصم بالنسبة إلينا". لكنْ غنيٌّ عن البيان القول: إنَّ حزب البوند بوعيه القوميّ المتنامي لم يكن له إلاّ أن يصطدم مع أجنحة الاشتراكيّة الديمقراطيّة الروسيّة الأخرى.

ويصف لينين جداله ومارتوف مع بليخانوف في أيلول من العام 1900م في جنيف على النحو الآتي: "لقد أظهر غ. ف. تعصُّباً فريداً إذْ أعلنه [أي البوند] من غير مواربة، منظّمة ليست اشتراكيّة ديمقراطيّة، إنّما منظمة استغلاليّة تستغلُّ الروس، وقال: إنَّ هدفنا هو طرد هذا البوند من الحزب، وإنَّ اليهود كلَّهم شوفينيون وقوميون، وإنَّ الحزب الروسي يجب أن يكون روسيّاً ولا يضع نفسه "أسيراً" لدى "سبط جاد" ... وتمسَّك غ. ف. بموقفه هذا ولم يتزحزح عنه إذْ قال:

نحن تنقصنا معرفة اليهوديّة والخبرة في التعامل معهم". (كم كان يشقُّ على مارتوف، وهو مؤسّس حزب البوند أن يستمع إلى هذا كلِّه؟).

في العام 1898م وافق البوند على الدخول في الحزب الاشتراكيّ الديمقراطيّ الروسيّ، مع أنَّه كان أقدم منه. لكنَّه اشترط أن يدخله كحزب لا كأفراد أو مجموعات، وأن يكون له استقلاله الذاتي الكامل في الشؤون اليهوديّة، أي أن يشارك في أعمال حزب روسيّ لعموم روسيا، لكنْ شريطة ألاَّ يتدخّلَ حزب عموم روسيا هذا في الشأن اليهودي. وعلى هذا تمَّ الاتفاق. لكنْ في أوائل العام 1902م رأى البوند أنَّ الاستقلال الذاتيّ الذي حصل عليه بسهولة في المؤتمر الأول للحزب الاشتراكيّ الديمقراطيّ الروسيّ، لا يكفيه، فطالب أن يمنحه هذا الأخير حقَّ الفدرالية، والاستقلالية في مسائل وضع البرامج، ونشر كتيباً بهذا الخصوص هاجم فيه جريدة "الإيسكرا". وعلى حدِّ قول لينين: إنَّ أحد المسوغات الرئيسة لمطلب البوند هذا تلخّص في أن البروليتاريا اليهوديّة "جزء من الشعب اليهوديّ الذي يشغل مكانة خاصّة بين الشعوب الأخرى".

هنا استشاط لينين غضباً، واضطر إلى أن ينبري بنفسه للبوند. فلم يكتف الآن بالدعوة إلى وحدة الصفِّ، لأنَّ بعثرة الأحزاب السياسية وتعدّدها يُضعف من شدة هجومه [على النظام القيصري]، بل التفت ليثبت بحميّة (الحقيقة أنَّه حذا في هذا حذو كاوتسكي)، أنَّ اليهود ليسوا أُمّة بالأصل: ليست لهم لغة مشتركة، ولا أرض مشتركة (حكم ماديّ مبتذل. فاليهود من أكثر الأمم على وجه الأرض حضوراً، ومن أكثرها انصهاراً في البوتقة الروحيّة. إنَّ لينين بأُمميته السطحية المبتذلة كان عاجزاً عن فهم عمق المسألة اليهوديّة وجذورها التاريخيّة). "إنَّ فكرة خصوصيّة الشعب اليهودي فكرة رجعية من حيث مغزاها السياسي"، لأنَّها تكرِّس عزلة اليهود. (فما بالك بمدى رجعية الصهاينة بالنسبة إليه). لقد رأى لينين أنَّ لليهود مخرجاً واحداً هو ادِّغامهم التام، أي الكفُّ عن كونهم يهوداً.

في صيف العام 1903م التأم المؤتمر الثاني للحزب الاشتراكيّ الديمقراطيّ الروسيّ في بروكسل، ومن بين مندوبيه الثلاثة والأربعين لم يكن سوى خمسة من البوند (مع أنَّ عدداً كبيراً من اليهود "شاركوا في أعماله"). في هذا المؤتمر اتخذ إ. مارتوف "مدعوماً من اثني عشر يهوديّاً (منهم تروتسكي، ودييتش، ومارتينوف، وليادوف وغيرهم)، موقفاً باسم الحزب معارضاً لمبدأ منح الفدرالية" لحزب البوند، ففادر البونديون المؤتمر (وهذا ما أتاح اعتماد "البند الأول من الميثاق"، وهو البند الذي كان قد طرحه لينين)، وخرجوا من الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي. (بعد انقسام الحزب إلى بلاشفة ومناشفة. "تزعَّم المناشفة كلٌّ من ب. أكسلرود، أ. دييتش، ل. مارتوف، م. ليبير، ل. تروتسكي"، إضافة إلى ف. دان، ر. أبراموفيتش، أمَّا بليخانوف فقد انفرد بموقف خاص).

وسرعان ما تحوَل حزب البوند منذ نشوئه إلى تنظيم قويّ فعّال "في الشارع اليهوديّ"، كما وصفوهَ حينئذٍ. "حتى عشيّة أحداث العام 1905م كان البوند أقوى تنظيم اشتراكيّ ديمقراطيّ في روسيا، من ناحية إعداد جهازه وتنظيمه، وانضباطه، وتلاحمه، ومرونته وقدرته على العمل السرِي". "لم يكن هناك انضباط كالانضباط الذي كان سائداً في حزب البوند". "وكان الإقليم الشمالي الغربي قلعة حزب البوند".

لكنَّ العام 1901م عرف ظهور حزب منافس مثّل خطورة كبيرة على حزب البوند، هو "الحزب العمالي اليهودي المستقل". كان هذا الحزب قد تأسس بتأثير وتحريض من زوباتوف الذي كان يعمل على إقناع العمال اليهود بأنَّهم مثلهم كمثل غيرهم ليسوا بحاجة إلى الأيديولوجيا الاشتراكية الديمقراطية، إنَّما إلى النضال ضدَّ البرجوازية في سبيل انتزاع حقوقهم الاقتصادية، وأنَّ للحكومة مصلحة في انتصارهم، لذلك يمكنهم أن ينشطوا ويعملوا علانية، وستكون السلطات وسيطاً متعاوناً معهم. تزعَّمت هذه الحركة ابنة طحان فائقة النشاط والحيوية تُدعى ماريا فيلبوشيفيتش. "لقد حقق أنصار زوباتوف نجاحاً كبيراً بين

العمال اليهود في مينسك"، وقارعوا البونديين بحمية وحماس، ونجحوا في تحقيق الكثير عبر انتفاضات ذات طابع اقتصاديّ. كما حقق "الاستقلاليون" في أوديسا (خونا شايفيتش) نجاحات ملحوظة أيضاً. لكنَّ الحكومة أحبطت مقاصد زوباتوف بعد أن خشيت نجاحات "الاستقلاليّين": في العام 1903م اعتُقل شايفيتش لبعض الوقت، وعندئذٍ وصلت أخبار أعمال العنف في كيشينيوف، فأُسقط بيد "الاستقلاليّين". وفي غضون ذلك "تلقى البوند عوناً من مجموعاته الخارجية": من سويسرا، ثمَّ من باريس، ولندن، وأمريكا "التي كانت مجموعات الدعم قد بلغت فيها أبعاداً كبيرة". لقد ظهرت هناك "نواد، وروابط، وجمعيات لدعم نشاط البوند في روسيا. وكان الدعم دعماً مالياً بشكل رئيس".

منذ العام 1901م تراجع حزب البوند عن ممارسة "الإرهاب الاقتصادي" (مهاجمة أرباب الأعمال وإدارة المصانع وضربهم)، لأنَّه "يُضعف الوعي الاشتراكيّ الديمقراطيّ لدى العمال ويجعله مبهماً"، كما زعم أنَّه بات ضدَّ الإرهاب السياسيّ كذلك. لكنَّ الحذَّاء البوندي غريش ليكرت، أطلق النار في العام 1902م عل محافظ فيلنوس، فحُكم عليه بالإعدام. كما أطلق النار أيضاً، البوندي المراهق القاصر مينديل دييتش الذي "جاءت طلقته لتعلن أنَّ حركة الجماهير اليهوديّة قد بلغت الآن ذروتها". فارتبك البوند: هل آن أوان العودة إلى الإرهاب؟ ففي العام 1902م اتخذ اجتماعه الموسّع الذي عُقد في بيرديتشيفسكي قراراً "بالثأر المنظَم". لكنَّ جدالاً دار في داخل حزب البوند. بعد عام أبطل مؤتمر الحزب شكلياً القرار المذكور. بحسب لينين أنَّ البوند كان يُعاني في العام 1903م من "أورام إرهابيّة فات أوانها".

لكنَّ ميل المناخ العام نحو الإرهاب الذي كان قد ظهر في روسيا غير مرة، وتفشي عادة اقتناء السلاح في أوساط الشباب، وسهولة الحصول عليه عبر المهرِبين، هذا كلُه لم يكن له إلاّ أن يولِّد لدى الشباب الثوري في منطقة الاستقرار اليهودي فكرة إنشاء فرق قتالية خاصة بهم. في غضون ذلك كان قد

ظهر للبوند منافسون نشطون وخطرون. ففي العام 1897م، وهو عام تأسيس حزب البوند، بل قبل شهر واحد من تأسيسه، التأم المؤتمر الصهيوني الأول، فهل كان ذلك مجرد مصادفة تاريخية، أم لأنَّ الأوان كان قد آن لنشوء الوعي القوميَ اليهوديّ؟ وها هم الشباب اليهود يمهّدون في أوائل التسعينات "طريق الخدمة المجتمعيّة ... على المفترق بين ''الإيسكرا'' و''بني موشيه'' [أبناء موسى] ... فانعطف بعضهم يميناً وسار آخرون نحو اليسار". "لكنَّ برامج كلِّ مجموعاتنا [اليهوديّة] الحزبيّة التي تأسست في الأعوام 1904 -1906م، أعطت الهمَّ القومي مكانته التي يستحق". ونحن كنَّا قد رأينا أنَّ حزب البوند الاشتراكيّ نفسه لم يغفل هذه المسألة، فبات عليه الآن أن يدين بشدة توجهات الصهيونية التي تشحذ الشعور القومي فتعوق بذلك تطوُّر الوعي الطبقيّ لدى الشعب اليهوديّ.

والحقيقة أنَّ "أعداد الشباب اليهود الذين كانوا ينتمون إلى الأحزاب الاشتراكيّة الثوريّة، كان يطغى على أعداد مجموعات الشباب الصهيونية ويطمسها". (مع أنَّه كانت هناك أمثلة مغايرة: فقد انغمس غ. غورفيتش الذي كان يصدر "البرافدا" اليهوديّة الاشتراكيّة الفيينيّة، كليّاً في العمل على ترحيل اليهود إلى فلسطين). وأخذت القطيعة التي باعدت بين الصهيونية والبوذية تلتئم بمزيد من الأحزاب الجديدة: بواليه ـ صهيون، وتسييريه ـ صهيون، "الصهاينة الاشتراكيّون"، "والاشتراكيّون العماليّون اليهود" ("الشمعونيون")، كان كلٌّ من هذه الأحزاب يجمع في بنيته الأيديولوجية بين الصهيونية والاشتراكية بطريقة مبتكرة.

لقد كان من الطبيعي أن ينشأ بين مثل تلك الأحزاب المتخاصمة صراع حاد، وهو ما زاد من أعباء حزب البوند. وما زاد الطين بلَة، تعاظم حركة الهجرة من روسيا في تلك السنوات: لمَ الهجرة؟ أين يكمن المغزى هنا؟ فالبروليتاريا اليهوديّة ينبغي أن تناضل كتفاً إلى كتف مع الطبقة العاملة في كلِّ البلدان من أجل الاشتراكيّة، لأنَّ انتصار الاشتراكيّة يعني بالضرورة حلَّ المسألة اليهوديّة في كلِّ مكان!

لقد كان اليهود يُتهمون في أحيان كثيرة بأنَّ أعداداً كبيرة منهم كانت على امتداد التاريخ كلِّه تعمل في الربا والتجارة والمصارف. والحقيقة أن اليهود كانوا الفصيل الطليعيّ الذي أنشأ عالم الرأسمال (بشكل أساس في صيغته النقديّة). وهذا ما كتب عنه وعلّله بوضوح، عالم الاقتصاد البارز فيرنير زامبارت. في السنوات الأولى من الثورة نُسبت هذا المأثرة علانية إلى اليهود، لأنَّ الرأسماليّة كانت مرحلة حتمية على الطريق نحو تحقيق الاشتراكية. وفي العام 1919م وجد كريلينكو حيّزاً ليقول في إحدى مرافعاته القضائيّة: إنَّ "الشعب اليهودي أخرج منذ القرون الوسطى مجموعة من حاملي نفوذ جديد، هو نفوذ الرأسمال ... وقد عجّل هؤلاء عملية الانهيار الطبيعي" للصيغ الاقتصاديّة القروسطيّة. ولا ريب في أنَّ النظام الرأسمالي في الاقتصاد والتجارة، والنظام الديمقراطي في البناء السياسي، مدينان بالكثير للمساهمة البنَّاءة التي أدَّاها اليهود في هذا الميدان، وكان هذا بحدِ ذاته ضرورياً ضرورة حيوية لازدهار الحياة اليهوديّة. لكنَّ لغزاً تاريخياً لا يدرك كنهه أحد، جعل اليهود لا يخدمون بهذا أنفسهم فقط.

وها هو ف. س. ماندل يذكّرنا قائلاً: إذا عدنا إلى التوراة فسنرى "أنَّ النظام الملكي نفسه ... لم يبتكره أحد آخر سوى اليهود، ثمَّ ورثه عنهم العالم المسيحي. فالملك لا ينتخبه الشعب، بل ينصبّه الرَّبُّ الإله نفسه ... ومن هنا يستمدُ جذوره طقس تنصيب الملك ومسحه الذي تبنته الشعوب المسيحية بالتعاقب" (يمكننا أن ندقق هنا فنقول: إنَّ الفراعنة كانوا قبل اليهود، وهم أيضاً كانوا ممثليّ الإرادة الإلهيّة). [من الواضح أنّنا هنا كما في مسائل أخرى كثيرة، كنشوء النظام الرأسمالي، والبناء الديمقراطي وغيرها، أمام مبالغة صهيوني متعصّب. فمن المعروف على وجه اليقين أنَّ النظام الملكي كان قد ظهر عند السومريّين والمصريّين عند أواخر الألف الرابعة ق. م. حينما لم يكن لليهود وجود على سطح الكرة الأرضيّة بعد. ـــح. إ.]. ويتذكّر الثوري الروسيّ البارز سابقاً أ. فالت - ليسين فيقول: "لم يول اليهود أهميّة خاصّة للحركة الثوريّة، بل عقدوا أفضل

آمالهم كلها على المساعي التي تُبذل في بطرسبورغ، والرشاوى التي تُدفع في الوزارات، وليس على انتصار الثورة". لكنَّ الشباب اليهوديّ المتحمِّس المتعجِّل، أطلق على المساعي التي كانت تُبذل لدى الدوائر النافذة، تسمية "شتادلان" التي كان الثوريون يزدرونها بصفتها موروثاً من القرون الوسطى. وقد رأى غ. ب. سليوزبيرغ الذي عمل لسنين طويلة في منظومة السينات ووزارة الداخليّة، وسوّى بصبر وأناة، مئات القضايا الخاصّة باليهود، رأى أنَّ مثل هذه الطريق هي الطريق التي تحمل آفاقاً صحيحة بالنسبة إلى اليهود، وعبَّر عن أسفه لقلة صبر الشباب اليهوديّ.

لقد بدا كأنّه ليس من الحكمة أن يرتبط اليهود بالحركة الثوريّة التي دمّرت المجرى الطبيعي للحياة في روسيا، ومعه مجرى حياة اليهود الروس أيضاً. لكنَّ اليهود كانوا الفصيل الطليعيّ سواء في تدمير النظام الملكيّ والنظام البرجوازيّ، أو في ترسيخهما قبل ذلك. تلكم هي مرونة الطبع اليهوديّ وحساسيته العالية في قراءة مستقبل التيارات الاجتماعيّة. بيد أنَّ تاريخ البشريّة كان قد عرف غير مرَّة، كيف أنجبت نزوات الناس الطبيعية جداً، غيلاناً خارقة الوحشيّة.

الفصل السابع
ولادة الصهيونيّة

في العقد الأول من القرن العشرين، وصف ف. ي. جابوتينسكي بطبعه الانفعالي المرن، حركة الوعي لدى اليهوديّة الروسيّة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، على النحو الآتي: في بادئ الأمر طرح الجمهور اليهوديّ " التمسُّكَ بخرافة المغالاة بفرادة الواقع اليهوديّ وأصالته"، نقيضاً لحركة التنوير. لكنَّ الوقت مضى، وبقدر ما كان اليهود يخافون المعارف الأدبيّة بقدر ما باتوا الآن متعطشين لها ... وقد نكون نحن اليهود الروس، قياساً على انتشار هذا التعطش إلى المعارف ... أول شعب في العالم". بيد أنّنا ما إنْ "بلغنا الهدف حتى انطلقنا إلى الأمام لا نلوي على شيء. كان الهدف هو بناءُ يهوديٍّ يستطيع أن يحيا حياة إنسانيّة مشتركة، ويبقى في الوقت نفسه يهودياً"، وها "نحن الآن ... أغفلنا كلُّنا ... أنّنا ينبغي أن نبقى يهوداً"، "لم نعد حريصين على ماهيّتنا اليهوديّة وبدأنا ننوء بعبئها". ثمَّ دعا جابوتينسكي إلى: "تجاوز روح الازدراء الذاتيّ، وإحياء روح الوعي الذاتيّ ... نحن نشكو من أنَّ الآخرين يحتقروننا، بينما نكاد نحن نحتقر أنفسنا".

إنَّ هذا الوصف يشمل المجرى الرئيس لحركة الادِّغام، لكنَّه لا يتطرَق إلى أبعاد اللوحة كلّها. ونحن كنّا قد رأينا (في الفصل الرابع)، أنَّ الروائي والكاتب الاجتماعي بيريس سمولينسكين، كان قد أعلن منذ أواخر ستينات القرن التاسع عشر رفضه القاطع لحركة ادِّغام المثقّفين اليهود التي كان رصدها لأوّل

مرّة في أوديسا، ثم رآها في ألمانيا. فأعلن الحرب عندئذٍ من فوره على "المتظاهرين بالتقوى، والمرائين الذين يسعون إلى اجتثاث كلِّ معرفة من بيت يعقوب"، كما على "المرائين التنويريّين الذين يسعون بخطبهم الجذّابة إلى إبعاد بني إسرائيل عن تراث آبائهم". لا! ينبغي ألاّ نخجل من أصلنا، يجب أن نصون لغتنا وكرامتنا القوميّة ونحافظ عليهما، ولا يمكننا الحفاظ على ثقافتنا الوطنية إلاّ في لغتنا اليهوديّة القديمة. وهذا مهمٌّ على وجه الخصوص؛ لأنَّ "اليهوديّة التي سُلبت أرضها" تُعدُّ نمطاً خاصاً: "أُمة روحية". فاليهود أُمة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، وليسوا اتحاداً دينياً. ثمَّ طرح سمولينسكين عقيدة "القومية اليهوديّة المتطوِرة".

لكنَّ صوت سمولينسكين كان لا يزال في السبعينات شبه وحيد. والحقيقة أنَّ تحرير السلاف البلقانيين في أواخر السبعينات لم يبق من غير أثر على يقظة الوعي القومي عند يهود روسيا أيضاً. فبعد أعمال العنف التي وقعت ضدَّ اليهود الروس في العامين1882-1881 م، انهارت مُثلُ الهاكسالا، "واهتزَّ اليقين بأنَّ الحضارة ستضع حداً للملاحقات القروسطية ضدَّ اليهود، وأنَّ المعارف يمكن أن تقرِب اليهود من شعوب أوروبا". (هل امتدت تجربة أعمال العنف في جنوبي أوكرانيا لتلتحق بتجربة أوروبا على امتدادها كلِه؟) لقد ظهر بين يهود روسيا "نمط من المثقفين النادمين الذي أخذوا الآن يسعون للعودة إلى اليهوديّة التقليدية".

هنا أعلن الطبيب والكاتب الاجتماعي الشهير ليف بينسكر، دعوته الملحة لليهوديّة الروسيّة والألمانيّة: "التحرير الذاتي". لقد كتب بينسكر يقول: إنَّ اليقين بالتحرير انهار، وينبغي أن يُطفأ فينا بصيص الإيمان بأُخوَّة الشعوب. "لا يشكِل اليهود اليوم أُمّة حيّة؛ إنَّهم غرباء في كلِ مكان، وهذا هو سبب الاضطهاد والازدراء اللذين تواجههم بهما الشعوب التي تحيط بهم". إنَّ الشعب اليهوديّ اليوم "كشبح ميت يطوف بين الأحياء". "وينبغي أن يكون المرء أعمى كي لا يرى أنَّ اليهود، شعب مختار للبغض في كلِ مكان". لا يستطيع اليهود أن "يدَّغموا بأيِّ

أُمة، لذلك لا يمكن لأيِّ أُمة أن تطيقهم". "وهم إذ يحاولون الادِّغام بالشعوب الأخرى، فإنَّهم إلى حدٍّ كبير، يضحُّون بقوميّتهم برعونة"، لكنَّهم "لم يبلغوا في أيِّ مكان اعتراف شركائهم في الوطن بمساواتهم بالسكان الأصليين". إنَّ مصير اليهوديّة يجب ألاّ يكون متعلِّقاً بعطف الشعوب الأخرى وإحسانها. أمَّا المخرج العملي من هذا المأزق، فيتمثَّل في تشكيل "شعب على أرض خاصّة به". وعليه يجب امتلاك أيِّ أرض ملائمة، وإسكان اليهود فيها، "ولا فرق في أيِ بقعة من بقاع الأرض". وها هو إنشاء الاتحاد اليهودي العالمي في العام 1860م، يمثِّل أوَّل إشارة لارتداد اليهود عن التعويل على الادِّغام وحده.

النزوح اليهودي إلى فلسطين

كانت قد نشأت بين اليهود الروس حركة أنصار فلسطين، أي السعي للعودة إلى فلسطين، وإنْ كانت في بداياتها حركة ضعيفة (لكنَّها كانت تجسيداً للتحيّة - الابتهال التي كان يتبادلها اليهود فيما بينهم: "العام القادم في أورشليم"). بعد أحداث العامين 1881 -1882م، تعاظمت هذه الحركة بدرجة ملحوظة. "السعي لاستعمار فلسطين ... كي يتمكّن اليهود من مغادرة أوروبا غير المضيافة في غضون قرن واحد". فحلّت محلَّ الشعارات التي طرحها المنوِرون سابقاً لمواجهة "الأصوليّة، والحسديّة، والمعتقدات الدينيّة الخرافيّة، دعوة ملحة إلى المصالحة بين فئات اليهوديّة كلّها واتحادها لتحقيق مُثل" فلسطين، "والعودة إلى اليهوديّة الأولى". "وظهرت في كثير من مدن روسيا حلقات ''أصدقاء صهيون''".

على هذا النحو كانت الأفكار تتوالى ويدقّق بعضها بعضاً ويصحّحه. إذن، إنّه النزوح، وليس إلى أيِ مكان آخر، إنّما إلى فلسطين نفسها. لكنْ ما الذي كان يجري، في فلسطين عندئذٍ؟ "كانت الحملة الصليبية الأولى قد أفضت إلى ما يشبه القضاء التام على ما تبقّى من السكان اليهود في فلسطين". ومع ذلك "نجحت المشاعة الدينيّة اليهوديّة الضئيلة أن تنجو من الانهيار: دول الصليبيّين، واستيلاء المماليك على فلسطين، واجتياح قطعان المغول للبلاد". "وفي القرون التي تلت، التحقت بالسكان اليهود هناك أعداد صغيرة من المؤمنين الذين جاؤوا من بلدان شتى". وعند أواخر القرن السابع عشر هاجر إلى هناك عدد محدود من الحسديين الروس. "في أواسط القرن التاسع عشر بلغ عدد اليهود في فلسطين اثني عشر ألف نسمة"، ومع نهاية القرن ارتفع هذا العدد إلى خمسة وعشرين ألفاً. "وقد

دُعيت تلك المستوطنات اليهوديّة التي تجمّعت في بلاد اسرائيل باسم واحد، هو ''إيشوف''". ولم يكن لأولئك الناس كلُهم (الرجال) سوى عمل واحد: دراسة اليهوديّة فقط، ولا شيء آخر. أمّا موارد عيشهم فكانت تأتيهم على شكل تبرُعات ("هالوك") من الطوائف اليهوديّة الأوروبية، فيتسلّمها الرابين ويوزِعونها، الأمر الذي منح هؤلاء سلطة مطلقة على الآخرين. لقد رفض قادة الإيشوف "كلّ محاولة لإنشاء أيٍّ شكل من أشكال العمل اليهودي المنتج في البلاد". كانت الدراسات تتركّز في غضون ذلك على التلمود حصراً، ولا تتناول أيَّ مصدر آخر، حتى دراسة التلمود هذه كانت تقتصر على مستوى متدنٍ جداً. فقد وجد المؤرِّخ اليهودي المعروف غ. غريتس الذي زار فلسطين في العام 1872م، أنَّ "الذين يدرسون فعلاً هم قلّة، بينما كانت الأكثرية تفضّل أن تتسكع، وتثرثر، وتلقلق، وتمارس النميمة والافتراء". كما وجد غريتس أنَّ "هذا النظام لا ينتج سوى الرجعيّة والتطرُف، والعوز وانحطاط اليهوديّة الفلسطينيّة"، - رداً على موقفه هذا "أُلقي عليه الحرم مباشرة".

في العام 1882م ظهرت في خاركوف حلقة طلابية أطلقت على نفسها اسم ''محبي فلسطين''-"البيلويسيين". وحدّد هؤلاء هدفهم الرئيس "بإنشاء مستعمرة زراعية نموذجية في فلسطين"، ثمَّ إطلاق "شرارة بدء استعمار اليهود لفلسطين"؛ وراح هؤلاء ينشؤون حلقات مماثلة في مختلف المدن الروسيّة. (فيما بعد، أنشأوا بطريقة ما، أول مستعمرة في فلسطين، لكنَّ الإيشوب القديم تصدَّى لهم، قاومهم وأنزل لعناته عليهم: طالبهم الرابين بأن بالالتزام بموجبات الطقس القديم، وترك الأرض بوراً من غير حراثة كلَّ سابع سنة).

لقد حظي التيار الفلسطيني هذا بمساندة بينسكر الذي دعا في العام 1884م إلى مؤتمرهم الأول في كاتوفيتسا، والثاني في العام 1887م في دروسكينيكي. ثم أخذ الدعاة يجوبون إقليم الاستيطان اليهودي ويلقون الخطب في المعابد، واللقاءات العامة. (ينقل دييتش أنَّ الحماس لهؤلاء دبَّ في ب. أكسلرود

نفسه، بعد العام 1881م). وغنيٌّ عن البيان القول: إنَّ سمولينسكين صار إلى داعية شديد الحماس للتيار الفلسطيني. فنسج علاقات وطيدة مع الشخصيّات اليهوديّة الإنكليزيّة البارزة، وعندما اصطدم بمقاومة الاتحاد اليهودي العالمي الذي لم يكن استعمار فلسطين في مخطّطاته، بل كان يسعى إلى توجيه موجات الهجرة اليهوديّة نحو أمريكا، أعلن سمولينسكين أنَّ التكتيك الذي يتبعه الاتحاد يُعدُّ "خيانة لقضيّة الشعب اليهودي". لكنَّ موت سمولينسكين المبكر وضع حداً لمساعيه. ومع ذلك لم تلق حركة التيار الفلسطيني سوى صدى باهتاً في الأوساط اليهوديّة الروسيّة خلال تلك السنوات، بل يمكن القول: إنَّها لاقت هناك مقاومة. "ففكرة البعث السياسي للشعب اليهودي، لم تثر في تلك الآونة سوى اهتمام مجموعة صغيرة من المثقفين اليهود، بل سرعان ما لاقت خصوماً عقيديين لها"؛ لأنَّ الدوائر اليهوديّة المحافظة، والرابينات، والصدوقيّين رأوا في التيار الفلسطيني جريمة ضدّ الإرادة الإلهيّة، "تجديفاً على دين موسى؛ لأنَّ موسى وحده الذي يجب أن يعيد اليهود إلى فلسطين. ورأى التقدميّون من دعاة الادّغام، أنَّ التيار الفلسطيني حركة رجعيّة ستفضي إلى عزل اليهود عن العالم المتحضّر". كما لم يساند اليهود الأوروبيّون التيار الفلسطينيّ.

في غضون ذلك كانت النجاحات التي حققها التيار الفلسطيني على الأرض "هزيلة جداً"؛ "فكثير من المستعمرين اكتشف أنَّه لا ينفع في العمل الزراعي"؛ فتضاءلت غاية إحياء الوطن القديم، وصارت إلى عمل خيريٍ صغير"؛ "لم يُنقذ المستعمرات اليهوديّة من الهلاك سوى التبرُّعات السخية التي كان يقدمها البارون إدموند روتشيلد" (الباريسي). لكنَّ ذلك جعل من المستعمرين "أُجراء زراعيين تابعين خاضعين لنظام طاعة صارم". وعند أوائل التسعينات "عاشت حركة الاستعمار اليهودي في فلسطين أزمة حادة تسبب بها أولاً، شراء الأراضي بطريقة عشوائية فوضوية لا ضابط لها"، ثانياً، قرار تركيا التي كانت فلسطين عندئذٍ من أملاكها، الذي قضى بمنع اليهود الروس من الرسوِ في موانئ فلسطين.

في تلك الأثناء برز بين أنصار التيار الفلسطيني، الكاتب الاجتماعي والمفكّر والمنظّم المعروف أُوشر غينتسبيرغ، الذي اتخذ لنفسه منذ العام 1889م اسماً مستعاراً يهودياً هو أحد -هاعام (أي "واحد من الشعب")، وعرف بهذا الاسم منذ ذلك الحين. لقد وجّه أحد -هاعام انتقادات حادة إلى الطرائق العملية التي اتبعها التيار الفلسطيني. وكان إرشاده على النحو الآتي: "قبل حشد الجهود للبعث على الأرض، يجب الاهتمام ببعث القلب، بالكمال الذهني والأخلاقي للشعب". "يجب أن نضع في مركز اهتمام اليهوديّة سعياً روحياً حياً إلى توحيد الأُمة، وإيقاظها وتطويرها وغرس الروح القوميّة فيها من غير قيود، لكنْ على أسس إنسانيّة مشتركة". فيما بعد دُعيت وجهة النظر هذه "بالصهيونيّة الروحيّة" (لكنّها ليست "دينيّة" —وهذا مهمّ جداً).

جدل الزعماء اليهود حول الصهيونية

في العام 1889م هذا نفسه، أسس أحد - هاعام رابطة، أو أخوية دُعيت "بني موشيه" ("أبناء موسى")، كانت غايتها توحيد أولئك الذين كانوا مخلصين لبعث المشاعر القوميّة اليهوديّة. وكان ميثاقها "يشبه في جوانب كثيرة مواثيق الخلوات الماسونية: لدى الانتماء إلى الأخوية كان ينبغي على الشخص المعني أن يُقسم على الالتزام بمتطلَبات الميثاق بدقة؛ وكان يُعهد بالأعضاء إلى أستاذ، هو "الأخ الأكبر" ... لقد كان على "الأخ" المنتسب أن يتعهَد بأن يخدم فكرة البعث القومي اليهودي بتفانٍ، حتى لو كان على يقين بأنَّه ليس ثمة أمل في أن تتحقق هذه الغاية المثلى في القريب العاجل". وقد أعلن ميثاق الأخوية أنَّ "للوعي القوميّ أفضليّة على الوعي الدينيّ، وأنَّ المصالح الشخصيّة خاضعة للمصالح القوميّة"، وطالب بتعميق روح التفاني في محبَة اليهوديّة بصفتها أعظم غايات الحركة سموّاً. لقد أعدت هذه الأخوية "التربة لاستقبال الصهيونيّة السياسية" التي سيعلنها هرتزل، والتي لم يكن أحد - هاعام يسعى إليها البتة.

في الأعوام 1900 1891, 1893 , زار أحد - هاعام فلسطين، وأشار إلى الفوضى التي كانت تسود عمليّة استعمارها عندئذٍ، وافتقارها إلى الأسس، كما "انتقد بشدة السلوك الدكتاتوري الذي يسلكه موظفوُ البارون" إ. روتشيلد.

على هذا النحو لم تظهر الصهيونية في أوروبا، إلاَ بعد عقد من نشوئها في روسيا. كان تيودور هرتزل أول زعيم للصهيونية. قبل السادسة والثلاثين (من أعوامه الأربعة والأربعين التي عاشها) كان هرتزل كاتباً، ومؤلفاً دراميأ، وهجائياً، ولم يكن على معرفة بالتاريخ اليهودي، ولم يوله أيَ اهتمام، كما لم

يكن يعرف اللغة اليهوديّة، واشتُهر كليبرالي نمساوي رصين يرى في سعي مختلف "الشعوب الصغيرة" في امبراطورية النمسا - المجر لتقرير مصيرها، مسعى رجعيّاً ينبغي أن يُقمع. وقد كتب ستيفان سفيبغ يقول في هذا السياق: لم يكتف هرتزل بهذا، بل وضع خطّة لقيادة يهود فيينا إلى الكنسية لمعمودية جماعية، "ووضع حدٍّ نهائي للمعضلة اليهوديّة بتذويب اليهوديّة في المسيحي(3)". لكنْ ها هو العداء لليهود يتعاظم في النمسا - المجر، وتطغى النزعة الجرمانية فيها، وفي باريس حيث كان هرتزل يقيم في تلك الآونة، انفجرت قضية ألفريد دريفوس، وقُيض لهرتزل أن يشهد "تجريد دريفوس علانية من رتبته". كان هرتزل على يقين ببراءة هذا الأخير، فهزّه الحدث بعنف ودفعه إلى أن يرتدّ عن قناعاته، "وقال في نفسه: إذا كان الإقصاء حتمياً، إذن فليكن كلياً ... وإذا كنّا نعاني من فقدان الوطن، إذن ينبغي أن نخلق لأنفسنا وطناً نأوي إليه!". وفي لحظة صحو صاعقة امتلكت كيان هرتزل فكرة إنشاء دولة يهودية. "كما تضيء الصاعقة لاحت له الفكرة الجديدة: ليس من قبيل المصادفة أن تبرز ظاهرة معاداة الساميّة في الوضع الراهن والظروف الراهنة؛ لا، فهي شرٌّ مقيم، إنّها رفيقة الجيد الأبدية"، "والحلُّ الممكن الوحيد للمسألة اليهوديّة" هو الدّولة اليهوديّة القائمة بذاتها. (لكي يتبادر مثل هذا المشروع إلى الذهن بعد آلاف السنين من الشتات، كان الأمر يتطلّب خيالاً جامحاً وتصميماً استثنائياً!). لكنّ منشور هرتزل: "الدولة اليهوديّة"، أثار بحسب سفيبغ، "الارباك والغضب في أوساط البرجوازية اليهوديّة الفيينيّة ... أيُّ إبليس سكن في هذا الصحفي المثقف الموهوب الفكه؟ ما هذه الحماقات التي يكتبها؟ لمَ علينا أن نرحل إلى فلسطين؟ فلغتنا هي الألمانية، وليست اليهوديّة، ووطننا الرائع هو النمسا"؛ إنّ هرتزل "يعطي أعداءنا اللدودين ذرائع ضدّنا، ويحاول أن يعزلنا". إذن "فيينّا ... خانته، بل سخرت منه. لكنْ بغتة دوت بعدئذٍ تلك الاستجابة المدوية، تلك الاستجابة الحماسية العاطفية التي كانت من القوة بحيث أوشك أن يخاف هو نفسه جبروت الحركة التي طوّرها في

كتيبه الصغير. لكنَّ الحركة وُلدت وانتهى الأمر ... تلك حقيقة ... وفي طوفان الجماهير اليهوديّة في أوروبا الشرقية ... ألهب هرتزل بكتيبه الصغير هذا جذوة اليهوديّة الخامدة تحت رماد الغرباء الأجانب". وها هو هرتزل يكرِس لفكرته الجديدة سنيَّ عمره المتبقية كلّها، "فقطع علاقاته حتى مع أقرب أصدقائه، واقتصر تواصله منذ الآن مع الشعب اليهودي ... وها هو الذي كان قبل حين فقط يزدري كلَّ عمل سياسي ... ينشئ حركة سياسية ... ويغرس فيها الروح الحزبية والانضباط الحزبي، ويبني كادر جيش المستقبل الجرّار، ويحوِّل المؤتمرات [الصهيونيّة] إلى برلمان حقيقيٍّ للشعب اليهوديّ. في المؤتمر الصهيونيّ الأول الذي التأم في شهر آب من العام 1897م في بازل، ترك هرتزل أقوى انطباع لدى اليهود الذين ألفوا أنفسهم لأوّل مرّة يؤدون دور الشخصيّات البرلمانيّة، وفي أثناء خطبته الأولى أعلنه الحاضرون بحماس القائد والزعيم الأوحد للحركة الصهيونيّة. وقد أثبت مهارة نادرة في ابتكار الصيغ التوفيقيّة، وكلُّ من كان ينتقد هدفه الذي يسعى لتحقيقه ... أو يندِّد بأيِّ خطوة من خطواته، كان يُعلن عدوّاً لا للصهيونيّة وحدها، بل للشعب اليهوديّ أيضاً.

أمّا ماكس نورداو (زيودلفيلد)، الكاتب الذي كان له نفوذه، فقد ساند هرتزل بفكرته الآتية: إنَّ التحرُّر وهمٌ باطل؛ لأنّه أحدث انقساماً في اليهوديّة، فها هو اليهوديّ المتحرِّر يتخيّل كأنّه بتحرّره امتلك وطناً؛ بينما "كلُّ ما هو حيوي في اليهوديّة، كلُّ ما يمثل الغاية اليهوديّة الأسمى، الشجاعة، وروح التقدُّم، يكمن في الصهيونيّة". في هذا المؤتمر الصهيونيّ الأوّل كان ممثلو الصهيونيّة الروسيّة "يشكّلون ثلث عدد المشاركين فيه ... 66 مندوباً من أصل 197 مندوباً"، على الرَّغم من أنَّ آخرين كان يمكن أن يروا في هذه الخطوة خطوة معارضة لسياسة الحكومة الروسيّة. لقد التحق بالحركة الصهيونية أعضاء حركة أصدقاء صهيون الروس كلّهم، "وهو ما مهَّد سبيل صيرورة الحركة الصهيونيّة إلى حركة عالمية". على هذا النحو "تكون الصهيونيّة قد استمدَت قوّتها ... من

الأوساط اليهوديّة الشرقيّة المضطهدة، ولم تلق سوى دعم محدود من يهود أوروبا الغربية". لكنَّ هذا نفسه جعل اليهود الروس يشكّلون المعارضة الأكثر جديّة في وجه هرتزل. فقد خاض أحد - هاعام صراعاً عنيداً ضدَّ الصهيونيّة السياسيّة التي طرحها هرتزل (الذي وقفت أكثرية التيار الفلسطيني إلى جانبه)، وانتقد بلا هوادة، براغماتية هرتزل ونورداو وما دعاه هو "اغترابهما عن القيم الروحية للثقافة والتقاليد اليهوديّة. "لقد رأى أحد -هاعام في حلم الصهيونية السياسية إنشاء دولة يهودية مستقلة في القريب العاجل، حلماً خيالياً غير قابل للتحقيق: رأى في هذه الحركة برمّتها حركة شديدة الأذى بالنسبة إلى قضية البعث الروحيّ للأُمة ... فهم لا يهتمون بإنقاذ اليهوديّة التي تهلك أمام أعينهم، أي لا يهتمون بالمكتسبات القوميّة الروحيّة والثقافيّة التاريخيّة، ولا يسعون إلى بعث الشعب القديم، بل يعملون على خلق شعب جديد من جزيئات المادّة القديمة المشتّتة" (يستخدم أحد -هاعام كلمة "يهوديّة" ويبرزها، لكنْ ليس بالمغزى الديني، إنّما بصفتها منظومة روحيّة موروثة. ونقلت الموسوعة اليهوديّة عن أحد -هاعام ما يلي: منذ السبعينات "ابتعد عن الدين بعد أن تشبَّع بالفكر العقلانيّ"). كان أحد - هاعام على يقين بأنَّ اختيار فلسطين وحدها "لتكون مركزاً روحيًا يمكن أن يوحِّد الشعب المشتت بأواصر قوميّة - روحيّة"؛ ومركزاً "يمكن أن يسكب نوره ليضيء ظلام اليهوديّة العالميّة"، ويُنشئ "رابطة روحيّة تجمع بين أشلاء الشعب المشتت"، هذا الخيار لن يكون "دولة يهوديّة" فقط، بقدر ما سيكون "مشتركاً روحياً نقياً".

لقد هزَّ هذا الجدال أعماق الصهاينة. فأحد -هاعام انتقد هرتزل انتقاداً حاداً، ودعماً لهذا الأخير اتهم نورداو أحد -هاعام "بالصهيونيّة الباطنيّة". وفي كلِ عام كانت تُعقد مؤتمرات صهيونيّة عالميّة، ففي العام 1902م التأم في مينسك مؤتمر الصهاينة الروس، فانتقل النزاع إلى هناك أيضاً. في هذا المؤتمر تلا أحد -هاعام تقريراً عن "الانبعاث الروحيّ". من جهة أخرى فاقم النفور الخارجيّ

من الصهيونيّة من صعوبة وضعها. لقد كان هرتزل يأمل في أنّه ما إنْ يبدأ التحقيق العمليّ لبرنامج الصهاينة، أي ما إنْ تبدأ الهجرة إلى فلسطين فعلاً، حتى يتوقف العداء للساميّة في كلِّ مكان. لكنْ قبل أن يتحقق مثل هذا النجاح، "كانت قد دوت بقوّة أصوات أولئك الذين كانوا يخشون من أنَّ إعلان اليهوديّ عن حقيقته القوميّة صراحةً، يمكن أن يضع بين أيدي أعداء الساميّة ذريعة للتأكيد على أنَّ في كلِّ يهودي حتى لو ادَّغم في المجتمع الذي يعيش فيه، يهوديٌّ آخر، يهوديٌّ حقيقي ... عاجز عن الادِّغام بالمجتمع المحلّي"، وأنَّه منذ اللحظة التي ستنشأ فيها الدولة اليهوديّة، سيشتبهون باليهود في كلِ مكان، ويتهمونهم بعدم الإخلاص للدولة، والانعزالية، وهو ما كان أعداء اليهود يتهمونهم به دوماً.

رداً على هذا كلِه، أعلن نورداو في المؤتمر الصهيوني الثاني (انعقد في العام 1898م): "نحن نرفض بكلِّ سخرية وازدراء تسميتنا حزباً؛ فالصهيونية ليست حزباً، إنَّما هي اليهوديّة بحدِّ ذاتها، وعلى الضدِّ من هذا... كلُّ الذين يستمتعون بالعيش عبيداً، ويقبلون بهذه المهانة كلِّها ... إمَّا يتخذون موقف الحياد التام، أو يهاجموننا بضراوة".

ففي بريطانيا يقول مؤرِخ إنكليزي: نعم، إنَّ الصهيونية قدَّمت لليهود خدمة جليلة إذْ منحتهم الشعور باحترام أنفسهم من جديد"، لكنَّها مع ذلك "تبقي على السؤال التالي مفتوحاً من غير إجابة: كيف سيكون عليه موقف اليهود تجاه البلدان التي يعيشون فيها؟"

وفي النمسا جادل هرتزلَ مواطنُه اوتُو فينينغر الذي قال: "الصهيونيّة واليهوديّة ليستا شيئاً واحداً، لأنَّ الصهيونية تعمل على إرغام اليهود على أن يأخذوا على عاتقهم مسؤولية دولة خاصة بهم، وهو ما يناقض ماهيّة اليهوديّ". وتنبَّأ هذا بفشل الصهيونيّة وسقوطها.

وفي روسيا أعلن إ. م. بيكرمان في العام 1899م، موقفاً واضحاً مناهضاً للصهيونية بصفتها فكرة "وهميّة أنجبتها معاداة الساميّة، وهي في جوهرها

فكـرة رجعيّـة ضـارّة"؛ فمـن الضـروري "رفـض أوهـام الصـهاينة، لكـنْ مـن غـير التخلّـي عـن الروحيّـة الذاتيـة [اليهوديّـة]، والنضـال يـداً بيـد إلى جانـب العناصـر التقدميّة المثقفة في روسيا في سبيل بعث وطن مشترك واحد".

عند أوائل القرن العشرين أعلن الشاعر ن. مينسكي عن اعتراضه الآتي: إنَّ الصهيونيّة تعني خسارة المعيار الإنسانيّ المشترك، وهي تقلّص من مدى الأبعاد الإنسانيّة الكوسموبوليتية لليهوديّة، وتهبط بها حتى مستوى القوميّة العادية. "وإذْ يتصلّب الصهاينة في المسألة القوميّة، فإنّهم في واقع الأمر يشيحون بوجوههم عن الوجه القوميّ الحقيقيّ لليهودية، ويكتفون بأن يكونوا مثلهم كمثل الآخرين وليس أقلَّ منهم".

ونرى مـن المهمّ في هـذا السـياق أن نعقـد مقارنـة بين هـذا كلّه، والملاحظـة الـتي أفصـح عنهـا المفكّـر الأرثوذكسـي س. بولغـاكوف قبـل الثـورة: "إنَّ أكـبر العقبات التي تواجه الصهيونيّة اليوم تكمن في عجزها عن استعادة دين الآباء المفقـود، لـذلك نراهـا تلجـأ إلى المبـدأ القـوميّ أو الثقـافيّ -الإثنـوغرافيّ الـذي لا يمكن لأيّ شعب عظيم حقاً أن يتخذه ركيزة يستند إليها".

لكـنَّ الصـهاينة الـروس الأوائـل، - ومـن روسـيا تحديـداً خـرج أكثـر مؤسّسـي دولـة إسـرائيل، وطلائـع بنـاة هـذه الدولـة"، بـل باللغـة الروسـيّة "كُتبـت أفضـل نمـاذج المنشـورات الصـهيونيّة"، -كـانوا ممتلـئين حماسـاً لا يقـف أمامـه عـائق لاسـتعادة الـوطن التـوراتيّ التـاريخيّ المفقـود، وبنـاء دولـة فيـه ماهيتهـا غـير عاديّة، وتنشئة أُناس ماهيتهم خارقة. والانفعال نفسه – الدفع بهم جميعا من غير استثناء إلى العمل العضـلي، إلى حراثـة الأرض! – لم يتـدفّق أبـداً مـن غـير التـأثير الذي أحدثته دعوة تولستوي البسيطة: الأيدي كلُّها إلى هناك.

لكـنْ مـع ذلـك، كيـف ينظـر الصـهيوني إلى الـبلاد الـتي يقـيم فيهـا الآن؟ بالنسبة إلى صهاينة روسيا، كان بذل الجهود كلّها لتحقيق الحلم الفلسطينيّ يتطلّـب الخـروج مـن الغليـان الاجتمـاعيّ الجـاري في روسـيا نفسـها. فقـد جـاء في

ميثاقهم: "ينبغي الابتعاد عن العمل السياسيّ العام، الداخليّ منه والخارجيّ". وابتداء من الآن باتت مشاركتهم في النضال لنيل المساواة في روسيا ممكنة، لكنَّهم كانوا في مشاركتهم هذه خاملين متردِّدين؛ أمَّا في حركة التحرر الروسيّة فلم تكن لهم أيُّ مساهمة؛ لأنَّ مشاركتهم فيها كانت تشبه عمل مَنْ يقشِّر الكستناء لغيره. والغريب أنَّ هذا التكتيك أثار انتقاداً غير متوقع من قبل جابوتينسكي الذي قال عنه: "حتى الذين يقيمون في نزل المسافرين لهم مصلحة في أن يكون نظيفاً ومنظَماً".

لكنْ، ما هي اللغة التي يجب على الصهاينة استخدامها لنشر دعوتهم؟ فهم لا يعرفون اليهوديّة، وحتى لو كانوا يعرفونها فإنَّ أحداً لن يفهمها. وهذا يعني أنَّه كان ينبغي عليهم أن يستخدموا اللغة الروسيّة، أو العامية اليهوديّة. بيد أنَّ هذا كان يعود بهم من جديد إلى دائرة الراديكاليّة السياسيّة في روسيا، ويقربهم من التيارات الثورية اليهوديّة.

وغنيّ عن البيان القول: إنَّ الشباب اليهوديّ الثوريّ خاض جدالاً حامي الوطيس مع الصهاينة: لا!! ليس حلُّ المسألة اليهوديّة بمغادرة روسيا، بل بالنضال السياسي لتحقيق المساواة هنا! لمَ الرحيل والاستقرار في مكان ما وراء البحر، وثمة إمكانية للاستقرار هنا في هذه البلاد؟ ولا شكَ في أن وضوح مثل هذه الحجج خلخل قناعات الكثيرين.

أمَّا البلاشفة فقد رأوا في الصهيونيّة حركة "في منتهى الرجعية"، ووصفوا الصهاينة بأنَّهم "حزب التشاؤم واليأس والقنوط".

الأحزاب الصهيونيّة الوسطيّة

بيد أنَّ ظهور تيارات أخرى بين بين، كان أمراً حتمياً. ونحن نرى هنا الحزب اليساري الصهيوني بواليه - صهيون (أي "الصهاينة الكادحون"). كان هذا الحزب قد تأسس في روسيا في العام 1899م، واقترنت فيه "الصهيونيّة السياسيّة بالأيديولوجيا الاشتراكيّة". لكنَّه لم يكن سوى محاولة لسلوك خطٍّ يعبر بين الذين لا يعملون إلاَّ على القضايا الطبقية، والذين لا يعملون إلاَّ على القضايا القومية. وعرف هذا الحزب بدوره "خلافات حادّة تمحورت حول المشاركة في العمل الثوري في روسيا" (فضلاً عن ذلك، كان بين الثوريين من يميل صوب الاشتراكيّين الديمقراطيّين، ومن يميل صوب الاشتراكيّين الثوريين).

"منذ العام 1903م أخذت تظهر مجموعات تسييريا صهيون التي كانت قريبة أيديولوجياً من الصهيونيّة الاشتراكيّة غير الماركسيّة". وفي العام 1904م انشقَ عن بواليه - صهيون حزب "الصهاينة الاشتراكيّين" الذين قطعوا تقريباً صلاتهم كلّها بفكرة فلسطين. وقد رأى هؤلاء أنَّ "التقدُّم الشامل للعاميّة اليهوديّة كلغة محكية حيَة تتحدّثها الجماهير اليهوديّة الكادحة" وحده يكفي، فلتسقط فكرة الاستقلال الذاتي. كما رأوا أنَّ الصهيونيّة أخذت ترتدي لبوساً برجوازياً رجعيّا، بينما المطلوب إنشاء حركة صهيونيّة اشتراكيّة، وإيقاظ الغرائز السياسيّة الثوريّة الكامنة في الجماهير اليهوديّة. وأعطى هذا الحزب "تقويماً عالياً للجوهر الاجتماعيّ الاقتصاديّ الكامن في الصهيونيّة، لكنَّه رفض ضرورة بعث الأرض اليهوديّة، والثقافة اليهوديّة، والتقاليد اليهوديّة". بيد أنَّ المطلوب كان توجيه الهجرة اليهوديّة العشوائيّة نحو أرض واحدة وحيدة، ولم تكن ثمة رابطة

عضوية تجمع بين الصهيونية وفلسطين. كان الأمر الرئيس في هذا كلِّه هو أنَّه ينبغي أن تقوم الدولة اليهوديّة الموعودة على أسس اشتراكيّة، وليس على أسس رأسمالية. غير أنَّ مثل هذه الهجرة كانت عمليّة تاريخيّة طويلة الأمد، لذلك كان قدر أكثرية الجماهير اليهوديّة أن تبقى حيث هي، في بلدان إقامتها. لقد اتخذ الحزب موقفاً إيجابياً تجاه المشاركة في النضال الثوري الجاري في روسيا، أي النضال لنيل الحقوق هنا، في روسيا. وازدرى الحزب اليهوديّة الدينيّة على وجه العموم.

ولم تلبث أن ظهرت في هذا الخليط المتباين مجموعة "النهضة"، وهي "مجموعة اشتراكيّة يهوديّة ... رأت أنَّ العامل القوميّ عامل تقدّميّ من حيث طبيعته"، وفي العام 1906 انفصل النهضويون عن الصهاينة الاشتراكيّين وشكّلوا حزب العمال الاشتراكي اليهودي (كان هؤلاء هم "الشمعونيون" أنفسهم، وقد دعوا إلى انتخاب سييم [مجلس] قوميّ يهوديّ ليكون "هيئة عليا للإدارة الذاتيّة اليهوديّة). ورأى هذا الحزب أنَّ اللغة اليهوديّة، واللغة الروسيّة متكافئتان في ميدان الاستخدام اليومي. ومع أنَّ الحزب تمسَّك بأيديولوجيا "الاستقلال الذاتي" داخل الدولة الروسيّة، إلاَّ أنَّه لم يدَّغم بحزب البوند اليهودي الذي كان حزباً اشتراكيّا أيضاً.

وبصرف النظر عن الخلافات الداخليّة بين الصهاينة، إلاَّ أنَّ الصهيونيّة في روسيا عرفت قفزة عامّة نحو الاشتراكية، ولم تبق خارج دائرة رؤية الحكومة الروسيّة. وحتى اللحظة لم تتخذ هذه أيَّ إجراءات لعرقلة عمل الدعاية الصهيونيّة، لكنَّ وزير الداخلية بليفيه، عمَّم في تموز من العام 1903م منشوراً على المحافظين وحكام المدن جاء فيه: إنَّ الهجرة إلى فلسطين تراجعت في اهتمام الصهاينة إلى المقام الثاني، وبات هؤلاء يركزون اهتمامهم الآن على تنظيم شؤون اليهود حيث يقيمون؛ هذا توجُّه لا يُطاق؛ بناء عليه تُمنع الدعاية الصهيونية منعاً باتاً، وتُمنع اجتماعاتهم ومحاضراتهم وما إلى ذلك.

ما إنْ علم هرتزل بالمنشور المعني حتى توجّه من فوره إلى بطرسبورغ، ونجح في عقد لقاء مع بليفيه (في العام 1899م كان قد حاول مقابلة نيقولاي الثاني لكنّه فشل) – متجاهلاً أعمال العنف التي وقعت في ربيع ذلك العام نفسه ضدّ اليهود في كيشينيوف، وكذلك الاتهامات المدونّة التي وُجّهت إلى بليفيه، ومزدرياً الإدانات واللعنات التي صدرت عن كثير من الصهاينة الروس.

بحسب مذكرات هرتزل، أنَّ بليفيه شرح له الأمر على النحو الآتي: إنَّ المسألة اليهوديّة بالنسبة إلى روسيا ليست مسألة حيوية، لكنّها مسألة مهمة، "ونحن نعمل على حلِّها بطريقة صحيحة ... والدولة الروسيّة ترغب في أن يكون سكانها متماثلين"، وتطالب الجميع بموقف وطنيٍ. "نحن نرغب في أن ندغم [اليهود]، إلاَّ أنَّ الادِّغام ... يجري ببطء شديد ... وأنا لست عدوّاً لليهود. فأنا أعرفهم معرفة ممتازة، وقضيت سنيَّ شبابي بينهم في وارسو، وفي طفولتي كنت دائماً ألهو مع الأطفال اليهود ... لذلك كانت بي رغبة شديدة لأُفعل شيئاً ما لليهود. أنا لا أُريد أن أنفي ... حقيقة أنَّ اليهود الروس ليسوا في وضع مريح. ولو كنت يهودياً لكنت حتماً عدوَّ الحكومة كمثلهم". "إنَّ إنشاء دولة يهودية [يعيش فيها] عدة ملايين من اليهود سيكون عملاً مرحَباً به كثيراً من قبلنا. بيد أنَّ هذا لا يعني مع ذلك، أنَّنا نريد أن نخسر يهودنا كلَّهم. فالعناصر المثقفة والثرية التي يمكنها أن تندمج في المجتمع نبقيها عندنا برحابة صدر، أمَّا الفقراء، والذين لا يملكون إلاَّ مستوى ثقافيٍّ متواضع، فإنَّنا يمكن أن نتخلَى عنهم غير آسفين". لقد تعاطفنا مع الصهيونية من قبل؛ لأنَّنا رأينا فيها عامل هجرة، "غير أنَّنا نلاحظ تغيرات كبيرة" في أهدافها اليوم. إنَّ الحكومة الروسيّة ترحب بهجرة اليهود إلى فلسطين وتتعاطف معها، وإذا عادت الصهيونية إلى برنامجها السابق فحكومتنا على استعداد لتقديم الدعم لها ضدّ الإمبراطورية العثمانية، بيد أنَّها لا يمكن أن تطيق الدعوة إلى الاستقلال القومي اليهودي داخل الدولة الروسيّة، وهذا ما تدعو إليه الصهيونية اليوم؛ فهذا سيفضي إلى نشوء مجموعة من المواطنين الغرباء عن

الروح الوطنية التي تشكل الأساس الذي تقوم عليه الدولة (وإذا صدَّقنا رواية ن. د. ليوبيموف الذي كان عندئذٍ رئيس ديوان بليفيه، فإنَّ بليفيه قال له: إنَّ هرتزل أقرَّ في حديثه معه بأنَّ المصرفيين اليهود في أوروبا الغربية يقدِّمون الدعم للأحزاب الثورية في روسيا. لكنَّ سليوزبيرغ يرى أنَّ هذا مستحيل). ثم نقل بليفيه ما دار بينه وبين هرتزل إلى القيصر، ولمَّا نال موافقته، سلَّم هرتزل رسالة بهذا المعنى.

الخيار الأُوغندي

لقد رأى هرتزل أنَّ زيارته إلى بليفيه كانت ناجحة. ولم يكن أيٌّ منهما يعلم أنَّه لم يبق له في هذه الدنيا سوى أحد عشر شهراً ... لم تبد تركيا أيَّ إشارات توحي بالتراجع عن موقفها أمام الصهاينة، أمَّا الحكومة الإنكليزية فقد اقترحت عليهم في العام 1903م استعمار أُوغندا بدلاً عن فلسطين. في شهر آب من العام نفسه التأم المؤتمر الصهيوني السادس في بازل، فوضع هرتزل أمامه هذا الأُفق "الذي لم يكن صهيونياً طبعاً"، إلاّ أنَّه كان يمكن القبول به كحلٍّ وسط لتسريع إنشاء الدولة اليهوديّة. كان من البديهي أن يثير هذا المشروع جدالاً عاصفاً. وثمّة معطيات تفيد بأنَّه حتى في الإيشوف الفلسطينية نفسها، لاقى الخيار الأُوغندي موافقة: سانده المستوطنون الجدد الذين كانت الظروف الطبيعية في فلسطين تُثقل عليهم. لكنَّ موقف صهاينة روسيا كان الموقف الأكثر حدَّة في رفض الخيار الأُوغندي، مع أنَّهم كانوا أكثر يهود العالم حاجة إلى مأوى بأسرع وقت ممكن. فاتخذوا بزعامة م.أُوسيشكين (مؤسس مجموعة "البيلويسيين"، ثم صار فيما بعد إلى اليد اليمنى لأحد -هاعام في رابطة "بني موشيه")، موقفاً معارضاً بلا هوادة للخيار الأُوغندي: الصهيونية ترتبط عضوياً بصهيون تحديداً، ولا بديل آخر!

الحقيقة أنَّ المؤتمر شكّل لجنة لإيفادها إلى أُوغندا لدراسة الوضع هناك. وفي العام 1905م عُقد المؤتمر الصهيونيّ السابع، واستمع إلى تقرير اللجنة الأُوغندية، ثمَّ اتخذ قراراً برفض الخيار الأُوغندي. لكنَّ هرتزل الذي أرهقته تلك العوائق كلُّها، لم يعش ليشهد هذا القرار الأخير: في العام 1904م توفي بالسكتة

الفصل الثامن

على تخوم القرنين: التاسع عشر والعشرين

يبدو أنَّ الإسكندر الثالث بعد ست سنوات من التفكير، أو التردّد، حسم أمره منذ العام 1887م وعاد ليردع اليهوديّة الروسيّة بالملاحقات والمضايقات المدنيّة والسياسيّة، وقد التزم بهذه السياسة حتى وفاته.

ولا شكَّ في أن مردَّ سياسة الإسكندر هذه يرجع إلى مشاركة اليهود الملفتة في الحركة الثوريّة، إضافة إلى تهرُّبهم من تأدية الخدمة العسكريّة: "لم يكن يؤدّي الخدمة سوى ثلاثة أرباع اليهود المكلّفين". كما أُشير إلى "تزايد أعداد اليهود الذين لا يلبون الاستدعاء"، وتراكم الغرامات المفروضة على الممتنعين عن تلبية الاستدعاء: لم يتمَّ تحصيل سوى ثلاثة ملايين روبل من أصل ثلاثين مليوناً (كما كانت عليه الحال من قبل كذلك الآن، لم يكن بين يديِّ الدولة إحصاء دقيق لعدد السكان اليهود، لا عدد المواليد، ولا عدد الوفيات قبل سنِ الواحدة والعشرين. فلنتذكّر ما أوردناه في الفصل الرابع: بسبب التخفي أُلفي في العام 1876م امتياز إعفاء الابن الوحيد من الخدمة العسكرية، وبات الابن الوحيد في العائلات اليهوديّة يخضع للقرعة، الأمر الذي ترتّب عنه خلل في نسبة المكلّفين اليهود بالنسبة إلى عددهم الكلي. ولم يُستدرك هذا الخلل إلاَّ في أوائل التسعينيّات في عهد نيقولاي الثاني).

قانون "المعيار النسبيّ" في المؤسسات التعليميّة الروسيّة

أمّا فيما يخص وزارة المعارف، فقد كان رأي الإسكندر الثالث الذي عبَّر عنه في العام 1885م، على النحو الآتي: يجب تحديد عدد اليهود في المدارس خارج نطاق إقليم الاستيطان اليهودي، على أساس النسبة التي يشكّلونها من العدد الكلّي لسكان الإمبراطورية. لكنَّ السلطات لم تول اهتمامها فقط للحدّ من تكاثر أعداد اليهود الساعين إلى التحصيل العلمي، بل كان همُّها الرئيس يتركز على محاربة الثورة. وقد عبَّروا عن ذلك حينئذٍ على النحو الآتي: تحويل المدرسة "من منبت للاشتراكيّة إلى منبت للعلم". في كواليس الوزارة كان يجري الإعداد لإجراء نطاقه أكثر شمولاً يمنع العناصر التي يمكن أن تخدم الثورة من دخول المدارس، إجراء مناهض للومونوسوفية، إجراء كان معيباً جداً بالنسبة إلى فكرة الدولة: منع أبناء الشرائح الدنيا من سكان روسيا ("أبناء الطبَّاخين") من دخول المدارس. وقد صيغ الإجراء بحذاقة مفتعلة ولباقة مزعومة: "يُمنح مديرو المؤسسات التعليمية الحقّ بألاّ يقبلوا في مؤسساتهم إلاّ الأطفال الذين يعيشون في كنف أشخاص قادرين على تحقيق مراقبة منزليّة صحيحة عليهم، وتوفير شروط تعليميّة وافية لهم". ثمَّ رفعوا من أقساط الدراسة في المؤسسات التعليمية العليا.

كما أثار هذا الإجراء السخط في الأوساط الليبرالية الروسيّة أيضاً، إلاَّ أنَّ السخط لم يكن هنا شديداً، ولا مديداً كالسخط الذي أثاره الإجراء الذي اتُّخذ في العام 1887م للحدّ من قبول اليهود في المعاهد والجامعات. كانت النيّة في بادئ الأمر إصدار الإجراءين معاً في قانون واحد. لكنَّ اللجنة الوزارية لم توافق، ورأت أنَّ "إعلان إجراءين عامَّين مناهضين لحقوق اليهود، يمكن أن يُؤوَّل خطأً". في تموز من العام 1887م صدر الجزء غير اليهودي من القرار: "الإجراءات المتخذة

لتنظيم الكادر الطلابي في المؤسسات التعليميّة المتوسطة والعليا" – كانت تلك الإجراءات ضدَّ فئات الشعب الدنيا ... أمَّا الحدُّ من قبول الطلاب اليهود، فعُهد به إلى وزير المعارف دليانوف ليُنفذه بموجب منشور عمومي غير معلن يوجَّه إلى مديري الدوائر التعليمية، وهذا ما فعله دليانوف فعلاً في تموز من العام 1887م حينما حدَّد للمؤسسات التعليمية المتوسطة والعليا في وزارته معيار قبول خاص باليهود: في داخل إقليم الاستيطان اليهودي 10%، خارج حدود هذا الإقليم 5%، في العاصمتين 3%. "وعلى غرار وزارة المعارف"، أخذت بعض الإدارات الأخرى تضع "معايير نسبية لمؤسساتها التعليميّة، بل أغلق بعضها أبوابه تماماً في وجه اليهود" (من هذه الأخيرة: معهد الهندسة الكهربائية، ومعهد الاتصالات في بطرسبورغ، لكنَّ ما يثير الانتباه هو وقف قبول اليهود مؤقتاً في الأكاديميّة الطبيّة العسكريّة الذي استمرَّ العمل به سنوات طويلة).

لقد كان قانون "المعيار النسبيّ" هذا الذي لم يكن له مثيل على امتداد الأعوام الثلاثة والتسعين من الإقامة الجماعية لليهود في روسيا، والذي قُدِّر له أن يستمرَّ بعد ذلك طول تسعة وعشرين عاماً (عملياً حتى العام 1916م)، كان مؤلماً جداً بالنسبة إلى اليهوديّة الروسيّة، لا سيما أنَّ "اندفاع موجات اليهود على المدارس والمعاهد العامة"، كان قد بدأ منذ سبعينيّات - ثمانينيّات القرن التاسع عشر وهو ما لم ير سليوزبيرغ مثلاً أنَّ سببه " كان جهل العامة اليهوديّة بأهمية اكتساب المعارف، إنَّما سببه محدوديّة الفرص المتاحة أمام اليهود لتوظيف إمكانياتهم في ميادين الاستثمار، من غير أن يتوافر لهم الرأسمال اللازم، وكذلك فرض التجنيد الإلزاميّ مع امتيازات للمستوى الثقافي" – وعليه، إذا كان التعليم قد اقتصر فيما مضى على الفئات اليهوديّة الثرية وحدها، فقد نشأت الآن "بروليتاريا طلابيّة يهوديّة"؛ وإذا كان لدى الروس أنفسهم لا ينال الشهادات العلمية العالية حتى الآن سوى أبناء الأثرياء، فعند اليهود إضافة إلى أبناء الأثرياء اندفع نحو التعليم أبناء الفئات الاجتماعيّة الدنيا أيضاً.

ونحن كنّا سنضيف إلى هذا أنّه في تلك الأعوام كان قد بدأ في العالم كلّه انعطاف ثقافي شامل نحو التعليم العام، وليس التعليم النخبوي، واليهود بحساسيتهم الفائقة كانوا أوّل شعب بين شعوب الأرض كلّها لمس ذلك الانعطاف، حتى لو لم يدركوا أهميّته إدراكاً تاماً. وهل كان يمكن العثور على طريقة سلسة وهادئة لتلبية تلك الحاجة اليهوديّة للعلم بعد أن ظهرت وتعاظمت بغتة؟ في واقع الخمول والتخلُّف اللذين كانا طاغيين على حياة أعرض شرائح السكان الأصليين، كيف كان يمكن تحقيق ذلك من غير خسائر تلحق بتطوّر الروس واليهود على حدٍّ سواء؟ بما أنَّ الطلاب اليهود كانوا قد أظهروا في تلك الآونة نشاطاً بارزاً لا هوادة فيه ضدَّ نظام الحكم القيصري، لذلك لا ريب في أن مواجهة النشاط الثوريّ كان هدفاً أساساً من الأهداف التي توخَّتها الحكومة من الإجراءات المذكورة. بيد أنّنا إذا أخذنا بالحسبان النفوذ الكبير الذي كان يتمتّع به ك. ب. بوبيدونوستسيف لدى الإسكندر الثالث، فعلينا أن نعترف بأنّهما كانا يسعيان إلى هدف آخر: حماية الوطن من تبعات التباين الظاهر في مستويات التعليم. فبحسب المصرفيّ اليهودي الكبير، البارون موريس فون -غيرش الذي كان في زيارة لروسيا عندئذٍ، أنَّ بوبيدونستسيف عرض له وجهة نظره على النحو الآتي: لا تنطلق سياسة الحكومة من "الإضرار" باليهود، بل من واقع امتلاكهم ثقافة عمرها آلاف السنين، الأمر الذي يجعل منهم عنصراً ذا قوة روحيّة وذهنيّة يتفوَّق بها كثيراً على الشعب الروسي الذي مازال يرزح تحت وطأة الجهل حتى اليوم، لذلك لا بدَّ من إجراءات قانونية من شأنها أن "تؤدي إلى تكييف القدرات المتواضعة للمحيط السكاني مع متطلبات الصراع" (ودعا بوبيدونوستسيف غيرش المعروف بأعماله الخيرية إلى المساهمة في توعية الشعب الروسي وتزويده بالمعارف، فيعجِّل بذلك من تحقيق مساواة اليهود في روسيا أمام القانون. فكتب البارون إلى سليوزبيرغ وتبرَّع للمدارس الروسيَّة بمليون روبل).

ونحن يمكننا أن ننظر إلى هذا الإجراء من جوانب مختلفة، مثله في هذا كمثل أيِّ ظاهرة أخرى، على الأقل من جانبين. فبالنسبة إلى الطالب اليهوديّ الشاب، اختلّت أسس العدالة الرئيسة: لقد أظهر قدراته، ودأبه، واجتهاده، - بدا أنّه مؤهّل لكلِّ شيء؟ قطعاً لا، فلن يقبلوا بك. وغنيٌّ عن البيان القول: إنَّ هذا العائق الذي ظهر بغتة أمام الشباب اليهوديّ الديناميكيّ الموهوب علميّاً، كان أكثر من محبط، فأثار في نفوسهم الحقد على الفظاظة التي تعاملت بها الإدارة معهم. وها هم اليهود الذين حُشروا فيما مضى داخل إطار العمل التجاريّ والحرفيّ المحدود، يواجهون اليوم بعائق يمنع عنهم مفاتيح أبواب عيش كريم طالما حلموا به.

من وجهة نظر "السكان الأصليين"، لم يكن المعيار النسبي يمثّل جريمة بحقِّ مبدأ المساواة، بل على الضدّ. فالمؤسسات التعليميّة المعنيّة كان تمويلها من خزينة الدولة، أي من موارد السكان كلهم، لذلك بدا اختلال التناسب لصالح اليهود تمويلاً على حساب المجموع، وسوف تكون نتيجته فيما بعد، أنْ ينال المتعلمون مكانة مميَّزة في المجتمع. وهل كانت المجموعات القومية الأخرى، غير اليهود، بحاجة إلى تمثيل متوازن في فئة المتعلّمين؟ خلافاً لكلِّ القوميّات الأخرى في الإمبراطورية، بات اليهود يسعون الآن إلى التحصيل العلمي حصراً، وفي بعض الأماكن كان يمكن أن يعني هذا، ارتفاع نسبة اليهود في المؤسسات التعليمية العليا إلى أكثر من 50%. إذن كان المعيار النسبي تعليلاً منطقيّاً لحماية مصالح الروس، والأقليات القوميّة الأخرى، ولم يكن بأيِّ حال من الأحوال مسعى لاضطهاد اليهود (في عشرينات القرن العشرين سيسعون في الولايات المتحدة الأميركية نفسها إلى إيجاد طريقة للحدِّ من نسبة حضور اليهود في التعليم الجامعي، كما في ضبط نسبة مشاركتهم في الهجرة، - سنتحدث عن هذا فيما بعد. على وجه العموم لا تزال مسألة المعايير النسبية ابتداء من الحدِّ الأدنى، "ليس أقلَّ من"، تتفاعل في أمريكا حتى في أيامنا هذه).

لكنَّ التطبيق العملي للمعيار النسبي كانت له في روسيا استثناءات كثيرة. أولاً لم ينسحب على المدارس النسائيّة، فلم توضع في مثل هذه المدارس معايير لقبول البنات اليهوديات. "في أكثر المدارس النسائية لم يُعمل بالمعيار النسبي، وكذلك كان الأمر في عدد من مؤسسات التعليم العالي التخصّصيّة والاجتماعيّة: في كونسرفاتور بطرسبورغ وكونسرفاتور موسكو، ومدرسة موسكو لتعليم فنِ الرسم، والعمارة والنحت، ومعهد الطِبِّ النفسي والأمراض العصبية في بطرسبورغ، والمعهد التجاري في كييف وغيرها". فضلاً عن ذلك لم يُعتمد المعيار النسبي في شتى أنواع المؤسسات التعليميّة الخاصّة التي كانت كثيرة جداً، وذات كفاءة عالية (في موسكو مثلاً، جمنازيوم كيريبيتشنيكوفا الذي كان واحداً من أفضل الجمنازيومات الخاصّة في روسيا كلّها، كان التعليم فيه مختلطاً بين الجنسين، وقد شكّل اليهود فيه حوالي ربع عدد الطلاب. وجمنازيوم بوليفانوف الأرثوذكسي الذي كان يدرس فيه عدد كبير من الطلاب اليهود. وفي جمنازيوم أندرييفا للبنات في روستوف، حيث درست والدتي، كانت البنات اليهوديات يشكلن أكثر من نصف عدد بنات الصف). أمّا المدارس التجارية (كانت تابعة لوزارة المالية) التي كان اليهود ينتسبون إليها برغبة كبيرة، فقد كانت متاحة لهم في بادئ الأمر من غير أيِّ عائق. لكنْ بعد العام 1895م، ظهرت بعض العوائق البسيطة: في المدارس التجارية التي كان يموِلها التجار داخل إقليم الاستيطان اليهودي، بات عدد اليهود المقبولين فيها يرتبط بحجم مساهمة التجار اليهود في نفقات هذه المدارس؛ في كثير منها لم تكن نسبة الطلاب اليهود تقلُ عن 50%.

حتى هناك حيث كان الالتزام بالمعيار الحكومي للقبول في المدارس المتوسطة صارماً، كانت نسبة اليهود في الصفوف العليا تتجاوزه. ويُعلِّل سليوزبيرغ هذا الواقع كما يلي: كان كلُّ اليهود الذين ينتسبون إلى الجمنازيوم يتابعون دراستهم فيه حتى التخرُج، بينما غير اليهود، فقد كان بعضهم يغادره قبل أن يُتم

دراسته. لذلك كانت نسبة اليهود في الصفوف العليا تتجاوز 10%. ويؤكد سليوزبيرغ أنَّ غير قليل من اليهود كانوا يدرسون في جمنازيوم بالتافا. كما يشير مدونِ آخر إلى أنَّ عدد اليهود في جمنازيوم فيازم، حيث كان يدرس هو نفسه، كان ثمانية طلاَّب من أصل ثلاثين طالباً. وفي عصر الدوما كانت نسبة الطلاب في جمنازيومات الذكور في ماريوبولسك تقارب 14 -15%، وفي جمنازيومات الإناث أكثر من ذلك. أمَّا في أوديسا حيث كان اليهود يشكِّلون ثلث عدد السكان، فكانت نسبة الطلاب اليهود في جمنازيوم ريشيليفسك، وهو أرقى جمانيوزيوم فيها، تشكِّل 14%، وبلغت في الجمنازيوم الثاني أكثر من 20%، وفي الثالث 37%، بينما بلغت نسبة الطالبات اليهوديات في جمنازيومات الإناث كلّها 40%، وفي المدرسة التجارية 72%، وفي الجامعة 19%. لكن في حال كان المال متوافراً، لم يكن يقف أمام تعطُّش اليهود للعلم أيُّ عائق. "ففي كثير من مؤسسات التعليم المتوسط في المقاطعات الداخلية، لم يكن عدد اليهود كبيراً عندئذٍ، لذلك أخذ الأهل يرسلون أبناءهم إلى هناك ... كما شاع التعليم المنزلي في أوساط العائلات الثرية: هنا كانوا يُعدُّون الطالب لامتحان الانتقال إلى الصف الأعلى، ثمَّ إلى امتحان التخرُج". فمنذ العام 1887 حتى العام 1909 كان يمكن للطلاب اليهود أن يتقدموا من غير عائق إلى امتحانات الصفوف الانتقاليّة، وامتحانات التخرُج من الجمنازيوم، "ويُمنحون وثيقة تعطيهم حقوقاً مماثلة لحقوق الخرجين الآخرين". لقد كان أكثر طلاب المنازل في جمنازيومات روسيا من اليهود. ويبدو أنَّ عدد العائلات اليهوديّة التي كعائلة يعقوب مارشاك (صائغ غير ثري، ووالد شاعر)، لم يكن قليلاً: حصل أبناؤه الخمسة على شهادات التعليم الجامعي قبل الثورة.

بعد ذلك "انتشرت المؤسسات التعليميّة الخاصّة في كلِّ مكان، وكان بعضها متاحاً للمسيحيين كما لليهود، لكنَّ بعضها الآخر لم يكن متاحاً إلاَّ لليهود وحدهم ... وقد نال بعض هذه المدارس حقوق المدارس النظامية كلّها،

وأُجيز لبعضها الآخر أن يمنح إجازات تعطي الحقَّ في الانتساب إلى المؤسسات التعليمية العليا". في ذلك المناخ "أُنشئت شبكة من المؤسسات التعليمية اليهوديّة التي شكّلت الأساس الذي قام عليه التعليم القومي اليهودي". "كما أخذ اليهود يتوجّهون إلى الدراسة في المؤسسات التعليمية العليا في خارج البلاد؛ وقد عاد العدد الأكبر من هؤلاء إلى روسيا، واجتازوا فيها امتحانات اللجان الحكومية". فقد بيَّن سليوزبيرغ نفسه أن "أكثر المستمعين الروس في جامعة غيدلبيرغ إبَّان ثمانينات القرن 19م، كانوا من اليهود"، وكان بينهم من لم تكن لديه وثيقة بلوغ سنِّ الرشد القانونية.

ومن الجدير أن نطرح على أنفسنا السؤال الآتي الآن: ألم تكن القيود التي أملتها الخشية من ثورية الطلاب هي نفسها التي غذَّت هذه الثورية؟ ألم يمهِّد لها السبيل أيضاً، الحقدُ الذي ولَّده "معيار القبول"، والإقامة في الخارج حيث كان التواصل مع المهاجرين الثوريين يومياً؟

فما الذي حدث في الجامعات الروسيّة بعد منشور المنع؟ لقد أخذت نسبة الطلاب اليهود تتدنى عاماً بعد عام: من 13%8 , في العام 1893م إلى 7%0 في العام 1902م. ومع ذلك كانت نسبة الطلاب اليهود في جامعتيّ بطرسبورغ وموسكو تفوق المعيار المعلن -3% - على امتداد سنوات العمل به. فالوزير دليانوف كان يستجيب دائماً للطلبات الخاصّة التي كانت تُرفع له، ويسمح بقبول الطلاب السائلين في الجامعات بما يفوق المعيار المحدَّد؛ وهناك أكثر من شاهد على ذلك. على هذا النحو كان يجري قبول "مئات الطلاب" (فيما بعد حلَّت محلَّ تسهيلات دليانوف، تعليمات صارمة أصدرها الوزير بوغوليبوف بضرورة التقيُّد بالمعيار المحدّد، ولا يجوز البتة أن ننفي دور تعليمات الوزير هذه في اختياره هدفاً لانتقام أحد لإرهابيين). فهاكم ما عرضه سليوزبيرغ: في الصفوف العليا كانت النسبة الفعلية لطالبات الطب في بطرسبورغ أعلى منها في الأكاديمية الطبية العسكرية والجامعة، "فإلى هذه الصفوف تقاطرت اليهوديات من شتى

أرجاء الإمبراطورية". وفي معهد الطب النفسي والأمراض العصبية في بطرسبورغ (حيث كانوا يقبلون الطلاب في بعض الأحيان من غير إجازة الجمنازيوم)، كان يدرس مئات الطلاب اليهود، ومع الوقت بلغت أعداد هؤلاء آلافاً. ومع أنَّ هذا المعهد كان يُدعى معهد "الطِبِّ النفسيّ والأمراض العصبيّة"، إلاّ أنّهم افتتحوا فيه كليّة الحقوق أيضاً. كما كان في الكونسرفاتور الامبراطوري، "فيض من الطلاب والطالبات اليهود". في العام 1911م افتُتح في يكاتيرينوسلاف معهد خاصّ لعلوم التعدين.

في بعض الأحيان كان القبول في المؤسسات التعليمية التخصّصية المتوسطة، كمعهد التمريض مثلاً، يتسم بقدر كبير من الحريّة. يروي يا. تييتل عن هذا فيقول: في مدرسة التمريض في ساراتوف (كان التعليم فيها على أعلى مستوى؛ لأنَّ تجهيزاتها كانت تضاهي تجهيزات المعاهد)، كانوا يقبلون اليهود الوافدين من إقليم الاستيطان اليهودي من غير أيِّ معيار نسبيٍّ كان (لم يكن الخروج من هناك يتطلّب إذناً مسبقاً من الشرطة، أمَّا القبول في المدرسة فكان على قدم المساواة، وهو النظام الذي كان قد أقرَّه ستوليبين محافظ ساراتوف في ذلك الحين). على هذا النحو كان 70% من طلاب هذه المدرسة من اليهود. وفي مدارس ساراتوف التقنية المتوسطة الأخرى أيضاً، كانوا يقبلون يهود إقليم الاستيطان اليهوديّ من غير أن يتقيّدوا بالمعيار النسبيّ، وكان كثير من هؤلاء الطلاب يتابعون دراستهم بعد التخرُج في المؤسسات التعليمية العليا. كما كانت تفد من إقليم الاستيطان "كتلة" كبيرة من الطلاب غير المداومين الذين لم يوفّقوا في الانتساب إلى الجامعة، وكانت الطائفة اليهوديّة في ساراتوف توفّر لهؤلاء كلّهم فرص عمل.

ومن الجدير أن نضيف إلى ما تقدّم أنَّ أعداد المؤسسات التعليميّة باللغة اليهوديّة لم تتقلّص. ففي أواخر القرن التاسع عشر كان في إقليم الاستيطان اليهودي 25 ألف خيدير، يدرس فيها 363 ألف تلميذ (64% من العدد الكلي

للأطفال اليهود). والحقيقة أنّ "المدارس العامة اليهوديّة" التي أُنشئت سابقاً، أُغلقت (في العام 1883م) الآن، فقد سقطت الحاجة إليها في العصر الجديد، ولم يعد ينتسب إليها أحد (لكنْ إذا كان ثمة كتّاب اجتماعيون يهود قد رأوا في هذه المدارس، إبّان العقود الماضية، واقعاً "رجعيّاً"، فإنّ إغلاقها الآن هو أيضاً "واقع رجعي").

مجمل القول: إنّ المعيار النسبي لم يحدّ من تعطش اليهود إلى التعليم، كما لم يرفع من مستوى التعليم في أوساط القوميات الأخرى غير اليهوديّة التي تعيش على أراضي الإمبراطورية. بيد أنّه أثار مرارة الشباب اليهودي وضراوته. وعلى الرغم من هذا الإجراء التعسفي إلاّ أنّ الشباب اليهودي تحوّل مع ذلك إلى مثقفين رواد. فاليهود الروس تحديداً هم الذين شكّلوا ثقلاً وازناً، وأكثرية واضحة بين المثقفين الذين تشكّلت منهم فيما بعد، هذه الفئة في دولة إسرائيل. كم من مرة تقرأ في الموسوعة اليهوديّة الروسيّة: "ابن حرفي صغير"، و"ابن تاجر صغير"، عداك عن "ابن تاجر"، -وبعد ذلك: أنهى تعليمه الجامعي.

في أول الأمر كانت الشهادة الجامعية تمنح الحائز عليها حقّ الإقامة في أيّ مكان على أراضي الإمبراطورية الروسيّة، وحقّ العمل في أيّ مؤسسة من مؤسسات الدولة (فيما بعد وُضعت عراقيل أمام عمل اليهود مدرِّسين في الأكاديميات، والجامعات، والجمنازيومات التابعة للدولة). كان لليهود الحائزين على شهادة في العلوم الطبية (أطباء وصيادلة)، حقُّ "الإقامة حيث يشاؤون بصرف النظر عمّا إذا كانوا يمارسون مهنتهم أم لا"، ومثلهم كمثل كلٍّ من أنهى دراسته في الجامعة، كان من حقهم "أن يعملوا في التجارة والحرفة"، و"ينتسبوا إلى فئة التجار من غير أن يكونوا قد مكثوا في إقليم الاستيطان خمس سنوات في الفئة الأولى"، كما كان مطلوباً من التجّار العاديين. "وكان من حقِ اليهودي الطبيب أن يخدم في أيّ إدارة من إدارات الدولة الروسيّة، وأن يكون له مدبِّر وخادمان من أبناء دينه يأتي بهم من إقليم الاستيطان اليهودي". كما كان لليهود

العاملين في الميدان الطبي، الحق في الإقامة حيث يشاؤون، والعمل في التجارة حتى لو لم يكن واحدهم يحمل شهادة عليا (أطباء الأسنان، والممرضون، والقابلات -المولدات). لكنْ ابتداء من العام 1903م، صدرت تعليمات تشترط عليهم ممارسة تخصّصاتهم.

كما طالت التدابير اتحاد المحامين المحلّفين المستقل الذي كان قد تأسس منذ العام 1864م. فهذه المهنة كانت تعطي إمكانية كبيرة لليسر المالي، وتحقيق المجد الشخصيّ، والفكريّ: لم تكن مرافعات المحامين في المحكمة تخضع لأيّ رقابة، وكذا كانت الحال لدى نشرها في وسائل الإعلام، وعليه، كان المحامون في تلك السنين يتمتعون بقدر كبير من حريّة الرأي يفوق ما كان ممنوحاً للصحف نفسها، وقد استغلوا تلك الحريّة أوسع استغلال، وأفادوا منها أفضل إفادة في النقد الاجتماعيّ، و"تربية" المجتمع. فخلال ربع قرن تحولت فئة المفوضين المحلّفين إلى قوّة اجتماعيّة جبّارة بلغت قوتها في العام 1878م، حدّ النجاح في تبرئة الإرهابيّة فيرا زاسوليتش (لقد أقلق تطرّف حجج المحامين عندئذٍ دوستويفسكي نفسه، فكتب عن ذلك). وسرعان ما شغل اليهود مكانهم في أوساط هذه الفئة النافذة، وكان عددهم كبيراً على وجه الخصوص، بين أكثر أعضائها موهبة. عندما نشر مجلس المفوّضين المحلّفين في بطرسبورغ "في تقريره لأول مرة، معطيات عن عدد اليهود في هذه الفئة"، أعلن المحامي البطرسبورغي البارز أ. يا. باسُوفير "تخليه عن عضوية المجلس، ولم يقبل بعد ذلك انتخابه إلى عضويته أبداً"

في العام 1889م هذا نفسه، رفع وزير العدل ماناسين تقريراً إلى الإسكندر الثالث، أشار فيه إلى أنّ "اتحاد المحامين يفيض باليهود، وأنّ هؤلاء يبعدون الروس ويحلّون محلّهم؛ وأنّهم ينتهكون بطرائقهم الخاصّة، النقاوة الأخلاقيّة التي ينبغي أن تتوفر في هيئة المفوّضين المحلّفين". (لا يسوق المصدر أيّ تفسيرات توضّح هذا الانتهاك). في تشرين الثاني من العام نفسه صدر تعميم بتوجيه من القيصر

بدا كأنَّه تعميم مؤقت، لذلك لم يكن تطبيقه يتطلَّب إجراء عملية تشريعيَّة تستوفي الشروط المعتادة: "بقبول غير المسيحيين في عداد المفوَّضين المحلَّفين ... من الآن وحتى صدور قانون خاص بهذا الشأن، شريطة الحصول على موافقة وزير العدل على ذلك". لكنْ بما أنَّ عدد المحمَّديين (المسلمين) والبوذيين الذين يرغبون بنيل لقب "**المحامي**" لم يكن ذي أهمية تُذكر، لذلك كان التدبير موجهاً في حقيقة الأمر ضدَّ اليهود وحدهم. فمنذ ذلك التاريخ وعلى مدى خمسة عشر عاماً لم ينجح أيُّ يهوديّ غير معمَّد في الحصول على الموافقة المطلوبة من وزير العدل، حتى المحامين الذين اشتُهروا وبرزوا فيما بعد مثل: م. م. فينافير، واو. او. غروزينبيرغ وغيرهما، قضوا خمسة عشر عاماً في درجة "مساعد مفوَّض محلَّف" (علماً بأنَّ فينافير تحدث في السينات غير مرة، وكان له تأثيره هناك). بيد أنَّ ما يجدر قوله: إنَّ "المساعدين" كانوا يتحدثون بحريّة ويحققون نجاحات بارزة مثلهم كمثل المفوَّضين المحلَّفين الذين كانوا يتمتعون بكامل العضوية، في هذا لم يعان اليهود من أيِّ قيود أو عراقيل.

في العام 1894م حاول وزير العدل الجديد ن. ف. مورافيوف أن يُضفي على قرار المنع طابع القانون الثابت. وعلَّل ذلك على النحو الآتي: "ليس الخطر الحقيقي في أن يكون في عضوية هيئة المفوَّضين المحلَّفين بعض اليهود الذين تخلوا إلى حد بعيد عن رؤاهم الأخلاقيَّة اليهوديَّة المجافية للأخلاقيّات المسيحية، إنَّما في وجود هذه الأعداد الكبيرة من اليهود بين المفوَّضين المحلَّفين، الأمر الذي قد يمكِّنهم من اكتساب أهمية حاسمة، فيكون لهم تأثير وخيم على المستوى الأخلاقيّ العام، وعلى طابع عمل الهيئة". أمَّا مشروع القانون نفسه فقد نصَّ على ما يلي: يجب ألاَّ تتجاوز نسبة غير المسيحيين من المفوَّضين المحلَّفين 10% في كلِّ دائرة قضائية. لكنَّ حكومة القيصر رفضت مشروع قانون مورافيوف هذا، ومع ذلك يلوم م. كرول المجتمع: "لم تلق هذه الفكرة ما تستحقه من الإدانة في المجتمع الروسيّ"، في أوساط الحقوقيّين البطرسبورغيّين "لم تُسمع سوى أصوات قليلة

احتجّت بشدة ... أمّا العدد الأكبر ممن ناقشوا مشروع القانون فكانوا ميّالين بوضوح إلى قبول هذا الإجراء". ويتيح لنا هذا الموقف أن نرسم تصوُّراً عن مزاج مثقّفي العاصمة في أواسط تسعينات القرن التاسع عشر (في دائرة بطرسبورغ القضائيّة كان اليهود يشكّلون عندئذٍ 13%5. من عدد المفوَّضين المحلّفين، أمّا في دائرة موسكو فكانت نسبتهم أقلّ من 5%. وما زاد من حساسيّة قرار منع انتقال اليهود من درجة مساعد مفوَّض محلّف إلى درجة مفوَّض كامل الأهليّة، أنّه أفضى إلى مضايقات حقيقيّة في ميدان ارتقاء الدرجات العلميّة ودرجات التقدم الوظيفيّ. ولم تُتح إمكانية الانتقال ثانية إلاّ في العام 1904م. أمّا في ثمانينيّات القرن، فكان معمولاً بقرار يقضي بتقليص عدد اليهود بين أعضاء هيئة المحلّفين في مقاطعات إقليم الاستيطان اليهوديّ، كيلا يشكلوا فيها أغلبية. ومنذ الثمانينات أُوقف قبول اليهود للعمل في إدارة القضاء نفسها. لكنَّ يا. تيبتل الذي كان قد بدأ عمله هناك قبل ذلك، بعد أن أنهى دراسته في جامعة موسكو، استمرَّ يعمل في إدارة القضاء خمسة وثلاثين عاماً، وأنهى خدمته فيها حائزاً على حقِّ النبالة بدرجة جنرال متقاعد (على الرَّغم من هذا، أرغمه شيغلوفيتوف بعد ذلك على أن "يطلب بنفسه" إحالته إلى التقاعد). في سياق تأدية واجبات وظيفته، كان على شيغلوفيتوف كيهوديٍ أن يطلب غير مرة شهوداً أرثوذكس لتأدية القسم، ولم يلاق أيَّ معارضة من رجال الدين الأرثوذكس. كما يذكر هو نفسه، يا. م. غالبيرن الذي كان بدوره يخدم في إدارة القضاء، وارتقى فيها حتى درجة نائب رئيس إدارة وزارة العدل، ونال رتبة مستشار خاص. كما كان غالبيرن قد عُين خبيراً في لجنة بالين (قبل ذلك كان غ. إ. تراختنبيرغ النائب العام الأول في السينات، وكان مساعده غ. ب. سليوزبيرغ يُهتمُّ بالدفاع عن القضايا اليهوديّة). كما شغل س. يا. أوتين منصب النائب الأول أيضاً، لكنَّه قبل سرَّ المعمودية، لذلك لم يؤخذ بالحسبان. وما يجدر قوله في هذا السياق: إنَّ معيار الانتماء الدينيّ لم يكن في أيِّ وقت معياراً شكليّاً بالنسبة إلى الحكومة

القيصريّة، بل حيثيّة حقيقيّة. فوفقه إثنياً لاحقوا طول مئتي عام، الروس من أتباع الطقوس القديمة[1]، وعلى تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين لاحقوا إثنياً أيضاً الدوخوبوريين[2] والمولوكان[3].

لقد شكّل اليهود الذين اعتنقوا المسيحيّة سجلاً طويلاً بين العاملين في الوظائف الحكوميّة، غير أنّنا لن نعالجه في هذا الكتاب. لكنْ يمكننا أن نرى فيه: الدكتور بلوك، الطبيب الخاص لبافل الأول، وجدّ الشاعر الشهير؛ كما نتذكر في عهد نيقولاي الأول الوزير الكونت كانكرين الذي كان ابن رابين يهودي؛ ونتذكر أيضاً وزير خارجية روسيا لسنوات طويلة، الكونت ك. نيسيلرود، وليودفيغ شتيغليس، الذي نال البارونية في روسيا؛ والطبيب العسكري ماكسيميليان غيينه الذي أنهى خدمته مستشاراً للدولة؛ ثمّ المحافظ بيزيك: والجنرال ألبرت، جنرال الحاشية القيصرية، والعقيد في سلاح الفرسان ميفيس: وموظفيّ السلك الدبلوماسي غيرسوف، اللذين كان أحدهما وزيراً في عهد الإسكندر الثالث. كما نذكر أيضاً سكرتير الدولة بيريس (حفيد المتعهد

(1) مجموعة من الفرق والكنائس الدينية الروسيّة التي لم توافق على الإصلاحات الدينية التي جرت في روسيا في القرن السابع عشر، ثمّ تحول اتباعها إلى معاداة الكنيسة الارثوذكسية الرسمية. بقيت الحكومة القيصرية تلاحقهم وتضطهدهم حتى العام 1906م. ـ ح. إ.

(2) إحدى الطوائف الروحية المسيحية؛ ظهرت في روسيا في النصف الثاني من القرن 18م. ترفض طقوس الكنيسة الأرثوذكسية واسرارها وكهنتها ورهبانيتها. يؤله أتباع هذه الطائفة رؤساء طائفتهم. لاحقتهم الحكومة القيصرية واضطهدتهم لعصيانهم وامتناعهم عن تأدية الخدمة العسكرية. في أواخر القرن 19م هاجر أتباع هذه الطائفة جماعة إلى كندا. ـ ح. إ.

(3) إحدى الطوائف الروحية المسيحية. ظهرت في روسيا في النصف الثاني من القرن 18م. يرفض أتباعها الكهنة والكنيسة ويؤدون صلواتهم في منازلهم. يقودهم أحبار منتخبون من كبار السن. ـ ح. إ.

المعروف أبراهام بيريس)، والجنرالين كاوفمان - توكستانسكي، وخورليوف؛ والشتاليستير سالومون ناظر ليسيه الإسكندر، والسيناتورين غريدينغير وبوزين؛ وفي إدارة الشرطة: غوروفيتش، وفيساريونوف، وغيرهما كثيرين. فهل كان بعضهم يرى في التحوُّل إلى المسيحية، خاصة إلى اللوثرية، أمراً "بسيطاً"؟ يفتح أبواب الحياة على مصاريعها فوراً. يقول سليوزبيرغ في هذا: إنَّها موجة "ارتداد اجتاحت الشباب اليهودي، وتكاد تكون ذات طابع جماهيري". وليس عبثاً أن رأى فيها الجانب اليهوديّ طعنة غادرة، "مكافأة الارتداد عن الدين .... عندما تفكِّر كم من اليهود قاوم إغواء اعتناق المسيحيّة، فإنَّك عن غير قصد منك تنحني احتراماً لهذا الشعب البائس".

في القرون الغابرة لم يكن تقسيم الناس وفق انتمائهم الديني إلى "ناسنا" و"غير ناسنا" سوى سذاجة خالصة. على هذا النحو ورثته تدابير الحكومة الروسيّة. بيد أنَّ سلطة الدولة الروسيّة كان يمكنها أن تبدأ التفكير عشية القرن العشرين بالمسلمات الأخلاقيّة، بل بالمغزى العملي أيضاً: هل من المعقول أن تشترط على اليهود التخلي عن عقيدتهم مقابل حصولهم على لقمة العيش؟ وما الذي كان يمكن أن تكسبه المسيحيّة من ذلك؟ ... فكثير من هؤلاء المسيحيّين الجدد كان يمكن أن يكونوا مجرَّد منافقين (بل كان هناك أيضاً من يبرر سلوكه هذه الطريق على النحو الآتي: عندئذٍ "سأكون في وضع يمكنني أن أكون فيه أكثر نفعاً لأبناء جلدتي").

لقد كانت طريق أولئك اليهود الذين نالوا حقَّ العمل في مؤسسات الدولة، "مفتوحة من غير عائق للارتقاء إلى مرتبة النبالة الوراثية"، ونيل الأوسمة من أيٍّ درجة كانت. "كان اليهود يرتقون في سجلات الأنساب من غير موانع عادة". وكما يتضح من إحصاء العام 1897م، كان بين النبلاء الوراثيين 196 شخصاً عدُّوا اللغة اليهوديّة لغتهم الأُم. بل كان بين أصحاب المعامل من آل برودسكي رؤساء نبلاء في مقاطعة يكاتيرينوسلاف.

لكنْ منذ سبعينات القرن التاسع عشر بات اليهود يواجهون عقبات في التعيين لدى مؤسسات الدولة (مع حلول العام 1896م، بات الأمر أكثر صعوبة)؛ ويجدر القول: إنهم هم أنفسهم عزفوا عن العمل المملّ الشحيح في تلك المؤسسات.

في العام 1890م صدر نظام جديد للانتخابات البلدية أقصى اليهود عن المشاركة في هيئات الإدارة الذاتية للمجالس المحليّة على نطاق المقاطعات والأقضية: "لم يُسمح لليهود بالمشاركة في اللقاءات والمؤتمرات الانتخابية العامة" (أمّا في المقاطعات الغربية، فلم يكن للمجالس المحلية وجود بعد). وقد علّلت السلطات هذا الإجراء كما يلي: إنّ شرط التواصل الاجتماعي الفعلي مع الواقع المحليّ على الأرض، "لا يتوافر في اليهود، لأنهم يعملون عادة على تحقيق مصالحهم الخاصّة حصراً". وفي الوقت نفسه، لم يُمنع اليهود من العمل المأجور في المجالس المحلّة كموظفين وصفوهم "بالعنصر الثالث" (الذي حمل شحنة الراديكالية إلى المجلس المحلي لسنوات آتية)، بل عملت هنا أعداد كبيرة منهم. لكنّ قيود المجالس المحليّة هذه لم تطل يهود المقاطعات الداخليّة بدرجة ملحوظة، لأنّ أكثرهم هناك كان يعيش في المدن، واهتمامه يتركّز على إدارة المدينة لا على إدارة المجالس المحليّة خارج نطاق المدن. غير أنّ نظاماً جديداً خاصاً بالمدن صدر في العام 1892م، حُرم اليهود بموجبه نهائياً من حقّ الانتخاب والترشّح إلى مجالس دوما المدن والبلديات، أو شغل أيّ منصب فيها، كما حرّم عليهم الإشراف على أيّ ميدان من ميادين اقتصاد المدينة أو إدارته. وغنيٌّ عن البيان القول: إنّ هذه القيود كانت قيوداً جدية جداً. ولم يُسمح بانتخاب اليهود إلى المجالس إلاّ في مدن إقليم الاستيطان اليهودي، بل حتى هنا لم يكن من الجائز أن يتعدّى عددهم عُشر عدد أعضاء الدوما، وحتى في هذه الحال كانت الإدارة المحلية هي التي "ترشحهم"، – حقاً لقد كان ذلك نظاماً مهيناً (خاصة لأرباب العائلات البرجوازية. وقد علّق سليوزبيرغ على هذا قائلاً: كم أحسوا بالمهانة أمام شبابهم – فهل يمكن أن تبقى موالياً لمثل هذه الحكومة؟) "لا يمكنك أن تجد

زمناً أكثر صعوبة من هذا الزمن في تاريخ يهود روسيا. لقد أُزيح اليهود من المواقع التي كانوا قد انتزعوها كلّها" (لكنّنا نقرأ لدى المؤلّف نفسه في مكان آخر: إنّ اليهود رشوا موظفين في وزارة الداخليّة ليعملوا لصالحهم، -وقد خفف هذا كثيراً من وطأة واقع ذلك العصر).

لا ريب في أنّ اليهوديّة في روسيا (3% من عدد سكان البلاد) كانت محرومة من الحقوق المدنية. غير أنّ العضو البارز في حزب الكاديت[1] ف. أ. ماكلاكوف، يذكّرنا من مهجره بعد انتصار الثورة، بأنّ "عدم المساواة في الحقوق الذي كان يعاني منه اليهود فقد حدته بشكل طبيعي في دولة كان الفلاحون الذين يشكلون النسبة الأعظم [82%] من عدد سكانها، ومصدر رخائها المادي، والشريحة الصامتة، الرمادية، المستكينة الخانعة، خارج نطاق المساواة العامة في الحقوق" -وقد بقيت حالهم على ما كانت عليه حتى بعد إلغاء نظام القنانة، فلم يكن لهم مهرب من الإتاوة العسكرية، كما كانت سبل التعليم في المدارس والجامعات مغلقة في وجه أبنائهم، ولم ينالوا حق المشاركة في مؤسسات الإدارة الذاتيّة حتى انتصار الثورة. لكنّ اليهوديّ المهاجر بعد الثورة د. او. لينسكي، يسجّل بمرارة، الخلاصة التالية: "إنّ عدم المساواة الذي كان يعاني منه السكان اليهود في روسيا قبل الثورة، يُعدُّ غاية لا تُدرك بالنسبة لمساواة سكان روسيا كلّهم في الحرمان من الحقوق في العهد السوفييتي الذي حلَّ الآن". ثمّ يقول: لقد رسَخت ملاحقة اليهود في روسيا واضطهادهم؛ بل إنّ هذه الكلمة لا تعبّر عن واقع الأشياء فعلاً. فلم يكن الأمر مجرّد ملاحقة، إنّما سلسلة من الملاحقات، والقيود الموجعة والجائرة.

---

(1) الحزب الديمقراطي الدستوري، هو حزب البرجوازية الليبرالية الملكية الرئيس في روسيا بين العامين 1905 -1917م. -ح. إ.

أمّا حدود إقليم الاستيطان اليهوديّ، فقد أضحت مخترقة عقداً بعد عقد. بحسب إحصاء العام 1897م كان يقيم خارجها 315 ألف يهودي، أي بزيادة قدرها تسعة أضعاف خلال ستة عشر عاماً (9% من العدد الكليّ للسكان اليهود في روسيا، ما عدا يهود المملكة البولونية. وإذا عقدنا مقارنة: في فرنسا كان عدد اليهود في العام 1900م 115 ألفاً، وفي بريطانيا 200 ألف). كما ينبغي أن نأخذ بعين الحسبان أنَّ الإحصاء أعطى أرقاماً أقلَّ من الواقع؛ لأنَّ كثيراً من الحرفيين ومعاونيهم اليهود كانوا يقيمون في كثير من مدن روسيا بشكل غير شرعي، ويتهرَّبون من التعداد السكّاني.

لكنَّ الصفوة الماليّة والصفوة الثقافيّة من يهود إقليم الاستيطان لم تتعرَّض لمضايقات، بل كانت تنزح من هناك وتستوطن المقاطعات الداخليّة والعواصم من غير عائق. يشيرون إلى أنَّ 14% من السكّان اليهود كانوا من أصحاب المهن الحرة، وقد تكون فئاتهم هذه أكثر انتشاراً حتى من فئات المثقفين. في الأحوال كلّها كان اليهود قد شغلوا في روسيا قبل الثورة "مكانهم اللائق في المهن الثقافيّة. ولم يكن إقليم الاستيطان السيء الصيت نفسه، يعوق شرائح كبيرة منهم عن التسرُّب أكثر فأكثر إلى أعماق روسيا"

لقد كان أكثر المهنيين اليهود من الخياطين، وأطباء الأسنان، والممرِضين، والصيادلة وسوى ذلك من المهن التي كانت الحاجة إليها في كلٍّ مكان، لذلك كانوا يرحبون بهم في أيِّ مكان يتقدمون للعمل فيه. "في العام 1905م، كان عدد اليهود في روسيا 300.0001 نسمة يعملون في ميادين الحرفة"، أي كان بإمكانهم العيش خارج إقليم الاستيطان اليهودي. وثمة أمر آخر أيضاً، هو أنَّ "القوانين لم تكن تنصُّ في أيِّ مكان على أنّه لا يجوز للحرفيّ أن يعمل في حرفته، وفي التجارة معاً. بل إنَّ مفهوم العمل التجاري نفسه، لم يكن له تعريف في القانون"، مثلاً: هل السمسرة عمل تجاري؟ على هذا النحو كان على من يعمل في التجارة (حتى الكبيرة منها)، وشراء الأملاك الثابتة، وبناء المصانع، أن يسمي

نفسه "حرفياً (أو طبيب أسنان). "فالحرفي" نيمارك مثلاً كان يملك معملاً يعمل فيه ستون عاملاً؛ كما كان "عمال المطابع" اليهود يديرون مطابعهم التي كانوا يملكونها ملكيّة خاصة. كما كانت هناك طرائق أخرى للتحايل على الدولة: كان عدد من اليهود يتفقون على أن يؤدي أحدهم الضريبة المفروضة على الشريحة الأولى، بينما يدّعي الآخرون أنّهم "يعملون عنده"، كما كان الجنود اليهود المتقاعدون في المقاطعات الداخلية يدّعون تبني أحدهم (كي تصرف الدولة للأب المتبني راتباً تقاعدياً). وفي ريغا "كانت آلاف العائلات اليهوديّة تعيش من العمل في تصدير الأخشاب، مدّعية التخصّص في هذا الميدان" إلى أن أخذت السلطات ترحّلهم كلهم تقريباً بعد أن اكتشفت زيف ادّعاءاتهم المهنيّة. عند أوائل القرن العشرين كانت المستعمرات اليهوديّة قد انتشرت في المدن الروسيّة المهمّة كلّها.

يشهد يا. تيبتل على "أنَّ بناء الخط الحديدي سامارا -أرينبورغ، أغرى حشوداً لا نهاية لها من اليهود كي تتقاطر على سامارا، لأنَّ اليهوديَيْن فارشافسكي وغورفيتس هما اللذان تعهدا بناء الخط المذكور، وبقي ملكاً لهما طول سنوات كثيرة. وقد شغل اليهود أهمَّ المواقع في إدارة هذا الخط، وكثيراً من الوظائف الثانوية فيها. وتوافد إليهم من إقليم الاستيطان اليهودي أقاربهم، وأصدقاؤهم فتشكلت هنا مستعمرة يهودية غير صغيرة ... وأخذ اليهود على عاتقهم تصدير قمح مقاطعة سامارا إلى الخارج. وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أنَّ يهود سامارا كانوا أول من باشر تصدير البيض من روسيا إلى أوروبا الغربية. كان يقوم بهذه الأعمال كلها حرفيون مزيَّفون". ثمَّ يورد تيبتل أسماء ثلاثة محافظين توالوا على حكم مقاطعة سامارا، واسم قائد واحد للشرطة (كان قد طُرد في العام 1863م "من جامعة بطرسبورغ لمشاركته في أعمال الشغب الطلابية التي وقعت فيها حينئذ)، -"وقد تعامل هؤلاء المسؤولون بكثير من التسامح مع أولئك الحرفيين المزيَّفين". هكذا مع حلول العام 1889م"،

بلغ عدد العائلات اليهوديّة التي كانت تقيم في سامارا بشكل غير قانوني، أكثر من 300 عائلة "، وهذا يعني أنّ أكثر من ألفي يهودي كانوا عندئذ في تلك المدينة خارج معطيات الإحصاء.

من الطرف الآخر من روسيا، من فيازم ينقلون إلينا مايلي: "صيادلة المدينة الثلاثة، وأطباء الأسنان الستة العاملون فيها، ومثلهم من أطباء الصحة، وكتبة العقود، وكثير من أصحاب الدكاكين، والحلاقون كلهم تقريباً، والخياطون، والحذاؤون، هؤلاء كلهم من اليهود". لكنّ كثيرين منهم لم يعملوا في طب الأسنان، ولا في الخياطة، بل كانوا يتاجرون بشيء ما، ولم يتعرضوا من جرّاء ذلك إلى أيّ مضايقات. لقد كان يعيش في فيازم بسكانها 35 ألفاً، أكثر من ألفي يهودي. وفي منطقة فيلق الدون التي فُرضت فيها ابتداء من العام 1880م قيود صارمة على اليهود، ولم يكن لهم حقُ الإقامة في مدنها الرئيسة، مع ذلك كان يعيش هناك 25 ألف يهودي: كانوا يملكون فنادق ومطاعم رخيصة، وصالونات حلاقة متواضعة، وورشاً حرفية، ومحلاَت ساعاتية، وورش خياطة. كما كانوا يسيطرون على تجارة الجملة هناك سيطرة تامة.

طابع تشريعات التعامل مع الواقع اليهوديّ

لقد كانت القيود التي تُفرض على اليهود، ومختلف مستوياتها، وتعديلاتها، واستثناءاتها تتراكم عاماً بعد عام. فانتشرت القرارات ذات الصلة بالتعامل مع اليهود في كلّ مجلدات القوانين التي صدرت في شتى العهود، ولم يكن بعضها يتوافق مع بعض، ولا مع القوانين العامّة السارية في الإمبراطورية، وهذا ما كان يشير إليه المحافظون حكّام المقاطعات في تقاريرهم المرفوعة إلى القيصر. ونحن إذا تعمقنا في الاستثناءات على كثرتها وتعقيداتها، وتفقّهنا في استثناءات الاستثناءات التي كانت تفيض بها التشريعات المكرَّسة لقضايا اليهود، فسوف يتّضح أنَّ هذا كلّه كان يسبب معاناة مضنية لكثير من اليهود العاديين، ويلقي عبئاً ثقيلاً على كاهل إدارة الدولة. ولم يكن لمثل تلك المصاعب إلاّ أن تولد تعسُّف الشكليّات البيروقراطيّة ووحشيّتها، مثلاً: إذا فقد ربُّ عائلة يهوديّة تقيم في مقاطعة داخليّة، حقَّه بالإقامة هناك (توفي أو غيَّر مهنته)، فإنَّ العائلة كلها تفقد ذلك الحقّ: لقد كانت عائلات الأرباب المتوفين تُرحَّل (ما عدا كبار السن من الشيوخ والعجائز الذين تجاوزا السبعين وليس لديهم عائلات).

لكنَّ تلك المصاعب لم تكن ضدّ اليهود دائماً، بل كانت معهم في أحيان كثيرة. فالمؤلفون اليهود يكتبون: إنَّ "شكوكاً لا حصر لها [في إمكانية تطبيق] القوانين التي تنتقص من حقوق اليهود كانت تُحال إلى مدقّقين ومنقّحين للنظر فيها"، الأمر الذين كان يفضي إلى الرشاوى والالتفاف على القوانين، أي الالتفاف عليها بما يخدم مصالح اليهود. كما كانت تظهر طرق علنيّة ناجمة. "لقد كان تضارب القوانين والتعليمات الكثيرة المتعلقة باليهود، يفتح أمام

السينات أُفقاً رحباً لتأويل القانون على هذا النحو أو ذاك ... في التسعينيّات أُلغى السينات العدد الأكبر من القرارات التي اشتكى اليهود منها". يفيدنا غ. سليوزبيرغ بأنَّ كبار الوجهاء كانوا يتعاطفون في أحيان كثيرة مع تجاوز القيود التي كانت تُفرض على اليهود: "عملياً كان مدير قسم الشرطة بيوتر نيقولايفيتش دورنوفو هو الآمر الناهي الذي يبتُّ في شؤون اليهود ... كان هذا يجد المسوِغات دائماً، ويحتِّم عليَّ ضميري أن أقول: إنَّه إذا كان تطبيق هذا القيد أو ذاك يناقض الموقف الإنساني، فقد كان يمكننا دائماً أن ننتظر من دورنوفو الاهتمام والعطف المأمول".

"لكنَّ القوانين الجديدة لم تكن هي الأكثر حساسيّة بالنسبة إلى جماهير الشعب اليهودي، إنَّما التعليمات الإدارية التي كانت تميل نحو التعسُف في تطبيق القوانين القديمة التي فرضت على اليهود قيوداً". فتسرُّب اليهود الهادئ العنيد نحو المقاطعات الداخليّة، كانت توقفه الإدارة في بعض الأحيان، وكان لبعض مثل هذه المشاهد دويٌّ تاريخي، كما حدث في موسكو على سبيل المثال بعد إقالة حاكمها العام القوي النافذ ف. أ. دولغوروكوف، الذي كان من مشجعي هجرة اليهود إلى موسكو، ليمارسوا نشاطهم الاقتصاديّ فيها (يُروى أنَّ المصرفي الموسكوفي لازار سولومونوفيتش بولياكوف، كان مفتاح هذه القضية: "كانت تربط الأمير دولغوروكوف صداقة متينة مع هذا الأخير الذي يقول المغرضون: إنَّه فتح له في مصرفه الزراعي حساباً جارياً مفتوحاً. ولا ريب في أنَّ الأمير كان بحاجة إلى المال، بعد أن أعطى كل ما يملك إلى صهره، لكنَّه في الوقت نفسه كان يحب أن يعيش بسعة وبحبوحة، كما كان سخياً في تبرعاته الخيريّة. لقد كانت التشريفات تنهال على ل. بولياكوف عاماً بعد عام". فأحسَّ اليهود أنَّهم يقفون في موسكو على أرض صلبة: "كان يمكن لأيِّ يهوديّ أن ينال حقّ الإقامة في موسكو، حتى لو لم يلتحق بالعمل لدى ابن جلدته التاجر الذي ينتمي إلى الشريحة التجاريّة الأولى".

ينقل غ. سليوزبيرغ أنّ "الأمير دولغوروكوف اتُهم بأنّه يبالغ في الإذعان لتأثير بولياكوف". ثمَّ يتابع قائلاً: كان بولياكوف يملك مصرف موسكو الزراعي، لذلك لم يكن بمقدور أيّ مصرف رهني آخر (يرهن الأراضي ضمان قروض يقدمها لمالكيها)، أن يعمل في موسكو أو المقاطعات المجاورة. وفي الوقت نفسه، "لم يكن هناك وجيهاً واحداً ممن يملكون الأراضي إلاّ ورهن أملاكه" (على هذا النحو كانت طبقة النبلاء الروسيّة قد سقطت تماماً عند أواخر القرن التاسع عشر، فما الذي كان يمكنها أن تقدمه إلى روسيا بعد ذلك؟ ...)، فباتوا "تابعين بمعنى ما للمصرف"؛ لكي يحصلوا على قروض كبيرة، أضحى نبلاء المقاطعات الوسطى كلّهم بحاجة إلى رضا لازار بولياكوف عنهم.

في عهد دولغوروكوف، في التسعينيّات، "التحق بالشريحة الأولى من فئة تجار موسكو عدد كبير من اليهود. فعلّلوا بهذه الظاهرة عزوف تجار الشريحة الأولى المسيحيّين عن تأدية الرسوم الباهظة المفروضة على أفراد الشريحة المذكورة". وقبل اليهود كانت صناعة موسكو تنتج لشرقي روسيا، لسيبيريا فقط، ولم يكن إنتاجها يصل إلى الشطر الغربي من روسيا. أمّا التجار - الصناعيون اليهود، فقد ربطوا موسكو بأسواق الغرب (يزعم تيبتل أنَّ يهود موسكو عُدوا الأكثر ثراء ونفوذاً في روسيا كلّها). فعمَّ السخط أوساط التجار الألمان بسبب شدّة المنافسة اليهوديّة، واتهموا دولغوروكوف بمحاباة اليهود.

في العام 1891م تغيرت الحال تغيراً جذرياً. فقد أمر حاكم موسكو الجديد، الأمير النافذ القوي سيرغيه ألكساندروفيتش، الذي كان مكتفياً من الناحية المالية، بترحيل كلّ الحرفيين اليهود من موسكو، من غير أن يتحرّى من هو الحرفي الحقيقيّ، ومن هو الحرفي المزيّف. فأخذت زارياديه ومارينا تخلوان من سكانهما بعد أن طُرد من هناك كما يقولون، عشرون ألف يهودي. لم يمهل القرار اليهود سوى ستة أشهر لتسوية شؤون أملاكهم ومغادرة موسكو، أمّا الذين أعلنوا أنّهم لا يملكون نفقات الرحيل، فقد رحّلوهم تحت الحراسة (في أوج

حركة الترحيل وصلت إلى روسيا لجنة تحقيق حكومية أمريكية مؤلفة من العقيد جون فيبير والمدير كيمبيستر. وما يثير الاهتمام أنَّ سليوزبيرغ هو من جاء بهما إلى موسكو، فتابعا ما كان يجري هناك وتحققا من كيفية إجراء التدابير المتخذة لحماية موسكو من "سيل اليهود"، وزارا سراً سجن بوتير، فأطلعوهما هناك على نماذج محدّدة من المخالفات وزوّدوهما بصور للمساجين، وما يثير التساؤل هو أنَّ الشرطة الروسيّة لم تأخذ علماً بما كانا يقومان به! ثمَّ تجولا لأسابيع طويلة أخرى زارا خلالها مدناً أخرى. في العام 1892م نُشر تقرير هذه اللجنة بين مواد كونغرس الولايات المتحدة الاميركية لتشويه سمعة روسيا، وتسهيل هجرة اليهود إلى أمريكا. بسبب تلك المضايقات، امتنعت "الأوساط الماليّة اليهوديّة، وعلى رأسها روتشلد" عن دعم القروض الروسيّة الخارجيّة. وفي العام 1891م جرت في أوروبا أيضاً، محاولات لوقف طرد اليهود من موسكو؛ فقد وصل المصرفي اليهودي الأميركي زيليغمان إلى الفاتيكان ليطلب من بابا روما بذل مساعيه لتهدئة الإسكندر الثالث.

في العام 1891م "استقرَّ في ضواحي موسكو فريق من اليهود الذين رُحِّلوا بطريقة غير قانونية". لكنَّ التدابير تواصلت، وفي خريف العام 1892م، صدر قرار "بترحيل الجنود اليهود المتقاعدين غير المسجلين في الجمعيات، وأفراد عائلاتهم من موسكو" (ننوه إلى أنَّ المؤسسات التجاريّة والصناعيّة الروسيّة الكبرى، بذلت في العام 1893 مساعي للتخفيف من وطأة تدابير ترحيل اليهود). وابتداء من العام 1899م اتخذت إجراءات للحدّ من تسجيل أعضاء جدد من اليهود في سجلات الشريحة الأولى من تجّار موسكو.

في العام 1893م حلَّ عبء آخر جعل حياة اليهود أكثر صعوبة: لأول مرّة تنبَّه السينات إلى المنشور الذي كانت وزارة الداخلية قد عمَّمته في العام 1880م، وأقرَّت بموجبه السماح لليهود الذين انتقلوا للعيش خارج إقليم الاستيطان اليهوديّ، بما يخالف القوانين المعمول بها، أن يبقوا حيث هم ("ميثاق حريّة

اليهود")، فأُلغي ذلك المنشور الآن (ما عدا كورلياندیا وليفيلياندیا إذْ بقي اليهود حيث هم). وقد تبيَّن أنَّ عدد هؤلاء اليهود الذين انتهكوا قانون الإقامة، بلغ في الاثني عشر عاماً الأخيرة، سبعين ألف عائلة تقريباً. لكنَّ مساعي دورنوفو أسفرت عن إصدار "بنود إنقاذ أدت في آخر المطاف إلى تفادي خطر وقوع بلية عظيمة". في العام 1893م رُحِّل "بعض فئات اليهود" من يالتا التي كان مصيف السلالة الملكيّة يقع على مقربة منها، وحرِّم انتقال يهود جدد للإقامة هناك: "لقد تعاظم اندفاع سيل الحشود اليهوديّة إلى هناك في الآونة الأخيرة، وتزايدت أعداد اليهود في مدينة يالتا تبعاً لسعيهم المحموم إلى امتلاك مختلف أنواع العقارات فيها، وهو ما يهدّد بتحويل مكان الاستجمام هذا إلى مدينة يهوديّة خالصة" (قد تكون الخشية من العمليات الإرهابية المتكرّرة التي وقعت في روسيا، واعتبارات ضمان أمن السلالة الملكية في ليفاديا، قد أدت دورها في اتخاذ الإجراءات المذكورة. فقد بات بإمكان الإسكندر الثالث أن يرى الآن، بناء على معطيات وازنة، أنه مكروه من اليهود كلّهم من غير استثناء، - قبل عام واحد فقط من موته -. ونحن لا نستطيع أن ننفي أنَّ دافع الثأر من المضايقات التي تعرَّض لها اليهود، كان عاملاً مهماً في أن يختيار الإرهاب كلاً من سيبياغين، وبليفيه، وسيرغيه ألكساندروفيتش، أهدافاً له). على أيِّ حال بقي كثير من اليهود يقيمون في منطقة يالتا، وهو ما توحي به شكوى الألوشتينيين في العام 1909م من أنَّ اليهود بعد أن امتلكوا كروم العنب والبساتين، "التفتوا يستغلون جهد السكان المحليّين [لحراثتها والعناية بها]"، كما يستغلون حاجتهم الماسة إلى المال، فيقرضونهم إياه خلافاً للقانون، بفوائد عالية جداً، الأمر الذي يؤدي إلى نهب السكان التتر وإفلاسهم.

كما فُرضت أيضاً قيود على إقامة اليهود في المناطق الحدوديّة من غربي روسيا، لكنْ في إطار مكافحة التهريب. والحقيقة أنَّ عمليات تهجير جديدة لم تقع هناك، ما عدا ترحيل المهرِبين الذين كان يُلقى القبض عليهم بالجرم المشهود

(بحسب كثير من المذكرات، أنَّ التهريب الذي كان أكثر العاملين فيه من اليهود، لم يكن يقتصر على تهريب البضائع فقط، بل امتدَّ ليطال تهريب الثوريين والمنشورات الثورية، ولم تتراجع حدة نشاطه حتى بداية الحرب العالمية الأولى). في العام 1903 -1904م طُرح السؤال الآتي: لقد أقرَّ السينات أنَّ "القواعد المؤقتة" التي صدرت في العام 1882م لا تنسحب فاعليتها على الشريط الحدوديّ، لذلك كان "يمكن لليهود المقيمين في هذا الشريط أن يستقرُّوا في أريافه من غير عائق. عندئذٍ قدَّمت إدارة مقاطعة بيسَاربيا تقريراً للسينات جاء فيه: إنَ سكان الشريط الحدودي اليهود كلّهم على وجه العموم"، بمن فيهم الذين يقيمون هناك بشكل غير قانوني، يتهافتون الآن على القرى، "وفي هذه من اليهود ما يكفي ويزيد أصلاً"، وحذَّروا من أنَّ هذا الشريط سيغدو بالنسبة إلى اليهود ابتداء من اليوم "أرض الميعاد". لقد أُرسل الاحتجاج عبر مجلس الدولة، وبينما كان المجلس ينظر في جزئية المناطق الريفية، أبطل النظام الخاصّ بالشريط الحدودي برمَّته، وألغى كلّ ما كان يميِّزه عن إقليم الاستيطان اليهوديّ.

لكنَّ هذا لم ينعكس على النحو المطلوب لا في وسائل الإعلام، ولا في المجتمع، مثله كمثل رفع الحظر في العام 1887م عن استخدام اليهود لخدم مسيحيين في منازلهم، ومثله كمثل قانون العام 1891م الذي أدرج مادّة جديدة في القانون الجنائي عن "مسؤولية مهاجمة فريق من السكان فريقا آخر"، وهي المادّة التي لم تقتض شروط الحياة الروسيّة وجودها من قبل البتة، بينما أظهرت برامج العام 1881م أنَّ ثمّة حاجة إليها. وها هي تُفعّل الآن، لكنْ بمنتهى الحذر.

ومن الجدير أن نذكّر في هذا السياق، بأنَّ القيود القانونية التي فُرضت على اليهود في روسيا، لم يكن لها في أيٍّ يوم من الأيام طابع عرقيٌّ. فهي لم تُستخدم ضدَّ اليهود الكارايميّين، ولا ضدَّ اليهود الغورسكيّين، ولا ضدَّ يهود آسيا الوسطى الذين استقرُّوا بأريحيّة بين السكان المحليين واختاروا المهن التي أرادوها هم أنفسهم. ويؤكد المؤلفون على اختلاف مشاربهم، أنَّ أسباباً اقتصاديّة

كانت وراء القيود التي فُرضت على اليهود في روسيا. فالإنكليزي ج. باركس الذي أدان تلك القيود بحزم، يستدرك قائلاً: "قبل الحرب [الحرب العالمية الأولى] حشد بعض اليهود ثروات كبيرة بين أيديهم ... [وهذا] أثار الخشية من أن يؤدي رفع القيود عن اليهود إلى سيطرتهم على البلاد". وعلى هذا المنوال نفسه قال البروفسور الليبرالي ف. ليونتوفتيش: "حتى الآن لم يول الاهتمام الواجب لحقيقة أنَّ التدابير التي اتخذت للحد من حركة اليهود، كانت نابعة في أساسها من منطلقات مناهضة للنزعة الرأسمالية ... ولم يكن لها أيُّ صلة البتة بسياسة التفرقة العنصريّة. ففي تلك الآونة لم يكن مفهوم عرق على وجه العموم يثير اهتمام أحد في روسيا، ما عدا المتخصصين في علم الإيثنولوجيا ... لقد تركز العامل الحاسم في هذا كله على الخوف من تعاظم تأثير العناصر الرأسماليّة التي كان يمكن أن تستغلّ الفلاحين والشعب العامل على وجه العموم. ونحن يمكننا أن نجد في المصادر قرائن كثيرة تؤكّد صحّة استنتاجنا هذا".

الخمّارون اليهود واستغلال الفلاح الروسيّ

لن نغفل الإشارة إلى الانعطاف المفاجئ الذي أربك الفلاحين الروس، إذْ نقلهم من نظام القنانة إلى نظام العلاقات السلعيّة النقديّة، إلى نظام السوق الذي لم يكن الفلاحون مؤهّلين للتعامل معه بأيٍّ مستوى كان، لذلك سرعان ما وقعوا فريسة عاصفة الروبل التي لم يكن لها مثيل من قبل، بل كانت في بعض الأحيان أكثر قساوة من نير القنانة. وقد كتب ف. شيلغين عن هذا الواقع ما يلي: "كان تقليص حقوق اليهود في روسيا ينطوي على مغزى إنسانيّ" ... فقد أقرُّوا بأنَّ الشعب الروسي بمجموعه (أو بعض فئاته الاجتماعيّة)، كان إذا صحَّ القول، أشبه بفتاة لم تبلغ سنَّ الرشد بعد، ومن السهل استغلالها ... لذلك كان ينبغي مدُّ يد العون له، وحمايته بتدابير حكوميّة؛ حمايته من تطاول العناصر الأخرى الأقوى منه ... فنظرت روسيا الشمالية إلى اليهود بعين روسيا الجنوبية. أمّا نظرة مالوروسيا تاريخياً إلى اليهودي الذي كانت قد عرفته معرفة جيدة خلال سنيِّ التعايش مع بولونيا، فكانت على النحو الآتي: كان الخوخليون[1] يتخيَّلون اليهود في صورة "خمّارين - متعهِدين يمتصون دماء الشعب الروسي"، وأنَّ الحكومة اعتمدت التدابير التقييديّة ضدّ الضغط الاقتصادي اليهودي الذي كان يهدّد الأساس القومي للدولة. وقد رأى باركس أنَّ في هذه الرؤية قدراً من الحقيقة، فأشار إلى "أنَّ استغلال ذوي القربى أمر قبيح"، وأنَّ "دور المتعهد والخمّار الريفي، شاع في أوروبا الشرقية شيوعاً واسعاً"، لكنَّه يرى أنَّ أسباب

(1) خوخول – كلمة روسية معناها ذؤابة. خوخليون –تسمية كانت تطلق على الاوكرانيين.

ذلك "لا تكمن في طبيعة اليهود بقدر ما تكمن في طبيعة الفلاح". كما يرى أن الاتجار بالفودكا الذي أضحى "العمل الرئيس الذي يمارسه اليهود" في أوروبا الشرقية، هو الذي أثار بغض الفلاحين لليهود؛ فهذه التجارة هي التي أشعلت أعمال العنف ضدّ اليهود غير مرة، وتركت ندبة عميقة في وعي سكان أوكرانيا، وبيلوروسيا، وفي ذاكرة السكان اليهود هناك.

ويزعم كثير من المؤلفين أنَّ الخمارين اليهود أضحوا فقراء جداً، وأنَّهم كانوا يعيشون كالمتسولين على قروش قليلة. لكن لا يجوز لنا أن نظنَّ بأنَّ هذه السوق كانت ضعيفة إلى هذه الدرجة. فإقطاعيو غربي روسيا، ومعامل تقطير الكحول، والخمَّارون والحكومة، هؤلاء كلّهم كانوا يتغذّون على ضعف الشعب السكير أمام الكحول. ثمّة إمكانية لتقدير حجم واردات هذه السوق منذ اللحظة التي دخلت فيها بنداً مستقلاً في ميزانية الدولة. فبعد أن أقرَّت الدولة في العام 1896م، أن تحتكر سوق الخمور في روسيا، وأقصت عنها خمّاري القطاع الخاصّ وباعة المفرّق كلّهم، بلغت ورادات بيع الخمور في العام التالي 285 مليون روبل، بينما لم يكن حجم الضرائب المباشرة يتجاوز 98 مليون روبل. يتضح من هذا أنَّ تقطير الخمور لم يشكّل "أهمَّ مصدر من مصادر الضرائب غير المباشرة فحسب، إنَّما يتّضح كذلك، أنَّ واردات تصنيع الخمور التي لم تكن تدرُّ قبل العام 1896م، إلاَّ "أربعة كوبيكات رسم إنتاج كلِّ درجة كحول مقطَرة"، تجاوزت كثيراً حجم الواردات المباشرة لخزينة الدولة.

لكنْ ما هو حجم مساهمة اليهود في هذا الميدان من ميادين الصناعة في تلك الآونة؟! في العام 1886م صدرت في سياق عمل لجنة بالين معطيات الدراسات الإحصائيّة في هذا الميدان. ونعرف منها أنَّ 27% من معامل التقطير في القسم الأوروبي من روسيا كان بين أيدي اليهود، أمَّا في إقليم الاستيطان اليهوديّ، فقد بلغت هذه النسبة 53% (بما فيها 83% في مقاطعة بادولسك، و76% في مقاطعة غرودينسك، و72% في مقاطعة كرسونيس). وفي ميدان تصنيع البيرة كان بين

أيدي اليهود 41% من معامل تصنيعها في القسم الأوروبي من روسيا، و71% من معامل تصنيعها في إقليم الاستيطان اليهودي (94% في مقاطعة مينسك، و91% في مقاطعة فيلنوس، و85% في مقاطعة غرودينسك). أمّا حصّة اليهود من تجارة الخمور، أي في "نقاط تصنيعها وتسويقها"، فقد بلغت 29% في روسيا الأوروبية، و61% في إقليم الاستيطان اليهودي (95% في مقاطعة غرودينسك، و93% في موغيلوفسك، و90% في مقاطعة مينسك).

إذن لا غرابة في أن يُصاب يهود إقليم الاستيطان بهلع حقيقيّ من جرّاء الإصلاح الذي أجرته الحكومة واحتكرت بموجبه تصنيع الخمور وتسويقها. الحقيقة أن احتكار الدولة لتصنيع الخمور وتسويقها، شكّل ضربة قصمت ظهر الاقتصاد اليهوديّ في روسيا. حتى بدء الحرب العالمية الأولى، حينما توقّف هذا الاحتكار تماماً، بقي احتكار ميدان الخمور الهدف المفضّل لسخط المجتمع، على الرّغم من أنّ عمل الدولة اقتصر في هذا الميدان عندئذٍ على فرض رقابة شديدة على حجم الكحول المنتج وتقطيره. ومع أنّ احتكار الدولة كان ينتزع رسوماً من الخمّارين المسيحيّين أيضاً، إلاّ أنّه عُدّ مع ذلك إجراءً موجّهاً ضدّ اليهود: "إنّ الاحتكار الذي فرضته الخزينة العامة في أواخر التسعينات على تجارة الخمور في إقليم الاستيطان اليهودي، حرم أكثر من 000100. يهودي من مورد رزقهم"، "كان هدف السلطات من وراء ذلك، هو تهجير اليهود من الأرياف"، ومنذ ذلك الحين "لم تعد لتجارة الخمور الأهميّة التي كانت لها في حياة اليهود سابقاً". فعند أواخر القرن التاسع عشر تحديداً، تزايدت أعداد اليهود الذين هاجروا من روسيا. لكنّنا لا نستطيع أن نحدّد العلاقة الإحصائيّة بين تلك الهجرة والعمل بقرار احتكار الدولة تجارة الخمور، غير أنّ هؤلاء المئة ألف الذي فقدوا مورد رزقهم، يمكن أن يكونوا مؤشراً على ذلك. في الأحوال كلّها، لم ترتفع نسبة الهجرة اليهوديّة (إلى أمريكا) ارتفاعاً ملحوظاً حتى العام 1886 -1887م، ثمّ عرفت في العام 1891 -1892م قفزة قصيرة الأمد، أمّا موجة الهجرة الجماعيّة الطويلة الأمد، فلم تبدأ إلاّ في 1897م.

لكنَّ "القواعد المؤقّتة" التي صدرت في العام 1882م، لم توقف توغّل الموجة الجديدة من تجارة الخمور اليهوديّة إلى القرية: في السبعينات نشأت "التجارة البديلة" كردٍ على منع الاتجار في غير حانوتك الذي تملكه، وللالتفاف على مفاعيل قانون الثالث من أيار للعام 1882م (الذي منع الاتجار بالفودكا بموجب عقود مع اليهود)، نشأ أيضاً "الاستئجار البديل": كانت أراضي بناء الحانات تُستأجر بعقود شفهية، وعلى النحو عينه كان المالك يتلقَى الإيجار، بينما كانت أرباح بيع الخمور تذهب إلى جيب اليهودي. عبر هذه وسواها من الصيغ الخفيّة الأخرى، تواصل انتقال اليهود للإقامة في القرى حتى بعد قرار المنع القطعي الذي صدر في العام 1882م. يكتب سليوزبيرغ عن ذلك فيقول: ابتداء من العام 1889م بدأت "صفحة ترحيل" اليهود من قرى إقليم الاستيطان اليهوديّ، عندئذٍ "اشتعلت المنافسة الشرسة التي لا رحمة فيها، فأنجبت شرّاً مستطيراً تمثّل في الوشاية"، أي بات اليهوديّ يشي باليهوديّ الذي لم تكن إقامته قانونيّة. وبحسب معطيات ب. ن. ميليوكوف: في العام 1881م كان 580 ألف يهودي يقيمون في القرى، لكنَّ هذا العدد ارتفع في العام 1897م إلى 711 ألفاً، هذا يعني أنَّ أعداد المستوطنين الجدد، وأعداد الولادات، تجاوزت أعداد الذين رُحِّلوا والذين توفوا. في العام 1899م شُكِّلت لجنة جديدة هي لجنة البارون إيكسكول - فون - غيلدينبانت (اللجنة رقم 11) للنظر في المسألة اليهوديّة، كانت مهمتها إعادة النظر في "القواعد المؤقتة". يفيد ميليوكوف بأنَّ اللجنة لم تكتف برفض طرد اليهود الذين لم تكن إقامتهم في القرى قانونيّة، بل خفّفت من مفاعيل قانون العام 1882م.

لقد أوصت هذه اللجنة "بضرورة حماية الفلاحين الخاملين الذين يفتقرون إلى المبادرة وموارد العيش، من الاحتكاك مع اليهود"، بيد أنّها ألحّت على أنَّ "الإقطاعيين لا يحتاجون البتة إلى حماية الحكومة في هذا المجال، وأنَّ تقييد حقوق الإقطاعيّين عن طريق التصرُّف بأملاكهم، يفضي إلى تدنيّ قيمتها

ويـرغمهم ومعهـم اليهـود علـى اللجـوء إلى كـلِّ الحيـل الممكنـة للالتفـاف علـى القانون"؛ لكنْ إذا أُلغيت القيود والموانـع المفروضـة علـى اليهـود، فسـوف يتمكّن الإقطاعيّون من الحصول من ممتلكاتهم على موارد أكبر. بيد أنَّ الإقطاعيين لم تكن لهم عندئذٍ تلك السطوة التي تجعل الإدارة تقتنع بهذه الحجّة المبتكرة.

لكنَّ النقلة النوعيّة في إعادة النظر بقواعد العام 1882م، وقعت في العامين 1903 -1904م. فقد تواردت تقارير من أرض الواقع (بما فيها مـن الحاكم العام سـفياتوبولك - ميرسـكي الليبرالـي الـذي سـرعان مـا سـيتقلّد منصـب وزيـر الداخليّة)، كانت تؤكد كلّها على أنَّ "القواعد المؤقتة" خيَّبت الآمال، وأنّه لا بدَّ من السماح لليهود بالنزوح من زحمة المدن والضواحي، وأنَّ احتكار الدولة لبيـع المشـروبات الكحوليّـة أزال خطـر اسـتغلال اليهـود لسـكان الأريـاف عبر الاتجار بها. فوافق الوزير د. س. سيبياغين على هذه المقترحات (سـرعان مـا راح ضحية عمل إرهـابي)، وفي العـام 1903م أقرّهـا الـوزير ف. ك. بليفيـه (سـرعان مـا قُتل أيضاً): للتخفيف من محظورات "القواعد المؤقتة" أُعدَّت وأُقرَّت لائحة بمئة مركز سكانيّ كبير، ثم أُضيفت إليها فيما بعد لائحة أخرى بسبعة وخمسين مركزاً آخر أُجيز لليهود أن يقيموا فيها، ويمتلكوا ملكيات ثابتة، ويستأجروا عقارات (كانت الموسوعة اليهوديّة قبل الثورة قد دوَّنت أسماء المراكز المذكورة، وبينهـا مراكـز لم تكـن صـغيرة أبـداً، نمـت وكـبرت بعـد ذلـك: يوزوفكـا، ولوزوفايـا، وإينـاكييفو، وكريفـوي روغ، وسـينيانيكوفو، وسـلافغورود، وكاخوفكا، وجميرينكـا، وشـيبيتوفكا، وزدولوبونوفـو، ونوفيـه سـينجاري وغيرهـا). لكـنْ لم يكـن لليهـود حـقُّ امـتلاك الأرض خـارج نطـاق قـرى هـذه اللائحـة، أو خـارج نطـاق المسـتعمرات الزراعيـة اليهوديّـة، والمدن وضواحيها. بعد ذلك سرعان ما أُلغيت مفاعيل القواعد المؤقتة بالنسبة لعدد مـن الفئـات اليهوديّة (حملة الشهادات العالية، مساعديّ الصيادلة، الحرفيين، والجنود المتقاعدين)، فنال هؤلاء حقَّ امتلاك مساكن في القرى المعنية، وحق ممارسـة العمـل التجاريّ والمهن الأخرى).

نشاط اليهود في استثمار الأرض في روسيا

ما عدا تجارة المشروبات الكحوليّة، كان الاستئجار على اختلاف أنواعه، بما فيه استئجار الأراضي، وكذلك امتلاكها، من أهمِّ مصادر ثراء اليهود. فقد كان اليهود "يميلون إلى امتلاك المساحات الشاسعة من الأراضي التي يمكنهم أن يديروا عليها مختلف أنواع الاستثمارات الزراعية، أمّا قطع الأرض الصغيرة التي لم يكن استثمارها يحتاج أكثر من جهدٍ شخصيّ، فلم يهتموا بها". وحينما كان يلوح في الأفق أن أرض الفلاح التي هي مصدر عيشه الوحيد، قد تكون لها قيمة تفوق قيمتها الزراعيّة، غالباً ما كان المستثمر اليهودي يُسارع إلى شرائها.

إذن، قبل العام 1881م لم يكن ممنوعاً على اليهود استئجار الأرض وامتلاكها، ومن كان قد اشتراها من قبل لم يفقد حقَّه فيها بعد صدور قرارات الحظر ضدَّ اليهود. ففي مقاطعة كرسونيس على سبيل المثال، وفي ضواحي يليزافيتغراد، كان دافيد برونشتين، والد تروتسكي، يملك قبل الثورة مزرعة كبيرة حافظ على ملكيته لها حتى لحظة انتصار الثورة مباشرة؛ كما كان يمتلك المنجم "ناديجدا" في ضواحي كريفوي روغ (يروي تروتسكي مما بقي في ذاكرته من انطباع عن مزرعة والده والمزارع الأخرى، أنَّ العمال الذين كانوا يأتون من المقاطعات الوسطى سيراً على الأقدام ليبيعوا قوّة عملهم هنا في هذه المزارع، لم يُطعموهم اللحم أبداً، ولا حتى الشحم، بل حتى الزيت النباتي بالحدِّ الأدنى، فكان طعامهم من الخضار والجريش فقط، وكان هذا في موسم الحصاد حينما كان العمل يتواصل من غير توقف من الفجر حتى الغسق، "مرة في الصيف وقع العمال الوافدون كلهم فريسة مرض العمى النهاري" (أردُّ على

هـذا فـأقول: إنَّهـم في مثل هـذه المزرعـة، في كوبـان حيـث كـان يعمـل جـدي شيرياك، كانوا يُقدِّمون اللحم للعمال الوافدين ثلاث مرات في اليوم).

لكنْ في العام 1903م فُرض الحظر الآتي: "بموجب قرار اللجنة الوزاريّة حُرم اليهود من حقِّ امتلاك ملكيات ثابتة في شتى إرجاء الإمبراطورية، خارج نطاق المدن وضواحيها"، أي أنَّ التحريم طال الأقاليم الريفية كلّها. فقلّص هذا إلى حدٍ ما من إمكانيات الصناعة اليهوديّة، لكنَّه بحسب الموسوعة اليهوديّة، لم يمسَّ الزراعة اليهوديّة بأيِّ أذى، "فاستخدم اليهود حقَّهم في امتلاك ملكيات زراعية لا ليُخرجوا من أوساطهم فلاَحين، بل ملاَّكاً ومستثمرين زراعيّين. فهؤلاء اليهود سكان مدن فقط، لذلك يبدو من المشكوك فيها كثيراً أن تخرج من أوساطهم كتلة فلاحية ذات شأن".

في أوائل القـرن العشـرين كانـت اللوحـة علـى النحـو الآتـي: مـن "مليونيْ هكتـار مـن الأراضـي يملكهـا اليهـود اليـوم، أو يسـتأجرونها في مختلف أرجـاء الإمبراطوريـة الروسـيّة والمملكـة البولونيـة ... لا يوجـد سـوى 113 ألـف هكتـار تشغلها المستعمرات الزراعية اليهوديّة". ومـع أنَّ "القواعـد المؤقتـة" التي صدرت في العـام 1882م، حرَّمت على اليهود شراء الأرض أو استئجارها خارج نطـاق المدن وضـواحيها، إلاّ أنَّهـم وجدوا أسـاليب "بديلـة" غير مباشرة طالت حتى ملكيات معامل السُكّر الشاسعة. وأظهـر مـلاّك الأراضـي اليهـود الـذين كـانوا يملكـون مسـاحات لا يُسـتهان بهـا، أظهـروا أنفسـهم خصـوماً شـديدي المـراس للإصـلاح الزراعيّ الذي أجراه ستوليبين، ومنح الأرض بموجبه ملكيّة خاصّة للفلاّحين (لم يكونوا هـم وحدهم الـذين أذهلتهم الضـراوة الـتي اسـتُقبل بهـا ذلـك الإصـلاح في وسائل الإعلام عندئذٍ، ولا ينسحب هذا على الإعلام اليميني المتطرِّف وحده، بل والليبرالي أيضاً، فما بالك بالإعلام الثوري). وتوضِّح الموسوعة اليهوديّة الأمر على النحو الآتي: "إنَّ الإصلاحات الزراعية الـتي تنطلق مـن قاعـدة منـح الأرض حصـراً للذين يعملون فيها بأنفسهم، كانت ستطال مصالح فريق مـن السـكّان اليهود،

أولئك الذين كانوا يملكون استثمارات زراعية يهوديّة كبيرة". وحلّ زمن الثورة فكتب المؤلف اليهودي السوفييتي، لكن من موقع البروليتاري الساخط يقول: "كان الإقطاعيون اليهود يملكون في عهد السلطة الملكية أكثر من مليوني هكتار من الأراضي (خاصّة أراضي معامل السُكّر في أوكرانيا، ومساحات كبيرة في القرم وبيلوروسيا)، بل كانوا يملكون "أكثر من مليوني هكتار من أخصب الأراضي". فالبارون غينتسبورغ مثلاً كان يملك في منطقة جانكوين 87 ألف هكتار، وصاحب المعامل برودسكي كان يملك عشرات آلاف الهكتارات التابعة لمعامل السُكّر التي كان يملكها، ولم يكن أصحاب معامل السُكّر الآخرون يملكون أقلّ منه، فبلغ مجموع ما كان يملكه الرأسماليون اليهود من الأراضي الزراعية، 872 ألف هكتار.

وتأتي بعد ملكيّة الأرض، تجارة القمح والدقيق (لنتذكّر أنَّ عمليات تصدير القمح "كانت كلُّها تقريباً بين أيدي التجّار اليهود"). "قبل الثورة كان 18% من السكان اليهود على أراضي الاتحاد السوفييتي [أي أكثر من مليون نسمة! – أ. س.]، يعملون في تجارة القمح، هم وأفراد أُسرهم كأرباب مؤسسات مستقلَة. وقد أدّى هذا الوضع إلى نفور الفلاحين من السكّان اليهود" (لأنَّ التجّار كانوا يعملون دائماً على تخفيض أسعار شراء القمح قدر الإمكان ليزيدوا من أرباحهم). وفي المقاطعات الغربية وأوكرانيا تحوّل اليهود إلى شراء منتجات الفلاحين الأخرى فضلاً عن القمح (لكنَّ أتباع الشعائر القديمة المكدّين الدؤوبين في كلينتسي، وزلينكا، وستارودوبا، وإيلينوفكا، ونوفوزيبكوفا، لم يتنازلوا عن تجارتهم للآخرين، بل أخذوا على عاتقهم تسويق منتجاتهم بأنفسهم). وقد رأى بيكرمان أنَّ عجز تجّار القمح اليهود عن تغطية حدود روسيا كلّها، غطى على خمول الكولاك (أثرياء الفلاحين. ـ ح. إ.). لكنْ، "إذا كانت تجارة القمح الروسيّة ... قد شكلت جزءاً لا يتجزّأ من دورة التجارة العالميّة ... فإنَّ البلاد مدينة بهذا أساساً للتجار لليهود". ونحن كنّا قد أشرنا سابقاً إلى أنَّ "حصّة

التجّار اليهود من عمليات تصدير القمح من أوديسا، كانت قد بلغت في العام 1878م 60%. كما كان اليهود أول من طوَّر تجارة القمح في نيقولايف"، وكرسونيس، وروستوف التي على الدون، فضلاً عن مقاطعات أورلوفسك، وكورسك، وتشورنيغوفسك، "وكان لهم حضور فاعل في ميدان تجارة القمح في بطرسبورغ". أمَّا في الإقليم الشمالي الغربي، فكان عدد اليهود بين تجار الحبوب "الألف، 930 تاجراً".

بيد أنَّ أكثر المصادر لا يلقي الضوء على سلوك هؤلاء التجار اليهود المحتكرين. وفي أحيان كثيرة كان سلوك هؤلاء في غاية الرداءة، ومخالفا للقانون وفق معاييرنا اليوم: في بعض الأحيان كان المحتكرون اليهود يتّفقون فيما بينهم على ألاّ يشتروا المحصول أصلاً، كي تهبط الأسعار إلى الحدِّ الأدنى. لذلك لم يكن من قبيل المصادفة أن تنشأ في المقاطعات الجنوبية لأول مرة في روسيا، ومنذ تسعينات القرن التاسع عشر، جمعيات زراعية لم تكن أوروبا قد عرفتها بعد (تحت قيادة الكونت غايدن وبيختييف)، كردٍّ فعل ضدَّ احتكار شراء قمح الفلاحين.

ويجب ألاُ نغفل في حديثنا عن التجارة اليهوديّة، "تصدير الأخشاب الذي كان يأتي في المرتبة الثانية بعد تصدير القمح"، فمنذ العام 1813م حتى العام 1913م، زادت صادرات هذه المادّة 140 ضعفاً. وهذا ما أثار سخط الشيوعي لارين: "كان الإقطاعيّون اليهود يملكون مساحات شاسعة من الغابات (بعضهم كان يستأجر الغابات في مقاطعات لا يسمح القانون لليهوديّ العاديّ أن يقيم فيها)". وتؤكد الموسوعة اليهوديّة: أنَّ " اليهود كانوا يشترون الأراضي خاصة في المقاطعات الداخليّة، لتصنيع الأخشاب". بيد أنَّ مناطق كثيرة لم يُسمح لليهود أن يبنوا فيها مناشر، لذلك كانت الأخشاب تُنقل إلى الخارج مادّة خام، الأمر الذي كان يضرُّ بمصلحة روسيا كثيراً (كما كانت هناك ممنوعات أخرى: لم يُسمح بتصدير الأخشاب عبر موانئ ريغا، وريفيل، وبطرسبورغ، ولا بامتلاك مساحات من الأرض قريبة من السكك الحديديّة لاستخدامها مستودعات).

إنَّ هذه اللوحة بحدِّ ذاتها، تحتوي على كلّ شيء: على الدينامية الدؤوبة للنشاط التجاريّ اليهوديّ الذي كانت تدفع به دول بكاملها، والمحظورات البيروقراطيّة المعوقة الوجلة وغير المباشرة، والضيق اليهوديّ المتعاظم منها، وتصدير الأخشاب الروسيّة الخام وبيعها غير مصنَّعة، والموجيك زارع الحبوب، والموجيك الذي يعمل في إعداد الأخشاب تحت سلط قوّة لا ترحم، وهم أنفسهم ليست لديهم العلاقات ولا الوعي الضروري لإدارة عمليات تجاريّة على أسس جديدة، فضلاً عن هذا كله، كانت وزارة المالية تجدّ في تمويل النشاط الصناعي وبناء الخطوط الحديديّة، ولم تقدّم أيَّ دعم يُذكر للقطاع الزراعي، بينما كانت أعباء الإتاوات تُلقى أساساً على كاهل العاملين في هذا القطاع، وليس على كاهل العاملين في الميدان التجاري. وعلى الرَّغم من الديناميّة الاقتصاديّة الجديدة التي عادت على الخزينة بنفع ماديّ مهمٍّ، وكان لليهود دور بارز فيها، إلاَّ أنَّ أحداً لم يول اهتماماً للأذى، أو "للصدمة"، أو التحوُّل الذي حدث في المزاج الشعبي.

فعلى مدى نصف قرن كانت روسيا تُتهم من الخارج والداخل بأنَّها استعبدت اليهود اقتصادياً، ودفعت بهم إلى هاوية الفقر. وكان يجب أن يمضي وقت حتى تتوارى تلك الروسيا البغيضة عن وجه الأرض، كان ينبغي القفز عبر الثورة لكي يتطلع عبر جدارها الدموي في الثلاثينات، مؤلّف يهودي ويعترف بأنَّ "الحكومة القيصريّة لم تتبع سياسة تؤدي إلى إقصاء اليهود نهائياً من الحياة الاقتصاديّة. فعدا عن القيود المعروفة ... فيما يتعلق بالقرى ... كانت الحكومة القيصرية متسامحة تماماً مع النشاط الاقتصاديّ اليهودي الفعال". فلم يشعر اليهود بحدة الصراع القومي "في الحياة الاقتصاديّة؛ لأنَّ الأُمّة المهيمنة لم تكن لها مصلحة في الوقوف إلى جانب مجموعة قوميّة واحدة؛ بل على الضدِّ، كانتْ تسعى إلى أن تؤدي دور الوسيط أو الحكم".

على أيٍّ حال، كانت الحكومة تحاول في بعض الأحيان أن تتدخّل في الاقتصاد لاعتبارات المصلحة الوطنيّة، لكنّها غالباً ما كانت تتّخذ في هذا السياق إجراءات تفتقر إلى مقومات النجاح. ففي "العام 1890م عمّمت الحكومة منشوراً قضى بحرمان اليهود من حقّ عضوية مجالس إدارات الشركات المساهمة التي كانت طبيعة نشاطها تقتضي امتلاك الأراضي أو استئجارها". غير أنّ الالتفاف على مفاعيل هذا القانون كان أمراً في غاية السهولة: عبر المشاركة المغفلة، فمثل هذا الحظر لم يكن يطال الاستثمار اليهودي. لقد "كان دور اليهود بارزاً على وجه الخصوص في التجارة الخارجيّة، حيث كان مكان إقامتهم على مقربة من الحدود يضمن لهم الهيمنة في هذا الميدان، فضلاً عن علاقاتهم الوثيقة مع العالم الخارجيّ، ومهاراتهم في الوساطة التجاريّة".

السيطرة اليهوديّة على اقتصاد روسيا

عند أواخر القرن بلغت نسبة معامل اليهود في ميدان صناعة السُكّر، ثلث عدد معامل البلاد كلّها. ونحن كنّا قد اطلعنا في الفصول السابقة على الدور الذي أدّاه إسرائيل برودسكي، وولداه لازار وليف، في تطوير هذه الصناعة ("في بداية القرن العشرين كانوا يسيطرون مباشرة أو بطريقة غير مباشرة على سبعة عشر مصنعاً من مصانع السُكّر"). "وفي بداية القرن العشرين كان موسى غالبيرين يملك ثمانية مصانع لتصنيع السُكّر من الشمندر السُكّري، وثلاثة مصانع لتكرير السُكّر ... كما كان يملك أكثر من خمسين ألف هكتار من الأراضي لزراعة الشمندر السُكّري". "لقد كانت تعيش حول العمل في صناعة السُكّر مئات آلاف العائلات اليهوديّة التي كانت تساهم في تسويقه، وسوى ذلك من الأعمال المتّصلة بهذه الصناعة". لكنَّ المنافسة التي بلغت الآن درجة عالية من الحدّة، أفضت إلى هبوط أسعار السُكّر. وعلى هذه الخلفية، ها هي كييف تشهد ولادة اتحاد أصحاب معامل السُكّر الذي كانت مهمته تنظيم عمليّة انتاج السُكّر، وضبط أسعاره حتى لا تهبط. في العام 1903م، أسس الأخان بوردسكي اتحاد أصحاب معامل تكرير السُكّر. وعلاوة على تجارة الحبوب والأخشاب وصناعة السُكّر التي شغل اليهود فيها مكانة رائدة، كانت لهم مساهمة كبيرة أيضاً في صناعة الدقيق، ودباغة الجلود، والصناعات النسيجية، وصناعة الكتان، والخياطة، وصناعة التبغ، وتقطير البيرة. فمنذ العام 1835م كان اليهود يشاركون في معارض نيجفورود. ومع بداية التسعينيّات أخذ يهود إقليم وراء البايكال يعملون في تجارة المواشي، واستخراج الفحم (فحم أنجيرو - سونجين)، والذهب من مناجم سيبيريا، وكان لهم دور بارز في هذه الصناعة.

"فبعد العام 1892م لم يعمل آل غينتسبورغ إلاّ في صناعة الذهب". وكانت "جمعية تصنيع الذهب الليسنكية" أكثر المستثمرين نجاحاً في هذه الصناعة، "وقد سيطر عليها عملياً" البارون غوراتسي غيتسنبورغ ابن يفزيلي غيتسنبورغ (منذ العام 1896 حتى وفاته في العام 1903م)، الذي أسس أيضاً سلالة مصرفية، وكان رئيس فرع مصرف في بطرسبورغ (منذ العام 1909م رأس دافيد ابن غوراتسي، الذي كان كوالده يحمل لقب بارون أيضاً، الطائفة اليهوديّة في بطرسبورغ حتى وفاته في العام 1910م. ودخل ولداه ألكساندر وألفريد في عضوية مجلس إدارة جمعية تصنيع الذهب الليسنكية. كان ابنه فلاديمير متزوجاً بابنة ل. إ. برودسكي صاحب مصانع السُكّر الكييفي المعروف). كما كان غوراتسي غيتسنبورغ "مؤسس جمعية وراء البايكال، وجمعية مايسك، وجمعية بيريوزفسك، وجمعية ألتاي وسواها من الجمعيات الأخرى" العاملة في ميدان استخراج الذهب. في العام 1912م شاع في أرجاء روسيا كلها أمر الفضيحة الكبرى حول أحداث مناجم الذهب في لينسك، وظروف الاستغلال الرهيبة، والخداع القذر الذي يتعرّض له العمال هناك، وغنيٌّ عن البيان القول: إنَّهم اتهموا الحكومة القيصرية وحدها في كل ما جرى. ولم يشر الإعلام، بما فيه الإعلام الليبرالي الساخط الحانق، لو بكلمة واحدة إلى مسؤولية كبار المساهمين بمن فيهم الأخوين غيتسنبورغ.

في أوائل القرن العشرين كان اليهود يشكّلون 35% من طبقة التجار في روسيا. وقد لاحظ شولغين ما يلي في سياق حديثه عن الإقليم الجنوبي الغربي: "أين توارى التجار الروس، الفئة الروسيّة الثالثة؟ ... فيما مضى كانت عندنا فئة قوية من المشّان ... أين هم؟ "لقد أزاحهم اليهود ... حوّلوهم إلى طبقة اجتماعية مدقعة لا حول لها ولا قوة، إلى موجيك"، إذن، لقد اختار روس الإقليم الجنوبي الغربي قدرهم بأنفسهم. وفي أوائل القرن أكد رجل الدولة المرموق ف. إ. غوركو أنَّ "التاجر اليهودي يحتلُّ شيئاً فشيئاً موقع التاجر الروسي".

كما اكتسب اليهود وزناً متعاظماً في التعاونيات الروسيّة المتنامية بإيقاع متسارع جداً. فأكثر من نصف جمعيات قروض الائتمان، وجمعيات قروض التوفير، كانت متواجدة في إقليم الاستيطان اليهودي (عند العام 1911م كان اليهود يشكّلون 85% من عدد أعضائها).

ونحن كنّا قد تحدثنا عن استثمارات الاخوة بولياكوف في الخطوط الحديديّة الروسيّة. وما عدا أول خطين (خط تسارسكوسيلسكي وخط نيقولايف)، بنت الشركات ذات الامتيازات أكثر الخطوط الأخرى، وكان المساهمون اليهود يشغلون مكانة بارزة فيها؛ "لكنْ منذ العام 1890م، أخذت الدولة بناء الخطوط الحديدية على عاتقها. وقبل ذلك، في العام 1883م، تأسست تحت رئاسة دافيد مارغولين جمعية كبرى لبناء السفن في الدنيبر وروافده، كان المساهمون الأساسيّون فيها من اليهود. وفي العام 1911م كان عدد سفن أُسطول الجمعية قد بلغ 78 سفينة، كانت حصّتها 71% من مجمل أعمال النقل عبر نهر الدنيبر". كما كانت هناك جمعيات أخرى تعمل في دفينا الغربية، ونيمانا، ثم انتقلت إلى منظومة مارينا والفولغا. وعلاوة على ذلك كان ثمة عشر مؤسسات نفطية يهودية كبرى تعمل في باكو، "أكبرها مؤسسة ‘‘مازوت’’ التي كان يملكها س. وم. بولياك، وروتشيلد"، إضافة إلى جمعية قزوين - البحر الأسود التي كان وراءها روتشيلد". لم تكن هذه المؤسسات تملك حقّ استخراج النفط، لكنّها كانت تصنّع المشتقات النفطية وتصدّرها"

بيد أنّ نشاط اليهود الاقتصاديّ انعكس بأسطع صوره في النظام النقديّ للبلاد. "منذ زمن طويل كانت القروض قد غدت بمثابة البيئة الأم لدى اليهود. فقد ابتكروا صيغاً جديدة للإقراض وطوّروا الصيغ القديمة ... وأدّوا دوراً كبيراً عبر ممثليهم من كبار الرأسماليين، في تأسيس مصارف التمويل المساهمة. ولم يُخرج اليهود من أوساطهم أرستقراطيا مصرفية فقط، بل مدُّوا النظام المصرفي بكتلة كبيرة من الموظفين أيضاً". منذ العام 1859م كان قد تأسس في

بطرسبورغ مصرف يفزيل غينتسبورغ الذي نهض وتوطد بفضل علاقاته مع مصارف آل مندلسون في برلين، وآل فاربورغ في هامبورغ، وآل روتشيلد في باريس وفيينا. لكنَّ الأزمة المالية التي وقعت في العام 1892م "على خلفية امتناع الحكومة عن دعم سلالتها المصرفية [بالقروض]"، كما كانت قد فعلت قبل ذلك مرتين، أدَّت إلى خروج ي. غينتسبورغ من ميدان العمل المصرفي. ومع بداية السبعينيّات أنشأ الاخوة يعقوب وصموئيل ولازار بولياكوف، شبكة كاملة من المصارف: مصرف آزوف - الدون التجاري (رأسه فيما بعد ب. كامينكا)، مصرف موسكو الزراعي، مصرف الدون الزراعي، مصرف آل بولياكوف، المصرف الدولي، إضافة إلى "عدد آخر من المصارف التجارية التي أنشأت فيما بعد المصرف المتّحد". كان أ. سولوفييتشيك يرأس مصرف سيبيريا التجاري، وإ. بيلوخ مصرف وارسو التجاري. وفي مصارف كبرى أخرى كان اليهود يشغلون مناصب عالية (زاك، وأُوتين، وخيسين، ودوبري، وفافيلبيرغ، ولانداو، وإيبيشتين، وكرونغولد). "كان هناك مصرفان فقط لم يكن لليهود أيُّ حضور فيهما" (المصرف التجاري الموسكوفي، ومصرف الفولغا - كامسك). ومن الجدير أن نشير إلى أنَّ الاخوة بولياكوف ثلاثتهم كانوا قد حازوا مرتبة مستشار خاصّ، وارتقوا إلى فئة النبلاء الوراثيين.

على هذا النحو يكون إقليم الاستيطان اليهودي قد استُهلك تاريخياً مع بداية القرن العشرين، ولم يعد له حضور يُذكر. فهو لم يشكّل أيَّ عائق أمام سعي اليهود إلى ترسيخ مواقعهم في أهمِّ ميادين الحياة الروسيّة، بدءاً من الاقتصاد والمال، وانتهاء بشريحة المثقفين. لقد فقد إقليم الاستيطان أهميته العملية، وانهارت الآمال الاقتصادية والسياسية التي كانت معلّقة عليه. لكنَّه ملأ نفوس اليهود مرارة وحقداً على الدولة، فنكأوا جراح الانقسام الاجتماعيّ مراراً وتكراراً، ولطّخوا صورة الحكومة الروسيّة أمام الرأي العام الغربي. حتى الإمبراطوريّة الروسيّة نفسها، على امتداد القرن التاسع عشر كله، ثم العقود

الأخيرة التي سبقت الثورة، متى كانت سبّاقة ولم تتأخَر سواء من حيث تواني جهازها البيروقراطي أو تفكير نخبتها وتحجُّرها؟ لقد كانت عاجزة تماماً عن وضع أيٍّ حلول ناجعة لدستة واحدة من المعضلات الرئيسة التي كانت البلاد تعاني منها: الإدارة المدنية المحليّة، سلطات المجالس المحليّة، الإصلاح الزراعي، التدني الخطير في أوضاع الكنيسة، إفهام الشعب مغزى تفكير الدولة، النهوض بمستوى تعليم الشعب، وتطوير الثقافة الأوكرانيّة. في هذا الإطار نفسه كان لتوانيها في إعادة النظر بالشروط الواقعية في إقليم الاستيطان اليهودي، وتأثيرها على الأوضاع في الدولة، نتائج كارثية. فعلى مدى أكثر من قرن فشلت السلطات الروسيّة في حسم مسألة السكان اليهود: سواء باتجاه قبول إدغامهم، أو باتجاه بقائهم في العزلة الاختيارية التي كانوا يعيشونها منذ قرن مضى. في غضون ذلك كانت اليهوديّة الروسيّة في هذه العقود تحديداً: منذ سبعينات القرن التاسع عشر حتى بداية القرن العشرين حقّقت تقدُّماً سريعاً، وبلغ الازدهار الفكري لدى نخبتها حدّاً ضاقت بها عنده حدود إقليم الاستيطان اليهودي، بل حتى حدود الإمبراطورية الروسيّة كلّها.

اليهوديّة الروسيّة واليهوديّة الأميركيّة

نحن عندما ندرس دقائق انتقاص حقوق اليهود في روسيا، وواقع إقليم الاستيطان اليهوديّ، ومسألة المعيار النسبي، لا يجوز أن نغفل عن هذه اللوحة العامة. وعلى الرَّغم من تعاظم أهمية اليهوديّة الأميركية، إلاّ أنَّ يهود روسيا كانوا يشكلون مع بداية القرن العشرين قرابة نصف يهود العالم، وكان هذا الواقع هو العامل الأهمُّ في تاريخ اليهوديّة العالميّة. مرة أخرى ينظر إ. م. بيكرمان عبر موشور الثورة ويكتب في العام 1924م: "في روسيا القيصرية كان يعيش أكثر من نصف الشعب اليهوديّ ... لذلك من الطبيعي أن يكون تاريخ يهود أقرب الأجيال إلينا، هو بشكل أساس تاريخ اليهوديّة الروسيّة". مع أنّه في القرن العشرين "كان يهود الغرب أكثر ثراء، ونفوذاً، ووقفوا في طليعتنا من حيث المستوى الثقافي، إلاّ أنَّ طاقة حياة اليهوديّة كانت في روسيا. وقد تعاظمت هذا الطاقة وتوطدت مع ازدهار الإمبراطوريّة الروسيّة ... فبعد ضمِّ المناطق التي يسكنها اليهود إلى روسيا ... بدأ زمن الانبعاث اليهوديّ. لقد تزايدت أعداد السكان اليهود بتسارع ملحوظ، حتى باتوا قادرين على إنشاء مستوطنة وراء المحيط فيها أعداد كبيرة من السكان؛ كما تراكمت رؤوس الأموال بين أيدي اليهود، وتشكّلت شريحة يهودية وسطى لها أهميتها الكبيرة، وارتفع أكثر فأكثر مستوى معيشة الفئات الشعبية الدنيا؛ بجهود اليهوديّة الروسيّة ... أمكن تجاوز الأدران القذرة، سواء الفيزيائيّة أو الروحيّة التي جيء بها من بولونيا؛ وشيئاً فشيئاً تعاظم انتشار التعليم الأوروبيّ في الأوساط اليهوديّة ... كم أوغلنا بعيداً في هذا الاتجاه، وكم اختزنّا من القوى الروحيّة، حتى إنّنا أجزنا لأنفسنا ترف إبداع

أدب بثلاث لغات ...". لقد وردت المعارف كلُّها، والغنى كلُّه إلى يهود أوروبا الشرقيّة – في روسيا. فتجلَت اليهوديّة الروسيّة "بكثافتها العدديّة، ونضارة القوى الكامنة فيها، عموداً فقرياً للشعب اليهودي كلِّه".

إنَّ هذه اللوحة العامة التي رسمها مؤلف كان شاهداً على ذلك النمط من العيش، نالت رضا أحد معاصرينا الذي كتب يقول في العام 1989م: "على تخوم القرنين بلغت الحياة الاجتماعية ليهود روسيا درجة النضج والانتشار التي كان يمكن أن يحسدهم عليها كثير من الشعوب الأوروبية الصغيرة".

إذن، أياً كانت التهمة التي ترمي بها "سجن الشعوب" هذه، إلاّ أنّك لن تستطيع اتهامها بحرمان اليهود والشعوب الأخرى من انتمائهم القوميّ. صحيح أنَّ بعض المؤلفين اليهود يتذمرون من أنّه في الثمانينات "لم تكن للمثقفين من يهود العاصمة أيُّ مساهمة في الدفاع عن مصالح اليهود"، إنّما الذي قاد النضال دفاعاً عن مصالح اليهود هو البارون غينتسبورغ وغيره من اليهود الأثرياء الذين كانت لهم علاقات واسعة. "ففي بطرسبورغ كان اليهود يعيشون مبعثرين [في العام 1900م كان عددهم فيها 30 -40 ألف نسمة]، كما كانت غالبية المثقفين اليهود عندئذٍ بعيدة جداً عن هموم اليهود ومصالحهم العامة". لكنْ حينئذٍ أيضاً، "كانت روح التجديد القدسيّة ... تحلّق في سماء إقليم الاستيطان اليهودي، فأيقظت في الأجيال الشابة، القوى التي كانت راقدة في الشعب اليهودي منذ قرون ... لقد كانت تلك ثورة روحيّة حقيقيّة"، فعند الفتيات اليهوديّات "استيقظت الرغبة إلى العلم ... وحملت طابعاً دينيّاً بمعناه الحرفي". في بطرسبورغ "كان يتلقى العلم في مؤسسات التعليم العالي كثير من الطلاب والطالبات اليهود". وعند بداية القرن العشرين "أحسَّ فريق كبير من المثقّفين اليهود بأنَّ من واجبهم أن يعودوا إلى شعبهم".

في ظل هذا الازدهار الروحي الذي كانت تعيشه اليهوديّة الروسيّة عند أواخر القرن التاسع عشر ظهرت فيها تيارات مختلفة لا يتفق واحدها مع الآخر، بل يناقض أحدها الآخر. وقد قيِّض لبعضها أن يحدِّد بمعنى ما، مصير القرن كله. في تلك الآونة رأى يهود روسيا أمامهم ستَّة سبلٍ بالحدِّ الأدنى، بيد أنَّها كان ينفي واحدها الآخر تقريباً:

- الحفاظ على وجودهم في داخل شرنقة اليهوديّة الدينيّة، والانعزال عن المحيط، كما كانت عليه الحال طول قرون كثيرة (لكنَّ هذه الطريق كانت قد فقدت شعبيتها)؛
- الادِّغام؛
- النضال في سبيل الاستقلال الذاتيّ الثقافيّ - القوميّ، وبقاء اليهوديّة الروسيّة عنصراً نشطاً قائماً بذاته في داخل المجتمع الروسيّ.
- الهجرة؛
- الانخراط في الصهيونية؛
- الانخراط في الثورة.

لكنَّ ممثلي مختلف التيارات غالباً ما كانوا يلتقون على ضرورة تنوير الجماهير اليهوديّة بثلاث لغات (اليهودية، والعامية اليهوديّة، والروسية)، ومختلف ضروب التعاون العملي (بروح "الأعمال الصغيرة" التي كانت شائعة في روسيا إبَّان الثمانينيّات). وقد تحقّق ذلك التعاون عبر عدد من المنظمات اليهوديّة التي تابع بعضها نشاطه في خارج روسيا بعد الثورة. فبقيت تنشط على سبيل المثال، جمعية نشر الوعي بين يهود روسيا التي كانت قد تأسست منذ العام 1863م. وعند بداية التسعينيّات فتحت هذه الجمعية مدارسها الخاصّة التي كانت العملية التدريسيّة تجري فيها باللغتين الروسيّة، واليهودية، كما دعت إلى اجتماع عام لدراسة مسائل الثقافة الشعبيّة اليهوديّة.

منذ العام 1891م بدأت اللجنة التاريخية - الإثنوغرافية اليهوديّة عملها (ابتداء من العام 1908م باتت تُدعى: الجمعية التاريخية - الإثنوغرافيّة اليهوديّة). فكانت تنسِّق دراسات التاريخ اليهوديّ التي تصدر في روسيا، وتهتمُّ بجمع الأرشيفات اليهوديّة.

في العام 1880م أنشأ "ملك الخطوط الحديديّة" صموئيل بولياكوف "الجمعية اليهوديّة للعمل الزراعي والحرفي". "في بداية نشاطها أولت الجمعيّة اهتمامها الرئيس لعملية نقل الحرفيين اليهود من إقليم الاستيطان إلى المقاطعات الداخليّة". ونحن كنّا قد رأينا أنّه بعد السماح بهذا مبدئياً (في العام 1865م)، لم ينتقل الحرفيون اليهود إلى المقاطعات الداخلية إلاّ بأعداد قليلة جداً. لكنْ بعد أعمال العنف التي وقعت ضدّ اليهود في العامين 1881 -1882م، كانت التوقعات أنّهم سيندفعون الآن إلى هناك حشوداً، بمساعدة الجمعية اليهوديّة للعمل الزراعيّ والحرفيّ، إضافة إلى المساعدة التي تقدِّمها الحكومة لتغطية نفقات السفر، فما الذي يبقيهم إذن محشورين في إقليم الاستيطان اللعين ذاك، حيث يهلكون من الفقر والعوز؟ لكنْ بعد عشر سنوات من الجهود التي بذلتها الجمعية، لم ينتقل للعيش في المقاطعات الداخلية سوى 170 حرفياً ... عندئذٍ أخذت الجمعية تقدِّم المساعدات للحرفيين داخل إقليم الاستيطان نفسه: لشراء الأدوات، وتحسين تجهيزات المشاغل، ثم لإنشاء مدارس لتعليم الحرف.

تاريخ جمعيات تنظيم الهجرة اليهوديّة

لقد تولّت شؤون الهجرة اليهوديّة جمعية الاستعمار الاستيطاني اليهوديّة التي كانت لنشوئها طريق عكسية: ظهرت في الخارج أولاً، ثم بعد ذلك في روسيا. أسسها في العام 1891م البارون موريس فون - غريش في لندن، وخصّص لها مليوني جنيه إسترليني. كانت فكرته هي الآتية: استبدال الاستيطان اليهودي المنظَم في البلدان التي تحتاج فلاحين، بالهجرة اليهوديّة العشوائية من أوروبا الشرقية؛ إعادة لو جزء من اليهود إلى العمل الزراعي، وتحريرهم من ذلك "العزوف عنه الذي أثار ضدّهم عداء الشعوب الأوروبية". "إنَّ العثور لليهود المهاجرين من روسيا على وطن جديد، ومحاولة إبعادهم في الوقت نفسه عن عملهم المعتاد: التجارة، وتحويلهم إلى فلاحين، سيؤدي شيئاً فشيئاً إلى إحياء الجنس اليهودي من جديد. وقد اختيرت الارجنتين لتكون هذا الوطن الجديد لليهود (كما كان هناك هدف آخر: تحويل وجهة موجة الهجرة اليهوديّة عن الولايات المتحدة الأميركية، حيث أدى فيض اليهود هناك إلى تدني أجور العمال الأميركيين، الأمر الذي كان يهدد بخطر انتشار موجة عداء للساميّة). وبما أنَّ الخطة كانت تقضي بتوطين يهود روسيا في تلك البلاد، فقد افتتحت جمعية الاستعمار الاستيطاني اليهوديّة في العام 1892م فرعاً لها في بطرسبورغ، وشكلت فيها لجنتها المركزية. "كما أنشأت 450 مكتباً إعلامياً، و20 لجنة منطقية. وقد يسَّرت هذه المؤسسات لليهود سبل الحصول على وثائق السفر، وأدارت محادثات مع ممثلي جمعيات النقل البحري، واتفقت معها على بيع تذاكر السفر لليهود بأسعار مخفضة، وأصدرت كتيِّبات دعائية شعبية" روَّجت فيها للبلدان

التي يمكن الاستيطان فيها (يشكو سليوزبيرغ شكوى عابرة من "أنّهم لسبب ما، لم يتيحوا إلاّ للمصرفي والمليونير، فرصة المشاركة في إدارة هذه العملية").

ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر أخذت معدلات الهجرة اليهوديّة من روسيا ترتفع باطراد، لأسباب مختلفة كنّا قد أتينا على ذكر بعضها في سياق عرضنا هذا. كانت الخدمة العسكريّة الإلزامية من أسبابها الجدية: إذا كان كثير من الشباب اليهودي (كما نقرأ عند دينيكين)، قد رأوا أنّهم يمكن أن يغدوا مشوّهين، أو مقعدين، إذن أليس من الأفضل لهم أن يهاجروا؟ لا سيما بعد أن علموا أنّ الخدمة العسكرية الإلزامية غير مفروضة في الولايات المتحدة الأميركيّة أصلاً (لكنّ المؤلفين اليهود لا يأتون على ذكر هذا الدافع قط، كما لم تشر إليه الموسوعة اليهوديّة في مادة: "هجرة اليهود من روسيا". مع ذلك فهو لا يُعلّل تعاظم مستوى الهجرة في التسعينيّات). السبب الهام الآخر هو "القواعد المؤقتة التي صدرت في العام 1882م"؛ أضف إليها قفزة كبيرة أخرى في مستويات الهجرة تسبب بها طرد الحرفيين اليهود من موسكو في العام 1891م. كما ظهر هناك دافع قوي آخر تمثّل في احتكار الدولة منذ العام 1896م، لتصنيع المشروبات الكحوليّة وتسويقها، الأمر الذي حرم الخمّارين من مورد عيشهم الوحيد، وقلّص موارد العاملين في صناعة تقطير الكحول (يقول سليوزبيرغ عن هذا: اندفع إلى الهجرة برغبة كبيرة أولئك الذين طردوهم من القرى، أو من المقاطعات الداخليّة). وينقل لنا غ. أرونسون أنّ متوسط العدد السنوي للمهاجرين اليهود بلغ في الثمانينيّات قرابة خمسة عشر ألف مهاجر، ووصل في التسعينات إلى ثلاثين ألفاً في كلّ عام.

كانت السلطات الروسيّة تجد في تزايد مستويات الهجرة اليهوديّة نعمة هبطت عليها من السماء. فوافقت برحابة صدر على إنشاء اللجنة المركزية لجمعية الاستعمار الاستيطاني اليهوديّة في بطرسبورغ، ورحّبت بكلّ برامج الهجرة التي كانت تُعدُّها، ولم تتدخّل في عملها، كما سمحت حتى بهجرة

المكلّفين بالخدمة العسكريّة، ومنحت فيزات الخروج مجاناً، وأجازت أسعاراً مخفّضة لتذاكر السفر بالقطارات، لكنْ شريطة ألاّ يعود المهاجرون إلى روسيا ثانية.

وفق إمكانيات النقل التي كانت متاحة في ذلك الحين، سارت الهجرة إلى ما وراء المحيط عبر إنكلترا، ونشأت في مدنٍ موانئها تجمعات مؤقتة لعبور المهاجرين اليهود، وقد اختار بعض أولئك المهاجرين أن يستقرّ في إنكلترا نفسها، وأعادوا بعضهم من الولايات المتحدة؛ وابتداء من العام 1890م بدأت ثورة الرأي العام الإنكليزي ضدّ سياسة الحكومة الروسيّة على وجه العموم، "فلم تغادر المسألة اليهوديّة أعمدة الصحف الإنكليزيّة ... في أمريكا أيضاً، لم يخلُ جدول الأعمال اليومي من الحديث عن أوضاع اليهود في روسيا". لكنَّ بريطانيا إذْ قدَّرت الأحجام المحتملة التي يمكن أن تبلغها حركة الهجرة تلك، أسرعت وأغلقت منافذ الدخول إلى البلاد. في العام 1894م توقفت أيضاً حركة الهجرة إلى الارجنتين. وقد وصفت الموسوعة اليهوديّة ذلك: "بالأزمة المتفاقمة ... في المسألة الأرجنتينيّة"، وتحدَّث سليوزبيرغ عن "خيبة أمل الذين هاجروا إلى الارجنتين" (لقد ثار الساخطون، وأرسلوا شكاوى جماعيّة إلى إدارة غيرش). ارتسمت في مناقشات الدوما الروسيّة اللوحة الآتية التي كانت تشبه تجربة نوفوروسيا: "على منوال هجرة اليهود إلى الارجنتين يمكننا أن نشير إلى جملة من مثل هذه الوقائع حينما مُنح الناس الأرض [هناك في نوفوروسيا] بشروط أكثر من ملائمة لهم، لكنَّهم تركوها وبحثوا عن مخرج في مهن أكثر توافقاً مع طبيعتهم".

بعد ذلك، "على الرَغم من أنَّ جمعية الاستعمار الاستيطاني اليهوديّة بقيت ترى أنَّ مهمّتها هي إطلاق المشاريع الاستعمارية الاستيطانية التي تهدف لتحويل اليهود إلى فلاحين، إلاَّ أنَّها عملياً أخذت تتراجع عن هذا الهدف". بيد أنَّها أخذت على عاتقها "تقديم العون لحركة الهجرة اليهوديّة من روسيا؛ لأنَّ تلك الحركة كانت في غاية الفوضى والعشوائية"، "فأخذت على عاتقها تزويد المهاجرين

بالمعلومات، والدفاع عن مصالحهم، وترتيب العلاقات مع بلدان الهجرة"، ولهذا الغرض غيَّرت نظامها الذي كانت قد ورثته عن البارون الراحل غيرش. فكرّست موارد مهمة "لرفع مستوى معيشة اليهود في أماكن إقامتهم"، ومنذ العام 1898م، "أخذ العمل يجري في أوساط اليهود داخل حدود روسيا نفسها"، وكان "إدخال أدوات عمل جديدة وطرائق متطوِّرة لحراثة الأرض"، أحد الاتجاهات في مساعدة المستعمرات الزراعيّة القائمة، وكمثله أيضاً كان "تقديم قروض استصلاح بفائدة رمزيّة". لكنْ هنا أيضاً، "على الرَّغم من النفقات الكبيرة التي أُنفقت على تشجيع العمل الزراعي، إلاَّ أنَّ ركوداً نسبياً لوحظ في تطور هذا القطاع على وجه العموم". على الضدِّ من هذا كان سيل الهجرة من روسيا "المرتبط ارتباطاً وثيقاً بتراجع حاد في قطّاع العمل الحرفيّ، وإقصاء متدرِّج للتجارة الصغيرة"، يقوّى أكثر فأكثر "حتى بلغ ذروته في العام 1906م"، مع أنّه هو أيضاً "كان عاجزاً عن استيعاب الزيادة السنوية لعدد السكان" اليهود. في غضون ذلك "اتجهت الكتلة الأساس من المهاجرين إلى الولايات المتحدة الأميركية"، ففي العام 1910م مثلاً شكّل هؤلاء 10% من عدد المهاجرين. "وفي الأعوام 1881 -1914م وصل إلى هناك 78%6. من اليهود الذين غادروا روسيا". لقد كانت حركة القرن قد تحدّدت عندئذٍ بوضوح (في ذلك الحين لم يكن الدخول إلى الولايات المتحدة يشترط تقديم أيِّ شهادات حرفيّة، لكنْ تبيَّن أنَّ 63% من اليهود الذين هاجروا من روسيا إلى الولايات المتحدة في السنوات الست الأولى من القرن العشرين، كانوا "يعملون في الصناعة". يُستنتَج من هذا أنَّ اليهود الذين هاجروا من روسيا إلى الولايات المتحدة، كانوا من الحرفيين فقط؟ وهذا يفسِّر إلى حدٍّ ما، لماذا لم ينتقل الحرفيون اليهود للعيش والعمل في المقاطعات الداخلية التي فتحتها الحكومة الروسيّة أمامهم؟).

من الملاحظ أيضاً، أنَّ فئة المثقّفين اليهود التي كان الظن أنَّها أكثر الفئات اضطهاداً، لم تشارك في الهجرة، فمنذ العام 1899م حتى العام 1907م، لم

تتجاوز نسبتهم بين المهاجرين 1%. لم ينحُ المثقفون اليهود نحو الهجرة، بل أدانوها ورأوا فيها هروباً من النهوض بالمهمات، ومن القدر في روسيا، حيث انفتحت الآن آفاق رحبة للعمل. منذ العام 1882م كان بيان مؤتمر الشخصيّات الاجتماعيّة اليهوديّة "قد دعا إلى رفض فكرة الهجرة تماماً؛ لأنّها تنتقص من هيبة الدولة الروسيّة وتسيء إلى سمعتها". في الأعوام الأخيرة من القرن التاسع عشر "أراد الجيل الجديد أن يكون له نشاط فعال في سير حركة التاريخ ... فانتقل على الخطوط كلها، سواء من الداخل أو الخارج، من الدفاع إلى الهجوم ... لقد عزم اليهود الجدد الآن على أن يصنعوا تاريخهم بأيديهم، ويتركوا بصمة إرادتهم على مصيرهم ومصير البلاد التي يعيشون فيها". كما أدان الجناح الدينيّ اليهوديّ بدوره حركة الهجرة بصفتها هروباً يهدّد نسغ حياة اليهوديّة الأوروبية الشرقية بالفناء.

لقد انطوت جهود العولمة التي بذلها الجيل اليهودي الجديد، على برنامج معرفيٍ ثقافيٍ أدبيٍ يهوديٍ شامل باللغة اليهوديّة العامية، التي لم يكن التفاهم مع الجماهير اليهوديّة ممكناً عندئذٍ إلاّ بها (بحسب إحصاءات العام 1897م أنّ 3% فقط من يهود روسيا كانوا يرون في اللغة الروسيّة لغتهم الأُم. أمّا اللغة اليهوديّة فقد بدا كأنّهم نسوها وفقدوا الأمل بإمكانية إحيائها من جديد). فأنشأوا شبكة من المكتبات المعدّة لليهود تحديداً. وأصدروا عدة صحف باللغة اليهوديّة العاميّة، وابتداء من العام 1903م، بدأ صدور الصحيفة اليومية: "ديرفرايند" التي تسابقوا في الضواحي على شرائها. كانت هذه صحيفة محايدة، لا حزبيّة، بيد أنّها سعت إلى تكريس تربية سياسيّة معيّنة. في التسعينات على وجه التحديد، ارتسمت "لوحة شاملة لإعادة تشكيل الجماهير اليهوديّة الهلاميّة في أُمة. كانت تلك المرحلة هي عصر النهضة اليهوديّة". ففيها برز كتّابٌ معروفون كتبوا باللغة اليهوديّة العامية: مينديليه مويخر - سفوريم، وشولوم - أليخيم، واسحاق - ليبوش بيريس. تماشياً مع هذه الحركة، ترجم الشاعر بياليك شعره من اليهوديّة

إلى العاميّة اليهوديّة. وفي العام 1908م بلغت هذه الحركة ذروتها في مؤتمر تشرنوفتسا الذي اعتمد اللغة اليهوديّة العاميّة "لغة قومية للشعب اليهودي"، ودعا إلى ترجمة المنشورات كلّها إلى هذه اللغة.

في بادئ الأمر كُرِست لهذا الغرض جهود ثقافية يهودية كبيرة استُخدمت فيها اللغة الروسيّة. فصدرت "المكتبة اليهوديّة" التاريخيّة - الأدبيّة في عشرة أجزاء. في بطرسبورغ عادت إلى الصدور من جديد ابتداء من العام 1881م، مجلة "الفجر"، ثم تلتها مجلة "اليهودي الروسي" (لكنّهما سرعان ما توقفتا عن الصدور: "لم تلق هاتان المجلَتان ترحيباً من اليهود أنفسهم"). كانت مجلة "الشروق" تنشر أعمال الكتّاب اليهود، والترجمات الجديدة كلّها؛ كما أُولي اهتمام خاصّ لدراسة مسائل التاريخ اليهوديّ (كم نحتاج نحن الروس إلى مثل هذا الاهتمام بتاريخنا). منذ الآن أخذت "بطرسبورغ اليهوديّة" تؤدي الدور الرائد في الحياة الاجتماعيّة لليهوديّة الروسيّة. "وعند أواسط التسعينيّات تشكّل [هنا] كادر مهمٌ من الشخصيّات اليهوديّة ... أرستقراطيا المعارف اليهوديّة"، المواهب كلّها هنا. وبحسب إحصاءات تقريبية، لم يكن يتحدث الروسيّة بطلاقة في العام 1897م، سوى 67 ألف يهودي كانوا هم النخبة الثقافيّة اليهوديّة. لكنَّ "الجيل الجديد كلّه" في أوكراينا التسعينيّات، كان ينشأ على اللغة الروسيّة، أمّا الذين التحقوا بالجمنازيوم، فلم يعودوا يتلقون أيَّ تنشئة يهوديّة البتة.

لم يكن ثمة شعار مباشر يُدعى "الإدّغام" ويدعو إلى الذوبان في البيئة الروسيّة، كما لم تكن هناك دعوة إلى نفي الذات القوميّة، إنّما الإدّغام نفسه كان ظاهرة في الحياة اليوميّة ربطت اليهوديّة الروسيّة بمستقبل روسيا. على وجه العموم جادل سليوزبيرغ في مصطلح "مدّغم" نفسه. "لم يكن هناك ما هو أكثر تعارضاً مع الحقيقة" من الزعم بأنّ دعاة الإدّغام "عدُوا أنفسهم ... روس شريعة موسى". بل كان الأمر على الضدّ من هذا، "فالميل نحو الثقافة الروسيّة لم ينف التمسُك بتقاليد الثقافة اليهوديّة". لكنْ، بعد خيبة الثمانينيّات، "حدث انعطاف

جديّ في المزاج الاجتماعي لدى بعض جماعات المثقفين اليهود الذين كانوا قد أوغلوا بعيداً في مساعيهم الإدّغامية". "سرعان ما عزفت التنظيمات والأحزاب [اليهودية] كلّها عن الدعوة إلى الإدّغام. لكنْ ... على الرَّغم من سقوط الادّغام كنظريّة، إلاّ أنّه بقي عاملاً واقعيّاً في حياة اليهوديّة الروسيّة، على الأقل لدى جزئها الذي كان يعيش في المدن الكبرى". بيد أنّ القرار كان قد اتُخذ "بقطع الصّلة بين التحرّر ... و ... والإدّغام" أي تحقيق الأول وليس الثاني، تحقيق المساواة، لكنْ من غير خسارة اليهوديّة. ففي التسعينيّات باتت المهمة الرئيسة لمجلة "الشروق"، هي النضال من أجل مساواة اليهود في روسيا. لبلوغ هذه الغاية، أسس لفيف من أبرز المحامين والكتّاب الاجتماعيّين في بطرسبورغ مع بداية القرن العشرين، "مكتب حماية" اليهود في روسيا (قبل ذلك كان ينهض بهذه المهمة البارون غينتسبورغ وحده، فإليه كانت ترد شكاوى اليهود كلّها). يتحدَّث سليوزبيرغ عن مؤسّسيه بالتفصيل. ففي تلك السنين "استيقظت الروح اليهوديّة، ونهضت إلى النضال"، وعرف اليهود "نهوضاً عارماً في مستوى الوعي الذاتيّ الاجتماعيّ والقوميّ"، بيد أنَّ الوعي القوميّ لم يتخذ الآن شكلاً دينياً؛ لأن ندرة أماكن الهجرة، وهجرة الأثرياء ... والشباب إلى المدن ... والنزوع نحو المدنيّة"، هذا كله أدى في التسعينات، إلى تراجع مكانة الدين لدى أوسع فئات الشعب اليهوديّ، وتدني هيبة الرابينيّين ومكانتهم، بل حتى الإيشوب انخرطوا في حركة العولمة الدنيوية (لكنْ على الضدِّ من ذلك كله، يفيد كثير من السير التي ساقتها الموسوعة اليهوديّة الروسيّة عن جيل يهودِ أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، بأنَّ هؤلاء "تلقّوا التعليم الدينيّ اليهوديّ التقليديّ").

بالمقابل أخذ التيار الفلسطينيّ يتعاظم بغتة بقوة فاجأت كثيرين، واتخذ صيغة لم يكن يتوقعها أحد. ما حدث في روسيا عندئذٍ، إنْ في وعي اليهود الروس، أو في وعي الفئات الاجتماعيّة الروسيّة، ما كان له إلاّ أن يتلوَّن بالصبغة الأوروبيّة لتلك السنين: لقد عبر المزاج الأوروبيّ والأحداث الأوروبيّة، الحدود إلى

روسيا عبْر التواصل المباح عندئذٍ بين الفئات المثقفة. ويشير المؤرِخون الأوروبيّون إلى "معاداة الساميّة التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر كما إلى تعاظم كراهيّة اليهود في أوروبا الغربية، حيث كان قد ساد الظنُّ بأنّها تسير بخطى متسارعة نحو الزوال". حتى في سويسرا كان من الصعب على اليهود في أواسط القرن أن ينالوا حريّة الإقامة في كانتونات، أو حريّة ممارسة العمل التجاريّ والحرفيّ. في فرنسا انفجرت فضيحة دريفوس. وفي المجر "اتهمت الأرستقراطيا الزراعية القديمة اليهود بأنَّهم سبب الإفلاس الذي لحق بها"؛ واجتاحت النمسا وتشيكيا عند أواخر القرن التاسع عشر "موجة معاداة الساميّة"، أمَّا "البرجوازية الصغيرة ... فقد خاضت نضالها ضدَّ البروليتاريا الاشتراكيّة الديمقراطيّة تحت شعارات معادة الساميّة". وفي العام 1898م، وقعت في اليونان أعمال عنف دموية ضدَّ اليهود. لكنَّ تعاظم قوّة البرجوازيّة في كل مكان، أفضى إلى "تعاظم نفوذ اليهود الذين كانوا يحتشدون بأعداد كبيرة في العواصم والمراكز الصناعيَة ... ففي مدن مثل فيينّا وبودابست ... كانت أعداد اليهود بين الإعلاميين، والمسرحيين، والمحامين، والأطباء تفوق كثيراً نسبتهم في عدد سكان البلاد. عندئذٍ أيضاً بدأ اليهود التجّار والمصرفيون يجمعون ثروات مهولّة".

كراهيّة اليهود تجتاح أوروبا

في ألمانيا فاقت كراهيّة اليهود حدودها في أيّ مكان آخر، كانت بدايتها (1869م) مع ريهارد فاغنر؛ ثمّ لحقت به في السبعينيّات أوساط المحافظين والكهنوت الذين طالبوا بتقليص حقوق اليهود الألمان، ومنع هجرة اليهود إلى ألمانيا؛ وابتداء من السبعينيّات "شملت هذه الحركة أوساط المثقفين"، وقد عبّر عنها ودفع بها إلى أكثر صيغها عموميّة وشمولاً، المؤرخ البروسي البارز هنريخ فون - تريتشكيه: "لقد أدركت الحملة الدعائيّة الحاليّة كنه مزاج المجتمع الذي يرى في اليهود مأساتنا القوميّة، فاليهود عاجزون تماماً عن الاندماج بالشعوب الأوروبيّة الغربيّة، ولا يخفون كرههم للقوميّة الألمانية". ثمّ لحق به يفغيني دوهرينغ (المعروف جيداً بجداله مع ماركس وانغلز): "إنّ المسألة اليهوديّة هي بكل بساطة مسألة عرقيّة، واليهود ليسوا عرقاً غريباً عنّا فقط، بل هم عرق معاد لنا، عرق فاسد لا رجاء منه". كما أدلى بدلوه في هذه المسألة الفيلسوف إدوارد هارتمان. وفي الميدان السياسي أفضت هذه الحركة في العام 1882م، إلى عقد المؤتمر العالمي الأول لمعاداة اليهوديّة (في درسدن)، الذي أقرّ "بياناً إلى حكومات الدول المسيحية وشعوبها التي تتلفها اليهوديّة"، وطالب بطرد اليهود من ألمانيا. لكنْ، عند بداية التسعينيّات أخذ الضُعف يدبُّ في أوصال الأحزاب المعاديّة لليهوديّة، ومنيت بعدد من الهزائم السياسيّة.

أمّا فرنسا فلم تعرف مثل هذا الهجوم الأيديولوجي العرقي، لكنّها عرفت دعاية سياسيّة واسعة النطاق، معادية لليهوديّة، شنّها إدوارد دريومون (في "ليا ليبر بارول") ابتداء من العام 1892م، ثمّ ما لبث "أن ظهر تنافس حقيقي بين

الاشتراكيّة ومعاداة الساميّة. فلم يجد الاشتراكيّون حرجاً في أن يطعِّموا دعوتهم بكمٍّ كبير من الهجمات على اليهوديّة، وينحدروا إلى مستوى ديماغوجية معاداة الساميّة ... لقد غطّى ضباب معادة الساميّة الاشتراكيّ فرنسا كلّها" (كان يشبه كثيراً تحريض الشعبيّين الروس في الأعوام 1881 -1882م). وهنا بدأ منذ العام 1894م دويُّ فضيحة دريفوس. ثمَّ "مع حلول العام 1898م، بلغ العداء للساميّة في شتى أرجاء أوروبا الغربية حدَّ الهستيريا"، - في ألمانيا، وفرنسا، وبريطانيا، والولايات المتحدة الأميركية أيضاً.

كما ظهرت آراء مناهضة لليهوديّة في وسائل النشر الروسيّة إبّان السبعينيّات - التسعينيّات. بيد أنّها لم تبد تلك الصبغة النظرية الباردة التي ظهرت في ألمانيا، ولا تلك الأهواء الاجتماعيّة العاصفة التي ظهرت في النمسا - المجر وفرنسا. قصص فسيفولود كريستوفسكي ("الظلام المصري الدامس" وسواها)، والمقالات الصحفيّة الخشنة. لكنَّ صحيفة "الزمن الحديث" شكّلت في هذا السياق ظاهرة قائمة بذاتها، اكتسبت قوّة ونجاحاً بموقعها الفاعل عندئذٍ في "الحركة السلافية" التي كانت مرتبطة بالحرب الروسيّة - التركية في البلقان. لكنْ، حينما أخذت تتوارد من مسرح العمليات الحربية أنباء عن وحشيّة المموِّنين والمورِّدين"، "وبدا كما لو كان المورِّدون اليهود هم الذين يجسِّدون اليهوديّة الروسيّة"، أخذت "الزمن الحديث" تنهج نهجاً "معادياً للساميّة بوضوح"، ثمَّ "لم تكتف الصحيفة بالانتقال إلى معسكر الرجعيّة" منذ الثمانينيّات، بل تجاوزت الحدود كلّها في المسألة اليهوديّة، حتى وصلت ميدان الكراهية وقلّة الضمير"، فلأول مرة دوى من أعمدتها عويل الاستغاثة -"الجيد آتٍ". لقد ألحّت الصحيفة على ضرورة اتخاذ إجراءات حاسمة ضدَّ "استيلاء" اليهود على العلم الروسي، والأدب الروسي، والفنِّ الروسي ... كما كانت موضوعة "التهرُّب من الخدمة العسكريّة" واحدة من الموضوعات المحببة لدى الصحيفة.

الغريب أنَّ ظاهرة العداء لليهوديّة في داخل روسيا وخارجها، أقلقت فلاديمير سولوفيوف فأدانها: "لقد انطلق اليهود في تعاملهم معنا دائماً من تعاليم اليهوديّة؛ أمَّا نحن المسيحيِّين، فعلى الضدِّ منهم، لم نتعلَّم حتى الآن أن نتعامل مع اليهوديّة وفق تعاليم المسيحيّة"؛ "إنَّ العالم المسيحيّ بأكثريته الجماهيريّة أظهر حتى الآن في موقفه من اليهوديّة، إمَّا المغالاة في الغيرة، أو لامبالاة العاجز الهرم". لا، "ليست أوروبا المسيحيّة هي التي تتسامح مع اليهود، بل أوروبا الملحدة".

لقد لمس المجتمع الروسي تزايد أهمية المسألة اليهوديّة بالنسبة إلى روسيا متأخراً نصف قرن عن حكومته. فبعد حرب القرم فقط، "بدأ الرأي العام الروسيّ، الذي كان قد وُلد لتوه، يعي وجود المسألة اليهوديّة في روسيا". لكنْ كان ينبغي أن تمرَّ عقود أخرى قبل أن يُدرك أولوية هذه المسألة. فقد كتب فلاديمير سولوفيوف في العام 1891م يقول: "إنَّ العناية الإلهيّة أسكنت في وطننا الجزء الأكبر والأقوى من اليهوديّة". قبل عام واحد، أي في العام 1890م، وضع سولوفيوف نصَّ بيان "احتجاج" دفعه إليه تحريض المتعاطفين ودعمهم، وقد جاء فيه: "إنَّ السبب الوحيد لما يُسمى المسألة اليهوديّة هو إغفال العدالة ومحبة الإنسان"، وهذا "التعصُّب الأعمى للأنانية القوميّة". "إنَّ إثارة العداء القبلي والديني الذي يتعارض تعارضاً كلّياً مع روح المسيحيّة ... ويفسد المجتمع من جذوره، يمكن أن يؤدي إلى توحّشه أخلاقياً ...". "يجب أن ندين بشكل حاسم حركة العداء للساميّة، لو من باب إحساسنا بالحفاظ على وجودنا القومي".

بحسب رواية س. م. دوبنوف، إنَّ سولوفيوف جمع تواقيع أكثر من مئة شخصيّة، كان منهم ليف تولستوي، وكورولينكو. بيد أنَّ هيئات تحرير الصحف كلها تلقت تحذيراً بعدم نشر هذا الاحتجاج. عندئذٍ "توجَّه سولوفيوف برسالة حارة إلى الإسكندر الثالث". لكنَّهم حذَّروه عبر الشرطة، أنَّه إذا أصرَّ على موقفه، سيُلاحق إدارياً. فترك مشروعه. ومثلما كانت الحال في أوروبا كذلك في روسيا، لم يكن لتشعب مطامح اليهود وتعاظمها، إلاَّ أن يثيرا لدى

شرائح المجتمع الروسي أحاسيس متناقضة: القلق لدى بعضهم، والمعارضة الحادة لدى بعضهم الآخر، والتعاطف لدى بعضهم الثالث. بل أثار حسابات سياسية لدى آخرين. فكما رأى الشعبيّون في العام 1881م، إمكانية للحصول على منفعة من اللعب على المسألة اليهوديّة، كذلك الليبراليون -الراديكاليّون فيما بعد، وأدرك الجناح اليساري من المجتمع لزمن طويل، واستغلَّ كلَّ منفعة ممكنة من استخدام المسألة اليهوديّة كورقة سياسيّة لها شأنها في الصراع ضدَّ النظام القيصري: كان يستخدم الوسائل المتاحة كلّها ليؤلب ويوغر معلناً، إن مساواة اليهود في روسيا لا يمكن أن تتحقق إلاّ عبر الإطاحة بالنظام القيصري. فالليبراليّون والاشتراكيّون الثوريّون والبلاشفة استمالوا اليهود، بعضهم من منطلق التعاطف الصادق، لكنَّهم كلّهم رأوا فيهم ورقة رابحة في مواجهة النظام القيصري، ولم يتخلَّ الثوريون عن تلك الورقة الرابحة بعد ذلك، بل واصلوا استخدامها حتى العام 1917م. بيد أنَّ تلك الميول والمماحكات الاجتماعيّة - الصحفيّة كلّها، لم تتطرَّق البتة في تلك السنين، إلى الموقف الشعبي من اليهود في روسيا العظمى. وثمّة قرائن كثيرة تشهد على هذا.

فها هو يا. تييتل الذي قضى زمناً طويلاً في أعماق روسيا، وتواصل مع الفئات الشعبيّة مباشرة، شهد "أنَّ العداوة العرقيّة والقوميّة غريبة تماماً عن الفئات الشعبيّة البسيطة". كما تؤكّد مذكّرات أمراء آل فيازيمسك، أنَّ الفلّاحين لم يؤذوا الدكتور سميرنوف الذي كان يعمل في مشفاهم، في كوروبوفكا، دائرة أوسمانسك لجلافته، وحينما استُبدل به الدكتور المجدُّ الدؤوب شافران، حظي هذا بمحبّة كلّ المحيط الفلاحيّ وامتنانه. من تجربته في الأشغال الشاقة إبّان الثمانينيّات - التسعينيّات، يؤكّد ب. ف. يعقوبوفيتش - ميلينين، أنَّ "مجرَد البحث عن وجود أيِّ نزعات معادية للساميّة، حتى لدى حثالة فئاتنا الشعبية، يُعدُّ عملاً لا أخلاقياً". انطلاقاً من هذا اليقين بعدم وجود مثل هؤلاء، أرسل يهود دائرة بيلوروسيا في أوائل القرن رسالة إلى التاجرة المحسنة م.

وأُقصي من هذا كل الجذر المعجمي بين كلمتي: "جيفالو" [أي "دبُّور". ــح. إ.] و"جيد" [أي "يهودي". ــح. إ.]). لكنَّ اختيار التعابير التي ساقها دال يحتوي على شيء من اللغة الكنسية -السلافية التي لم يكن فيها لكلمة "جيد" أيُّ مغزى سلبي، إنَّما كانت مجرَّد دلالة على عرق؛ كما كان فيه أيضاً بقايا من الممارسة الاجتماعية في إقليم الاستيطان اليهودي إبَّان القرون البولونية، وبعد القرون البولونية، وفيه أيضاً تحيل على فتنة القرن السابع عشر ففي روسيا العظمى نفسها لم يكن عندئذٍ ثمّة تواصل يُذكر مع اليهود. وقد انعكس هذا الإرث كلّه في الأمثال التي ساقها دال، مع أنّه أوردها بالكتابة الروسيّة إلاّ أنَّ منشأها الجنوبي الغربي غالباً ما يمكن تخمينه. (فهي على أيِّ حال لم تولد من رحم وزارة الداخلية الروسيّة). لكنْ، كم من الأمثال والمقارنات العدائية الشائعة في الأوساط الشعبيّة عن الكهنوت الأرثوذكسي!

ثمة شاهد من ماريوبوليس (ليس وحيداً بالتأكيد) يروي: إنَّهم قبل الثورة كانوا يفرِّقون بدقة بين "اليهودي والجيد". فاليهودي مواطن يحترم القوانين، ولا يختلف في سلوكه اليومي، وموقفه من الناس عن الوسط المحيط. أمَّا "الجيد" فهو أفَّاك، سلاَّب، نهَّاب. وقد نسمعهم يقولون: "أنا لست جيداً، أنا يهوديٌّ شريف، أنا لن أخدعكم" (كما نقرأ في الأدب مثل هذه التصريحات على لسان يهود؛ وقد قرأنا ما يشبه هذا في منشور الشعبيّين).

غنيٌّ عن البيان القول: إنَّه ينبغي أن يؤخذ هذا التفريق المعنوي بعين الحسبان لدى تقويم الأمثال. ولم يكن هذا كله سوى بقايا التفرقة القوميّة التي كانت سائدة في أزمنة قديمة على أراضي غربي روسيا، وجنوب غربيّها. لكنْ، في وسط روسيا، وشماليها، وشرقيها، لم تقع أعمال عنف ضدَّ اليهود حتى إبَّان الزلزال الشعبي الذي وقع في تشرين الأول من العام 1905م (لقد وقعت مثل هذه الأحداث ضدَّ المثقفين الثوريين على وجه العموم، بسبب ازدرائهم وسخريتهم من بيان 17 تشرين الأول). لكنَّ روسيا قبل الثورة، - روسيا وليس الإمبراطورية -وُصمت

وأُقصي من هذا كل الجذر المعجمي بين كلمتي: "جيفالو" [أي "دبُور". —ح. إ.] و"جيد" [أي "يهودي". —ح. إ.]). لكنَّ اختيار التعابير التي ساقها دال يحتوي على شيء من اللغة الكنسية -السلافية التي لم يكن فيها لكلمة "جيد" أيُّ مغزى سلبي، إنّما كانت مجرّد دلالة على عرق؛ كما كان فيه أيضاً بقايا من الممارسة الاجتماعية في إقليم الاستيطان اليهودي إبَّان القرون البولونية، وبعد القرون البولونية، وفيه أيضاً تحيل على فتنة القرن السابع عشر ففي روسيا العظمى نفسها لم يكن عندئذٍ ثمّة تواصل يُذكر مع اليهود. وقد انعكس هذا الإرث كلّه في الأمثال التي ساقها دال، مع أنّه أوردها بالكتابة الروسيّة إلاَّ أنَّ منشأها الجنوبي الغربي غالباً ما يمكن تخمينه. (فهي على أيِّ حال لم تولد من رحم وزارة الداخلية الروسيّة). لكنْ، كم من الأمثال والمقارنات العدائية الشائعة في الأوساط الشعبيّة عن الكهنوت الأرثوذكسي!

ثمة شاهد من ماريوبوليس (ليس وحيداً بالتأكيد) يروي: إنَّهم قبل الثورة كانوا يفرِّقون بدقة بين "اليهودي والجيد". فاليهودي مواطن يحترم القوانين، ولا يختلف في سلوكه اليومي، وموقفه من الناس عن الوسط المحيط. أمَّا "الجيد" فهو أفَّاك، سلاَّب، نهَّاب. وقد نسمعهم يقولون: "أنا لست جيداً، أنا يهوديٌّ شريف، أنا لن أخدعكم" (كما نقرأ في الأدب مثل هذه التصريحات على لسان يهود؛ وقد قرأنا ما يشبه هذا في منشور الشعبيّين).

غنيٌّ عن البيان القول: إنَّه ينبغي أن يؤخذ هذا التفريق المعنوي بعين الحسبان لدى تقويم الأمثال. ولم يكن هذا كله سوى بقايا التفرقة القوميّة التي كانت سائدة في أزمنة قديمة على أراضي غربي روسيا، وجنوب غربيّها. لكنْ، في وسط روسيا، وشماليها، وشرقيها، لم تقع أعمال عنف ضدَّ اليهود حتى إبَّان الزلزال الشعبي الذي وقع في تشرين الأول من العام 1905م (لقد وقعت مثل هذه الأحداث ضدَّ المثقفين الثوريين على وجه العموم، بسبب ازدرائهم وسخريتهم من بيان 17 تشرين الأول). لكنَّ روسيا قبل الثورة، - روسيا وليس الإمبراطورية -وُصمت

أمام العالم كلّه بأنّها عدوانية ودموية؟! بينما لم تتفجر أعمال العنف ضدّ اليهود إلاّ في جنوب غربي روسيا فقط (كما ظهر هذا جلياً في العام 1881م). على هذا النحو نفسه كانت مجازر كيشينيوف في العام 1903م.

ولن نغفل الإشارة إلى أنّه في ظل حالة الجهل العامة التي كانت متفشّية في أوساط سكان بيسارابيا كلّها، كان يعيش في كيشينيوف: خمسون ألف يهودي، و خمسون ألف مولدافي، وثمانية آلاف "روسي" (جلُّهم من الأُوكرانيين، لكنَّهم لم يكونوا عندئذٍ يفرِّقون بين الشعبين)، وعدد آخر من الأقوام الأخرى. "كانت القوة الأساس في أعمال العنف ضدّ اليهود، تتألَّف من المولدافيين".

مجزرة كيشنيوف وتداعياتها

في السادس من نيسان من العام 1903م، بدأت في كيشينيوف، أعمال العنف ضدّ اليهود في آخر أيام الفصح اليهودي، وأول أيام الفصح المسيحي. (ليست المرة الأولى التي نلتقي فيها هذه الصلة التراجيديّة بين مجازر اليهود والفصح المسيحي، فعلى هذا النحو كانت الأُمور في العام 1881م و1882م، وفي نيقولاييف في العام 1899م، - ولهذا مرارته الخاصّة).

فلنستعن بالوثيقة الوحيدة التي وُضعت على أساس دراسة دقيقة اقتفت أثر الأحداث مباشرة، ونحن نعني هنا، محضر الاتهام الذي وجّهه النائب العام في المحكمة المحلّيّة ف. ن. غوريميكين "الذي لم يستدع في هذه الدعوى أيَّ يهودي بصفة متهم، ما أثار ضدَّه سيلاً من الاتهامات الحادة التي رماه بها الإعلام الرجعي" (وكما سنرى، فقد كانت جلسات المحكمة في بادئ الأمر سرية كي "لا تُنكأ الأهواء"، وقد نُشر المحضر لأوّل مرة خارج البلاد، في صحيفة "التحرير" التي كانت تصدر في شتوتغارت).

يبدأ المحضر من "الصدامات المعتادة التي كانت تقع دائماً بين اليهود والمسيحيين على مدى السنوات الماضية في عيد الفصح"، كما يشير إلى "نفور السكان المسيحيّين المحليّين من اليهود". "وها هي شائعات ضرب اليهود المعتاد في الأعياد المقبلة، تنتشر في كيشنيوف قبل نحو أسبوعين من الفصح". وقد أدَّت صحيفة "البيسارابي" دور المحرِّض على ذلك (كان رئيس تحريرها عندئذ المدعو كروشيفان)، إذ نشرت "خلال الآونة الأخيرة مقالات يوميّة تبثُّ روح العداء لليهودية، ولم تبق هذه من غير أثر في أوساط سكان بيسارابيا ... في صفوف

الباعة، صغار الكتبة، وما شابه من الفئات السكانيّة ذات المستوى الثقافي المتدني. كانت آخر المقالات الاستفزازية التي نشرتها صحيفة ''البيسارابي''، أخباراً عن جريمة قتل فتى مسيحيّ في قرية دوبوسّاراخ، اتُّهم اليهود بارتكابها لغرض إعداد فطير صهيون". (عدا عن شائعة مقتل فتى دوبوسّاراخ المسيحيّ، انتشرت شائعة أخرى عن قتل يهود خادمتهم المسيحية التي تبيّن بعد ذلك أنّها انتحرت).

فما الذي فعلته شرطة كيشينيوف؟ "لم تلق بالاً للشائعتين المذكورتين"، وعلى الرّغم من أنّ "اشتباكات كانت تقع باستمرار بين السكان اليهود والمسيحيين في وقت الفصح، إلاّ أنّ شرطة كيشينيوف لم تتخذ أيَّ إجراءات احترازية استثنائية"، كلُّ ما فعلته أنّها كثّفت من حضور القوات في الأماكن التي يُتوقع أن يحتشد فيها العدد الأكبر من الناس في أيام العيد"، فاستعانت بقوات الحامية العسكرية المحلية. ولم يُعط رئيس الشرطة تعليمات كافية وواضحة لضباط الشرطة. كان ذلك هو الخطأ الفادح، ففي كلّ عام كانت تقع الاشتباكات في عيد الفصح، زد إلى هذا أنّ هذا العام عرف الشائعات كما أشرنا، والشرطة غافلة. وهو دليل آخر على خمول جهاز الدولة الهرم. إمّا بات عاجزاً عن الحفاظ على الإمبراطورية (فكم من الحروب خيضت وكم من الجهود بُذلت، لماذا؟ لضمِّ مولدافيا إلى روسيا!)، أو لم يعد قادراً على أن يحافظ على الأمن فيها. ففي السادس من نيسان نزل الشعب إلى الشوارع ليحتفل بالفصح، كان ثمة كثير من المراهقين، في الساعة الرابعة كان بين الحشود سكارى. هنا أخذ الفتيان يرمون نوافذ منازل اليهود القريبة بالحجارة، ثم تزايد الشغب، وعندما تحرّشوا باليهود الذين كانوا على مقربة، حاولوا الإمساك بأحدهم، فانهالت عليهم الحجارة. وما لبث الرجال أن ظهروا في المكان. فأدّى تقاعس الشرطة عن اتخاذ إجراءات فورية حاسمة لوضع حدٍ للشغب، إلى تدمير حانوتين لليهود، وعدة أكشاك. عند المساء تراجعت حدة الصدامات، لكنّ أيّ

اعتداء شخصي على أيِّ يهودي لم يقع في هذا اليوم"، واعتقلت الشرطة 60 شخصاً.

لكنْ "مع صباح 7 نيسان هاج السكان المسيحيّون وأخذوا يتجمعون في مختلف أرجاء المدينة، وعلى أطرافها، جماعات جماعات دخلت مع اليهود في صدامات ما لبث أن اكتسبت طابعاً أخذت حدّته تتزايد". ومنذ الصباح أيضاً، تجمَع في البازار الجديد "أكثر من مئة يهودي مسلحين بالهراوات، والرماح، وبعض الأسلحة النارية التي كانوا يطلقون النار منها بين وقت وآخر"، بينما لم يكن لدى المسيحيين أسلحة نارية. فقال اليهود: "بالأمس لم تفرقوا الروس، واليوم سندافع عن أنفسنا بأيدينا". كان بعض اليهود يحملون زجاجات معبأة بحمض الكبريت رشقوا المارة المسيحيين بها" (كانت الصيدليات تقليدياً بين أيدي اليهود). "سرعان ما طارت في مختلف أرجاء المدينة شائعات اعتداءات اليهود على المسيحيين، وبينما تتناقلها الألسنة، كانت تتضخم أكثر فأكثر، ففاقمت سخط المسيحيّين": "برّحوهم ضرباً"، نقلوها "قتلوهم"، وزعموا أنَّ اليهود نهبوا الدير القديم وقتلوا الكاهن فيه. "فسارت في مختلف أرجاء المدينة جماعات كثيرة في كلٍ منها 15 -20 مسيحياً من العمال، وأمام كل جماعة فريق من الفتيان يرمون الحجارة على نوافذ منازل اليهود ويصرخون، ثمَّ بدأ تدمير دكاكين اليهود ومنازلهم ومساكنهم في كل مكان، وإتلاف محتوياتها. ثمَّ التحق بتلك الجماعات فريق كبير من المحتفلين بالعيد" فتزايدت أعدادها. وعند الساعة 2 -3 "كانت الفوضى قد عمَت شطراً كبيراً من المدينة"؛ "لم يؤذ المخربون المنازل التي كانت قد عُلّقت على نوافذها أيقونات وصلبان". في المنازل التي "طالها التخريب أُتلفت محتوياتها في الحال"، أمّا البضائع التي رُميت إلى خارج الحوانيت، "فقد دُمر بعضها في المكان وسرق الباقي أولئك الذين كانوا يرافقون المخربين". ووصل الأمر حدَّ "تدمير بيوت العبادة اليهوديّة، ورميت منها الكتب المقدسة ممزَّقة إلى الشارع". ومن البديهي أنَّ الدمار طال محال بيع

المشروبات الكحولية، "فأُريق قسم من الخمر في الشارع، واستهلك المخربون ما تبقى منه في المكان".

"بسبب سوء تدبير الشرطة التي كانت تفتقر إلى الإدارة الحازمة، اقتُرفت هذه القبائح كلها من غير أن يلقى مقترفوها العقاب الواجب، وهو ما أفضى إلى تشجيع المخربين على المضي في غيِّهم ... لقد أدى افتقار موظفي الشرطة لقيادة كفء، إلى تضارب التعليمات التي كانت تصدر عنهم، فكلٌّ منهم كان يمثل نفسه، ويعمل حصراً وفق رؤيته ... في نهاية المطاف بقي صغار رجال الشرطة في أكثر الحالات، مجرَّد مراقبين خرس لأعمال العنف الجارية". والحقيقة أنَّهم استدعوا بالهاتف وحدات عسكرية من الحامية المحلية، بيد أنَّها "في كلِّ مرة كانت تصل إلى الموقع المعيَّن متأخرة" "، ولأنَّه لم تكن لديها تعليمات بخصوص التحركات التالية، فقد بقيت في مواقعها من غير فائدة"، "مبعثرة في شتى أرجاء المدينة من غير هدف محدَّد، ولا اتصال مع قياداتها"، "كلُ ما كان يفعله أفراد هذه الوحدات، هو تفريق الحشود الهائجة" (كانت الحامية قليلة الأهمية من حيث نوعيتها، علاوة على ذلك كان كثير من ضباطها وجنودها في إجازة الفصح). "لقد أفضى سوء تدبير الشرطة إلى إذاعة شائعات جديدة تحدثت عن سماح الحكومة بضرب اليهود أينما كانوا؛ لأنَّهم أعداء الوطن"، فزادت أعمال العنف ضراوة. "خوفاً على أرواحهم وأرزاقهم، فقدَ اليهود السيطرة على أنفسهم، وجنَّ جنونهم من الخوف ... فتسلَّح بعضهم بالمسدسات لحماية أنفسهم، وراحوا يُطلقون النار على المهاجمين: من وراء الزوايا والأسيجة، ومن فوق شرفات المنازل ... عشوائياً من غير أيِّ مهارة، لذلك لم تقدِّم لهم تلك الطلقات أيَّ عون"، لكنَّها أثارت في المهاجمين "انغماساً وحشياً في العربدة. فقد تحولت حشود المهاجمين إلى قطعان من الوحوش اقتحمت كل مكان انطلق منه الرصاص، وجعلت كل ما فيه هباء، وتعاملت بمنتهى العنف مع اليهود الذين أدركتهم هناك". لكنَّ "الخطيئة القاتلة التي حلَّت على اليهود خراباً، كانت طلقة أصابت الفتى الروسي

أُوستانوف فقتلته". ففي الساعة 1 -2 ظهراً "اتخذ العنف ضدَّ اليهود طابعاً أقسى فأقسى"، وابتداء من الساعة الخامسة مساء، ترافقت أعمال العنف بسقوط "عدد من الضحايا اليهود".

في الساعة الثالثة والنصف ظهراً كان المحافظ فون - رآبين قد ارتبك نهائياً، فسلَّم القيادة إلى قائد الحامية العسكرية الجنرال بيكمان، "ومنحه صلاحية استخدام السلاح". فقسم بيكمان المدينة من فوره إلى قطاعات وأخذ يحرِك القوات التي كانت قبل ذلك "قد انتشرت عشوائياً في أرجاء المدينة". "ابتداء من تلك اللحظة أخذت القوات العسكرية تعتقل مثيري الشغب جماعات جماعات"، واتخذت تدابير حازمة ضدَّهم. مع هبوط الليل تراجعت حدة أعمال العنف في المدينة.

وقد أورد محضر الاتهام حصيلة الضحايا. "لقد عُثر على 42 جثة، 38 منها ليهود"؛ "واكتشفت على الجثامين كلها آثار ضربات أدوات صلبة: هراوات، حجارة، مجارف، وبعضهم ضُرب بفؤوس حادة"؛ كانت هذه الأذيات كلها تقريباً" في الرأس، كما تعرضت "الأجساد لضرب مبرح. ولم يُعثر على آثار جراح تسببت بها أعيرة نارية. كما لم يُعثر على ما يشير إلى أنَّ الجثث تعرضت للتعذيب، أو مُثِل بها، وهو ما أكدته تقارير الكشوفات الطبية، تقارير تشريح جثث القتلى، شهادات الأطباء الذين أجروا الكشوفات وشرَّحوا الجثث"، "وتقرير القسم الطبي في إدارة المحافظة"؛ أمَّا "عدد الجرحى فقد بلغ 456 جريحاً كان منهم 62 جريحاً مسيحياً ... 8 منهم بطلق ناري ... وبين 394 جريحاً [هم الجرحى اليهود]، كانت جراح خمسة منهم خطيرة؛ أمَّا الباقي فكانت جراحهم طفيفة. ولم يُعثر على أيِّ أثر يدل على أنَّ أحداً تعرَّض للتعذيب، إلاَّ يهودياً واحداً كان أعور أصلاً، فسملوا له عينه الأخرى ... كان ما يقارب $\frac{3}{4}$ المصابين من الرجال، ما عدا بعض الاستثناءات التي كان المصابون فيها من القصَّر. وقد بُلِّغ عن ثلاث حالات اغتصاب نُظِّم باثنتين منها محضر اتهام". كما أُصيب في

الأحداث سبعة من الجنود كانت إصابة أحدهم "حروقاً في الوجه بحمض الكبريت"؛ وتعرَّض 68 شرطياً لإصابات طفيفة. "ودُمِّر حوالي 1350 منزلاً، أي أقل بقليل من ثلث" منازل كيشينيوف كلها، هذا يعني دماراً رهيباً لا يتسبب به إلاّ القصف الناري ... "ودُمِّر من حوانيت اليهود قرابة 500 حانوت". "في صباح التاسع من نيسان كان عدد المعتقلين قد بلغ 816 شخصاً"؛ ما عدا التحقيقات في حالات القتل، وُجهت اتهامات جنائية إلى 664 شخصاً.

لكنَّ تقدير خسائر اليهود تختلف لدى مؤلِّفين آخرين، عن التقديرات الرسمية، بيد أنَّ الاختلاف بين المصدرين ليس كبيراً. يحدِّد "كتاب اليهوديّة الروسيّة" عدد القتلى من اليهود بخمسة وأربعين قتيلاً و86 جريحاً جراحهم بالغة، و1500 منزل ومخزن نُهبت أو دُمرت. ويذكر إ. بيكرمان 53 قتيلاً قد لا يكونون من اليهود فقط. وتورد الموسوعة اليهوديّة المعاصرة (1988م): "49 قتيلاً، و586 جريحاً، و1500 منزلاً وحانوتاً يهودياً مدمَّراً".

تلك هي التقديرات الرسمية تقريباً. لكنْ دعونا نرى ما الذي يختبئ وراءها. "فليهودي واحد فقط، وكان أعور" سملوا له عينه الأخرى. نقرأ عنه لدى كورولينكو (في مختصر "المنزل رقم 13") ما يلي: كان ذلك البائس يُدعى ميئير فيسمان. "عندما سألته عمَّا إذا كان يعرف من فعل به ذلك، أجابني ببرود تام: إنَّه لا يعرف على وجه اليقين، لكنَّ "أحد الفتيان"، ابن جاره، تفاخر بأنَّه هو من فعل ذلك برمَّانة حديدية مربوطة إلى حبلٍ". يتضح مما ساقه كورولينكو، كما من المحضر الرسمي، أنَّ القتلة والمقتولين كان بعضهم يعرف بعضاً معرفة جيدة. كانوا يقتلون معارفهم إذن.

يقول كورولينكو معقباً: "صحيح أنَّ هذا كله يعتمد على شهادات اليهود، بيد أنَّه ليس ثمة ما يسوِّغ الشك في صحتها ... هل كان هناك فرق بالنسبة إلى اليهود من الذي كان يقتلهم؟ وما الفائدة من اختلاق التفاصيل؟ ..." ماذا كان سيستفيد أقارب بنتسيون غالانتر الذي أُشبع ضرباً على رأسه حتى مات، لو

أضافوا على روايتهم أن القتلة دقوا مسامير في جثّته؟ لا، لم يختلقوا مثل هذا الاختلاقات؛ أو، ألم يكن يكفي أقارب المحاسب نيستزون مرارة كي يضيفوا إلى مأساة مقتله كيف "شطفوه" في البركة قبل أن يقتلوه؟ كفى. إنّهم لم يختلقوا أيَّ شيء من هذا. لكنَّ المتحكمين بالرأي العام الذين كانوا بعيدين عن مسرح تلك الأحداث، لم تكفهم تلك الأهوال الرهيبة. بل على الرَّغم من تلك الرزايا والمآسي الإنسانية، على الرَّغم من الموت المنتشر في كل مكان، إلاّ أنَّهم كانوا مشغولين بالدرجة الأولى بالبحث عن أكثر السبل فعالية لتوجيه طعنة إلى السلطة القيصرية. فلجأوا إلى المبالغات الاستفزازيّة التي تشعل مزيداً من النيران. في تخطيهم للمشاعر البشرية، والبحث في فبركات الأشهر، وربما السنوات التالية، بدوا كأنَّهم يقللون من شأن تلك التراجيديا، ويثيرون ردود أفعالٍ أكثر عنفاً. بيد أنَّ تحليل ما جرى كان ضرورياً لأنَّ أعمال العنف التي وقعت في كيشينيوف، استُخدمت ذريعة لوصم روسيا إلى الأبد. في يومنا هذا ينبغي على أيِّ عمل تاريخي جديٍّ أن يميز بين الحقيقة الرَّهيبة التي وقعت في كيشينيوف، والبهتان القذر المتداول عنها اليوم.

لقد جاء في خاتمة محضر الاتهام أنَّ القلاقل التي وقعت "لم تبلغ ما بلغته إلاّ بسبب سوء تدبير قوات الشرطة التي لم تكن قيادتها مؤهلة ... فلم تنجح التحقيقات الأولية في العثور على معطيات كان يمكن أن تبين أنَّ القلاقل التي وقعت كانت مدبَّرة، مبيتة من قبل". كما لم تتوصل التحقيقات التي جرت بعد ذلك إلى أيِّ قرائن تشير إلى ذلك.

لكنَّ "مكتب الدفاع عن اليهود" في بطرسبورغ (كانت تشارك في أعماله شخصيات نافذة: م. فينافير، غ. سليوزبيرغ، ل. كوليشير، أ. براودو، س. بوزنير، م. كرول)، كان له موقف مغاير تماماً، فما إنْ وصلت إليه أخبار ما وقع في كيشينيوف حتى استثنى أيَّ أسباب ممكنة ما عدا وجود مؤامرة كبرى: "من أعطى الأمر بتنظيم المجزرة، من كان يوجِّه قوى الظلام التي نفَذتها؟" "ما إنْ

علمنا بمعطيات الوضع الذي وقعت فيه مجزرة كيشينيوف، حتى بات واضحاً لنا أنَّ هذا التدبير الشيطاني ما كان ليتحقق أبداً لو لم يكن قد خُطِّط له في قسم الشرطة، ونُفِّذ بأمر صادر من هناك". فقد كتب م. كرول هذا نفسه في أربعينات القرن العشرين يقول: مع أنَّ "أولئك الأنذال دبَّروا مجزرة كيشينيوف بسريّة فائقة، إلاّ أنَّنا كنَّا على قناعة راسخة بأنَّ الإعداد لتلك المجزرة كان قد جرى في الدوائر العليا، بمعرفة بليفيه، وربما بإيعاز منه، لذلك كان بإمكاننا أن ننزع القناع عن أولئك القتلة الذين كانوا يشغلون مناصب رفيعة، ونضعهم على حقيقتهم تحت الضوء أمام العالم كله، فقط لو نستطيع أن نحصل على أدلَّة قاطعة ضدَّهم. فقرَّرنا أن نرسل المحامي المعروف زارودني إلى كيشينيوف". "كان زارودني الشخص الأصلح لتأدية المهمة التي عهدنا بها إليه". "فأخذ يكشف أسرار القوى المحرِّكة لمجزرة كيشينيوف"، التي "ألقت الشرطة بعدها القبض على عدة عشرات من اللصوص والمشرَّدين لتحوِّل الأنظار" عن وقائع الجريمة (نذكِّر أنَّه في اليوم الذي تلا أعمال العنف أُلقي القبض على 816 شخصاً). فقد جمع زارودني "مادة في غاية الأهمية" وحملها معه من كيشينيوف؛ فتبيَّن "أنَّ المسؤول الرئيس عن تنظيم المجزرة هو ليفيندال، قائد حامية كيشينيوف"، وضابط الشرطة الذي صدر تعيينه في كيشينيوف قبل وقت قليل من وقوع المجزرة؛ "فبناءً على أمرٍ صادر عنه قدَّمت الشرطة والوحدات العسكرية الدعم للقتلة واللصوص". لقد "عطَّل ليفيندال عملياً إجراءات المحافظ كلِّها، ولم يُبقِ له أيَّ دور" (مع أن الشرطة في روسيا لم تكن خاضعة لقيادة الحاميات، فما بالك بقوات الجيش).

لكنَّ هذه "المادة الشديدة الأهمية" التي كشفت عن المذنبين "بمنتهى الوضوح"، لم تُنشر عندئذٍ، ولا فيما بعد. لماذا؟ كيف نجح ليفيندال ومرؤوسوه في تفادي العقاب والعار؟ وفق الروايات التي رويت عن تلك المادّة نفسها، أنَّ أحد التجار (المدعو برونين)، بل وأحد موثِّقي العقود (المدعو بيسارجيفسكي)، "أخذا

يلتقيان في حانة معيَّنة"، ويدبران على حدّ زعمهم، للمجزرة تنفيذاً لتعليمات ليفيندال. بعد تلك الاجتماعات حسمت الشرطة والحامية أمرهما على تنفيذ المجزرة. لكنْ، عندما حقق النائب العام غوريميكين في الاتهامات الموجَّهة إلى ليفيندال، وجد أنَّها باطلة ولا أساس لها من الصحة (أمَّا كروشيفان الذي كان لمقالاته النارية دور حقيقي في إشعال غضب الناس وحصول المجزرة، فبعد شهرين وجَّه له بنحاس داشيفسكي طعنة خنجر في بطرسبورغ، فجرحه لكنَّه لم ينجح في قتله). في تلك الأثناء كانت السلطات تُجري تحقيقات مكثَّفة. فأُرسل رئيس دائرة الشرطة أ. أ. لوبوخين إلى كيشينيوف على وجه السرعة (كانت مواقفه الليبرالية قد وضعته بالنسبة إلى الرأي العام خارج دائرة الشبهات). فعُزل حاكم المقاطعة فون - رآبين مباشرة، كما عُزل عدد آخر من كبار موظفي مقاطعة بيسارابيا، وعُيِّن الأمير الليبرالي أُوروسوف حاكماً جديداً عليها (بعد وقت قصير سيوقع عضو حزب الكاديت البارز "نداء فيبورغسك" إلى العصيان). أمَّا مجلة "الأخبار الحكومية"، فقد نشرت في عددها الصادر في 29 نيسان، منشور وزير الداخلية بليفيه الذي أثار تقاعس سلطات كيشينيوف اشمئزازه. فقد أمر فيه حكام المقاطعات والمدن كلهم، وقادة الشرطة باستخدام الوسائل الضروريّة كلِّها لوضع حدٍّ نهائي لأعمال العنف.

والكنيسة الأرثوذكسيّة بدورها لم تقف صامتة. فقد أصدر السينودوس المقدَّس منشوراً عمومياً دعا فيه رجال الدين لاتخاذ التدابير الضرورية لاستئصال الكراهية ضدَّ اليهود، ووضع حدٍّ لمعاداتهم. كما توجَّه عدد من البطاركة، بمن فيهم الوافر الاحترام او. يوحنا كرونشتادسكي، برسالة إلى السكّان المسيحيّين يشجبون فيها ما وقع، ويعظونهم، ويدعونهم إلى التهدئة: "لقد أقاموا بدل عيد المسيح عيداً للشيطان قتلوا فيه وعربدوا". كما أعلن الأُسقف أنطونيوس (خرابوفيتسكي): "سينال عقابُ الرب الرهيب أولئك المجرمين الذين سفكوا دماً ينتمي إليه ابن الرب، ووالدته الطاهرة النقية، والرسل والأنبياء"؛ "لو

تعلمون كم هي عزيزة على روح الربّ قبيلة اليهود التي نبذتموها اليوم، كم يبغض الربّ كلّ من يريد بها شراً". ثمَّ وُزعت على السكان آلاف المناشير التي كانت تحمل هذه الرسالة (لكنَّ التأويلات الكنسية المسهبة حافظت على الموروث القديم الراسخ عبر القرون، ولم تترك لها خطورة الأحداث فرصة للنجاح).

في وقت مبكر من شهر أيار، بعد مرور شهر على الأحداث، اشتعلت حول المجزرة حملة دعائية صحفية شملت الإعلام الروسي والإعلام الأوروبي والأميركي. ففي بطرسبورغ أخذت المقالات الصحفية المغرضة تُعلن عن قتل النساء والأطفال الرُضّع، وكثرة كثيرة من حوادث اغتصاب القاصرات، والنساء، والزوجات على مرأى من أزواجهنَّ أو والديهنَّ؛ كما نشرت أخباراً عن قطع ألسنة. "لقد بقروا بطن أحد اليهود وانتزعوا أحشاءه ... دقُّوا مسماراً في رأس إحدى اليهوديات عبر" أنفها. ولم ينقض أسبوع واحد حتى نشرت صحف الغرب هذه التفاصيل التي تقشعرُ لها الأبدان. فصدّقها الرأي العام الغربي من غير أيِّ تحفظات، وحملت الشخصيات اليهوديّة البارزة في إنكلترا هذه الأخبار المفزعة على محمل الجدّ، وأدرجتها في احتجاجها العلني. ونحن نكرر هنا ما كنَّا قد نوَّهنا إليه من قبل: "لم يُعثر على أيِّ أثر لتعذيب الضحايا أو التمثيل بجثثهم". بسبب موجة المقالات الجديدة قدَّم الأطباء شهادات إضافية. فطبيب المدينة فرينكل (كشف على جثامين الضحايا في مقبرة اليهود)، وطبيب الصحة تشوربا (استقبل الجرحى والقتلى في المشفى الحكومية في كيشينويف منذ الساعة الخامسة من مساء ثاني أيام الفصح، حتى الساعة 12 من صباح ثالث أيام العيد، ثم أخذ يستقبلهم بعد ذلك في المشفى اليهوديّة)، وطبيب المدينة فاسيليفيتش (شرَح 35 جثة وعاينها)، قرَّر كلٌّ منهم أنَّ المعاينة والتشريح لم يُظهرا أيَّ علامات تشير إلى تعذيب الضحايا أو التمثيل بجثثهم، كما تروِّج وسائل الإعلام. ثمَّ تبيَّن في المحكمة أنَّ الطبيب الشاهد دوروشيفسكي (الذي قيل إنَّه هو من أعطى مثل هذه المعلومات الصادمة)، لم ير بأُمِّ عينه أيَّ فظاعات كانت، وأنكر كلَّ صلة

له بظهور تلك المقالات الفاضحة. أمّا النائب العام في محكمة أوديسا، فقد أجاب على سؤال لوبوخين عن حالات الاغتصاب قائلاً: "لقد أجريت بنفسي تحقيقات سرية" وبحسب اعترافات الأقارب أنفسهم لم يتأكّد حصول أيّ حالة اغتصاب. إنّ الحالات المحدّدة التي تناولها التحقيق تمّ نفيها إيجاباً. لكنْ، ماذا عن المعاينات وخلاصات الأطباء؟ من يهتمّ بالحالات المحدّدة التي حقق فيها النائب العام؟ فليبقها لتصفرّ في ملفات مكتبه.

إنّ كلّ ما لم يؤكده الشهود، ولم يكتب عنه كورولينكو، لم يخطر للسلطات أن تدحضه أيضاً. فانتشرت هذه التفاصيل كلها في شتى أرجاء العالم، وتحوّلت في أوساط الرأي العام إلى حقيقة ناءت بثقلها على اسم روسيا خلال القرن العشرين كله، وربما القرن الحادي والعشرين أيضاً.

وها هي روسيا تعاني منذ سنوات غير قليلة، وتزادا معاناتها عاماً بعد عام من تفكّك "المجتمع" والدولة، وهو ما يُنذر بخطر رهيب قاتل. في هذا الصراع كانت الأوساط الليبراليّة الراديكاليّة، فما بالك بالأوساط الثوريّة، المتعطشة لأيّ واقعة (أو اختلاق) يُلحق العار بالحكومة، كانت كلّ مبالغة، كل تزييف، وكل تشويه مباحاً، شريطة أن يُلحق العار بالحكومة. لذلك كانت مثل تلك المجزرة بالنسبة إلى الراديكاليّين الروس حدثاً سعيداً في الصراع ضدّ الحكومة! عندئذٍ منعت الحكومة الصحف من نشر أيّ شيء عن المجزرة بذريعة أنّ هذا يزكي نار العداء والبغض، مرّة أخرى كانت هذه الخطوة خطوة خرقاء؛ فقد تلقفت أوروبا وأمريكا تلك الشائعات والافتراءات وضخّمتها بشكل لا مثيل له، وزعموا هناك أنّه لا وجود لأيّ محاضر اتهام أصلاً، وأنّ الشرطة لم تحقّق في الأحداث، ولم تولها أيّ اهتمام.

فتعرّضت الحكومة القيصريّة لهجوم كونيّ. وأرسل مكتب الدفاع عن اليهود برقيات إلى شتى عواصم العالم يطلب فيها تنظيم وقفات احتجاجية! فكتب أحد أعضاء المكتب عن هذا قائلاً: "نحن كذلك أرسلنا معلومات

مفصّلة عن الفظائع الرهيبة التي ارتُكبت ... إلى ألمانيا، وفرنسا، وإنكلترا، والولايات المتحدة". "لقد تركت معلوماتنا انطباعات هائلة في كلّ مكان. فنُظمت وقفات ولقاءات احتجاجية في باريس، ولندن، وبرلين، ونيويورك قدّم فيها الخطباء صوراً مريعة عن الجرائم التي ارتكبتها الحكومة القيصرية". — كما زعموا أنَّ هذه هي حقيقة الدبِّ الروسي على مرِّ القرون! "لقد أذهلت تلك الأعمال الوحشية الرهيبة العالم". والآن من غير تردّد، وبموقف لا مثيل له من قبل، أخذ رجال الشرطة والجنود "يقدّمون كل عون ممكن للقتلة واللصوص ليؤدوا عملهم اللاإنساني ذاك". لقد ألحق "النظام القيصري اللعين" بنفسه عاراً لا يُمحى! فوصموه في تلك اللقاءات والوقفات الاحتجاجية، واتهموه بأنّه كان وراء الجريمة الجديدة "التي أعدَّ لها عن سابق قصد". في المعابد اليهوديّة اللندنية اتهموا السينودوس المقدس بارتكاب مذبحة دينية مروِعة. كما أعلن بعض البطاركة الكاثوليك عن إدانتهم لما جرى. لكنَّ السُّعار الأكثر ضراوة هو السُّعار الذي اجتاح الإعلام الأوروبي والأميركي (أشعله بضراوة خاصة عرَّاب الصحافة الصفراء وليم هيورست). "نحن نتهم الحكومة الروسيّة بمسؤوليتها عن مجزرة كيشينيوف. نحن نعلن أنّها غارقة حتى أُذنيها في إثم إبادة الناس [holocaust]! فعلى أبوابها تحدث هذه الجرائم وأعمال العنف"؛ "ليأت إله العدل إلى هذا العالم ولينتقم من روسيا كما انتقم من سدوم وعمُورا ... وليمسح منبت الوباء هذا عن وجه الأرض"؛ "إنَّ مجزرة كيشينيوف ... تفوق في وحشيتها العلنية كلَّ ما دوَّنته مدوَّنات الشعوب المتحضِّرة". (بما في ذلك سلسلة أعمال الإبادة التي تعرَّض لها اليهود في أوروبا إبَّان القرون الوسطى، كما ينبغي أن نفهم من هذا الإعلان).

من المؤسف حقاً أن تتطابق مواقف اليهود من مختلف المستويات العقلانية والطائشة حيال ما جرى. فبعد مرور ثلاثين عاماً يكرِّر عالم القانون المرموق غ. سليوزبيرغ في مذكراته التي كتبها في المهجر، وهو لم يكن عندئذٍ، ولا فيما بعد في كيشينيوف، ـ الحديث عن دقِّ المسامير في رؤوس الضحايا (ينسب هذه

المعلومة إلى دراسة كوروليـنكـو!)، واغتصـاب النسـاء، و"عـدة آلاف مـن الجنـود (لم يكـن لمثـل هـذا العـدد وجـود في حاميـة كيشينيوف النائيـة المنسـية أصـلاً)، الذين كانوا يحرسون" المخرِّبين.

أمَّا روسيا فلم تكن على التخوم بين القرنين خبيرة، ولا مؤهلـة للدفاع عن موقفها وتبرئة ساحتها؛ لم تكن ضليعة في ممارسة مثل هذه الطرائق. في غضـون ذلك، مع تبدُّد مدى الحملة، كان "الإعداد بدم بارد" للمجزرة قد تراخـى، وبـات يتطلَّب براهين أكثر صلابة. مع أنَّ المحامي زارودنـي "كـان قـد أنهـى تحقيقـه ... وبيَّن بصورة أكيدة أن مـن نظَّـم مجـزرة كيشـينيوف وقادهـا، هـو قائـد الحاميـة المحلية ... البـارون ليفينـدال"، إلاَّ أنَّ نجـاح هـذه الفرضـية لم يجعـل مـن شخصـيّة ليفيندال وصمة عارٍ على الحكومة القيصرية. كـان ينبغـي الوصـول إلى السـلطة المركزية من كلٍ بدٍ.

رسالة بلفييه إلى فون - رآبين

هنا بالضبط وقع ما لم يكن بالحسبان! فبعد ستة أسابيع على المجزرة، في ذروة موجة السخط التي اجتاحت العالم، وفي لحظة تقويض سمعة أقوى شخصيات الحكومة القيصرية، "اكتُشف" في اللحظة المناسبة تماماً نصُّ "رسالة في غاية السرية" أرسلها وزير الداخلية بليفيه إلى حاكم مقاطعة كيشينيوف فون -رآبين. ولم يكن أحد يعرف أين اكتُشف النصُّ، ولا من اكتشفه (لم تكن الرسالة منشوراً عمومياً إلى حكام مقاطعات إقليم الاستيطان اليهودي كلهم، إنّما لفون -رآبين وحده، وقبل عشرة أيام فقط من وقوع المجزرة). وقد جاءت رسالة الوزير في تعابير حاذقة ذكية مراوغة، ينصح الوزير فيها حاكم المقاطعة بأنّه: إذا اشتعلت في مقاطعة بيسارابيا قلاقل واسعة النطاق ضدَّ اليهود فإنّه، هو بليفيه، يرجو: ألاّ يجري قمعها بقوة السلاح مهما كانت الحال، بل بالوعظ والإقناع. وها هو نصُّ الرسالة يصل عبر مجهول إلى المراسل الصحفي الإنكليزي د. د. بريم (Braham) في بطرسبورغ، فنشره هذا في عدد "التايمز" اللندنية الذي صدر في 18 أيار من العام 1903م.

لكنْ هل نشْر منشور واحد في صحيفة واحدة يمكن أن يعني الكثير، لا سيما أنّه لم يحظ عندئذٍ، ولا فيما بعد بأيِّ إثبات كان؟ نعم كان يعني الكثير الكثير! أمّا في الحالة التي بين أيدينا، في عدد "التايمز" ذاك عينه، فقد حظي نشر الوثيقة المعنية بدعم من حركة الاحتجاج التي كان على رأسها أبرز الشخصيات اليهوديّة البريطانية، وعلى رأسهم ك. مونتيفيوريه الذي كان ينتمي إلى عائلة أشهر من أن تُعرَّف.

في مثل ذلك الوضع الدولي الذي نشأ عندئذ، حققت تلك الرسالة نجاحاً باهراً: كلُّ الخطط الدموية التي وضعها النظام القيصري البغيض ضدَّ اليهود ولم تكن مثبتة حتى ذلك الحين، "باتت الآن مثبتة بالوثائق". فاضطرمت حدّة المقالات الصحفيّة واللقاءات الجماهيريّة الحاشدة التي اجتاحت مختلف أرجاء العالم. بعد أن نُشر نصُّ الرسالة بثلاثة أيام، كتبت "نيويورك تايمز" تقول: "ها قد مرَّت ثلاثة أيام على إعلان الرسالة، ولم يظهر أيُّ إعلان ينفي صحتها"، وترى الصحافة البريطانيّة الآن أنَّ ما جاء فيها حقيقة لا مراء فيها. "وما الذي يمكن أن يُقال عن المستوى الحضاري في بلاد يضع وزير في حكومتها توقيعه تحت مثل تلك التعليمات؟" أمَّا الحكومة القيصرية الغبية التي لم تدرك حتى الآن حجم فشلها، فقد استخفَت بالأمر كله، واكتفت بإعلان موجز وقّعه رئيس إدارة الشرطة أ. أ. لوبوخين، رفضت فيه صحة نصِّ الرسالة، بل لم تفعل ذلك إلاَّ بعد تسعة أيام على المنشور المثير الذي نشرته "التايمز"، وبدلاً من التحقيق في صحة ما جاء في المنشور أو عدمه، طردت بريم خارج البلاد.

وأنا أستطيع أن أقول الآن بمنتهى اليقين: إنَّ النصَّ المعني كان مزوَّراً، ولي في هذا كثير من الاعتبارات الوازنة. لا يقتصرُ الأمر هنا على أنَّ بريم لم يقدِّم في أيِّ يوم من الأيام أيَّ قرائن تثبت أصالة النص الذي نشره؛ ولا لأنَّ أ. أ. لوبوخين بيَّن فعلاً أنَّ الرسالة مزوَّرة ومحض اختلاق، مع أنَّ الرجل لم يكن يُكِنُّ أيَّ ودٍ لبليفيه، بل كان يكرهه؛ ولا لأنَّ الأمير أُوروسوف كان متعاطفاً مع اليهود، بل تكمن المسألة هنا في أنَّ الذي حلَّ محلَّ الرابين، وكان يشرف على أرشيف المقاطعة، لم يعثر فيه على "رِسالة بليفيه" المزعومة هذه. ولم يكن الأمر مرتبطاً هنا بأنَّ الرابين المعزول كان يعاني من الإفلاس في الحياة، وحاول جاهداً أن يُصلح من شأنه، فأذعن لتعليمات جاءته من المراجع العليا ليصلح من شأنه الوظيفي، فهو لم يشكُ من مثل هكذا ضغوط أبداً، ولو فعل وأذعن، لتحوَّل إلى شخص ذي حظوة كبيرة في المجتمع الليبرالي. فلبُّ المسألة يتلخَّص هنا في أنَّ

أرشيفات الدولة الروسيّة عندئذٍ لم تكن كالأرشيفات السوفييتية التي يمكن أن تُعدَّ أيُّ وثيقة كانت عند الطلب، كما لم تكن تتلف الوثائق سراً؛ بل كان يُحفظ كلُّ شيء هناك إلى الأبد من غير أن يُمسَّ. بعد ثورة شباط مباشرة باشرت لجنة التحقيق الاستثنائية التي شكّلتها الحكومة المؤقتة، ثم تلتها تحقيقات اللجنة التي شُكّلت لتقصي الحقائق في تاريخ المجازر وأعمال العنف، وكانت تضمُّ أشهر المحققين وأكثرهم كفاءة: س. دوبنوف، غ. كراسني -أدمون، لكنَّ أياً من اللجنتين لم تعثر لا في بطرسبورغ ولا في كيشينيوف على نص أصلي للوثيقة المعنية، ولا حتى في سجلات الصادر والوارد، لكنَّهم عثروا لدى وزارة الداخلية الروسيّة على ترجمة روسية عن اللغة الانكليزية للنصِّ الذي نشره بريم (فضلاً عن وثائق "تشير إلى توجيهات تقضي بفرض عقوبات صارمة تصل حتى الفصل من الوظيفة ... لكلِّ مندوب من مندوبي السلطة التنفيذية يأتي فعلاً غير قانوني في المسألة اليهوديّة"). بعد العام 1917م لم يبق ما يمكن للمرء أن يخشاه، بيد أنّه لم يظهر أيُّ شاهد أو كاتب مذكرات روى من أين وصلت تلك البرقية إلى يديّ بريم، ولم يتباه أحد بمشاركته في صنع ذلك الحدث. حتى بريم نفسه لم ينبس ببنت شفة لا عندئذٍ ولا فيما بعد.

مع ذلك كتبت صحيفة حزب الكاديت "ريتش"، منذ 19 آذار عام 1917م تقول بكل ثقة: "لقد تبيَّن بما لا يدع مكاناً للشكِّ أنَّ مجزرة كيشينيوف الدموية، ومجازر العام 1905م المناهضة للثورة، كانت من تدبير إدارة الشرطة". في آب من العام 1917م، أعلن رئيس لجنة التحقيق الاستثنائية في اجتماع الحكومة الذي انعقد في موسكو، أنّه "سيقدِّم في أقرب وقت، وثائق إدارة الشرطة الخاصة بالمجازر التي ارتُكبت ضدَّ اليهود"، لكنْ لا قريباً، ولا في أيِّ وقت، لم يقدِّم لا هو، ولا لجنته، ولا أيُّ بلشفيٍّ آخر، أيَّ وثيقة من هذا النوع. إذن، كيف استمرت هذه الكذبة راسخة في الأذهان حتى يومنا هذا؟ (عندي في "تشرين الأول 1916" تأتي إحدى الشخصيات على ذكر مجزرة كيشينيوف، وفي

العام 1986م، تسوق إحدى دور النشر الألمانية للقراء الألمان، التوضيح الآتي في حاشية سفلية: "مجزرة بحقِّ اليهود تواصلت ليومين، كانت معدَّة إعداداً دقيقاً. فقد أمر وزير الداخلية بليفيه، حاكم مقاطعة بيسارابيا بألاّ يستخدم القوة المسلحة لإيقافها"). ونقرأ في الموسوعة اليهوديّة المعاصرة (1996 م) التأكيد الآتي: "في نيسان من العام 1903م دبَّر وزير الداخلية الجديد ف. بليفيه، بمساعدة عملائه، مجزرة في كيشينيوف" (إنَّها مفارقة، ففي المجلد السابق تنقل هذه الموسوعة نفسها ما يلي: "يرى أكثر الباحثين أنَّ نصَّ برقية بليفيه الذي نشرته "التايمز" اللندنية مزيَّف").

على هذا النحو تحولت مجزرة كيشينيوف المزعومة إلى حدث صخبه أقوى بكثير من حقيقة قصته المؤسفة. هل سيُعاد النظر فيها مرة أخرى بعد مئة عام؟ لم يتجلَّ عجز الحكومة القيصرية، وحالة الهرم التي كانت تعيشها السلطة في كيشينيوف وحدها. ففي العام 1905م وقعت في القوقاز أيضاً مجزرة مروِعة ضدَّ الأذربيجان والأرمن. لكنَّ الاتهام بتدبير المجزرة لم يوجَّه إلى الحكومة إلاّ فيما وقع في كيشينيوف.

فكتب د. باسمانيك يقول في هذا السياق: "إنَّ اليهود لم ينسبوا ارتكاب المجازر يوماً إلى الشعوب، بل كانوا دائماً يتهمون السلطة، والإدارة حصراً ... ولم يكن لأيِّ وقائع كانت أن تغير من هذه القناعة السطحيّة بامتياز". كما أشار بيكرمان إلى أنَّ الرأي السائد، هو أنَّ المجازر اليهوديّة هي شكل من أشكال محاربة السلطة للثورة. أمَّا الباحثون الأكثر حذراً، فيحاكمون الأمر على النحو الآتي: حتى لو لم يُعثر في أعمال العنف التي وقعت على أثر لإعداد السلطة تقنياً لها، إلاّ أنَّ "السمة الأخلاقيّة التي رسخت في بطرسبورغ هي الآتية: كلُّ كاره متعصِّب ضدَّ اليهود، له من يؤازره – بدءً من الوزير حتى الشرطي". لكنَّ المحاكمة التي جرت في العام 1903م في كيشينيوف أظهرت صورة مغايرة.

أمَّا بالنسبة إلى المعارضة الروسيّة الليبراليّة -الراديكاليّة، فقد كان يجب أن تتحوّل المحاكمة إلى معركة مع النظام القيصري نفسه. فقد انطلق إلى المحكمة أبرز المحامين من المسيحيّين واليهود بصفتهم "مدَّعين بالحق العام": م. كاراباتشيفسكي، او. غروزنبيرغ، س. كالمانوفيتش، أ. زارودني، ن. سوكولوف. أمَّا "أعظم المحامين موهبة ب. بيريفيرزف، ومعه عدد من المحامين الآخرين، فقد انبروا للدفاع عن المتهمين: "كي لا يخشون من الإدلاء أمام المحكمة ... بما يعرفونه عمَّن حرَّضهم على بدء أعمال القتل"، أي أنَّ السلطة هي التي أرسلتهم. وقد أصرَّ "المدَّعون بالحق العام" على إجراء تحقيق إضافي، ووضع "المذنبين الحقيقيين" في قفص الاتهام! ولم تنشر السلطات محاضر المحاكمات كي لا تؤجِّج المشاعر، لا في كيشينيوف نفسها، ولا في باقي أرجاء العالم حيث كانت قد تأججت عندئذٍ بما يكفي. لكنَّ مجموعة النشطاء حول "المدَّعين بالحق العام"، وضعت محاضرها الخاصة عن المحاكمة وأرسلتها عبر رومانيا لتُنشر في شتى أرجاء الكون. بيد أنَّ هذا لم يغيِّر شيئاً من سير المحاكمة: لم يتبيَّن بدقة ووضوح سوى شخصيّات المخربين، أمَّا السلطات، فهي مسؤولة بالتأكيد، لكنْ فقط عن الفشل في وضع حدٍّ لعربدة اليهود. عندئذٍ أصدرت مجموعة من المحامين المدَّعين بالحقِّ العام، بياناً مشتركاً جاء فيه: "إذا امتنعت المحكمة عن تحميل المسؤولية للمذنبين الأساسيّين بهذه المجزرة"، أي ليس لحاكم ما يُدعى رآبين الذي لا أحد يعرف لماذا لم يهتموا به، بل للوزير بليفيه والإدارة المركزية في روسيا، "فإنَّه لن يبقى لنا نحن محاميِّ الدفاع ما نفعله في هذه القضية". فقد "اصطدم هؤلاء بعقبات وضعتها المحكمة في طريقهم سلبتهم كلَّ إمكانية ... للدفاع عن مصالح موكليهم بحريّة وراحة ضمير، كما لم تتح لهم الفرصة للدفاع عن الحقيقة" أيضاً. فلجأوا عندئذٍ إلى تكتيك جديد: خرجوا إلى الميدان السياسي مباشرة، فتبيَّن أنَّ ذلك التكتيك كان تكتيكاً ناجحاً واعداً بالكثير، وترك انطباعاً قوياً في مختلف أنحاء العالم. "لقد بارك جهود المحامين أفضل رجال روسيا".

أمّا المحكمة فقد باتت تجري الآن بصورة منتظمة، وشكّل حضور مجلس القضاء الأوديسي حدثاً مميّزاً فيها. لكنّ توقعات الصحافة الغربية بأنّ "محاكمة كيشينيوف ستكون مهزلة تصم القضاء الروسي بالعار"، لم تتحقّق أبداً. ولمّا كان عدد المتهمين كبيراً جداً، فقد وُزِعوا على مجموعات بحسب خطورة الاتهامات. وكما قلنا من قبل: لم يكن بين المتهمين أيُّ يهودي. في شهر نيسان كان رئيس إدارة شرطة المقاطعة قد أعلن أنَّ 250 من المعتقلين البالغ عددهم الكلّي 816 معتقلاً، أُطلق سراحهم لعدم وجود قرائن تؤكّد صحة الاتهامات الموجهة إليهم؛ وحُكم مباشرة على 466 شخصاً بجنح بسيطة (ثمة في "التايمز" نفسها شهادة بذلك)، "ومن ثبتت إدانته لدى المحكمة حُكم عليه بأقصى درجات العقاب"؛ كان عدد المتهمين بارتكاب جرائم جدية قرابة 100 اتُّهم 36 منهم بجرائم قتل واغتصاب (في تشرين الثاني -37 متهماً). وفي كانون الأول أعلن رئيس إدارة شرطة المقاطعة هذا نفسه نتائج عمل المحكمة: الحرمان من الحقوق المدنية والأشغال الشاقة (حُكم على بعضهم بسبع سنوات، وعلى بعضهم الآخر بخمس سنوات)، كما نال آخرون أحكاماً بالحرمان من الحقوق المدنية والسجن مع الشغل (لعام وعام ونصف العام). كان مجموع عدد المحكومين 25 متهماً، وعدد الذين بُرِّأت ساحتهم 12 متهماً. لقد حكمت المحكمة على المتهمين الحقيقيين بالجرائم الفعلية التي ذكرناها سابقاً. كانت الأحكام صارمة، لكنّ "دراما كيشينيوف انتهت إلى التناقض الروسي المعتاد: من الواضح أنَّ المتمرِدين في كيشينيوف نفسها خضعوا لتحقيق قضائي دقيق وحاسم" – هذا ما كتبته باستغراب "الحوليّة" اليهوديّة الأميركيّة.

في ربيع العام 1904م وُضعت القضية أمام محكمة النقض في بطرسبورغ، وتحوّلت إلى محاكمة علنيّة. في العام 1905م أُعيد بحث مجزرة كيشينيوف مرة أخرى في السينات، وقد تحدث هناك فينافير، لكنّه لم يُدل بأيٍّ جديد. أمّا الحكومة القيصرية، فقد لقّنتها أحداث كيشينيوف درساً قاسياً: إنَّ الدولة التي

تتغاضى عن مثل هذه المجزرة هي دولة فاشلة. بيد أنَّ هذا الدرس كان مفهوماً من غير وثيقة مزيفة مسمومة، ومن غير إضافة رتوش مفبركة. لماذا بدت حقيقة مجزرة كيشينيوف غير كافية؟ يبدو لأنَّ الحكومة كانت ستبدو في واقع الأمر كما هي، من غير رتوش، مضطهِداً خاملاً لليهود، مع أنّه مضطهِد متردّد وغير حازم. لكنْ، حينما دخل الكذب والنفاق ميدان التداول، ظهرت حكومة ماهرة حازمة شريرة إلى أبعد حدود الشرِّ في اضطهادهم. ولم يكن مثل هذا العدو يستحق غير الدمار.

منذ زمن بعيد كانت الحكومة الروسيّة أكثر الحكومات فشلاً على المسرح الدولي، فلم تدرك لا عندئذٍ ولا فيما بعد، أبعاد الهزيمة العالمية التي لحقت بها. لقد بقيت مجزرة كيشينيوف لطخة عار في تاريخ روسيا كلّه، كما لطخت صورتها في أعين الأُمم، وحملت هالتها السوداء نُذر الأحداث التي ستعصف ببلادنا وعجّلت وقوعها.

الفصل التاسع

إلى ثورة 1905م

إنشاء وحدات الدفاع الذاتي اليهوديّة

لقد أحدثت مجزرة كيشينيوف زلزالاً عنيفاً في أعماق يهود روسيا، وتركت انطباعاً لا يُمحى من ذاكرة اليهوديّة الروسيّة. فقد كتب جابوتينسكي يقول: إنَّ كيشينيوف هي "حدٌّ فاصل بين عصرين، بين سيكولوجيتين". فلم يعان يهود روسيا من الإحساس بالكآبة والقهر فقط، لكنَّ "شيئاً ما في أعماقهم انكسر، وجعلهم ينسون الكآبة نفسها، - إنّه العار". "لقد كان لمجزرة كيشينيوف دور كبير في وعينا الاجتماعي؛ لأنّنا أولينا اهتمامنا حينئذٍ لجُبن اليهود وخوفهم".

ففي حالة الضعف التي كانت تعاني منها الشرطة، وهو ما رأيناه بأُمِّ العين، إضافة إلى غدر السلطات الروسيّة، كان طبيعياً أن ترد إلى ذهن اليهود فكرة على المنوال الآتي: لماذا نعتمد على حماية السلطات؟ أليس من الأجدى أن ننشئ وحداتنا القتالية الخاصّة ونستخدم السلاح بأيدينا؟ ثمَّ دعتهم إلى هذا مجموعة من الشخصيّات البارزة: الكتّاب – دوبنوف، أحد -هاعام، روفنيتسكي، بن -عامي وبياليك: "أيُّها الاخوة ... كفُّوا عن النحيب والصلاة طلباً للرحمة. لا تنتظروا عوناً من أعدائكم. ولتكن أيديكم هي عونكم".

"لقد كان تأثير هذه الدعوات على الشباب اليهودي كمسِّ التيار الكهربائي". وفي ظلِّ الموقف الملتهب أصلاً بعد مجزرة كيشينيوف، "أخذت تنشأ

في شتى أرجاء إقليم الاستيطان اليهودي، وحدات "الدفاع الذاتي" اليهوديّة. كان "المجتمع اليهودي نفسه هو الذي يموِّل تلك الوحدات"، أمّا تهريب السلاح من الخارج، فكان مسألة بسيطة بالنسبة للمهربين اليهود. غالباً ما كان السلاح يوزَّع على الفتيان القاصرين.

لم تعثر الحكومة على وجود جماعات مسلحة بين السكان المسيحيّين، إلاّ أنّها جاهدت قدر ما كانت تستطيع ضدَ قنابل الإرهابيين. وحينما أخذت الفصائل المسلحة تظهر، كان من الطبيعي أن ترى الحكومة في ذلك بدء عملية انتهاك القانون، وإرهاصات نُذرِ حرب أهلية، لذلك عملت على منع إنشائها بقدر ما كانت تستطيع إلى ذلك سبيلاً (اليوم يُدان في مختلف أنحاء العالم، ويُحرَّم "إنشاء تشكيلات مسلَحة خارج القانون").

معجزة غوميل

لقد أُنشئ في مدينة غوميل واحد من مثل هذه الفصائل المقاتلة، تحت قيادة حزب البوند. في الأول من آذار عام 1903م كانت لجنة حزب البوند في غوميل، قد أقامت "احتفالاً بمناسبة إعدام الإسكندر الثاني". ومع التساوي النسبي لعدد السكان المسيحيّين واليهود في غوميل، وتصميم الخبراء اليهود هناك وحزمهم، اتخذ تشكيل الوحدات القتالية اليهوديّة طابعاً بالغ الحيوية. وأظهرت قوات الدفاع الذاتي هذه مدى فاعليتها وجدواها خلال أعمال العنف التي وقعت في غوميل بين 29 من شهر آب و1 أيلول من العام 1903م.

فبحسب قرار الاتهام، أنَّ أعمال العنف في غوميل كانت متبادلة بين المسيحيين واليهود، كلٌّ من الطرفين هاجم الآخر. ونحن مضطرون في هذا السياق إلى أن نحقق في الوثائق الرسمية التي صدرت في تلك الأثناء، ونقصد في الحالة التي بين أيدينا إلى قرار الاتهام الذي صدر بخصوص قضية غوميل بناء على التقارير المباشرة التي قدَّمتها الشرطة عن الحالة الراهنة (خلال القرن العشرين برهنت تقارير الشرطة في روسيا على دقتها ونزاهتها، - حتى شباط من العام 1917م، أي اللحظة التي حاصر فيها الثائرون أقسام الشرطة في بطرسبورغ وأحرقوها، فانقطعت المعطيات الدقيقة عنَّا). يقول قرار الاتهام في قضية غوميل ما يلي: "لقد أخذ السكان اليهود يخزنون السلاح ويشكّلون وحدات للدفاع الذاتي في حال نشوب أعمال عنف معادية لليهود ... وقد أُتيح لعدد من سكان مدينة غوميل أن يراقبوا سير دورات تدريبية كاملة كانت تُقام للشباب اليهود، يجتمع فيها خارج المدينة قرابة مئة شاب يتدرَّبون على الرمي من

المسدسـات". "وقـد أفضـى تسـليحهم العـام مـن جهـة، وإدراك تفـوّقهم العـددي، وتماسك تنظيمهم، وتراصّ صفوفهم من جهة أخرى، إلى رفع الـروح المعنوية لـدى السـكان اليهـود إلى مستويات شـاعت عنـدهـا في أوسـاط شـبابهم دعـوات لا إلى الدفاع عن النفس فقط، إنَّما للثأر لضحايا مجزرة كيشينيوف". على هـذا النحـو فإنَّ رجع البغض الذي ظهر في مكان ما، تردَّد فيمـا بعـد في مكـان آخـر بعيدٍ، وتحمَّل تبعاته أبرياء لا ذنب لهم البتة.

"في الآونة الأخيرة أخذ يهود مدينـة غوميـل يتخـذون مواقـف فيهـا كـثير مـن الغطرسة، بل مواقف استفزازية أيضاً؛ كانت حـوادث إهانـة الفلاحـين والعمـال، سـواء بـالكلام أو الأفعـال، تتكـرّر أكثـر فـأكثر، كمـا لـم يتـوان اليهـود عـن إظهار احتقارهم للفئة المثقفة من المجتمع الروسي، ولـم يوفّروا حتـى العسـكريين الروس، إذْ كانوا يدفعون بهم عن الأرصفة". في 29 آب مـن العـام 1903م انـدلعت الأحداث لسبب بسيط وقـع في البـازار: ملاسـنة بـين بائعـة أسمـاك مقـدَّدة، تُـدعى ماليتسـكايا، وأحـد المشـترين المـدعو شـاليكوف، فقـد تفلـت المـرأة في وجـه هـذا الأخير، ثمَّ ما لبث النزاع أن تحوَّل إلى عراك، "في الحـال هـاجم عـدد مـن الرجـال اليهـود شـاليكوف وطرحـوه أرضـاً، وشـرعوا يضـربونه بكـلِّ مـا كـان يقـع في أيـديهم. فـانبرى حـوالي عشـرة مـن الفلاحـين للـدفاع عـن شـاليكوف، فـدوى في الحـال صفير خاص متعارف عليه إشارة بين اليهود، ثمَّ بسرعة البرق تجمَّـع حشـد كبير مـن اليهـود الآخـرين ... ومـن الواضـح أن الصـفير - الإشـارة كـان بمثابـة إعلان النفير ...في هنيهات استنفر سـكان المدينـة اليهـود عـن بكـرة أبيهم". "مـن كـلِّ مكـان تقـاطر إلى البـازار يهـود مسـلحون بكـلِّ مـا وقعـت عليـه أيـديهم. وسـرعان مـا تجمَّع في شارع البازار حشد من اليهود مـلأ مختلـف أرجـاء الشـارع ... كما امتلأت الشوارع الأخرى المتاخمة لشارع البازار باليهود، كان هـؤلاء كلُّهم قـد تسـلَّحوا بالحجـارة، والهـراوات، والقطـع الحديديـة، والمطـارق، والكـرات الحديدية، وقضبان الحديد. ودوت الصيحات من كلِّ مكان تنادي: "أيُّها اليهود!

إلى البازار! مجزرة روسية!" ثم توزَّع هذا الحشد كله على مجموعات اندفعت هائجة لقتل الفلاحين الفارين من أمامها". وبما أنَّ اليوم كان يوم سوق فقد كانت أعداد هؤلاء كبيرة. "لقد ترك الفلاحون تجارتهم وأسرعوا إلى مغادرة المدينة، بعضهم استقلَّ عربات النقل التي كان يملكها ... ويروي شهود عيان أنَّ الروسي الذي كان يقع بين أيدي اليهود كانوا يبرِحونه ضرباً، سواء كان شيخاً أو امرأة، أو حتى طفلاً. فقد انتزعوا إحدى الفتيات من العربة التي كانت تستقلُّها، وأمسكوا بها من شعرها وجرُّوها فوق الجسر". وبينما كان الفلاح سيلكوف يقف بعيداً يتناول فطيراً، باغته في تلك اللحظة من الخلف يهودي طعنه في عنقه طعنة قاتلة فأرداه واختفى وسط الحشد اليهودي. هناك مشاهد أخرى كثيرة على هذا المنوال. كما لم ينج أحد الضباط من الموت إلاَّ بعد أن تدخَّل الرابين مايانيتس، وصاحب المنزل المجاور رودزييفسكي. أمَّا قوات الشرطة التي أسرعت إلى المكان، فقد "واجهها اليهود بوابل من الحجارة ونيران المسدسات ... لا من الحشود فقط، بل من نوافذ المنازل المجاورة وشرفاتها"؛ "وتواصلت أعمال العنف ضدَّ السكان المسيحيين حتى مساء ذلك اليوم، ولم تتوقف إلاَّ مع وصول وحدات من القوات العسكرية التي فرَّقت الحشد اليهودي"؛ "لقد أشبع اليهود الروس ضرباً، لا سيما الفلاحين منهم، ولم يستطع هؤلاء أن يبدوا أيَّ مقاومة تُذكر؛ لأنَّ أعدادهم كانت هزيلة مقارنة بأعداد اليهود، كما لم تكن بين أيديهم أيُّ وسائل يدافعون بها عن أنفسهم ... في هذا اليوم كان الضحايا من الروس فقط ... كما جُرح وضُرب كثير منهم".

ويخلص محضر الاتهام في أحداث 29 آب إلى "أنَّها كانت من غير شكٍّ مجزرة ذات طابع روسي"، أي أنَّ ضحاياها كانوا من الروس فقط.

لكنَّ هذا خلق "حالة من السخط العميق في أوساط السكان المسيحيين"، وهو ما زاد من "انفعال الغبطة" لدى اليهود، وعزَّز "حماسهم" "لا تحسبوا أنَّكم هنا في كيشينيوف". في الأول من أيلول، بعد صفَّارة الغداء، أخذ عمال محطة

القطـار يخرجـون مـن ورشـاتهم بصـخب غير عـادي، ويطلقـون نـداءات ودعـوات شديدة الانفعالية، فأمر قائد الشرطة بإغلاق الجسـر حـالاً لقطـع الطريـق المؤدية إلى المدينة. عندئذٍ تدفّق العمال عبر الشوارع الجانبية ومن هناك أخـذت "تتسـاقط الحجـارة علـى نوافـذ منـازل اليهـود القريبـة"، في تلـك الأثنـاء "كانـت قـد أخـذت تتشـكّل في المدينة مجموعات كبيرة من اليهود"، وأخذت حشودهم "ترمي حشـد العمال بالعصي والحجارة عن بُعد"، "فأصاب حجران قُذفا مـن ناحيـة الجماعـات اليهوديّة" رئيس مركز الشرطة في ظهره، فسقط هذا فاقد الوعي. أرعد الحشـد الروسـي بصـوت واحـد: "اليهـود قتلـوا رئـيس مركـز الشـرطة!"، علـى الفـور "بـدأ تدمير منازل اليهود وحوانيتهم". خفّت إلى المكـان وحـدات عسـكرية فصلت بين الفريقين ومنعت وقـوع مجـزرة دمويـة. لكـنّ الحشـد اليهـودي أخـذ يقـذف الجنـود بالحجارة، ويطلق عليهم النار من المسدسات "موجهاً شتائم مقذعة للجنود". عندئذٍ طلب قائد الوحـدة مـن الـرابين مايـانتس والطبيـب زالكيـند تهدئـة اليهـود، لكـنّ "جهودهما مع الحشود في هذا الشأن لم تسفر عن شيء، بـل احتـدم غـيظ اليهـود أكثـر فـأكثر"؛ ولم يـرغمهم علـى الانصـياع إلاّ السـلاح. كـان الإنجـاز الـرئيس الذي حققته الوحدة العسكرية هو "منـع الغوغـاء مـن الوصـول إلى مركـز المدينـة حيث تقع مخازن أثرياء اليهود ومنازلهم الفخمة". عندئذٍ اتجه هؤلاء إلى الأطـراف وأخذوا يعربدون ويدمّرون هناك. مرة أخرى أنذرهم قائد الشرطة لكنّهم صاحوا في وجهه قائلين: "أيُّها الحَبر اليهودي، لقد خنتنا!" إلاّ أنّ بنادق الوحدة العسكرية الـتي وُجهـت نحـو المشـاغبين مـن اليهـود والـروس، فرضـت وقـف أعمـال العنـف، لكنّهـا مـا لبثـت أن تجـددت في الضـواحي بعـد سـاعتين فقـط، مـرة أخـرى وجّـه الجنود بنادقهم نحـو المشـاغبين فسـقط منهم عـدد مـن القتلـى والجرحـى، عندئذٍ توقفـت أعمـال العنـف في الحـال. لكـنّ محضـر الاتهـام يقـول: في مركـز المدينـة "بقيـت الجمـوع اليهوديّـة في أقصـى درجـات التحـدي والاسـتفزاز، قـاومت القـوات العسـكرية والشـرطة ... وكمـا كانـت عليـه الحـال في 29 آب، كـان هـؤلاء

مسلحين ... كثير منهم كان يحمل مسدسات وخناجر"، "يطلقون النار حتى على القوات التي جاءت لحماية ممتلكاتهم، ويرمونها بالحجارة"؛ كما كانوا "يهاجمون كلَّ روسيٍّ يسير لوحده، حتى الجنود منهم"، لقد كانوا يقتلون الفلاح والفقير. في يوم واحد جُرح ثلاثة من المشَان اليهود "جراحاً مميتة". عند المساء توقفت أعمال الشغب. خمسة من اليهود وأربعة من المسيحيين جُرحوا جروحاً مميتة. "ونال الأذى قرابة 250 حانوتاً ومنزلاً يهودياً". في الجانب اليهودي "كانت الأكثرية العظمى من النشيطين في الأحداث تنتمي إلى جيل الشباب"، لكنَّ كثيراً منهم "كان ينتمي إلى الجيل الأكبر أيضاً"، كما شارك الأطفال فيها، إذ كانوا ينقلون الحجارة والعصيَّ والأخشاب. لكنَّ المؤلفين اليهود على وجه العموم، لم يتركوا وصفاً لهذه الأحداث.

"لم تكن أعمال العنف التي وقعت في غوميل عفوية أو فوضوية، بل كان يُخطط لها منذ وقت. فبعد أحداث كيشينيوف مباشرة، باشروا تنظيم وحدات الدفاع الذاتي". وبعد بضعة أشهر فقط من أحداث كيشينيوف، بات يمكن لليهود ألاَّ يشعروا بالدونية بسبب إذعانهم، على حدِّ قول شاعرهم بياليك وغيره. وكما هي الحال مع وحدات الدفاع الذاتي الأخرى على وجه العموم، باتت حدود الدفاع والهجوم لدى وحدات الدفاع اليهوديّة هذه مبهمة أيضاً. فالأول كان يقتات على أحداث كيشينيوف والثاني على ثورية منظميها.

(كانت حيوية الشباب اليهودي قد تجلّت من قبل. ففي العام 1899م مثلاً، ذاعت في روسيا حادثة "مذبحة شكلوف": في مدينة شكلوف التي كان نسبة اليهود إلى الروس فيها 19:، وقعت مجزرة دموية رهيبة ارتكبها اليهود ضدَّ جنود روس عزَّل كانوا قد صُرفوا من الخدمة. فناقش السينات الحدث وأقرَّ بأنَّه ظاهرة تجلّت فيها عدائية اليهود العرقية والدينية تجاه المسيحيين، مستنداً في ذلك إلى القاعدة عينها التي حوكمت على أساسها أحداث كيشينيوف).

ولا يجوز أن تُنسب تلك الحيويّة كلها إلى حزب البوند وحده. "لقد كان على رأس هذه العمليّة [التي سرَّع وقوعها تشكيل وحدات الدفاع الذاتي]، صهاينة، وأحزاب قريبة من الصهاينة، كالصهاينة - الاشتراكيّين، و"بواليه - تسيون. وكما كانت عليه الحال في غوميل في العام 1903 م، "كان حزب "بواليه - تسيون" هو الذي شكّل أكثر الوحدات" (فيما يتعلّق بالخلاف مع بوخبيندير الذي كان يُجلُ حزب البوند، فأنا لا أُفضّل رواية على أخرى).

حينما وصلت أنباء مجزرة غوميل إلى بطرسبورغ، أوفد مكتب الدفاع عن اليهود المحاميينْ زارودني وسوكولوف إلى هناك للعمل على إجراء تحقيق خاصّ في أسرع وقت ممكن. مرَّة أخرى جمع زارودني "براهين قاطعة" تؤكّد أنَّ المجزرة من تدبير إدارة الشرطة، لكنَّ التقارير حُفظت ولم تُنشر، ولم يستفد منها الرأي العام (بعده بثلاثين عاماً كتب سليوزبيرغ يقول في مذكراته: إنَّ مجزرة غوميل كانت تدبيراً نظمته وأشرفت على تنفيذه إدارة الشرطة. لكنَّه لم يورد أيَّ أدلّة تؤكّد زعمه هذا، وهو أمر غير مقبول من محام كسليوزبيرغ شارك مباشرة في تلك القضية. كما أخطأ أيضاً حتى في تحديد زمن الأحداث، وما يؤسف له أنَّ أحداً لم يأخذ على عاتقه تصحيح هذه الأخطاء المحزنة التي ارتكبها رجل كان قد بات حينئذٍ طاعناً في السنّ. ينفي سليوزبيرغ أيضاً وقوع أيِّ هجمات نفَذتها وحدات الحماية الذاتية البوندية، أو بواليه -تسيون. فجاء ما كتبه عن هاتين المنظَمتين مبهماً على منوال: "لقد نجح شباب وحدات الحماية الذاتية في أن يقضوا بسرعة على العربدة، ويطردوا الفلاحين"، "فالشباب اليهودي تقاطر إلى المكان مسرعاً ونجح في كثير من الأحيان أن يصدَّ المخربين ويطردهم"، كما لو كان ذلك كله تحقق من غير استخدام السلاح أيضاً!؟ ...). لقد سار التحقيق الرسمي بشكلٍ منتظم متتابع، وفي تلك الأثناء كانت روسيا قد انخرطت في الحرب اليابانية. فلم تبدأ المحكمة جلساتها في قضية غوميل، إلاّ في تشرين الأول من العام 1904م، في أجواء سياسية محتدمة.

فمثل أمام القضاء 44 مسيحياً، و36 يهودياً، واستُدعي ألف من الشهود. فأرسل مكتب الدفاع عن اليهود المحامين سليوزبيرغ، كوبيرنيكوس، ماندلشتام، كالمانوفيتش، راتنير وكرول إلى هناك. من وجهة نظر اليهود لم يكن من العدل أن يكون بين المتهمين أيُّ يهودي: كان ذلك بالنسبة لليهود الروس كلهم "بمثابة إنذار بعدم اللجوء إلى الحماية الذاتية". أمّا من وجهة نظر الروس والحكومة، فإنَّ "الحماية الذاتية" في الحالة المعنية لم تظهر على هذا النحو. غير أنَّ محاميٍّ المتهمين اليهود، لم يتوقفوا عند التفاصيل ولم يشيروا إلى واقع تدمير أملاك اليهود، بل عملوا على "إظهار الدوافع السياسية" للمجزرة، فركّزوا مثلاً، على أنَّ الشباب اليهود كانوا يهتفون في قلب تلك الجموع: "يسقط النظام القيصري!". وسرعان ما قرَّر المحامون أنفسهم التخلي عن موكليهم والانسحاب جماعة من المحكمة، تعبيراً عن تظاهرة أكبر لاستعادة سابقة كيشينيوف. كان هذا التصرُّف الحاذق والثوري الذي أتاه المحامون الليبراليون يتفق تماماً مع روح كانون الأول من العام 1904 —تفجير مبدأ عرض القضية شفهياً!

بعد انسحاب المحامين "أخذت الدعوى تتقدَّم نحو خاتمتها بخطى حثيثة". فبُرِّئت ساحة فريق من اليهود، وحُكم على الفريق الآخر بالسجن مدداً لا تتجاوز الخمسة أشهر، "كما حُكم على المدانين من المسيحيين بعقوبات مماثلة للعقوبات التي فُرضت على اليهود". كانت النتيجة أن تساوت عقوبات الفريقين تقريباً.

الحرب اليابانيّة وتداعي مكانة روسيا عالمياً

كانت روسيا تغوص في وحل الحرب اليابانية أعمق فأعمق، وأظهرت قصر نظر لا مثيل له حينما عاندت في النزاع حول حقوقها على كوريا. فلم يدرك الامبراطور نيقولاي الثاني، ولا كبار الوجهاء المحيطين به، مدى ضعف موقف روسيا على الساحة الدولية، وعداء الغرب لها، لا سيما أمريكا - "الصديق التقليدي". كما لم يأخذوا بالحسبان تسارع تنامي قوة الرأسماليين الغربيين ونفوذهم على سياسة الدول العظمى، في ظلِ تزايد حاجة روسيا إلى القروض. ففي القرن التاسع عشر لم تكن هذه الظاهرة قد نشأت بعد، ولم تكن الحكومة الروسيّة المتباطئة في كلِّ شيء متعجِّلة للحاق بهم، ولم تكن قد أعطت هذا الأمر أيَّ أهمية بعد.

في الغرب كان الاشمئزاز من روسيا قد رسخ تماماً بعد أحداث كيشينيوف، فرأوا فيها فزّاعة ملوّثة، بلداً آسيوياً مستبداً يسود فيه الظلام، والقهر، والعوز، واستغلال الشعب، وإلقاء الثوريين في غياهب السجون في ظروف وحشية لا إنسانية، وها هي الآن مجازر جماعية ضحاياها "آلاف" من القتلى اليهود، تدبِّرها، تنظمها وتشرف على تنفيذها الحكومة نفسها! (والحكومة كما كنَّا قد رأينا، لم تكن في عجلة من أمرها لتبديد هذه المزاعم المزيَّفة، بالبراهين القاطعة، وفي الوقت المناسب). في أثناء ذلك كان الغرب قد بات ينتظر حصول الثورة في روسيا، كانت آماله في هذا جدية تستند إلى معطيات، ولو وقعت سيكون نجاحها خيراً على العالم كله، وعلى يهود روسيا على وجه التحديد. كما تراكم فوق هذا كله، انعدام الكفاءة، والعجز، وعدم

الاستعداد لخوض تلك الحرب النائية ضد بلاد صغيرة كانوا يظنون أنّها ضعيفة، زد إلى هذا سخط الرأي العام الروسي المعارض علانية، والذي كان يعلن من غير مواربة عن أُمنية مستغربة في هزيمة بلاده.

لقد انعكس تعاطف الولايات المتحدة الأميركية مع اليابان في تلك الحرب، عبر وسائل الإعلام الأميركية، بكثير من الحمية والحماس. كان الإعلام الأميركي "يرحب بكل نصر تحققّه اليابان، ولم يخف آماله وتوقعاته بقرب هزيمة روسيا". كان فيتيه قد ذكر أنّ الرئيس الأميركي تيودور روزفلت، كان إلى جانب اليابان، وقدّم لها العون مرّتين. بل حتى روزفلت نفسه قال: "منذ أن اشتعلت هذه الحرب أبلغت ألمانيا وفرنسا بمنتهى اللباقة والدبلوماسية"، إنّهما في حال تحالفتا مع روسيا ضدّ اليابان، "سأقف فوراً إلى جانب اليابان، ولن أتوقف بعد ذلك عند أيّ اعتبارات قد تكون لصالحها". ونحن نستطيع أن نخمّن أنّ موقف روزفلت هذا لا يمكن أن يكون قد بقي سراً بالنسبة لليابانيين.

كما برز في هذا السياق نفسه موقف يعقوب شيف، أكبر مصرفي في ذلك الحين – واحد "من أعظم الرجال اليهود الذي كان يمكن أن تتحقق طموحاته الروحية بفضل موقعه الاستثنائي في عالم الاقتصاد". "لقد بدأ شيف نشاطه في عالم التجارة في زمن مبكر"، فقد انتقل من ألمانيا إلى نيويورك، وسرعان ما شغل هناك منصب مدير مصرف كون - ليب وشركائهما. في العام 1912م "تحوّل في الولايات المتحدة إلى ملك الخطوط الحديدية، فقد كان يملك منها 22 ألف ميل"، كما كان معروفاً بإحسانه وسخائه؛ وكان يهتمُّ اهتماماً خاصاً باحتياجات اليهود الاجتماعية". وأحزن قلبه أشدَّ الحزن ما آل إليه مصير يهود روسيا، لذلك بقي معادياً لروسيا حتى العام 1917م. وبحسب الموسوعة اليهوديّة المعاصرة (التي صدرت في أُورشليم باللغة الإنكليزية)، أنّ "شيف ساهم مساهمة عظيمة في تقديم القروض لحكومته، والحكومات الأجنبية التي كان أبرزها على الإطلاق، القرض الذي منحه لليابان بمبلغ 200 مليون دولار في أثناء الحرب الروسيّة اليابانية في العام 1094 -1905م. لقد دفعه سخطه الشديد على سياسة

النظـام القيصـري المعاديـة للسـاميّة، إلى تقـديم كـلّ دعـم ممكـن للجهـود العسـكرية اليابانيـة. كـان يـرفض دائمـاً أن يسـاهم في قـروض تُمـنح لروسـيا، واسـتخدم نفـوذه لمنـع المؤسسـات الأخـرى مـن مـنح قـروض لهـا، لكنَّـه في الوقت نفسه، قدَّم دعماً مالياً لوحدات الحماية الذاتية التي أنشأها يهود روسيا". لكنْ، إذا كان الثوريون البوند وبواليه ـ تسيون قد تلقوا مساعدات مالية لبناء وحداتهم المسلَحة، فليس ثمة ما يمنع مـن أن يكـون الثوريـون الـروس الآخـرون قـد تلقَوا بدورهم مثل هذه المساعدة أيضاً (بمـن فيـه الاشـتراكيّون الثوريّون الـذين كـانوا يمارسون الإرهاب في تلك الآونة). فثمة شهادة تفيد بأنَّ شيف في حديث له مع غ. أ. فيلينكين، أحد موظفي وزارة المالية الروسيّة الذي كانت تربطه به صلة قرابة بعيدة، "أقرَّ بأنَّ مساعدات مالية تصل عبره إلى الحركـة الثوريّة الروسيّة"، وأنَّ "الأمر أوغل بعيداً جداً" بالنسبة لوقف تلك المساعدات.

أمَّا في روسيا نفسـها فقـد واصـل البـارون غ. او. غينتسـبورغ مسـاعيه لمسـاواة اليهود في الحقوق. ففي العام 1903م زار فيتيه على رأس وفد مـن اليهـود ليُعبِّر لـه عن رغبة اليهود الروس بالمساواة في الحقوق المدنية. فأجابهم فيتيه (الذي كان قد تعامـل مـع المسـألة اليهوديّة مـن قبـل بصـفته رئيسـاً للـوزراء): "لا يمكـن أن يُمـنح اليهود المساواة إلاّ بالتدرُّج، لكنْ، "لكي يتمكن من إثارة هـذه المسـألة، ينبغـي علـى اليهـود أن يسـلكوا سـلوكاً مختلفـاً تمامـاً عمَّـا هـم عليـه الآن"، عليهم أن يمتنعوا عن المشاركة في النشاطات السياسية المشتركة. "ليس هذا من شأنكم، دعـوا هـذا الأمـر للروسـيِّ بالـدم والحقـوق المدنيّـة، لـيس مـن شـأنكم أن تعلِّمونـا كيف نهتمُّ بشؤننا الخاصة". فوافق غينتسبورغ، وسليوزبيرغ، وكوليشير عندئذٍ على رأيه هذا، أمَّا الباقون فلم يوافقوا، لا سيما فينافير الذي أعلن: "لقد آن أوان منح المساواة الكاملة لرعايا روسيا كلّهم من غير استثناء ... يجب على اليهود أن يقفـوا بقـواهم كلّهـا إلى جانـب الـروس الـذين يسـعون لتحقيـق ذلـك ويصـارعون السلطة في سبيله".

بسبب الحرب اليابانية وجدت الحكومة الروسيّة نفسها مرغمة منذ بداية العام 1904م، على أن تبحث عن دعم مالي لدى الدول الغربية، للحصول على ذلك الدعم كانت على استعداد لأن تتعهّد بمنح اليهود مزيدا من الحقوق. بتكليف من بليفيه تواصلت شخصيات بارزة مع البارون غينتسبنبورغ لبحث هذا الموضوع، ثمَّ أُوفد سليوزبيرغ إلى الخارج ليستطلع آراء كبار رجال المال اليهود. فرفض يا. شيف، من حيث المبدأ، "أيَّ مساومات بخصوص كمِّ حقوق اليهود وماهيتها"، وأعلن أنَّه "غير مستعد للدخول في علاقات مالية إلاَّ مع حكومة تقف على أرضية الاعتراف بمساواة رعاياها كلّهم في الحقوق السياسية والمدنية ... ولا يمكن إقامة أيِّ علاقات مالية إلاَّ مع البلدان المتحضّرة". كما اتخذ البارون الباريسي أ. روتشيلد الموقف الرافض نفسه: "لست أميل إلى الدخول في خطة مالية مع الروس، حتى مع التسهيلات التي يمكن أن تقدمها الحكومة الروسيّة لليهود".

لكنَّ فيتيه نجح في الحصول على قرض كبير، من غير دعم دوائر المال اليهوديّة. ومع ذلك اتخذت الحكومة الروسيّة في العامين 1903 -1904م خطوات (أتينا على ذكر بعضها سابقاً) للتخفيف من القيود التي كانت تقلّص من حقوق اليهود. وكانت أولى تلك الخطوات، وأكثرها أهمية، هي إلغاء معايير العام 1882م، ورفع المنع عن استيطان اليهود في 101 من أكبر المراكز السكّانيّة التي لم تكن قد عُدَّت مدناً بعد، لكنَّ أكثرها كان من أهمِّ مراكز النشاط التجاري الصناعي وتجارة القمح. ثم تلت خطوة أخرى: صدر أمرٌ بترقية مجموعة من المحامين اليهود من فئة مساعد محامي إلى فئة محامي، وهو ما كان ممنوعاً منذ العام 1889م. بعد مقتل بليفيه، ومنذ "عصر الثقة" الذي أعلنه وزير الداخلية الجديد سفياتوبولك - ميرسكي، الذي لم يبق في منصبه طويلاً، توالت قرارات تخفيف القيود المفروضة على اليهود. فقد رُفعت قيود العام 1882م عن اليهود من حاملي الشهادات العليا، بما فيها قيد الإقامة في المناطق التي كانت محرَّمة عليهم من قبل: إقليم جيش الدون، إقليم كوبان، وإقليم تيرسك. كما أُلغي

أيضاً تحريم إقامة اليهود على أقل من خمسين فرسخاً عن الشريط الحدودي؛ كما أُعيد لهم حقُّ الإقامة أينما يشاؤون على أراضي الإمبراطورية (الذي كانوا قد حُرموا منه في عهد الإسكندر الثاني بعد العام 1874م)، وحق "نيل الرتب العسكرية لليهود الذين على رأس عملهم فعلاً في القوات العاملة". وبمناسبة ولادة ولي العهد في العام 1904م، أُعفي اليهود من المستحقات المالية المتأخرة عليهم للدولة من جرَّاء تخلُّفهم عن تأدية الخدمة العسكرية.

بيد أنَّ هذه التنازلات جاءت متأخرة. ففي منعطف الحرب اليابانية لم يعد أحد يقبل بها كما سنرى، لا رجال المال اليهود الغربيون، ولا أكثر الشخصيّات اليهوديّة الروسيّة النافذة، فما بالك بالشباب اليهودي. رداً على الوعود التي أعلنها سفياتوبولك - ميرسكي لدى تسلمه مهام منصبه، وتعهّد فيها بمنح اليهود تسهيلات في موضوع الإقامة واختيار المهنة، صدر إعلان وقّعه "أكثر من 6000 شخصية" (جمعت تواقيعهم المجموعة الديمقراطية اليهوديّة)، جاء فيه: "نرى أنَّه لا جدوى من محاولات إرضاء اليهود وطمأنتهم بأيِّ تحسينات مبتورة. كما نرى أنَّ سياسة الاستبعاد التدرُّجي للقيود التي ينوء اليهود تحت ثقلها، هي سياسة فاشلة ولن تُفضي إلى أيِّ مكان ... نحن ننتظر مساواتنا في الحقوق كلها ... فهي بالنسبة إلينا مسألة شرف وعدل". لقد بات من السهل مطالبة الحكومة التي غاصت في وحول الحرب.

غنيٌّ عن البيان القول: إنَّه في مناخ الشعور بالاحتقار نحو السلطات، الذي كانت تغلي به في تلك الآونة نفوس المثقّفين الروس، كان من الغرابة بمكان أن ننتظر من الشباب اليهودي حماساً وطنياً عامَّاً. فبحسب معطيات وزير الحربيّة عندئذٍ، ثمَّ قائد قوات الشرق الأقصى بعد ذلك، الجنرال كوروباتكين، أنَّ "أعداد المكلفين اليهود الذين لم يلتحقوا بالخدمة العسكرية في العام 1904م، تضاعف مرتين عن العام 1903م. فقد استُدعي منهم 66000، فتخلَّف من غير سبب وجيه 20000، أي كان يتخلف 300 من كل ألف مكلّف مدعو، بينما لم

يتخلّف حينئذٍ من المكلّفين الروس المدعوين، سوى اثنين فقط من كل ألف. بل حتى اليهود الذين تمّ استدعاؤهم من الاحتياط، فرّت منهم جماعات كبيرة على الطريق إلى مسرح العمليات القتالية".

وفق الإحصاءات الجانبيّة الأميركية، أنّه منذ بدء الحرب اليابانية تدفّق على الولايات المتحدة سيل من المهاجرين اليهود الروس الشباب ممّن هم في سن التجنيد العسكري. ففي أول عامين من الحرب تحديداً، زادت هجرة اليهود إلى أميركا زيادة حادّة، خاصة بين القادرين على العمل (بين سنِ 14 -44)، من الرجال. وفي العامين 1904 و، 1905 وصل إلى البلاد من القادرين على العمل 29 ألفاً، زيادة عمّا كان متوقعاً (مقارنة مع المهاجرين الآخرين)، ومن الرجال 28 ألفاً، زيادة عمّا كان متوقعاً (مقارنه مع النساء). بعد هذين العامين عادت النسبة إلى وضعها الطبيعي (لقد أكّدت صحيفة "الكييفليانين" في حينه، أنّ "20 -30 ألفاً من الجنود، والجنود الاحتياط اليهود تخفّوا عن بكرة أبيهم، في أثناء الحرب اليابانية وهربوا إلى خارج البلاد").

في مادّة "الخدمة العسكرية الإلزامية في روسيا"، ساقت الموسوعة اليهوديّة جدولاً بيانياً قارنت فيه نسبة اليهود والمسيحيين المتخلفين عن تأدية الخدمة العسكرية؛ وبحسب المعطيات الرسمية أن نسبة تخلف المجندين اليهود إلى المجندين المسيحيين، شكلت في العام 1902م 30 إلى 1، وفي العام 1903م 34 إلى1. كما تؤكد الموسوعة أنّه كان باستطاعة المجندين اليهود أن يتهربوا من تأدية الخدمة لأسباب تتعلق بالهجرة، وعدم توثيق حالات الوفاة، وأخطاء حملات الإحصاء. لكنّ حالات التخلف المبهمة الواردة في جدول الموسوعة، خاصة إبّان العامين 1904 و، 1905 تحرمنا من أيِّ إمكانية للحكم مباشرة على نسبة التخلف في سنوات الحرب. أمّا فيما يتعلق بمن كانوا يحاربون، فتزعم الموسوعة أن 20 إلى 30 ألف يهودي كانوا على جبهات القتال، فضلاً عن ثلاثة آلاف طبيب يهودي؛ ثمّ تشير إلى أنّه حتى صحيفة "نوفويه فريميا" (العصر الحديث. ـ ح. إ.)،

التي كانت من الصحف المعادية لليهود، أقرّت ببطولات المقاتلين اليهود في تلك الحرب. ويتفق هذا تماماً مع شهادة الجنرال دينيكين: "في الجيش الروسي كان الجنود اليهود حاضري البديهة، فطنين ومخلصين، فاستحقوا مكانة مرموقة حتى في زمن السلم. أمّا في زمن الحرب، فقد كانت العقبات تتساقط كلها تلقائياً، واستحقت البطولات الفردية والفطنة الشخصية، اعترافاً متماثلاً". تتمثّل الحقيقة التاريخية التي تؤكد صحة هذه الرؤية، في بطولة يوسف ترومبلدور الذي على الرَّغم من أنّه فقد يده، إلاّ أنّه آثر أن يبقى في الصفوف الأمامية. لكنّه لم يكن الوحيد الذي تميَّز بين المقاتلين اليهود.

في نهاية الحرب اليابانية التي لم تحقق روسيا انتصاراً فيها، وافق الرئيس تيودور روزفلت على أن يكون وسيطاً في المباحثات بين روسيا واليابان (في بورتسموث الأميركية). وقد كتب فيتيه الذي كان يدير تلك المحادثات قائلاً: "جاء إليَّ وفد من وجهاء اليهود الأميركيين مرتين لبحث المسألة اليهوديّة". كان هؤلاء هم: يعقوب شيف، لويس مارشال، وهو أبرز الحقوقيين، أُوسكار ستراوس وآخرون. لقد كان موقف روسيا الآن متضعضعاً، الأمر الذي فرض على الوزير الروسي لهجة أكثر تساهلاً مما كانت عليه في العام 1903م. لكنَّ ذرائع فيتيه قوبلت "برفض قاطع من جانب شيف". وبعد خمسة عشر عاماً تذكر كراوس، عضو ذلك الوفد، ورئيس خلوة بني بريت في العام 1920م، ما قاله شيف في اعتراضاته: "إذا لم يعط القيصر شعبه الحريات التي هي من حقه، فقد تُقيم الثورة النظام الجمهوري الذي ستتحقق به تلك الحريات".

في تلك الأسابيع نفسها ظهر لغم آخر تحت منصة العلاقات الروسيّة الأميركية. ففي أثناء وداعه للوزير الروسي حمّله ت. روزفلت تحذيراً إلى الامبراطور الروسي، مفاده أنَّ الاتفاق التجاري القديم (منذ العام 1832م)، الذي عُقد لمصلحة الطرفين، سيتأثر إذا فُرضت في روسيا قيود ذات طابع ديني على رجال الأعمال الأميركيين القادمين إليها. كان ذلك الاحتجاج، وهو احتجاج

مبدئي من غير شكٍ، يخصُّ بشكل أساس، عدداً كبيراً من اليهود الروس الذين نالوا الجنسية الأميركية بعد أن هاجروا إلى الولايات المتحدة. فقد عاد هؤلاء ثانية إلى روسيا، غالباً لممارسة العمل الثوريّ، لكنْ بصفة تجّار ينبغي ألاّ تُفرض عليهم بعد الآن قيود تحدُّ من نشاطهم، أو تقيِّد إقامتهم. إنّه اللغم الذي كان ينبغي أن ينفجر بعد بضع سنوات.

الوضع الداخليّ في روسيا عشية ثورة 1905

لم يكن العام 1904م هو العام الأول الذي مرَّ على صدور مجلة "التحرير" في شتوتغارت، وكان جمهور كبير من المثقفين الروس يتعاطفون علناً مع منظمة اتحاد التحرير السرِّية. في خريف العام 1904م، تدحرجت في المدن الروسيّة الكبرى كلها، حملة كان شعارها الرئيس، هو الدعوة إلى الإطاحة "بالنظام" القيصري. من الخارج خفُّوا للحاق بالحملة، وألقوا خطباً جماهيريّة علنيّة في سياق تلك الدعوة (تان - بوغوروز على سبيل المثال). "سيطر الحماس السياسي على مختلف شرائح المجتمع اليهودي". فانخرطت في ذلك الغليان السياسي باستعداد تام، من غير أيِّ تمييز طبقي أو حزبي. "وانخرط كثير من أبرز الشخصيّات اليهوديّة، حتى القوميّة منها، في "اتحاد التحرير" السرِّي. ومثلهم كمثل المجتمع الليبرالي الروسي، كان هؤلاء "ممن أذهلتهم" هزيمة روسيا في الحرب اليابانيّة. ومثلهم كمثل المجتمع الروسيّ كلّه، ابتهج هؤلاء "لمقتل" الوزراء بوغوليبوف، وسيبياغين، وبليفيه. بل إنَّ الرأي العام "التقدّمي" الروسيّ دفع اليهود في هذا الاتجاه، ولم يسلِّم بأن يكون اليهوديّ يسارياً أكثر من اليساري الديمقراطيّ، فما بالك باليهوديّ الاشتراكيّ. أمَّا اليهوديّ المحافظ فقد نأى بنفسه! حتى في اللجنة الإثنوغرافيّة التاريخيّة اليهوديّة الأكاديميّة، "لم يكن ثمة وقت في سنوات الغليان السياسي لممارسة النشاط العلمي بهدوء ... كان المطلوب هو صناعة التاريخ". "لقد انطلقت التيارات الراديكاليّة والثوريّة في اليهوديّة الروسيّة دوماً من أنَّ مسألة مساواة اليهود في الحقوق، وهي المهمة التاريخيّة الرئيسة أمام اليهوديّة

الروسيّة، لن تتحقق إلاّ عندما تُقطع رأس الميدوزا[1] ورؤوس الأفاعي التي تنبثق منها متلوِّية".

في تلك السنوات شنَّ مكتب بطرسبورغ للدفاع عن اليهود نشاطاً استثنائياً بهدف مواجهة "الكتابات المعادية للساميّة، ونشر المعطيات اللازمة عن الوضع الحقوقي لليهود، بغرض التأثير على الرأي العام في الأوساط الليبراليّة الروسيّة" (وقد كتب سليوزبيرغ بهذا الخصوص قائلاً: إنَّ وسائل جمعية الاستيطان اليهودي قدَّمت مساعدة عظيمة الأهميّة). لكنَّ تأثيرها على المجتمع الروسي كان ضعيفاً. فلم تتأسّس في روسيا نفسها ممثليات لهذا المكتب: لا في موسكو، ولا في كييف، ولا في أوديسا. فمن جهة، كانت الدعاية الصهيونيّة تستهلك "طاقة أكبر ممّا لدى المثقفين اليهود كلّهم"، ومن جهة أخرى، استقطبت دعاية البوند الفريق الأكبر من الشباب اليهوديّ المثقّف (لقد أصرَّ سليوزبيرغ على إدانة البوند، لكنَّ فينافير عوَّق هذا المسعى، ورأى أنَّه يجب الابتعاد عن النزاع مع البوند، لأنَّه "يمتلك طاقة مهوِّلة، وقوّة دعائيّة فعاليتها عالية"). لكنْ، سرعان ما أقام مكتب الدفاع علاقات وثيقة لتبادل المعلومات والمساعدة، مع كلٍّ من اللجنة اليهوديّة الأميركيّة (كلود مونتيفيوريه، وليوسن ولف)، والاتحاد اليهودي العالمي في باريس، ولجنة مساعدة اليهود الألمان (Hilfsverein der deutschen Juden، جيمس سيمون، وبول هاتان).

يقول م. كرول: "كان عصب حياة مجموعتنا هو مكتب الإعلام الذي كنَّا ننشر عبره في الصحافة الروسيّة والأجنبية المعاصرة، معلومات موثوقة عن وضع اليهود في روسيا". وقد أخذ أ. إ. براودو على عاتقه مهمة النهوض بهذا العمل.

---

(1) ميدوزا في الميثولوجيا الاغريقية إحدى الغورغونات، وهنَّ نسوة مجنحات متوحشات شعرهن أفاعي تتلوّى؛ إذا وقع نظرهن على أيِّ كائن حي، يتحوَّل في الحال إلى حجر؛ كانت ميدوزا الفانية الوحيدة بينهنَّ. قطع بيرسيوس رأسها.

"وأداها بكفاءة عالية. ففي الظروف التي كانت تعيشها روسيا في تلك الآونة، كانت تأدية مثل هذا العمل تتطلب حذراً شديداً"، والتزاماً صارماً "بالسرية. حتى أعضاء مكتب الدفاع لم يكونوا على معرفة بالطرائق والأساليب التي كان يتبعها لشنِّ هذه الحملة أو تلك في وسائل الإعلام ... فعدد كبير من المقالات التي ظهرت في الصحف الروسيّة أو الأجنبية، تركت أصداء واسعة في أوساط الرأي العام، كان يحملها بروادو بنفسه إلى الصحف والمجلات المعنية، أو كانت تصل إليها بتدبير منه". "لقد كان توريد المعلومات الموثوقة" لإثارة "هذه الحملة الإعلامية أو تلك" يُحدث انطباعاً مشوباً ببعض الرَّهبة، لا سيما على ضوء تجربة القرن العشرين كله. هذا ما ندعوه اليوم بلغتنا المعاصرة، فنَّ احتكار وسائل الإعلام.

في آذار من العام 1905م، دعا مكتب الدفاع في فيلنوس إلى عقد مؤتمر تنظيمي "للاتحاد من أجل نيل الشعب اليهودي في روسيا، حقه في المساواة"، لكنَّ المؤتمر سرعان ما حلَّ نفسه، ثمَّ تحوَّل إلى قيادة الاتحاد من أجل كامل الأهلية (كان فينافير هو من اقترح مصطلح "كامل الأهلية" بدلاً من مصطلح "المساواة"، لأنَّه أقوى منه. ويتذكرونه الآن مخففاً تحت اسم "الاتحاد من أجل نيل كامل المساواة في الحقوق").

كان الهدف من هذا الاتحاد الجديد هو توحيد الأحزاب والمجموعات اليهوديّة كلّها تحت قيادة واحدة. لكنَّ البونديين عابوا على المؤتمر والاتحاد أنّهما تنظيمان برجوازيّان. كما أنَّ كثيراً من الصهاينة لم يصمدوا في عزلتهم الصهيونية. ثمَّ جاء سيل الثورة الروسيّة الذي كان اندفاعه قد بدأ، ليُحدث الشرخ تلو الشرخ في صفوفهم. فانبثقت من مختلف التيارات اتجاهات: كيف يمكننا ألاّ نساهم في هذا الحدث العظيم الذي بات قاب قوسين أو أدنى من أن يُنجز؟ لكنَّ مساهمتهم أثَّرت على التوجّه الاجتماعي الصرف الذي اختاره المؤتمر. فرسَخ الوعي بأنَّه لا يجوز الكفاح من أجل الحقوق المدنية فقط، بل من أجل الحقوق القوميّة أيضاً.

لكنَّ سليوزبيرغ عارض هذا التوجه الذي اعتمده الصهاينة "الذين كانوا يرغبون في فصل اليهود عن الكتلة العامة لمواطنيّ روسيا"، إلاّ أنَّ هذه المطالب "لم تكن تُعلن إلاّ لأغراض ديماغوجية فقط"؛ لأنَّ اليهوديّ الروسيّ "لم يكن يعاني أبداً من أن يعيش حياته القوميّة ... فهل كان من الملائم أن تُثار مسألة منح اليهود حكماً ذاتياً لم تكن قد نالته أيٌّ قوميّة من قوميّات روسيا الأخرى، وفي وقت كان فيه الشعب الروسي نفسه، بجماهيره الأرثوذكسية، لا يزال بعيداً عن أن يكون حراً في ممارسة حياته الدينيّة والقوميّة؟". بيد أنَّ " تلك اللحظة التاريخية كانت اللحظة الملائمة التي اكتسبت فيها الديماغوجيّة أهميّة خاصّة في الشارع اليهودي".

إذن، بدلاً من شعار "المساواة" الذي لم يكن محتواه واضحاً لجميعهم بعد، كما لم يكن قد تحقّق بعد، لكنّه يبدو متأخراً عن اللحظة السياسيّة، طرحوا شعار منح اليهود كامل الأهلية. وكانوا يفهمون بكامل الأهلية، نيل "الاستقلال الذاتي" علاوة على المساواة. "يبدو على وجه العموم أنَّ الذين أعلنوا عن هذه المطالب، لم يكونوا هم أنفسهم على بيِّنة من مغزى هذه المطالب ومحتواها. فلم يكن ثمة قانون يمنع، أو حتى يحدُّ، من إنشاء المدارس اليهوديّة. كانت هناك حاجة للغة الروسيّة؛ لأنَّ الحديث لا يجري عن الخيدير. بل حتى ... الدول الأخرى الأكثر تحضُّراً ... أبقت على لغاتها الرسمية، سواء في ميدان التواصل مع السلطات، أو في المدارس". فلم يكن لليهود أيُّ "حكم ذاتي" حتى في الولايات المتحدة. لكنَّ هؤلاء "الوصوليين" أرادوا "استقلالاً قومياً - ثقافياً" مصحوباً باستقلال ذاتي واسع للطوائف اليهوديّة في روسيا (كما أرادوا في الوقت نفسه، أن ينزعوا الطابع الدينيّ عنها، ويجعلوها دنيويّة، وينتزعوها من تحت تأثير الدين اليهودّ نفسه – هي فكرة كانت ملائمة تماماً للصهاينة والاشتراكيّين على حد سواء). فيما بعد صيغ هذا الشعار على النحو الآتي: "استقلال قومي خاص بالشخصيّة اليهوديّة" (كان الغرض من هذا المطلب هو تمويل المؤسسات

الثقافيّة - الخدماتية اليهوديّة على حساب الدولة الروسيّة، شريطة ألاّ تتدخّل هذه الأخيرة في شؤونها، ولا توجِّه نشاطاتها). لكنْ، كيف يمكن لأُمَّة مبعثرة مشتّتة جغرافياً، أن "تدير شؤونها بنفسها؟" في تشرين الثاني من العام 1905م، التأم المؤتمر الثاني للاتحاد، واتخذ قراراً بالدعوة إلى مجلس قومي عام لليهود الروس.

في روسيا تجلّت هذه الأفكار كلُّها، ومعها فكرة "الاستقلال القوميّ الخاصّ بالشخصيّة اليهوديّة"، وبقيت في صيغ مختلفة حتى العام 1917مباشرة. لكنَّ الاتحاد من أجل كامل الأهلية، لم يصمد طويلاً. ففي أواخر العام 1906م، انفصلت عنه المجموعة الشعبيّة اليهوديّة المناهضة للصهيونيّة (فينافير، سليوزبيرغ، كوليشير، وشتيرنبيرغ)، التي تخلّت عن مهمات المجلس القوميّ اليهوديّ؛ ثم لحق بها بعد قليل، الحزب الشعبيّ اليهوديّ (س. دوبنوف، القوميّة الثقافيّة والروحيّة، لا سيما ضمان حقّ استخدام اللغة اليهوديّة في الحياة العامة أينما كان، لكنْ على حساب من؟ وبأيّ طريقة؟ ...)؛ تلته مجموعة الديمقراطيين اليهود (برامسون، ولانداو)، التي كانت قريبة من جماعة العمل. لقد اتهم هؤلاء كلّهم، الاتحاد من أجل كامل الأهلية بالانحياز إلى حزب الكاديت، لذلك "لا يمكنه أن يمثّل السكان اليهود في روسيا"؛ ورأى الصهاينة في "الوصوليين" دعاة ادّغام، واتهمهم الاشتراكيون بالسلوك البرجوازي. عند أوائل العام 1907م، اندثر الاتحاد ولم يعد له وجود.

دور الحركة الصهيونيّة في الثورة الروسيّة

لقد انخرط الصهاينة، أكثر فأكثر في عاصفة الثورة الروسيّة التي ظنُّوا أنها تقترب، وفي تشرين الثاني من العام 1906م، أقرَّ مؤتمرهم الروسي العام الذي التأم في هيلسينغفورس، " أنَّ الاكتفاء بالالتفات نحو الاحتياجات اليوميّة ليهود روسيا وحده لا يكفي، إنَّما من الضروري الانخراط في نضاله السياسيّ والاجتماعيّ"؛ وألحَّ جابوتينسكي على ضرورة أن يتضمَّن برنامج الصهيونيّة مطلب إقامة السلطة الشعبية في روسيا؛ فاعترض د. باسمانيك على هذا الاقتراح قائلاً: "لا يمكن أن يُقدِّم هذا المطلب إلاّ أولئك المستعدون للخروج إلى المتاريس". في آخر المطاف "صدَّق المؤتمر على انضمام الصهاينة إلى حركة التحرُّر". لكنَّ هذه كانت قد شارفت على نهايتها، بعد فشل نداء فيبورغسكي.

وقد أوضح مؤلِّف هذا البرنامج جابوتينسكي، أنَّ الهدف النهائي للصهيونيّة لن يتحقق قبل عدة عقود، في الصراع لنيل كامل الأهليّة سيفهم اليهود بمزيد من الوضوح، الأهداف التي تسعى إليها الصهيونيّة. والحقيقة أنَّ جابوتينسكي تحفَّظ مؤكداً: "نحن نترك الصفوف الأولى لممثلي أمَّة الأكثرية. نحن نتخلَّى عن مطالبتنا المستحيلة بالقيادة: إنَّنا ننحاز وننضمُّ". نعم، فلسطين هي فلسطين، أمَّا الآن فسوف نناضل في روسيا. قبل ذلك بثلاث سنوات كان بليفيه قد ألمح لهرتزل أنَّه يخشى تحديداً، حصول مثل هذا المنعطف في الحركة الصهيونية.

لا يرى سليوزبيرغ أنَّ الدور الذي أدَّاه الصهاينة كان دوراً متواضعاً. فهو يقول: "بعد مؤتمر هيلسينغفورس قرَّر الصهاينة أن يستولوا على شتى ميادين النشاط الاجتماعيّ اليهوديّ"، فسعوا "إلى فرض نفوذهم على الأرض في أماكن

إقامة اليهود" (في أول مجلس دوما كان للصهاينة خمسة أعضاء من أعضائها اليهود الاثني عشر). لكنّه يلاحظ قائلاً: إنَّ هذه التعددية الحزبية اليهوديّة كلّها، كانت على أيِّ حال "من فعل حلقات صغيرة من المثقفين"، ولم تكن من صنع الجماهير اليهوديّة، ولم تؤدّ دعاية هذه المجموعات إلاّ إلى "تشويش العقول وإرباكها".

فهذه الفرق المبعثرة كلّها لم تطرح أيَّ شيء محدَّد: مثلاً، في سبيل أيِّ حقّ يجب أن يناضل يهود روسيا؟ حقّ المساواة أم الحقوق الكاملة؟ في أيِّ صيغة تحديداً؟ الصيغة المدنيّة أم القوميّة؟ ويجب ألاّ ننسى أيضاً أنَّ "هذه المجموعات كانت تتألف كلّها من المثقفين حصراً ... ولم تأخذ بين صفوفها أيَّ عناصر من الأصوليّين اليهود الذين أدركوا في آخر الأمر ضرورة التنظيم في الصراع ضدَّ التوجُّه المناهض للدين، الذي كان شائعاً في صفوف الشباب اليهوديّ". هكذا "بدأ ما تطوَّر فيما بعد إلى ما سُمِّي أغودات - إسرائيل". وما كان يُقلق هذه الحركة هو "أنَّ العناصر الثوريّة اليهوديّة كانت تُجنّد من الشباب اليهودي غير المتدين"، بينما كان "أكثر اليهود، تحديداً اليهود الأصوليين، لا يسعون إلاّ إلى نيل الحقوق، وإلغاء القيود المفروضة على المقيمين على إخلاصهم للعرش والبعيدين عن فكرة الإطاحة بالنظام القائم".

فأنت حينما تدرس تاريخ اليهود في أوائل القرن العشرين، نادراً ما تقرأ عن اليهود الأصوليّين. وكان سليوزبيرغ قد أعلن مرّة ردّاً على غضب البوند: "بما أنَّ الميلاميديين[1] يساندونني، إذن أنا اعتمد على جمهور كبير من اليهود يفوق ما لدى زعماء البوند أنفسهم، لأنَّ الميلاميديين في اليهوديّة أكثر من العمّال". مع إشاعة النزعة الدنيويّة في الرأي العام اليهوديّ، لم تندثر أبداً الطوائف اليهوديّة في إقليم الاستيطان اليهوديّ. ولم تخرج من ميدان التداول المسائل القديمة المتّصلة

(1) هم مدرسو المدارس الدينية اليهوديّة، -الخيدير. -ح. إ.

ببناء حياتها، وتعليمها الديني، ودور الرابينيّة في حياتها. ففي فترة الاستقرار المؤقت، في العام 1909م، جرى في المؤتمر الذي عُقد في كوفنو، بحث إصلاح الطائفة اليهوديّة بدقّة."لقد تبيَّن أنَّ أعمال المؤتمر كانت مثمرة جداً، ونادراً ما كانت تُقارن بها نتائج أيِّ مؤتمر يهوديٍّ آخر من حيث جدّيتها ورويَّة القرارات المتّخذة". "لقد كانت الأصوليّة اليهوديّة في صراع مع المثقفين اليهود، ولم يكن هذا الصراع دائما معلناً، بل خفيّاً. كان جليّاً أنَّ الأصوليّة بإدانتها لحركة التحرر في داخل اليهوديّة، إنَّما كانت تسعى لنيل رضا السلطات". لكنَّها تأخرت كثيراً. فعند العام 1905م كان النظام القيصريّ قد فقد السيطرة على البلاد. أمَّا اليهوديّة التقليدية فكانت قد خسرت جيلاً كاملاً، ولم يكن ذلك الجيل هو الجيل الأول الذي يلتحق بالصهيونيّة، والليبراليّة الدنيويّة، ونادرا بالاتجاه المحافظ المتنوِّر، ثمَّ بالحركة الثوريّة التي كانت فاعليتها تتعاظم أكثر فأكثر.

الصهاينة يستأنفون عمليّاتهم الإرهابيّة

عشية القرن العشرين كان الجيل الثوريّ الجديد قد خرج إلى مسرح الأحداث. كان زعيماه غريغوري غيرشوني، وميخائيل غوتس قد عزما على استئناف العمليات الإرهابيّة التي كان قد بدأها حزب الارادة الشعبيّة. "لقد أخذ غيرشوني على عاتقه مهمة شائكة جداً، وفي غاية الخطورة: تأسيس حزب ثوري جديد في روسيا يجب أن يكون وريثاً جديراً **لحزب الإرادة الشعبية**. وبفضل المواهب التنظيميّة الفذّة التي كان يملكها غيرشوني وبعض رفاقه من الثوريين الآخرين المتفانين، كان هذا الحزب قد تأسّس عند أواخر العام 1901م". "كما تأسّست في الوقت نفسه منظمته القتالية. كان غيرشوني هذا نفسه هو مؤسس هذه المنظمة غير العادية، وملهمها". في حزب الاشتراكيّين الثوريّين "أدّى اليهود دوراً بارزاً خلال السنوات الأولى من تأسيسه". فكان فيه "آنسكي - رابُوبورت، خ. جيتلوفسكي، اوسيب مينور، إ. روبانوفيتش"، ومرة أخرى مارك ناتاسون. كان في منظّمة الاشتراكيين الثوريين القتاليّة "ابراهام غوتس، دورا بريليانت، ل. زيلبيربيرغ" عداك عن أزيف الذائع الصيت. كما نشأ في كنف المقاتلين من الاشتراكيّين الثوريّين، م. تريليسير الذي سيغدو واحداً من أشهر رجال التشيكا.[1] "لقد كان بين الأعضاء العاديين في هذا الحزب غير قليل من اليهود"، مع أنّهم بحسب د. شوب، "كانوا يشكلون فيه دائماً أقليّة ضئيلة". ويرى

---

(1) في السنوات الأولى من العهد السوفيتي، اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والعصيان والمضاربة. ــح. إ.

شوب هذا نفسه، أنَّ هذا الحزب كان "أكثر الأحزاب الروسيّة ثوريّة". لكنَّ الدواعي الأمنيّة أرغمتهم على نقل مركز الحزب إلى خارج البلاد [وهو ما لم يفعله البوند مثلاً] ، إلى جنيف حيث كان يقيم م. غوتس واو. مينور. أمَّا "النمر" العاصي المتمرِد غيرشوني، الذي شدَّ انتباه زوباتوف إلى شخصيّته بكثير من التكلُف، فقد كان يتجوّل غير هيَّاب في كثير من مقاطعات روسيا، ويُنفذ فيها مثله كمثل ب. سافينكوف، أعمالاً إرهابيّة، بعد أن ينجح في إقناع آخرين وتجنيدهم. ففي كييف كان موجوداً في ساحة إسحاق لحظة اغتيال سيبياغين؛ وفي أُوفا كان موجوداً على مقربة حينما اغتيل المحافظ بوغدانوافيتش؛ وفي خاركوف كان حاضراً لحظة اغتيال المحافظ اوبولينسكي؛ كما كان في شارع نيفسكي لدى محاولة الاغتيال الفاشلة التي طالت بوبيدونوستسيف. كان منفذوُ هذه "الأعمال الإرهابية" كلهم من "المسيحيين" : ب. كاربوفيتش، س. بالماشيف، ي. سوزونوف وغيرهم (كان ماكسيمليان شفيتسير هو من أعدَّ القنابل لاغتيال بليفيه، والأمير العظيم سيرغيه ألكساندروفتيتش، فضلاً عن الاغتيالات التي كان يُخطط لها ضدَّ الأمير العظيم فلاديمير ألكساندروفيتش، ووزيري الداخلية بوليغين ودورنوف. في العام 1905م قتلته هو نفسه قنبلة انفجرت بينما كان يصنعها). لكنَّ غيرشوني اعتقل مصادفة، وحُكم عليه بالإعدام، إلاَّ أنَّه مُنح عفواً من المقام الأعلى، من غير أن يرفع استرحاماً، ونجا من الموت، ثمَّ في العام 1907م هرب من أكاتوي بطريقة مبتكرة: في برميل تحت رؤوس الملفوف، ووصل من هناك عبر فلاديفوستوك إلى أميركا، ومنها إلى أوروبا؛ فطالبت الحكومة القيصرية إيطاليا أن تسلمه لها، لكنَّ الرأي العام الليبرالي في أوروبا وقف سداً منيعاً حال دون ذلك، كما ضغط كليمانصو مطالباً بعدم تسليمه أيضاً. لكنْ سرعان ما مات غيرشوني بسرطان الرئة. كما تميَّز بين الإرهابيين من الاشتراكيّين الثوريّين، أبراهام غوتس أيضاً، الذي كان له دور فاعل في اغتيال دورنوف، وأكيموف، وشوفالوف، وتريبوف، ومساهمة في اغتيال مين،

وريمان (لسوء طالعه أنّه عاش طويلاً بعد موت شقيقه الأكبر الذي توفي في سنٍ مبكرة، - فيما بعد ذاق ما ذاق من ويلات البلاشفة).

لقد كان هذا الجيل الثوريّ أكثر جرأة من الجيل السابق في اللعب مع التاريخ. كان منهم بنحاس (بطرس) روتينبيرغ الذي على الرَّغم من أنّه لم يكن لامعاً، إلاّ أنّه يستحق أن ننوه به. ففي العام 1905م أعدَّ هذا وحدات مقاتلة في بطرسبورغ وسلّحها. كان هو نفسه ملهم غابون وزميله في التاسع من كانون الثاني 1905م، لكنّه في العام 1906م "اغتاله بتكليف من حزب الاشتراكيين الثوريين" (نشر فيما بعد مذكرة "مقتل غابون"). في العام 1919م هاجر إلى فلسطين، وذاع صيته هناك في كهربة البلاد. لقد أظهر هناك أنّه قادر على البناء؛ بيد أنّه خلال سنيٍّ عمره المبكرة في روسيا، لم يكن يبني بل كان يهدم. لن نتتبَع ما آل إليه مصير "تلميذ صهيون" المستهتر هذا الذي أشعل نار عصيان سفيابورغ العبثي، ثم نجح في أن ينجو بنفسه من المذبحة الجماعية التي وقعت هناك.

فضلاً عن الاشتراكيين الثوريين، كان ينبت في كلّ عام مناضلون اشتراكيّون ديمقراطيّون جدد، من المنظّرين الثرثارين ذوي الألسنة الطليقة. وقد بدا بعضهم ذا أهمية، لكنْ لبعض الوقت فقط، وفي دائرة ضيّقة، من هؤلاء ألكساندرا سوكولوفسكايا، التي لم تدخل التاريخ إلاّ لأنّها كانت زوجة تروتسكي الأولى وأُمّ ابنتيه. كما نال مكانة لا يستحقها كلٌّ من: زينوفي ليتفين -سيدوي، رئيس أركان الحرس الكراسنوبريسنينسكي في انتفاضة موسكو المسلّحة؛ وزينوفي دوسير أحد قادة تلك الانتفاضة الثلاثة. ومن قادة انتفاضة موسكو الآخرين: ف. ل. شانتسير، ليف كافينهاوزن، لوبوتسكي - زاغورسكي، مارتين ماندلشتام - ليادوف عضو اللجنة التنفيذية للحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي: قيادة الانتفاضة. وآخرون من أمثال ف. دانو، أو او. ناخامكيس اللذين لم يبدأ نجمهما بالصعود إلاّ في العام 1918م.

على الرَّغم من أنَّ باكونين لم يكن يُكنُّ وداً لليهود، إلاّ أنَّ كثيراً منهم صاروا إلى قادة ومنظّرين في حركته الفوضوية. "لكنَّ الفوضويين الروس الآخرين، كارابوتكين مثلاً، لم يتخذوا موقفاً سلبياً تجاه اليهود، بل حاولوا استمالتهم". ويمكننا أن نذكر بين هؤلاء القادة: يعقوب نوفوميرسكي، ألكساندر غيه، ليف تشورني، ف. غوردين. وهناك قائد آخر من قادة الفوضويين هو إ. غروسمان - روشين، يتذكَر بإجلال وتبجيل "الإرهابي الشهير" هارون إيلين، الذي لم يكن مجرَّد "معلّم من معلّمي الأعمال الدموية"، "فهو لم يكن يوماً من المقاتلين الآليين". "لقد كان الفريق الأقلُّ صبراً من الجماهير اليهوديّة ... يبحث عن وسيلة سريعة لتحقيق النظام الاشتراكيّ. وقد وجد هؤلاء في الفوضويّة عربة الإسعاف". فتركت الفوضوية أشدَّ انطباع لدى يهود كييف والجنوب، ونحن يمكننا استناداً إلى الموادّ التي ساقها بوغروف، أن نلقى غير قليل من صغار الفوضويين اليهود الذين لم تدخل أسماؤهم التاريخ.

مع أنَّنا كنَّا قد أشرنا إلى هذا من قبل، إلاّ أنَّه من المفيد أن نعيد تكرار ما قلنا: لم تكن المضايقات وحدها التي دفعت اليهود بكثافة نحو الثورة. "فمشاركة اليهود في الحركة الثوريّة الروسيّة لا يجوز تعليلها إلاّ جزئياً بحرمان اليهود من حقوقهم، وحالة عدم المساواة التي كانوا يعانون منها ... أمَّا العامل الرئيس الذي دفع بهم إلى الانخراط في الحركة الثوريّة الروسيّة، فهو أنَّهم كانوا يشاركون الآخرين إرادة النضال ضدَّ الاستبداد القيصريّ. فهل ثمة ما هو غريب في هذا؟ إنَّ شباب العائلات المثقفة، سواء الروسيّة أو اليهوديّة، الذي كان يسمع في داخل العائلة على مدى سنين كثيرة تعابير مثل: "جرائم السلطة"، "حكومة القتلة"، اندفع لا يلوي على شيء إلى المساهمة في العمل الثوريّ. كذلك فعل بوغروف أيضاً.

في 1905م اتهم المؤرخ اليهودي س. دوبنوف، الثوريّين اليهود كلّهم "بالخيانة القومية". فكتب يقول في مقالة عنوانها: "العبودية في الثورة": "إنَّ ذلك الجيش الجرّار من الشباب اليهودي الذي يشغل أبرز المواقع في صفوف الحزب الاشتراكيّ الديمقراطيّ الروسيّ، بل يدفع فيه قادة له، قطع بذلك كلّ صلة

تربطه باليهودية ... أنتم لستم صنّاع الثورة بل أنتم خدمها ، سماسرتها". لكنَّ الكبار أخذوا مع الوقت يباركون شبابهم الثوريّين. فقد تعاظمت قوّة هذه النزعة لدى الجيل الجديد ، "جيل الآباء" ، بل كانت على وجه العموم ، أقوى لدى اليهود منها لدى الروس. إذْ بعد عشر سنوات (في العام 1916م.) ، أعلن عضو مجلس دوما الدولة ميئير بوشمان: "نحن لا نندم على أنَّ اليهود شاركوا في النضال التحرّري ... فقد ناضلوا من أجل حريتكم". بعد ستة أشهر ، أي في آذار من العام 1917م ، مع بزوغ فجر ثورة جديدة ، أعلن المحامي العريق او. او. غروزنبيرغ أمام قادة الحكومة المؤقتة ومجلس مندوبي العمال والجنود بحماس ويقين: "لقد منحنا الثورة بسخاء نسبة كبيرة من أبناء شعبنا – صفوته كلّها تقريباً ، شبابه كلّهم تقريباً ..وحينما انتفض الشعب الثوريّ في العام 1905م ، اندفع إليه المناضلون اليهود تياراً جارفاً من غير حساب". وهذا ما نوَّه به آخرون أيضاً : "في روسيا نهض الموقف التاريخي أمام الجماهير اليهوديّة على نحو لم يكن باستطاعتهم إلاّ أن يكونوا فيه أكثر المشاركين في الثورة نشاطاً وحماساً". "لقد ربط اليهود مستقبل المسألة اليهوديّة في روسيا بانتصار الفكر التقدميّ فيها". ولا ريب في أنَّ وهج الثوريّين اليهود قد زاد من وهج الحركة الثوريّة في روسيا على وجه العموم.

بيد أنَّ الشباب الحرفيين والمثقّفين الذين كانوا ينتمون إلى فئات اجتماعيّة مختلفة ، لم يكن بمقدورهم أن يحقّقوا الثورة. كان من أولى المهمات: جذب عمال المصانع والزجُّ بهم في المعركة ، لا سيما عمال بطرسبورغ. لكنَّ مدير إدارة الشرطة عندئذٍ نوَّه إلى أنَّ " المطامع السياسيّة كانت غريبة عن الحركة العمّاليّة في مراحل تطوُّرها الأولى". فعشية التاسع من كانون الثاني مباشرة ، "عندما عُقد الاجتماع الاستثنائي للعمال في 27 كانون الأول ، طرد العمال من القاعة يهودياً حاول أن يُلقي كلمة تحريضيّة ذات طابع سياسيّ ، ويوزع منشورات ، كما أُوقفت ثلاث يهوديات كنَّ يحرّضن على خلفيّة سياسيّة". لاكتساب عمال بطرسبورغ بفعالية ، كان لا بدَّ من النشاط التحريضي الذي شنّه غابون على خلفيّة نفاق دينيّ أرثوذكسيّ.

الثورة الروسيّة في العام 1905

في التاسع من كانون الثاني، قبل أن تُطلق قوات الجيش أيَّ طلقة، كان الشاب سيميون ريختزامير (ابن مدير شركة مستودعات التموين وصوامع الحبوب)، يقود أول متراس أُقيم (في القاطع الرابع من جزيرة فاسيليفسكي) في ذلك اليوم، وقد ترافقت إقامة المتراس بقطع خطوط الهاتف والبرق، ومهاجمة قسم الشرطة. بعد يومين أقام عمال جزيرة فاسيليفسكي "مجزرة رهيبة في المثقفين".

ومن المعروف أنَّ الثورة الروسيّة المهاجرة في أوروبا، تلقت خبر إطلاق النار في بطرسبورغ بمزيج من السخط والابتهاج: أخيراً ها هي ذي!! الآن تدوي!! أمّا البهجة -والانتفاضة - فقد أشاعهما عبر إقليم الاستيطان اليهودي، حزب البوند الذي جاء في نشيده الحزبي (دعاه آن - سكي "مارسيليز العمال اليهود):

"كفى ما أحببنا أعداءنا،

نريد الآن أن نكرههم!!

... المحرقة جاهزة! وثمة كثير من الحطب،

يكفي لإشعال الحريق المقدّس في العالم كله!"

(على وجه العموم كان أركادي كوننس قد ترجم النشيد الأُممي إلى الروسيّة منذ العام 1902م. وهكذا شاعت الكلمات التي كان لها وقع الصلوات في نفوس عدد من الأجيال: "انهض أيُّها الموسوم باللعنة". "سنمزِّق عالم الظلم كله").

وسرعان ما أعلن البوند نداءه ("بمئات آلاف النسخ"): الثورة بدأت. لقد اشتعلت في العاصمة، وتدحرجت كالحريق في شتى أرجاء البلاد ... تسلّحوا! هاجموا مخازن السلاح، استولوا على الأسلحة كلها ... اجعلوا الشوارع كلّها ميادين قتال!".

وفق حسابات "الحوليات الحمراء" السوفييتية المبكرة، أنَّ "أحداث التاسع من كانون الثاني في بطرسبورغ، لاقت أصداء واسعة في صفوف الحركة العماليّة اليهوديّة: لقد جرَّت وراءها انتفاضة جماهير العمال اليهود في شتى أنحاء إقليم الاستيطان اليهودي. وقاد تلك الانتفاضة حزب البوند". وللحفاظ على هذا الزخم الجماهيري، أخذت فصائل البوند تجول على الورش، والمصانع، والمعامل، بل على عائلات العمال أيضاً، وتدعو إلى وقف العمل، كما أطلقت البخار من المراجل بالقوّة، وانتزعت أحزمة الحركة من الآلات؛ وهدّدت أصحاب الإنتاج، بل أطلقت النار عليهم في بعض الأماكن، وفي فيتيبسك رشقوا أحد أرباب العمل بحمض الكبريت. إذن لم تكن تلك الانتفاضة "انتفاضة جماهيريّة عفويّة، بل انتفاضة معدَّة إعداداً جيداً، ومنظّمة تنظيماً دقيقاً". لكنَّ ن. بوخبيندير يقول آسفاً: "لم يشارك في الانتفاضة سوى العمال اليهود ... في عدد من المدن أبدى العمال الروس مقاومة في مواجهة محاولات وقف العمل في المصانع والمعامل". قامت انتفاضات استمرت أسبوعاً في فيلنوس، ومينسك، وغوميل، وريغا، أمَّا في ليبافا، فقد تواصلت الانتفاضة طول أسبوعين. وغني عن البيان القول: إنَّ الشرطة تدخّلت، لكنَّ حزب البوند "أنشأ في عدد من المدن وحدات مسلحة لمواجهة إرهاب الشرطة". ففي كرينكا (مقاطعة غرودينسك)، طرد الثائرون الشرطة من المكان بالطلقات النارية، وقطعوا خطوط البرق، وعلى مدى يومين غابت السلطات عن الساحة تماماً. كانت لجنة الانتفاضة هي التي تدير شؤون المدينة. "وحقيقة أنَّ العمال الذين كان اليهود يشكلون الغالبية بينهم، قد نجحوا في أن يتحوّلوا إلى سلطة في أوائل العام 1905م، كان لها دلالتها الخاصة بالنسبة إلى

الثورة، وأوحت بآمال كثيرة". والحقيقة أنَّ النشاط المفرط الذي تميَّز به حزب البوند، "كان يمكن أن يخلق انطباعاً بأنَّ الساخطين هم أساساً من اليهود، وأنّهم يثورون، أمَّا الشعوب الأخرى، فليست ثوريّة إلى هذا الحد".

عند ذلك الوقت كانت قوّة الثوريين تكمن في وحدات "الدفاع الذاتي" القتالية العلنيّة التي كانت قد اختُبرت في أحداث غوميل، وباتت الآن على درجة كبيرة من القوة. "كانت قوات الدفاع الذاتي هذه ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالوحدات القتالية للتنظيمات الحزبية ... ويمكن القول: إنَّ إقليم الاستيطان اليهودي كان كلّه مغطّى بشبكة من وحدات الدفاع الذاتي المسلّحة التي أدت دوراً عظيماً بعملياتها القتاليّة ... ولم يكن بمقدور أيٍّ قوة أن تقف في مواجهتها، سوى القوات العسكرية النظاميـة". في حمّى الثورة انخرطت فيها أيضاً الأحزاب الصهيونيّة على اختلاف ألوانها: "كانت لحزب بواليه - تسيون مشاركة متميِّزة" في فصائل الدفاع الذاتيّ، كما شاركت فيها "الفصائل المسلحة للاشتراكيّين الصهاينة"، بدوره حزب العمال الاشتراكي اليهودي نظّم فصائله المقاتلة. وقد أعلن س. ديمانشتين، الذي سيغدو فيما بعد أحد البلاشفة البارزين، إنَّ "هؤلاء الاشتراكيّين من مختلف المشارب الصهيونية، كانوا معنا في اللحظات الثوريّة الحاسمة التي كنَّا نقاتل فيها".

ثمَّ تابع حزب البوند تحرُّكاته القتالية في الأشهر التالية من العام 1905م المضطرب. فبرزت في هذا العام أحداث نيسان التي وقعت في مدينة جيتومير. وبحسب الموسوعة اليهوديّة أنَّ هذه كانت مجزرة يهوديّة أخرى "دبَّرتها الشرطة". لكنَّ ديمانشتين هذا نفسه "الذي كان من المشاركين النشطين في ثورة العام 1905م، في مناطق ما يُسمى إقليم الاستيطان اليهودي"، كتب يقول: "لم تكن تلك الأحداث مجزرة، بل قتالاً ضدَّ جيوش الثورة المضادة". وكتبت الموسوعة اليهوديّة القديمة تقول: إنَّ قرابة عشرين يهودي قُتلوا، بينما تقول الموسوعة الحديثة: "إنَّ القتلى من اليهود قاربوا الخمسين (بحسب معطيات أخرى قرابة

خمسة وثلاثين)". ووفق معطيات الموسوعة عينها: "أنَّ الأحداث وقعت بعد إعلان استفزازي زعم أنَّ اليهود في ضواحي المدينة أطلقوا النار على صورة للقيصر". أمَّا مجلة "الأخبار الحكومية" فنقلت الخبر كما لو كانت تنقل واقعة لا ريب في صحتها: إنَّه قبيل أعمال العنف بيومين "تجمَّع في ضواحي المدينة حشد من قرابة 300 شخص ... ثمَّ أخذوا يتدرَّبون على الرماية بالمسدسات ... في صورة للقيصر". بعد ذلك وقعت في المدينة عدة مشاجرات بين اليهود والمسيحيّين – بحسب "الأخبار الحكومية" أنَّ اليهود كانوا المبادرين إلى العراك في أكثر الحالات. في اليوم الذي وقع فيه الحدث "أبدت فصائل الدفاع الذاتي اليهوديّة مقاومة بطوليّة ضدَّ المخرِبين". من مكان قريب، هبَّ لمساعدة فصائل الدفاع الذاتي في جيتومير، فصيل مسلح من الشباب اليهود، في الطريق عند تروويانوفا، "أوقفه الفلاحون الأوكرانيون". "فحاول هؤلاء أن يتخفّوا في منازل اليهود المحليين، لكنَّ هؤلاء لم يستقبلوهم في منازلهم، وأرشدوا الفلاحين إلى المكان الذي اختبأ فيه اثنان منهم"، وهي واقعة لها دلالتها: "فقُتل عشرة من أفراد الفصيل".

في تلك السنوات ابتكروا وسيلة ناجحة جداً لممارسة التحريض الثوريّ: "لقد كان تشييع ضحايا الثورة وسيلة من أفضل وسائل الدعاية التي كان لها تأثير حماسيّ مهوّل على الجماهير"، فقد خلق هذا "لدى المضلين وعياً بأنَّ موتهم سيوظَّف بفاعلية لخدمة الثورة، ويثير شعور الانتقام الذي يظهر على الآلاف في أثناء مراسم التشييع"، بل "كان تنظيم مظاهرات التشييع أسهل" أيضاً. فقد رأى ممثلو المجتمع الليبرالي أنَّ من واجبهم أن يسعوا كيلا تتدخَّل الشرطة في إقامة مراسم التشييع". وها هي "مناسبات التشييع تتحوَّل إلى جزء لا يتجزَّأ من أساليب الدعاية الثورية في العام 1905م".

لقد كان صيف العام 1905م "طور إرهاب وحشي قاس مارسته الشرطة، بيد أنَّ حالات الانتقام من جانب العمال لم تكن قليلة أيضاً: إلقاء القنابل على تجمُّعات الجنود والقوزاق، وقتل رجال الشرطة من مختلف الرتب وجرحهم؛ هذا

كله كان يحدث مرات ومرات"، لأنه كان يعني "مسألة تراجع الثورة أو تمدُّدها في الإقليم اليهودي". وها هم القوزاق يقتلون بوندياً في غوميل. فاحتشد لتشييعه جمع من ثمانية آلاف شخص، وأُلقيت في الحشد خُطب ثورية، والثورة تتدحرج من مكان إلى مكان! وعندما كان يجب الاحتجاج ضدَّ دعوة دوما "بوليغين" (الاستشاريّة -التشريعيّة)، "انتقلت الحملة من البورصة في الحي اليهودي إلى المعبد ... وتوافد خطباء الحزب إلى هناك في وقت الصلاة ... تحت حراسة فصيلهم القتالي الذي جاء إلى المكان وشغل منافذه كلّها ... في مثل تلك الاجتماعات كانوا يُقرُّون عادة من غير أيِّ اعتراض، إعلانات معدَّة مسبقاً"، وعلى أيِّ حال، أيُّ مخرج آخر كان يمكن أن يكون أمام أولئك المصلّين اليهود المساكين؟ حاول فقط أن تُعارض هؤلاء العلوج! لقد كان "من المستحيل أن يُسمح للثورة بأن تتوقف عند هذه المرحلة"

بموجب مشروع إعلان دعوة تلك الدوما الاستشارية التي لم تُعقد بعد أحداث العام 1905م، كان مُقرراً ألاَّ يُعطى اليهود الحقوق الانتخابيّة بدعوى أنَّهم لا يملكون مثل هذه الحقوق في المدن التي تتمتع بإدارة ذاتية. لكنَّ أمداء العام 1905م امتدَّت وتعاظمت، فتخلى اليهود - النواب الذين عينتهم سلطات المقاطعات في دوما المدن، عن صلاحياتهم علانية، — بحسب قانون الانتخاب الذي صدر فيما بعد في شهر آب، مُنح اليهود حقَّ التصويت. بيد أنَّ الثورة تدحرجت، ورفض الرأي العام تلك الدوما الاستشارية، فلم تجتمع.

كان مستوى شدة التوتُّر يتأرجح، لكنَّ حالة التوتُّر بقيت قائمة في البلاد على امتداد العام 1905 المشؤوم هذا كله، ولم تنجح الحكومة القيصرية في أن تواكب تسارع الأحداث. ففي الخريف أُعدّت في شتى أرجاء روسيا، انتفاضة عمال السكك الحديديّة، وانتفاضات أخرى. وكان من الطبيعي ألاَّ يكون مستوى التوتر في إقليم الاستيطان اليهودي أقل. ففي بداية تشرين الأول لوحظ "نهوض حادٌّ ... في الطاقة الثورية لدى جماهير" الإقليم الشمالي الغربي، "انطلقت

لقاءات جماهيرية جديدة في المعابد اليهوديّة" (بالطريقة عينها: أعداد من أفراد الفصائل المسلَحة على الأبواب تثير الفزع في قلوب المصلين اليهود)، "وأخذوا يجدُّون في الإعداد لانتفاضة عامة". في فيلنوس عُقد اجتماع بموافقة من المحافظ، "فأخذ المجتمعون هناك يُطلقون النار على صورة كبيرة للقيصر، وشرع بعضهم يمزِقها بضربات الكراسي"، بعد ساعة فقط، أطلقوا النار على المحافظ نفسه. هاكم هو هياج العام 1905م! في غوميل على سبيل المثال، لم ينجح حزب العمال الاشتراكيّ الديمقراطيّ الروسيّ، وحزب البوند في أن يتفاهما، "فتصرَّف كلٌّ منهما على حدة"، بينما اتفق الاشتراكيّون الثوريّون مع الصهاينة الاشتراكيّين: "ورموا قنابل على تجمعات القوزاق، فردَّ هؤلاء بإطلاق النار على كل من يقع في طريقهم، لم يفرِّقوا بين قومية وأخرى"، —يا له من حريق ثوري مجيد حقاً! وهو ما كان ينقص!

لم يكن غريباً أن "تنشط ضدَّ الثورة، في كثير من الأماكن، عناصر من المتديّنين اليهود الأثرياء. فقد ساعد هؤلاء الشرطة على اصطياد الثوريّين اليهود، وإفشال المظاهرات، والانتفاضات وما إلى ذلك". لكنَّ سلوك هؤلاء لم يكن نابعاً من رغبتهم في الوقوف إلى جانب الحكومة؛ لكنْ لأنّهم لم يفارقوا الإله يهوه، لم تكن بهم رغبة إلى أن يروا أسس عيشهم تتهدَّم. كما لم يكونوا على استعداد للقبول بقانون الثورة؛ لأنَّهم كانوا يؤْثرون قانونهم هم. أمَّا بالنسبة إلى الشباب الثوريّ، فقد كان "التحالف الديني" في بيلوستوك وسواها من الأماكن الأخرى، تحالفاً لا يختلف في شيء عن "المئة السود".[1]

---

(1) تشورنوسوتنتسي =المئة السود. أعضاء التنظيمات الملكية السفاحة التي اتحدت في تنظيم "تحالف الشعب الروسي"، و"تحالف ميخائيل رئيس الملائكة" وسواهما من التحالفات الأخرى. وانضوت في الأعوام 1905 -1917 تحت لواء تنظيم فصائل "المئات السود" المسلَحة التي تشكلَت من العناصر المهمّشة لمواجهة الحركة الثورية في الأعوام 1905 -1907.

ينقل البلشفيّ ديمانشتين بعد الانتفاضة العامة التي اشتعلت في تشرين الأول، أن "حزب البوند، وحزب الاشتراكيّين الصهاينة وسواهما من الأحزاب العمالية الأخرى، هم الذين دعوا إلى الانتفاضة"، لكنّ "الترهّلَ فعل فعله". بالاتفاق مع البلاشفة قاطع حزب البوند فيما بعد الانتخابات التي أُعلن عنها في بداية العام 1906م لاختيار أول دوما، معوّلاً على قرب انفجار الثورة. ثمّ بعد هزيمتها التي باتت جليّة، استسلم لوضعه كأقليّة؛ ففي المؤتمر الخامس لحزب العمال الاشتراكي الروسي الذي التأم في العام 1907م، لم يكن له سوى 55 مندوباً من أصل 305 مندوبين هم كامل أعضاء المؤتمر. بل لقد "تحوّل البوند إلى نصير لليهوديّة المتطرّفة".

مرسوم فيتيه

في ذلك الوضع المتوتِّر المتقلقل بالنسبة إلى السلطة، أقنع فيتيه نيقولاي الثاني بإصدار مرسوم 17 تشرين الأول للعام 1905م (الحقيقة أن فيتيه كان يريد إصدار هذا المرسوم كإعلان حكوميّ صرف، إلاّ أنَّ نيقولاي أصرَّ على الجانب الشكلي للمرسوم، ووجوب أن يصدر باسم القيصر: لقد كان على ثقة بأنَّ ذلك سيلامس قلوب الرعايا ويحرك مشاعرهم). ويشهد أ. د. اوبولينسكي الذي وضع النسخة الأولى من مشروع مرسوم فيتيه، أنَّ مادّة مستقلة من موادّه الثلاث كانت مكرَّسة في البداية لحقوق اليهود وحريّاتهم، إلاّ أنَّ فيتيه أعاد صياغتها (ربما نزولاً عند إصرار القيصر)، في مادّة عامة عن حرمة الأشخاص، وحريّة الرأي، وعقد الاجتماعات. بذلك خلا المرسوم من مادّة خاصّة عن مساواة اليهود. "لم يأت فيتيه على ذكر ضرورة مساواة الرعايا الروس كلّهم أمام القانون، بغضّ النظر عن انتمائهم الدينيّ أو القوميّ"، إلاّ في التقرير الذي نشره مع المرسوم.

لكنَّ التنازلات ينبغي أن تُقدَّم في الوقت المناسب، من موقع القوة، وليس في طور تسرُّب الضعف وتدحرجه في جسد النظام. فالمجتمع الليبراليّ والمجتمع والثوريّ أوَّلا المرسوم بشماتة وتشفٍ، ورأيا فيه استسلاماً، ورفضاه. فأذهل ذلك الموقف كلاً من القيصر وفيتيه وبعضاً من المثقفين اليهود: "لقد تحقّق الهدف الذي سعى إليه أفضل رجالات الأُمة الروسيّة منذ عقود ... تخلّي القيصر طوعاً من حيث المبدأ، عن سلطته المطلقة، والتزامه بالتنازل عن السلطة التشريعية لممثليِّ الشعب ... كان المنتظر أن تغمر الفرحة بهذا التغيير جميعهم من غير استثناء"، لكنَّهم قابلوه بثوريّتهم المعهودة التي لا تلين: النضال تواصل! في الشوارع مزّقوا

الأعلام الوطنية، وصور القيصر، وشعارات الدولة.

ثمّة عبرة تستحق الاهتمام حملتها مدوّنة حديث فيتيه مع ممثلي وسائل النشر في بطرسبورغ في 18 تشرين الأول، أي في صباح اليوم الذي تلا صدور المرسوم. كان من الواضح أنّ فيتيه كان ينتظر العرفان والامتنان، ويعوّل على مساندة وديّة من الإعلام في تهدئة خواطر الناس، وطلب ذلك صراحة. لكنّه لم يسمع منهم، بدءاً من س. م. بروبير ناشر صحيفة "البيرجيوفكا" الذي بدأ حديثه بتوبيخ شديد اللهجة، تلاه نوتوفيتش، ثمّ خودسكي، وأراباجين، وأنينسكي، سوى: وجوب إعلان العفو السياسيّ فوراً! "إنّ مطلب العفو قطعيٌّ!" –"كما يجب إبعاد الجنرال تريبوف من منصب الحاكم العام لبطرسبورغ. ذلك هو قرار اتحاد الصحف". لقد قرّر اتحاد الصحف إخلاء العاصمة من القوزاق وقوات الجيش: "لن تصدر الصحف قبل سحب الجيش"! الجيش سبب الفوضى والقلاقل ... ينبغي أن يُعهد بحماية المدينة إلى "الميليشيات الشعبيّة"! (أي إلى الفصائل الثوريّة. وهذا يعني أن تنشأ في بطرسبورغ شروط المجزرة، وهذا ما سنراه قريباً جداً في أوديسا. أو إذا نظرنا إلى أبعد من ذلك: أن ينشأ في بطرسبورغ منذ العام 1905م الموقف المشتهى لثورة شباط المقبلة). فقال فيتيه بأسى وخيبة أمل: "أعطوني مهلة"، "ساعدوني، أعطوني بضعة أسابيع"؛ بل نهض ليصافحهم واحداً واحداً (ثمّ تذكّر هو فيما بعد فقال: إنّ ما ورد على لسان بروبير من مطالب كان "بالنسبة لي دليل على أنّ الصحافة فقدت عقلها"). لكنّ الحكومة كانت تملك ما يكفي من الحكمة والشجاعة لكي ترفض مطلب إشاعة الفوضى هذا، ففعلت، ولم يقع في العاصمة أيٌّ شرٌ (يذكر فيتيه عن بروبير أنّه "جاء إلى روسيا من الخارج يهودياً معدماً معرفته باللغة الروسيّة محدودة ... فتسلل إلى الإعلام ثم صار إلى صاحب مجلة **كشوف البورصة**، وتسكّع على أبواب الشخصيّات النافذة ... حينما كنتُ وزيراً للمالية كان يتوسّل أن يُعطى حقوق نشر إعلانات للدولة، وسوى ذلك من الامتيازات، حتى وصلت به الحال إلى أن طلب منّي لقب مستشار تجاري. أمّا

الآن، في هذا اللقاء، فقد أعلن عن مطالب في غاية الوقاحة، أظهر جرأة فريدة حين أعلن: نحن لا نثق بالحكومة").

في تشرين الأول ذلك نفسه، نشرت صحيفة "الكيبفليانين" التي كانت قد باتت خارج الصف الليبرالي، قصة ضابط عاد إلى موسكو في أيام تشرين الأول هذا نفسه، بعد أن قضى عاماً ونصف العام سجيناً في اليابان. في أول الأمر تأثّر الرجل كثيراً بسخاء مرسوم القيصر هذا الذي فتح أمام البلاد آفاقاً واعدة. لكنَّ جموع موسكو استقبلته، فقط لأنَّ مظهره مظهر ضابط مقاتل يرتدي زياً عسكرياً، بوصمات مثل: "تابع، صنيعة، ذيل، خادم القيصر ...". وفي اجتماع حاشد في ساحة المسرح "دعا خطيب إلى النضال والتدمير". ثم بدأ الخطيب الذي تلاه على المنبر خطابه بنداء: "يسقط الحكم القيصريّ!" "لكنَّ لكْنته فضحت يهوديته ... فلم ينطق الروس الحاضرون بكلمة واحدة تأييدا لندائه". كانوا يومؤون برؤوسهم تأييداً للإهانات والشتائم التي وجَّهها إلى القيصر وعائلته، ولدعوته لتحطيم القوزاق ورجال الشرطة كلِّهم. ثمَّ دعت صحف موسكو كلّها إلى النضال المسلَح.

من المعروف أنّه منذ 13 تشرين الأول كان قد تأسس في بطرسبورغ "مجلس مندوبِي العمال" تحت قيادة قائدين لا مثيل لهما: بارفوس وتروتسكي، إضافة إلى شخصيّة ثالثة صورية هو خروستاليوف - نوسار. كان رهان المجلس على وضع حدٍّ نهائي لسلطة الحكومة. أمَّا في كييف وأوديسا فقد انفجرت أحداث تشرين الأول بقوة أعظم، وانتهت نهاية مفجعة، إذْ أدت إلى وقوع مجزرتين يهوديتين مروعتين من المهمِّ أن نتوقف عندهما هنا. فثمة عن المجزرتين تقارير مفصَّلة وضعتها بعثات لتقصي الحقائق كان قد شكّلها السينات، وهي من أكثر التحقيقات نزاهة ودقة في تاريخ روسيا القيصرية: لقد كان السينات مؤسسة تشريعية مستقلة لها سمعة لا يرقى إليها الشك.

مجزرة كييف

حقّقت في مجزرة كييف، بعثة السناتور توراو. وقد كتب هذا يقول: إنَّ أسباب المجزرة "تكمن في حالة الفوضى العامة التي اجتاحت روسيا كلّها في السنوات الأخيرة، وبيَّن صحة حكمه هذا بصورة مقنعة، عندما قدَّم وصفاً لمقدمات أحداث كييف ومسارها.

نذكِّر هنا بأنَّه بعد أحداث التاسع من كانون الثاني في بطرسبورغ، وبعد أشهر على تصاعد السخط العام والهزيمة المذلّة في الحرب اليابانيّة، لم تجد الحكومة القيصرية وسيلة "للتهدئة" أفضل من أن تعلن في السابع والعشرين من آب منح الاستقلال الإداري الكامل لمؤسسات التعليم العالي وحرمة حدودها. لكنَّ هذا أفضى إلى تصاعد حدّة اللهيب الثوريّ. فكتب السيناتور توراو يقول: هكذا "فُتحت على مصراعيها أبواب الدخول إلى المؤسسات التعليميّة أمام أشخاص لا علاقة لهم البتة بالنشاط العلمي في تلك المؤسسات"، فدخلوها "بهدف التحريض السياسيّ فقط". في جامعة كييف ومعهدها التقني، "التأم عدد من اللقاءات الطلابيّة الحاشدة التي شاركت فيها حشود من الدخلاء" أعطت تلك اللقاءات صفة "اللقاءات الشعبيّة"، كانت أعداد المشاركين فيها تتزايد يوماً بعد يوم حتى بلغت مع نهاية شهر أيلول "عدة آلاف". في تلك اللقاءات التي كانت تجري تحت الرايات الحمراء، "كانت تُلقى كلمات حماسيّة لاهبة تتحدث عن عدم صلاحيّة الحكم القائم وضرورة النضال ضدَّ الحكومة"، "كما كانت تُجمع فيها تبرّعات لشراء السلاح"، "وتوزع مناشير، وتُباع كتيبات ذات توجّهات ثوريّة". "في أواسط تشرين الأول كانت الجامعة والمعهد التقني قد تحوّلا إلى منبر مفتوح

للتحريض المكشوف ضدّ الحكومة. فأحسّ المحرِّضون الثوريّون الذين كانوا قبل قليل عرضة للملاحقات بسبب تأسيس حلقات وتنظيم اجتماعات سرّية في منازل يملكها أشخاص، أحسُّوا بأنفسهم محصنين الآن"، "فكانوا يضعون خططاً للعمل ضدّ نظام الحكم القائم ويناقشونها". ولم يكتفوا بهذا، بل أخذوا ينشرون الثورة بدعوة "تلاميذ وتلميذات المدارس المتوسطة" إلى تلك اللقاءات، ونقل التحركات الثورية تارة إلى قاعات اللقاءات التجارية في مؤتمر الأطباء النفسانيين (بصوت واحد يردّدون كلمة أحد الطلاّب عن مجزرتيِ اليهود في كيشينيوف، وغوميل، ويُفرقون القاعة بالمناشير والهتافات: "تسقط الشرطة، يسقط النظام القيصريّ")؛ وتارة أخرى إلى اجتماع جمعية الأدباء والممثِلين (حطّموا زجاج النوافذ، "رموا الحراس بكسرات الكراسي والأسيجة"). ولم يكن يحقّ لأيِّ سلطة كانت أن تضع حداً لذلك: كانت الجامعات المستقلّة ذاتياً قد وضعت قانونها الخاصّ بها.

يترافق وصف هذه الأحداث في كلِّ مكان من التقرير الذي يستند إلى شهادات أكثر من 500 شاهد عيان، بإشارات إلى يهود برزوا في ذلك الحشد الثوريّ. "في سنوات الثورة الروسيّة 1905 -1907م، تعاظم النشاط الثوريّ كثيراً عند اليهود". كان واضحاً أنَّ ذلك كان أمراً جديداً. "يقول التقرير: إنَّ الشباب اليهود كانوا يشكّلون الغالبيّة في لقاء التاسع من أيلول في المعهد التقني"، ولدى احتلال مقرّ جمعيّة الأُدباء والممثّلين"، وفي 23 أيلول في قاعة النشاطات في الجامعة حيث "احتشد قرابة 5000 طالب ودخيل، بمن فيهم أكثر من 500 امرأة". في الثالث من تشرين الأول اجتمع في المعهد التقني "قرابة 5000 شخص ... كان أغلبهم من الطالبات اليهوديات". وبحسب التنويهات الأخرى إلى اليهود، أنَّ هؤلاء كانوا يشكّلون أكثرية المشاركين في اللقاءات الجماهيريّة التي احتشدت في 5 -9 تشرين الأول؛ وفي اجتماع 12 تشرين الأول في الجامعة، الذي "شارك فيه موظفون من إدارة الخطوط الحديديّة، وطلاب وأشخاص لا تُعرف مهنهم"؛ وفي

اجتماع 13 تشرين الأول في الجامعة "شاركت جموع من اليهود واليهوديّات في الحشود التي بلغت أعدادها قرابة عشرة آلف شخص من مختلف الانتماءات والمهن"، وألقى الاشتراكيّون الثوريّون والبوند خطباً في الاجتماع (تؤكّد الموسوعة اليهوديّة أنَّ أكثر المحتفلين بنيل الحريّة "في أقاليم الاستيطان اليهودي كانوا من اليهود"؛ لكنَّها تصف المعطيات التي تفيد بأنَّ اليهود في يكاتيرينوسلافل "كانوا يجوبون في الشوارع ويجمعون تبرعات لشراء نعش للقيصر"، وأنَّهم في كييف "مزّقوا صور القيصر في قاعات دوما المدينة، بأنَّها معطيات باطلة". بيد أنَّ هذه الواقعة الأخيرة أكدتها لجنة توراو).

في تشرين الأول تعاظم الحراك الثوريّ في كييف. فقد أثار ألكساندر شليختر (سيغدو بلشفياً معروفاً قاد بكفاءة عالية عملية تخزين القمح عنوة، وشغل منصب "مفوَّض الزراعة" في أوكراينا قبيل المجاعة التي اجتاحتها)، انتفاضة عمال الخطوط الحديديّة في الجنوب الغربي: اتجاهات بولتافا، كورسك، فورونيج وموسكو. وعبر بثِّ الخوف في أوساط العمال، أثاروا انتفاضة في معمل السيارات في كييف في 12 تشرين الأول. ثمَّ نظّموا في الجامعة "حركة تبرعات نشطة لشراء السلاح، فتبرع الحاضرون بمسكوكات ذهبيّة، وبطاقات اعتمادات ماليّة بمبالغ كبيرة، وفضّة، بل ثمة سيدة انتزعت قرطيها ورمت بهما على الكوم". وتشكّلت "فصائل طيارة" كانت مهمتها إيقاف الدروس عنوة في المدارس كلّها، إيقاف العمل في المعامل كلِّها، إيقاف حركة الترامواي، وحركة البيع في الحوانيت "لخوض مواجهة مسلّحة ضدَّ قوات الشرطة والجيش". لقد قرروا "نقل التحركات كلّها إلى الشارع". في 14 من تشرين الأول، اتفق ناشرو الصحف كلّهم، ما عدا صحيفة "الكييفليانين" اليمينية، على وقف إصداراتهم كلّها، ما عدا "البرقيات التي لها علاقة بحركة التحرّر". لقد انتزعت "الفصائل الطيّارة" مقابض المحرِكات من سائقي الترامواي، وحطمت زجاجها بالحجارة (ما أدى إلى جرح الركاب في بعض

الحالات). لقد أُغلق كلّ شيء، في كلّ مكان كان يتوقف كلُّ نشاط لحظة ظهور الناشطين مباشرة؛ في مكتب البريد والبرق أوقفوا العمل تحت التهديد بالقنابل؛ إلى الجامعة توافدت إلى الاجتماع الذي كان برئاسة شليختر مجموعات من الطلبة، والتلاميذ "وشباب يهود من مختلف التخصّصات".

هنا اتخذت السلطة أولى الإجراءات. فأُعلن منع التجمعات في الشوارع والساحات، وطُوقت الجامعة والمعهد التقني بالقوات لمنع أيٍّ كان من الدخول إلى هناك، ما عدا الطلبة، "واعتُقل عدد من الأشخاص لأنّهم أهانوا الشرطة والجيش"، وعدد من الاشتراكيّين الثوريّين والاشتراكيّين الديمقراطيّين، والمحامي باتتر الذي شارك مشاركة نشطة في الاجتماعات الشعبية" (شليختر اختبأ). عادت الترامواي تعمل من جديد، فتحت الحوانيت أبوابها، ومرَّ 16 -17 تشرين الأول على كييف بهدوء.

في ذلك الوضع عينه أُعلن في 17 تشرين الأول على أمل نيل عرفان السكان وامتنانهم، المرسوم الامبراطوري عن الحريات واعتماد شكل الحكم الدومي (البرلماني). فوصلت الشائعات عبر البرق إلى كييف ليل 17 إلى 18، وفي صباح 18 كان نص المرسوم يُباع ويوزَع في الشوارع (أمّا أعداد "الكييفليانين"، فقد "اشتراها الطلبة اليهود كلّها ومزّقوها علانيّة في الشارع). فأسرعت السلطات لتطلق سراح الذين كانوا قد اعتقلوا في الأيام السابقة، "واستدعوا للتحقيق بتهمة الإجرام بحقّ الدولة"، لكنَّ من استخدم المواد المتفجرة استثني من العفو. وغابت الشرطة وقوات الجيش عن الشوارع، فاجتمعت "هناك حشود شعبيّة كبيرة"، كانت في بادئ الأمر سلميّة. "لقد تجمّعت بالقرب من الجامعة آلاف مؤلّفة" من الطلبة، والتلاميذ "كانت بينهم أعداد كبيرة من الشباب والشابات اليهود". نزولاً عند مطالبتهم، أمر رئيس الجامعة "بفتح الأبواب الأمامية للمبنى الرئيس". في اللحظة عينها "اقتحم القاعة فريق من المحتشدين في الشارع، فحطموا صور القيصر ومزّقوا النسيج الأحمر" على الأعلام، وأخذ بعضهم "يهتف

بأعلى صوته داعياً الجموع لتسجد على الركب أمام شليختر [الذي كان قد ظهر بغتة]، ضحية التعسُف". "فسجد الواقفون حوله على ركبهم فعلاً"، بيد أنَّ الفريق الآخر من الجمع "رأى في كلِّ ما يجري إهانة لمشاعره القوميّة". بعد ذلك انطلقت الجموع إلى شارع كريشاتيك، حيث مجلس دوما المدينة، كان في مقدمتهم شليختر على صهوة حصان بعُصابة حمراء، في المواقف كان يلقي خطباً يؤكد فيها على أنَّ "النضال ضدَّ الحكومة لم ينته". في تلك الأثناء، في حديقة نيقولاي "ألقى اليهود على تمثال نيقولاي الأول أُنشوطة وحاولوا اقتلاع التمثال من قاعدته"؛ "في شارع آخر أخذ يهود مزيَّنون بأربطة حمراء يسخرون من أربعة جنود عابرين على مقربة وتفلوا عليهم؛ في ميدان صوفيا قذفت الجموع دورية من الجيش بالحجارة، فجُرح ستة جنود واثنان من المتظاهرين برصاص الدورية. في غضون ذلك جاءت إلى القائم بأعمال رئيس المدينة، مجموعة من الأشخاص المدنيين "وطلبوا فتح قاعة اجتماعات الدوما"، ليتمكّن المتظاهرون الذين جاؤوا ليقدموا الشكر، "من التعبير عن مشاعرهم تجاه المرسوم القيصريّ. فاستُجابوا لطلبهم"، وانعقد فعلاً "اجتماع برئاسة شيفتل رئيس البلدية". لكنْ ما لبث أن اندفعت إلى المكان موجة عاتية من آلاف المتظاهرين الذين يحملون شارات وعصابات حمراء، لقد كان هؤلاء "من الطلبة، وأشخاص انتماءاتهم مجهولة، وأعمارهم مختلفة، ذكور وإناث، ينتمون إلى فئات اجتماعيّة متباينة، وبرز بينهم اليهود بشكل خاصّ"، فاقتحم فريق منهم قاعة الدوما، وشغل الآخرون ساحة الدوما. "في لحظات انتُزعت عن مبنى الدوما أعلام القوميات التي كانت تزينه احتفالاً بالمرسوم، ورُفعت بدلاً منها رايات حمراء وسوداء". هنا جاء حشدٌ آخر بالمحامي باتنر محمولاً على الأكفِّ، وكان هذا قد أُطلق سراحه للتوِ فدعا الحشد كي ينطلق فوراً لتحرير باقي المعتقلين، فوق شرفة الدوما صافحه شليختر جهاراً، "ودعا هذا السكان إلى انتفاضة سياسية عامة ... وهاجم شخص الامبراطور بوقاحة وبذاءة. في ذلك الوقت كان المتظاهرون قد مزَّقوا صور

الامبراطور في القاعة مزقاً صغيرة، وحطموا المرايا وشعارات القيصر المنصوبة على شرفة الدوما للزينة الضوئية"؛ "ولا ريب في أنَّ الذين شاركوا في تحطيم صور القيصر والشعارات القيصريّة لم يكونوا من الروس وحدهم، بل من اليهود أيضاً"، كما "حطم مجسم التاج واحد من العمّال الروس"، لكنَّهم أعادوه بعد ذلك إلى مكانه بناء على طلب المتظاهرين، "وما إن مرَّت خمس دقائق حتى انتزعوه من هناك ثانية، كان الذي انتزعه في هذه المرة يهودي كسر نصف حرف ن"، "وثمة شاب آخر يبدو من سحنته أنَّه يهودي،" كسر الإكليل الذي يحيط بالشعار. أمَّا في داخل الدوما، فقد حطَموا الأثاث كلَّه، وبعثروا محتويات الخزائن من أوراق ومزَّقوها. كان شليختر هو الآمر الناهي في القاعة، وثمة من كان يجول في الممرات "يجمع تبرُّعات لا أحد يعرف الغرض منها". أمام الدوما كان الهياج يغلي ويغلي، ومن فوق أسطح التراموايات التي أوقفوها، كان الناشطون يلقون خطباً حماسيّة تحريضيّة؛ ومن على شرفة الدوما أبدع شليختر وبانتر في إلقاء الكلمات الحماسية. "من فوق الشرفة هتف أحد الصبيان الحرفيين اليهود: "يسقط النظام القيصري"؛ وهتف يهودي آخر يرتدي زياً أنيقاً بأعلى صوته: "اسحق عظامه"؛ وثمة يهوديٌّ ثالث انتزع رأس القيصر من الصورة وأدخل رأسه هو في مكانها، وصاح بالحشود من فوق شرفة الدوما: إنِّي أنا القيصر الآن"؛ "لقد بات مبنى الدوما تحت سلطة أعضاء الأحزاب الاشتراكيّة الديمقراطيّة المتطرِّفة، والشباب اليهود المناصرين لهم الذين انفلتوا من عقالهم تماماً".

أجرؤ على القول: إنَّ سمة حمقاء وعدائية ظهرت في ذلك الهرج والمرج، هي عدم القدرة على التوقف عند الحدِّ المعقول. فما الذي دفع اليهود بين تلك الحشود من دهماء كييف للهزء بمثل تلك الوقاحة، بمن كان لا يزال مقدَّساً عند البسطاء؟ كانوا يدركون أنَّ موقف دولة شعبهم في غاية الهشاشة، لذلك كان يمكنهم في 18 -19 تشرين الأول ألاَّ ينخرطوا بمثل ذلك الحماس في المظاهرات

التي اجتاحت عشرات المدن، ويتحولوا إلى روحها، بل غالباً إلى أكثرية المشاركين فيها.

لنتابع الآن قراءة تقرير توراو. " لقد أُغفلت تماماً ضرورة احترام الشعور القوميّ للشعب الروسيّ، والرموز التي يجلها. وبدا كأنَّ فريقاً من السكان ... لم ير أيَّ حرج في التعبير عن ازدرائه ..."؛ "لكنَّ الهياج الشعبي الذي أثاره تدنيس صور الامبراطور، لم يكن طبيعياً. بعض الذين كانوا يقفون أمام مبنى الدوما أخذوا يصرخون بضراوة: "من أزاح القيصر عن العرش؟ وآخرون طفقوا ينتحبون". "لم يكن من الضروري أن يكون المرء نبياً ليتنبَّأ بأنَّ تلك الإهانات التي أتاها اليهود ضدَّ مقدّسات الشعب الروسيّ، لن تمرَّ مرور الكرام"، "فهنا بالذات، أمام الدوما أخذت تدوي أصوات تعبِّر عن الدهشة تجاه صمت السلطات وعجزها؛ وتعالت بين الحشود صرخات تدعو إلى رفس الجيديين". عند الدوما كان يقف فصيل من الشرطة، وسرية من المشاة، من غير أن يحرِّكا ساكناً. عندئذٍ أخذت تقترب كتيبة خيالة بهدوء وسلام، فأخذوا يطلقون عليها النار من نوافذ الدوما ومن فوق شرفتها، كما تطايرت الحجارة والزجاجات الفارغة من فوق على سرية المشاة، وأطلقوا نيران مسدساتهم باتجاهها من كلِّ صوب: من الدوما، من قاعة البورصة، ومن وسط حشود المتظاهرين. فجُرح عدد من الجنود، عندئذٍ أمر قائد السرية بفتح النار، فقُتل سبعة أشخاص وجُرح 130 شخصاً، وخلت الساحات. لكنْ في مساء 18 تشرين الأول هذا نفسه، "طارت أخبار تدنيس صور القيصر وكسر التاج والشعارات والرموز القيصرية وتمزيق أعلام القوميّات، حتى بلغت أطراف المدينة. فتجمَّع الناس في الشوارع جماعات جماعات، كان أكثرهم من العمال والحرفيين والتجار، وأخذوا يناقشون ما حصل بانفعال واضح، وألقوا بكامل مسؤولية ما وقع على عاتق اليهود، فهؤلاء كانوا دائماً يبرزون بين المتظاهرين بشكل ملفت"، "وقرّر جمع من العمال اصطياد ‘‘الديمقراطيين‘‘ الذين حرَّضوا على أعمال الشغب الأخيرة، واعتقالهم على ضفَّة النهر، ووضعهم

تحت الحراسة إلى أن تصل تعليمات القيصر". عند المساء ظهرت أوّل جماعة من المتظاهرين في ساحة ألكساندروف حاملة صور القيصر وهي تُنشد النشيد الوطني. ثمَّ سرعان ما تضاعفت أعدادهم، وبما أنَّ أعداداً كبيرة تدفقت من كريشاتيك حاملة أشرطة وعصابات حمراء، لذلك ظنُّوا أنَّ هؤلاء هم المحرضون على تظاهرة الدوما، فانهالوا على أفراد منهم ضرباً ورفساً". فكانت تلك هي بداية المجزرة اليهوديّة.

والآن، لكي نفهم تقاعس السلطات عن التصرف في موضوع قلاقل الدوما، وإهانة الرموز القوميّة، ثم تقاعسهم في أثناء المجزرة التي تلت تلك القلاقل، ينبغي أن نلقي نظرة على ما كان يجري في أوساط تلك السلطات نفسها. قد يبدو الأمر للوهلة الأولى مجرَّد تقاطع ظروف. بيد أنَّهم بغتة احتشدوا في كييف بكثافة ملفتة (وفي أماكن أخرى ليست قلية)، تجعلنا نرى، أنَّ الإدارة الإمبراطوريّة كانت عاجزة في العقود الأخيرة من حياتها.

لقد كان محافظ كييف غائباً عن ميدان الأحداث تماماً. ولم يكن نائبه رافالسكي قد استوعب ما يجري بعد، إذْ كان قد تسلَّم مهام منصبه منذ بعض الوقت فقط، كان طبيعياً أن ينهض هذا بمهام المحافظ في أثناء غيابه، لكنْ بكثير من الخشية والتردّد. أمَّا كليغلس الحاكم العام للإقليم، فكان قد طلب إعفاءه من مهام منصبه منذ بداية تشرين الأول بداعي المرض. (لم تكن الأسباب الحقيقة لهذا الطلب واضحة، ونحن لا نستبعد أن يكون وراءها الغليان الثوري الذي اجتاح البلاد في شهر أيلول الفائت، وعجز كليغلس عن التعامل معه). في الأحوال كلِّها كان هذا يرى عندئذٍ أنَّ وجوده في منصبه مؤقت. في تشرين الأول كانت التعليمات التي ترد من وزارة الداخلية لا تزال تضغط عليه وتكبِّله. ففي العاشر من تشرين الأول طُلب منه أن يتخذ أكثر التدابير صرامة "لمنع نشوب القلاقل في الشوارع، وأن يستخدم في حال نشوبها كلَّ القوى المتوافرة لوضع حدٍ لها"؛ في 12 من الشهر نفسه تلقى أمراً "بإخماد المظاهرات التي تجتاح الشوارع،

حتى لو اقتضى ذلك استخدام القوة المسلحة"؛ ثمَّ تلقَى في اليوم التالي تعليمات "بمنع أي تجمُّعات في الشوارع وتفريقها عنوة عند الضرورة". في 14 من تشرين الأول تجاوزت أحداث كييف الخطَّ الأحمر كما رأينا. فدعا كليغلس كبار معاونيه إلى اجتماع للتشاور، كان بينهم قائد شرطة كييف العقيد تسيخوتسكي، ومساعد قائد الحامية (قائد الحامية نفسه لم يكن حاضراً) كوليابكا، وهو نفسه ذلك المتغافل الذي تسبب غباؤه بمقتل ستوليبين. لم يكن تقرير كوليابكا الذي يثير الفزع يوحي بإمكانية اشتعال مظاهرات مسلحة فحسب، بل اشتعال انتفاضة مسلحة أيضاً. عندئذٍ رأى كليغلس ألاَّ يعتمد على قوات الشرطة، فلجأ إلى تفعيل قانون "استدعاء القوات المسلحة لمساعدة السلطات المدنية"، وابتداء من 14 تشرين الأول سلَّم صلاحياته إلى القيادة العسكرية"، تحديداً إلى القائد العام المؤقت (لم يكن القائد العام نفسه موجوداً: حالة من الفوضى والإهمال) لمنطقة كييف العسكرية اللواء كاراسّ. عندئذٍ تسلَّم الجنرال دراكه قائد الفيلق مهمات قائد حامية المدينة (يا لسخرية الإمبراطورية: هل توحي أسماء هؤلاء القادة بأنَّ الأحداث التي نتحدث عنها تجري في روسيا؟). فالجنرال كاراسّ "وجد نفسه في وضع في غاية الحرج"؛ لأنَّه لم يكن على علم "بالواقع الفعلي للأشياء، ولا بالكادر الإداري الخاصّ، ولا بكادر الشرطة"؛ "وعندما سلَّم كليغلس صلاحياته لم يهتمَّ بتسهيل مهمة خليفته: لقد اكتفى بالشكليات فقط، ثمَّ أسرع ينسحب من المشهد نهائياً".

ها قد آن الأوان الآن لنتحدَّث عن قائد الشرطة تسيخوتسكي. منذ تفتيش العام 1902م، كان قد تبيَّن أنَّ جبايات جُمعت من اليهود، بمعرفة تسيخوتسكي، لقاء منحهم حق الإقامة. كما تبيَّن حينئذٍ أيضاً، أنَّ تسخوتسكي يعيش عيشة مستواها "أعلى بكثير مما يسمح به راتبه الشهري"، وأنَّه اشترى ضيعة بمئة ألف روبل له ولصهره. فطرحت مسألة إحالته إلى القضاء، لكنْ عند هذا التحوُّل في قدر الرجل، صدر قرار تعيين كليغلس حاكماً عامّاً،

وسرعان ما بذل هذا (قطعاً بعد أن تلقى رشوة كبيرة) مساعيه لإبقاء تسيخوتسكي في منصبه، بل ترقيته إلى رئيس إدارة الشرطة ومنحه رتبة لواء. مع أنَّ ترقية تسيخوتسكي لم تحصل، إلاَّ أنَّ إحالته إلى القضاء وعزله من منصبه، لم يحصلا كذلك، على الرَّغم من أنَّ اللواء تريبوف ألحَّ على ذلك من بطرسبورغ (لقد تبيَّن بعد التحقيق في الأحداث كلها، أنَّ تسيخوتسكي نال ترقياته كلها بالرشى). وربما كان تسيخوتسكي قد بات على علم منذ بداية تشرين الأول، بأنَّ كليغلس قدَّم استقالته، فاستسلم عندئذٍ لقدره. في ليلة 18 تشرين الأول، مع الإعلان عن مرسوم القيصر، وصلت من بطرسبورغ الموافقة على استقالة كليغلس. فلم يبق لتسيخوفسكي ما يخسره (ثمة تفصيل آخر: في تلك اللحظة الحرجة اعتزل كليغلس قبل أن يصل بديله الجنرال سوخوملينوف الذي كان يُعدُّ جوهرة الإدارة القيصرية، شغل فيما بعد منصب وزير الدفاع، وأفشل خطة الإعداد للحرب مع ألمانيا؛ فعُهد إلى الجنرال كاراسّ مؤقتاً بمهامّ منصب الحاكم العام). لم يوضع حدٌّ "في الوقت المناسب للارتباك الذي اكتُشف في ميدان عمل الشرطة بعد أن نُقلت مهمات الحماية إلى السلطات العسكريّة، بل تعاظم أكثر فأكثر، وقد ظهر ذلك بوضوح في أثناء أعمال الشغب اليهوديّة".

لقد كان تخلِي كليغلس "عن صلاحياته" ... ونقلها إلى أجل غير مسمًّى إلى السلطات العسكرية في مدينة كييف، هو السبب الرئيس في غموض طابع العلاقات التي نشأت بعد ذلك بين السلطات المدنية والسلطات العسكرية"، "فلم يكن هناك من يعرف حدود سلطة [الحامية العسكرية] وحجمها"، غموض هذا الموقف "كان ينبغي أن يجرَّ وراءه خللاً عامّاً في تأدية الخدمة". وسرعان ما تبيَّن هذا بجلاء لدى اشتعال أعمال العنف اليهوديّة. "فقد كان كثير من قادة الشرطة على يقين بأنَّ السلطة برمَّتها باتت في أيدي القيادة العسكريّة، وأنَّ قوات الجيش وحدها مخوَّلة بالتحرُّك لقمع القلاقل"، لذلك "اتخذوا موقفاً لا مبالياً تجاه أعمال الشغب التي كانت تجري على مرأى منهم. أمَّا قوات الجيش فقد تعلَّلت

بالتعليمات التي تحدِّد أصول استدعاء الجيش لمساعدة السلطات المدنية، ووقفت تنتظر أوامر الشرطة، من منطلق أنَّه ليس من شأنهم تأدية واجب قوات الشرطة ... وكانوا محقين في ذلك تماماً": "بحسب المغزى الدقيق" للتعليمات "أنَّ السلطات المدنية "الموجودة في مكان أعمال الشغب ملزمة بأن توجِّه التحركات المشتركة للشرطة والقوات العسكريّة التي استُدعيت لإخمادها على الوجه المطلوب". كانت السلطات المدنيّة هي التي يجب أن تحدّد متى ينبغي بالضبط اللجوء إلى استخدام السلاح. فضلاً عن ذلك "لم يول كليغلس اهتماماً لاطلاع القيادة العسكرية على واقع الأشياء في المدينة، ولا على المعطيات المتوفرة لديه عن الحركة الثوريّة في كييف". على هذا النحو باتت "الدوريات العسكريّة تجوب أرجاء المدينة على غير هدى".

إذن، في مساء 18 تشرين الأول بدأت المجزرة اليهوديّة. "في بادئ الأمر حملت من غير شكٍّ، طابع الانتقام رداً على ازدراء اليهود بالشعور الوطني الروسي. في أثناء سيرهم كان الغاضبون الروس يبرِّحون اليهود الذين يقعون في طريقهم ضرباً ورفساً، كما كانوا يحطِّمون حوانيتهم، ويرمون بمحتوياتها إلى الشارع ويطؤونها في الوحول وهم يهتفون: "هاك الحريّة، هاك الدستور، هاك الثورة؛ هاك صور القيصر وتاجه". في صباح اليوم التالي انطلق من الدوما إلى ساحة صوفيا، جمهور من قرابة ألف شخص يحملون الأطر المحطّمة وصور القيصر المهشمة، والميدالية والمنارة اللتين تحملان رسم القيصر. فدخلوا الجامعة وأصلحوا صور القيصر التي هُشِّمت، وأدَّوا الصلوات، "فطلب الميتروبوليت فلافيوس من الشعب ألاَّ يأتي أعمالاً مخلّة، وليمض كلٌّ إلى منزله بسلام". "لكنْ، بينما كانت الشخصيات التي تشكِّل محور المظاهرة الوطنية ... قد فرضت فيها نظاماً مثالياً، أخذ الناس الذين انضموا إليها في الطريق يمارسون شتى ضروب العنف ضدَّ الذين يقعون في طريقهم ممّن يرتدون زيَّ المؤسسات التعليمية". ثم ما لبث أن التحق بهؤلاء المتظاهرين "عمال عاديون، مشرَّدون، حمّالو السوق، وصعاليك

الموانئ"؛ "لقد حطمت جماعات الغاضبين منازل اليهود وحوانيتهم ورموا بموجوداتها إلى الشارع، فدُمِّر قسم منها في الحال، ونُهب الباقي"؛ "يبدو أنَّ الخدم والحرَّاس وصغار الباعة لم يجدوا أيَّ حرج في استغلال اللحظة والسطو على تلك الأرزاق"؛ "كان بين أولئك المشاغبين، من بقوا حتى نهاية أعمال العنف يلتزمون العفة في سلوكهم: لقد كانوا ينتزعون المسروقات من أيدي زملائهم ويدمِّرونها في الحال، بصرف النظر عن قيمتها". كان المخرِّبون يعبرون أمام حوانيت الكارايميين فلا يمسُّونها بأذى، "كما عفُوا عن منازل اليهود المرفوعة فوقها صور الامبراطور". "لكنْ بعد ساعات قليلة على بدء أعمال الشغب، اتخذت أعمال العنف ضدَّ اليهود طابع القرصنة بأكثر أشكالها قسوة". في 18 تشرين الأول تواصلت مجزرة اليهود حتى وقت متأخر من اليل، ثمَّ توقفت من تلقاء نفسها، ثمَّ استؤنفت منذ صباح 19 منه ولم تتوقف إلاَّ مساء العشرين منه (لم ينشب سوى حريق واحد في الشطر السفلي من المدينة). في 19 نُهبت أغنى مخازن اليهود، حتى تلك التي تقع في مركز المدينة – في شارع كريشاتيكا. لقد نجح المخربون في خلال نصف ساعة من المحاولات العنيدة، أن يحطِّموا النوافذ والأقفال الحديديّة"؛ "فرميت الأقمشة الفاخرة من المخازن وديست بالأقدام تحت المطر في الشوارع القذرة. ملأت الأشياء الثمينة الرصيف أمام مخزن مارشاك للمصنوعات الذهبية والفضية في شارع كريشاتيكا"، كما رمي إلى الشارع بموجودات محلات بيع الخردوات؛ وتبعثرت سجلّات المحاسبة وسجلّات المرسلات التجارية. في حيِ ليبكا (حي الأرستقراطيا)، "نال الدمار منازل زعماء اليهود البارزين: غينتسبورغ، غالبيرن، ألكساندر ليف برودسكي، لانداو، وغيرهم. لقد أُتلف الأثاث الفخم الباهظ الثمن الذي كانت تحتويه هذه المنازل ورُمي به إلى الشارع"، كما دُمِّرت المدرسة اليهوديّة النموذجيّة التي كانت تحمل اسم برودسكي: السلالم المبنية من المرمر، والدربزونات الحديدية هُشِّمت كلُّها". وانطلاقاً من أنَّ " ما يُقارب ثلثي التجارة في المدينة يقع في أيدي اليهود"، قدَّر توراو

الخسـائر، بمـا فيهـا خسـائر منـازل الأثريـاء "بعـدة ملايـين مـن الـروبلات". ولم يكتفوا بتدمير منازل اليهود، بل عزموا على تدمير منازل الشخصيات الاجتماعية البارزة أيضاً. في يوم التاسع عشر هذا نفسه، قاد الأُسقف بلاتون "موكباً دينياً في شوارع الشطر السفلي من المدينة، حيث كان الخراب عظيماً على وجه الخصوص، ودعا الناس لإيقاف أعمال الشغب. توسّل الأُسقف الثائرين أن يرحموا اليهود في أرواحهم وأرزاقهم، وركع الحبر على ركبتيه أمامهم مراراً ... فخرج من بين هؤلاء أحد الزعران وصاح متوعّداً: وأنت جيديٌّ أيضاً". نحن كنّا قد بيّنّا حالة الفوضى التي كانت تسود في أوساط السلطات العليا. "فلم يبد الجنرال داركه أيَّ حزم في تنظيم حركة الحامية العسكرية وعملها". فقد كانت قوات الجيش "مبعثرة إلى مفارز صغيرة غير متماثلة"، "وعدد كبير من الدوريات التي لم يكن لها لزوم"، "في غالب الأحيان لم يكن للجنود ما يفعلونه". لذلك "كان التقاعس الذي أبدته القوات العسكرية وقوات الشرطة قد قارب في أيام أعمال العنف حدَّ الاستهتار، الأمر الذي أثار الذهول والحيرة ... فلم يكن للشرطة أيُّ حضور تقريباً، وكانت القوات العسكرية تتحرك عبر الشوارع ببطء شديد، وتُطلق النار فوراً على المنازل التي تدوّي منها طلقات نارية، بينما على جانبي الشارع كانت تُدمَّر من غير عائق، مخازن اليهود ومنازلهم". وعندما سأل أحد المحققين دورية خيالة من القوزاق عن حماية المخازن القريبة التي يجري تحطيمها ونهبها على مرأى منهم، "أجابه القوزاق بأنّهم لن يتوجّهوا إلى هناك لأنَّ المكان خارج نطاق قطاعهم".

فضلاً عن هذا كله: تشكّل لدى عدد من الشهود "انطباع بأنَّ قادة الشرطة والجيش لم يُكلّفوا أصلاً بتفريق المشاغبين، بل كلِّفوا بحمايتهم". ففي مكان ما أجاب الجنود: "لقد أُمرنا بأن نعمل على ألاّ يقع العراك وألاّ نسمح بأن يُضرب الروس". وفي مكان آخر أجاب الجنود: "لقد أقسمنا أمام الإله والقيصر"، على ألاّ نحمي "أولئك الذين مزّقوا صور القيصر وكفروا". أمّا الضباط "فرأوا

أنَّهم عاجزون عن وضع حدٍّ لأعمال الشغب، وأنَّهم لا يستطيعون استخدام السلاح إلاَّ إذا اعتدى الثائرون على قوات الجيش". وها هو "يهوديٌّ يفرُّ هارباً من بيته، مبرَّحاً من الضرب، مضرَّجاً بدمائه، يلاحقه حشد من الغاضبين. ولم يلق أفراد المفرزة العسكرية التي كانت تقف في المكان نفسه أيَّ بالٍ لما يجري للرجل، بل تابعت طريقها صاعدة في الشارع بهدوء وسكينة كما لو كان كلُّ شيء على أحسن ما يُرام". وها هم "اللصوص يقتلون اثنين من اليهود طعناً بسكاكين المائدة؛ هنا أيضاً على بُعد عشر خطوات كانت تقف دورية من سلاح الخيالة وتنظر بهدوء إلى مشهد الانتقام الوحشي الذي يجري تحت أنفها". لم يكن ذلك مستغرباً. فقد كانت تصدر عن الأوساط الشعبية العادية أصوات تنادي: "لقد مُنحنا نعمة القيصر: أُجيز لنا أن نقتل الجيديين طول ستة أيام"؛ كان الجنود يقولون: "أنتم ترون، هل ما يجري يمكن أن يكون من غير مباركة القيادة؟" أمَّا قادة الشرطة "فكان ردُّهم على الطلب منهم وضع حدٍّ لأعمال العنف، هو الرفض، لأنَّه ليس بمقدورهم أن يفعلوا شيئاً بعد أن انتقلت السلطة إلى القيادة العسكرية". كما كانت هناك واقعات أخرى: حشدٌ من المخربين ترك الحيَّ كلَّه "تحت ضغط رئيس قسم الشرطة ... الذي كان يسوقهم حاملاً بيده مسدساً وليس معه سوى حارس واحد"، أمَّا ناظر الضاحية اوسترومينسكي "مع ثلاثة من الحراس وحفنة من الجنود، ... فقد حمى ضاحيته كلَّها من أعمال التخريب حتى من غير أن يلجأ إلى استخدام السلاح"

لم يكن المخرِّبون مسلَّحين بأسلحة نارية، أمَّا الشباب اليهود فقد كانت بين أيديهم مثل هذه الأسلحة. لكنْ خلافاً لما كانت عليه الحال في غوميل، لم تكن فصائل الحماية الذاتيّة في كييف منظمة تنظيماً جيداً، مع أنَّ "كثيراً من المنازل كانت تنطلق منها طلقات" أفراد فصائل الحماية الذاتيّة التي "نظَّمها اليهود والروس معاً لحماية اليهود"؛ "غنيٌّ عن البيان القول: إنَّه كانت هناك حالات وُجِّه فيها إطلاق النار على الجنود انتقاماً منهم لإطلاقهم النار على المتظاهرين" في الأيام الماضية؛ "كما كانت هناك حوادث أطلق فيها اليهود النار

على المسيرات الوطنية التي كانت رداً على المسيرات الثورية السابقة". لكنَّ تلك الطلقات "أفضت إلى نتائج مأساوية. فهي لم ترهب المخربين أبداً، لكنَّها في الوقت نفسه، كانت تمنح القوات العسكرية الذريعة القانونية لتتصرَّف وفق التعليمات"، "ففي كلِّ مرة كانت تدوّي فيها طلقة من منزل ما، كانت الوحدة العسكرية الموجودة في المكان تمطر نوافذ المنزل المعني بوابل من الرصاص، حتى من غير أن تتحقق مما إذا كان إطلاق النار عليها أم على المخربين، إثر ذلك مباشرة كانت الحشود" تهاجم البيت وتعمل فيه خراباً ودماراً. "كانت هناك حالات أُطلقت فيها النار على بعض المنازل فقط لأنَّ المخربين أشاروا إليها ... مدَّعين أنَّ النار أُطلقت منها"؛ "كما حدث أيضاً أن صعد المخربون أنفسهم سلالم المنزل وأطلقوا النار منه على الشارع ليدفعوا الجنود إلى الردّ" ليهاجموا البيت بعد ذلك.

لكنَّ ما حدث بعد ذلك كان أسوأ. "بعض الحرَّاس، ومن كان من الجنود في دوريات، لم يتعففوا عن الأشياء التي كان المخربون يرمون بها من داخل الحوانيت والمخازن، بل كانوا يلتقطونها ويخفونها في جيوبهم أو تحت معاطفهم". ومع أنَّ هذه الحالات "لم تكن سوى حالات نادرة"، إلاَّ أنَّه تمَّ رصد أحد الحراس وهو يكسر بنفسه باب مخزن يهودي، وهذا ما فعله أيضاً جندي برتبة وكيل عريف. (لقد شاعت شائعات كاذبة عن حالات اتُّهم فيها الجيش بالنهب، لأنَّ الجنرال إيفيرت كان قد أمر بانتزاع المسروقات من المخربين ونقلها إلى مستودعات الجيش، ثمَّ أُعيدت هذه فيما بعد إلى الطائفة اليهوديّة وفق سجلاَّت مدوَّنة. بهذه الطريقة أنقذ الجنرال أرزاقاً بعشرات آلاف الروبلات أُعيدت إلى أصحابها).

لكنْ ما الغريب في ألاَّ يكون اللئيم تسيخوتسكي قد اتخذ، بعد فشله في ارتقاء السُلَّم الوظيفي، أيَّ تدابير لتحريك قوات الشرطة (حينما علم في مساء 18 تشرين الأول عن بدء المجزرة، لم يبلِّغ عنها رؤساء مراكز الشرطة التابعين له، إلاَّ في مساء 19 منه)، كما لم يُعطِ أيَّ تعليمات لجنرالات الحامية العسكرية بالتحرُّك، بل جال هو نفسه في المدينة "بهدوء وعاين ما كان يجري باستهتار

ولامبالاة"، ثمَّ خاطب اللصوص قائلاً: "تفرَّقوا أيُّها السادة" (فشجَّع هؤلاء بعضهم بعضاً قائلين واحدهم للآخر: "لا تخف، إنَّه يمزح")؛ وعندما صاحوا من فوق شرفة الدوما: "اضربوا الجيديين، انهبوا، واكسروا!"، وحمل الحشد رئيس الشرطة يؤرجحونه على الأكف، أجاب تسيخوتسكي بعد ذلك "على هتافهم أُورا، بانحناءات من رأسه". ولم يأمر قوات الشرطة باتخاذ إجراءات حازمة ضدَّ القتلة، إلاَّ بعد أن تلقَى تحذيراً قاسياً من الجنرال كاراسّ (نبَّه الجنرال رئيس ديوان المقاطعة إلى أنَّ تسيخوتسكي لن ينجو من الأشغال الشاقة). وقد أحاله السناتور توراو إلى القضاء فعلاً.

كما كان هناك جنرال آخر من حامية المدينة، هو الجنرال بيسونوف، "وقف بين المخربين يتحدَّث إليهم بكلِّ ودٍّ قائلاً: التخريب ممكن، لكنَّ النهب غير مقبول". فهتف له هؤلاء: أُورا. بيد أنَّه في مكان آخر، وقف يشاهد "بدم بارد، أعمال النهب والسلب التي كانت تجري أمامه. وعندما صاح أحد اللصوص: "اضربوا الجيديين، ابتسم [بيسونوف] موافقاً". ويُزعم أنَّه أسرَّ لأحد الأطباء قائلاً: "إنَّه لو أراد لتوقفت أعمال العنف في خلال نصف ساعة، لكنَّ اليهود شاركوا مشاركة نشطة جداً في الحركة الثوريّة، لذلك ينبغي أن يدفعوا الثمن". لكنَّه بعد المجزرة أنكر ما نُسب إليه من أقوال مؤيّدة لأعمال العنف، عندما سأله المحقّق العسكري عنها، وأكد أنَّه دعا السكان بإلحاح لوقف العنف: "ارحمونا ولا تدفعوا الجيش لاستخدام السلاح ... لا تريقوا دماءكم، إنَّها دماء روسيّة".

فتقاطرت الوفود على الجنرال كاراسّ الواحد تلو الآخر: بعضها طالب بإخراج الجيش من المدينة، وطالب بعضها الآخر باستخدام السلاح، بينما طالب بعضها الثالث والرابع والخامس بحماية أملاكهم. في غضون ذلك بقيت قوات الشرطة ساكنة لا تفعل شيئاً طول يوم 19 تشرين الأول، بينما كان قادة الجيش يُنفّذون التعليمات بغباء أو بطريقة سيئة. ابتداء من العشرين منه أصدر كاراسّ أمره "بمحاصرة المخربين واعتقالهم كلهم". فأُلقي القبض على أعداد كبيرة

منهم، وفي مكان ما أطلقت القوات العسكرية النار عليهم فقتلت خمسة منهم وجرحت عدداً آخر. مع نهاية ذلك النهار أُخمدت أعمال العنف تماماً، وفي وقت متأخر من ذلك المساء "انتشرت شائعة تقول: إنَّ اليهود يذبحون الروس، فهاج السكان وعمَّت البلبلة"، لقد باتوا ينتظرون الانتقام.

خلال أيام الشغب كلها قُتل، بحسب معطيات الشرطة، 47 شخصاً، بمن فيهم 12 يهودياً، وجُرح 205 ثلثهم من اليهود.

أنهى توراو تقريره باستنتاج قال فيه: إنَّ "السبب الرئيس لأعمال العنف ضدَّ اليهود في كييف، هو التفرقة المزمنة بين السكان المالوروسيين والسكان اليهود، وترجع أصول هذه التفرقة إلى التباين في العقائد بين القوميَّتين. أمَّا السبب المباشر فهو ازدراء الشعور القوميّ الروسي من جانب المظاهرات الثورية التي كان للشباب اليهودي دور بارز فيها". وقد رأت جماهير الشعب "في اليهود وحدهم" المذنبين "في التهكُّم على كلٍّ ما هو مقدَّس لديها. فلم يكن بمقدور الناس البسطاء أن يفهموا الحركة الثوريّة نفسها بعد كلِّ المكرمات التي وُهبت، لذلك رأوا فيها مساع يهودية لتحقيق "حريتهم الجيدية". "فإخفاقات الحرب التي كان الشباب اليهودي لا يخفي فرحته بها، وتقاعسه عن تأدية الخدمة العسكريّة، ومشاركته في الحركة الثوريّة، وعدد من أعمال العنف، واغتيال المسؤولين، وإهانة الجيش الروسي ... هذا كلُّه أثار غضب الأوساط الشعبية الروسيّة من اليهود"، "لهذا عرفت كييف حالات قدَّم فيها كثير من الروس الملجأ للفقراء المغلوبين على أمرهم من اليهود الهاربين من العنف، لكنَّهم رفضوا رفضاً قاطعاً أن يقدِّموا مثل هذا الملجأ للشباب اليهود".

كانت صحيفة "الكييفليانين" قد كتبت تقول عن هذا: "يا لتعاسة اليهود! فما هو ذنب هذه الآلاف، الروس مجانين أيضاً، وقد عجزنا عن كبح جماحهم". لقد جُنَّ جنون الشباب الثوري، لكنَّ كبار السنِ والمسالمين من اليهود هم الذين دفعوا الثمن. على هذا حفرنا لأنفسنا هوَّة من الجانبين.

مجزرة أوديسا

أمَّا فيما يخصُّ مجزرة أوديسا، فإنَّ لدينا تقريراً مفصَّلاً وضعته لجنة التحقيق التي ترأسها السيناتور كوزمينسكي. ففي أوديسا ذات الميول الثوريّة أصلاً، كانت الهزَّات قد بدأت منذ شهر كانون الثاني، ثمَّ أخذت تتعاظم؛ وانفجرت في 13 من شهر حزيران (على الرَّغم من وصول المدمِّرة "بوتيومكين" إلى مياهها مساء 14 منه). لقد كانت أوديسا تغلي وتفور طول يوم 14 حزيران. ومع أن أكثر المشاركين في الحراك كانوا من الشباب، إلاَّ أنَّ العمال انضموا إليهم اليوم: "إنَّ جمعاً كبيراً منهم أخذ يوقف العمل في المصانع والمعامل عنوة". "وحاول حشد من ثلاث مئة شخص منهم أن يتوغَّلوا إلى قسم الوزن ... وأطلقوا عدداً من الأعيرة النارية باتجاه الناظر الذي وقف يمنع الحشد من اقتحام المكان، لكنَّهم ما لبثوا أن تفرَّقوا" تحت وابل نيران مفرزة الشرطة. "ثمَّ سرعان ما عادوا وتجمَّعوا ثانية"، ثمَّ انطلقوا باتجاه قسم الشرطة، فوقع تبادل لإطلاق النار بين الطرفين، كما أُطلقت النار "من نوافذ منزل دوسك وشرفته ... وأُطلق عدد من العيارات النارية على قادة قوات الشرطة"". وثمة حشد آخر "بنى من مواد البناء الموجودة في الشارع متراساً وشرع يطلق النار على الشرطة من ورائه"؛ في شارع آخر "قلب حشد مماثل عدداً من عربات القطار وأخرجها خارج السكة". "واقتحمت جمهرة كبيرة من اليهود فناء معمل الصفيح بعد أن قذفوا تبغاً في أعين الحارس ... لكنَّهم ما إن ظهرت طلائع قوات الشرطة حتى ولّوا الأدبار وهم يطلقون نيران مسدساتهم نحوها، كان أربعة ممن يطلقون النار يهوداً أُلقي القبض عليهم في المكان مباشرة"؛ وعند نقطة التقاء عدد من الشوارع "أُطلقت النار من الجمهرة اليهوديّة

التي كانت قد تجمّعت هناك [أطلقها اثنان منهم] فجُرِح أحد الحراس الخيالة"؛ "في نهار الرابع عشر من حزيران كله عمّت شوارع المدينة كلّها تقريباً، صدامات بين اليهود وقوات الشرطة استخدم اليهود فيها الأسلحة النارية والحجارة"، وجرحوا عدداً من الحراس. "كما جُرح من اليهود عشرة أشخاص" حملهم المتظاهرون وأخفوهم. بينما كان المشّان تسيبكين هارباً، رمى الحارس الذي كان يطارده بقنبلة قتلته وقتلت الحارس بافولفسكي معه.

في تلك الآونة رست المدمِّرة "بوتيومكين" في ميناء أوديسا! فاجتمع هناك قرابة 5000 شخص "وألقى كثير من الرجال والنساء كلمات دعوا فيها الشعب إلى الثورة ضدّ الحكومة"؛ وقد برز الطالب قسطنطين فيلدمان بين الطلاّب الذين تسلّقوا المدمِّرة (حاول هناك في اجتماع اللجنة أن يُقنع الحضور بضرورة مساندة الانتفاضة بقصف المدينة، لكنَّ "أكثر الكادر القيادي لم يوافق".

فأين كانت السلطات من هذا كله؟ في يوم وصول "بوتيومكين" ارتبك رئيس المدينة، أي قائد الشرطة نيدغارت تماماً، ورأى (على نحو ما حصل في كييف) أنَّ "السلطات المدنية عاجزة عن فرض النظام، فقرَّر أن ينقل إلى القيادة العسكرية صلاحيات اتخاذ التدابير اللاحقة كلّها لوضع حدٍّ للفوضى"، كان ذلك يعني تسليم السلطة في المدينة إلى الجنرال كاخانوف قائد قوات حامية أوديسا (ألم يكن في أوديسا أيُّ حضور لسلطة المحافظ؟ نعم، لقد كانت هذه حاضرة في شخص كارانغوزوف الحاكم العام في المقاطعة الذي أدرك بصفته قارئاً فطناً للأحداث، أنَّ سلطته مؤقّتة فأخذ يتعامل مع الواقع بتردّد). أمَّا الجنرال كاخانوف فلم يبتكر فكرة أفضل من محاصرة الآلاف "من العناصر المتمرِدة" الذين تجمّعوا في الميناء، ليفصل بينهم وبين المدينة النظيفة.

في الخامس عشر من شهر حزيران ادّغم العصيانان: عصيان أوديسا وعصيان بوتيومكين. فقد زار الأُوديسيّون المدمِّرة، "بمن فيهم كثير من الطلاب والطالبات والعمال"، وأقنعوا "قيادتها بتوحيد التحرُّكات". فاندفعت الحشود التي

حوصرت في الميناء "تنهب السلع المكدَّسة فيها"، بدءاً من صناديق الخمور، ثمَّ أخذت تنهب المستودعات وتحرقها من غير رادع، وسرعان ما أخذت النيران تلتهم رصيفاً بكامله (أُتلفت هناك بضائع قيمتها أكثر من ثمانية ملايين روبل)، وقد هدّد الحريق رصيف الحجْر الصحي حيث كانت ترسو السفن الأجنبية، وتقع مستودعات البضائع الأجنبية. ولم يجرؤ كاخانوف على قمع العربدة الجارية في الميناء بقوة السلاح خوفاً من أن تقصف "بوتيومكين" المدينة. هكذا تواصل الغليان يومي 15 و16. لكنَّ "بوتيومكين" قصفت المدينة بثلاث قذائف خلّبية، وقذيفتين قتاليتين من عيار ست بوصات، ثمَّ استدعت قائد القوات العسكريّة لتنذره بضرورة إخراج "القوات كلّها من المدينة، وإطلاق سراح المعتقلين السياسيين كلّهم". في ذلك اليوم نفسه، 16 حزيران، بينما كان البحارة يشيعون قتيلهم، -"بالكاد دخل موكب التشييع المدينة حتى أخذت الناس تنضمُّ إليه، وما لبث أن تحوَّل إلى حشد من أكثر من ألف شخص أكثرهم من الشباب اليهوديّ"، ودعا الذي ألقى كلمة في المشيعين رفاقه إلى التحرُّك بشجاعة أكبر، وألاّ يخافوا الشرطة، ثمَّ هتف بأعلى صوته: يسقط النظام القيصريّ".

لكنْ، في ذلك اليوم نفسه، أُعلنت حالة الطوارئ في المدينة، واستمرت بعد ذلك لزمن طويل. في يوم 18 حزيران اضطرت "بوتيومكين" إلى مغادرة مياه أوديسا بعد أن وصلت إلى هناك عمارة بحرية جاءت لتستولي عليها. ومع أنَّ رسوَّها أربعة أيام في ميناء أوديسا، "وتواصلها المفتوح مع ساحلها، رفع من معنويات الثوريين الأُوديسيين، وزاد من آمالهم في التعويل مستقبلاً على مساندة القوة العسكريّة"، إلاّ أنَّ ذلك الصيف انتهى بهدوء وسكينة، وربما كان من الممكن ألاّ تقع في أوديسا أيُّ أحداث عاصفة لولا صدور قانون 27 آب الذي منح المؤسسات التعليمية استقلاليّة إدارة شؤونها بنفسها، كان ذلك القانون سابقة في هذا الميدان. فأسرع الطلبة "وانتخبوا من صفوفهم مجلساً ائتلافياً نجح بتحركاته الحازمة والجريئة في فرض سيطرته ونفوذه مباشرة على الطلبة والكادر

التدريسي" (لقد خشي الأساتذة من الصدام مع الطلبة الذي كان يمكن أن يتخذ شكل مقاطعة المحاضرات، أو طرد الأستاذ من القاعة أو ...). فبدأت سلسلة من الاجتماعات الغفيرة في الجامعة، "وبدأ جمع التبرُّعات لتسليح العمال والبروليتاريا استعداداً لانتفاضة مسلَّحة، وشراء السلاح لتسليح القوات الشعبية المزمعة، وفصائل الدفاع الذاتي"، "كما نوقشت الطريقة التي يجب أن يتحرك وفقها قادة الانتفاضة المنتظرة"، وقد حضر تلك الاجتماعات "لفيف من الأساتذة" المتعاطفين مع الحراك الثوريّ، "في بعض الأحيان كان يأتي على رأس هؤلاء زانتشيفسكي، رئيس الجامعة نفسه"، الذي وعد "أن يضع تحت تصرُّف الطلبة كلَّ الوسائل المتوفرة لديه لضمان مشاركتهم في حركة التحرّر بشكل فاعل".

بعد ذلك، في 17 أيلول، جرى أول اجتماع في الجامعة "بمشاركة جمهور من خارج الجامعة كانت أعداده من الكثرة بحيث أرغمت المجتمعين على عقد اجتماعين منفصلين"، وقد ألقى تيبير، وهو من الحزب الاشتراكيّ الثوريّ، "واثنان من الطلاب اليهود، كلمات في الحضور دعوا فيها إلى خوض نضال لا هوادة فيه لتحرير البلاد من نير الحكم القيصريّ المتهالك". في 30 من شهر أيلول نفسه رُفع نظام الطوارئ في أوديسا وجاء الآن للمشاركة في الاجتماعات التي تُعقد في الجامعة، "تلاميذ المؤسسات التعليميّة على اختلافها، حتى من كان منهم لا يزال في سنِّ الرابعة عشرة بعد؛ في تلك اللقاءات كان "اليهود هم الخطباء الأساسيّون، فدعوا الحضور إلى انتفاضة مسلَّحة مفتوحة".

في 12 و13 تشرين الأول "كان تلاميذ مدرسة الامبراطور نيقولاي الأول التجارية، أول من أضربوا عن الدراسة، بصفتهم الأكثر تأثُّراً بالدعاية الثورية"، وفي 14 منه أُعلن عن توقُّف الدراسة في المؤسسات التعليميّة المتوسطة كلّها، وانطلق "التجّار" مع الطلاب يوقفون الدراسة عنوة في كلِّ مكان. وزعموا بناء على شكوى من أساتذة الجامعة، أنَّ الحراس جرحوا بحرابهم ثلاثة طلاب، وثلاثة تلاميذ عند ثانوية بيريزينا. بيد أنَّ "التحقيقات أظهرت بما لا يدع مجالاً

للشكِّ أنَّ أيَّ أطفال لم يتأذوا، وأنَّ التلاميذ لم يخرجوا أصلاً من المدرسة بعد". إنَّ مثل هذه الحوادث كانت ضرورية لتأجيج الغليان الثوري! في اليوم نفسه توقفت الدراسة في الجامعات ولم تكن قد بدأت أصلاً إلاّ منذ أيام، واقتحم الطلبة الثائرون مبنى مجلس دوما المدينة وهم يهتفون: "الموت لنيدغارت"، أوقفوا تمويل الشرطة.

فبعد أيام بوتيومكين، تسلَّم نيدغارت سلطاته من جديد، لكنَّه حتى أواسط تشرين الأول، لم يكن قد اتخذ أيَّ تدابير ضدَّ الاجتماعات الثوريّة الاستفزازيّة، وهل كان بمقدوره أن يفعل الكثير ما دامت الجامعة تتمتّع باستقلال ذاتي؟ في الخامس عشر من الشهر نفسه، تلقَى نيدغارت تعليمات من وزارة الداخلية بمنع دخول من هم من خارج الجامعة لحضور الاجتماعات التي تحصل فيها، وابتداء من السادس عشر منه أحاط الجامعة بطوق من الجنود كي ينفّذ تعليمات الوزارة، وأمر في الوقت نفسه بسحب ذخيرة المسدسات من محلات بيع الأسلحة. "لقد أثار منع الأشخاص الغرباء من دخول حرم الجامعة غضباً شديداً في أوساط الطلبة والشباب اليهود"، فاجتمعت حشود غفيرة وأغلقت في طريقها المحلات التجاريّة (نهبت موجودات مخزن بيع الأسلحة الأميركي)، وأخذوا يقلبون التراموايات، والعجلات في الشوارع، ويقطعون الأشجار لإقامة المتاريس، كما قطعوا أسلاك البرق والهاتف للغرض نفسه، وخلعوا أسيجة الحدائق. فطلب نيدغارت من كاخانوف أن يحتلَّ المدينة. عندئذٍ، "من وراء المتاريس التي تحصَّنت خلفها مجموعات المتظاهرين الذين كان أكثرهم من اليهود، بمن فيهم النساء والمراهقين، أخذوا يطلقون النار على قوات الجيش؛ كما أطلقوا النار على الجيش من فوق الأسطح والشرفات و[من] النوافذ"؛ فردَّ الجيش بوابل كثيف من النار كان كافياً لتفريق المتظاهرين، ثمَّ رُفعت المتاريس من الشوارع. "لم يُحدَّد عدد الجرحى والمصابين في هذا اليوم بدقة، لأنَّ فصيلاً صحياً أكثره من الطلبة واليهود، يرتدي أفراده زيَّ الصليب الأحمر،

كان قد خفَّ إلى المكان وأخذ يجلي المصابين والقتلى من الشوارع وينقلهم إلى مستوصف الجامعة"، أي إلى مكان محرَّم بموجب حصانة حقِّ الاستقلال الذاتي، وإلى "المشفى اليهوديّة"، أو إلى مراكز الإسعاف التي كانت قد أُقيمت على مقربة من المتاريس، وفي الصيدليات كلّها تقريباً (كان صرف الأدوية قد توقف قبل ذلك في الصيدليات كلّها). بحسب معطيات حاكم المدينة أنَّ عدد القتلى بلغ تسعة أشخاص، وعدد المصابين قرابة ثمانين، إضافة إلى عدد من رجال الشرطة. "في ذلك اليوم اعتقلت الشرطة 214 من المشاركين في أعمال الشغب، بمن فيهم 197 يهودياً، بينهم كثير من النساء، 13 طفلاً في سنِّ 12 حتى 14 عاماً".

قد يبدو تكرار الإشارة إلى دور اليهود وإبرازه في التحرُّكات الثوريّة تحيُّزاً من قبل تقرير السيناتور. بيد أنَّه من المفيد أن نشير إلى أنَّ اليهود كانوا يُشكّلون ثلث عدد سكان أوديسا، وكما رأينا قبل قليل، كان لهم وزن ملموس في فئة الطلبة؛ ثانياً، يجب أن نلاحظ أيضاً الديناميية العامة لمشاركة اليهود على وجه العموم، في الحركة الثوريّة الروسيّة، خاصة في إقليم الاستيطان اليهودي. بل إنَّ تقرير السيناتور كوزمينسكي أظهر غير مرة عدم تحيُّزه.

هاكم الآن ما حدث في 16 تشرين الأول. "فور وصول المعتقلين إلى قسم الشرطة انهال الحراس والجنود عليهم ضرباً ورفساً حتى برَّحوهم"، بيد أنَّ "حاكم المدينة، وقائد الشرطة، لم يوليا هذا الأمر أيَّ اهتمام في حينه ... ولم يجر أيُّ تحقيق فيه"، فيما بعد فقط، أعلن أكثر من عشرين معتقلاً كانوا في قسم الشرطة المعني، أنَّ "المعتقلين تعرَّضوا للضرب المبرِّح بشكل متواتر؛ في الأول دفعوا بهم على السلَّم نحو القبو ... فسقط عدد منهم أرضاً، عندئذٍ انهال عليهم الحراس والجنود ضرباً بسيوفهم، وسياطهم، ونعالهم، وقبضاتهم"، ولم يعفُ هؤلاء حتى عن النساء (صحيح أنَّ أعضاء مجلس الدوما وقضاة محكمة الصلح زاروهم في ذلك المساء، وعاينوا القبوَ، واستمعوا إلى شكواهم من الضرب الذي

تعرّضوا له. في شهر تشرين الثاني كشف تحقيق السيناتور عن عدد من المتهمين بأعمال الضرب والتعذيب وأحالهم إلى القضاء).

"في السابع عشر من تشرين الأول استولى الجنود على المدينة، وجابت شتى أرجاءها دوريات من قوات الجيش، ولم يُسجل في ذلك اليوم أيُّ حدث مخلٍّ بالأمن". أمّا دوما المدينة، فقد اجتمعت وبحثت في اتخاذ تدابير استثنائية، تحديداً: إمكانية إنشاء ميليشيا شعبية تحلُّ محلَّ قوات الشرطة. في ذلك اليوم أقرّت لجنة حزب البوند إقامة مواكب تشييع احتفالية للذين سقطوا على المتاريس أمس، لكنَّ نيدغارت الذي كان يدرك أنَّ مثل هذا التشييع يؤدي عادة إلى انفجار ثوريّ جديد، أمر أن تُنقل سراً من المشفى اليهودي، " تلك الجثامين الخمسة "وتُدفن قبل الموعد المعلن"، وهو ما حصل ليل الثامن عشر من الشهر (في النهار طالب منظّمو التشييع بحفر قبور الخمسة وإعادة الجثامين إلى المشفى. فتطوّرت الأحداث. عندئذٍ حنّطوا الجثامين، وبقيت لوقت طويل آخر من غير أن تُدفن). هنا دوى المرسوم الامبراطوري الكلّي الإحسان، ليدفع بأوديسا إلى طور جديد من الأحداث العاصفة.

وها نحن نسوق في البداية المعطيات التي أدلى بها مشاركون في فصائل الحماية الذاتية اليهوديّة. "في أثناء أعمال العنف أدّى مجلس ائتلافيٌّ ما، عمله بقدر ملحوظ من الكفاءة ... كان للجامعات دور عظيم رائد في الإعداد للأحداث التي وقعت في تشرين الأول ... لقد ضمَّ المجلس الائتلافي الذي تشكّل في جامعة أوديسا قبيل اشتعال أعمال العنف": بلاشفة، مناشفة، اشتراكيّين ثوريّين بونديّين، عضواً واحداً عن كلٍ من الصهاينة الاشتراكيين، والأرمن - الدروشاكيّين، ورابطة الجورجيّين، والبولونيّين. "كما كانت قد تشكّلت فصائل طلابية قبل اندلاع أعمال العنف"، "في الاجتماعات الحاشدة التي كانت تتجمّع في الجامعة، كانوا يجمعون تبرُّعات لشراء السلاح، لا للدفاع عن النفس فقط، إنّما استعداداً لاشتعال انتفاضة مسلّحة". "كما جمع المجلس الائتلافي

نفسه تبرُّعات لتسليح الطلبة"، "ومع بدء أعمال العنف كان قد بات في الجامعة مئتا مسدس"، ثمَّ "جاء أحد الأساتذة بمئة وخمسين أخرى". كان يُعيَّن على رأس كلِّ فصيل "دكتاتور"، "ولم يكن الانتماء الحزبي لقائد الفصيل يؤخذ بعين الحسبان لدى تعيينه، فكان يحدث أن يكون أكثر أفراد الفصيل من البوند، بينما قائده من الصهاينة الاشتراكيّين، أو العكس"؛ "في يوم الأربعاء [19 تشرين الأول] وُزِّع عدد كبير من الأسلحة في أحد الكنس الصهيونية"؛ "كان الفصيل يتألَّف من طلبة روس ويهود، عمال يهود، شباب يهود من شتى الانتماءات، وعدد ضئيل من العمال الروس".

بعد بضع سنوات كتب جابوتينسكي يقول: "إنَّ الروح اليهوديّة الجديدة بلغت طور النضوج" في أحداث العام 1905م. وعلى خلفية الأحلام الوردية التي خلقتها ثورة شباط، كتبت إحدى الصحف الروسيّة تصف هذه اللوحة على النحو الآتي: "في العام 1905م عندما كان شباب الدفاع الذاتي يتباهون بأسلحتهم في أثناء مجزرة نيدغارت في أوديسا، كانوا يثيرون الشعور بالإعجاب، كانوا رائعين، وكان القلب يخفق لهم رأفة وحناناً ...".

ويكتب أحد معاصرينا اليوم قائلاً: "إنَّ البسالة التي أبداها مقاتلو غوميل الشجعان، أشعلت الحماس في نفوس عشرات الآلاف من البشر. في كييف انتسب إلى فصائل الدفاع الذاتي 1500 شخص، بينما التحق بها في أوديسا عدة آلاف". وعليه فقد تميَّز مجرى الأحداث في أوديسا عنه في كييف، سواء من حيث العدد أو المزاج الثوري وعنف الشرطة.

دعونا نعود الآن إلى تقرير كوزمينسكي. بعد إعلان المرسوم الامبراطوري مباشرة، أمر قائد منطقة أوديسا العسكرية، الجنرال كولبارس، القوات كلَّها ألاَّ تظهر في الشوارع ابتداء من صباح 18 تشرين الأول، "كيلا تُعكِّر على السكان فرحتهم، وتُتيح لهم الفرصة ليفيدوا من الحريّة التي منحها لهم المرسوم في شتى الميادين من غير عائق". لكنَّ "مزاج الفرح ذاك لم يستمرَّ طويلاً". فمن

كلٍّ حدب وصوب، أخذت تتدفَق على مركز المدينة مجموعات من اليهود والطلبة بشكل أساس"، حاملين رايات حمراء وهم يهتفون: "يسقط الحكم القيصري"، "تسقط الشرطة"، كما دعا الذين خطبوا فيهم إلى الثورة. ثمَّ اقتلعوا من الرسم المعدني على مبنى الدوما من كلمات: "احمِ القيصر يا رب" الكلمتين الثانية والثالثة؛ واقتحموا قاعة الدوما، "فهشَّموا صورة كبيرة للقيصر كانت مرفوعة هناك، واستبدلوا بالعلم الوطني المرفوع فوق الدوما علماً أحمر. وبينما كانت تمرُّ من هناك عربة تحمل قمُصاً وكاهناً ومعهما شمَاس، كانوا في طريقهم لإقامة مراسم الدَّفن، انتزعوا قبَّعاتهم عن رؤوسهم، وعندما ساروا في الجنازة بعد ذلك كانوا يوقفون الموكب بين الحين والآخر "ويقطعون ترتيلة "قدوس الرب" بهتاف "أُورا". "ثمَّ حملوا جثة قطة نافقة من غير رأس وعليها يافطة كُتب عليها "ها هو الحكم القيصري"، في المكان نفسه جمعوا تبرُّعات " على نيَّة قتل القيصر"، أو "على نيَّة موت نيقولاي". "وأخذ الشباب، خاصة اليهود، حينما أدركوا تفوُّقهم، يلمِّحون للروس بأنَّ الحرية لم تُمنح منَّة، بل انتزعها اليهود من الحكومة انتزاعاً ... وأعلنوا للروس صراحة: "نحن سنقودكم الآن"، "نحن منحناكم الإله، ونحن سنمنحكم القيصر". "وطارد جمع كبير من اليهود يحمل الأعلام الحمراء"، اثنين من الحراس مسافة طويلة، ففرَّ أحدهما عبر الفناء والسطح، أمَّا الآخر الذي كان يُدعى غوبيا، "فقد عثر عليه الجمع الذي اقتحم الفناء مسلَّحاً بالمسدسات، والفؤوس، والنبابيت، والعصي الحديدية، مختبئاً في العلية فانهالوا عليه ضرباً حتى برَّحوه فمات وهو في الطريق إلى المشفى، وقد عثر أحد الحراس على الإصبعين المقطوعتين من يده". بعد ذلك أُشبع ثلاثة من قادة الشرطة ضرباً حتى ضُرِّجوا بدمائهم، وسُلب خمسة من رجال الشرطة مسدساتهم. ثمَّ أخذت السلطات تطلق سراح الموقوفين في أحد أقسام الشرطة، وبعده الموقوفين في القسم الثاني والثالث (حيث برَّحوهم ضرباً في السادس عشر من الشهر، أي منذ يومين، -وكانوا قد أطلقوا هناك سراحهم بأمر من

نيدغارت؛ في أحد الأقسام بادلوا بهم جثمان غوبيا)، وكان لرئيس الجامعة دور ميسِّر في هذا كلِّه، فقد طالب هذا النائب العام "باسم خمسة آلاف شخص"، "كما هدد الطلبةُ قادةَ الشرطة باستخدام العنف ضدهم "وقد يصل الأمر "حدَّ الإعدام شنقاً". فدعا نيدغارت حاكم المدينة كريجانوفسكي والأستاذ الجامعي شيبكين للتشاور، إلاَّ أنَّ هذين طلبا منه بدلاً من ذلك، "تجريد الشرطة من السلاح وإخفائها عن العين"، وإلاَّ، أردف شيبكين قائلاً: "لن يمرَّ الأمر من غير ضحايا وأعمال انتقامية و ... ستُجرَّد الشرطة من سلاحها بالقوة". (لكنَّه أنكر فيما بعد أمام السناتور الذي كان يحقق معه أن يكون قد استخدم مثل هذه التعابير الحادة، بيد أنَّها في حقيقة الأمر لم تكن أقلَّ حدة، لا سيما إذا أخذنا بعين الحسبان أنَّه في ذلك اليوم نفسه سلَّم شيبكين الطلبة مئة وخمسين مسدساً، لكنَّه رفض في أثناء التحقيق أن يعترف بمصدرها). بعد هذا الحديث مباشرة أمر نيدغارت بانسحاب الحراس من نقاط الحراسة كلِّها (حتى من غير أن يُعلم قائد الشرطة بقراره هذا)، "على هذا النحو ترك نيدغارت المدينة كلَّها من غير حراسة معلنة"، وهو ما يمكن أن نرى فيه حرصاً منه على صون حياة الحراس، فغياب أيِّ وجود لقوات الجيش من الشوارع، كان قراراً يوحي بانحطاط عام. (هذا ما كان قد طالب به الصحفيون فيتيه في بطرسبورغ، وبالكاد نجح في أن يصمد).

"بعد أن توقفت دوريات الحراسة التي كانت تسيرها قوات الشرطة، ظهرت في المدينة مجموعتان من الدفاع الذاتي: الميليشيا الطلابية، وميليشيا الدفاع اليهوديّة. أنشأ الأولى منهما "المجلس الائتلافي" الذي كان قد نجح في الحصول على أسلحة". وشغلت نقاط الحراسة، "ميليشيا المدينة التي كانت تتألَف من الطلبة الذين تسلحوا في الجامعة ومعهم أشخاص آخرون". وقد وافق الجنرال البارون كولبارس، ونيدغارت على ذلك، أمَّا قائد الشرطة غولوفين، فقد قدَّم استقالته احتجاجاً على ذلك، فحلَّ محلَّه مساعده فون -هوبسبيرغ. كما

تأسست في دوما المدينة لجنة مؤقتة أعلن أول البيانات الصادرة عنها، الشكر لطلاب الجامعة على "تحرُّكاتهم النشطة، العقلانية والمتفانية في العمل على حفظ النظام في المدينة". ثمَّ عهدت اللجنة إلى نفسها بمهمة ما غير واضحة (في تشرين الثاني ذلك نفسه كتبت الصحافة عن عضو تلك اللجنة وعضو دوما الدولة او. يا. بيرغامينت، كما ذكّروا في دوما الدولة الثانية أنّه أعلن نفسه في تلك الأيام رئيساً "لجمهورية الدانوب والبحر الأسود"، أو "رئيساً لجمهورية روسيا الجنوبية"، وفي ذروة حمّى تلك الآونة، كان ذلك الحدث حدثاً فريداً).

لكنْ ما الذي كان يمكن أن يُفضي إليه انسحاب الجيش والشرطة من الشوارع في لحظة غليان اجتماعي، ووضع السلطة في أيدي ميليشيا طلابية، وفصائل دفاع ذاتي لا خبرة لها؟ "فالميليشيا الطلابية كانت تعتقل كلَّ من تشتبه به وتحيله إلى التحقيق في الجامعة"؛ وها هو أحد الطلاب "على رأس جمع من اليهود يبلغ تعداده قرابة ستين شخصاً يسيرون في الشارع ويُطلقون النار من مسدساتهم عشوائياً"؛ "ولم يكن نادراً أن تلجأ الميليشيا الطلابية والحماية اليهوديّة نفسيهما إلى تدابير تعسفية عنفية ضدَّ قوات الجيش والسكان المدنيين الروس، فيطلقون النار ويقتلون أُناساً لا ذنب لهم في شيء قط". لذلك كان الصدام "سيقع حتماً بسبب حالة التوتُّر التي نشأت في أوساط السكان بين تيارين متضادين تماماً". وها قد وقع المحظور. ففي الثامن عشر من الشهر نفسه، "حاول حشد من المتظاهرين كان يسير تحت رايات حمراء، أكثره من اليهود، أن يُخرج العمال من مصنع جينا ... إلاَّ أنَّ العمال لم يمتثلوا لهذا المطلب؛ بعد ذلك مباشرة التقى المتظاهرون عمالاً من الروس في الشارع، فطلبوا منهم أن يرفعوا قبعاتهم للرايات الحمراء. لكنَّ العمال رفضوا تلبية الطلب" - يا لها من بروليتاريا! – "فدوت إثر ذلك من جهة الحشد طلقات نارية؛ ومع أنَّ العمال لم يكونوا مسلَّحين، إلاَّ أنَّهم نجحوا في تفريق المتظاهرين، ثمَّ اندفعوا يطاردونهم إلى أن انضمَّ إليهم جمع آخر من المتظاهرين اليهود المسلَّحين يقارب تعداده الألف شخص

أخذوا يطلقون النار على العمال ... فقتلوا منهم أربعة عمال". فأدّى ذلك إلى "بدء اشتباكات في أماكن مختلفة من المدينة، كما اشتعلت صدامات مسلّحة بين الروس واليهود؛ وأخذ العمال الروس وأُناس آخرون ليس لهم أعمال محدّدة كانوا يدعونهم بالأوباش، يصطادون اليهود ويبرّحونهم ضرباً ورفساً، ثمَّ تحوّلوا إلى تحطيم منازل اليهود ومحالهم التجارية ونهب محتوياتها". فاستدعى قائد مركز الشرطة عندئذٍ "سرية من المشاة وضعت حداً للصدامات".

في اليوم التالي، 19تشرين الأول "بين الساعة العاشرة والحادية عشرة صباحاً، أخذت تظهر في الشوارع جموع من العمال الروس، وأُناس من مهن مختلفة، يسيرون في مواكب وهم يرفعون الأيقونات وصور القيصر والأعلام الوطنيّة، ويُنشدون "خلّص يا ربُ شعبك"، والنشيد الوطني. كانت هذه المسيرات الوطنيّة الروسيّة الصرف، قد بدأت تتجمَّع في مختلف أرجاء المدينة، لكنَّ بدايتها كانت في الميناء التي انطلقت منها أول مسيرة كبيرة حاشدة كانت من العمال فقط". وثمة "أسس تجعلنا نعترف بأنَّ حالة الغضب التي أثارها سلوك اليهود طول النهار السابق، وازدراءهم الوقح بالشعور القوميّ للسكان الروس، كان يجب أن ينفجر هذا كلِّه في شكل ما من أشكال السخط والاحتجاج". كان نيدغارت يعرف أنَّ التحضير للمسيرة جارٍ على قدم وساق، وقد أجازها، فهي عبرت على مقربة من مبنيي قائد المنطقة العسكرية وحاكم المدينة، ثمَّ اتجهت نحو الدير. "في الطريق انضمَّ إلى المسيرة كثير من الناس الذين كانوا في الشارع مصادفة، بمن فيهم كثير من الأوباش، والمشرَّدين، والنساء، والمراهقين" (من المناسب أن نقارن هذا بما أفصح عنه راوٍ من بواليه - تسيون: "لم يكن الأوباش هم الذين ارتكبوا مجزة أوديسا ... ففي أيام أعمال العنف تلك منعت الشرطة المشرَّدين من مغادرة الميناء ودخول المدينة"؛ "لقد هاج عندئذٍ صغار الحرفيين والباعة، والعمال والصبيان العاملون في شتى الورش المهنية، والمعامل وسوى ذلك من أماكن العمل"، أي "العمال الروس الغارقون في سبات الجهل"؛

"لقد سافرت إلى أوديسا فقط كي أعثر على مجزرة ناتجة عن الاستفزاز حصراً، لكنْ، وأسفاه! لم أعثر عليها". ثمَّ عزى المجزرة إلى شعور العداء القومي).

"غير بعيد عن ساحة الدير أُطلقت النار على المسيرة، فسقط فتى كان يحمل أيقونة"، "كما قوبلت سرية المشاة التي خفّت إلى المكان بوابل من رصاص المسدسات". وأُطلقت النار على المسيرة من نوافذ مركز تحرير صحيفة "الرقابة الجنوبية" أيضاً، "على وجه العموم، كانت المسيرة تتعرض لإطلاق النار على طول طريقها في الأماكن الأخرى ... من النوافذ، والأبواب، والشرفات، والبوابات، والسطوح"؛ "علاوة على ذلك، قذفوا المسيرة في بعض الأماكن بعبوات متفجرة قتلت إحداها ستة أشخاص"؛ في مركز أوديسا، "عند تقاطع شارعي ديرياسوفسكايا وريشيليفسكايا رُميت ثلاث قنابل على فصيل المئة القوزاقي". "لقد سقط في صفوف المسيرة كثير من القتلى والجرحى"، ولم يكن "اتهام الروس اليهودَ بهذا يفتقر إلى الأسس، لذلك تعالت في أوساط المسيرة هتافات تقول: "اضرب الجيديين"، "الموت للجيديين"، "واندفعت جموع منهم في الحال تحطّم محالَّ اليهود التجارية في مختلف أرجاء المدينة"؛ ثمَّ "سرعان ما تحوَّلت الحالات الفردية إلى دمار عام: كلُّ الحوانيت، والمنازل، والشقق اليهوديّة التي كانت تقع في طريق المسيرة دُمِّرت وسويت بالأرض، بيدت أملاك اليهود فيها تماماً، وما بقي منها سليماً بمحض المصادفة، نهبته جموع الأوباش والمشرَّدين الذين كانوا يرافقون المسيرة في كلِّ مكان"، "كان يحدث في أحيان كثيرة أن تُنهب محالُّ اليهود على مرأى من المسيرة التي كانت تسير تحت الأيقونات، وينشد المشاركون فيها نشيد "خلِّص يا ربُّ شعبك". مع حلول مساء التاسع عشر من تشرين الأول، كان "العنف بين الطرفين العدوين قد بلغ مستوى عالياً من الخطورة: لم يرحم أيٌّ منهما الآخر، بل كان كلُّ طرف يُلحق بالآخر كلَّ أذى ممكن، فيبرِّحه ضرباً ورفساً وتنكيلاً كان يبلغ في بعض الأحيان حدّاً استثنائياً من الضراوة والقسوة بصرف النظر عن سنِّ الضحية وجنسها". فبحسب

شهادة أحد أطباء مشفى الجامعة، أنَّ "الأوباش كانوا يرمون بالأطفال من الطابق الثاني والثالث إلى الرصيف، وثمة وبش من الأوباش أمسك بطفل من قدميه وأخذ يضرب رأسه في الجدار حتى هشَّمه. لم يرحم اليهود بدورهم الروس، بل كانوا يقتلونهم عند أول فرصة تُتاح لهم؛ في النهار لم يكن اليهود يظهرون في الشارع مباشرة بل كانوا يطلقون النار على المارة من وراء الأبواب والنوافذ وما شابه، لكنَّهم كانوا يتجمعون في الليل جماعات"، بل كانوا "يحاصرون أقسام الشرطة". "وما يثير الانتباه أنَّ اليهود كانوا يتعاملون بضراوة فريدة مع قادة قوات الشرطة، عندما كان يقع أحدهم بين أيديهم" (بحسب بواليه - تسيون: "أنَّ الصحافة روَّجت خرافة تتحدث عن أعداد مهولة من الأوباش الذين أُلقي القبض عليهم وسيقوا إلى الجامعة. وأُشيع أنَّ أعداد هؤلاء بلغت 800 -900 شخص؛ بينما حقيقة الأمر هي أنَّه ينبغي تقليص هذا العدد بمعدل عشرة أضعاف. عدا عن هذا، لم يسوقوا المخربين إلى معتقل الجامعة إلاَّ في الأيام الأولى من أعمال العنف، ثمَّ استجدت بعد ذلك أشياء أكثر أهمية". على أيِّ حال، يمكننا أن نتابع مشاهد مجزرة أوديسا في أعداد صحيفة "الكييفليانين" الصادرة في تشرين الثاني من العام 1905م).

فماذا فعلت الشرطة؟ بحسب تعليمات نيدغارت الحمقاء، "غابت الشرطة غياباً كاملاً عن الشوارع في يوم 19 تشرين الأول والأيام التي تلته"، قلَّما كانت تُشاهد الدوريات، فلم يكن نزولها منتظماً. "لقد باتت العلاقة بين السلطات المدنية والعسكرية مبهمة وخارج إطار التعليمات القانونية تماما"، الأمر الذي أدَّى إلى "عجز قادة الشرطة عن فهم كنه الواجبات الملقاة على عاتقهم"، علاوة على ذلك كلِّه "كان قادة الشرطة كلُّهم من غير استثناء، على يقين بأن اليهود هم وراء القلاقل السياسية كلِّها، وأنَّهم بصفتهم ثوريين، فهم يتعاطفون مع السكان اليهود في أعمال العنف الجارية، ولا يرون ضرورة لإخفاء موقفهم هذا". والأسوأ في هذا كلِّه: "أنَّ قادة الشرطة أنفسهم في كثير من الأحيان، كانوا يدفعون

حشود الأوباش لنهب منازل اليهود ومحالهم التجاريّة وتحطيمها"؛ وما زاد الطين بلّة، "أنَّهم هم أنفسهم شاركوا في أعمال العنف وهم يرتدون زيَّهم الرسمي، لكنْ بعد أن نزعوا الشعارات والشارات عنه"، "فقادوا تحرّكات الحشود"، بل كان "يحدث أحياناً أن يُطلق الحراس النار بأنفسهم في الهواء، أو في الأرض، ثمَّ يضللون قوات الجيش مدَّعين أنَّ إطلاق النار جاء من نوافذ منازل اليهود". فيا لها من شرطة!

لقد أحال السيناتور كوزمينسكي اثنين وأربعين شرطياً إلى القضاء، ثلاثة وعشرون منهم من ذوي الرتب وليسوا أفراداً عاديين.

أمَّا قوات الجيش "التي كانت مبعثرة على اتساع أرجاء المدينة كلّها"، فقد كان عليها أن "تتخذ تدابيرها باستقلالية؟ "لكنَّ قوات الجيش كانت تقف موقف المتفرج على ما كان يأتيه المخربون من عنف وتدمير، لأنَّ أحداً لم يُطلعهم على جوهر الواجبات الملقاة على عاتقهم، ولمّا لم يتلقوا من قادة الشرطة أيَّ تعليمات محدّدة، كانوا عاجزين عن تحديد الوجهة التي ينبغي عليهم أن يستخدموا فيها السلاح. من جهة أخرى، حينما رأوا أن قادة الشرطة يقفون موقف الظهير لمن يدمِّرون أملاك اليهود، كان من حقّهم أن يظنّوا أنَّ أعمال العنف الجارية، إنَّما تجري بمعرفة السلطات ومباركتها"، لذلك "لم تتخذ قوات الجيش أيَّ تدابير ضدَّ المخربين". والأسوأ من هذا، أنَّ "التحقيقات أظهرت قرائن تؤكد أنَّ الجنود والقوزاق كانوا في كثير من الأحيان يشاركون في نهب البضائع من مخازن اليهود المحطمة، ومختلف الأشياء الأخرى من شقق اليهود السكنية التي طالها الخراب". "وقد أفاد بعض الشهود بأنَّ الجنود والقوزاق كانوا يقتلون بدم بارد أشخاصاً لا ذنب لهم في شيء البتة". إذن هنا أيضاً يدفع البريء ثمن جرائم الآخرين.

"في 20 و21 تشرين الأول لم تتوقّف المجزرة، ولم تتراجع ضراوتها، بل اتخذت منحى أكثر ضراوة من حيث أبعادها وطابعها"، "ففي وضح النهار كان يجري نهب أملاك اليهود وإتلافها، وتبريح الناس ضرباً وقتلهم يقع علانية من غير حساب" (عن بواليه - تسيون: ابتداء من مساء العشرين من تشرين الأول "حاصرت قوات الجيش الجامعة؛ كانت المتاريس قد أُقيمت في داخلها تحسباً لهجوم يشنُّه الجيش. أوقفوا إرسال الفصائل إلى المدينة". فأخذت مكانها هناك "فصائل من الحماية الذاتية غير منظّمة"، "وتشكّلت فصائل قوية من السكان المحليين"، "مسلّحة بما وقع: بالفؤوس، والقاطعات، والبلطات، "وقد دافع هؤلاء عن أنفسهم بالعزيمة نفسها والضراوة عينها التي هوجموا بها، فنجحوا في حماية شوارعهم كلّها تقريباً").

في العشرين من الشهر نفسه جاءت مجموعة من أعضاء دوما المدينة، ومعهم حاكم المدينة الجديد (كان الحاكم السابق كريجانوفسكي قد قدَّم استقالته في 18 منه حينما رأى أنّه عاجز عن الوقوف في وجه أعمال التحريض التي تقوم بها الجامعة، خاصّة بعد أن تكدّس السلاح فيها الآن) لزيارة الجنرال كولبارس، "فطلبوا منه أن يتسلّم السلطة بنفسه، لأنَّ القيادة العسكرية وحدها ... القادرة على إنقاذ المدينة". لكنَّ قائد المنطقة لفت انتباه الجنرال "إلى أنّه قانوناً، ليس من حقِّ القيادة العسكرية أن تتدخّل في إجراءات الإدارة المدنية قبل فرض حالة الطوارئ، وأنّها ملزمة" بتقديم الدعم لها حينما تطلب منها ذلك. "لكنَّ إطلاق النار على قوات الجيش، ورميها بالقنابل، جعل النجاح في وضع حدٍ للفوضى أمراً في غاية الصعوبة". فمال الجنرال نحو التدخُّل. في الحادي والعشرين من تشرين الأول، أصدر كولبارس أمراً "باتخاذ أكثر الإجراءات حزماً ضد المنازل التي تُطلق منها النار، وتُرمى القنابل"؛ وفي الثاني والعشرين منه، أصدر أمراً آخر قضى بتصفية كلِّ اللصوص الذين يهاجمون منازل السكان المسالمين وينهبون مخازنهم التجارية". ابتداء من الحادي والعشرين من تشرين الأول، أخذ

الهدوء يسود أحياء المدينة واحداً إثر الآخر؛ ثمَّ ابتداء من الثاني والعشرين منه، أُعيدت خدمة الشرطة في نقاط الحراسة إلى عهدها السابق"، ودُعمت بقوة من الجنود؛ وبدأت حركة الترامواي، عند المساء كان النظام قد عاد إلى شتى أرجاء المدينة".

لقد كان إحصاء عدد القتلى صعباً جداً، ويختلف بين مصدر وآخر. ففي تقرير كوزمينسكي "أنَّ عددهم استناداً إلى معطيات الشرطة، تجاوز 500 قتيل، منهم أكثر من 400 يهودي، أمَّا عدد الجرحى الذي سجَّلته الشرطة، فقد بلغ 289 جريحاً منهم 237 يهودياً. وبحسب مراقبي المقابر أنَّ 86 شخصاً دفنوا في مقابر المسيحيين، و298 في مقابر اليهود". وأمَّ المشافي طلباً للعلاج "608 مصابين بمن فيهم 392 يهودياً (بيد أنَّ كثيرين كان يمكن ألاَّ يطلبوا المساعدة، خوفاً من المسؤولية). أمَّا الموسوعة اليهوديّة فقد أحصت 400 قتيل يهودي. بحسب معطيات بواليه - تسيون التي تستند إلى لائحة الأسماء التي وضعتها الرابينية، أنَّ "عدد القتلى اليهود بلغ 302 منهم 55 يهودياً من فصائل الدفاع الذاتي، و15 مسيحياً، وكان بين القتلى الآخرين 45 قتيلاً هويتهم مجهولة؛ و179 رجلاً و23 امرأة هويتهم معروفة"؛ "قُتل من المخربين عدد كبير. لكنَّ أحداً لم يحص أعدادهم، ولم يهتمَّ بمعرفة العدد الدقيق للقتلى من هؤلاء؛ غير أَنهم يؤكدون على أيِّ حال، أنَّ أعداد القتلى من المخربين لم يكن أقلَّ من مئة". أمَّا المقتطف السوفييتي فيقول: "إنَّ عدد القتلى من اليهود تجاوز 500 قتيل و900 جريح".

يمكننا أن نضيف شهادة أخرى تتّصل برد الفعل العالمي المباشر على هذا. فقبل الحادي والعشرين من تشرين الأول كتبت "برلينر تاغيبلات" تقول: "آلاف مؤلَّفة من اليهود قُتلوا في جنوبي روسيا؛ أكثر من ألف فتاة وطفل اغتُصبوا وقُتلوا خنقاً".

ثمَّ يخلص كوزمينسكي من غير مبالغات إلى: "أنَّ هذه المجزرة فاقت من حيث ضراوتها وقسوتها المجازر التي سبقتها كلَّها". وألقى بالمسؤولية الرئيسة عمَّا وقع، على عاتق حاكم المدينة نيدغارت. فبعد مطلب البروفسور شيبكين "وتنازله المهين" بسحب الحراس من مراكز الحراسة في المدينة، وتركها بين يديّ ميليشيا الطلبة التي لم تكن قد تشكلت بعد، "لم يتخذ أيَّ إجراءات كانت ... لتفريق الجموع ذات المزاج الثوري التي احتشدت في الشوارع"، وأتاح ابتداء من 18 تشرين الأول، أن تنتزع السلطة في المدينة، "جماعات من اليهود والثوريين" (أيُعقل ألاّ يكون قد أدرك أنَّه كان بموقفه هذا يدفع إلى مجزرة جوابيّة؟). لقد كان يمكن أن يكون تقاعسه مفهوماً لو أنَّه سلَّم السلطة إلى القيادة العسكرية، بيد أنَّ "تسليم السلطة على هذا النحو ... لم يحصل على مدى زمن الفوضى كلِّه". لكنَّ نيدغارت، على الرَّغم من أنَّه لم يُظهر أيَّ حزم، أصدر في أثناء الأحداث بيانات مبهمة ليس لها مغزى واضح؛ ثمَّ قدَّم بعد ذلك للتحقيق مبرّرات غير صحيحة. ولمَّا أظهر السناتور "قرائن تؤكد مسؤولية الإدارة عن الأعمال الإجرامية التي وقعت"، أحال نيدغارت إلى التحقيق الجنائي.

لكنَّ السيناتور لم تكن له مثل هذه الصلاحيات، عندما يتعلَق الأمر بالقيادة العسكرية. مع ذلك أشار إلى أنَّ كولبارس ارتكب جريمة عندما وافق في 18 تشرين الأول على طلب الدوما بسحب الجيش من الشوارع. في 21 تشرين الأول ألقى كولبارس أمام قادة الشرطة المجتمعين عند حاكم المدينة موعظة ساق فيها حججاً ذات طابع مزدوج مبهم: "سندعو الأشياء بأسمائها الحقيقية. ينبغي أن نعترف بأنَّنا من غير استثناء، نعاني روحياً من هذه المجزرة. بيد أنَّنا يجب ألاَّ ننقل الكره الذي ربما نكنُّه لليهود، إلى ميدان عملنا الوظيفي. فنحن من واجبنا بحسب اليمين الذي أقسمناه، أن نحافظ على النظام العام، ونحمي السكان من أعمال العنف والقتل".

بناء على مجموع الاعتبارات التي درسها السناتور بتأنٍ، خلص إلى النتيجة الآتية: "لا ريب في أنَّ الاضطرابات التي وقعت في شهر تشرين الأول، كانت ناتجة عن أسباب ذات طابع ثوري، وانتهت إلى دمار حلَّ باليهود فقط؛ لأنَّ مشاركة السكان الذين ينتمون إلى هؤلاء القوم، كانت هي الغالبة على الحركة الثورية". ألا يحسن بنا أن نضيف أيضاً: ونتيجة للتغاضي الطويل الأمد عن عربدة الثوريين؟

بما أنَّ "القناعة استقرَّت على أنَّ أحداث شهر تشرين الأول لم تكن إلاَّ نتيجة حتمية للطريقة التي أدار بها نيدغارت الأُمور، بل نتيجة للاستفزاز الذي مارسه"، فقد تشكَّلت بعد الأحداث مباشرة "عدة لجان في أوديسا، بما فيها لجنة في الجامعة، لجنة تابعة لدوما المدينة، ولجنة في مجلس المحامين". وقد جدَّت هذه اللجان في جمع معطيات لفضح عامل "الاستفزاز في المجزرة"، لكنْ بعد أن درسها السناتور بإمعان، قرَّر "أنَّها لا تتضمَّن أيَّ براهين مؤكَّدة"، كما لم يُظهر التحقيق "أيَّ قرائن قاطعة تشير إلى أنَّ أيَّ جهاز من أجهزة الشرطة كانت له مشاركة في تنظيم المسيرة الوطنيّة".

من النافل أن نشير في هذا السياق إلى أنَّ تقرير السناتور يعطي بدقته وتفاصيله، سمات عامة للعام 1905م ولتلك المرحلة التاريخية على وجه العموم.

في الحادي والعشرين من تشرين الأول، "بعد أن انتشرت في المدينة شائعات تقول: إنَّهم يصنعون في الجامعة قنابل، وإنَّ فيها مخزناً كبيراً للسلاح"، اقترح قائد القوات تشكيل لجنة من الضباط وأساتذة الجامعة لتفتيش المبنى. رداً على ذلك، أعلن رئيس الجامعة: "أنَّ مثل هذا الاقتحام لحرم الجامعة، يُعدُّ خرقاً للقانون الذي منح الجامعة الاستقلال الذاتي". فمنذ أن أُعلن هذا القانون في شهر آب، كانت الجامعة تُدار من قبل هيئة "من اثني عشر استاذاً ذوي توجهات متطرفة" (مثلاً، قال شيبكين في اجتماع عُقد في السابع من تشرين الأول: "حينما

يأزف الوقت وتقرعون الأبواب، سننطلق معكم إلى "بوتيومكينكم")، لقد كانت هذه الهيئة نفسها تُدار كلياً من قبل "المجلس الائتلافي" الطلابي، وبناء على طلب ذلك المجلس، كان رئيس الجامعة نفسه يُلغي قراراته. بعد أن رُفض اقتراح كولبارس، "فتشت" مبنى الجامعة لجنة من الأساتذة وثلاثة من أعضاء مجلس دوما المدينة، ولم يُعثر بالتأكيد على "أيِّ شيء يثير الشبهة". "كما لوحظت ظاهرات مماثلة في دوما مدينة أوديسا أيضاً. فقد اكتشفوا هناك في المجلس البلدي، لدى ما يُدعى بالعنصر الثالث، طموحات لانتزاع النفوذ والسلطة"، فقدَمت لجنتهم للدوما المنتخبة مطالب "يغلب عليها الطابع السياسي"، وكانوا قد أعدُّوا منذ 17 تشرين الأول لإصدار بيان حول المرسوم الامبراطوري يقول: "أخيراً سقط النظام القيصري في الهاوية"، وكتب السناتور في هذا السياق يقول: "ربما كان ثمة تسلل في أول أيام اضطرابات تشرين الأول، هدفه الاستيلاء على كامل السلطة".

(ثمَّ حلَّت بعد ذلك ثورية كانون الأول، فكانت لهجة مجلس مندوبي العمال فيه آمرة بالدعوة إلى انتفاضة عامة: "نحن نطالب بهذا"، في أوديسا قُطعت الكهرباء وغرقت المدينة في الظلام، أُوقف النشاط التجاري، توقفت الحركة، سكنت الحركة في الميناء، عاد قذف القنابل إلى الظهور من جديد، "مزِقت رُزم الصحيفة الوطنيّة "روسكايا رييتش" التي كانت قد بدأت تصدر لتوِها، ظهرت تحت التهديد "مطالبات بالمال لأغراض ثورية"، ووقعت جموع التلاميذ الكسالى والسكان المضلَّلين "تحت نير الحركة الثورية").

السلطة الإمبراطوريّة وأعمال العنف

إنَّ روح العام 1905م هذه (روح "حركة التحرر" كلّها) التي تجلّت ببهائها كلّه في أوديسا إبّان تلك "الأيام الدستورية"، انتقلت إلى كثير من مدن روسيا الأخرى، واشتعلت في خلالها في مدن إقليم الاستيطان اليهودي وخارجها، أعمال العنف "في كلِّ مكان ... في اليوم عينه أو في اليوم التالي لوصول أنباء" المرسوم الامبراطوري.

في إقليم الاستيطان اليهودي وقعت أعمال العنف في كريمينتشوغ، تشورنيغوفا، فينيسيا، كيشينيوف، بالتا، يكاتيرينوسلاف، يليزافيتغراد، أُوماني وعدد آخر غير قليل من المدن والضواحي، وكانوا يتلفون في غضون ذلك، من أملاك اليهود أكثر مما ينهبون. "في المدن والضواحي التي تحرَّكت فيها الشرطة وقوات الجيش بسرعة وفاعلية، اقتصرت أعمال العنف على مدى محدود جداً، لذلك كان يوضع لها حدٌّ في غاية السرعة. في كامينيتس - بودولسك مثلاً صُدَّت محاولات الغوغاء كلُّها لمهاجمة اليهود، بفضل مهارة قوات الشرطة والجيش وتحرُّكها في الوقت المناسب"، "في كرسونيس ونيقولاييف وُضع حدٌّ لأعمال العنف فور اندلاعها" (أمّا في مدينة صغيرة من مدن الإقليم الجنوبي الغربي، فلم يتسنَّ تفادي المجزرة إلاّ لأنَّ كبار السنِّ اليهود جلدوا شبابهم عقاباً لهم على تنظيم مسيرة مناهضة للحكومة إثر إعلان المرسوم الامبراطوري في 17 من تشرين الأول").

ثمة إقليم وحيد لم تقع فيه أعمال عنف ضدَّ اليهود البتة، هو الإقليم الشمالي الغربي حيث كانت الكثافة السكانية اليهوديّة عالية جداً هناك،

كان سيبدو عصيّاً على التفسير، لو كانت الحكومة القيصرية هي التي تقف وراء أعمال العنف التي من المعروف أنّها "كانت تجري كلُّها وفق سيناريو واحد".

"لقد بلغ عدد أعمال العنف ضد اليهود أربعة وعشرين، خارج نطاق إقليم الاستيطان اليهودي، لكنّها كانت تستهدف العناصر التقدمية في المجتمع على وجه العموم"، وليس اليهود تحديداً، هذا بالضبط ما يبين الدافع الرئيس لمخربي تلك الأيام: الهزة التي أحدثها المرسوم الامبراطوري، والفزعة العفوية لحماية العرش ممن كانوا يعملون على الإطاحة بالقيصر. كما وقع هذا النوع من أعمال العنف خارج نطاق إقليم الاستيطان اليهودي أيضاً: في روستوف على الدون، وتولا، وكورسك، وكالوغا، وفورونيج، وريازان، وياروسلافل، وفيازم، وسيمفيروبول؛ "في كازان وفيوديسيا كان التتر عنصراً نشطاً جداً في أعمال العنف". في تفير حطّموا مقرَّ البلدية؛ في تومسك أحرقت الغوغاء المسرح حيث كان يعقد اليساريون اجتماعاً، فهلك في الحريق أكثر من مئتي شخص! في ساراتوف هدّدوا على المنوال عينه، بيد أنّه لم يقع ضحايا (كان ستوليبين هو الحاكم العام هناك).

يختلف طابع أعمال العنف وعدد ضحاياها اختلافاً بيناً بين مؤلّف وآخر. وتظهر اليوم تقديرات سطحيّة جداً لا معنى لها. ففي العام 1987م كتب أحدهم يقول: "لقد قُتل في أعمال العنف ألف شخص، وجُرح وشوِّه عشرات آلاف الأشخاص"، فهل هذه التقديرات مجرَّد أصداء للأخبار التي تناقلتها وسائل الإعلام الغربية في تلك الآونة؟ -"اغتُصبت آلاف النساء، غالباً أمام أعين أُمهاتهنَّ وأطفالهنَّ".

أمّا غ. سليوزبيرغ المعاصر لتلك الأحداث، الذي كان في مركز المعطيات كلّها، فكتب يقول على الضدِّ من هذا: "لحسن الحظ أنَّ مئات أعمال العنف هذه لم تسفر عن ممارسات عنفية جديّة ضدَّ أيِّ شخص يهودي، الأكثرية العظمى من أعمال العنف لم تترافق بأعمال قتل". أمّا فيما يتعلّق بالنساء

والشيوخ، فأظنُّ أنَّ المؤلِّف السوفييتي ديمانشتين يدحض باعتزاز موقف الإعلام الغربي برمَّته: "كان الكمُّ الأعظم من الضحايا والجرحى اليهود ينتمي إلى أفضل المقاتلين الشباب الذين كانوا في صفوف فصائل الدفاع الذاتي، وآثروا الموت على الاستسلام".

فيما يخصُّ شرح أسباب أعمال العنف، منذ العام 1881م استقرَّ في اليهوديّة الروسيّة، ثمَّ في المجتمع الروسي على وجه العموم، ما يشبه السبات المغناطيسيّ على أنَّ أعمال العنف كانت كلّها من تدبير الحكومة، وإدارة الشرطة، وأنّها كانت تُدار من قبل مركز قيادة واحد في بطرسبورغ. بعد تشرين الأول من العام 1095م، أخذت وسائل النشر اليساريّة كلها تكتب في هذا الاتجاه نفسه. حتى سليوزبيرغ يردد تحت تأثير هذا التنويم المغناطيسي: "في خلال ثلاثة أيام اجتاحت موجة أعمال العنف إقليم الاستيطان اليهودي [نحن كنّا قد رأينا للتو أنَّ أعمال العنف لم تجتح إقليم الاستيطان كلّه البتة، وأنّها لم تقتصر عليه فقط. – أ. سولجينيتسين]، وكانت وفق مخطط واحد كما لو كان قد أُعدَّ مسبقاً".

الغريب في هذا هو أنَّ كثيرين جداً لم يحاولوا حتى مجرَّد محاولة، تفسير الأمر على نحو مغاير (بعد أن مضت سنين كثيرة يعترف يا. فرومكين مع ذلك، بأنَّ أعمال العنف التي وقعت في العام 1905م، "لم تحمل طابعاً معادياً لليهود فقط، بل حملت طابعاً معادياً للثورة أيضاً"). لم يكن ليخطر في الذهن مجرَّد خاطر: هل كان يمكن أن يكون هناك تماثل في الأسباب الأصل؟ في الأحداث التي جرت على مستوى الدولة؟ في الطباع الشعبيّة؟ ألم يظهر هذا التماثل واحداً؟ لنتذكَّر أنَّ مواجهة حشود الثائرين في تشرين الأول، وقعت في بعض الأماكن قبل المرسوم الامبراطوري. ولنتذكَّر أيضاً، أنّه في أيام تشرين الأول تلك، جرت مظاهرة عامة في الخطوط الحديدية، وقُطعت الاتصالات في كلِّ مكان، وتبيَّن في غضون ذلك تزامن كثير من أعمال العنف. كما ننوِّه إلى التحقيقات الحكومية التي جرت في عدد من المدن، والعقوبات التي صدرت بحقِّ قادة في

الشرطة أخلُّوا بواجبات وظيفتهم. ولنقارن ما جرى بعد ذلك: في تلك الأشهر نفسها، وقعت أعمال العنف التي قام بها الفلاحون ضدَّ الاقطاعيين، كانت بدورها متماثلة في كلِّ مكان. بيد أنَّنا لن نزعم على أغلب الظن أنَّ المجازر التي أُقيمت في الاقطاعيين كانت من تدبير إدارة الشرطة، وليس من وحدة طباع الفلاحين.

يبدو على أيِّ حال أنَّ هناك بيِّنة واحدة وحيدة، وهي وحدها التي لا تشير إلى السلطة. فوزير الداخلية ب. ن. دورنوفو كشف في العام 1906م عن أنَّ موظف المهمات الخاصّة في وزارة الداخلية م. س. كوميساروف، كان يستخدم أحد مكاتب إدارة الشرطة لطباعة مناشير تدعو إلى مكافحة اليهود والثوار. لكنَّنا نشير إلى أنَّه لا علاقة لإدارة الشرطة بهذا العمل، وأنَّه ليس سوى مشروع سريٍّ لهذا المغامر كوميساروف الذي كان يظهر في مراكز الشرطة، ثم ظهر بعد ذلك مع البلاشفة في سمولني لدى اللجنة الثوريّة المؤقتة "بصفته موظف المهمات الخاصة"، وبعدها في اللجنة الاستثنائية لدى الإدارة السياسية الحكومية حيث أشرف على حلِّ بقايا جيش فرانكل في البلقان.

بيد أنَّ الروايات الكاذبة جفَّت حتى اليباس، لا سيما في الغرب النائي، من حيث كانت روسيا تُرى دائماً يلفُّها ضباب أسود، كان التحريض ضدَّها يُسمع بوضوح. بالتأكيد كان من الملائم بالنسبة إلى لينين أن يُضيف: "لقد حاول النظام القيصري أن يوجِّه حقد العمال والفلاحين على الإقطاعيين والرأسماليين، نحو اليهود"؛ وقد انبرى مساعده لوريه -لارين ليشرح هذا بمهارة حينما زعم أنَّ الغضب كان موجَّهاً نحو أثرياء اليهود تحديداً، لكنَّهم، على الضدِّ من هذا، وضعوا دوريات الحماية لهؤلاء الأثرياء تحديداً. مع ذلك، حتى يومنا هذا، لو أخذت أيَّ موسوعة كانت، هاك على سبيل المثال الموسوعة الإسرائيلية باللغة الإنكليزية، لقرأت فيها: "لقد كانت تلك المجازر مدبَّرة من البداية في الدوائر الحكومية. تلقت السلطات المحلية تعليمات بمنح المخربين حريَّة الحركة

وحمايتهم من فصائل الدفاع الذاتي اليهوديّة". هاك أيضاً ما تقوله الموسوعة الإسرائيلية المعاصرة باللغة الروسيّة: "عندما دبَّرت السلطات الروسيّة المجازر، كانت تسعى ..."؛ "لقد عزمت السلطات على إبادة أكبر عدد من اليهود فيزيائياً". إذن ليس تهاون السلطات المحليّة هو سبب الإجرام، إنَّما النوايا الخبيثة للسلطة المركزية؟

حتى ليف تولستوي الذي كان يتخذ موقفاً مناهضاً للحكومة في تلك السنين، ولم يترك صفة سيئة إلاَّ وصفها بها، قال عندئذٍ: "لا أُصدِّق أنَّ الحكومة تحرِّض الشعب [على أعمال العنف]. وهذا ما قالوه عن كيشينيوف وباكو أيضاً ... إنَّ هذا ليس سوى تعبير فظٍّ عن الإرادة الشعبيّة ... الشعب يرى عنف الشباب الثوريّ فيتصدَّى له".

على نحو مشابه شرح شولغين الأمر في مجلس دوما الدولة: "إنَّ القصاص الشعبي العرفي يحظى بانتشار واسع في روسيا والبلدان الأخرى ... وتقدِّم أميركا مشهداً معبِّراً في هذا السياق ... حيث القصاص الشعبي العرفي حاضر في صيغة محكمة العُرف[1] ... بيد أنَّ ظاهرة أكثر خطراً نشأت في الآونة الأخيرة عندنا في روسيا، هي محكمة العرف الشعبي التي تُدعى بالمجازر اليهوديّة! فعندما كانت السلطة تُضرب وتمتنع عن تأدية واجباتها، وفي الوقت نفسه تبقى أبشع الجرائم التي تُرتكب ضدَّ الشعور القوميّ والمقدّسات الشعبيّة من غير عقاب، عندئذٍ كان الشعب يأخذ على عاتقه محاكمة المذنبين مدفوعاً بغضبه العفوي. من البديهي أنَّ الشعب، كما يحصل في مثل هذه الحالات دائماً، غير مؤهَّل للتمييز بين المذنب الحقيقيّ والبريء الذي لا ذنب له، فألقى بمسؤولية كلِّ شيء على عاتق اليهود على وجه العموم، وهو ما حصل في أقاليمنا. فقلَّة من المذنبين

(1) محكمة العرف الشعبي هي أعمال التنكيل التي كانت تنظمها العناصر الرجعية في الولايات المتحدة الأميركية ضدَّ الزنوج والشخصيات التقدمية.

الحقيقيّين نالهم الأذى؛ لأنَّ هؤلاء أسرعوا وفرُّوا إلى خارج البلاد، أمَّا أكثر الذين نالهم الوجع، فقد كانوا من اليهود الذين لا ناقة لهم فيها ولا جمل" (لخّص القائد في حزب الكاديت ف. راديتشيف الموقف على النحو الآتي: "إنَّ معاداة الساميّة موقف وطني بالنسبة إلى المضلّلين"، في المناطق التي يقطن فيها يهود).

هناك حيث بدا القيصر أضعف من أن يحمي سلطته بالقانون، والحكومة تقهقه غير آبهة، كان المشّان، والباعة، وحتى العمال، عمال الخطوط الحديديّة والمعامل الذين كانوا هم أنفسهم ينظمون الانتفاضات العامة، يسخطون وينهضون عفوياً للدفاع عمّا بقي لديهم إيمان فيه، -أمَّا رقص الساخرين فرحاً وشماتة، فكان يسبّب لهم إهانة موجعة. مع فقدان السيطرة على هذا الحشد وإهماله وخيبته، كان غضبه يتحوَّل إلى عنف ضارّ يدمِّر كلَّ ما يقع في طريقه.

وها نحن نقرأ لدى مؤلِّف يهودي معاصر لا يزال يصرُّ بغباء، على أنَّه "ليس ثمة ريب في أنَّ السلطات القيصريّة أدَّت دوراً فاعلاً في تنظيم المجازر ضدَّ اليهود"،

- ثم بغتة منعطف جذري: "نحن على يقين مطلق بأنَّ إدارة الشرطة لم تكن مؤسسة تملك تلك المهارة التنظيمية كلّها حتى تنجح في إعداد أعمال عنف ومجازر ضدَّ اليهود في 660 نقطة في وقت واحد". فالمسؤولية عن تلك المجازر "تقع على عاتق السكان الروس والأوكرانيين في إقليم الاستيطان اليهودي، أكثر مما تقع على عاتق الإدارة".

وهذا ما أتفق معه أنا أيضاً، لكنْ مع تعديل أساس، هو أنَّ الشباب اليهودي في ذلك الزمن يتحمل قدراً كبيراً من المسؤولية عمَّا حصل.

هنا ظهرت بصورتها التراجيدية، سمة الطبع الروسي -الأُوكراني الآتية (بصرف النظر عمَّن مارس العنف): في لحظة الغضب نحن نستغرق في سورة الغضب العمياء، "نهزُّ كتفينا"، ننطلق من غير أن نفرِّق بين المذنب والبريء، وبعد أن يتراجع الغضب والعنف، لا نحسن العمل بصبر وأناة وفق منهج طويل الأمد، على تصحيح المآسي التي خلّفها سُعارنا. في غلواء قوة الانتقام الوحشيّة المباغتة

هـذه الـتي تليهـا غفـوة طويلـة، تـكمـن في واقـع الحـال حالـة العجـز الروحـي لـدى شعبينا هذين.

كما غرقت النخبة الوطنية بدورها، في حالة العجز والتردد واللامبالاة، أو كانت شبه متعاطفة، فلم تدفع بأيٍّ كتَّاب اجتماعيّين يحملون رؤية واضحة، وموقفاً حازماً يوجِّهون به الرأي العام في سياقه، كما لم تؤسّس منظمات ثقافية راسخة (ننوهِ في هذا السياق إلى أنَّ اللقاء الذي كان قد جرى مع فيتيه، كان فيه ممثلون عن الصحافة اليمينية أيضاً، لكنَّ خوفهم دفعهم إلى الصمت، أو ممالأة بروبير الوقح ومجاملته).

السّلطة والكهنوت الأرثوذكسيّ

ثمّة جريمة اجتماعيّة أخرى ارتكبتها الإمبراطورية الروسيّة تمثّلت في قمع السلطات للكهنوت الأرثوذكسي على مدى زمن طويل جداً، وهذا ما كانت له نتائج مأساويّة انعكست على موقفهم الاجتماعي الذي تميّز بالعجز التام عن التأثير في الرأي العام، وتوجيه الجماهير الشعبيّة: لقد فقد الكهنوت الأرثوذكسيّ هيبته (التي كانت له في روس الموسكوفية زمن القلاقل الاجتماعيّة، وها هي تُفتقد الآن في الحرب الأهلية الوشيكة!). مع أن نداءات البطاركة ورجال الدين الآخرين إلى الشعب الأرثوذكسي، ترددت كثيراً في هذه الأشهر والسنوات، داعية إلى نبذ العنف، غير أنّها لم توقف الدمار والمجازر. بل لم يُفلح رجال الدين هؤلاء حتى في منع حشود الغاضبين من أن يرفعوا الصلبان والرايات الكنسية في مظاهراتهم.

علاوة على ذلك زُعم أيضاً أنَّ تحالف الشعب الروسيّ هو الذي قاد أعمال العنف التي وقعت في تشرين الأول من العام 1905م. بيد أنَّ هذا غير صحيح البتة، لأنَّ هذا التحالف لم يظهر على مسرح الأحداث إلاّ في تشرين الثاني من العام 1905م تحت ضغط الإحساس الشعبيّ بالإهانة، وما ينتج عنه من غرائز انتقامية. الحقيقة أنَّ برنامج هذا التحالف كان يحتوي عندئذٍ موضوعات معادية لليهود على وجه العموم، من غير تمييز، فقد تحدّث عن "النشاط الهدّام المعادي للدولة، الذي يشنُّه الجمهور اليهوديّ المتلاحم المتكاتف، وعن موقفه العدائيّ الحاقد على كلِّ ما هو روسيّ، وسفالة الوسائل التي يستخدمها".

في كانون الأول دعا دعاة تحالف الشعب الروسيّ، فوج سيمينوف لإخماد الانتفاضة المسلّحة التي اندلعت في موسكو. لكنَّ هذا التحالف الذي كان متضخماً بالأوهام والشائعات والهواجس الخرافيّة، لم يكن في حقيقة الأمر سوى حزب عاجز ضعيف بائس لا أمل يُرجى منه، وكان قد تأسّس بالأصل رديفاً مساعداً للقيصر، لكنَّ هذا الأخير نفسه كان قد غدا منذ العام 1906م ملكاً دستورياً، كما كانت الحكومة تخجل من أن يكون لديها مثل هذا الحزب، فتحوَّل هذا بأعضائه الألفين أو الثلاثة آلاف الشبه الأُميّين العاجزين الذين كانت تقودهم "مجالس" محلية هزيلة، إلى معارضة لحكومة الدوما الملكية، خاصة لستوليبين. فمن على منبر الدوما طرح بوريشكيفيتش السؤال الآتي: "منذ أن ظهرت المنظمات الملكية وتطورت، هل رأيتم كثيراً من أعمال العنف تقع في إقليم الاستيطان اليهودي؟ ... لم يقع أيٌّ منها، لأنَّ المنظمات الملكية في إقليم الاستيطان اليهودي كافحت وتكافح الاستبداد اليهودي بإجراءات اقتصادية، بإجراءات ثقافية، وليس بالقبضات". لكنَّنا لا نعرف شيئاً عن المجازر الثقافية التي أتاها تحالف الشعب الروسي هناك، أمَّا المجازر السابقة، فقد نجمت عن انفجارات شعبية عفوية.

بعد بضع سنوات من انطفاء ثورة العام 1905م، اندثر تحالف الشعب الروسي من غير أن يترك أيَّ أثر (يعطينا الوصف الذي ورد في الموسوعة اليهوديّة صورة واضحة عن مدى الإبهام الذي كان يحمله مفهوم هذا التحالف: إنَّ معاداة تحالف الشعب الروسي للساميّة "حملت طابعاً يتّصف به موقف الأرستقراطيا والدوائر الرأسمالية الكبيرة").

حركة المئة السوداء

هناك وشم آخر التصق بقوة على ظاهر الحياة السياسيّة الروسيّة عندئذٍ، هو "المئة السوداء"، الذي تكمن قوّة استمراره، وشدة مقاومته في غموض مغزاه على وجه التحديد. من الصعب جداً أن نتتبَع منشأه. يُقال: إنَّ البولونيّين هم الذين أطلقوا هذه التسمية السوداوية على الملوك الروس حينما انتزع هؤلاء منهم دير سيرغييف في العامين 1608 -1609م. ثمَّ عبر خيوط تاريخيّة ما استمرَّت هذه التسمية حاضرة حتى لامست حدود القرن العشرين، حيث تجسّدت هنا في إحساس قاس بالبغض. وصارت إلى شعار فعال استخدمته الحركة الوطنية الشعبيّة العفوية. وبسبب غموضه، وطابع الإهانة المرافق له، بات استخدام هذا المصطلح شائعاً (مثلاً، وصفوا أعضاء حزب الكاديت الأربعة الذين تجرّأوا على إجراء محادثات مع ستوليبين، "بالكاديتيين المئة السوداء". في العام 1909م وُصفت مجموعة الأبحاث التي صدرت حينئذٍ، وحملت عنواناً هو "المعالم"، بأنَّها "المئة السوداء المقنَّعة"). وها هو مصطلح "المئة السوداء" تأصل على مدى قرن، مع أن سكّان روسيا السلاف المحبطون الساخطون لم يكونوا عندئذٍ "مئة" إنَّما ملايين.

يُحسب للموسوعة اليهوديّة في روسيا في الأعوام 1908 -1912م، أنَّها لم تأخذ على عاتقها أن تضع تعريفاً "للمئة السوداء": كان بين النخبة المثقفة من يهود روسيا غير قليل من العقلاء والمفكّرين.

لكنْ في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى، أخذت موسوعة بروكهاوز - إيثرون مهمة التعريف هذه على عاتقها، فكرَّست له مجلّداً

إضافياً ملحقاً جاء فيه: إنَّ "المئة السوداء" تسمية شائعة أخذوا يطلقونها في الآونة الأخيرة على حثالة المجتمع التي تميل إلى استخدام العنف ضدَّ اليهود والمثقفين". ثمَّ لا تلبث أن تستفيض في هذا وتقول: إنَّ "ظاهرة المئة السوداء ليست ظاهرة روسية فقط؛ ففي مختلف بلدان العالم، في لحظات تاريخية مختلفة ... كانت تظهر هذه التسمية على المسرح التاريخي". والحقيقة إنَّني أنا نفسي قرأت في العام 1917م في صحافة ثورة شباط، مصطلح "المئة السوداء السويدية"

ثمَّ ها هو مؤلِّف يهودي رصين معاصر، يشير إلى أنَّ "الظاهرة التي حملت اسم المئة السوداء .... لم تلق دراسة وافية بعد"، وهو محقٌّ في هذا.

لكنَّ الموسوعة البريطانية الشهيرة بسمعتها العالمية، متحررة تماماً من هذه الشكوك. فهي تقول من غير مواربة: "إنَّ المئة السوداء هي تحالف الشعب الروسي [!] نفسه، تنظيم المجموعات الرجعية المعادية للساميّة في روسيا، تشكَّل في أثناء ثورة العام 1905م. ولمَّا كانت المئات السوداء قد حظيت بمباركة غير رسمية من قبل الحكومة الروسيّة، فقد تشكَّلت أساساً من الإقطاعيين، أثرياء الفلاحين. رجال البيروقراطيا، ضباط الشرطة، رجال الإكليروس الذين كانوا يقفون خلف الأرثوذكسيّة، الحكم الاستبدادي المطلق والقوميّة الروسيّة. وقد برز نشاطهم بشكل خاص بين الأعوام 1906 -1911م".

ينعقد لسانك أمام سعة أُفق هذه الرؤية العلميّة ودقّتها. وهي في يومنا هذا منةٌ علمية للبشرية المتحضرة كلها، - "بشكلٍ رئيس من الإقطاعيين، أثرياء الفلاحين، البيروقراطيا، ضباط الشرطة"، ورجال الدين. إذن، هؤلاء هم الذين ساروا في مظاهرات الاحتجاج وكسروا نوافذ مخازن اليهود بالعصي!؟ وكانوا "في غاية النشاط" وقت السلم بعد العام 1905م

لكنّنا نعرف أنّ المجازر التي ارتُكبت ضدّ الإقطاعيين في روسيا بين العامين 1905 -1907م كان عددها أكبر من تلك التي ارتُكبت ضدّ اليهود. في هذه أيضاً كانت الدهماء تحطّم المنازل، والأملاك، وتحرق وتنهب، وتقتل الناس

(والأطفال)، بل حتى المواشي لم تنج من شرورها، -لكنَّ المثقفين التقدميين لم يرفعوا يوماً صوت السخط ضدَّ مثل هذه المجازر، أمَّا عضو مجلس دوما الدولة غيرتسنشتين، فقد قال في خطبة برلمانية (كان كلامه غريباً لكنَّه عقلانيٌ في الدفاع عن الملكية الفلاحية الصغيرة) مهدِّداً: إنَّ إحراق ضياع الإقطاعيين سيمتدُّ ويتسع أكثر فأكثر، "ألم تكفكم الزينة النارية التي أقاموها لكم في أيار العام الماضي، حينما دُمِّرت في مقاطعة ساراتوف مئة وخمسون ضيعة من ضياعكم في يوم واحد؟". لم يغفروا له هذه "الزينة النارية" بعد ذلك أبداً. لكنْ، لا ريب في أنَّ ذلك لم يكن أكثر من زلة لسان، ولا يمكن الاستنتاج منه وحده أنَّ الرجل كان يُفصح عن شماتة.

لقد كان ينبغي أن نعيش ثورة كبرى، ثورة حقيقية كي نسمع: لم تكن المجازر التي أُقيمت في الإقطاعيين "أقلَّ وحشية ولا أخلاقية من المجازر التي أُقيمت في اليهود ... مع ذلك ثمة نزعة في أوساط المجموعات اليسارية ترى، أنَّها كانت بحدٍّ ذاتها عمليّة كسرٍ مرجوة للنظام الاجتماعيّ السياسيّ القائم". وأُضيف إلى هذا سمة مريعة أخرى مشتركة بينها وبين المجازر الأخرى التي وقعت: يقين الغوغاء الدهماء المتوحشة بأنَّها على حق.

كانت آخر أعمال العنف قد وقعت ضدَّ اليهود في العام 1906م – مجزرة سيدليتسكي في بولونيا، هي خارج نطاق بحثنا هذا، ثمَّ تلتها مجزرة بيلوستوسكي (بعد هذه المجزرة الأخيرة مباشرة وضعت الشرطة في أوديسا حداً لمجزرة أخرى كانت على وشك أن تقع إثر حلِّ الدوما الأولى).

في بيلوستوك شكَّل الفوضويون أقوى اتحاداتهم في روسيا كلها. فقد ظهرت هنا "أعداد كبيرة من المجموعات الفوضويّة التي أخذت ترتكب في أحيان كثيرة أعمالاً إرهابية ضدَّ أرباب الأعمال، ورجال الشرطة، والقوزاق، والجنود". وترسم لنا مذكرات الفوضويّين لوحة مجسَّمة لما كان عليه الموقف في هذه المدينة في العامين 1905 -1906م: تكرار هجمات الفوضويّين الذين استقروا علناً

في شارع سوراجسكايا الذي كانت الشرطة تخشى أن تدخله. "في أحيان كثيرة جداً كانوا يقتلون الحراس في وضح النهار، ما دفع هؤلاء إلى الابتعاد عن المكان ...". فها هو الفوضويّ نيسيل فاربر "يلقي قنبلة على قسم الشرطة"، فيجرح اثنين، وأحد الكتّاب، ويقتل "اثنين من البرجوازيين صادف وجودهما في ديوان القسم"، لسوء طالعه أنّه سقط هو قتيلاً أيضاً. مثله فعل غيلينكر (هو نفسه هارون يلين) أيضاً، فقد رمى قنبلة تسببت لمساعد قائد الشرطة، ولرئيس القسم بجراح بليغة، كما قتلت اثنين من المراقبين، وثلاثة من الحراس. وإليك فوضوياً آخر رمى قنبلة "فجرح ضابطاً، وأربعة جنود"، كما جرح نفسه كذلك، "لسوء الحظ أنّه قتل واحدة من داعيات حزب البوند". في حادثة أخرى، قُتل رئيس قسم الشرطة، وعدد من الحراس، ومرة ثانية قُتل اثنان من الشرطة، ثمَّ في مرة ثالثة قتل "غيلينكر نفسه أحد الحراس" (فضلاً عن الأعمال الإرهابية، لجأ الفوضويون إلى "الاستيلاء على المواد التموينية"، فقد كان ينبغي أن يكون لديهم ما يقتاتون به). "لقد كانت السطات تخشى دائماً أن يُعلن الفوضويون عصياناً في شارع سوراجسكايا. كما كان أكثر حاملي الرايات السوداء يميلون إلى الشروع في نشاط قتالي مكثّف بهدف الإبقاء على دوام مناخ الحرب الطبقية". لهذا عمَّموا الإرهاب ليطال البرجوازيين اليهود أيضاً. فكمن فاربر ذاك عينه، لكاغان صاحب إحدى الورش الحرفية أمام المعبد ... وطعنه بالخنجر طعنة بليغة في عنقه"؛ كما نال ليفشيتس صاحب ورشة أخرى طعنة مماثلة؛ "وهاجموا الثري فينريخ في المعبد وأطلقوا عليه النار، لكنّ "المسدس الخردة الذي كان بين أيدهم، تعثّر ثلاث مرات" ولم يُطلق. كانوا بحاجة إلى عدد "من أعمال كبيرة عبثية لا مبرر لها ضدّ البرجوازيين"، "فليبق خطر الموت مرفرفاً أبداً، في كلّ لحظة، فوق رؤوس البرجوازيين ما داموا على قيد الحياة". بل كانت هناك فكرة "لإقامة آلات جهنّم على امتداد الشارع [شارع بيلوستوك] كله، وتفجير كبار البرجوازيين في الهواء" دفعة واحدة. فكيف "حقق الفوضويّون كلمتهم؟" لقد تشكّلت في أوساط

الفوضويّين في بيلوستوك جماعتان: جماعة الإرهاب "العبثي"، وهم "العبثيون"، وجماعة "الكوموناريين" الذين رأوا أنَّ النهج الإرهابيّ نهج "بائس" ضعيف، فعزموا على انتفاضة مسلّحة تقيم "كومونة اللادولة": "نستولي على المدينة، نسلّح الشعب، نخوض عدداً من المعارك ضدَّ الجيش، فنطرده إلى خارج حدود المدينة"، "بموازاة ذلك ... تتسع دائرة السيطرة على المعامل، والورش، والمخازن التجاريّة". وها هم "خطباؤنا دعوا في اللقاءات الجماهيرية التي كان يحتشد فيها 15 -20 ألف شخص، إلى انتفاضة مسلّحة". لكنْ وأسفاه: "لقد ابتعدت جماهير العمال في بيلوستوك كثيراً عن طليعتها الثورية"، كان المطلوب هو "القضاء على ... المزاج السلبي السائد لدى الجماهير". لهذا الغرض أعدَّ الفوضويّون في العام 1906م لمثل هذه الانتفاضة في بيلوستوك. وفيما بعد دُعي مسارها ونتائجها باسم "مجزرة بيلوستوك".

لقد بدأ كلُّ شيء بمقتل رئيس الشرطة، تحديداً في ذلك الشارع، "شارع سوراجسكايا حيث كانت تتمركز منظمة الفوضويّين اليهود"؛ بعد ذلك أطلق أحدهم النار، أو رمى قنبلة على موكب كنسيٍّ كان يعبر الشارع. فجاءت لجنة تحقيق خاصة من مجلس دوما الدولة، لكنّها لسبب ما عجزت عن أن تثبت أيَّ شيء: "تارة كان هناك إطلاق نار، أو همسٌ بأنَّ شهود العيان لم يتبيَّنوا ذلك بدقة". على وجه العموم، بعد عشرين عاماً كتب الشيوعي ديمانشتين بوضوح يقول: إنَّ "متفجِّرة استفزازية أُلقيت على الموكب الأرثوذكسي".

ربما كانت ثمة مشاركة للبوند، الذي كان يتوق في "أحسن" شهور الثورة، إلى إشعال انتفاضة مسلّحة، وها هو الآن يَهِنُ ويتضاءل؛ لأنّه ليس هناك حالة قتالية، لذلك وجد نفسه مرغماً على أن ينحني أمام الحزب الاشتراكيّ الديمقراطيّ الروسيّ ويذعن له. لكنَّ نجم فوضويّ بيلوستوك لمع بسطوع أكبر. عن بؤرة الفوضويّين هذه روى بعد العام 1917م قائدهم يهوذا غروسمن -روشين فقال: إنَّ أكثر ما كان يخاف منه هؤلاء هو "التدرُّج والتعقُّل". فبعد أن خسروا

انتفاضتين أو ثلاث انتفاضات بسبب عدم مساندة السكان لهم، قرّروا في حزيران عام 1906م "إنّه ينبغي الاستيلاء على المدينة"، وانتزاع ملكية الإنتاج. "فقد رأوا أنَّ مغادرتهم بيلوستوك من غير أن يخوضوا آخر معركة طبقيّة، لن يكون لها ما يبرّرها، ولن تكون سوى استسلام أمام مهمة شائكة من الطراز الأول؛ إذا "لم نرتق إلى أعلى مراحل الصراع الطبقيّ، ستفقد الجماهير ثقتها [بنا]. بيد أنَّ الاستيلاء على المدينة كان يفتقر إلى القوى والسلاح، فانطلق غروسمن إلى وارسو ليطلب العون من الاشتراكيين البولونيّين. فأدركه هناك صراخ صحفيٍ يقول: "مجزرة دموية في بيلوستوك! ... آلاف الضحايا!" ... لقد اتضح كلُّ شيء. الرجعية سبقتنا"، فأفشى بهذا السرَّ كلّه.

هنا بالضبط، في لحظة "الانتقال إلى أعلى درجات الصراع"، كان يكمن على ما يبدو تفسير مغزى "أعمال العنف". فيما بعد واصل المحامي غيليرسون إشعال ثورة فوضويي بيلوستوك في قاعة المحكمة، حيث ألقى مرافعة "حرَّض فيها على الإطاحة بنمط الإدارة القائم في روسيا، وإسقاط نظامها الاجتماعيّ برمَّته"، فاستُدعي هو نفسه بعد ذلك للمساءلة. وبحسب منطق لجنة الدوما نفسها "أنَّ مختلف العناصر الاجتماعيّة الرجعيّة التي كانت على يقين بأنّ مكافحة اليهود تعني مكافحة حركة التحرّر نفسها، هي التي أعدَّت التربة لنموِ أعمال العنف".

فكيف تطوَرت الأحداث بعد "المتفجِّرة الاستفزازية" التي لم تعترف بها لجنة الدوما؟ بحسب الخلاصة التي توصَّلت إليها اللجنة، إنَّ "إطلاق النار على السكان اليهود المسالمين بذريعة ترويض الثوريّين، كان يحدث بانتظام، ولم تستثن منه النساء ولا الأطفال". فتجاوز عدد الضحايا اليهود "70 قتيلاً وحوالي 80 مصاباً". لكنَّ "محضر الاتهام سعى على الضدّ من هذا، إلى أن يُعزي أعمال العنف إلى النشاط الثوريّ الذي كان يمارسه اليهود، فأثار غضب السكان الآخرين وحقدهم". بيد أنَّ لجنة الدوما رفضت هذا الرأي: "ليس هناك أيُّ عداء

عرقيّ أو دينيّ، أو اقتصاديّ بين السكان المسيحيّين واليهود في مدينة بيلوستوك".

أمَّا اليوم فيكتبون ما يلي: "في هذه المرة كانت أعمال العنف عسكريّة خالصة. لقد تحولت القوات العسكريّة إلى مخربين"، وصارت تصطاد الثوريين. على وجه العموم كان قد قيل عن هذه القوات غير مرة: إنَّها كانت تخشى فصائل الفوضويّين اليهود في شارع سوراجسكايا؛ لأنَّ "الحرب الروسيّة - اليابانية ... علّمتهم [الجنود الروس] أن يخافوا إطلاق النار"، هذا ما أعلنه من على منبر دوما المدينة أحد أعضائها اليهود. لكنْ، ها هم المشاة والفرسان يخرجون لمواجهة فصائل الدفاع الذاتي اليهوديّة، فردت هذه بإطلاق النار ورمي القنابل.

في تلك اللحظة الاجتماعيّة المتوتِّرة توصَّلت لجنة الدوما إلى خلاصة نهائيّة مفادها أنَّه حدث "إطلاق نار على السكان"، لكنْ بعد عشرين عاماً نقرأ في مقتطف سوفيتي (في الأحوال كلها لن يعود ذلك "النظام القديم" ولن يُبرَّأ، حتى لو أتيت بالذئب من ذيله): لقد "قُتلت عائلات كاملة بالمسامير، واقتُلعت عيون من محاجرها، وقُطعت ألسن، وتبعثرت رؤوس الأطفال وما إلى ذلك". أمَّا المجلَّد الفخم: "آخر المستبدِّين" الذي صدر في الخارج مزوَّداً برسوم توضيحية على ورق جيري (مؤكدا بشكل مسبق أنَّ نيقولاي الثاني سيكون "الأخير")، فيسوق الرواية الآتية: لقد كانت المجزرة "تمثيليّة متقنة السيناريو والإخراج إلى درجة سمحت للصحف البرلينيّة أن تصف برنامج اليوم الأول منها؛ وعلى هذا النحو تمكَّن سكان برلين من الاطلاع على الأحداث قبل ساعتين من بدء المجزرة في بيلوستوك" (لكنْ، إذا كانت صحف برلين قد نشرت شيئاً ما، ألم يكن ذلك انعكاساً لمآرب غروسمن -روشين؟).

لقد كان من الغباء بمكان أن تدبِّر السلطات الروسيّة أعمال العنف ضدَّ اليهود، وتشجِّع عليها في الوقت الذي كان فيه وزراؤها يطرقون أبواب المؤسّسات الماليّة الغربيّة طمعاً في الحصول على قروض. فلنتذكَّر أنَّه كان من الصعب على فيتيه حتى من غير مثل هذه الاتهامات أن يحصل على قرض من روتشيلد، "أوغيره

من كبار البيوت الماليّة اليهوديّة" الساخطة (بسبب أوضاع اليهود وأعمال العنف التي يتعرضون لها في روسيا)، ما عدا ميندلسون البرليني. منذ كانون الأول عام 1905م حذّر القنصل الروسي في لندن، بينكيندورف، وزيره من أنَّ "آل روتشيلد يؤكدون في كل مناسبة ... إنَّ رصيد روسيا في الوقت الراهن منخفض جداً، إلاَّ أنَّه سيُعاد إحياؤه فور حلِّ المسألة اليهوديّة مباشرة".

في بداية العام 1906م نشر فيتيه بياناً حكومياً يتعهَّد فيه بأنَّ "الحلَّ الجذري للمسألة اليهوديّة يُعدُّ قضية تتّصل بشرف الشعب الروسيّ، وأنَّ الدوما ستجد حلاً لها، وقبل انعقاد جلسة الدوما ستُلغى القيود التي لم يثبت الزمن أنّه كان لها ما يبررها". ثمَّ التمس من أبرز شخصيّات بطرسبورغ اليهوديّة، أن يزور الامبراطور وفد تمثيليٌّ يهوديّ عالي المستوى، ووعدهم باستقبال في غاية الدفء. فنوقشت الدعوة في مؤتمر ممثلي مجالس المقاطعات في الاتحاد من أجل المساواة. لكنْ، بعد الخطبة النارية التي ألقاها يو. ب. باك (ناشر صحيفة "ريتشي")، تقرَّر رفض إرسال وفد من قبل اليهوديّة الروسيّة لزيارة القيصر، واكتفي بإرسال وفد أدنى مستوى لمقابلة فيتيه، لا ليبلِغه قرار المؤتمر، بل ليوجِّه إليه الاتهام الآتي: "من الواضح من غير أيِّ لبس أنَّ موجة أعمال العنف ضدَّ اليهود كانت بتدبير من الحكومة".

بعد عامين من الهزَّات الثوريّة في روسيا، لم يشأ زعماء اليهوديّة الروسيّة، بل لم يخطر لهم، أن يواصلوا النضال لنيل المساواة وفق النهج التدرُّجي السابق. فقد أحسوا الآن أنَّهم يقفون على أرض صلبة، ولم يكونوا مضطرين أن يأتوا إلى القيصر يسألونه، كأيِّ رعايا مخلصين مطيعين. لقد كانوا يشعرون بكثير من الفخر بالبسالة التي أظهرها الشباب الثوريّ اليهوديّ (ينبغي أن نتخيَّل قوة الردع المزعومة للجيش الامبراطوري الهرم، لكي يتسنَّى لنا أن نفقه مغزى مشهد اعتقال يهودي جريء، قائد فوج روستوف الغرينادي [أي المتخصص بتفجير القنابل. ــح. إ] العقيد سيمانسكي أمام جنوده مباشرة!). وماذا في هذا؟ ربما لا

يكون مثل هؤلاء الثوار قد اقترفوا جرم "الخيانة الوطنيّة" قط، كما اتهمهم دوبنوف، بل ربما كانوا على حقّ؟ -بعد العام 1905م، حتى أثرياء اليهود شكّكوا في هذا، إلاّ أنّهم باتوا الآن أكثر حذراً.

والآن، كيف كانت حصيلة العام 1905م بالنسبة إلى اليهوديّة الروسيّة على وجه العموم؟ "من جهة، حملت ثورة العام 1905م حصيلة إيجابيّة ... فقد منحت اليهود حقوق المواطنيّة التي لم تكن لهم من قبل – المساواة السياسية ... لم تُطرح المسألة اليهوديّة أمام الرأي العام في أيٍّ يوم كان، بأفضل مما طُرحت بعد انطلاق حركة التحرر الوطني". لكنْ من جهة أخرى، بعد مشاركة اليهود القويّة في الثورة، أدغموهم كلّهم الآن بها. ففي العام 1907م، اقترح ف. شولغين من على منبر دوما الدولة، أن يجري التأكيد في القرار الذي سيصدر عن جلستها، على أنَّ: "... الشطر الغربي من روسيا، ابتداء من بيسارابيا حتى وارسو، يفيض كرهاً لليهود الذين ترى الدوما فيهم سبب المصائب كلها ...".

وهذا ما يؤكده، وإنْ بشكل غير مباشر، تسارع حركة هجرة اليهود من روسيا. فمنذ العام 1904 و1905، رأينا تزايد حركة الهجرة بشكل أساس بين الرجال في متوسط العمر، لكنْ منذ العام 1906م، قفزت مستويات الهجرة بقوة في أوساط مختلف الشرائح العمرية اليهوديّة. فقد زادت فعلاً في العامين 1881 - 1882م، لكنْ ليس بسبب أعمال العنف، ثمَّ في العامين 1905 -1906م، بسبب أعمال العنف. فهاجر إلى الولايات المتحدة وحدها: في العامين 1905 -1906- 125 ألفاً، وفي العامين 1906 -1907- 115 ألفاً.

يكتب ب. إ. غولدمان في الوقت نفسه قائلاً: "في سنوات العواصف والضغوط لم تلتزم المؤسسات التعليمية بالمعيار النسبي المحدد لليهود، وأظهرت كوادر المثقّفين اليهود المهنيّة، مرونة ودهاء فاقا ليس لدى الروس مثلهما، فاستولوا على السوق، وغالباً ما كانوا أقلّ التزاماً بالمعايير الأخلاقية في هذه

المنافسة، لذلك خلقوا تصوراً عن "التفوُّق اليهودي" في ميدان "العمل الذهني". أمَّا "مشروع تنظيم الجامعات الذي وضعته وزارة المعارف في العام 1906م، فلم يرد فيه أيُّ شيء تقريباً عن المعيار النسبي". في العام 1905م بلغ عدد الطلبة اليهود في روسيا 2247 طالباً وطالبة (أي 9%2.)، ثم ارتفع في العام 1906م إلى 3702 (أي 11%6.)، ووصل في العام 1907م إلى 4266 (أي 12%).

خطّة حكوميّة لإصلاح ذات البين

في 25 من شهر آب عام 1906م، وعدت خطّة الإصلاح الحكوميّة بأن تعيد النظر في القيود المفروضة على اليهود، "باتت الآن لا معنى لها، سوى أنها تثير الغضب، وقد تجاوزها الزمن"، وتعهدت بإلغائها. لكنَّ الحكومة الروسيّة كانت في الوقت نفسه مربكة جداً بالثورة نفسها (التي تواصلت لعامين آخرين، وغرقت في الأعمال الإرهابيّة التي بالكاد استطاع ستوليبين أن يوقفها)، التي كان واضحاً أنَّ لليهود دوراً بارزاً فيها.

لم تكن هذه الثورة التي تثير الغيظ، وحدها التي تكدر صفو النخبة الحاكمة في بطرسبورغ، بل أُضيفت إليها الآن هزيمة الحرب اليابانية، لكنَّهم استسلموا لمغريات تفسير ساذج فحواه أنَّ روسيا لا تعاني من أيِّ علّة بنيويّة، وأنَّ الثورة كلَها من البداية حتى النهاية ليست سوى جزء من مؤامرة يهوديّة - ماسونيّة قذرة. إذن، العلّة واحدة وحيدة: اليهود! لولا اليهود لكانت روسيا منذ زمن بعيد في أوج المجد والجبروت! بهذا التفسير القاصر تكون أوساط الأمراء قد حسمت أمر سقوطها الوشيك. إنَّ القناعة الخرافيّة المسبقة بالقوة التاريخية التي تحظى بها المؤامرات (مع أنَّ هذه كانت تُحاك فعلاً، سواء بشكل محدود أو عام)، تضع السبب الرئيس لإخفاقات الأشخاص أو الدول خارج مجال الرؤية: إنَّها حالة الضعف البشري.

نقاط ضعفنا نحن الروس هي التي حدّدت المسار المحزن لتاريخنا بمنحدر بدأ من عبثية الانقسام النيكوني[1]، وجنون بطرس وتصرُّفاته القبيحة، مروراً بالغيبوية القوميّة التي أعقبت القفزة التي حدثت في عهد بطرس، ثم تبديد قوى روسيا على مهمات خارجيّة لا مصلحة لروسيا من ورائها، عداك عن خيلاء الأرستقراطيا الروسيّة وترفها، وتحجُّر البيروقراطيا الذي استمرَّ طول القرن التاسع عشر كله. فما علاقة المؤامرة الخارجيّة مثلاً في أنّنا أهملنا فلاحينا وتركناهم لقرون في حالة خمول وعَمَهٍ. وما علاقة المؤامرة الخارجيّة في خنق بطرسبورغ المهيبة القاسية لثقافة مالوروسيا العريقة الودِّية؟ وما علاقة المؤامرة الخارجيّة في عجز أربع وزارات عن تحديد مسؤولية من منها عليه النهوض بهذا العمل أو ذاك، فبقي يدور لسنوات من دائرة إلى أخرى ومن معاون إلى وزير والعكس؟ وما علاقة المؤامرة الخارجيّة في فشل أباطرتنا واحداً بعد الآخر في فهم وتائر التطوُّر العالمي وتحديد الضرورات الفعلية التي فرضها العصر؟ فلو بقي حياً فينا ذلك الصفاء الروحي والصلابة اللذين انبثقا يوماً ما من سرغيه رادونيجسكي، لما ألقينا بالاً لأيِّ مؤامرات مهما كانت.

لا، لا يجوز القول بأيِ حال من الأحوال: إنَّ اليهود هم الذين "دبَّروا" ثورة العام 1905م، أو ثورة العام 1917م، كما لا يجوز أن تُنسب هاتان الثورتان إلى أيِّ أُمّة لوحدها. حتى الروس والأوكرانيّون كأُمتين لم تدبِّرا المجازر اليهوديّة. ليس من الصعب على أيٍّ منا أن يُلقي نظرة على الثورة ويتخلى عن "مرتدِّيه"، ويدَّعي أنَّهم ليسوا "يهوداً يهوديين"، أو أنَّ الآخر كان "أُممياً وليس روسياً". إنَّ أيَّ أُمة كانت لا تستطيع أن تكون مسؤولة عن سلوك أبنائها. فنحن كأُمة نستطيع أن نرعى تطوُّرهم فحسب.

---

(1) هو الانقسام الذي وقع في الكنيسة الروسيّة في الأعوام 1650 -1660م وارتبط بإصلاح البطريرك نيكون الذي كان يتلخص في توحيد كتب الخدمة الدينية وإقامة شعائرها مع مثيلتها اليونانية المعاصرة. ـ ح. إ.

في حالة الشباب الثوريّ اليهوديّ (ومربيهم مع الأسف)، وأولئك اليهود الذين "كانوا قوة محرّكة أساسية في الثورة"، أُغفلت تماماً النصيحة الحكيمة التي أسداها النبي إرميا لليهود الذين كانوا في طريقهم إلى بابل: "اطلبوا سلام المدينة التي أجليتكم إليها وصلُّوا من أجلها إلى الرب فإنّه بسلامها يكون لكم سلام" (نبوءة إرميا 29 7 .). لكنَّ ما فعله يهود روسيا الذين التحقوا بالثورة، هو أنَّهم اندفعوا يجتاحون المدينة من غير أن يحسبوا حساباً للنتائج.

على الرَّغم من أنَّ الشعب اليهودي شعب صغير، إلاَّ أنَّه شعب بالغ الحيوية والنشاط، وقد أدَّى في التاريخ العالمي على امتداه الطويل وشعابه اللامتناهية، دوراً معروفاً، راسخاً، ولامعاً، بما في ذلك التاريخ الروسي. بيد أنَّ دوره هذا يبقى لغزاً بالنسبة لنا جميعاً، ولليهود كذلك. فهي رسالة غريبة لا تحمل لهم السعادة.

الفصل العاشر

في زمن الدوما

لقد كان مرسوم السابع عشر من العام 1905م بداية طور نوعي جديد في تاريخ روسيا استقرَ ورسخ بعد مضيٍ عام على وزارة ستوليبين، إنّه طور النظام الملكيّ الدوميّ أو النظام القيصريّ المحدود الصلاحيات الذي بدأت فيه بوتائر متسارعة وملحوظة، إزاحة الثوابت التقليديّة الراسخة في نظام الحكم: لا محدوديّة حقوق القيصر، وحصانة الوزارات المطلقة، ورسوخ التراتبيّة الأرستقراطيّة. لكنَ الدوائر العليا في المجتمع الروسيّ استقبلت هذا الانتقال بعدم ارتياح، ولم يتواءم مع العهد الجديد سوى ذوي العقول الحيويّة، أصحاب الحزم، وقوّة الشكيمة. لكنَ الرأي العام لم يستوعب مباشرة نظام الخيارات الجديد وعلنيّة الدوما وشفافيتها (وكان الأمر أكثر صعوبة مع مسؤولية الدوما نفسها)، خاصة أن جانبها اليساري كان يشغله اللينينيون بكلِ ضراوتهم، ومعهم البونديون الذين لم يكونوا أقلَ ضراوة منهم. فقد قاطع هؤلاء معاً انتخابات مجلس دوما الدولة الأول: برلماناتكم لا تلزمنا، نحن ماضون عبر الثورة، والدم، والزلازل! وكان للبوند موقف سلبيّ جداً من تكتيك المندوبين اليهود في الدوما".

بيد أنَّ اليهود الروس الذين كان يوجههم "الاتحاد من أجل كامل الحقوق"، اتخذوا موقفاً مؤيداً لبنية الدوما الجديدة، "وساهموا مساهمة نشطة جداً في الانتخابات، فانتخب أكثرهم مرشحي الحزب الذي رفع شعار منح اليهود حق المساواة [حزب الكاديت]". على هذا النحو كان أيضاً موقف الثوريين الآخرين الذين أفاقوا أخيراً من غفوتهم. فإسحاق غورفيتش مثلاً، الذي كان قد هاجر

منذ العام 1889م، ثم غدا في الولايات المتحدة يسارياً ماركسياً نشطاً، وواحداً من مؤسسي الحزب الاشتراكي الديمقراطي الأميركي، عاد في العام 1905 إلى روسيا، فانتُخب كادراً انتخابياً إلى انتخابات مجلس دوما الدولة. لم تُفرض على اليهود أيُّ قيود انتخابية كانت، فدخل الدوما الأولى اثنا عشر مندوباً يهوديّاً، الحقيقة أنَّ أكثرهم كان من إقليم الاستيطان اليهوديّ، من الشخصيّات اليهوديّة المحليّة، أمّا قادة اليهود في العاصمة، فلم يكن لهم تمثيل في المجلس، لذلك لم ينجحوا في الانتخابات: لم يدخل الدوما منهم سوى م. فينافير، ل. برامسون، وم. غيرتسينشتين الذي كان قد اعتنق المسيحية (تخلّى له الأمير ب. دولغوروكوف عن مقعده طوعاً).

لمّا كان عدد المندوبين اليهود وازناً في الدوما، فقد اقترح المندوبون الصهاينة تشكيل "كتلة يهودية مستقلَة لها نظام انضباط حزبي حقيقيٍ"، إلاّ أنَّ المندوبين غير الصهاينة رفضوا الفكرة، لم يوافقوا إلاّ على لقاءات "تُعقد بين وقت وآخر لبحث المسائل المتعلقة بالمصالح اليهوديّة تحديداً"، بيد أنّهم اعتمدوا في الوقت نفسه "نظاماً ملزماً قضى بالامتثال التام لقرارات الكتلة التي كانت تتألَف من أعضاء الدوما وأعضاء لجنة حق المساواة" (أي "المكتب السياسي").

مجلس الدوما ومنح اليهود حق المساواة

بدلاً من هذا، ترسَخ تحالف اليهود مع حزب الكاديت. "كانت الفروع المحليّة للاتحاد [من أجل حق المساواة] والحزب الديمقراطي - الدستوري (أي حزب الكاديت. ــح. إ.) تتألّف في أحيان كثيرة من الأشخاص أنفسهم" (كانوا يدعون فينافير مزاحاً: "كاديت شريعة موسى"). في إقليم الاستيطان اليهودي كان اليهود يُشكّلون الأكثرية العظمى من أعضاء حزب الكاديت، كما كانوا من حيث العدد، الجماعة القومية الثانية من أعضاء الحزب في المقاطعات الداخلية ... كان فيتيه قد كتب يقول في هذا السياق: "إنَّ المثقفين اليهود الذين تخرَّجوا من المؤسسات التعليمية العليا، كانوا كلّهم تقريباً، ينتمون إلى حزب ''الحرية الشعبية'' [أي حزب الكاديت] ... الذي كان يعدهم بالمساواة فوراً، من غير تسويف. إنَّ هذا الحزب يدين لليهوديّة بكثير من النفوذ الذي يحظى به، فهي التي كانت ترفده بالعمل الفكريّ والماديّ". "في العام 1905م منح اليهود حركة التحرر الوطني الدستورية الروسيّة في الشطر الشمالي من جنوبي روسيا، المنهجية والتركيز".

تقول عضو حزب الكاديت أ. تيركوفا في مذكراتها: "إنَّ اليهود كانوا المؤسسين الرئيسين لحزب الكاديت، والقادة الفعليين فيه. لكنَّ اليهود - الكاديت لم ينجحوا في تقديم قائد مرموق يستطيع أن يقود وراءه الليبراليين الروس، كما حصل في إنكلترا في القرن التاسع عشر، عندما نجح اليهودي ديزرائيل في أن يقود المحافظين الإنكليز ... فالشخصيات المهمة في حزب الكاديت بقيت من الروس حصراً. غير أن هذا لا يعني أنّني أنفي نفوذ اليهود

وتأثيرهم في أوساطنا التي ذابوا فيها. فديناميـة هـؤلاء القـوم لم يكـن لهـا إلاَّ أن تعبِّـر عـن حضـورها. وبحضـورهم وحـركتهم الدائبـة كـانوا يفرضـون وجـودهم، ويذكِّرون في كل لحظة بوجوب إغاثتهم، وعدم نسيان حالتهم وما يُعانون منه".
ثمَّ تقول بعد ذلك: "نحن إذْ نتفكَّر في نفوذ اليهود وتأثيرهم [في حزب الكاديت] وتشعباته، لا يمكننا أن نغفل الدور الذي كان يؤديه ميليوكوف. فمنـذ البداية صار شخصية أثيرة محبوبة أحاطت بها حلقة من ذوي العيون السود المعجبين، خاصة المعجبات ... اللواتي كنَّ يلاطفنه ويُغازلنه من غير أيِّ مداراة، ويُغدقن عليه المدائح التي كانت تبلغ في بعض الأحيان حدَّ الفكاهة".

كما يصف ف. أ. اوبولينسكي، وهو أيضاً عضو اللجنة المركزيّة في حزب الكاديت، النـادي اليهـودي في زمـن الـدوما الأولى حيـث كـان يقـع علـى زاويـة التقـاطع بـين بـين شـارع سيرغيفسـكايا وشـارع بوتيـومكين. هنـاك، في ذلـك النادي، كانت تتماهى النخبة العلمانيّة من اليهوديّة الروسيّة مع النخبـة المسيَّسـة من المثقفين الروس: "كان المكان يعجُّ دائماً بالناس، وكان يغلب على الحضـور جمهور أنيق من يهود بطرسبورغ الأثرياء: سيدات يرتدين فسـاتين مـن الحريـر، وتتـزيَّنَّ بمشـابك وخـواتم مـن الألمـاس، ورجـال وجـوههم وجـوهٌ برجوازيَّـةٌ نضـرة مكتفية راضية. حتى نحن أعضاء الدوما، ذوي التوجهات الديمقراطية، كان مشهد "نادي الكاديت" هذا يثير فينا بعض الحيرة والإرباك. فأنت تستطيع أن تتخيَّل إذن، مـدى الحـرج الـذي كـان يشـعر بـه الفلاحـون القـادمون لحضـور اجتماعات كتلتنا ... لا شك أنَّ كلاً منهم كان يقول في نفسه: إنَّه حزب السادة. فتوقفوا عن المجيء إلينا".

في المناطق، لم يكـن التفاعـل بـين الاتحـاد مـن أجـل حـق المسـاواة، وحـزب الكاديت يتحقّق عبر ضمان انتخاب "أكبر عدد ممكن المندوبين اليهود" فقط، بل أيضاً "بالتزام الفروع المحليّة [للاتحـاد مـن أجـل حـق المسـاواة] بـدعم المرشحين [غير اليهود] الذين يتعهدون بالعمل على تحرير اليهود". في العام 1907م أوضحت

"ريتش"، صحيفة حزب الكاديت، رداً على تساؤلات متكرّرة من قبل الصحف الأخرى قائلة: "إنّها أشارت في حينه إلى الاعتبارات التي أوجبت الاتفاق مع المجموعة اليهوديّة ... فالمجموعة مُنحت حقّ اختيار الكوادر الانتخابية وحقّ الاعتراض على انتخاب المندوبين إلى الدوما".

لمّا باشرت الدوما مداولاتها، وضعت على جدول أعمالها مسألة منح حق المساواة لليهود في إطار مساواة المواطنين على وجه العموم، في الحقوق، أي أنّ الدوما وضعت المسألة في سياق منطق المرسوم الامبراطوري. ووعدت دوما الدولة بالعمل على وضع "قانون يشرِّع مساواة المواطنين كلّهم في الحقوق، وإلغاء القيود والامتيازات المشروطة بالانتماء الفئوي، والعرقي، والديني، والجنس كلّها". بعد أن أقرّت المبادئ الأساس للقانون، تابعت الدوما مداولاتها شهراً مملاً آخر كانت تصدر في خلاله "بيانات صاخبة لا معنى لها"، إلى أن صدر قرار حلّها. فعُلّق قانون المساواة بين المواطنين، وعُلّقت معه مساواة اليهود.

مثلهم كمثل أكثر مندوبيٍّ حزب الكاديت، وقّع مندوبو الدوما الأولى اليهود على بيان فيبورغ، لكنَّ ذلك أدى إلى حرمانهم من حقّ الترشح بعد ذلك، وهذا ما كان له أكبر الأثر على مستقبل فينافير السياسي (في الدوما الأولى كانت مشاركاته تتسم بالحدة، وفي الوقت نفسه، كانت تحذيراته الأخيرة معروفة: على اليهود ألاّ يتقدموا الصفوف، كي لا يقع لهم ما وقع في ثورة 1905م).

"في انتخابات الدوما الثانية اتسمت مشاركة اليهود بنشاط أكثر حيويّة مما كانت عليه مشاركتهم في الحملة الانتخابية الأولى ... فقد أظهر سكان إقليم الاستيطان اليهودي اهتماماً حيوياً بهذه الانتخابات. وشملت الدعاية الانتخابية مختلف الشرائح السكّانيّة". لكنَّ موسوعة ما قبل الثورة تقول: كانت هناك دعاية مكثَّفة ضدَّ اليهود شنَّتها الدوائر اليمينيّة الملكيّة في الإقليم

الغربي، "فقد أدخلوا في روع الفلاحين أنَّ الأحزاب التقدميّة كلّها تعمل على مساواة اليهود في الحقوق، مما يُلحق أذى عظيماً بمصالح السكان الأصليين"؛ وأنَّ "خلف التمثيل الشعبي المفبرك تقف جمعية احتكارية يهودية - ماسونية تدير شؤون البلاد وتضمُّ خونة الدولة واللصوص الذين ينهبون الشعب"؛ وأنَّ الفلاح مهموم "بكمٍّ لا سابق له من السادة الذين لا يذكر مثلاً لهم لا الآباء، ولا الأجداد، وأنَّ عليه أن يقدِّم من عمله في الأرض، القوت لهؤلاء كلّهم"؛ وأنَّ الدستور "يُلقي على كاهل روسيا بدل النير التتري، نير الكاغال العالميّة المذلّ". وأُوحي بلائحة من الحقوق المعمول بها الآن والواجب إلغاؤها: يجب ألاّ يقتصر الأمر على عدم انتخاب اليهود إلى الدوما فحسب، بل يجب حشرهم كلّهم في داخل نطاق إقليم الاستيطان اليهودي فقط؛ ومنعهم من الإتجار بالقمح، والحبوب، والأخشاب، والمساهمة في المصارف والمؤسسات التجارية؛ ونزع ملكيّاتهم التي اكتسبوها؛ وعدم السماح لهم بتغيير أسماء عائلاتهم؛ ومنعهم من أن يكونوا أصحاب مؤسسات نشر صحفية أو رؤساء تحرير فيها؛ كما يجب العمل على تقليص مساحة إقليم الاستيطان اليهوديّ نفسه على حساب مقاطعاته الخصبة، وتخصيص أراضٍ لليهود لا تقع في مدى أقرب من منطقة ياقوتيا؛ ينبغي أيضاً أن يُعدُّوا أصلاً أجانب، ويُستبدل بخدمتهم العسكرية بدلٌ نقديٌ، و... "وقد أدَّت هذه الدعاية المعادية للساميّة التي شنَّتها الدوائر اليمينية الملكيّة شفهياً وكتابة، إلى فشل ذريع شبه تام، مني به في إقليم الاستيطان اليهودي المرشحون التقدميّون إلى انتخابات دوما الدولة الثانية. فلم يفز فيها سوى أربعة مرشحين يهود (ثلاثة منهم من حزب الكاديت).

لكنْ، قبل الانتخابات إلى الدوما الثانية، كانت الحكومة نفسها قد اهتمَّت بموضوع مساواة اليهود. فبعد ستة أشهر من تسلُّمه مهام رئاسة الحكومة، في كانون الأول من العام 1906م، أعلن ستوليبين قرار الحكومة (أو ما دُعي بعد ذلك "سجلّ مجلس الوزراء") باستمرار رفع القيود جزئياً عن اليهود،

والمقصود هنا، القيود المفصلية التي تفتح الطريق نحو المساواة الكاملة. "فقد عُقد العزم على: إلغاء قرار منع اليهود من الإقامة في أرياف إقليم الاستيطان اليهودي؛ ورفع الحظر عن حق الإقامة في الأرياف لليهود الذين يحملون حق الإقامة في شتى أرجاء الإمبراطورية"؛ ووقف العمل بقرار "منع اليهود من المشاركة في إدارة الشركات المساهمة التي تملك ملكيّات زراعيّة".

فردَّ الامبراطور برسالة في العاشر من كانون الأول قال فيها: "على الرَّغم من الحجج المقنعة لصالح قبول ... إلاَّ أنَّ صوتاً داخلياً يُلحُّ عليَّ بألاَّ آخذ هذا على عاتقي". يبدو أنَّ جلالته لم يفهم، أو بمعنى أصح، أراد أن ينسى أنَّ القرارات المقترحة في "السجلّ"، ليست سوى تبعات حتميّة تترتَّب مباشرة عن المرسوم الذي كان قد وقَّعه بنفسه قبل عام مضى ... لكنَّ في البيئة البيروقراطية المغلقة نفسها، هناك دائماً أعين وأيادي إداريين موثوقين. فشاعت شائعة قرار مجلس الوزراء وانتشرت حتى بلغت شتى زوايا المجتمع؟ والآن سيغدو معروفاً أنَّ الوزراء يعملون على تحرير اليهود، بينما الامبراطور يعوق مساعيهم؟ ... فأسرع ستوليبين وخطَّ في اليوم نفسه، رسالة إلى الامبراطور عبَّر فيها عن بالغ قلقه، وأكّد مرّة أخرى على مسوِغاته كلّها، وفي المقام الأول منها: "أنَّ أحداً لا يعرف شيئاً حتى الآن عن ردِّ السجلِّ"، أي أنّ التستُّر على تردّد الامبراطور مازال ممكناً. "يا صاحب العظمة، نحن لا نملك الحق في أن نضعك في مثل هذا الموقف، ثمَّ نختبئ وراءك". لقد كان ستوليبين يرغب في أن تمرَّ تلك الامتيازات كأنَّها مكرمة من القيصر. لكنْ بما أنَّ ذلك غير ممكن، فقد اقترح وضع إعلان آخر ينصُّ على أنَّ الامبراطور لا يُعارض من حيث الجوهر، إلاَّ أنَّه لا يريد أن يصدر القانون من خارج مجلس دوما الدولة، بل عبره.

بحسب سكرتير الدولة س. ي. كريجانوفسكي، إنَّ الامبراطور وضع عندئذٍ بياناً بهذا المعنى: فليأخذ ممثلو الشعب على عاتقهم مسؤولية إعادة طرح هذه المسألة، واتخاذ قرار بشأنها. لكنْ لسبب ما، بقي هذا الإعلان بعيداً عن

دائرة الضوء، كما "لم تبادر دوما الدولة إلى أيِّ تحرُّك بهذا الخصوص". مع أنَّ المدى كان مفتوحاً على اتساعه أمام الدوما الثانية بأكثريتها اليسارية التي كانت مشبعة بروح المجتمع التقدميّ، ساخطة السخط كلّه على الحكومة. مع ذلك "لم تناقش مسألة حرمان اليهود من الحقوق في جلساتها إلاّ مرات أقلّ بكثير من المرات التي نوقشت فيها في جلسات مجلس الدوما الأولى". لم يبلغ قانون منح اليهود حقّ المساواة في الدوما الثانية حتى طور المداولة، فما بالك بطور الإقرار.

لكنْ لماذا لم تستغل الدوما الثانية الفرصة التي أُتيحت لها؟ لماذا لم تقتنص اللحظة؟ لقد كرَّست دورتها التي امتدت ثلاثة أشهر، لمناقشة أشياء كثيرة، ولم تبق مسألة ثانوية صغيرة إلاّ أُشبعت فيها مماحكة! أمَّا مساواة اليهود، فمازالت مسألة جزئية، عداك عن أنَّها نوقشت وعولجت، مع ذلك لم يتطرقوا إليها. لماذا؟ "لقد تشكلت لجنة خاصّة من خارج البرلمان"، لكنَّها لم تبادر البتة إلى العمل على رفع القيود عن اليهود، علماً أنَّ هذه المسألة كانت قد باتت منتهية، غير أن اللجنة تجاوزتها وأخذت تبحث عن تحقيق المساواة الكاملة "بأسرع وقت ممكن".

يبدو أنَّه من الصعب جداً إيجاد تفسير لهذا إلاّ في سياق الحسابات السياسية: اللعب في الصراع مع النظام القيصري، على مفاقمة المسألة اليهوديّة أكثر فأكثر، والإبقاء عليها من غير حلٍّ – في الاحتياط. كان دافع فرسان الحرية هؤلاء يكمن في ألاّ يؤدي رفع القيود عن اليهود إلى إضعاف هجومهم على السلطة. كان هذا الهجوم بالنسبة إليهم أكثر أهمية بما لا يُقاس. وكان هذا قد بات واضحاً ومفهوماً أكثر فأكثر. فبردايف مثلاً، يتّهم طيف الراديكاليّين الروس برمّته: "إنَّكم شديدو الحساسيّة فيما يتعلق بالمسألة اليهوديّة، فأنتم تناضلون في سبيل حقوق اليهود. لكنْ أتشعرون بشعور "باليهوديّ"؟ هل تشعرون بروح الشعب اليهوديّ؟ ... لا، فنضالكم من أجل اليهود لا يريد أن يعرف اليهود".

في الدوما الثالثة لم يكن الكاديت أغلبية، "فلم يتخذوا مبادرات في المسألة اليهوديّة كيلا يفشلوا ... وهذا ما أثار سخط الجماهير اليهوديّة، كما لم تتردّد الصحافة اليهوديّة في مهاجمة حزب الحرية الشعبية". مع أنَّ "اليهود كدأبهم، شاركوا مشاركة نشطة في الحملة الانتخابية، ومع أنَّ عدد الكوادر الانتخابية اليهود في إقليم الاستيطان اليهودي فاق عدد الكوادر الانتخابية المسيحيين هناك"، إلاَّ أنَّ الطرف المعادي تفوَّق عليهم في الانتخابات النهائية، ولم يدخل الدوما الثالثة سوى مندوبين يهوديين: نيسيلوفيتش وفريدمن (كما نجح هذا الأخير في دخول الدوما الرابعة). ومنذ العام 1915م، كان ثمة يهوديّ في مجلس الدولة –غ. ي. فينشتين، عن أوديسا (انضمَّ إليه قبيل الثورة سولومون صموئيلوفيتش كريم، عن الكارايميين).

أمَّا الأُكتوبريون فبعد أن باتوا الحزب الرئيس في الدوما الثالثة، أخذوا على عاتقهم، لكنْ مع شيء من التردّد في بعض الأحيان، عبء الضغط الشعبي لمنح اليهود حقوق المساواة، وهو ما جعلهم موضع اتهام من قبل القوميين الروس: "لقد كنَّا نظنُّ أنَّ الأُكتوبريين يقفون كما في السابق، على أرضية الدفاع عن المصالح القوميّة"، لكنْ ها هم يُرجئون بغتة مسألة "منح المساواة للروس في فنلندا"، ومسألة "فصل خولمسكايا روس" بسكانها الروس عن بولونيا، "ويطرحون مشروع قانون يقضي بإلغاء حدود إقليم الاستيطان اليهوديّ". بيد أنَّهم ينسبون إليهم من جهة أخرى، خُطباً "ذات طابع معادٍ للساميّة بوضوح": في العام 1908م، أقرت الدوما الثالثة بمبادرة من غوتشكوف، "قانوناً يمنع على الأطباء اليهود أن يعملوا في الخدمات الطبية العسكريّة"، كما "اقترحوا أن يدفع اليهود بدلاً نقدياً عن تأدية الخدمة العسكريّة" (قبل الحرب ناقشوا في روسيا علانية وبمنتهى الجديّة، مسألة إعفاء اليهود من تأدية الخدمة العسكرية؛ ونشر إ. ف. غيسين كتاباً عنوانه "الحرب واليهود").

إذن، لا الدوما الثانية، ولا الثالثة، ولا الرابعة، لم تأخذ أيٌّ منها على عاتقها مسؤولية إقرار قانون مساواة اليهود في الحقوق. لكنْ في كلّ مرة كان يجب أن يجري التصويت فيها على قانون منح الفلاحين حقوق المساواة (أصدره ستوليبين في العام 1906م)، كان اليساريون يبذلون كلَّ جهد ممكن، في الدوما الثانية والثالثة والرابعة، لمحاصرة هذا القانون، متعلّلين بأنّه لا يجوز إقراره قبل إقرار قانون اليهود (والقانون البولوني قبل ذلك). كان ذلك الموقف يضاعف السخط على الحكومة القيصرية أكثر فأكثر. كما لم يتراجع الضغط على الدوما، غير أنّها لم تقرّ القانونين إلاّ عشية ثورة شباط. أمَّا ستوليبين، فبعد أن فشلت مساعيه في العام 1906م، خفَّف بطريقة إدارية هادئة من أعباء بعض القيود عن اليهود من غير أن يثير أيَّ صخب تشريعي.

فعلق الكاتب الاجتماعي م. مينشيكوف على هذا مستنكراً: "لقد تحوَّل إقليم الاستيطان اليهوديّ في عهد ستوليبين إلى وهم". اليهود "ينتصرون على السلطة الروسيّة وينتزعون منها مجالات الهيبة مجالاً بعد الآخر ... الحكومة تتصرَّف كما لو كانت حكومة يهوديّة". لقد كان الإعلام الروسي الجبّار يشكّل ظهير الأحزاب اليساريّة والراديكاليّة في مواجهة اتخاذ التدابير المتدرِّجة، وفي موقفها التكتيكي تجاه رفض منح حقّ المساواة لليهود وفق منهج ارتقائي. كان الإعلام قد بات حراً من الرقابة الحكومية منذ أواخر العام 1905م، بيد أنّه لم يعد الآن إعلاماً حراً فحسب، إنّما إعلام يرى في نفسه مباشرة، من غير مواربة، شخصيّة فاعلة على المسرح السياسي، فيطرح مطالب مثل، إخراج الشرطة من الشارع. وهذا بحسب تعبير فيتيه، هو الجنون بعينه.

الإعلام ومداولات مجلس الدوما

فيما يتعلّق بالدوما، غدا نقل ما يجري فيها من مداولات إلى مختلف أرجاء روسيا مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالمراسلين الصحفيين. كانت التقارير المختزلة تُطبع متأخرة، وبأعداد ضئيلة، لم تكن هناك أيُّ وسيلة إعلامية أخرى سوى الصحف اليوميّة، عداك عن أنَّ المادّة التي كانت تنقلها الصحف، وحدها التي كانت تستهوي العقول. لكنَّ التقارير الصحفيّة كانت تلوِّن مداولات الدوما بانتظام، بل قد تحرِّفها أيضاً، فتسهب في عرض مداولات الأعضاء اليساريين، وتُطنب في مدحهم، بينما تضغط مداخلات الأعضاء اليمينيين حتى الحدِّ الأقصى، أو تتجاهلها تماماً.

بحسب شهادة أ. تيركوفا، إنَّ الصحفيين في الدوما الثانية "شكّلوا مكتبهم الإعلامي الخاص" الذي كان "يوزّع المقاعد" على المراسلين وفق بطاقات معتمدة. وقد رفض أعضاء المكتب منح بطاقة لمراسل صحيفة "كولوكول" ("الجرس". ح. إ.) (كان يقرأها كهنة الأرياف). فأعلنت عضو حزب الكاديت تيركوفا "أنّه لا يجوز أن يُحرم هؤلاء القرّاء من الاطلاع على ما يجري في الدوما، من تقارير الصحيفة التي يثقون بها أكثر من صحف المعارضة"؛ إلاَّ أنَّ "زملائي القلقين" الذين كانت غالبيتهم من اليهود ... احتدُّوا، وصرخوا، وأكدوا أنَّ أحداً لا يقرأ "كولوكول"، وأنّها صحيفة لا لزوم لها البتة لأيٍّ كان".

لقد عزت الأوساط القوميّة الروسيّة سلوك الصحافة هذا إلى اليهود وحدهم، كان يكفيهم من البراهين على صحّة رأيهم، كون مراسلي الصحف في الدوما كانوا كلّهم من اليهود تقريباً. فنشروا لائحة كشفوا فيها عن أسماء

هؤلاء المراسلين اليهود. لكنَّ المشهد الكوميدي للمشاحنات التي كانت تجري في اجتماعات الدوما، كان أكثر تعبيراً: حينما كان بوريشكيفيتش مستغرقاً في التصدِّي لهجمات خصومه، رفع يده وهو ماض في خطبته ليشير إلى مقصورة الصحافة وراء الحاجز الدائري على مقربة من المنبر وقال: "انظروا إلى إقليم الاستيطان اليهودي هذا!"، على غير وعي منهم التفت الحضور كلهم نحو المراسلين، وعن غير قصد منهم أيضاً انفجروا يقهقهون، بمن فيهم اليساريون. فيما بعد راح "إقليم الاستيطان الدومي" هذا مثلاً.

من بين الناشرين اليهود تميَّز بميوله الثابتة نحو "الديمقراطية الثورية"، س. م. بروبير، صاحب "أخبار البورصة" الذي مرَّ ذكره معنا من قبل. ينقل مصدرنا ذكريات أكثر إيجابية عن يو. ب. باك مؤسس صحيفة حزب الكاديت "ريتش" ("الكلام". ـــح. إ.) وأكبر المساهمين فيها فيقول: "كان هذا رجلاً إيجابياً متفاعلاً، في غاية اللطف، كما كان واسع الثقافة، رحب الأُفق، ينتمي إلى صفوف الراديكاليين الليبراليين". وقد أدَّت كلمته الحماسية التي ألقاها في مؤتمر لجان المساعدة اليهوديّة في أوائل العام 1906م، إلى التراجع عن إرسال وفد المصالحة الذي كان متوجِّها للقاء القيصر. "لم تكن هناك أيُّ مؤسسة تنويريّة خيريّة يهوديّة إلاَّ كان باك مساهماً فيها"، لكنَّه تميَّز على وجه الخصوص بالعمل في جمعية الاستيطان اليهوديّ. وما يجدر قوله: إنَّ صحفية "ريتش" نفسها ورئيس تحريرها إ. ف. غيسين، لم يقتصر عملهما على المسائل اليهوديّة وحدها، بل شمل المسائل الليبراليّة العامّة (في المهجر سيُظهر غيسين هذا الموقف فيما بعد، في عمليه: "الرول"، "وأرشيف الثورة الروسيّة"). ووردت في "فيدوموستي الأساتذة الروس" ("أخبار الأساتذة الروس". ـــح. إ.)، أسماء شخصيّات يهوديّة من مختلف الاتجاهات، منهم فلاديمير جابوتينسكي، ولوريه -لارين، مبدع سياسة الشيوعيّة المقاتلة فيما بعد. وقد نوَه س. ميلغونوف إلى أنَّ التحقيقات الإيجابيّة التي تنشرها "الفيدوموستي الروسيّة" عن المسائل المتعلّقة باليهود، "لم تكن تُنشر

دفاعاً عن المضطهدين فقط، بل بحكم تركيبة جهاز العاملين في المؤسسة". "كما كان الموظفون من أصول يهوديّة، في عداد العاملين في صحيفة ''نوفويه فريميا'' أيضاً"، وقد نشرت الموسوعة أسماء خمسة منهم.

على مدى سنين طويلة كان غ. ب. إيولوس أبرز شخصيّة في "الفيدوموستي الروسيّة"، دعاه إلى العمل هناك غيرتسنشتين الذي كان قد بدأ عمله في الصحيفة منذ ثمانينات القرن التاسع عشر. كان كلاهما عضواً في الدوما الأولى. لكنَّ مناخ الاغتيالات السياسية الوحشي الذي كان بمثابة "بروفة" ثورة 1905 -1906م، طال الاثنين معاً. وبحسب الموسوعة اليهوديّة الإسرائيلية، أنَّ تنظيم اتحاد الشعب الروسي هو المسؤول عن مقتلهما. لكنَّ الموسوعة اليهوديّة الروسيّة تؤكد أنَّ الاتحاد ليس مسؤولاً إلاّ عن مقتل غيرتسينشتين (في العام 1906م)، أمّا إيولوس فقد قتله (في العام 1907م) "إرهابيو المئة السود".

غنيٌ عن البيان القول: إنَّ نشاط الناشرين والكتّاب الاجتماعيين اليهود، لم يقتصر على الصحف الرئيسة البارزة، أو الصحف ذات السوية الذهنيّة العالية، بل امتدَّ ليشمل الطرف الآخر من الرأي العام، كصحيفة الفئات الشعبية البسيطة: "كوبيكا" التي كان يقرأها كلُّ بواب وكنّاس، ويصدر كلُّ عدد منها بأربعة ملايين نسخة. من الواضح أنّه كان لها "دور عظيم في الصراع ضدَّ حملات الافتراء المعاديّة للساميّة" (أسسها ورأس تحريرها م. ب. غورودتسكي).

كما رأس إيون كوغيل (واحد من أربعة أُخوة صحفيين)، تحرير صحيفة نافذة مشهورة هي صحيفة "كيفسكايا ميسل" ("فكر كييف". ح. إ.) (تقع على يسار حزب الكاديت)، التي نلقى فيها أيضاً د. زاسلافسكي، لكنَّ أكثر ما يثير الأسى، هو وجود ليف تروتسكي فيها. أمّا أشهر صحف ساراتوف، فكان يصدرها ابراهام - الأب (شقيق زوجة سفيردلولف). وفي وقت ما كانت تصدر في أوديسا صحيفة "تيليغراف نوفوروسيا" التي كانت لها توجهات يمينية متطرفة، فحوصرت اقتصادياً في العام 1900م، كان الحصار مجدياً، فصمتت.

كما كانت تضيء في سماء الإعلام الروسي بعض النجوم "المتأرجحة". يبرز هنا الصحفي الملهم ل. يو. غولدشتين، الذي كتب في مختلف الصحف طول خمسة وثلاثين عاماً، كما كتب أيضاً في "ابن الوطن"، وأسس صحيفة "روسيا" ورأس تحريرها. كانت هذه ذات توجهات وطنيّة بامتياز (أغلقوها فيما بعد بسبب منشور طال سمعة السلالة الإمبراطورية –"السادة آل الخداع"). في العام 1917م احتفلت أعداد الصحف التي صدرت في الربيع بيوبيل غولدنشتين. نشير أيضاً إلى غارفيه - آلتوس المتواضع الذي اشتُهر مرة بمنشور "وثبة الفهد المتيّم"، الذي رمى فيه وزير الداخلية ن. أ. ماكلاكوف بكمٍّ مهوّل من الافتراءات (لكنْ ما الذي كانت تشكلّه هذه المناشير إذا ما قورنت "بالمناشير الهزلية" التي عرفتها روسيا في الأعوام 1905 -1907م، بوقاحتها التي لم يكن لها مثيل من قبل، وبذاءة لغتها التي طالت السلطات وبنية الدولة برمّتها؟ هنا ينبغي أن نشير إلى دهاء زينوفيف غرجيبين: في العام 1905م أصدر الصحيفة الهجويّة السليطة "جوبيل" ["البعبع". ح إ.]، وأصدر في العامين 1914 -1915م صحيفة "اوتيتشستفو" ["الوطن". ح. إ.]، وفي العام 1920م أسس بموافقة من مؤسسة الدولة السوفييتية للنشر، داراً للطباعة والنشر باللغة الروسيّة في برلين).

لكنْ، إذا كان الإعلام قد عرف اتجاهات مختلفة، بما فيها الاختلاف بين الليبرالية والاشتراكية، وإذا كان الخلاف قد دار بين الكتّاب الاجتماعيين حول الموضوعات اليهوديّة، بين أنصار الصهيونيّة وأنصار الاستقلال الذاتيّ، فإنَّ موقفاً واحداً في الإعلام الروسي بقي ثابتاً لم يتغيَّر، بعيداً عن الوقار: تفهُّم موقف السلطة. منذ سبعينيّات القرن التاسع عشر كان دوستويفسكي قد ألمح غير مرة إلى "فلتان الإعلام الروسي". وقد ظهر هذا لفلتان تجاه السطات بكل جموحه، في اجتماع الثامن من آذار 1881م الذي عُقد لدى الإسكندر الثالث، كان قد استوى على العرش لتوه، ثمَّ تكرر بعد ذلك غير مرة: لقد سمح الصحفيون لأنفسهم بأن يتصرَّفوا في ذلك اللقاء على هواهم، كما لو كانوا مفوَّضين عن

المجتمع. تحضرني في هذا السياق مقولة ينسبونها إلى نابليون: "ثلاث صحف معادية أخطر من مئة ألف جيش معاد". وقد ظهرت صحة هذه المقولة إلى حدٍ بعيد، في الحرب الروسيّة - اليابانيّة. فالإعلام الروسي كان مثبِّطاً للهمم من غير موارية، على امتداد طور الحرب كله، في كل معركة من معاركها. والأخطر من هذا أنّه كان متعاطفاً بصراحة مع الإرهاب والثورة.

في العام 1905م كان هذا الإعلام قد أفلت من القيود كلها، وفي زمن الدوما كان يتحدث، على حدِّ قول فيتِيه، بصفته إعلاماً "يهودياً"، أو "شبه يهوديّ": بمعنى أدق، كان اليهود اليساريون، أو الليبراليون يسيطرون فيه على المناصب الأساسيّة للمراسلين ورؤساء التحرير. في تشرين الثاني من العام 1905م كتب د. إ. بيخنو، رئيس تحرير صحيفة "كيفليانين" القوميّة الروسيّة يقول: "لقد راهنت اليهوديّة مراهنة كبيرة على الثورة الروسيّة ... وأدرك المجتمع الروسيّ الجدي أنَّ الصحافة تمثِّل في مثل هذه اللحظات التاريخيّة قوة حقيقيّة، إلاّ أنّه كان يفتقر إلى هذه القوة، بينما كانت متوافرة لدى أعدائه الذين كانوا يتحدثون باسمه في روسيا كلّها، فأرغموا أنفسهم على قراءتها، لأنّه لم يكن ثمة صحافة أخرى، ولن تستطيع أن تخلقها في يوم واحد ... فضاع [المجتمع الروسي] في بحر الكذب، كان عاجزاً عن أن يتبيَّن فيه طريقه".

لكنَّ ل. تيخوميروف لم ير في هذه الظاهرة أيَّ شيء قوميّ، إلاّ أنّه وضع في العام 1910م الملاحظات الآتية حول طابع الإعلام الروسي: "لاذع يضغط على الأعصاب ... أحاديّ النظرة ... لا يتوخّى اللباقة ... لا يعرف القيمة العليا، ليس لديه فكرة عنها". والجمهور الذي نشأ وتربّى على هكذا إعلام، "يطلب الوقاحة، والعربدة، ولا يستطيع أن يقدِّر المعارف، كما لا يلقي بالاً إلى الجهل". ومن الطرف السياسي الآخر، قال الكاتب الاجتماعي البلشفي (م. ليمكه) عن ماهيّة هذا الإعلام: "في عصرنا هذا، عصر ما بعد الإصلاح، غدت الأفكار رخيصة زهيدة، والمعلومات، والمباغتات المثيرة، والجهل السليط السفيه صاحب النفوذ، يملأ الصحف".

لكنَّ المرارة التي عبَّر عنها في العام 1909م أندريه بيلي، كان لها وقع خاص في عالم الثقافة. لم يكن هذا الرجل يمينياً، ولا "شوفينياً": "إنَّ زعماء الثقافة القوميّة يبدون غرباء عن هذه الثقافة ... ألقِ نظرة على أسماء العاملين في صحف روسيا ومجلاتها: من هم نقَاد الموسيقى والأدب في هذه المجلات؟ لن تقرأ هناك سوى أسماء اليهود؛ لا شكَّ في أنَّ بين هؤلاء النقاد أشخاصاً موهوبين حاذقين، بل ثمّة بينهم من يفهم كنه رسالة الثقافة القوميّة، وربما فهماً أعمق من فهم الروس لها؛ بيد أنَّ هؤلاء ليسوا سوى استثناء نادر. أمَّا الكتلة العامة من النقاد اليهود فهم غرباء عن الفنِّ الروسي، لا يكتبون بلغة أدبية بل بلغة فظّة، بلغة الإيسبيرانتو،[1] يهاجمون كلَّ محاولة لإغناء اللغة الروسيّة وتطويرها".

في تلك السنوات حذَّر الصهيوني الحاذق البعيد النظر، فلاديمير جابوتينسكي في معرض شكواه "من الصحف التقدمية التي تعتمد على المال اليهودي، وتفيض بالعاملين اليهود" فقال: "حينما اندفع اليهود جحافل ليصنعوا السياسة الروسيّة، قلنا لهم: إنَّ ذلك لن يأتي بأيِّ نفع لا للسياسة الروسيّة ولا لليهوديّة".

لقد أدَّت الصحافة الروسيّة دوراً رائداً في هجوم المثقفين الكاديت على الحكومة قبل الثورة؛ وقد عبَّر عن ذهنيتها حينئذٍ أ. إ. شينغاريوف، عضو مجلس دوما الدولة: "فلتفرق هذه السلطة! نحن لن نمدَّ لها حتى قطعة من حبل لتنجو!" ومن المناسب تماماً أن نذكِّر هنا بأنَّ الدوما الأولى وقفت دقيقة صمت إحياء لذكرى ضحايا مجزرة بيلوستوك (من غير أن توافق كما رأينا على أنَّها كانت معركة بالسلاح بين الفوضويّين وقوات الجيش)، وأن الدوما الثانية فعلت الشيء

---

(1) esperanto =الذي يأمل. لغة كونية مصطنعة، ابتكرها في العام 1887م الطبيب البولوني زامينغوف. تتميَّز هذه اللغة ببساطة تركيب تعابيرها وقواعدها، فجذور كلمات الإيسبيرانتو مأخوذة من شتى اللغات الأوروبية الشائعة؛ وقواعدها مبنية وفق مبادئ التغرية.

نفسه إحياء لذكرى إيولوس، الذي اغتاله الإرهاب؛ لكنْ حينما اقترح بوريشكيفيتش الوقوف إحياء لذكرى ضحايا الشرطة والجيش الذين قُتلوا في مراكز الحراسة، حُرم من حقّه في إلقاء كلمته، وطُرد من الجلسة: لقد رأى البرلمانيون المحتدمون غيظاً عندئذٍ أنّه لا معنى للتعاطف مع أولئك الذين كانوا يقومون على حراسة النظام المعتاد في الدولة، وهو النظام الضروريّ لهم هم أنفسهم، ولاستقرار الحياة العامة في المجتمع.

يبدو أنَّ أ. كوليشر، عضو الاتحاد من أجل المساواة، كان محقاً في استنتاجه، وإنْ جاء متأخراً، حينما قال من على "المنبر اليهودي" في المهجر عام في 1923 م: "في الوسط الاجتماعي الروسي - اليهودي قبل زمن الثورة، كان هناك أفراد ومجموعات اتسم نشاطهم فعلاً ... بانعدام حسٍّ المسؤولية الناجم عن خلل في ذهنيّة اليهوديّة الروسيّة ... فشاعت الثوريّة المبهمة السطحيّة المبتذلة ... تلخص كنه سياستهم كلّه في أن يكونوا على يسار أحد ما. واختاروا أن يؤدوا دوماً دور الناقد المجرَّد من المسؤولية، الذي لا يذهب أبداً حتى الآخر، ورأى هؤلاء أنَّ مهمّتهم تتلخَّص كلّها في أن يقولوا: "هذا قليل!" ... لقد كان هؤلاء الناس ''ديمقراطيين'' ... غير أنّهم كانوا ديمقراطيين من نمط خاصّ، أطلقوا على أنفسهم اسم ''المجموعة الديمقراطيّة اليهوديّة''"، مضيفين هذه الصفة إلى كل اسم غير ملائم لها، ابتكروا ديمقراطية تلمودية لا تُطاق ... ليُثبتوا أنَّ الآخرين ليسوا ديمقراطيين بما يكفي ... لقد نسج هؤلاء حولهم بيئة متطرفة، منفلتة من عقالها، بيئة تفتقر إلى أيِّ تربية، ولا تعرف مطالبها حدّاً واضحاً. في الثورة، انعكست تداعيات هذه البيئة في نتائج كارثية". لقد كان الدمار الذي أحدثته تلك الصحافة واحداً من نقاط الضعف الرئيسة التي بقيت تُعاني منها الدولة الروسيّة حتى العام 1914 و1917.

لكنْ ماذا عن "الصحافة الزاحفة" أمام السلطات، أي صحافة القوميّين الروس؟ يُقال: إنَّ "روسكويه زناميا" ("الراية الروسيّة". -ح. إ.) دوبروفين، انفلتت

من عقالها تماماً حتى بلغت حدَّ الإسفاف (للمناسبة نقول: كان توزيعها في الأوساط العسكرية ممنوعاً؛ بسبب معارضة الجنرالات). وربما كانت "زيمشينا" (اسم منطقة من الدولة الروسيّة منحها إيفان الرابع حق الإدارة الذاتية. –ح. إ.)، أفضل قليلاً – لا أعرف، فأنا لم أقرأ أياً منهما. أمَّا "أخبار موسكو"، فقد شاخت وتراجعت وفقدت قرَّاءها منذ العام 1905م.

لكنْ أين كانت العقول والأقلام القوية المحافظة التي كانت تحمل هموم الروس؟ لماذا لم يؤسسوا صحفاً من مستوى مرموق قادرة على أن تقف في وجه هذا الإعصار المدمِّر؟

لم تكن العقول الروسيّة الباردة النقيّة، ولا القوى القوميّة الروسيّة مؤهّلة عندئذٍ (فما بالك الآن)، لتنافس الفكر المرن الذي كانت تملكه الصحافة الليبراليّة والراديكاليّة المدينة بالكثير في حيويتها وتقدّمها المتواصل للعاملين اليهود فيها. فبدلاً من هؤلاء، أخرجت رأسها صحافة يسارية حاقدة مسعورة تستخدم أقلاماً من فؤوس. ونحن نضيف إلى هذا: إنَّ الصحف اليمينية بالكاد كانت تكفي نفسها مالياً. أمَّا الصحف التي كان يموِّلها اليهود، على حدِّ قول جابوتينسكي، فكانت تدفع رواتب عالية؛ لذلك كان كادر أقلامها من الدرجة الأولى، كانت كلّها مثيرة لاهتمام القراء. على الرَّغم من هذا كله، كانت الصحافة اليسارية والدوما تطالب بإغلاق الصحف "المموّلة"، أي التي تموِّلها الحكومة خفية، أو علانية.

وقد أكد س. ي. كريجانوفسكي، سكرتير الدولة، أنَّ الحكومة كانت تموّل أكثر من ثلاثين صحيفة في مختلف أرجاء روسيا، لكنْ من غير أن تحقق من وراء ذلك أيَّ نجاح يُذكر: بسبب افتقار القوى اليمينية إلى المثقفين المؤهّلين للعمل الاجتماعي، غالباً بسبب عدم كفاءة الحكومة. ومن النافل أن نقول: إنَّ إ. يا. غروليانـد وهو يهودي من العاملين في وزارة الداخلية، كان أكثر موهبة من الآخرين في هذا الميدان. فقد كان ينشر كتيبات تحت اسم مستعار

هو "فاسيليف"، كانت توزعها فرقة سريّة خاصّة، على شخصيّات اجتماعيّة معروفة. لم يكن لدى الحكومة سوى دورية واحدة هزيلة - بيروقراطيّة إحصائيّة هي "دليل الحكومة". أمّا تأسيس وسيلة إعلامية ما قوية، لامعة، مُقنعة وقادرة على أن تنافس علناً على اكتساب الرأي العام، لا في أوروبا إنّما بالحدّ الأدنى في روسيا، فهي مسألة لم تكن لتخطر في ذهن الحكومة القيصريّة، أو أنّها لم تكن تعرف كيف تفعل ذلك، أو لم تكن قادرة على النهوض بمثل هذا العمل.

على مدى زمن طويل، كانت "نوفويه فريميا" سوفورين، تقف إلى جانب الحكومة، وهي صحيفة حيّة، لامعة، ذات نبض (إلاّ أنّه كان على وجه العموم، نبضاً متبدّلاً: تارة تدعم التحالف مع ألمانيا، وتارة تكره الألمان كرهاً لا يعرف حدوداً)، غير أنّ ما يثير الأسى أنّها كانت تخلط بين ضرورة النهضة القوميّة، ومعاداة اليهود (بينما كان مؤسسها العجوز سوفورين يُحتضر ويوزع تركته على أبنائه الثلاثة، اشترط عليهم ألاّ يبيعوا سهماً واحداً لليهود). وعدّ فيتيه "نوفويه فريميا" من الصحف التي كان من مصلحتها أن تكون في العام 1905م صحيفة يسارية ... ثمّ صححوا موقفهم، وهم الآن من نمط المئة السود. تشكّل هذه الصحيفة الموهوبة ذات النفوذ، مثالاً مثيراً للغاية لمثل هذا التوجُّه". فمع أنّها تجارية "إلاّ أنّها مع ذلك، واحدة من أفضل الصحف". لقد كانت معلوماتها غنيّة جداً، كما كانت واسعة الانتشار – قد تكون الصحيفة الأكثر حيوية في روسيا كلها، وبالتأكيد الأكثر حذقاً وذكاء بين الصحف اليمينية.

أمّا الشخصيات اليمينية، وأعضاء الدوما اليمينيون، فقد كان سلوك أكثرهم غير متوافق مع قواهم ونقاط ضعفهم الحقيقيّة، أفعالهم كانت عديمة الجدوى؛ لأنّهم لم يروا طريقاً أخرى "يصونون بها الأصالة القوميّة للدولة الروسيّة" سوى اللجوء إلى التدابير الحكومية لفرض قيود على اليهود. ففي العام 1911م، خلافاً لتوجهات العصر، قدّم بالاشوف عضو مجلس دوما الدولة خطّة دعت إلى

ترسيخ حدود إقليم الاستيطان اليهودي وتدعيمها، وإبعاد اليهود عن الصحافة، والقضاء، والمدرسة الروسيّة. كما احتجّ عضو الدوما الآخر، زاميسلوفسكي، على بقاء اليهود، أو الاشتراكيّين الثوريّين، أو الاشتراكيّين الديمقراطيّين في أقسام المدرسة العليا "بسبب تعاطف خفيّ" مع هؤلاء" – كأنَّ مكافحة "التعاطف الخفي" بالإجراءات الحكومية أمر ممكن! في العام 1913م طالب مؤتمر الأرستقراطيا الموحدة (كما كانوا قد طالبوا في العام 1908م في الدوما الثالثة): بعدم استدعاء اليهود لتأدية الخدمة العسكريّة، وعدم قبولهم في الخدمة المدنيّة، والبلديّة، وأعضاء في مجالس إدارة المدن، ومنعهم من العمل في المحاماة.

في العام 1911م قدَّم بوريشكيفيتش الذي كان قد شارك بحماس في اصطياد ستوليبين، اقتراحاً إلى الدوما يقضي "بمنع اليهود منعاً باتاً من شغل أيٍّ وظيفة في أيِّ إدارة من إدارات الدولة ... لا سيما في الأقاليم الطرفية ... وتقديم كلّ يهودي يتبيَّن أنّه يسعى ليشغل أيَّ وظيفة في أيِّ إدارة من إدارات الدولة، إلى المحاكمة القضائية".

اليهود في إصلاحات رئيس الوزراء الروسي ستوليبين

إذن، لقد اتهم اليمينيون ستوليبين بمحاباة اليهود وتقديم تنازلات لهم. كان ستوليبين الذي دخل الحكومة في ربيع العام 1906م، مرغماً على القبول بالمرسوم الامبراطوريّ الذي صدر في تشرين الأول من العام 1905م، على الرَّغم من أنَّه كان يحتاج إلى تعديل. لكنْ، سواء كان الامبراطور قد تعجَّل في توقيعه قبل أن يدقّقه ويتمعَّن فيه، أم لا، لم تعد لمثل هذا الأمر الآن أيُّ أهمية، فقد غدا تطبيق المرسوم ملزماً، وأضحت إعادة النظر في بناء الدولة على أساس الصعوبات الناجمة عنه ضرورة، بصرف النظر عن تقلبات موقف الامبراطور نفسه. كان المرسوم يقضي بما لا يترك مجالاً للشك، بمساواة اليهود في الحقوق كلها مع سكان الدولة الآخرين.

غنيٌّ عن البيان القول: إنَّ القيود لم تبق مفروضة على اليهود في روسيا وحدها. ففي بولونيا التي كانت تُعدُّ حينئذٍ مع فنلندا مضطهدَتين، كانت القيود على اليهود تتجلّى أكثر حدة في طباع البولونيين. يكتب جابوتينسكي عن هذا فيقول: "إنَّ الاضطهاد الذي يُعاني منه اليهود في فنلندا لا تعرفه رومانيا ولا حتى روسيا ... فأوّل فنلندي يرى يهودياً خارج المدينة، من حقه أن يعتقله كمجرم ويسوقه إلى قسم الشرطة. كما يحرَّم على اليهود أن يعملوا هنا في العدد الأكبر من المهن. وتُحاط طقوس زواج اليهود في فنلندا بشكليات مخزية ومهينة ... بناء الكنس دونه صعوبات جمَة ... أمَّا الحقوق السياسيّة، فقد سُلبت من اليهود كلياً". في هاليسيا النمساوية، "يرى البولونيون في اليهود من الناحية السياسية مجرَّد مادّة يستغلونها صراحة لترسيخ سلطتهم على هذا الإقليم ... ثمّة حالات طُرد

فيها التلاميذ من المدرسة "بسبب صهيونيتهم"، كما يضيِّقون على المدارس اليهوديّة دائماً، ويُظهرون بغضاً للعاميّة اليهوديّة (الإيديش)، بل حتى الحزب الاشتراكي اليهودي "يحاصره ويلاحقه الاشتراكيّون الديمقراطيّون البولونيّون". حتى في الدولة النمساوية اشتدّ الكره تجاه اليهود، بقي هنا كثير من القيود الخاصّة المتقلّبة، كحقّ الاستشفاء في مياه كارلسباد المعدنية مثلاً: تارة كان يُمنع على اليهود الدخول إلى هناك، وتارة يُسمح لهم، لكنْ صيفاً فقط، أمّا في الشتاء فلم يُسمح لهم بدخول المكان إلاّ تحت مراقبة شديدة.

لكنّنا نستطيع وفق نظام القيود الذي كان معمولاً به في روسيا نفسها، أن نفهم فحوى شكوى الموسوعة اليهوديّة في ذلك الحين: "إنَّ وضع اليهود غير مستقر البتة، وهو يرتبط بتأويل، أو بمعنى أصحّ، بأهواء القيِّم على تنفيذ القانون كائناً من كان ... وينشأ الإبهام ... من صعوبة تماثل تأويل القوانين التي تفرض القيود وتطبيقها ... فكثير جداً من هذه القوانين أُلحقت به تعديلات وإضافات صادرة عن الإمبراطور نفسه، استناداً إلى تقارير الوزراء المختصّين ... وما يزيد الطين بلّة أنّها لم تُدرج في مجموعة القوانين"؛ "حتى وجود إذن خاصّ من السلطة المعنية لا يمنح اليهودي اليقين بأنَّ حقوقه مصونة"؛ "فرفْض الالتزام بمطالب ممثل السلطات الدنيا، ووشاية خصمه المجهول، أو الحرص العلني من قبل خصم أقوى على ترحيل اليهود، كاف تماماً ليُحكم على هؤلاء بالتشرُّد". أمّا ستوليبين، فقد أدرك تماماً مدى سخف هذا الوضع ومجافاته للعقل، ورأى أن الاتجاه العام للعصر في روسيا ماض بثبات نحو مساواة اليهود في الحقوق.

لقد كانت أعداد اليهود خارج إقليم الاستيطان اليهودي تتزايد عاماً بعد عام. فبعد العام 1903م فُتح أمام اليهود 101 مركزاً سكانياً جديداً للإقامة وممارسة النشاطات الاقتصادية، كما رأينا، ثمَّ أضاف إليها ستوليبين كثيراً من المراكز السكانيّة الأخرى، أي أنّه أخذ بمعيار لم يعتمده القيصر في العام 1906م، ورفضته الدوما في العام 1907م. وقد أشارت الموسوعة اليهوديّة الصادرة

قبل الثورة إلى أنَّ عدد هذه المراكز السكّانية الجديدة بلغ في العامين 1910 - 1912م مئتين وواحداً وتسعين مركزاً، لكنَّ الموسوعة الحديثة تورد الرقم 299 مركزاً في العام 1911م.

وتذكّرنا الموسوعة القديمة بأنَّ "الإدارات [إدارات المؤسسات التعليميّة] والمجالس تجاهلت المعايير النسبية لقبول الطلبة فيها على مدى ثلاث سنوات متتالية"، ابتداء من صيف العام 1905م بفعل استمرار الأحداث الثورية. وابتداء من شهر آب للعام 1909م، زيد المعيار النسبيّ لقبول الطلبة اليهود في المؤسسات التعليميّة العليا والمتوسطة (أصبح على النحو الآتي: في المدن الرئيسة 5%، خارج إقليم الاستيطان اليهودي 10%، داخل إقليم الاستيطان 15%) —شريطة الالتزام بهذا المعيار الجديد. لكنْ بما أنَّ الطلبة اليهود كانوا يشكلون في العام 1909م 11% من عدد الطلبة في جامعة بطرسبورغ، و24% في جامعة نوفوروسيا، فقد عُدَّ هذا المعيار الجديد قيداً جديداً فُرض على اليهود. بيد أنَّ القيد الجديد بالمعنى المباشر للكلمة، فُرض في العام 1911م: لقد انسحب المعيار النسبيّ على الطلاب الخارجيّين أيضاً، أي الذين يقيمون خارج إقليم الاستيطان (انسحب على الطلاب فقط ولم ينسحب على الطالبات؛ ففي مدراس الطالبات، خارج إقليم الاستيطان، بلغت النسبة الفعلية للطالبات اليهوديات في العام 1911م 13.5%). أمّا في المؤسسات التعليمية الفنية، والتجارية، والتقنية، والمهنية، فلم يكن ثمة قيد على قبول اليهود. "فضلاً عن المؤسسات التعليمية العليا والوسطى، اندفع اليهود نحو التعليم الابتدائي" الذي كانوا يهملونه قبل ذلك. فإذا كانت "نسبة اليهود في المدارس الابتدائية سواء في المدن أو الضواحي، لم تتجاوز 2% في العام 1883م، فقد ارتفعت في العام 1898م إلى 12% بين الذكور و17% بين الإناث. فضلاً عن ذلك، "كان الشباب اليهوديّ يملأ المؤسسات التعليميّة الخاصّة"، ففي العام 1912م كان يدرس في المعهد التجاري في كييف مثلاً، 1875 طالباً يهودياً، "وآلاف" الطلبة في معهد الأمراض النفسية والعصبية. منذ العام 1914م، بات من

حق كلِ مؤسسة تعليمية خاصة أن تعتمد اللغة التي تشاء لغة تدريسية. والحقيقة أن العصر برمَّته كان يسير نحو التعليم الإلزامي.

لقد كانت المهمة الرئيسة أمام ستوليبين هي الإصلاح الزراعي، وإنشاء قاعدة راسخة للملكيّة الزراعيّة الفلاحيّة. كان ظهيره في هذا العمل، وزير الزراعة أ. ف. كريفوشين، الذي كان بدوره من مؤيدي إلغاء إقليم الاستيطان اليهوديّ، يلحُ في الوقت نفسه على ضرورة الحدِّ "من حقوق الشركات المساهمة المغفلة" في شراء الأراضي، فعبرها كانت تنشأ شركات "الملكيّات الزراعية اليهوديّة الكبيرة"؛ علاوة على هذا، "كان يمكن أن يُفضي تغلغل الرأسمال اليهوديّ إلى الأرياف والمضاربة فيها، إلى خلق عقبات جديّة أمام نجاح الإصلاح الزراعيّ واستقراره" (في الوقت نفسه كان كريفوشين يخشى ظهور العداء للساميّة في فيليكوروسيا التي لم تكن تعرفه حتى ذلك الوقت). لم يكن باستطاعة ستوليبين وكريفوشين أن يسمحا بأن يبقى الفلاحون من غير ملكيّة زراعية. ففي العام 1906م صدرت تعليمات تحرِّم على المستعمرات الزراعية الفلاحية أن تمتلك أيَّ مساحات من أراضي الدولة التي باتت الآن مخصّصة لتوزيعها للفلاحين.

وكان الاقتصادي المعروف م. برناتسكي قد ساق المعطيات الآتية عن زمن ما قبل الثورة: يعمل من اليهود في الزراعة 2%4.، في المهن الحرَّة 4%7.، في الخدمات الخاصّة 11%5.، في التجارة 31% (يُشكل اليهود 35% من مجمل طبقة التجار في روسيا)، في الصناعة 36%. ويعيش في أرياف إقليم الاستيطان اليهودي 18% من مجموع السكان اليهود في روسيا. فإذا قارنّا هذا الرقم الأخير مع 2%4. ، سنرى أنَّ العمل الزراعي لم ينمُ حتى هذه السنوات في أوساط اليهود الريفيّين، بينما يرى برناتسكي أنَّ "الاهتمام الروسيّ كان ينصبُّ على أن يجد العمل اليهوديّ والموارد اليهوديّة أفضل بيئة استثمارية لهما في كل مكان"، وأنَّ كلَّ قيد يُفرض على اليهود يُعدُّ "تبديداً كبيراً للقوى المنتجة في البلاد". وأشار

إلى أنَّ اتحاد أصحاب المعامل والمصانع في منطقة موسكو الصناعيّة، بذل في العام 1912م مساع لدى رئيس مجلس الوزراء كي لا توضع أمام اليهود عقبات تعوق دورهم كحلقة وصل بين مراكز الإنتاج الصناعيّ الروسي. فتحوَّل ب. أ. كامينكا رئيس مجلس إدارة بنك آزوف - الدون ومديره، إلى إقراض فروع صناعة التعدين واستخراج الفحم، وغطّى نشاط إحدى عشرة شركة كبيرة في منطقتيْ دونيتسك والأورال. لم تُفرض أيُّ مضايقات على مساهمة اليهود في الشركات المساهمة، أمَّا "تقليص حقوق الشركات المساهمة في امتلاك الأراضي، فقد أثار موجة سخط عاصفة في مختلف أوساط الدوائر المالية والصناعية". وما لبث هذا القيد المعوجُّ أن أُلغي.

في هذا السياق لجأ ف. شولغين إلى المقارنة التعبيرية فقال: إنَّ "القدرة الروسيّة كانت كقدرة الأطفال أمام هجوم اليهوديّة الكاسح. لقد كانت القوة الروسيّة تذكّرنا بفيضان نهر هادئ: اتساعه اللامتناهي يبعث على النعاس؛ فيه كثير من المياه، بيد أنَّها راكدة لا تتحرك. هذا النهر أدنى بعشرة فراسخ، تضيِّقه سدود خشنة، فتحوِله إلى سيل جامح يخرج زبداً بارداً يدور في عنفات المحيط".

كما نسمع ما يشبه هذا من جهة الليبرالية الاقتصادية: "روسيا فقيرة جداً إلى العمالة العالية الكفاءة ... تبدو كما لو كانت تسعى إلى مضاعفة جهلها وتخلفها الذهني مقارنة بالغرب". فمنع اليهود من الوصول إلى مفاتيح الإنتاج، "يُفضي إلى عطالة القوى المنتجة عن سابق قصد".

كان ستوليبين يفهم جيداً أنَّ هذا تبديد للإمكانيات والموارد. بيد أنَّ مستوى تطوُّر فروع اقتصاد البلاد كان متبايناً جداً. لذلك شبَّه القيود التي تُفرض على اليهود، برسوم الحماية الجمركية: لا يمكن أن تكون إلاَّ مؤقتة، إلى أن يقوى الروس في ميدان الحياة الاجتماعيّة والاقتصاد، وهي على وجه العموم تخلق للروس مناخاً زجاجياً فاسداً. أخيراً (بعد هذه العقود كلّها!)، شرعت الحكومة

تحقق سياسة النهوض بالفلاح التي كان يمكن أن تعني بلوغ مساواة حقيقيّة من حيث مغزاها، بين الفئات والأعراق؛ مثل هذا النهوض، هو الذي كان يمكن أن يُزيل خشية الروس من اليهود، ويضع حداً نهائياً لفرض القيود على مجمل ميادين حياتهم.

لقد اقترح ستوليبين استخدام الرأسمال اليهودي للنهوض بالاقتصاد الروسي: القبول بشركاتهم ومصانعهم المساهمة على كثرتها، والإبقاء على امتيازاتهم، ومنحهم فرصة استغلال الموارد الطبيعية في روسيا. كان ستوليبين يُدرك في غضون ذلك، أنَّ المصارف الخاصّة بديناميتها وجبروتها وقلّة عددها وعلاقاتها الوثيقة، غالباً ما كانت تؤثر الاتفاق على التنافس. لكنّه كان يعوِل على أن يخلق حالة من التوازن عن طريق "تأميم القروض"، بتطوير وظائف مصرف الدولة المركزي، وتأسيس صندوق لمساعدة الفلاحين النشطين الذين لا يستطيعون الحصول على قرض عن طريق أخرى.

كما كان ستوليبين يعوِّل على أنَّ مساواة اليهود في الحقوق، ستفصل من حيث جوهر الأمر، بين الأحزاب اليهوديّة غير الثوريّة، وأحزابهم الثوريةَ (من بين حججه الأخرى، أنَّ تقليص الحقوق يشيع في الممارسة اليوميّة انتشار الرشاوى والفساد في المؤسسات الحكوميّة).

لقد كان ذلك الفريق من يهود روسيا، الذين ينظرون إلى جوهر الأشياء بتعقُل ومن غير سخط، يرون أنّه بصرف النظر عن استمرار القيود، وعلى الرَّغم من ارتفاع حدّة الهجمات (العاجزة) ضدَّ اليهود في أوساط الرأي العام اليميني، إلاَّ أنَّ تطوُّر الأشياء قبل عصر الثورة، كان يتقدَّم يوماً بعد يوم نحو الأفضل بالنسبة إلى اليهود، ليصل في آخر المطاف لحظة نيلهم حقوق المساواة.

بعد سنوات معدودة كان اثنان من اليهود البارزين الذين قذفت بهم الثورة العظمى على دروب الهجرة، يتأملان في أحوال روسيا قبل الثورة: يوسف

ميناسيفيتش بيكرمن، الذي كان قد عانى معاناة شديدة قبل أن يتخلّص من الفقر عبر نيل شهادة تعليميّة عالية. لم ينل بيكرمن شهادة الدراسة الثانوية إلاّ في سنّ الثلاثين، في الخامسة والثلاثين أنهى تعليمه الجامعيّ، وكانت له مساهمة نشطة في حركة التحرر بصفته خصماً لدوداً للصهيونيّة التي كان يرى فيها فكرة وهميّة. في سنّ الخامسة والخمسين كتب يوسف يقول: "على الرّغم من قانون أيار وسواه من القوانين الأخرى، وعلى الرّغم من إقليم الاستيطان والمعيار النسبيّ، ومن مجزرتي كيشينيوف وبيلوستوك، إلاّ أنّني كنت أشعر بأنّي إنسان حرٌّ أمامه أُفق رحب للعمل في مختلف ميادين العمل الإنساني، إنسان يمكنه أن يجني المال ويغدو ثرياً على المستويين الماديّ والروحيّ، إنسان يناضل من أجل حاضره ويخزن قواه لمواصلة النضال. فالقيود كانت تتآكل على أيِّ حال، إنْ بفعل الزمن، أو تحت ضغوطنا المتواصلة، في أثناء الحرب دُقّ آخر مسمار في نعش حرماننا من حقوقنا. كان ينبغي أن تمضي خمس سنوات أخرى، أو خمسة عشر عاماً، لكي ينال اليهود المساواة في الحقوق أمام القانون: لقد كان يمكننا أن ننتظر".

كان اليهوديُ البارز الثاني هو دانييل صموليفيتش باسمانيك، من أتراب بيكرمن، لكنّ قناعاته وتجربته في الحياة مختلفة تماماً، فهو طبيب صهيوني غيور عنيد (عمل لبعض الوقت استاذاً مساعداً في كليّة الطبّ في جنيف)، وكاتب اجتماعي موهوب، وشخصيّة اجتماعيّة نشطة. لقد كتب هذا في تلك السنوات نفسها، من بلد المهجر نفسه يقول: "في عهد النظام القيصري كانت حياة اليهود أفضل بكثير، مهما قيل في هذا المجال، إلاّ أنّ حالة اليهود الماديّة والروحيّة كانت قبيل الحرب العظمى أكثر بهاء وروعة. صحيح أنّنا كنّا عندئذٍ محرومين من حقوقنا السياسيّة، بيد أنّنا كنّا نستطيع أن نطوِّر في ميدان بنائنا القومي - الروحي عملاً في غاية الحيويّة، كما كانت حالة الفقر التقليديّة التي يعيشها اليهود في طريقها إلى الزوال بخطى متسارعة". "كان الفقر الاقتصاديّ

التقليديّ الذي تعاني منه جماهيرنا الشعبيّة يتراجع يوماً بعد يوم ليحلّ محلّه مستوى من الثراء والكفاية الماديّة، على الرَّغم من القرار العبثي الذي قضى بطرد عشرات آلاف اليهود من منطقة الشريط الحدوديّ. لقد أظهرت إحصاءات دخل شركات التمويل ... أنَّ مؤشرات النمو الاقتصادي الأفضل بالنسبة إلى اليهوديّة الروسيّة، تقع في السنوات العشر التي سبقت الانقلاب. المقياس عينه ينسحب على الميدان الثقافي. فعلى الرَّغم من النظام البوليسي القيصري – كان في الواقع مملكة الحريّة المطلقة أذا قارنّا بينه وبين نظام لجنة البلاشفة الاستثنائية الحالي - إلاّ أنَّ المؤسسات الثقافيّة اليهوديّة، بأجناسها وأنواعها كلها، كانت تزدهر. لقد كانت المؤسسات تتوطّد وتقوى، والعمل الإبداعي يزدهر، والآفاق امتدت رحبة".

خلال قرن ونيِّف قضته اليهوديّة في ظلِّ التاج الروسيّ، تزايدت أعداد السكّان اليهود في الامبراطورية من 820 ألفاً (بمن فيهم يهود المملكة البولونية)، إلى أكثر من خمسة ملايين نسمة، وأعطت اليهوديّة فضلاً عن ذلك، أكثر من مليون ونصف المليون مهاجر، أي أنَّ معدل النمو السكاني ارتفع ثمانية أضعاف بين العام 1800 حتى العام 1914م. كما بلغ معدل الزيادة خلال التسعين عاماً الأخيرة $3\frac{1}{2}$ الضعف (من $1\frac{1}{2}$ مليون إلى $5\frac{1}{4}$ المليون)، بينما لم يرتفع عدد سكان الإمبراطورية كلها خلال السنين نفسها (مع امتلاك أقاليم جديدة)، إلاّ بمعدل $2\frac{1}{2}$ الضعف.

بيد أنَّ القيود كانت لا تزال مفروضة على اليهود في تلك الآونة، تغذي الدعاية المعاديّة لروسيا في الولايات المتحدة. فظنَّ ستوليبين أن وضْع حدٍّ لها أمر ممكن بشرح حقيقة الموقف، ودعوة وفد من الكونغرس ومراسلي الصحف لزيارة روسيا. لكنْ، مع حلول خريف العام 1911م، تفاقمت حدّة الموقف، وصلت حدَّ إلغاء اتفاقيّة التبادل التجاري بين روسيا وأميركا التي كان مضى على توقيعها ثمانون عاماً. فلم يكن ستوليبين يعرف بعد ما الذي يعنيه الخطاب الناري

الذي ألقاه صانع السلام المقبل ويلسون، ولا ما الذي تعنيه وحدة الكونغرس الأميركي. غير أنَّه لم يعش حتى يشهد إلغاء ذلك الاتفاق.

في أيلول من العام 1911م، قُتل ستوليبين، وكان هذا الرجل قد ترك بصمته على العقد الأخير الذي سبق قيام الثورة مباشرة، ففي ربيع هذا العام نفسه، ناله حقد جناح حزب الكاديت واليمين المتطرّف، صبَّ مشرِّعو هذين الجناحين جام غضبهم عليه بسبب قانون المجالس المحليّة في الشطر الغربيّ من روسيا. لقد راح رئيس وزراء روسيا ضحيّة طرحه مهمة منح اليهود المساواة في الحقوق، على الضدِّ من رغبة القيصر، وطبَّقها، كان قاتله يهوديّاً، فهل هي سخرية التاريخ؟ إنَّه قدر الاعتدال!

لقد حاولوا قتل ستوليبين قبل ذلك سبع مرات، شاركت في تلك المحاولات جماعات ثوريّة مختلفة، لكنَّها فشلت. أمَّا في هذه المرة، فكان القاتل فرداً واحداً نجح في مهمته نجاحاً باهراً. كان بوغروف لا يزال فتى في مقتبل العمر، لم يكن باستطاعته أن يُدرك أهمية ستوليبين كرجل دولة. لكنَّه منذ طفولته رأى بأُمِّ عينه، الجوانب المذلة للحرمان من الحقوق السياسية، كان معبَّأً من عائلته ومحيطه بكره السلطة القيصريّة التي كان هو نفسه يبغضها أصلاً. من الواضح أنَّ تلك الأوساط اليهوديّة الكييفيّة التي كان يُظنُّ أنَّها متقلِّبة في قناعاتها الأيديولوجيّة، لم تتسامح مع ستوليبين، لم تخفّف من غلواء عداوتها له بسبب سعيه إلى رفع القيود المفروضة على اليهود، أمَّا الأكثر ثباتاً، فقد ظهر في بعض أوساطهم من يتذكر دوره الفعال في قمع ثورة العام 1905 -1906م، وأثار سخطه سعيه المحموم "لتأميم الائتمان المالي الروسي" ومنافسته العلنيّة للرأسمال الخاص. في دوائر اليهوديّة الكييفيّة (والبطرسبورجيّة أيضاً، إلى حيث كان يتردّد القاتل)، كان النفوذ الطاغي للطيف الراديكالي الذي رأى الشاب بوغروف نفسه فيه، وعدَّ أنَّ من حقه، بل من واجبه أن يقتل ستوليبين.

كم كان ذلك الطيف قويّاً حتى حقق مثل هذا التشكيل المركّب: الرأسمالي بوغروف الأب علت مكانته، ينعم برغد العيش في ظلّ هذا النظام الحاكم، بوغروف الابن ينخرط في تدمير هذا النظام عينه، بعد الاغتيال مباشرة يعبّر الأب صراحة عن فخره واعتزازه بمثل هذا الابن. ثمّ تبيّن فيما بعد، أنّ بوغروف لم يكن وحده البتة: لقد صفقوا له في أوساط الأثرياء الذين كانوا قبل ذلك مخلصين للنظام القائم الإخلاص كله.

إنّ تلك الطلقة التي وضعت حداً لعمليّة تعافي روسيا، كان يمكن أن تُطلق على القيصر نفسه. لكنّ بوغروف رأى أنّ قتل القيصر سيكون خطأً فادحاً: لأنّ ذلك (على حدّ قوله هو نفسه)، كان "يمكن أن يتسبب بملاحقات ضدّ اليهود"، "ويستدعي مزيداً من الضغوط عليهم وتقليص حقوقهم". أمّا مقتل رئيس الوزراء فقط، فرأى أنّه لا يجرُّ وراءه هذا كله. كان تقديره صحيحاً. غير أنّه رأى، وكان ذلك خطأً مريراً، أنّ مقتل ستوليبين سينعكس إيجاباً على مستقبل يهود روسيا.

ها هو م. مينشيكوف ذاك نفسه الذي اتهم ستوليبين من قبل بالتنازل أمام اليهود، يرثيه الآن بحزن: لقد قتلوا رجل دولتنا العظيم، أفضل رجال دولتنا على مدى قرن ونصف القرن! القاتل يهودي؟ ولم يخف فعلته؟ كيف تجرّأ هذا على أن يطلق النار على رئيس وزراء روسيا؟ "إنّ طلقة كييف الغادرة يجب أن تكون إنذاراً للنفير، لنفير كبير... نحن لا نطلب الانتقام، لكنّ الردع بات ضرورة". فما الذي حصل في تلك الأيام في كييف "الغادرة" التي يقطن فيها كثير من اليهود؟ في الساعات الأولى التي أعقبت الاغتيال، عمّ الذعر أوساط يهود كييف، بدأت حركة نزوح من المدينة. بل "سيطر الفزع على السكّان اليهود في غير كييف أيضاً، فطال أقصى مناطق إقليم الاستيطان اليهوديّ ومقاطعات روسيا الداخليّة". فعزم نادي القوميين الروس على جمع تواقيع تطالب بترحيل اليهود من كييف (عزم لكنّه لم يجمع). لم تقع أيُّ محاولة لإشعال أعمال عنف. حينما دعا

غالكين رئيس منظمة شباب "الصقر ذي الرأسين"، إلى تدمير قسم الشرطة في كييف لأنَّه أغفل جريمة القتل، ثمَّ مهاجمة اليهود، ردعوه في الحال. فور توليه مقاليد منصب رئيس الوزراء استدعى كوكوفتسوف على وجه السرعة، وحدات القوزاق إلى المدينة (لأنَّ القوات كانت تجري مناورات خارج المدينة)، وأرسل برقية إلى حكام المقاطعات أمرهم باتخاذ كل التدابير، بما في ذلك استخدام السلاح لتفادي وقوع أعمال العنف. استدعيت القوات العسكرية بأحجام لم تُستدع حتى ضدَّ الثورة (على حدِّ قول سليوزبيرغ: لو اشتعلت أعمال العنف في أيلول عام 1911م "لغدت كييف شاهدة على مذبحة لم تكن أقلَّ فظاعة من تلك التي وقعت في عهد خميلنيتسكي").

لم تقع أعمال العنف في أيِّ مكان من روسيا (مع أنَّنا نقرأ في غالب الأحيان أنَّ السلطة القيصرية كانت تسعى دائماً، وتحلم دائماً، بتدبير مجازر ضدَّ اليهود).

من المعروف أنَّ تفادي وقوع أعمال الشغب يقع في صلب واجبات الحكومة، فإذا أدتها بنجاح، تستحقُّ المديح عندئذٍ. لكنْ، عندما تقع جريمة مروعة بمستوى اغتيال رئيس الوزراء، يغدو تفادي وقوع أعمال عنف ومجازر عملاً يستحقُّ الذكر، حتى لو بشكل غير مباشر. بيد أنَّ هذا لم يحصل البتة، بل لم يُشر إليه أحد. وما يصعب علينا أن نصدِّقه، هو أنَّ الطائفة اليهوديّة في كييف لم تعلن إدانتها للجريمة، ولا حتى أسفها لما حصل. بل على العكس: بعد إعدام بوغروف، ارتدى كثير من الطلبة اليهود ثياب الحداد حزناً عليه. وقد لاحظ الروس هذا عندئذٍ. ونشروا اليوم أنَّ ف. روزانوف كتب يقول في العام 1912م: "بعد [مقتل] ستوليبين أحسست بأنَّ كل ما لديَّ نحوهم [نحو اليهود] انقطع: هل كان أيُّ روسي ليجرؤ على أن يقتل روتشلد، أو أيَّ شخصية أخرى من شخصياتهم البارزة؟".

لدى إلقاء نظرة تاريخية على ما حدث، ترد إلى الذهن فكرتان مهمتان: كان من الخطأ أن يُعزى ما فعله بوغروف إلى "القوى الأمميّة". الفكرة الأولى والرئيسة: لم يكن الأمر على هذا النحو أبداً. فقد نوَّه شقيقه في كتابه، كذلك فعلت مصادر أخرى محايدة، إلى أنَّ بوغروف وضع نصب عينيه خدمة مستقبل اليهود. أمَّا الفكرة الثانية فهي: أنَّ تناول ما هو محرِج في التاريخ والتفكُّر فيه، ودراسته والتعبير عن الأسى تجاهه، هو موقف مسؤول، أمَّا التنصُّل منه، فهو موقف صغير بائس.

كان التنصُّل مما فعله بوغروف قد بدأ بعد الجريمة مباشرة. ففي تشرين الأول من العام 1911م طرح الأُكتوبريون على الدوما استجواباً حول الإبهام المحيط بمقتل ستوليبين. في اللحظة عينها احتجَّ عضو الدوما نيسيلوفيتش: لماذا لم يخف الأُكتوبريون في استجوابهم أنَّ قاتل ستوليبين يهودي؟ وأردف قائلاً: إنَّ موقفهم هذا معاد للساميّة!

وها أنا أتعرَّف اليوم على هذه الحجّة الفريدة. فبعد سبعين عاماً تلقيتها من اليهوديّة الأميركية في صيغة اتهام موجع: لماذا لم أُخفِ؟ لماذا أعلنتُ أنَّ قاتل ستوليبين كان يهودياً؟ ألم أصفه بقدر ما استطعت من الدقة؟ ألم آخذ بعين الحسبان أنَّ يهوديته كانت حاضرة في صلب دوافعه؟ لا، ليس خافياً أنَّ موقفي هذا يندرج في سياق العداء للساميّة!!

كان غوتشكوف قد أجاب على هذا عندئذٍ إجابة جديرة: "أظنُّ أنَّ قدراً كبيراً من العداء للساميّة يكمن في فعلة بوغروف نفسها. أنا أقترح على عضو مجلس دوما الدولة نيسيلوفيتش أن يتوجَّه بخطابه الحماسي إلى أبناء دينه، وليس لنا نحن. فليقنعهم بفصاحته المعهودة بأن يبتعدوا قدر ما يستطيعون عن هاتين المهنتين الشائنتيْن: التجسّس لصالح الشرطة، والعمل كقتلة لدى الإرهاب. لو نجح في ذلك، لقدَّم خدمة جليلة لأبناء قبيلته".

لكنَّ التاريخ الروسيّ مثله كمثل الذاكرة اليهوديّة، أباحا إسقاط تلك الجريمة من الذاكرة، فبقيت حدثاً عرَضياً، لطخة هامشية يصعب الحديث عنها. وأنا لم أبدأ بطرح هذه المسألة على بساط البحث وإخراجها من غياهب النسيان، إلاّ في ثمانينات القرن الماضي، وكانت قد بقيت على مدى سبعين عاماً خلت، بعيدة عن دائرة الذاكرة التاريخيّة. ها هي العقود تمضي، ومزيد من الأحداث يقع أمام أعيننا.

وأنا كنت قد تأمَّلت غير مرّة في تقلُبات التاريخ وأهوائه: في عجزنا عن استشراف النتائج التي يمكن أن تترتَّب عن أفعالنا. فقد سمحت ألمانيا ويلهلم بمرور لينين عبرها ليفتت روسيا، بعد 28 عاماً جاءها الردُّ بتقسيم ألمانيا نفسها، طول نصف قرن. في العام 1919م ساعدت بولونيا البلاشفة على توطيد مواقعهم في مواجهة المقاتلين البيض، والتعجيل في هزيمتهم، فنالت ما نالته في الأعوام 1939 و1944 و1956 و1980. كما كانت فنلندا مجدَّة جداً في دعم الثوريّين الروس، فكم عانت، ولم تستطع أن تُطيق امتياز حريّتها داخل الإمبراطورية الروسيّة، فنالها من البلاشفة ذلٌّ سياسي طال زمنه أربعين عاماً. في العام 1914م، عزمت إنكلترا على إضعاف ألمانيا التي كانت المنافس الكوني لها، لكنَّ النتيجة كانت خروجها هي من عداد الدول العظمى، بل أوروبا كلها باتت ضعيفة. في العام 1917م، اتخذ القوزاق في بتروغراد موقف الحياد حيال ما وقع هناك في شهر شباط، ثمَّ في شهر تشرين الأول، بعد عام ونصف العام، وقعت مذبحتهم الجماعية. في أيام تموز الأولى من العام 1917م، مدَ الاشتراكيّون الثوريّون يدهم للبلاشفة، فمنحوهم مظهر "التحالف" واتساع القاعدة الشعبية، بعد عام واحد انقسموا على أنفسهم انقساماً كان النظام القيصري نفسه عاجزاً عن إحداثه في صفوفهم. إنّنا لم نوهب نعمة استشراف التداعيات البعيدة المدى. وخلاصنا الوحيد من مثل هذه السقطات، هو الاسترشاد ببوصلة القيم الأخلاقيّة الإلهيّة، أو كما تقول العامة: "لا تحفر حفرة للآخر، لأنّك ستقع فيها". على هذا النحو عانت

روسيا كلها من مقتل ستوليبين، ولم يقدِّم بوغروف أيَّ مساعدة لليهود. لكلٍّ رأيه في هذا من غير شك، بيد أنَّني أشعر أنا شخصياً في هذا، بوقع خطوات التاريخ العملاقة، بنتائجها المذهلة غير المنتظرة. فبوغروف قتل ستوليبين ليحمي يهود كييف من المضايقات. وكان القيصر على وشك أن يقيل ستوليبين على أيٍّ حال، لكنَّه كان حتماً سيدعوه من جديد، في ظلِّ افتقاره لوجود شخصيات مؤهلة للحكم في الأعوام 1914 -1916م، ولما كنَّا قد انتهينا إلى تلك الخاتمة المشينة، لا في الحرب، ولا في الثورة (لو كنَّا دخلنا تلك الحرب في عهده).

الخطوة الأولى: كانت نتيجة مقتل ستوليبين، هي أنَّنا فقدنا السيطرة على أعصابنا في الحرب، ووقعت روسيا تحت الجزمة البلشفيّة.

الخطوة الثانية: على الرَّغم من ضراوة البلاشفة، إلاَّ أنَّهم أظهروا كفاءة لم ترق إلى مستوى كفاءة الحكومة القيصريّة، على الرَّغم من عجز هذه الأخيرة؛ فبعد ربع قرن سلَّموا الألمان نصف روسيا بما فيها كييف.

الخطوة الثالثة: لقد عبر الهتلريون كييف بسهولة، وأبادوا اليهوديّة فيها. إنَّها كييف نفسها، وأيلول نفسه، لكنْ بعد ثلاثين عاماً من رصاصة بوغروف.

قضيّة بيليس وطابعها الطقوسيّ

في كييف هذه نفسها، وفي العام 1911م نفسه، قبل نصف عام من مقتل ستوليبين، كان قد أُعدَّ لقضيّة بيليس. ثمة أسس وازنة للظنِّ بأنَّ ذلك العار لم يكن ليلحق بالقضاء لو كان ستوليبين على رأس الحكومة. فالمعروف مثلاً أنَّ ستوليبين، بينما كان يراجع أرشيف إدارة الشرطة، وقع على مذكّرة تحت عنوان "لغز اليهوديّة" (هي السلف المباشر "للبروتوكولات")، يجري الحديث فيها عن المؤامرة الكونيّة التي يدبِّرها اليهود. فاتخذ القرار الآتي: "قد يكون هذا منطقياً، إلاَّ أنَّ فيه تحاملاً ... فأُسلوب المقاومة غير مقبول البتة بالنسبة إلى الحكومة". نتيجة لذلك "لم تعترف الحكومة القيصريّة في أيِّ يوم من الأيام ''بالبروتوكولات'' منطلقاً للأيديولوجيا الرسميّة".

أمَّا قضية بيليس، فقد كتبت فيها آلاف الصفحات. ومن يريد أن يتوغل اليوم في تفاصيل التحقيقات والحملات الاجتماعيّة والمحاكمات التي جرت، عليه أن يقضي، من غير مبالغة، أكثر من عام. لكنَّ هذا خارج عن موضوع كتابنا. فبعد عشرين عاماً من تلك الأحداث، أي في الزمن السوفييتي، نُشرت التقارير اليومية التي كان يرفعها موظفو الشرطة إلى إدارتهم عن مجرى القضية، وإذا كان القارئ مهتماً، فأنا أنصحه بالرجوع إليها. فمن البديهي أنَّ سجلاً كاملاً للقضيّة كان قد دوِّن بطريقة الاختزال ونُشر، إضافة إلى تقارير خمسين من الصحفيين الذين كانوا يتابعون مجرى القضية.

لقد بدأت القضية بمقتل الفتى أندريه يوشينسكي الذي كان تلميذاً في ابتدائية صوفيا الروحيّة في كييف، لم يكن له من العمر سوى اثني عشر عاماً.

وقد قُتل بطريقة وحشية مبتكرة: طُعن جسده سبعة وأربعين طعنة، كان واضحاً أنَّ المجرم على معرفة تامة بتشريح جسم الإنسان، فالطعنات وُجهت إلى: الوريد الدماغي، أوردة العنق والشرياني السباتي، الكبد، الكليتين، الرئتين والقلب، أي أنَّ الغرض منها كان سحب دماء الضحية حياً وهو في وضعية الوقوف، الأمر الذي دلّت عليه آثار خطوط الدم (لا شكَّ في أنَّ الضحية قُيِّد وأُغلق فمه). كان واضحاً أنَّ من ارتكب تلك الجريمة كان قاتلاً يمتلك مهارات فائقة، ولم يكن وحده بالتأكيد. بعد أسبوع على ارتكاب الجريمة، اكتُشفت جثة الضحية في كهف داخل حدود معمل زايتسيف. لكنَّ الكهف لم يكن المكان الذي ارتُكبت فيه الجريمة.

لم تشر التحقيقات الأوليّة إلى وجود دافع طقوسي ديني وراء الجريمة، إلاَّ أنَّ هذا الدافع ما لبث أن ظهر، كما ظهر أيضاً عامل التزامن، فالجريمة تزامنت مع حلول الفصح اليهودي، وزعموا كذلك أنَّها تزامنت مع وضع حجر الأساس لبناء كنيس جديد على أرض معمل زايتسيف (وهو يهودي). بعد أربعة أشهر على الجريمة، أُلقي القبض من غير أدلّة قاطعة، بل وفق فرضية الاتهام هذه، على مناحيم ميندل بيليس الذي كان في السابعة والثلاثين من العمر، ويعمل في معمل زايتسيف. فكيف حدث ذلك؟

لقد تسلّم التحقيق في جريمة قتل الفتى يوشينسكي، قسم البحث الجنائي في كييف، ومن حيث المعايير كلها كان القسم على السوية نفسها مع قسم الشرطة في كييف الذي ضلَّ عن بوغروف وتسبب بهلاك ستوليبين. استمرت التحقيقات أشهراً طويلة تحت إشراف اثنين على شاكلة النقيب كوليابكو "وصيّ" بوغروف، وهما اثنان من الموظفين النكرات – ميشوك وكراسوفسكي، ومعهما مساعدون ثانويون على درجة عالية من الغباء (لقد نظّف الحراس الكهف الذي عُثر فيه على جثة يوشينسكي من الثلج المتراكم فيه، كي يتمكّن رئيس القسم البدين من الدخول إلى هناك، فمحوا بذلك كلَّ

أثر كان يمكن أن يشير إلى هوية المجرمين). لكنَّ الأسوأ من هذا كلّه، أنَّ منافسة دارت بين هؤلاء المخبرين على من منهم سيتميَّز في الكشف عن المجرم، فرضيّة من منهم الأصحّ؟ - لم يتردّد واحدهم في العمل على إفشال تحرُّكات منافسه، وتضليل مراقبته، وتخويف الشهود، بل كان بعضهم يعتقل جواسيس بعض، أمَّا كراسوفسكي، فقد كان يضع للمشتبه به مكياجاً قبل أن يواجه به الشاهد. لقد تعاملوا مع "التحقيق" كأيِّ تحقيق عاديّ، لم يدركوا أبعاد الحدث الذي تورَّطوا فيه. بعد عامين ونصف العام، عندما بدأت المحاكمة أخيراً، تخفّى ميشوك في فنلندا بعد أن اتُّهم بتزييف القرائن المادّية، كما توارى كراسوفسكي من وجه المحكمة، بعد أن خسر منصبه بدَّل موقفه، وعمل مساعداً لدى محامي بيليس.

لقد تقاذفت الروايات الكاذبة التحقيق على مدى عامين، وحامت التهمة طويلاً حول أقارب القتيل، لكنَّ براءتهم ثبتت يقيناً. إذْ بات واضحاً أنَّ الادِّعاء عزم على توجيه الاتهام شكليّاً إلى بيليس ومحاكمته. فاتهموه بناء على أدلّة مشكوك فيها، اتهموه لأنَّه يهوديّ. لكنْ كيف كان يمكن أن تُرفع مثل هذه الدعوى في القرن العشرين من غير اتهام يستند إلى أدلّة، بينما هي تهدّد مصير شعب كامل؟ لقد تجاوزت القضية الآن مصير بيليس شخصياً، تحوّلت إلى اتهام ضدَّ اليهوديّة على وجه العموم، ومن تلك اللحظة أخذ الموقف من التحقيق، ثمَّ من المحاكمة، يكتسب بُعداً دولياً، بُعداً على مستوى أوروبا كلها، وأميركا كذلك (في روسيا ظهرت الدعاوى الشعائرية السابقة في غالب الأحيان على أساس المعطى الكاثوليكي: في غرودنو -1816م، في فيليج -1825م، في فيلنوس دعوى بلونديس -1900م؛ دعوى كوتايلي في جورجيا عام 1878م، دعوى دوبوسارس في مولدافيا عام 1903م، وفي فيليكوروسيا نفسها دعوى ساراتوف في العام 1856م. ولم يغفل سليوزبيرغ الإشارة إلى أنَّ دعوى ساراتوف كان منشؤها كاثوليكي أيضاً، أمَّا دعوى بيليس ففيها: مجموعة من المتهمين

اللصوص – لقد اعتمد البولونيّون كاثوليكيّاً خبيراً في الاتهامات الشعائرية، كما كان المدعي العام تشالينسكي بولونياً بدوره).

بسبب ضعف الأدلّة اعتُمد قرار الاتهام في محكمة كييف بأغلبية ثلاثة أصوات ضدّ صوتين. وفي ظلِ الحملة الإعلامية الصاخبة التي أثارتها الصحافة الملكية اليمينية، قال بوريشكيفيتش في جلسة دوما الدولة التي التأمت في نيسان من العام 1911م: "نحن لا نتهم اليهوديّة على وجه العموم، إنّما نحن نتوق لمعرفة الحقيقة" في هذه الجريمة الغامضة. فهل ثمة طائفة في اليهوديّة تدعو إلى القتل الطقوسي؟ إذا كان بينكم مثل هؤلاء الوحوش المتزمتين، فافضحوهم ليعرفهم الناس. نحن في روسيا نكافح عدداً من طوائفكم"، ثمَّ أعلن أنَّ القضية في الدوما سوف تُطمس خوفاً من الصحافة. عندما بدأت المحاكمة، أعلن القومي اليمينيّ شولغين في صحيفة "كيفليانين" الوطنيّة، أنّه ضدّ هذه الدعوى، فهي في جعبة السلطات القضائيّة، ليست سوى "سقط المتاع" (بالمقابل اتهمه اليمينيون المتطرفون بأنَّ اليهود اشتروه). لكنَّ أحداً لم يجرؤ على أن يتحمَّل مسؤولية وقف الاتهام واستئناف التحقيق من جديد، لا سيما أنَّ الجريمة كانت استثنائية في وحشيتها.

من جهة أخرى بدأت حملة الدوائر الليبرالية الراديكالية وصحافتها، لا في روسيا وحدها بل في شتى أرجاء العالم. فنشأت حالة من التوتُّر الشديد كان يؤجِّج نارها التحامل في اتهام المتهم، ولم تهدأ أو تتراجع، بل كانت تُرفد كل يوم بشهود جدد. وقد رأى ف. روزانوف أنَّ البوصلة مفقودة تماماً في هذه المعمعة، خاصّة لدى الصحف اليهوديّة: "إنَّ يد اليهوديّ الحديديّة ... تلوِح اليوم في بطرسبورغ وتصفع البروفسورات القدماء ذوي المهابة والجدارة، أعضاء دوما الدولة، والكتّاب ...".

في غضون ذلك كانت قد فشلت آخر محاولات إجراء تحقيق طبيعيّ. فإسطبل معمل زايتسيف الذي كان محقّق كراسوفسكي قد أغفله، ثم وقع

بعد ذلك في دائرة الشكّ بأنّه المكان الذي ارتُكبت فيه الجريمة، التهمته النيران قبل يومين من بدء معاينته من قبل المحققين الذين يبدو أنّهم لم يكونوا على عجلة من أمرهم. كما أجرى الصحفي برازول - بروشكوفسكي تحريات خاصّة مكثّفة، وها هو كراسوفسكي الذي بات الآن شخصيّة غير رسمية، يُجري تحقيقاته كذلك (للمناسبة نشير إلى أنَّ ف. بونتش - برويفيتش أصدر كتيِّباً اتهم فيه برازول بأنّه شخص نفعيّ). فطرحا فرضيّة زعما فيها أنَّ فيرا تشيبيرياك هي التي ارتكبت الجريمة؛ لأنَّ ولديها كانا صديقين لأندريه يوشينسكي، كما كانت هي نفسها من عالم الجناة. خلال التحقيقات التي طالت أشهراً، مات ولدا تشبيرياك بطريقة غامضة، فاتهمت فيرا كراسوفسكي بتسميمهما، بينما اتهمها برازول وكراسوفسكي بأنّها هي التي قتلت ولديها. لقد زعم هذان في روايتهما أنَّ تشبيرياك هي التي قتلت يوشينسكي لتتظاهر بجريمة طقوسية. أمّا تشيبرياك فقد زعمت أنَّ المحامي مارغولين عرض عليها أربعين ألف روبل مقابل أن تتحمّل مسؤوليّة الجريمة، لكنَّ مارغولين أنكر هذا الاتهام فيما بعد أمام القضاء، إلاَّ أنّه استحقّ عقوبة إدارية لسوء سلوكه.

لقد كانت محاولات تتبُّع هذه الإجراءات القضائيّة التمهيديّة بتفاصيلها كلها، ثمَّ البلبلة التي سادت المحاكمة نفسها، ستؤدي فقط إلى مزيد من الإرباك (انخرط في هذا الخضمِّ "مهجَّنون" ينتمون إلى الثورة والبوليس السري. ولا يجوز ألاَّ نبرز الدور المزدوج والسلوك المريب الذي أتاه في المحكمة عقيد الشرطة باقل إيفانوف، وهو نفسه خلافاً للقوانين كلّها، اختلق مع بوغروف الذي كان قد حُكم عليه بالإعدام وانتهى الأمر، رواية جديدة وثّقها في محضر رسمي تحدث فيها هذا الأخير عن دوافعه لقتل ستوليبين، ورمى فيها بالمسؤولية كلها على الأجهزة الأمنية التي كان إيفانوف يخدم فيها). بل ألقى ذلك الموقف العاصف بثقله كلّه على المحكمة التي كانت على وشك أن تبدأ عملها. فطالت

جلساتها شهراً كاملاً: في أيلول - تشرين الأول 1913م. استدعي للإدلاء بشهادته فيها 219 شاهداً (لم يحضر منهم سوى 185 شاهداً)، كما أرجئت وتأخرت بسبب الأطراف المتنازعة، كان المدعي العام يُضطر إلى أن يتراجع كثيراً أمام ضغوط مجموعة من أقوى المحامين – غروزنبيرغ، وكارابتشيفسكي، وماكلاكوف، وزارودني. فقد طالب هؤلاء بأن تدوَّن في محضر الجلسة كلُّ مقاطعاته لهم في أثناء المرافعة. كانت هذه كلها على منوال: "الذهب اليهودي" يعوق هذه المحاكمة، يبدون [أي اليهود على وجه العموم] كأنَّهم يهزؤون، انظروا: لقد ارتكبنا جريمة، إلاّ ... أنَّ أحداً لا يجرؤ على استدعائنا إلى المحاكمة" (فهل نستغرب أن يكون فيبير قد تلقَى في أيام المحاكمة سيلاً من رسائل التهديد، بما فيها رسائل تحمل رسم أُنشوطة، بل لم يكن وحده الذي تلقَى مثل هذه التهديدات، فقد تلقَى مثلها المدَّعون بالحق المدني، وخبير الاتهام، وربما محامو الدفاع أيضاً؛ كان من الواضح أنَّ كبير المحامين يخشى الانتقام). كما دارت المضاربات على بيع بطاقة الدعوة لحضور جلسات المحكمة وشرائها، وضجَّت كييف المثقفة كلها بدويٍّ تلك القضية. لكنَّ العامة كانت لا مبالية تماماً تجاه يجري.

لقد أُجريت في المحكمة اختبارات طبية دقيقة، واختلف الأطباء فيما بينهم حول ما إذا كان يوشينسكي قد بقي على قيد الحياة حتى آخر طعنة تلقاها، أم أنَّه فارق الحياة قبل ذلك، كان الغرض هو تحديد معيار الآلام التي كابدها. بيد أنَّ الاختبارات اللاهوتية والعلمية هي التي شكلت محور القضية – هل القتل الطقوسي ممكن عند اليهود من حيث المبدأ؟ هذا ما تمحورت حوله حالة التوتُّر الكوني كلها. فاستدعى الدفاع أكبر الخبراء في قراءة العاديات اليهوديّة، وقدَّم الرابين مازيه تقريراً عن التلمود. كما قدَّم خبير الكنيسة الأرثوذكسية البروفسور في أكاديمية بطرسبورغ إ. ترويتسكي، خلاصة عامة رفض فيها اتهام اليهود بالدموية؛ وقد أكد ترويتسكي أنّ الأرثوذكسية لم توجه إليهم مثل

هذا في أيٍّ يوم من الأيام، وقال: إنَّ هذه التهم تنطلق من العالم الكاثوليكي فقط (فيما بعد يذكّرنا إ. بيكرمن أنَّ قادة معسكرات الشرطة أنفسهم كانوا يقطعون "كل عام تقريباً" دابر الأحاديث عن الدم المسيحي الذي يُسفك للفصح اليهودي، "وإلاّ كان يمكن أن تكون لدينا دعوى طقوسية في كل عام، وليس في كلِ عشر سنوات"). في المحكمة كان خبير الادعاء الرئيس هو القس الكاثوليكي براناتيس. في أثناء الجدال الاجتماعي طالب المدّعون العامون بوضع السابقات القضائية الطقوسية على بساط البحث، لكنَّ الدفاع رفض الطلب. كان مثل هذا الانعطاف في سير المحاكمة نحو الطابع الطقوسي أو غير الطقوسي للجريمة، قد فاقم حالة التوتُّر الدولي حول القضية.

لكنْ، في الأحوال كلها، كان يجب إصدار حكم على المتهم، وقد عُهد بهذه المهمة إلى هيئة محلّفين قوامها عدد من الفلاحين الجهلة الخاملين، إضافة إلى اثنين - ثلاثة من الموظفين، واثنين من المشّان. كان الوهن قد أخذ من المحلّفين كل مأخذ على مدى شهر من الاستماع إلى المشاحنات، وقراءة الوثائق بصوت عال، فطالبوا بتقليص أجل المحاكمة، واعتذر أربعة منهم عن متابعة الجلسات وغادروا إلى ديارهم قبل نهاية المحاكمة، كما احتاج أحدهم إلى مساعدة طبية. مع ذلك أصدر من بقي منهم الحكم. فبماذا حكموا؟ الاتهامات الموجّهة إلى بيليس لا أساس لها، تفتقر إلى الأدلّة. فأُطلق سراح بيليس. وانتهت القضية. لم تُستأنف التحقيقات بحثاً عن المجرمين، فبقيت الجريمة الغريبة الغامضة في عالم المجهول.

بدلاً عن هذا انتهوا بحسب الطبع الروسي المتراخي (وليس من غير استعراض أجوف)، إلى بناء كنيسة في المكان الذي عثروا فيه على جثة يوشينسكي، بيد أنَّ الفكرة لاقت مقاومة شرسة كما لو كانت مؤامرة حاكها المئة السود. ونجح راسبوتين في إقناع القيصر بالتخلي عن الفكرة. ثمَّ صارت هذه القضية الكبيرة الخرقاء، بعد عام كامل من التحريض الصحفي

للمجتمع الروسي والمجتمع الدولي، إلى تسوسيما[1] القضاء الروسي. هناك في الصحافة الأوروبية من رأى القضية على هذا النحو عينه: لقد بدأت الحكومة الروسيّة معركة مع الشعب اليهودي، لكنَّ مستقبل اليهود لم يتأثر، وخسرت الدولة الروسيّة. لم يغفر اليهود للنظام القيصري الروسي بعد ذلك أبداً، هذه الإهانة. ولم يخفف من وقع تلك الإهانة، حتى انتصار القانون ونزاهة المحكمة.

ثمّة عبرة في هذا السياق، لو أجرينا مقارنة بين قضية بيليس، وقضية اليهودي ليو فرانك (في الأعوام 1913 -1915م)، الذي كان يُحاكم في الوقت نفسه تقريباً في أطلنطا الأميركية بتهمة قتل قاصر (فتاة مغتصبة)، كانت ظروف الجريمة غامضة تماماً، وأدلّة الاتهام تفتقر إلى المصداقية أصلاً. لكنَّهم أدانوا فرانك وحكموا عليه بالإعدام شنقاً، وبينما كانت محكمة النقض تنظر في القضية، هاجمت جماعة مسلحة السجن وأخرجت فرانك منه ثمَّ نفَّذت فيه حكم الإعدام. من الواضح أن المقارنة من الناحية الشخصيّة لصالح روسيا. بيد أنَّ حادثة فرانك كانت تداعياتها الاجتماعية محدودة ولم تتحوَّل إلى قضية عامة.

لقد كانت خاتمة قضية بيليس على النحو الآتي: "خوفاً من انتقام المئة السود غادر بيليس روسيا إلى فلسطين ومعه عائلته. وفي العام 1920م هاجر إلى الولايات المتحدة". في الستين من عمره مات هناك حتف أنفه في إحدى ضواحي نيويورك. أمَّا وزير العدل شيغلوفيتوف (تقول إحدى الروايات: إنَّه "أمر بالتحقيق في القضية بصفتها جريمة قتل طقوسية")، فقد أعدمه البلاشفة.

في العام 1919م، جرت محاكمة فيرا تشيبيرياك في اللجنة الأمنية الاستثنائية في كييف. لكنَّ المحاكمة الآن لم تكن وفق الأنظمة القيصرية

(1) نسبة إلى المعركة البحرية التي وقعت في 14 -15. 5 للعام 1905م بين الأُسطول الياباني والأُسطول الروسي في خليج كوريا قرب جزيرة تسوسيما، وهزم فيها الأُسطول الروسي هزيمة مريرة أرغمت روسيا على بدء مفاوضات السلام مع اليابان. —ح. إ.

البغيضة، من غير هيئة محلَّفين، ولم تستغرق سوى أربعين دقيقة. وقد أشار أحد أعضاء اللجنة الأمنية الاستثنائية في اعترافاته أمام البيض بعد أن اعتقلوه، إلى أنَّ "أعضاء اللجنة اليهود كلهم، بدءً من سورين [وهو بلوفشتين، رئيس اللجنة الاستثنائية]، حققوا مع فيرا تشيبيرياك". وفي أثناء التحقيق أخذ قومندان اللجنة فايمن "يهزأ بها، ثمَّ نزع عنها فستانها وأخذ يضربها بعقب مسدسه ... فأجابته: يمكنك أن تفعل بي ما تشاء، لكنِّي لن أتراجع عمَّا قلته الآن ... ففي محاكمة بيليس قلتُ ما قلته بملء إرادتي ولم يلقّني أو يشتريني أحد ...". فأُعدمت في الحال.

في العام 1919م عُثر في كالوغا على المدعي العام فيبير متخفياً في دور موظف سوفيتي، كان هذا قد حوكم أمام المحكمة الثورية الاستثنائية في موسكو. وقال المدعي العام البلشفي كريلينكو عندئذٍ: "انطلاقاً من الخطورة الثابتة التي يشكّلها هذا على الجمهورية ... فلا ضير إذا قلَّ عدد الفيبر عندنا فيبيراً واحداً" (لقد كان المقصود بهذه الدعابة القاسية القاتمة أنَّه بقي هناك فيبير آخر هو ر. فيبير أستاذ تاريخ القرون الوسطى). مع ذلك، لم تفعل المحكمة الثورية سوى أنَّها "أرسلت فيبير إلى معسكر الاعتقال ... إلى أن يتوطد النظام الشيوعي نهائياً في الجمهورية". بعد ذلك ضاعت آثار فيبير.

لقد برَّأ الفلاحون بيليس – أولئك الفلاحون الأُوكرانيون أنفسهم الذي شاركوا في أعمال العنف التي جرت ضدَّ اليهود عشية القرن العشرين، ثم ذاق هؤلاء مرارة التعاونيات الزراعية، وويلات مجاعة العامين 1932 -1933م، وهي المجاعة التي لم تجد انعكاساً لها لدى صحفيّي العالم كله، ولم يُتهم بها ذلك النظام. إنَّه وقع خطوات التاريخ أيضاً.

الفصل الحادي عشر

الوعي اليهوديّ والوعي الروسيّ قبيل الحرب العالميّة الأولى

في روسيا التي أُنقذت لعشر سنوات قادمة من الهلاك، تسنّى لأفضل العقول فيها من الروس واليهود أن يلتفتوا إلى الوراء ويقوّموا جوهر عيشنا المشترك من وجهات نظر مختلفة، ويتأملوا ملياً في مسألة الثقافة الشعبيّة والمستقبل. فالشعب اليهودي كان يتقدّم شاقّاً طريقه عبر تعرُّجات العصر المتبدلة، جارّاً وراءه ثلاثة آلاف عام من الشتات، من غير أن يفقد إحساسه الراسخ بنفسه أنّه "أُمّة من غير لغة، من غير أرض لكنَّها تحمل معها شرائعها دوماً" (سولومون لوريه)، أُمّة حافظت بقوّة عصبيتها الدينيّة والقوميّة على فرادتها وتميُّزها من أجل أن تبلغ مقصدها السامي الخارق تاريخياً. فهل كانت يهوديّة القرنين التاسع عشر والعشرين تسعى لتتشبَّه بالشعوب المحيطة وتدّغم بها؟ إنَّ اليهوديّة الروسيّة على وجه التحديد، هي التي بقيت زمناً أطول من باقي أخواتها متقوقعة في داخل شرنقة عزلتها الذاتيّة، متكئة على حياتها الدينيّة ووعيها الديني. ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر كانت اليهوديّة الروسيّة هي التي توطدت، وتكاثرت، وازدهرت، وها هو "تاريخ اليهوديّة كله سار في الزمن الحديث وفق قانون اليهوديّة الروسيّة"، التي أظهرت "إحساساً مرهفاً في فهم حركة التاريخ".

أمَّا المفكّرون الروس فقد كانوا مشغولين بعزلة اليهود. كانت المسألة مطروحة بالنسبة إليهم في تلك الفترة الزمنيّة على النحو الآتي: كيف يمكن الدفع باليهود ليتجاوزوا عزلتهم؟ فاقترح فلاديمير سولوفيوف الذي كان متعاطفاً

جداً مع اليهود، أن يجريَ ذلك عن طريق محبّة الروس لليهود. قبل ذلك كان دوستويفسكي قد أشار إلى الإفراط في العنف، لكنَّه واجهه بملاحظات مهينة بالنسبة إلى الشعب اليهوديّ، مع أنَّها كانت قليلة. "إنَّ هذا العنف يدلُّ بوضوح على كنه نظرة اليهود تجاه الروس ... قد لا يكون الشعب الروسي هو المتهم في دوافع نزاعنا مع اليهود وافتراقنا معهم، فتلك الدوافع تراكمت من الجانبين بالتأكيد، ومن غير المعروف حتى الآن على أيِّ طرف تراكمت أكثر".

من آخر القرن التاسع عشر هذا نفسه، ينقل إلينا **يا. تييتل** رؤيته الآتية: "أكثر اليهود ذوي نزعة ماديّة. يتميَّزون بسعي جامح لامتلاك القيم الماديّة. لكنَّهم يزدرون هذه القيم الازدراء كله، إذا كانت المسألة تتعلق "بالأنا" الداخليّة، بالكرامة القوميّة. ومن الجدير أن نتساءل هنا، لماذا عزف جمهور الشباب اليهودي عن اعتناق الأرثوذكسيّة حتى لو شكليّاً، على الرَّغم من أنَّه لا يلتزم بأيِّ شعائر دينيّة يهوديّة، بل لا يعرف حتى لغته الأُم، بينما فتحت الأرثوذكسيّة أمامه أبواب المؤسسات التعليمية التي كانت تعده بكل الخيرات الدنيوية؟" لماذا لم يفعل حتى لو من أجل نيل شهادة علميّة؟ "فالعلم، والمعارف العليا كانت بالنسبة إليهم أسمى من الثروة المالية". لقد تمسكوا بالاعتبارات التي لا تجيز لهم أن يتركوا أبناء جلدتهم يواجهون قدرهم لوحدهم (كتب تييتل يقول: إنَّ أوروبا بدورها لم تكن مخرجاً ذا أهمية تُذكر بالنسبة لتعليم اليهود الروس: "كان الشباب اليهود الذين يدرسون في أوروبا يشعرون بالمعاملة السيئة التي يعاملونهم بها في الغرب ... فاليهودي الألماني كان يرى فيهم عنصراً غير مرغوب به، عنصراً مشتبهاً به، صاخباً، غير منضبط"؛ ولم يكن اليهود "الفرنسيون والسويسريون أقلَّ رفضاً" لهم من اليهود الألمان.

كان **د. باسمانيك** قد أشار إلى تلك الفئة من اليهود الذين اعتنقوا المسيحيّة مرغمين، لكنَّ ذلك لم يفض بهم إلاّ إلى مزيد من السخط على السلطة، وتفاقم الإحساس بمعارضتها (منذ العام 1905م بات الانتقال أكثر يسراً: ليس بالضرورة

إلى الأرثوذكسية، لكن شريطة أن يكون إلى المسيحيّة فقط، وكانت البروتستانتيّة أقرب إلى روح اليهودي. منذ العام 1905م أُلغي الحظر على العودة إلى اليهوديّة.

في العام 1924م يسجّل مؤلّف آخر الخلاصة الآتية بكثير من المرارة: في العقود التي سبقت قيام الثورة لم تكن "الحكومة الروسيّة وحدها التي ألحقت الشعب اليهودي بصفوف أعداء الوطن الروسي"، لكنَّ "الأسوأ من ذلك، هو أنَّ كثيراً من السياسيين اليهود عدُّوا أنفسهم بأنفسهم من هؤلاء الأعداء، فملأوا قلوبهم حقداً وباتوا لا يفرقون بين الحكومة والوطن – روسيا ... لقد كانت لا مبالاة الجماهير اليهوديّة، ولا مبالاة القادة اليهود تجاه مصير روسيا العظمى ومستقبلها، خطأً سياسيّاً كارثياً".

غنيٌ عن البيان القول: إنَّ هذه العملية مثلها كمثل كلِّ عملية اجتماعيّة أخرى، خاصة في وسط متنوّع متغيّر كالوسط اليهوديّ، لم تمض متماثلة، بل زاغت؛ ففي صدور كثير من المثقفين اليهود كان ثمة تشظٍّ، تشقّقٌ. من جهة "يضع الانتماء إلى قبيلة اليهود الشخص اليهوديّ في موقع ما شديد الخصوصيّة بالنسبة إلى الوسط الروسيّ المشترك". لكنْ، ثمة هنا أيضاً "ازدواجيّة غريبة: تعلّق عاطفي معتاد يشعر به كثير جداً منهم [أي من اليهود] تجاه الوسط المحيط [أي تجاه عالم الروس]، فيغوصون فيه، وفي الوقت نفسه، رفضٌ عقلانيّ له، والدفع به بعيداً. إنّها حقاً مفارقة: أنت تحبُ بيئة لا تطيقها".

لم يكن لمثل هذا الموقف المزدوج المرير، إلاّ أن يُفضي إلى نتيجة مريرة ذات طابع مزدوج أيضاً. فعندما رفض **إ. ف. هيسين** في جلسة الدوما الثانية التي انعقدت في آذار من العام 1907م، أن تكون الثورة لا تزال في سباق دموي، رافضاً بذلك أن يعترف لليمينيين بأنّهم حماة الثقافة من الفوضى، صاح بهم قائلاً: "نحن المعلمين، والأطباء، والمحامين، والإحصائيين، والأُدباء ... نحن أعداء الثقافة؟ من سيصدقكم أيُّها السادة؟" – صاحوا به في أول الأمر: "نحن نتحدث عن الثقافة

الروسيّة وليس عن الثقافة اليهوديّة!" لسنا أعداء، لا، إذن لمَ هذا التطرُّف كله؟ فأجابه الجانب الروسي متسائلاً، لكنْ هل نحن أصدقاء شركاء؟ لقد تمثَّلت عقبة التقارب في الآتي: كيف كان يمكن ألاّ يبرز في مواقف هؤلاء المحامين، والبروفسورات، والأطباء اللامعين، عمق ميولهم اليهوديّة؟ هل كان يمكنهم أن يتحرّروا تماماً من الرواسب الروحية التي تركها الروس فيهم؟ ثمَّ انبثق من هذا السؤال سؤال آخر أكثر تعقيداً: هل كان يمكن لمصالح الدولة الروسيّة، بالمدى والعمق، أن تصبح قريبة إلى قلوبهم؟

في العقود نفسها حسمتْ الطبقة الوسطى اليهوديّة أمرها نهائياً وأخذت أبناءها إلى التعليم الدنيويّ باللغة الروسيّة تحديداً، كما تطوَرت في الوقت عينه، الثقافة المكتوبة بالإيديش (اللغة العامية اليهوديّة) تطوُّراً كبيراً، علماً بأنَّها لم تكن موجودة قبل ذلك، ورسَخ مصطلح "إيديشيزم"، أي بقاء اليهود يهوداً وليس ادِّغامهم.

كما كان هناك أسلوب آخر لإدغام اليهود، لم يكن جماهيرياً تماماً، لكنْ لا يجوز الاستخفاف به، وهو الزيجات المختلطة. عداك عن اتجاه سطحيّ آخر للادِّغام تمثل في تغيير الأسماء اليهوديّة واقتباس أسماء روسية مستعارة (من كان يلجأ إلى هذه الطريقة غالباً؟ صاحبا مصانع السُّكَّر "**دوبري**" و"**بابوشكين**"، اللذان حوكما في الحرب بسبب صفقات عقداها مع العدو. وكذلك ناشر صحيفة "**ياسني**" (أي "الواضح". ـ ح. إ.)، الذي كتبت عنه حتى صحيفة الكاديت "**ريتش**": تقول: إنَّه "مضارب جشع"، "قرش نهم وقح". أو د. **غولدنداخ** الذي رأى بعد أن غدا بلشفياً أنَّ "روسيا كلها ليست أصيلة قائمة بذاتها"، لكنَّه تماهى مع جودار "ريازان"، وبصفته منظِّراً ماركسياً ضليعاً وغيوراً، بقي يصرُّ على أن يصدِّع أدمغة القراء حتى وفاته في العام 1937م).

جابوتينسكي رائد الحركة الصهيونيّة

في هـذه العقـود تحديداً، تطوّرت الصـهيونية، في روسـيا، وارتقت وعرفت أكثر مراحل ازدهارها على وجه العموم. كان الصهاينة يسخرون بقسوة من اليهود الداعين إلى الادّغام، الذين كانوا يرون أنَّ مصير اليهوديّة الروسيّة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمصير روسيا. هنا يجب أن نلتفت إلى ما قاله الكاتب الاجتماعي البارز **فلاديمير جابوتينسكي**، الذي تسنّى له قبل الثورة، أن يدلي بأقوال لا تدعو إلى الابتعاد عن روسيا فقط، بل كلمات كانت مليئة باليأس والقنوط منها. فقد رأى جابوتينسكي أنَّ روسيا بالنسبة إلى اليهود ليست أكثر من نُزُلِ مسافرين يقع على طريقهم التاريخيّة، منها ينبغي أن يتقدّموا إلى الأبعد، إلى فلسطين.

لقد كتب جابوتينسكي بحماس فريد قائلاً: نحن لا نتواصل مع الشعب الروسي، بل نعرفه عبر ثقافته "بشكل رئيس عبر كتّابه ... هم أسمى تجليات الروح الروسيّة وأكثرها نقاء"، نحن نسحب هذا الحكم على العالم الروسيّ كلّه. "فكثير منّا نحن أبناء النخبة اليهوديّة المثقّفة، مغرم بالثقافة الروسيّة بتذلّلٍ وجنون ... غرام مربي الخنازير الذليل بالأميرة". أمّا اليهوديّة، فنعرفها معرفة معتادة مبتذلة". كما كان جابوتينسكي قاسياً لا يرحم في موقفه من دعاة الادّغام. "كثيرة هي العادات العبودية التي غُرست في سيكولوجيتنا إبّان تروْسنِ مثقّفينا"، "فقدنا الأمل أو الرغبة في الحفاظ على اليهوديّة محرَّمةً محصَنة، إنّهم يقودونها نحو الاندثار". "إنَّ المثقّف اليهوديّ العاديّ ينسى نفسه، ويرى أنَّ من الأفضل له ألاّ ينطق بكلمة يهوديّ: فليس الوقت ملائماً"، إنّهم يخشون أن

يكتبوا: نحن يهود" لكنَّهم يكتبون "نحن روس"، بل يكتبون أيضاً: "أخانا الروسي". "يمكن لليهودي أن يكون مواطناً روسياً من الطراز الأول، لكنَّه لا يستطيع أن يكون روسياً إلاَّ من الدرجة الثانية فقط". "من اللحظة التي يُعلن فيها اليهودي إنَّه روسيّ، يغدو مواطناً من الدرجة الثانية"، وفي غضون ذلك، "يحافظ على صبغة روحية خاصة". "ينتشر وباء الانتقال إلى المسيحيّة بغرض المنفعة، وقد تكون هذه في بعض الأحيان أصغر من شهادة تعليميّة: إنَّها الثلاثون من الفضة نفسها، لكنَّها الآن من أجل المساواة. أنت عندما تغادر ديننا فلن تبقى في قوميّتنا".

إنَّ الأوضاع التي كان يعيشها اليهود في روسيا بعد ثورة العام 1905 - 1906م تحديداً، تبدو له كئيبة كآبة لا مثيل لها: "فالقوّة الموضوعيّة للأشياء التي اسمها المهجر، ارتدَّت الآن ضدَّ شعبنا، ونحن عاجزون قانطون لا معين لنا". "نحن كنَّا نعرف من قبل أنَّنا محاطون بالأعداء"؛ "إنَّها سجن" (أي روسيا)، "حظيرة كلاب مسعورة"؛ "إنَّ اليهوديّة الروسيّة جسد صريع، جريح، مضطَهد يحيط الأعداء به من كل صوب"؛ "ستة ملايين إنسان يتخبَّطون في حفرة عميقة ... إنَّه عصر المعاناة البطيئة من مجزرة طال أمدها"؛ حتى ليبدو كأنَّ "الصحف التي تعيش على المال اليهودي"، لا تدافع عن اليهود "في هذا العصر، عصر الملاحقات التي لا مثيل لها". ثمَّ كتب في آخر العام 1911م يقول: "ها قد مضت سنوات ويهود روسيا في قفص الاتهام"، مع أنَّنا لسنا ثوريين، "لم نخن روسيا، لم نبعها لليابانيين"، كما أنَّنا لسنا كآزف وبوغروف؛ للمناسبة، عن بوغروف: "فقد هتك حرمة موت هذا الفتى التعيس البائس، أولئك الوقحون العشرة الذين خرجوا من بالوعة المئة السود الكييفية، وأرادوا أن يتأكدوا من أن القاتل قد مات فعلاً".

مرة بعد مرة إذْ نلتفت إلى اليهوديّة، "نرى أنَّنا نعيش الآن شحّاً ثقافياً، بيتنا الفلاحي كئيب بائس، جادتنا مزدحمة خانقة". "إنَّ العلّة الأساس التي نعاني منها، هي احتقار الذات، وعوزنا الرئيس هو أن ننمّي احترامنا لأنفسنا ... يجب أن

يغدو علم اليهوديّة بالنسبة إلينا مركز العلوم كلّها ... لقد باتت الثقافة اليهوديّة بالنسبة إلينا ملجأ النجاة الوحيد". هذا ما يمكن أن نفهمه ونوافق عليه من غير جدال (نحن، الروس، - خاصة في أيامنا هذه: أواخر القرن العشرين.).

فيما مضى لم يكن جابوتينسكي يدين الاندماجيين: هناك في التاريخ "لحظات يكون الاندماج فيها خياراً مرغوباً من غير تردّد، إذْ يمثّل طوراً ضرورياً في مسيرة التقدُّم". كانت مثل هذه اللحظة قد حلّت بعد ستينيّات القرن التاسع عشر، حينما كانت الإينتيليجينتسيا اليهوديّة مازالت في طور الولادة، تستوعب الوسط المحيط، والثقافة المكتملة. عندئذٍ لم يكن الاندماج "تخليّاً عن الشعب اليهودي، بل على العكس، كان الخطوة الأولى التي يخطوها النشاط الذاتيّ القوميّ اليهوديّ، أول درجة على سلّم تجديد الأُمة ونهوضها". فقد كان ينبغي "أن تستوعب الآخر لتمتلك قوّة جديدة تنطلق بها لتطوِر ذاتك". لكنْ، ها هو نصف قرن يمضي، تغيَّرت فيه أشياء كثيرة تغيُّراً أساسيًا، سواء خارج اليهوديّة أو داخلها. غدا التعطُش إلى المعارف العامة شديداً، بل بات التهافت عليها لا مثيل له. الآن على وجه التحديد ينبغي أن نغرس المبادئ اليهوديّة في الأجيال الجديدة. الآن بالضبط يهددنا الذوبان في الآخر من غير أثر: "أبناؤنا يغادروننا في كل يوم"، "يتحوَّلون إلى غرباء عنَّا"؛ أبناؤنا "المتعلمون يخدمون شعوب الأرض كلّها إلاّ نحن، ليس لدينا من يعمل للقضية اليهوديّة". "إنَّ العالم المحيط بنا في غاية الروعة، في بحبوحة وغنى" — دعونا إذن ألاّ نسمح له بأن يغري الشباب اليهودي ليبتعد عن واقع اليهود "الذي لا يُغري" ... من الضروري أن يغدو الغوص إلى أعماق القيم اليهوديّة، العنصر الأساس في التربية اليهوديّة". "إنَّ التكافل والتضامن وحده الذي يُثبّت الأُمة ويمنعها من السقوط" (كم نحن بحاجة إلى أن نعي هذا! — أ. س.)، - بيد أنَّ المارقين يعوّقون النضال في سبيل حقوق اليهود: ها هم يزعمون أنَّ هناك مخرجاً، ثم "ينسحبون ... في الآونة الأخيرة ... حشود كثيفة يتسم سلوكها بمثل هذا الاستهتار".

ثمَّ يتحدثون بكثير من الوقار: "عن روح [إسرائيل] الجليلة بجبروتها كله، وتاريخها المأساوي، بكلِ روعتها ومهابتها". –"من نحن حتى نعتذر لهم؟ بل من هم حتى يستجوبوننا؟ هذه الصيغة الأخيرة يمكن أن تستحقّ الاحترام بالكامل. لكنْ، إذا أُخذت من جانبيها. فليس من حقّ أيٍّ أُمة أو دين أن يحاكم الآخر.

العودة إلى الجذور

لم يكن عبثاً أن تعالت في تلك السنين الدعوات للعودة إلى الجذور اليهوديّة. ففي بطرسبورغ قبيل الثورة، "لوحظ بروز اهتمام شديد بالتاريخ اليهوديّ في أوساط المثقفين اليهود الروس". وفيها توسّعت في العام 1908 م، اللجنة التاريخيّة -الإثنوغرافيّة اليهوديّة، وتحوّلت إلى الجمعيّة التاريخيّة - الإثنوغرافية اليهوديّة التي كان يرأسها م. فينافير. ونشطت الجمعيّة في جمع أرشيف عن تاريخ وإثنوغرافيا اليهود في روسيا وبولونيا، أمّا في الغرب، فلم يُنشئ علم التاريخ اليهودي ما يشبه هذا قط. ثمَّ بدأ إصدار مجلة **"العاديات اليهوديّة"** التي كان س. **دوبنوف** رئيس تحريرها. في الوقت نفسه شرعوا يصدرون الموسوعة اليهوديّة في ستة عشر مجلّداً، وموسوعة "التاريخ اليهودي" في خمسة عشر مجلّداً. صحيح أن الموسوعة تشكو في المجلّد الأخير من أنَّ: "الأوساط التقدميّة من المثقّفين اليهود ... أظهروا عدم اكتراث بالمهمات الثقافيّة للموسوعة"، واستغرقوا في النضال من أجل حقّ المساواة الشكليّة لليهود.

أمّا الرؤوس والصدور اليهوديّة الأخرى، فقد ترسخت فيها القناعة بأنَّ مستقبل اليهوديّة الروسيّة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمستقبل روسيا. مع أنَّ "اليهوديّة الروسيّة كانت مبعثرة على أمداء شاسعة واحدة ... والثقافة التي تطوّقنا كانت واحدة ... إلاّ أنّنا استوعبنا هذه الثقافة الواحدة على امتداد البلاد كلها". " لقد كانت اليهوديّة الروسيّة تُحسن الربط دائماً بين مصالحها ومصالح شعبها الروسي. لم يكن هذا نابعاً من طبعها النبيل، ولا من عرفانها بالجميل، إنّما من تلمُّسها الواقع التاريخي". كما لو كان الأمر جدالاً مباشراً مع جابوتينسكي،

وهو كذلك فعلاً: "لم تكن روسيا بالنسبة إلى ملايين اليهود القاطنين فيها مجرَّد محطّة عرَضيّة في تاريخ التيه اليهوديّ الأزلي ... فالدروب الروسيّة كانت وستبقى بالنسبة إلى اليهوديّة العالميّة أهمَّ الدروب من الوجهة التاريخيّة. فلا خلاص لنا من روسيا ولا خلاص لروسيا منّا". هذا أمرٌ قطعيّ على حدِّ تعبير عضو مجلسي دوما الدولة الثاني والثالث، **أو. يا. بيرغامينت**: "لن يطرأ أيُّ تحسُن على الحياة الداخلية في روسيا [نفسها] من غير تحرير اليهود من الظلم الواقع عليهم".

ونحن لا نستطيع أن نتجاوز في هذا السياق شخصيّة فذة كالمحامي اللامع **غ. ب. سليوزبيرغ**، وهو أحد اليهود الذين كانت له أوثق العلاقات مع الدولة الروسيّة على مدى عقود. تارة كان مساعد سكرتير السينات، وتارة المستشار القانوني لوزير الداخليّة. وقد اتهمه كثير من اليهود بأنّه اعتاد على أن يتسوَّل حقوق اليهود من سلطة الأثرياء في الوقت الذي آن فيه أوان المطالبة بها وانتزاعها عنوة. فقد كتب سليوزبيرغ يقول في مذكراته: "اعتدت منذ طفولتي على أن أرى نفسي يهودياً في المقام الأول. بيد أنّي مع بداية حياتي الواعية، أحسست أنّي ابن روسيا ... فلكي تكون يهوديّاً جيداً لا يعني أبداً أن تكون روسيّاً رديئاً". "في حياتي العملية لم أُواجه تلك العقبات التي كان يضعها البولونيون في كل لحظة على طريق اليهوديّة البولونيّة ... فلم نكن نحن اليهود نشكّل في حياة الدولة الروسيّة عنصراً غريباً؛ لأنَّ قوميات كثيرة تعيش في روسيا، توحِّد بينها الدولة الروسيّة من غير أيِّ محاولات لابتلاع القوميّة الأقوى القوميّات الأخرى ... كما لم تتناقض المصالح الثقافيّة الروسيّة في أيِّ يوم مع المصالح الثقافيّة اليهوديّة. كانت كلّ ثقافة تكمِّل الأخرى". حتى مع مثل هذه الملاحظة الشبه الهزلية: مع غموض القوانين الروسيّة ذات الصلة باليهود وتناقضاتها، كان عليه في التسعينيّات "أن يبدأ بوضع تشريعات يهوديّة خاصة انطلاقاً من منهجيّة تلموديّة خالصة".

إذا قلنا زيادة على هذا: "إنَّ التخفيف من نير الظلم القومي الذي عانينا منه في السنوات الأخيرة التي سبقت دخول روسيا المرحلة التراجيديّة في تاريخها، زرع

في نفوس اليهود الروس كلّهم أملاً بأنّ وعي اليهوديّة الروسيّة سينعطف الآن شيئاً فشيئاً نحو التصالح بين وجهيه، اليهوديّ والروسيّ، ليتحدا في مركّب الوحدة الوطنية العليا".

فهل ننسى أن ثلاثة من المؤلّفين السبعة الذين يشكلون معالم لا مثيل لها هم بين اليهود: **م. او. غريشينزون، أ. س. إزغويف -لانده، س. ل. فرانك؟** بالمقابل أيضاً: على مدى عشر سنوات في روسيا قبل الثورة، قدّم اليهود أعظم مساندة جماعيّة للمجتمع التقدّمي. وربما كانت قد صارت إلى ما صارت عليه على خلفية الملاحقات والمجازر، مع ذلك لم تكن على تلك الدرجة من الكمال في أيِ بلد آخر (ربما على امتداد التاريخ الماضي كلّه؟). لقد وضع مثقفونا العداء للساميّة خارج حدود المجتمع والموقف الإنساني، بل عدُّوا من لم يُعلن بالصوت العالي مساندته للنضال في سبيل تحقيق مساواة اليهود، "عديم الشرف، معادياً للساميّة". أمّا المثقفون الروس، فقد حاولوا أن يستوعبوا الفهم اليهوديّ لأولويات الحياة السياسيّة كلّها: التقدميّة هي مواجهة الاضطهاد الذي يعاني منه اليهود، والرجعية هي كلُّ ما عدا ذلك. فوقف المجتمع الروسيّ يدافع عن اليهود بثبات، ضدَّ تعسف الحكومة، وحرَّم على نفسه وعلى كل فرد أن يُظهر حتى لو ظلَّ أيَّ انتقاد لسلوك أيِّ يهوديّ: بغتة في ظلِّ مثل هذا السخط، يولد في العداء للساميّة؟ (بقي هذا لدى الجيل الراهن لعقود أخرى).

يروي **ف. أ. ماكلاكوف** في مذكراته مشهداً معبِّراً شهده في العام 1905م في مؤتمر المجلس البلدي، بعد أعمال العنف التي كانت قد وقعت مؤخراً ضدَّ الاقطاعيين. "لقد اقترح ي. ف. دي روبيرتي ألاّ يشمل العفو [الذي طالب به المؤتمر] الجرائم التي ارتكبت ضدّ الأطفال والنساء". فاتهموه في الحال بأنَّ اقتراحه يحمل "طابعاً طبقيّاً"، أي أنّه يهتمُّ بعائلات الإقطاعيين التي تأذت. "فأسرع ي. دي بيرتي ... يهدّئ من غضب المؤتمرين: أنا لم أفكّر أبداً بمصير النبلاء ... وإذا كانت احترقت 5 -20 مزرعة، فليس لهذا أيُّ أهمية كانت. أنا أقصد هنا مزارع اليهود ومنازلهم التي أحرقها المئة السود ونهبوها".

في الأعوام 1905 -1907م، رأوا في غيرتسينشتين (وهو الذي ازدرى إحراق مزارع الإقطاعيين)، وإيوللوس ضحيتين للإرهاب، وأغفلوا آلاف الضحايا الأبرياء الآخرين. في مجلة "الطاغية الأخير" التي أصدرها الليبراليون الروس في الخارج، بلغت تفاصيل رواياتهم الحدَّ الآتي: لقد كتبوا في أسفل صورة الجنرال الذي حاول الإرهابي غيرش ليكِرت اغتياله وفشل، ما يلي: "بسببه أمر القيصر بإعدام اليهودي ليكِرت"

ولم يقتصر الأمر على أحزاب المعارضة فقط، بل كان كثير من الموظفين، لا سيما موظفي الفئة الوسطى منهم، يخشون "ألاّ يظهروا تقدميّين". كان ينبغي أن يمتلك المرء كلَّ أسباب الاستقلال الماديّ، أو روحاً معنوية عالية، حتى يجرؤ على مواجهة تلك الموجة الجارفة. أمَّا في عالم المحاماة، وعالم الفنانين، وعالم العلماء، فقد كان الإقصاء هو عقاب كل من يحيد عن هذا الخط. ولم يخرج على هذه القاعد سوى ليف تولستوي بمكانته الاجتماعية الفريدة: وحده الذي تجاسر وقال: إنَّ المسألة اليهوديّة تقع على جدول أعماله في البند الواحد والثمانين.

تقول الموسوعة اليهوديّة عن مجازر تشرين الأول من العام 1905م، في معرض اللوم: "إنَّها لم تُثر من قبل المثقّفين التقدميّين احتجاجاً خاصاً [أي عن اليهودي تحديداً] ، بل احتجاجاً عاماً ضدَّ مظاهر الثورة المضادّة على وجه العموم".

لكنَّ المجتمع الروسي كان سيفقد هويّته الروسيّة لو لم يوجِّه أيَّ مسألة كانت ضدَّ النظام القيصري، ضدَّ النظام القيصري وحده. لهذا "قدَّم يهود روسيا والبلدان الأخرى المساعدات لضحايا أحداث تشرين الأول [مجازر العام 1905م)، من اليهود حصراً". بل حتى بيردياِيف يقول: "هل تشعرون بروح الشعب اليهودي؟ ... لا، فنضالكم ... هو في سبيل إنسان مجرَّد".

كما يؤكد سليوزبيرغ: "في أعين الأوساط الواعية سياسياً"، كانت المسألة اليهوديّة عندئذٍ "مسألة ليس لها أهمية سياسية بالمعنى الواسع للكلمة.

فالمجتمع كان مشغولاً بفكرة أخرى، هي تجليات مظاهر الرجعيّة على وجه العموم".

بهدف تصحيح هذا الخلل في مسار المجتمع الروسي، صُنفت في العام 1915م مجموعة دراسات اجتماعية خاصة بعنوان "شيت" (="الترس". –ح. إ.)، دافعت من مختلف الجوانب عن اليهود حصراً، لكنْ من غير أن يساهم فيها أيُّ مؤلّف يهودي –كان مؤلّفوها من الروس والأُوكرانيين فقط، وقد حرص أصحاب هذا المشروع على أن يدعوا أكثر الأسماء شهرة عندئذٍ، حتى قارب عددهم الأربعين مؤلّفاً. لقد كُرّست مجموعة "شيت" كلّها لموضوع واحد: "اليهود في روسيا"، وهو موضوع متماثل من حيث أحكامه ومدَّعٍ من حيث أسلوب عرضه.

من الآراء التي وردت فيها (ل. أندرييف): ها قد بات حلُّ المسألة اليهوديّة بمتناول اليد –إحساسي "بالسعادة يشبه التبجيل"، خلاصي "من المعاناة التي رافقتني طول حياتي"، كانت "كالنعش أحمله على كتفي، واتنفّس هواء مسموماً." – (م. غوركي): يرى "كبار الكتّاب في أوروبا أنَّ اليهودي كنمط سيكولوجي، يتفوّق على الروسي ثقافياً ووسامة". (ثمَّ يُعبِّر عن رضاه عن نموِ طوائف السبتيين و"إسرائيل الجديدة" في روسيا). – (ب. ماليانتوفيتش): "إنَّ حرمان اليهود من الحقوق في روسيا كابوس حقيقيّ، لطخة عار على جبين الشعب الروسي ... وهو بالنسبة لأفضل الروس إحساس بالخجل يرافقهم مدى الحياة ... إنّنا برابرة بين الشعوب المتحضّرة ... محرومون من حقّ التفاخر بشعبنا ... إنَّ نضال الإنسان الروسيّ في سبيل منح اليهود حقوق المساواة ... هو موقف قوميّ أصيل ذو أهمية فائقة ... إنَّ الظلم الذي يعاني منه اليهود يحكم على الروس بالعجز عن تحقيق سعادتهم هم". وإذا لم نهتمَّ بتحرير اليهود "فلن نستطيع أن ننظّم شؤون حياتنا في أيِّ يوم". – (ك. أرسينيف): إذا رُفعت القيود كلها عن اليهود، فسوف تتعاظم الثروات الذهنية في روسيا". – (أ. كاليكوفا): من جهة،

"صلتنا الروحيّة وثيقة مع اليهوديّة في عالم القيم الروحيّة الساميّة"، ومن جهة أخرى، "نفتح الباب على مصراعيه لاحتقار اليهود وكرههم". – (ل. أندرييف): نحن الروس "أنفسنا يهود أوروبا، حدودنا هي نفسها حدود إقليم الاستيطان اليهودي". – (د. ميريجكوفسكي): "ما الذي يريده اليهود منّا؟ السخط الأخلاقي؟" لكنَّ "هذا السخط شديد، وفي غاية البساطة إلى حدٍّ ... الصراخ مع اليهود. وها نحن نصرخ". – في مجموعة "شيت" لم يقع بيردياييف في إبهام. لكنَّه قال عن نفسه: إنَّه ابتعد عن وسطه منذ أن كان شاباً في مقتبل العمر، وآثر إقامة علاقات مع اليهود.

لقد وصف مؤلِّفو "شيت" كلهم، معاداة السامية بأنَّه شعور خسيس شائن، "مرض في الوعي، يتصف بالعناد والعدوى" (الأكاديمي د. اوفسيانيكو - كوليكوفسكي). لكنَّ عدداً من المؤلِّفين سرعان ما أعلنوا أنَّ "الوسائل التي يلجأ إليه المعادون للسامية [الروس] وطرائقهم، منشؤها خارجي" (ب. ميليوكوف). "إنَّ أيديولوجيا معاداة السامية السائدة اليوم هي منتج الصناعة الروحيّة الألمانية ... "إنَّها النظريّة الآرية ... التي التقطتها منشوراتنا القوميّة ... [يكرِّر] مينشيكوف أفكار غابينو" (ف. كوكوشكين). عقيدة تفوُّق الآرية على السامية –"منتَج ألماني" (فياتش. إيفانوف). لكنْ هل علينا أن نحمل نعشنا على كاهلنا؟ في أواخر العام 1916م، كرَّس غوركي خطبته التي استمرت ساعتين في لقاء "حلقة التقدميين"، "للنيل من الشعب الروسي كله، والمبالغة في مديح اليهوديّة"، هذا ما رواه عضو مجلس الدوما التقدمي مانسيريف الذي كان أحد مؤسسي "الحلقة".

كما يكتب عن هذا مؤلف يهودي معاصر بموضوعية وفطنة: "لقد أُعيدت من جديد تربية المجتمع الروسي المثقف الذي تبنَّى المسألة اليهوديّة، مع الأسف بغيرة لم تكن متوقعة ... فقد صار التعاطف مع اليهود إلى ما يشبه شعار: "الله،

والقيصر، والوطن"، أمّا اليهود، فقد "استغلُّوا النزعة التي سادت في المجتمع، وفق معيار وقاحتهم واستهتارهم". هذا ما دعاه روزانوف في تلك الآونة "بالجشع اليهودي للاستيلاء على كلّ شيء".

في عشرينات القرن العشرين لخّص **ف. شولفين** هذا كله على النحو الآتي: "خلال هذا الوقت [ربع قرن قبل الثورة]، وضعت اليهوديّة الحياة السياسية في البلاد بين يديها ... امتلكت روسيا السياسيّة ... لقد أضحى عقل الأُمة (إذا استثنينا الحكومة والأوساط الحكومية)، في أيدي اليهود، اعتاد على أن يُفكر بإيعاز يهودي". "على الرّغم من ''القيود'' كلّها، استعمر اليهود روح الشعب الروسي". لكنْ هل استعمرها اليهود؟ أم أنَّ الروس لم يعرفوا ماذا يفعلون بها؟

لقد حاول **ميريجكوفسكي** أن يوضح في مجموعة "شيت"، أنَّ الاتجاه اليهودي بين الروس ليس سوى نتاج الخوف من اليهود، فينشأ يقين أعمى بالأُمة الغريبة، "لاءاتها" تغدو كلها "نعم". أمّا البروفسور إ. بودوين دي كورتينيه، فقد علّق على هذا قائلاً في المجلة عينها: "إنَّ كثيرين حتى من ''الأصدقاء السياسيين'' لليهود، يشمئزون منهم، ويبوح بعضهم لبعض بهذا في لقاءاتهم الخاصة. لكنْ غنيٌ عن البيان القول: إنّك لا تملك أن تفعل شيئاً هنا. فالتعاطف والنفور شعور خارج عن إرادتنا". غير أنّنا يجب ألاّ نؤخذ "بالأوهام، بل يجب أن نهتدي بالعقل". فبصدى اجتماعي مدوٍّ، بل بمغزى عميق، عبَّر ب. ب. ستروفه في العام 1909م عن الوضع الاجتماعي المبهم الذي كانت تعيشه العقول عندئذٍ، كان الرجل قد قضى حياته كلها يتجاوز من غير وجل، كلَّ العقبات التي كانت تعترض طريقه، بدءاً من تلك التي كانت تضعها الماركسية، وانتهاء بتلك التي كانت تضعها الأوساط اليمينيّة الحكوميّة، وسوى ذلك من المحرَّمات. غير أنَّ هذه أضحت الآن منسيّة تماماً، أمّا الجدل الذي كانت له أهميّة تاريخيّة، فقد دار على صفحات صحيفة "**سلوفو**" (=الكلمة.ـ ح. إ.)، في شهر آذار من العام 1909م، ثمَّ انتقل منها إلى وسائل النشر الروسيّة كلها.

لقد بدأ كلُّ شيء من "مشهد تشيريكوف" الذي بولغ فيه كثيراً: غضب انفجر في حلقة أدبية ضيقة بسبب اتهامات بمعاداة الساميّة، وُجِّهت بغتة إلى تشيريكوف (على خلفية ملاحظة أفلتت منه في الجلسة الأدبية قال فيها: إنّ أكثر نقّاد بطرسبورغ هم من اليهود، لكنْ هل هم مؤهّلون للغوص إلى عمق موضوعات الحياة اليومية الروسيّة؟)، مؤلِّف مسرحية "اليهود"، وهي مسرحية ودية محبِّذة. فجأة أحدث ذلك الحدث كثيراً من الجراح في أحاسيس المجتمع الروسي (دعاه الصحفي ليوبوش حينئذٍ: "الشرر الذي أحرق موسكو كلها").

أمّا جابوتينسكي، فقد أعلن أنّه لم يعلن موقفه النهائي من مشهد تشيريكوف في مقالته الأولى –فنشر في عدد 9 آذار من صحيفة "سلوفو"، عام 1909م، مقالته الثانية: "اللاسامية". وقد عبَّر فيها عن قلقه واشمئزازه من أنَّ أكثر وسائل النشر التقدميّة تريد أن تصمت عمَّا حدث لتشيريكوف وأرباجين. وأنَّ صحيفة ليبرالية رائدة (في إشارة إلى "روسكيه فيدوموستي")، يُزعم أنّها لم تكتب شيئاً منذ 25 عاماً عن "المطاردة اليائسة لليهود ... منذ ذلك الوقت، والصمت يُعدُّ فخر التيار اليهوديّ التقدميّ". بيد أنَّ الأذى كلّه يكمن تحديداً في الصمت عن المسألة اليهوديّة (يمكننا أن نوافق معه من غير تعليق). حينما يؤكِّد تشيريكوف وأراباجين، "أنَّ كلامهما لم يكن فيه أيُّ شيء مناهض للساميّة، فهما قطعاً على حق". بسبب صمتنا التقليديّ "يمكن للمرء أن يقع في اللاساميّة لمجرَّد أنّه نطق بكلمة ''يهوديّ''، أو بسبب أيِّ تعليق بريء على أيِّ شيء خاص باليهود ... فاليهود وحدهم فقط صاروا إلى ما يشبه التابو الذي يُحرم توجيه أيِّ نقد إليه مهما كان بريئاً، واليهود وحدهم الخاسر الأكبر من هذا" (مرة أخرى نوافق على هذا من غير تحفُّظ). "ينشأ انطباع كأنَّ كلمة ''يهودي'' نفسها ليست كلمة طباعية". إنّنا هنا أمام "صدى لطبع ما فريد، شق طريقه في الدائرة الوسطى من المثقفين الروس التقدميين ... لن تعثر على أيِّ قرائن وثائقية في هذا الشأن، لذلك لا سبيل إلى رصد وجود مثل هذا الطبع إلاّ متلمساً"، - لكنَّ هذا

هو ما يقلق جابوتينسكي: ليس ثمة وثائق لنتلمس منها، واليهود لن يسمعوا الرعود الوشيكة، سيؤخذون على حين غرة. حتى الآن لا تزال "تعتمل سحابة ما، يقترب دويٌّ بعيد لا يزال صوته ضعيفاً، لكنْ من الواضح أنّه متجهِّم الوجه غير وديّ". لا يزال هذا حتى الآن "لاسامياً"، لكنَّه ليس معادياً للسامية، لكنْ حتى هذا لا يجوز السماح به، فالحياد لا مبرِّر له: بعد مجزرة كيشينيوف، حينما أشاعت الصحف الرجعية "جذوة الكره الملتهبة"، غدا صمت وسائل النشر التقدمية الروسيّة "حيال مسألة من أكثر مسائل الحياة الروسيّة تراجيدية"، غير مقبول.

في افتتاحية العدد نفسه أعلنت صحيفة "سلوفو" عن تحفُّظها: "نحن نرى أنَّ اتهامات المؤلّف لوسائل النشر التقدمية لا تتوافق مع واقع الأشياء. ونحن نتفهَّم تلك المشاعر التي أملت على المؤلّف سطورهَ التي تنضح مرارة، إلاّ أنَّ اتهام المثقفين الروس بأنّهم يعتمدون تكتيكاً يكاد يكون مقصوداً لتغييب المسألة اليهوديّة، لا مشروعية له. ففي الواقع الروسي كثير جداً من المعضلات التي تنتظر الحلول، بحيث لا يُمكن أن يكرِّس لأيٍّ منها سوى بعض الاهتمام ... ومن الجدير قوله: إنَّ إيجاد حلول موفقة لكثير من هذه المعضلات، له أهمية حيوية بالنسبة إلى اليهود، كما إلى مواطني بلادنا الآخرين كلّهم".

لو سألتْ صحيفة "سلوفو" جابوتينسكي حينئذٍ: لماذا لم ينبر للدفاع عن أولئك البسطاء الذين "علَّقوا تعليقات بريئة جداً على الخصوصيات اليهوديّة؟" فهل كان الرأي العام اليهوديّ سيوليهم اهتمامه ويدافع عنهم؟ أم كان سيتابع المثقفين الروس وهم يطهرون أنفسهم ممّن يُزعم أنّهم "معادون للساميّة؟"، لا، لم تكن مسؤولية اليهود أنفسهم في اختلاق "التابو المحرَم أقلَّ".

وهاكم مقالة أخرى أرفقتها الصحيفة بافتتاح النقاش، هي مقالة ف. غولوبيف "الاتفاق وليس الادِّغام". نعم، لم تكن سابقة تشيريكوف "مجرَّد حالة فرديّة"، "فالمسألة القوميّة ... في الوقت الراهن ... تثير قلق مثقفينا أيضاً". في

السنوات القريبة الماضية، خاصة في عام الثورة، "ارتكب مثقفونا خطأ جسيماً" باعتمادهم الكوسموبوليتية. كما "لم يمرَّ الصراع الذي اشتعل في داخل المجتمع ... وبين مختلف القوميّات التي تعيش في الدولة الروسيّة، من غير أن يترك أثراً". ومثلهم كمثل أبناء القوميّات الأخرى في تلك السنوات، "كان على الروس أيضاً أن يفكّروا بقضيتهم القوميّة ... عندما أخذت القوميّات الصغيرة تسعى لتقرير مصيرها، بات تقرير المصير ضرورة بالنسبة إلى الروسيّ أيضاً". حتى فيما يتعلق بالتاريخ الروسيّ، "نحن المثقّفين الروس نكاد لا نعرف عنه" إلاّ أقلَّ مما نعرف عن التاريخ اليهوديّ. "فالمثل الإنسانيّة كانت دائما بالنسبة إلينا أكثر أهمية من بنائنا الذاتيّ". لكنْ حتى بالنسبة إلى فلاديمير سولوفيوف البعيد البعد كلّه عن الفكر القوميّ، "قبل أن تصبح حاملاً المثل الإنسانيّة المشتركة، عليك أن ترقى أولاً إلى ذروة قوميّة بعينها. يبدو أنَّ هذا الإحساس بالنهوض الذاتيّ، قد أخذ يتسرَّب إلى أوساط المثقفين". حتى اللحظة "نحن نغفل تماماً الحديث عن سمات الناس الروس". وليس ثمة قطرة واحدة من المعاداة للساميّة في أن نتذكّر تلك السمات، كما لا يعني هذا البتة قمع أيٍّ قوميّات أخرى – لكنْ ينبغي أن يكون بين القوميّات اتفاق، وليس ادّغام".

قد يكون ما دفع "سلوفو" إلى أن تتحفظ على هذا النحو المعلّل، هو أنَّ مقالة ب. ب. ستروفه –"المثقفون والوجه القومي" التي كانت قد نُشرت على صفحاتها في اليوم التالي، 10 آذار، كانت قد اصطدمت مصادفة بمقالة جابوتينسكي التي كانت قد شاعت بمعزل عنها، وعن وجع سابقة تشيريكوف. فقد كتب ستروفه يقول: "هذا الحدث" الذي "سرعان ما سيطويه النسيان"، "أظهر أنَّ شيئاً ما استيقظ في العقول، ولن يهدأ. هذا الذي استيقظ يُطالب بأن يُؤخذ بعين الحسبان". "إنَّ المثقفين الروس يحاولون عبثاً، من غير جدوى، طمس وجههم القوميّ، لكنَّ هذا مستحيل". "فالقوميّة هي شيء ما أكثر يقينية [من العرق، ولون البشرة]، وفي الوقت نفسه أكثر شفافية. إنّها ميْل ونفور

روحـي، إدراكهـا لا يتطلـب اللجـوء إلى أدوات للقيـاس الأنثروبولـوجي، ولا إلى البحث في تاريخ الأنساب، لأنَّها تعيش في خلجات الروح". ومن الضروري العمل على ألاَّ تقتحم هذه الميول، وهذا النفور، منظومات القوانين، "لكنَّ عدالة ''الدولة'' لا تطالبنا باللامبالاة ''القوميّة''". فالميْل والنفور مرتبطان بنا، هما ملك لنا نحن"، "وملكيتنا هذه هي شعور عضوي بالعامل القوميّ ... وأنا لا أرى أيَّ أسس ... للتخلي عنها لصالح أيٍّ كان".

ثمَّ يستطرد ستروفه قائلاً: نعم، من الضروريّ رسم حدٍّ بين الميدان التشريعي، وهو ميدان الدولة، والميدان الذي تعيش فيه هذه الأحاسيس فينا. "في المسألة اليهوديّة خاصة، يُعدُّ هذا في غاية السهولة، وفي الوقت عينه، في منتهى الصعوبة". "فمن حيث الشكل، تُعدُّ المسألة اليهوديّة مسألة قانون"، لذلك ليس من الصعب أن نخدمها، فمن الطبيعي أن يُمنح اليهود حقوق المساواة. بيد أنَّ تقديم الخدمة لها "أمر في غاية التعقيد، لأنَّ قوة النفور من اليهوديّة بين مختلف شرائح السكان الروس شديدة جداً، وتتطلَب قدراً كبيراً من الوضوح الأخلاقيّ والمنطقيّ لكي تُحسم المسألة قانوناً، بصرف النظر عن النفور". لكنْ: "على الرَّغم من شدّة نفور أوسع فئات السكان الروس من اليهوديّة، إلاَّ أنَّ اليهود أكثر قرباً منَّا، وأشدُّ ارتباطاً بنا من أبناء القوميات الأخرى التي تنضوي في كنف روسيا. وهي من غير شكٍ مفارقة ثقافية - تاريخية، غير أنَّ هذا هو واقع الحال. كان المثقفون الروس دائماً يرون في اليهود روساً، ولم يكن هذا من قبيل المصادفة، ولا عبثاً، ولا "سوء فهم". أمَّا الابتعاد عن الثقافة الروسيّة عن سابق قصد، وترسيخ السمات "القوميّة" اليهوديّة، فلم يكن بمبادرة من المثقفين الروس، إنَّما بمبادرة من تلك الحركة اليهوديّة المعروفة باسم الصهيونيّة ... وأنا لست متعاطفاً مع الصهيونية بأيِّ مستوى كان، إلاَّ أنَّني أتفهَّم حضور المسألة "القوميّة اليهوديّة"، فهي قائمة فعلاً وتتنامى (ما له دلالته أنَّ ستروفه يأخذ كلمتيّ "يهودية" و"قومية" بين قوسين، أي أنَّه لا يزال غير مصدِّقٍ ويتساءل: أيُعقل

أن يكون اليهود قد أخذوا يرون في أنفسهم عنصراً قائماً بذاته؟). "ليس في روسيا أيُّ شعب آخر غير روسيٍّ، أدّى في ثقافتها دوراً مماثلاً ... وهناك صعوبة أخرى: لقد أدوا دورهم هذا، لكنّهم بقوا على يهوديتهم. ومع أنَّ أحداً لا يشكك في أهمية الدور الذي أداه الألمان في الثقافة الروسيّة والعلم الروسي؛ إلاّ أنَّ الألمان بعد أن انخرطوا في الثقافة الروسيّة، ذابوا فيها ولم يبق منهم أثر. "لا ينسحب هذا على اليهود".

ثمَّ ينهي ستروفه حديثه هذا فيقول: "لم يكن من اللائق أن نراوغ ونلعب [على الشعور القوميّ الروسيّ] ونُخفي وجهنا ... فأنا وكلُّ روسي آخر لنا الحق في هذه المشاعر ... وبقدر ما يكون هذا مفهوماً، بقدر ما يكون سوء التفاهم في المستقبل أقلّ". هذه حقيقة. فلنصحُ، ولنعدْ عدة عقود إلى الوراء (لقد صحا اليهود قبل الروس وعادوا).

وكما لو كانت الصحف تنتظر اللحظة! في اليوم التالي دارت الزوبعة: في "ناشا غازيتا" (أي "صحيفتنا". ــ ح. ر.) الليبرالية ("هل هذا وقت مثل هذا الحديث؟ إنه السؤال التقليدي إياه!) وفي "النوفويه فريميا" اليمينية، كما في "الريتش" الكاديتية البطرسبورغية. لم يستطع ميليوكوف إلاّ أن يُطلق تنهيدته: "لقد حقّق جابوتينسكي غرضه، فالصمت انتهى وما كان مخيفاً وخطيراً وحاولت وسائل النشر التقدمية والمثقفون التقدميون إخفاءه عن اليهود، ارتسم الآن بأبعاده الحقيقيّة". لكنَّ ميليوكوف المعروف ببرود محاكماته، توصل فيما بعد إلى حُكمه الخاص: أولاً وقبل كلِّ شيء تحذير مهمٌّ: إلى أين سيُفضي هذا كله؟ من المستفيد؟ "الوجه القومي"، ذلك الذي "يجب عدم إخفائه؟ لكنَّ هذا يجمعنا مع المتعصبين اليمينيين المتطرفين! (إذن، يجب إخفاء "الوجه القومي"). على هذا النحو يسقط المثقفون "في منزلق الهستيريا القومية"، "يهبطون إلى مستوى التعصُّب العرقي"، الذي يولد في "المناخ العفن الذي تخلقه الرجعية الاجتماعية المعاصرة".

لكنَّ ستروفه الذي لم يكن له من العمر حينئذٍ سوى أربعين عاماً، انبرى بما يشبه حمية الشباب ليردَّ في 12 آذار، في صحيفة "سلوفو" نفسها، على المقالة التي نصَّب ميليوكوف نفسه فيها معلّماً. فتناول أول ما تناول هذا الموقف التحريفي: "إلى أين سيفضي هذا كله؟" (من المستفيد؟ في طاحونة من سيصبُّ هذا؟ بهذه الطريقة ستُكمُّ الأفواه طول قرن كامل عن أيِّ مسألة كانت. إنّه تعبير تحريفي مشوَّه يفتقر إلى كلِّ مستوى من مستويات الوعي، فالكلمة بحدٍّ ذاتها، يمكن أن تكون نقية ومؤثِرة)، "من حيث جوهر، الأمر هذا لا يدحض وجهة نظرنا"، ومن حيث الحوار، توضع في مقارنة مع "مسقط"، "إلى أين تُفضي".

(بعد عدة أيام كتبت "سلوفو" تقول: "إنّه الأسلوب القديم المعروف للتشهير بالفكرة التي لا توافق عليها، وبالشخص الذي يُعلنها، عبر تلميح قبيح يُزعم أنَّ هذا سيلاقي ترحيباً، وتعاطفاً كاملاً من قبل ''نوفويه فريميا''، و''روسكويه زناميا''. ونحن نرى أنَّ هذا الأسلوب غير لائق البتة بوسائل النشر التقدمية". فمن حيث الجوهر: "يربطون بالمسائل القومية الآن أحاسيس عميقة وغالباً عاصفة. وبما أنَّ هذه الأحاسيس تُعدُّ تعبيراً عن وعي الشخصية القومية، فهي بالتالي أحاسيس مشروعة بالمطلق و ... إخمادها يُعدُّ عملاً في غاية القباحة". أمّا إذا سيقت وحُشرت في داخل النفس، عندئذٍ ستتملّص وتنطلق متّخذة شكلاً مشوَّهاً. إنَّ هذه "''اللاساميّة" الأكثر فظاعة وهولاً، هي التي تشكّل تربة للحلِّ القانوني للمسألة اليهوديّة أكثر ملاءمة من القتال العقيم ... الذي تخوضه ''معاداة الساميّة'' مع ''التيار المؤيّد للساميّة''. إنَّ أيَّ قومية غير روسية ليست تحتاج ... أن يحبَّها الروس كلهم من كلِ بدّ. كما أنّها أقلُّ حاجة إلى من يتظاهر بمثل هذه المحبة. ''فاللاساميّة'' التي تقترن بوعي سليم واضح للمبادئ الأخلاقية والسياسية و ... ضرورات الدولة، هي فعلاً أكثر ضرورة وفائدة لمواطنينا اليهود من النزعة العاطفية المترهلة المؤيدة للساميّة، خاصة التي يغلب عليها التصنُّع والمراءاة. من المهم بالنسبة لليهود أيضاً، أن يروا الوجه القومي للنزعة الدستورية

الروسيّة، ديمقراطيّة المجتمع الروسي. "ومن غير المفيد بالنسبة إليهم أبداً أن يستسلموا للأوهام التي تؤكد على أنَّ مثل هذا الوجه لا يعرفه سوى التوحش المعادي لكلِّ ما هو ساميّ. لا، ليس هذا رأس الميدوزا، إنَّما وجه القومية الروسيّة النقي الطيب التي من غيرها لا حياة للدولة الروسيّة". ثمَّ أردفت هيئة التحرير: "إنَّ الاتفاق يعني الاعتراف بكلِّ الخصوصيات [خصوصيات كلِّ قومية] واحترامها".

لقد تواصل اتِقاد مشاحنات الصحف. "في خلال أيام قليلة تراكم كمٌّ من الدراسات"، دار "في وسائل النشر التقدميّة الروسيّة ... جدال كان الخوض فيه قبل قليل من المحرمات: دار النقاش حول القوميّة الروسيّة بصفتها القومية العظمى!". لكنَّ صحيفة "سلوفو" هي التي رفعت مستوى النقاش إلى هذه الذروة، أمَّا الصحف الأخرى، فقد ركزت على "موضوعة الميل والنفور". فانقضَّ المثقفون يهاجمون بكثير من العصبيّة، صحيفة "اوسفوبوجدينيه" (="التحرير". ـح. إ.)، التي كانت منذ بعض الوقت فقط، البطل الذي يسيرون وراءه.

لم يُمسك جابوتينسكي نفسه عن الرد، بل أجاب مرتين ... "خرج الدبُّ من وجره"، وهاجم بيتر ستروفه الهادئ الرصين المتعقل، لكنَّ جابوتينسكي أحسَّ بأنَّه أُهين، فدعا مقالة ستروفه ومعها مقالة ميليوكوف، "إنَّهما مخرج بهيٌّ للرائدين"، "لقد تشبَّع إنشادهما الرقيق بالمراءاة، والتصنُّع، والتخاذل، والانتهازية، لهذا جاء عقيماً خالياً من الموهبة"؛ فاصطاد ميليوكوف على قوله: "لدى المثقَّفين الروس القدماء الطهر والنقاء"، أي "كان عندهم نفور من مناهضة اليهود؟ ... أمر يثير الفضول". ثم يلعن "طهر ونقاء" جوٌّ هذه البلاد الرائعة، "والصورة الزوولوجية ursus Judaeophagus intellectualis [للدبِّ المتعقل الذي يفترس اليهود]". (كما نال فينافير المعتدل نصيبه من جابوتينسكي أيضاً فوصفه: "بالخادم اليهودي في القصر الروسي"). لقد رفض جابوتينسكي بغضب أن ينتظر اليهود "حلَّ المسألة الوطنية العامة" (أي الإطاحة بالنظام القيصري): "نشكركم على هذا الرأي المتملق الذي يُعلن استعدادنا لنكران الذات اللائق

بالكلاب هذا"، و"فراهة مخلّص إسرائيل". ثمَّ ختم مقالته بقوله: "لم يعرف التاريخ من قبل استغلال شعب لشعب بمثل هذه الوقاحة والاستهتار".

لكنْ علينا أن نعترف بأنَّ هذا الخطاب المتطرف لم يأت في صالح وجهة نظر جابوتينسكي. بل بيَّنت الأحداث بعد ذلك بقليل، أنَّ الإطاحة بالنظام القيصري هي تحديداً التي فتحت أمام اليهود أبواباً لم تكن متاحة لهم من قبل، ووفرت لهم فرصاً أكبر مما كانوا يطمحون إليه هم أنفسهم، وهذا ما ينتزع البساط من تحت قدمي الصهيونية في روسيا، عليه لم يكن جابوتينسكي محقاً من حيث جوهر الأمر.

بعد أن مرَّ زمن طويل تذكَّر شاهد آخر على ذلك الزمن، هو أحد أعضاء حزب البوند، فكتب يقول: "في الأعوام 1907 –1914م سيطرت معاداة الساميّة صراحة، أو لنقل ""اللاساميّة""، على بعض الليبراليين في أوساط المثقفين الروس، أمَّا خيبة الأمل التي ولدتها النزعات المتطرفة في الثورة الروسيّة الأولى، فقد أعطت ذريعة أخرى لإلقاء المسؤولية عنها على مشاركة اليهود البارزة في الثورة". في السنوات التي سبقت الحرب مباشرة، "لوحظ نهوض في الحسِّ القوميّ الروسيّ ... في بعض الأوساط، التي كان يبدو منذ بعض الوقت فقط أنَّها ترى في المسألة اليهوديّة مسألة وطنيّة روسيّة".

في العام 1912م نقل جابوتينسكي، لكنْ في هذه المرة بهدوء، الملاحظة الآتية عن صحفي يهودي بارز: ما إنْ يباشر اليهود نشاطاً ثقافياً ما حتى يغدو في اللحظة عينها كأنَّه غريب عن الجمهور الروسي، فلا يعود يهتمُّ به البتة. كما لو كان شيء ما يدفعه بعيداً عنه. نعم، إنَّ خطَّ التمايز القومي حتميّة لا محيد عنها، وتنظيم شؤون الحياة الروسيّة "بعيداً عن الشوائب الغريبة التي من الواضح أنَّ الروس لا يطيقون أن تكون بهذا الكمِّ كله".

وإذا أجرينا مقارنة بين ما ورد سابقاً، فإنَّ الخلاصة الأكثر دقة ستكون على النحو الآتي: كانت تجري في أوساط المثقفين الروس (كما في كثير من الظاهرات التاريخية)، عمليتان في الوقت نفسه، وقد تميزتا بالحدة في الموقف من

اليهوديّة، لكنْ ليس بدرجة الودِّ تجاهها إطلاقاً. إلاّ أنَّ ما أبداه ستروفه كان خافتاً، غير واثق من نفسه، فصمت وتلاشى. أمَّا ما أعلنته مجموعة "شيت" المتعاطفة مع السامية، فقد بدا رائعاً، سواء من حيث العلن، أو في حياة المجتمع اليومية. لم يبق إلاّ أن نتأسف لأنَّ جابوتينسكي لم يستطع أن يُقدِّر رؤية ستروفه، عجزَ عن رؤية مناقبها.

إنَّ مناقشة موضوعة اليهوديّة في صحيفة "سلوفو" في العام 1909م، لم تتوقف بل تطوَرت وتحولت إلى مناقشة موضوعة الوعي القومي الروسي، ومازلت بعد ثمانين عاماً من حالة الطرش التي أُصيب به مجتمعنا، مسألة راهنة تحمل لنا العبرة. فقد أعلن ستروفه حينذاك أنَّه: "كما لا يجوز العمل على "روسنة" الذين لا يرغبون في أن "يتروسنوا"، كذلك علينا نحن ألاّ "نتروسن" ونتخلى عن إهابنا، ونغرق في خضمِّ التعدديّة القوميّة الروسيّة". واحتجَّ ف. غولوبيف ضدَ "أن تحتكر الجماعات الرجعيّة وحدها الموقف الوطنيّ والموقف القوميّ". "نحن أغفلنا واقع التأثير القهري للانتصارات اليابانية على الشعور الشعبيّ والشعور القوميّ. فهزيمتنا لم تحمل الذلَّ للبيروقراطيا وحدها"، كما كان يتوق المجتمع، "إنَّما إلى الأُمة كلّها، بشكل غير مباشر" (بل مباشرة، وليس بشكل غير مباشر!). "لقد بهتت القوميّة الروسيّة". لقد تجاهل الرأي العام التقدميّ المفهومين معاً، وتخلى عنهما لليمين. فقد بتنا نأخذ مفهوم ''وطنية'' بين قوسين. لكنْ ينبغي أن نباري ''الوطنيّة الرجعيّة بالوطنيّة الشعبيّة ... في موقفنا السلبي من وطنية المئة السود بقينا حيث نحن، وإذا كنَّا قد واجهناها فلم نواجهها بالوطنية، إنَّما بالمُثل الإنسانية الشاملة''. لكنْ ها هي كوسموبوليتيتنا عاجزة حتى اليوم عن نسج علاقات الصداقة بيننا وبين المجتمع البولوني.

ويتذكَر أ. بوغودين: إنَّه بعد التعنيف الذي وجَّهه فلاديمير سولوفيوف إلى "روسيا وأوروبا" دانيلوفسكي، بعد مقالة غرادوفسكي – ها هي "الاندفاعات الأولى لذلك الوعي الذي يستيقظ غريزياً لدى الشعوب للدفاع عن النفس في لحظة الخطر الذي يهددها" (كما توافق أيضاً أنَّه في الأيام التي دار فيها هذا

الجدال، تحديداً في العام 1909م كانت الدولة الروسيّة تعيش لحظات ذلّها القومي: أُرغمت على أن تُذعن وتوافق على إلحاق بوسنيا وغيرتيغوفينا بالنمسا، كان ذلك الموقف يستعيد "دبلوماسيتها في تسوسيما"). "وعلى نحو محتوم نمضي نحو هذه المسألة التي كانت حتى وقت قريب بعيدة عن اهتمام المثقفين الروس، أمّا الآن فتُطرح بإلحاح وحدّة يجعلان الخلاص منها فعلاً مستحيلاً".

وختمت "سلوفو" كلمتها بالقول: "حدث عرضيّ طارئ أثار عاصفة صحفيّة هوجاء". وهذا يعني أنَّ "المجتمع الروسيّ يشعر بحاجة إلى الوعي القومي". في السنوات السابقة، "لم يكن المجتمع الروسي يخجل من سياسة التلفيق المعاديّة للمصالح القوميّة فحسب ... بل من القوميّة الحقّة التي من غيرها لا معنى لأيِّ عملية خلق على مستوى الدولة". فالشعب الخلّاق "له وجهه الخاصّ حتماً". "لا ريب في أنَّ مينين كان قوميّاً لا يرقى الشك إلى قوميّته". إنَّ القوميّة البنّاءة، قوميّة الدولة، هي من سمات الأمم الحيّة، وكم نحتاج نحن مثلها اليوم. "فكما كانت الحال عليه منذ ثلاث مئة سنة، كذلك الآن، يستدعينا التاريخ ليسألنا ويسمع إجابتنا، يطالبنا بأن نجيب في وقت الامتحان المصيريّ: هل لنا الحقُ في أن يكون لنا وجودنا المستقلّ كأيِّ شعب أصيل آخر؟".

ها هو هذا الذي يدنو نحسُّ به في الهواء الذي نتنفس! على الرَّغم من أن العام 1909 بدا كأنّه مسالم إلى حدٍّ كبير.

لن نغفل أن نشير في هذا السياق إلى ما هو حقّ (م. سلافينسكي): "لقد كانت محاولة ترويس روسيا كلّها، أو بمعنى أصحّ تعظيمها ... تجربة مأساويّة بالنسبة إلى السمات القوميّة الحيّة، ليس لدى الشعوب غير الكبرى فقط، لكنْ بالنسبة إلى الشعب الروسي الأكبر في المقام الأول ... فقد تبيّن أنَّ القوى الثقافيّة التي تملكها القوميّة الروسيّة الكبرى، كانت أضعف من أن تنهض بهذه المهمة". إنَّ القوميّة الروسيّة الكبرى لم تكن تحتاج إلاّ إلى تقدم مكثّف في العمق، إلى دورة دمويّة طبيعيّة (وما يبعث الأسى في النفس أنَّ الروس لم يستوعبوا الدرس

حتى اليوم). "ويكون النضال ضدّ القوميّة الفيزيولوجية ضرورة، [عندما] تسعى القوميّة الأقوى إلى أن تفرض على القوميات الأضعف نظام دولة دخيل عليها". فبناء مثل هذه الإمبراطورية بالقوة الفيزيائية وحدها، عملٌ مستحيل، كما أنّه غير ممكن "بالقوة المعنوية" أيضاً. وإذا كانت متوفّرة لدينا، فإنَّ المساواة بين الشعوب (بمن فيهم اليهود والبولونيون) لا تشكل أيَّ خطر علينا.

منذ معمعان القرن التاسع عشر، فما بالك بأوائل القرن العشرين، أحسَّ المثقفون الروس بأنّهم باتوا على مستوى كونيّ، على مستوى إنسانيّ، على مستوى كوسموبوليتي، على مستوى أُمميّ (لم يُفرقوا حينئذٍ بين هذه المفاهيم). كانوا حينئذٍ قد ابتعدوا في كثيرٍ من المواقف، عمَّا هو قومي روسي (من على منبر دوما الدولة تداولوا بروح الدعابة مصطلح: "الإسخريوطي -الوطني").

أمَّا المثقّفون اليهود فلم يتخلوا عمَّا هو قومي. حتى إنّ الاشتراكيّين اليهود المتطرّفين، حاولوا أن يزخرفوا بطريقة ما، أيديولوجيتهم بالشعور القومي. لكنْ في ذلك الوقت عينه، لم تُسمع كلمة واحدة من اليهود – بدءاً من دوبنوف وجابوتينسكي حتى فينافير، عن أنَّ المثقفين الروس يقفون بكل قواهم إلى جانب إخوتهم المضطهدين، أو أنّه يمكن التخلي عن الشعور القومي. وإذا شئنا الحق فإنَّ هذا كان يجب أن يُقال. فلم يفهم أحد حينئذٍ هذا المنعطف: كان اليهود يقصدون بالمساواة أكثر من مجرَّد نيل حقوق متماثلة.

لقد تقدَّم المثقفون الروس على طريق المستقبل وحدهم. لم ينل اليهود حقوق المساواة في ظل حكم القيصر، وعلى أغلب الظنّ أنَّهم لهذا السبب تحديداً، حظوا بدعم المثقفين الروس. ونحن أدغمنا بمفاهيمهم مفاهيم أهدافنا، ومصالحنا، ودوافعنا، وقراراتنا. لقد أخذنا بوجهة نظرهم تجاه تاريخنا والعبر المستخلصة منه. كان إدراك هذا الواقع أكثر أهمية من حساب نسبة مساهمة اليهود في تحريك روسيا (فقد حرّكناها كلنا معاً)، وصنع ثورتها، أو المساهمة في سلطة البلاشفة.

الفصل الثاني عشر

إلى الحرب (1914 -1916م)

لقد كانت الحرب العالمية الأولى جنون القرن العشرين الذي لا يثير أيَّ شك. فمن غير أيِّ سبب محدَّد، أو أغراض واضحة، وقع الصدام القاتل بين ثلاث من الدول الأوروبية العظمى هي: ألمانيا، روسيا والنمسا - المجر. كانت الحصيلة أنَّ اثنتين منها لم تتعافيا من آثارها خلال هذا القرن كله، والثالثة تبعثرت وانقسمت. فشريكتا روسيا في ذلك الجنون ربحتا من حيث الظاهر، وصمدتا طول ربع قرن آخر لتخسرا بعد ذلك تفوُّق قوتهما إلى الأبد، ثمَّ تخسر أوروبا كلها لقب رائدة البشرية الذي طالما تفاخرت به، وتتحوَّل إلى محطِّ حسدٍ، وتتساقط أملاكها الاستعمارية من بين يديها المنهكتين اللتين دبَّ فيهما الضعف.

لم يفهم الأباطرة الثلاثة، لا سيما نيقولاي الثاني وحاشيته، في أيِّ حرب غرقوا، وما هي أبعادها، ومدى قساوتها. ما عدا ستوليبين وبعده ب. ن. دورنوفو، لم تدرك السلطات الروسيّة مغزى التحذير الذي وُجِّه إلى روسيا في الأعوام 1904 -1906م.

اليهوديّة في الحرب العالميّة الأولى

دعونا ننظر إلى هذه الحرب من وجهة نظر اليهود. كان يعيش على أراضي هذه الامبراطوريات المتجاورة الثلاث، ثلاثة أرباع يهود العالم (و90% من يهود أوروبا)، كما كانت إقامتهم في مسرح العمليات الرئيس، من مقاطعة كييف (ومن ثمَّ ليفيليانديا أيضاً)، حتى هاليسا النمساوية (ومن ثمَّ رومانيا أيضاً). وقد وضعت الحرب أمامهم المسألة الملحَّة الآتية: كانوا يعيشون كلهم على تخوم هذه الامبراطوريات الثلاث، فهل يستطيعون أن يُراعوا موقفهم الوطني الامبراطوري؟ بالنسبة للجيش الذي يعبر الحدود، ثمّة وراء خطّ الجبهة عدوٌّ، أمَّا بالنسبة إلى اليهود – السكان المحليّين - فهم جيرانهم من أبناء قومهم. لذلك لم يكن من الممكن أن يكونوا مع هذه الحرب؛ هل كان يمكن أن يتبدَّل موقفهم هذا التبدُّل الحاد نحو الموقف الوطنيّ؟ أمَّا اليهود الروس العاديون الذين كانوا يقيمون في إقليم الاستيطان اليهودي، فلم يكن لديهم أيُّ دافع حقيقيّ ليقفوا مع الجانب الروسيّ المقاتل. فمنذ قرن مضى، كما رأينا، وقف يهود الإقليم الغربي يساعدون الروس ضدَّ نابليون. لكنْ من أجل أيِّ شيء سيساعدون الجيش الروسيّ في العام 1914م؟ من أجل إقليم الاستيطان اليهودي؟ بالعكس: ربما أيقظت الحرب في نفوسهم آمال التحرر؟ ربما يأتي النمساويون - الألمان، فلا يعود لإقليم الاستيطان وجود، ويُلغى معيار النسبيّة في المؤسسات التعليميّة؟

للمصادفة، في الشطر الغربي من إقليم الاستيطان بقي البوند قوياً، ونعرف من لينين في شباط من العام 1915م، أنَّ "الفريق الأكبر من البونديين كانوا مع الجانب الألماني، يتمنون الهزيمة لروسيا". كما نعرف أيضاً أنَّ "الفورويرتس"

(="إلى الأمام". —ح. إ.)، اليهودي المستقل اتخذ موقفاً صريحاً إلى جانب الألمان. في أيامنا هذه يلمّح مؤلّف يهودي بدقة ملفتة إلى ذلك الزمن: "إذا تمعَّنا في شعار: "في سبيل الإله، والقيصر، والوطن ... فلن نستطيع أن نتخيَّل يهوديًا واحداً يمكن أن يأخذ هذا الشعار على محمل الجدّ"، بالمعنى المباشر للكلمة.

لكنَّ ما حصل في المدن الرئيسة كان مختلفاً. فخلافاً لسلوكها في العامين 1904 -1905م، عرضت الأوساط اليهوديّة النافذة في العاصمة، بل حتى الليبراليون الروس عرضوا مساعدتهم على النظام القيصري، اقترحوا تشكيل تحالف. "لم يبق اليهود خارج موجة نهوض الشعور الوطنيّ التي اجتاحت روسيا كلها". "لقد كان ذلك الوقت هو الوقت الذي عندما رأى فيه بوروشكيفيتش الحسَّ الوطنيّ الروسيّ لدى اليهود، تقدَّم وصافح الرابين". وفي وسائل النشر (ليس المقصود هنا "نوفويه فريميا"، بل وسائل النشر الليبراليّة نفسها التي يقول عنها فيته: إنَّها "نصف يهوديّة" تعبِّر عن سورات الغضب الشعبي وتقودها، والتي طالبت في العام 1905م باستسلام النظام برمَّته)، هبَت منذ الأيام الأولى للحرب زوبعة من الحماس الوطنيّ. "عبر رأس صربيا الصغيرة رفعوا السيف على روسيا حارسة حرمة حقوق الملايين في العمل والعيش". في الاجتماع الاستثنائي الذي عقدته دوما الدولة ليوم واحد، "كانت تشغل ممثلي مختلف القوميات والأحزاب في ذلك اليوم التاريخي، فكرة واحدة، ويستولي عليهم شعور عظيم واحد ... ارفعوا أيديكم عن روسيا المقدَّسة! ... نحن مستعدون لأيّ تضحيات في سبيل الحفاظ على كرامة الدولة الروسيّة ووحدتها ... "اللّه، والقيصر، والشعب! — والنصرُ محقَق ... دفاعاً عن وطننا نحن اليهود نعلن ... شعورنا العميق بالانتماء".

حتى لو برزت في خلفية هذا الموقف حسابات تعوِّل على ردِّ الجميل: نيل حقوق المساواة لو بعد انتهاء الحرب، فالحكومة لو قبلت بهذا التحالف المفاجئ، لكان عليها أن تحسم أمرها وتنفّذ، أو عل الأقل، أن تعد بأن تنفّذ الالتزامات التي تتعهَّد بها. لكنْ في واقع الحال، هل كان الحصول على حقوق المساواة

يقتضي قيام ثورة بالضرورة؟ نعم، إنَّ الهزيمة التي ألحقها ستوليبين بالثورة "أدَّت إلى تراجع الاهتمام بالسياسة في الأوساط الروسيّة كما في الأوساط اليهوديّة"، كان هذا يعني بالحدِّ الأدنى، التراجع عن الثورة. وقد عبَّر شولغين عن هذا فقال: "لم تكن السلطة الروسيّة قادرة على محاربة اليهود والألمان في الوقت نفسه. فكان لا بدَّ من عقد تحالف مع أحد هذين الخصمين". وبما أنَّها عقدت التحالف مع اليهوديّة الروسيّة، كان عليها إذن أن ترسِّخه مباشرة بإصدار وثيقة حُسن نوايا كتلك التي أصدرتها للبولونيين. بيد أنَّ هذا كان يمكن أن يأخذه على عاتقه رجل كستوليبين فقط. لكنَّه لم يعد موجوداً، وبات مثل هذا الإعلان الآن لا معنى له، فلم يصدر (منذ ربيع العام 1915م، أُغفل تماماً، فباتت الحال أسوأ بكثير).

بالتأكيد كان لدى الأوساط الليبرالية، بمن فيها كبار وجهاء اليهوديّة الروسيّة، اعتبار يقيني إضافي. فمنذ العام 1907م (مرّة أخرى من غير أن تكون هناك أيُّ ضرورة)، كان نيقولاي الثاني قد تورَّط في تحالف عسكري مع إنكلترا (أي طوَّق عنقه بحبل الصدام الروسي -الألماني المقبل). أمَّا الآن، فقد بات الاعتبار لدى الرأي العام التقدميّ الروسيّ على النحو الآتي: إنَّ التحالف مع الدول الديموقراطيّة الكبرى، وتحقيق النصر معها سيجعلان إشاعة الديموقراطيّة عند نهاية الحرب ضرورة لا بدَّ منها بالنسبة إلى روسيا، هذا يعني، نيل اليهود حقوق المساواة وثباتها. إذن، لقد كان هناك مغزى حقيقيّ بالنسبة إلى اليهود الروس كلّهم، وليس يهود العاصمة فقط، ليعملوا على انتصار روسيا في هذه الحرب المجنونة.

بيد أنَّ الترحيل الجماعي العشوائي لليهود من الشريط الحدودي على جبهات القتال الذي أمرت به القيادة العامة في أثناء الانسحاب الكبير في العام 1915م، وضع حداً لهذا الأمل. كانت القرارات الخرقاء التي اتُّخذت في بداية الحرب هي التي وضعت بين يديِّ القيادة العامة مثل هذه الصلاحيات. ففي حمّى

أيام تموز من العام 1914م، بينما كان القيصر يعيش أحلامه على وقع خطى الحرب، أقرَّ في سياق عمله اليومي المعتاد، وثيقة بالأحكام المؤقتة لإدارة شؤون قوات الميدان، منح بموجبها القيادة العامة سلطات مطلقة على مناطق جبهات القتال بعمق كبير جداً، تقرِّر بشأنها ما تراه مناسباً من غير الرجوع إلى مجلس الوزراء. في حينه بدا أنَّ هذه الوثيقة غير جدية ولا أهمية لها؛ لأنَّ المعروف على وجه العموم، أنَّ القيادة العليا هي دوماً للقيصر نفسه، لذلك لا يمكن أن يُفضي هذا إلى صدام مع مجلس الوزراء. لكنْ في أيام تموز تلك نفسها، أقنع الوزراء القيصر بألاَّ يتولى القيادة العليا بنفسه. لكنَّ القيصر بفطنته وقوَة فراسته، عهد بهذا المنصب إلى أثيره الأجوف سوخوملينوف وزير الحربية. فكان طبيعياً أن يعتذر سوخوملينوف عن هذا الشرف السامي، فآل المنصب إلى الأمير نيقولاي نيقولايفيتش، الذي رأى أنَّه من غير المحبَّذ أن يبدأ مهمته بتهشيم الكادر القيادي الذي كان قد تمَّ تعيينه، ويغيِّر رئيس الأركان العامة الذي كان قد تسلَّمه قبله الجنرال يانوشكيفيتش. فلم تتغيَّر في غضون ذلك أحكام أمر قيادة الميدان. وهكذا باتت دفة قيادة شؤون ثلث روسيا بين يديٍّ الجنرال النكرة يانوشكيفيتش، الذي كان شخصية إدارية، ولم يكن شخصية عسكرية أصلاً.

مع بداية الحرب مباشرة، صدرت أوامر محلية بترحيل اليهود من منطقة الشريط الحدودي. في شهر آب من العام 1914م، كان يمكن أن نقرأ في الصحف ما يلي: "حقوق اليهود ... أمر معمَّم بالهاتف على كل حُكام الولايات ورؤساء المدن، يقضي بوقف ترحيل اليهود جماعات أو أفراداً". لكنْ مع نهاية العام 1915م، كما يشهد الدكتور د. باسمانيك الذي عمل طول زمن الحرب طبيباً على جبهة القتال، "بغتة دار الحديث على الجبهة، وفي الأوساط الحكومية، عن الجاسوسية اليهوديّة".

فأخذ يانوشكيفيتش تحديداً يُصدر ابتداء من صيف العام 1915م، أوامر بترحيل اليهود من مناطق جبهة العمليات الحربيّة عشوائياً، من غير تمييز، في محاولة منه للتغطية على كارثة اندحار الجيوش الروسيّة. كان ذلك المخرج مخرجاً ملائماً: إلقاء مسؤولية الهزيمة على اليهود.

ربما لا يكون هذا الاتهام قد ظهر من غير دسيسة حاكتها رئاسة الأركان الألمانية التي كانت قد عمّمت نداء إلى اليهود الروس دعتهم فيه إلى الانتفاض ضدّ حكومتهم. غير أنّ مصادر كثيرة تؤكد أنّ ما حصل كان بتحريض من البولونيين، وهو الرأي الذي أخذ به أكثرهم. فقبيل الحرب مباشرة انتشرت في بولونيا، بحسب سليوزبيرغ، موجة عنيفة من العداء للساميّة: "مواجهة سيطرة اليهود على النشاط الصناعيّ والتجاريّ ... وهي حرب أدركت التحريض ضدّ اليهود في سمّته ... لقد حاول البولونيون جهدهم ليشهّروا بالسكان اليهود لدى القيادة العامة، فأشاعوا حكايات وخرافات عن الجاسوسيّة اليهوديّة. بعد إعلان حسن النوايا الذي أصدره نيقولاي نيقولايفيتش للبولونيين في آب من العام 1914م مباشرة، أنشأ البولونيون في وارسو لجنة مركزيّة تافهة لم يدع إليها أيّ يهودي، مع أنّ اليهود كانوا يشكلون في بولونيا 14% من عدد السكان. وفي أيلول وقعت مجزرة يهودية في سوفاليكا. ففي أثناء انسحاب القوات في العام 1915م، "كان من السهل أن تقبل الجيوش الافتراء البولوني في ظلّ حالة التوتُّر التي كانت تسيطر على سلوكها". يؤكد باسمانيك في هذا السياق، إنّه "يستطيع أن يبرهن بالدليل القاطع على أنّ أول إشاعة انتشرت عن خيانة اليهود، كان البولونيون مصدرها"، فثمة من البولونيين من "ساعد الألمان عن سابق قصد. ثم عمل هؤلاء على تبرئة أنفسهم من الشبهة، فأشاعوا أقاويلهم وافتراءاتهم عن التجسس اليهودي". ويؤكد بعض المصادر في سياق عمليات الترحيل الجماعي لليهود، أنّ يانوشكيفيتش نفسه كان "بولونياً اعتنق الأرثوذكسية".

والحقيقـة أنّـه كـان يمكنـه أن يتـأثر بهـذا، إلاّ أنّنـا لا نـرى أنّ هـذه التوضيحات كلّها كافية لتبرير موقف القيادة العامّة الروسيّة. صحيح أنّ يهود الشريط الحدودي ومنطقة الجبهات القتالية، لم يكن باستطاعتهم أن يقطعوا علاقاتهم مع القرى المجاورة، ويوقفوا "البريد اليهودي" ويتخذوا موقفاً عدائياً من أبناء قومهم. فضلاً عن ذلك، كان يهود إقليم الاستيطان الروسي يرون في الألمان حينئذٍ أُمّة أوروبية ثقافتها راقية، لا تُقارن بها ثقافة الروس والبولونيين (لم يكن ظلُّ مدينة اوسفينتسيم البولونية القاتم قد هبط على الأرض بعد، ولم يكن قد اخترق الوعي اليهودي بعد ...). في تلك الآونة كتب مراسل "التايمز" ستفن غريم يقول: "فور ظهور الدخان الألماني فوق البحر، ينسى سكان ليبافا اللغة الروسيّة ويتحدثون بالألمانية. وفي حال ظهرت ضرورة الإجلاء عن المكان، كان اليهود يُفضّلون التوجُّه نحو الألمان. كان النفور الذي تثيره في نفوسهم القوات الروسيّة، ثمّ عمليات الترحيل، يمكن أن يُفضيا فقط إلى شعورهم بمزيد من المرارة، ويدفع ببعضهم إلى التعاون مع الألمان.

وزاد على اتهام اليهود من السكان المحليين، اتهام اليهود الجنود أيضاً بالجبن والتخاذل. فقد كتب كاهن الجيش الروسي او. غريغوري شافيلسكي الذي كان مقيماً في مقرّ القيادة العامة إقامة دائمة لكنّه كان يقوم بجولات على الوحدات المقاتلة ويطلع على المعلومات الواردة، كتب يقول في مذكراته: "منذ الأيام الأولى للحرب ... أخذت الأحاديث تدور عن اليهود: الجنود اليهود جبناء، متخاذلون، السكان اليهود جواسيس وخونة. ورووا أمثلة كثيرة عن لجوء الجنود اليهود إلى الأعداء، أو عن هروبهم من الجبهات: كان السكان اليهود المحليّون يطلقون إشارات متفق عليها مع الأعداء، وحينما يبدأ العدو هجومه كانوا يسلّمون الجنود والضباط وسوى ذلك من المقاتلين المعتقلين. كلّما كان الوقت يتقدّم، كان موقفنا يزداد سوءاً، ويتفاقم البغض والحقد على اليهود. من الجبهة كانت الأخبار تصل إلى الداخل ... فتخلق جواً شديد الخطورة على اليهوديّة الروسيّة كلها". فقد كتب الملازم الاشتراكي م. ليمكه الذي كان

مقيماً عندئذٍ في مقرّ القيادة العامة، كتب في دفتر مذكراته السرِي ما كان قد اقتبسه من التقارير الواردة من الجبهة الجنوبية الغربية في شهر كانون الأول من العام 1915م: "لقد بلغ فرار اليهود والبولونيين من عندنا إلى الأعداء أبعاداً في غاية الخطورة، ولا تقتصر عمليات الفرار على المواقع الأمامية وحدها، بل من المؤسسات الداخلية كذلك". في تشرين الثاني من العام 1915م، كان يمكننا أن نسمع في اجتماع مكتب الحلف التقدمي (بحسب مدوّنات ميليوكوف في الاجتماع): "من هو الشعب الذي برهن على موقفه اللاوطني؟" –"اليهود طبعاً".

في ألمانيا والنمسا - المجر، كان يمكن لليهود أن يشغلوا مناصب بارزة في مؤسسات الدولة من غير أن يكونوا ملزمين بتغيير انتمائهم الديني، كما كان يمكنهم أن يشغلوا في النمسا - المجر مناصب قيادية في الجيش. أمّا في الجيش الروسي، فلم يكن مسموحاً لليهودي الذي لم يعتنق المسيحية أن يصل إلى رتبة ضابط، وغالباً ما كان اليهود الذين يحملون شهادات علمية عالية يؤدون الخدمة العسكرية جنوداً عاديين. لذلك كان من الطبيعي ألاّ يطمحوا للخدمة في مثل هذا الجيش (مع ذلك، ثمة من اليهود من نال وسام القديس غيورغي. يتذكّر النقيب غ. س. دومبادزه طالباً يهودياً في كلية الحقوق نال صليب القديس غيورغي أربع مرات، لكنّه رفض أن يلتحق بمدرسة الضباط كيلا يُضطر إلى أن يقبل سرّ المعمودية فيقضي بذلك على والده. فيما بعد أعدمه البلاشفة رمياً بالرصاص.

في الوقت نفسه ليس من المنطقي، بل ليس من الواقعي أن نستنتج بأنّ الاتهامات التي وُجهت إلى اليهود كانت كلّها باطلة. يكتب شافيلسكي: "إنّ هذه المسألة ذات أبعاد واسعة جداً، وهي في غاية التعقيد ... إلاّ أنّني لا أستطيع إلاّ أن أقول: إنّ اتهام اليهود في تلك الآونة لم يكن تنقصه المسوِغات ... ففي زمن السلم عانوا من وجودهم في شتى المناصب غير الحربية؛ وفي زمن الحرب ... ملأ اليهود الصفوف القتالية في الجيش ... في أثناء الهجوم كانوا في غالب الأحيان يتراكضون في أطراف الصفوف الخلفيّة، أمّا في أثناء الانسحاب فهم في الصفوف الأمامية. في مرات كثيرة كانوا هم سبب الفوضى التي تنتشر في

الوحدات القتالية... كما لا يمكننا أن ننفي حالات تجسس اليهود وفرارهم إلى معسكر العدوِ ... ولا يمكن إلاّ أن تُثير كثيراً من الشبهات معرفة اليهود المذهلة بتفاصيل كل ما يجري على جبهات القتال. في بعض الأحيان كان "بريد الخُفّ" يعمل أسرع وأدقّ من أي هاتف في هيئة الأركان ... ففي قرية بارانوفيتشا اليهوديّة التي كانت تقع غير بعيد عن مقرّ القيادة العامة، كانوا في أحيان كثيرة يعرفون بالأحداث التي تقع على الجبهة قبل أن يعرف بها القائد العام نفسه ورئيس أركانه" (يشير ليمكه إلى أنَّ شافيلسكي نفسه كان من أصل يهودي).

لقد جاء إلى مقرِّ القيادة العامة الرابين الموسكوفي مازيه، ليُقنع شافيلسكي بأنَّ "اليهود مثلهم كمثل الآخرين كلهم: فيهم الرجال، والشجعان، فيهم الجبناء والمتخاذلون؛ منهم من هو مخلص لوطنه، ومنهم من هو نذل خسيس وخائن"، ثمَّ ساق أمثلة من الحروب السابقة. "كم كان يُثقل على نفسي، إلاّ أنّه كان عليَّ أن أروي له كل ما أعرفه عن سلوك اليهود في هذه الحرب"، "فلم أُقنعه ولم يُقنعني".

هاكم شهادة معاصر آخر. أبراهام زيسمان، مهندس كان يخدم عندئذٍ في لجنة الإجلاء، ويتذكّر بعد نصف قرن: "من المخجل بالنسبة لي، لكنْ ينبغي عليَّ أن أقول: [إنَّ اليهود على مقربة من الجبهة الألمانية] سلكوا سلوكاً خسيساً، إذْ كانوا يقدِّمون للجيش الألماني كلّ مساعدة ممكنة".

كما وُجهت لليهود التجّار الموردين تهماً اقتصادية بحتة. فقد نسخ ليمكه أمراً كان قد وقعه القيصر في مقرِ القيادة العامة يوم تسلم مهام القائد الأعلى (هذا يعني أنه أُعدَّ في هيئة أركان يانوشكيفيتش): إنَّ الموردين اليهود يتعاملون باستهتار مع توريد الضمادات، والخيل، والخبز إلى الجيش؛ يحصلون من الوحدات القتالية على تصاريح "تبيّن أنّهم مكلفون بأن يشتروا لصالح القوات ... من غير إثبات كمية المشتروات ومكانها". ثمَّ "ينسخون عنها صوراً طبق الأصل مصدّقة من دواوين مختلف المدن، ويوزعونها على أنصارهم"، بالتالي يغدو من حقهم أن يشتروا ما يريدون من أيِّ إقليم من أقاليم الإمبراطورية. "بفضل تعاضد

اليهود وتكاتفهم، وتوفُّر ما يكفي من الموارد المالية لديهم، استطاعوا أن يحتكروا شراء الخيل والقمح في أقاليم شاسعة من روسيا"، وقد أدى هذا الاحتكار إلى ارتفاع الأسعار على السلع وعرقلة عمل التجّار وكلاء الدولة.

لكنَّ هذا كله لا يمكن أن يبرِّر سلوك يانوشكيفيتش والقيادة العامة. فالقيادة الروسيّة أخذت ترحِّل اليهود حشوداً حشوداً خبط عشواء. وقد برز على وجه الخصوص، التعامل مع يهود هاليسيا، هم الآن من سكان النمسا – المجر. "منذ بدء الحرب العالمية الأولى فرَّ عشرات آلاف اليهود من هاليسيا إلى المجر، وبوهيميا، وفينَّا. وقد عانى اليهود الذين بقوا في هاليسيا معاناة مريرة في فترة الاحتلال الروسي للإقليم". "لقد باتت مشاهد الهزء باليهود وازدرائهم، وضربهم، وحتى قتلهم على أيدي وحدات القوزاق خاصة، مشاهد معتادة في هاليسيا". فقد كتب او. شافيلسكي يقول: "في هاليسيا زادت حدّة الحقد على اليهود وكرههم بسبب تلك المضايقات التي كان يكابدها في زمن السيطرة النمساويّة، السكّان المحليّون الروس [أي الأوكرانيون والروس] على أيدي كبار المالكين اليهود". أمَّا "في مقاطعة كوفين فكان الترحيل جماعياً طالهم جميعا فرداً فرداً: لقد جاؤوا من كوفنو بالجنود المرضى، والجرحى، وعائلات المقاتلين على الجبهة". كما كانت هناك "مطالبات برهائن ضمانة في حال التجسس"، ثم تحولت هذه "إلى ظاهرة مألوفة".

يظهر ترحيل اليهود الذي جرى عندئذٍ مثيراً للدهشة على خلفية أنَّ ما جرى في العام 1915م لم يكن كالذي جرى في العام 1941م، إجلاءً جماعيا لسكان المدن. كان الجيش يتراجع والسكان المحليون لم يبرحوا أماكنهم، لم يُطرد أحد إلاَّ اليهود، طرداً جماعيّاً وعلى وجه السرعة في أكثر الأحيان، عداك عن المهانة الطبيعية كان يحلُّ بهم الإفلاس، وفقدان المأوى، والأملاك – إنّه حقاً مشهد آخر لمجزرة عظمى، لكنَّ من يرتكبها الآن ليس الدهماء، بل السلطات. فكيف لا نقدِّر المأساة اليهوديّة؟ فضلاً عن هذا، لم تكن تعليمات يانوشكيفيتش وما يقوم به القادة الميدانيون التابعون له يجري ضمن خطة

مدروسة، بل كان يتّسم بالفوضى، والعصبية، والتضارب، وهو ما زاد الطين بلّة. فلم تكن تلك التعليمات تدوَّن في كشوف أو حوليات. ولم يبقَ ما يدلُّ عليها سوى تعليقات مبعثرة في وسائل إعلام تلك السنوات، ما عدا ملخَّص وثائق جاء في "أرشيف الثورة الروسيّة" الذي جمعه إ. ف. هوسين وأصدره، والحقيقة أنّها وثائق عرَضية، لا نظام لها، ومثلها كمثل وثائق ليمكه، مجرَّد نُسخ خاصة منقولة عن وثائق. لكنْ حتى هذه المعطيات القليلة تتيح فرصة للحكم على ما كان يجري.

فبعض التعليمات كان يقضي بترحيل اليهود من منطقة العمليات القتالية "باتجاه العدوِ" (أي نحو النمساويين عبر الجبهة؟)، ويهود هاليسيا نحو الخلف إلى هاليسيا؛ بينما كان يقضي بعضها الآخر بترحيلهم إلى عمقنا نحن: أحياناً إلى مناطق قريبة، وأحياناً أخرى إلى الضفة اليسرى لنهر الدنيبر، أو إلى "ما وراء الفولغا". ثمَّ كانت ثمة تعليمات تقضي "بأن يُخلى من اليهود شريط من الجبهة بعمق خمسة فراست"(الفراست يزيد قليلاً على الكيلو متر)، وأحياناً أخرى بعمق خمسين فرستاً. كانت تحدّد المهلة لإنجاز عملية الإخلاء بخمسة أيام، ومن لا يرغب يُرحَّل رغماً عنه تحت الحراسة. ومن الواضح أنَّ المدّة المعطاة لإتمام عملية الترحيل لا تكفي لترحيل الناس مع أملاكهم، لذلك يبدو أنّهم كانوا يُرحلون من غير أملاك تقريباً. تارة كانت التعليمات تقضي بعدم ترحيل اليهود. لكنْ في أثناء انسحابنا كنَّا نأخذ معنا رهائن من الشخصيات اليهوديّة البارزة، خاصة الرابين، في حال وشى اليهود إلى الألمان بالروس والبولونيين المتعاطفين مع روسيا وقرَّروا البقاء في المكان؛ في حال أعدم الألمان هؤلاء سيُعدم الرهائن (لكنْ كيف كان يمكن تبيُّن حقيقة ما يجري على الأراضي التي يحتلها الألمان؟ إنّها لطريقة خرافيّة!). تارة أخرى لم يأخذوا رهائن، بل كانوا يعينونهم من بين سكان أراضينا من اليهود المحليين، ويحمِّلونهم مسؤولية حصول أيٍّ عمليات تجسس يهودية، أو إرسال إشارات إلى العدوِّ. وتارة ثالثة كان يُحرَّم على اليهود أن يتواجدوا في أماكن حفر الخنادق في عمقنا الخلفي (كي لا ينقلوا إلى النمساويين عبر أبناء قومهم أماكن توضُّعها، إذْ كان اليهود الرومانيون يعبرون

الحدود من غير عائق)؛ وأحياناً يفعلون العكس، يرسلون اليهود المدنيين تحديداً إلى العمل في حفر الخنادق. وأحياناً (كما كان يفعل قائد منطقة القوقاز العسكرية الجنرال الطاغية سانديتسكي): كانوا يجمعون الجنود اليهود كلهم في فصائل، ويرسلونهم إلى الجبهة. لكنَّهم في أحيان أخرى كانوا يستاؤون من تعويض النقص في أفراد الوحدات المقاتلة باليهود "لأنَّهم لا نفع منهم كمقاتلين".

إنَّ هذا كله يخلق انطباعاً بأنَّ يانوشكيفيتش ومعه القيادة العامة، كانا قد فقدا البوصلة تماماً. فما الذي كانا يريدانه؟ في أسابيع الحرب الأولى هذه، حينما كانت القوات الروسيّة تنوء تحت وطأة الانسحاب من غير ذخائر، أُرسلت بانتظام "لائحة أسئلة" (تلائم نمط العيش في داخل البلاد بعيداً عن الجبهة)، موجَّهة إلى القيادة العامة: جمْع معطيات بحثية عن "السمات الأخلاقية، والقتالية، والفيزيائية للجنود اليهود"، وعن علاقاتهم مع السكان اليهود المحليين. وجرى نظرياً إعداد مشروع قانون عن إمكانية استثناء اليهود بعد الحرب، من تأدية الخدمة العسكرية.

نحن لا نعرف شيئاً عن الأعداد الدقيقة للذين رُحِّلوا. فنقرأ في "كتاب اليهوديّة الروسيّة"، إنَّه في نيسان من العام 1915م، طُرد من مقاطعة كورلياند 40 ألف يهودي، وفي أيار من العام نفسه، طُرد من مقاطعة كوفينسك 120 ألفاً. لكنَّ هذا الكتاب نفسه يسوق في مكان آخر رقماً كلياً يشمل المرحلة كلها واليهود النازحين، فيتجاوز العدد 250 ألفاً، مع أنَّ العدد الكلي للمطرودين بالكاد يتجاوز نصف العدد المذكور. فبعد الثورة نقلت "نوفويه فريميا" خبراً مفاده أنَّ إجلاء سكان هاليسيا كلهم، أسفر عن تشتت 25 ألفاً في روسيا كلّها، كان منهم قرابة ألف يهودي (لقد أصبحنا هنا أمام أرقام قليلة لا تقارب واقع الأشياء).

سقوط حدود إقليم الاستيطان اليهودي في روسيا

في 10 -11 أيار صدر أمر بوقف عمليات الترحيل، فتوقفت. وقد دعا جابوتينسكي عملية ترحيل اليهود هذه من الشريط الحدودي على جبهة القتال في العام 1915م، "بالكارثة التي لم يكن لها مثيل منذ زمن فرديناند وإيزابيلا" الإسبانيين في القرن الخامس عشر. لكنْ ألم يكن من مفارقات التاريخ أن تتحوّل عملية الترحيل الجماعي هذه، وموجة السخط التي أثارتها، إلى أداة لتدمير حدود إقليم الاستيطان اليهودي وإلغائها فعلياً؟

وجاءت استجابة ليونيد أندرييف في وقتها تماماً: "إنَّ ''بربريتنا'' المزعومة التي يتهموننا بها ... تقوم حصراً، جملة وتفصيلاً، على مسألتنا اليهوديّة وتداعياتها الدموية".

لقد أثار ترحيل اليهود أصداء دولية واسعة. فقد كان المدافعون عن الحقوق من يهود بطرسبورغ، ينقلون إلى أوروبا في زمن الحرب، معطيات عن وضع اليهود، "وقد أظهر ألكساندر إيسايفيتش براودو نشاطاً في هذا الميدان لم يفتر ولم يكلّ. ويروي أ. غ. شليابنيكوف أنّه تلقى حتى من غوركي وثائق عن ملاحقة اليهود في روسيا، فنقلها إلى أمريكا. وسرعان ما لاقت هذه المعطيات أصداء، وردود أفعال في أوروبا والولايات المتحدة، أثارت موجة سخط عارمة.

إذا كان "أفضل ممثلي المجتمع اليهودي ومثقفوه، قد خشوا من ألاّ يؤدي انتصار ألمانيا ... إلاّ إلى ترسيخ مواقع العداء للسامية ... وهذا وحده كان كافياً كي لا يجري الحديث عن أيِّ ميل نحو الألمان، أو عقد أيِّ آمال على انتصارهم"،

فإنَّ المندوب العسكري الروسي إلى الدانمرك يؤكد في كانون الأول من العام 1915م، إنَّ اليهود يساهمون في نجاح الدعاية المناهضة لروسيا، "فهم يصرحون علناً بأنَّهم لا يتمنون النصر لروسيا، ولا يرغبون في أن تنال بولونيا نتيجة لذلك الانتصار حق الاستقلال الذاتي، لأنَّهم يعرفون أنَّ هذه الأخيرة ستتخذ إجراءات حثيثة لطرد اليهود من البلاد"، أي ينبغي أن يُخشى لا من معاداة الألمان للساميّة، بل من معاداة البولونيين لها: في بولونيا المستقلة يمكن أن يكون بانتظار اليهود مصير أسوأ من مصيرهم في روسيا.

لقد كانت حكومتا إنكلترا وفرنسا في حرج شديد إزاء إدانة سلوك حليفهما بصوت عالٍ. لكنَّ الولايات المتحدة كانت قد أخذت تصعد إلى خشبة المسرح الدولي في أثناء ذلك أكثر فأكثر. في أمريكا التي كانت لا تزال حينئذٍ في العام 1915م محايدة، "توزَّعت الميول: اليهود الأميركيون الذي كانوا من منشأ ألماني أعلنوا بشتى الوسائل عن تعاطفهم مع الألمان". وقد لاقوا في هذا مساندة من اليهود ذوي الأصول الروسيّة واليونانية الذين كما يفيد الاشتراكي زيف، كانوا يتمنون هزيمة روسيا في الحرب، فما بالك "بالثوريين المحترفين" الذين كانوا قد استقروا في الولايات المتحدة. ثمَّ أُضيف هذا كلُّه إلى المزاج المعادي لروسيا الذي شاع في الولايات المتحدة على خلفية إلغاء الاتفاقية التجارية الروسيّة - الأميركية في العام 1911م، وكان قد مضى على توقيعها ثمانون عاماً. لقد كان الرأي العام الأميركي يرى في روسيا الدولة بلاداً "فاسدة، فاجرة، رجعيّة، ينهشها الجهل والتخلُّف"

وسرعان ما أناخ هذا بكلكله على روسيا التي كانت تعيش الحرب بكل مآسيها. ففي آب من العام 1915م كتب ميليوكوف في مذكراته عن اجتماعات الحلف التقدّمي: "لقد اشترط الأمريكان [كي يساعدوا روسيا]، حرية دخول اليهود الأمريكان [إلى روسيا]"، مرة أخرى وقع الصدام نفسه الذي كان قد وقع مع ت. روزفلت في العام 1911م. فعندما ذهب الوفد البرلماني الروسي في أوائل

العام 1916م إلى لندن وباريس ليطلب مساعدة مالية، لاقى رفضاً قاطعاً. وهذا ما انعكس بإسهاب في تقرير شينغاريوف (20 حزيران 1916م) الذي قدّمه أمام اللجنة العسكرية البحرية في مجلس دوما الدولة لدى عودة الوفد. فقد أجاب اللورد الإنكليزي روتشلد: "أنتم تعوقون اعتماداتنا في أمريكا". وقال البارون الفرنسي روتشلد: "في أمريكا جمع كبير من الشخصيّات اليهوديّة، لهم نفوذ كبير هناك، وقد نشأ هناك مزاج معاد لكم" (بعد ذلك "تحدَّث روتشيلد بمزيد من الحدة" وطلب من شينغاريوف ألاّ يدرج هذا في البروتوكول). وختم المقرِّر تقريره قائلاً: إنَّ هذا الضغط المالي الأمريكي جاء تكملة لإلغاء الاتفاق التجاري الذي حدث في العام 1911م (غنيٌّ عن البيان القول: إنَّ عمليات التهجير الجماعي القريبة العهد، أرخت بثقلها على هذا كله). وقد قال يا. شيف الذي كان قد اتخذ في العام 1905م موقفاً حاداً ضد روسيا، قال الآن للموفد الفرنسي البرلماني إلى أمريكا باشو: "نحن سنعطي إنكلترا وفرنسا قروضاً إذا علمنا أنَّ روسيا ستفعل شيئاً ما في المسألة اليهوديّة، وأنتم تقترضون المال لروسيا ونحن لا نريد أن نمنح روسيا المال". كما تحدث ميليوكوف من على منبر الدوما عن احتجاجات "ملايين اليهود" الأمريكان التي لاقت "تجاوباً واسعاً لدى الرأي العام الأمريكي. وبين يديَّ طائفة من شهادات الصحف الامريكية ... بين يديَّ وصف للقاءات الجماهيرية التي انتهت إلى حالات من الهستيريا والنحيب حينما دار الحديث عن اليهود في روسيا. عندي نسخة عن قرار أصدره الرئيس الأمريكي ولسن قضى بتكريس يوم يهودي في جميع أرجاء الولايات المتحدة تُجمع فيه تبرعات لليهود المتضررين". "عندما يأتون إلى المصرفيين الأمريكان، ويطلبون منهم المال، يجيبهم هؤلاء: عذراً، لكنْ كيف سنعطيكم المال؟ نحن نعطيكم أنتم، إنكلترا وفرنسا، لكنْ شريطة ألاّ تفيد روسيا من هذه الأموال ... ويرفض رئيس عالم المال الأمريكي المعروف يعقوب شيف رفضاً قاطعاً الحديث عن أيِ قروض كانت ...".

تؤكد الموسوعة اليهوديّة أنَّ شيف هذا "الذي استخدم نفوذه لمنع المؤسسات المالية الأخرى من منح روسيا أيَّ قروض كانت ... واصل سياسته هذه حتى في أثناء الحرب العالمية الأولى"، فمارس ضغوطاً على المؤسسات المصرفية الأخرى كيلا تمنح روسيا قروضاً.

لقد كان على مجلس الوزراء الروسي أن يتحمل مسؤولية التوتر الداخلي والخارجي من جرَّاء عمليات الطرد الجماعي لليهود، على الرَّغم من أنَّ القيادة العامة هي التي كانت تتخذ تلك التدابير كلها من غير أن تلقي بالاً إلى أيِّ احتجاجات كانت. وأنا كنت قد سقت مقاطع من المشاحنات التي كانت تجري في مجلس الوزراء بهذا الخصوص. هاكم من هناك أيضاً. فقد أعلن كريفوشيين أنَّه يؤيد فتح المدن كلها أمام اليهود مؤقتاً: "إنَّ منح هذا الامتياز لليهود لن يكون له مردود سياسي فقط، بل مردود اقتصادي أيضاً ... فسياستنا في هذا الميدان مازالت تذكِّر بذلك الشحيح الذي ينام فوق ذهبه، فلا يجني منه جدوى، ولا يتيح لغيره أن يفعل". لكنَّ الوزير روخلوف احتجَّ قائلاً: إنَّ مقترح منح اليهود حق الإقامة حيث يشاؤون على أراضي روسيا، "يُعدُّ تغيُّراً جذرياً باتّاً في التشريعات التاريخية التي كان الهدف منها حماية ثروات روسيا من أطماع اليهود، وحماية الشعب الروسي من فساد مجاورة اليهود ... إنَّكم تشترطون أن يُمنح الامتياز مؤقتاً خلال الحرب فقط ... إلاَّ أنَّ هذا التحفظ ليس شيئاً آخر سوى ورقة التين"، فبعد الحرب "لن تكون هناك سلطة" قادرة على "سوق اليهود من جديد إلى داخل حدود إقليم الاستيطان ... فالروس سيهلكون في الخنادق وسيستقر اليهود في قلب روسيا ليجنوا المنافع من مآسي الشعب والخراب الشامل. فكيف ينظر الجيش والشعب إلى هذا؟". مرة أخرى في الاجتماع التالي: "يُعاني الناس الروس على الجبهة، وفي الداخل، من حرمان وآلام لا تُطاق، بينما يشتري المصرفيون اليهود لأبناء قومهم حق الإفادة من مأساة روسيا، واعتصار آخر رمق من الشعب الروسي المنكوب".

لكنَّ الوزراء وافقوا على أنَّه ليس هناك مخرج آخر. كان يجب أن "تُتخذ التدابير في أسرع وقت" –"لتأمين تمويل الضرورات الحربية". فوقع الوزراء كلهم ما عدا روخلوف، على تعميم قضى بفتح الأبواب على مصاريعها أمام حركة انتقال اليهود (مع حق امتلاك الأملاك الثابتة) في مختلف أرجاء الإمبراطورية، ما عدا العواصم، المناطق الريفية، مناطق القوزاق وإقليم يالتا. في خريف العام 1915م، أُلغي التدبير الذي كان يقضي بمنح اليهودي جواز سفر مؤقت لمدة عام، فبات يُمنح الآن جواز سفر دائم (تلا هذا فتح ميادين التعليم جزئياً خارج المعيار النسبي، والسماح بممارسة مهنة المحاماة وفق معيار نسبي). في المجتمع تساقطت الموانع الاحترازية تحت ضغط الحرب.

هكذا سقطت إلى الأبد حدود إقليم الاستيطان اليهودي التي صمدت قرناً وربع القرن. ويُقرر سليوزبيرغ في غضون ذلك، أنَّ "هذا الإجراء كان من الأهمية بمكان من حيث مضمونه ... فقد كان يعني أنَّ حدود إقليم الاستيطان التي سعى إلى إلغائها بدأب على مدى عشرات السنين، يهود روسيا والأوساط الليبرالية الروسيّة، قد سقطت الآن من غير أن يشعر أحد بذلك". لم يشعر أحد بذلك فعلاً، تبعاً لاتساع أمداء الحرب. لقد أغرقت سيول النازحين واللاجئين روسيا كلها.

وخصصت لجنة تاتيانين الحكومية لشؤون اللاجئين موارد مالية لمعالجة أوضاع اليهود النازحين أيضاً. حتى ثورة شباط مباشرة، "بقيت لجنة شؤون اللاجئين تؤدي عملها وتُنفق مبالغ طائلة على اللجان الوطنية"، بما فيها اللجنة التي أُنيط بها الاهتمام بشؤون اليهود. ومن البديهي أن تكون الأموال قد جاءت من مختلف المنظّمات اليهوديّة التي أخذت شأن المساعدات على عاتقها. فكانت هناك جمعية العمل الحرفي اليهوديّة التي كانت قد تأسّست منذ العام 1880م (في المدن التي تقع خارج إقليم الاستيطان). كانت هذه الجمعية تعمل بالتنسيق مع World Relief Cmmittee و"دجوينت" ("لجنة توزيع المعونات على اليهود الذين

تضرّروا من الحرب"). لقد قدَّم هؤلاء كلّهم مساعدات شاملة للسكان اليهود في روسيا؛ "فقدّمت دجوينت معونات لمئات آلاف اليهود في روسيا والنمسا - المجر". وقدّمت جمعية العمل الحرفي العون لليهود في مجال الهجرة والعمل الزراعي في بولونيا؛ لأنَّ "اليهود سكان المناطق الريفية انخرطوا في ممارسة العمل الزراعي طول زمن الحرب، بضغط من المستعمرين الألمان". كما نشطت في ميدان المساعدات أيضاً جمعية الحفاظ على السلامة الصحية للسكان اليهود التي كانت قد تأسّست في العام 1912م؛ فقد وضعت هذه الجمعية لنفسها هدفاً بألاّ يقتصر مجال مساعداتها على المعالجة الصحيّة وحدها، بل أخذت على عاتقها افتتاح مصحّات ومستوصفات لليهود، إضافة إلى مؤسسة عامة للإرشاد الصحي بهدف الحدِّ من عوامل المرض، ومقاومة الانحطاط الفيزيائي في أوساط السكّان اليهود" (لم يكن في روسيا ما يشبه هذه المنظمة البتة). والآن ابتداء من العام 1915م، أنشأت لليهود النازحين نقاط إطعام على طريق نزوحهم، وفي أماكن تجمعاتهم، إضافة إلى فرقٍ طبية متنقلة، ومشافٍ، ومستوصفات، وملاجئ، واستشارات للأُمهات. في العام 1915م، ظهرت الجمعية اليهوديّة لمساعدة ضحايا الحرب؛ وكانت هذه تتلقى مساعدات من لجنة تاتيانين، ومن خزنة اتحاد البلديات واتحاد المدن، ومن أمريكا، فأنشأت الجمعية شبكة واسعة من المفوَّضين الذين كانوا يقدمون الخدمات للاجئين اليهود وهم في طريقهم إلى أماكن نزوحهم: مطابخ متنقلة، مطاعم، ملابس، ودروساً (مكتب العمل، ودورات تقنية)، كما كانت هناك مؤسسات ومدارس للأطفال. إنّه حقاً لتنظيم رائع! فلنتذكّر فقط إنّهم كانوا يقدمون الخدمات لقرابة 250 ألف نازح ولاجئ؛ ففي آب من العام 1916 كان عدد النازحين قد بلغ 215 ألفاً. ثمَّ عُقدت اتفاقية بين المجموعة الشعبية اليهوديّة، والحزب الشعبي اليهودي، والمجموعة الديموقراطية اليهوديّة، والصهاينة، تأسس بموجبها "مكتب سياسي" للمندوبين اليهود في دوما الدولة الرابعة، وفي زمن الحرب "شنَّ هذا المكتب نشاطاً واسعاً".

إذن، على الرَّغم من العبث بحقوق اليهود، "إلاّ أنَّ الحرب أعطت دفعاً قوياً للمبادرة اليهوديّة فتحوّلت إلى طاقة في ميدان المساعدة الذاتية". في هذه السنوات "ظهرت قوى غامضة كانت قد نضجت في الجماعة القوميّة اليهوديّة في روسيا ... احتياطات كبيرة من المبادرات الاجتماعية في شتى الميادين". فعدا عن مساعدات اللجان، تلقّت الجمعية اليهوديّة لمساعدة ضحايا الحرب من الحكومة الروسيّة مباشرة، مليون روبل مساعدة. لم ترفض الجمعية الخاصة لشؤون اللاجئين "أيَّ طلب لنا" خلال عام ونصف العام بالدعم المالي الذي بلغ 25 مليون روبل، فاقت كثيراً جداً حصيلة التبرعات اليهوديّة (كانت الحكومة تدفع ثمن حماقة القيادة العامة)، أمَّا المبالغ التي جاءت بعد ذلك من الغرب، فقد وضعتها اللجنة في الاحتياط.

إذن، على حساب اللاجئين والمهجرين، وغير قليل من النازحين طوعاً، أفضت الحرب إلى تبدلات جدية في استيطان اليهود على أراضي روسيا، فتأسست مستوطنات يهودية كبيرة في مدن الأقاليم الداخلية، لا سيما في نيجني نوفغورود، فورونيج، بينزه، سامارا، ساراتوف، بل لم تكن المستوطنات اليهوديّة في العواصم نفسها أقلَّ حجماً. مع أنَّ إلغاء حدود إقليم الاستيطان لم ينسحب على العواصم، إلاّ أنَّها عملياً باتت الآن مفتوحة. فتوافدوا إليها، غالباً إلى أقاربهم، أو مجيريهم الذين كانوا قد استقروا في أماكن سكنهم الجديدة منذ زمن. نقرأ في مذكرات عرَضية عن طبيب الأسنان البطرسبورغي فلاكِه، الذي كان يملك شقة من عشر حُجر يعمل لديه فيها خادم، ومدبِّرة منزل، وطبَّاخ، لم يكن مثل هؤلاء السكان اليهود كُثراً، وفي سنوات الحرب عندما باتتْ مشكلة السكن في بيتروغراد شديدة التعقيد، فتح هؤلاء منازلهم لليهود الوافدين. في هذه السنوات انتقل كثيرون إلى أماكن سكن جديدة: عائلات ومجموعات عائلية، لم يؤت على ذكرها في السجلاّت، لكنَّ الحديث ورد عنها مصادفة في المذكرات الشخصية، كما هي حال أقارب دافيد أزبيل: "في أوائل الحرب

العالمية الأولى غادرت العمة إيدا ... تشيرنيغوف الهادئة الوادعة. جاءت إلى موسكو". كما جاء أيضاً أناس مغمورون تماماً، لكنَّهم ما لبثوا أن شغلوا مناصب مهمة: الكاتب بوزانسكي مثلاً، الذي كان مسؤولاً في لجنة الرقابة العسكرية في بيتروغراد عن "كل الشؤون السرية".

في أثناء ذلك كانت تتدحرج من القيادة العامة تلقائياً موجة عارمة من الأوامر والتعليمات التي كان يؤخذ بها هنا ويتم تجاهلها هناك: إقصاء اليهود في الجيش عن المناصب غير القتالية، خاصة الكتَّاب منهم، والخبَّازين، والممرِضين، وعمال مقاسم الهاتف، والبرقيات. مثلاً: "لتفادي الدعاية المناهضة للحكومة التي يُزعم أنَّ الأطبَّاء والممرضين اليهود يديرونها، ينبغي ألاَّ يُرسل هؤلاء إلى المشافي أو القطارات - المشافي، بل إلى "أماكن الظروف فيها غير ملائمة لتطوير الدعاية، كالمواقع الأمامية مثلاً، أو إجلاء الجرحى من ميادين القتال". كما يجب طردهم من مجالس البلديات والمدن، والصليب الأحمر، ومنظومة الإسعاف، حيث يتواجد اليهود بكثافة ملفتة، ليتهربوا من الخدمة العسكرية المباشرة (لكنَّ عشرات آلاف الروس كانوا يتهربون من الخدمة العسكرية أيضاً)، ويستغلوا مواقعهم لشنِّ الدعاية الهدَّامة في الجيش (هذا ما كان يفعله أيضاً كل من يحترم نفسه من الليبراليّين والراديكاليّين والاشتراكيّين)، كانت الدعاية تتناول على وجه الخصوص، "فشل القيادة العليا وعدم أهليتها" (كان هذا يتوافق إلى حدٍّ كبير مع واقع الأشياء). كما كانت هناك تعميمات تتحدّث عن خطورة بقاء اليهود في المناصب التي لها صلة بالمعلومات الحسّاسة: في نيسان من العام 1916م، "كانت ميادين العمل الدواويني الهامَّة في مؤسسات اتحاد مدن الجبهة الغربية كلها (بما فيها القسم السري)، في أيدي اليهود". يُسمُّون يهوداً يديرون سجلات الوثائق وتنظيمها، منهم مدير قسم المعلومات "الذي كانت مهمات منصبه تتيح له الوصول إلى مختلف الإدارات العسكرية في المناطق الطرفية والداخل".

مع ذلك ليس لدينا ما يدلُّ على أنَّ دويَّ رعود القيادة العامة عن طرد اليهود من مؤسسات اتحاد المدن قد اتخذ من حيث التطبيق، أبعاداً لها أهمية تُذكر. فليمكه، وهو شخصية على اطلاع واسع، يفيد بأنَّ "تعليمات السلطات العسكرية بإبعاد اليهود"، لم تلق هناك "تأبيداً" يُذكر. فقد أصدر اتحاد المدن تعليمات قضت "بخروج اليهود الذين طُردوا من مؤسسات [اتحاد المدن] بموجب قرار السلطات، في إجازة لمدة شهرين يُمنحون خلالهما رواتبهم وتعويضاتهم المعتادة"، وحق الأولوية في شغل الشواغر في مؤسسات الاتحاد الداخلية. (بالنسبة إلى وسائل الإعلام الروسيّة الرائدة، بقي اتحاد المدن، الأثيرَ المصون. فالإعلام كله رفض أن ينشر معلومة واحدة عن مصادر تمويل الاتحاد: خلال 25 شهراً من الحرب، أي حتى شهر أيلول من العام 1916م تلقَى الاتحاد من الحكومة الروسيّة 464 مليون روبل، كما كان يتلقى تموينه جاهزاً من مخازن إدارة التموين، بينما لم يتلق من البلديات والمدن والمجتمع سوى 9 ملايين روبل. وقد امتنع الإعلام عن النشر؛ لأنَّه لو نشر معلومات عن مصادر تمويل الاتحاد، لقوَّض مغزى العمل الخيري الذي كانت تقوم به هذه المؤسسة، على الضدِّ من النشاط الهزيل الذي كانت تقوم به الحكومة الغبية).

من الوجهة الاقتصادية والجغرافية، ليس من المستغرب أن يكون كثير من اليهود بين الموردِين. فالشكوى الغاضبة (التي رفعتها "الدوائر الأرثوذكسية الروسيّة في مدينة كييف ... بدافع الواجب الوطني")، تشير إلى سولومون فرانكفورت: إنَّه يشغل منصب "مفوَّض وزارة الزراعة لتموين الجيش بالدهن"، وهو واحد من أهمِّ المناصب (على وجه العموم، أُثيرت ضدَّ مصادراته العشوائيّة التي كانت تثير الفوضى، شكاوى حتى في مجلس الدوما). في كييف هذه نفسها، "خلَّد التاريخ مصادفة اسم المهندس الزراعي في دائرة كييف" زيلمان كوبل، عندما صادر هذا السكَّر كلّه عشية عيد الميلاد في العام 1916م، وترك ناحية بوروديانسك من غير سُكَّر (هنا كانت الشكوى ضدَّ قيادة بلدية الناحية).

في تشرين الثاني من العام 1916م، ألقى عضو مجلس الدوما ماركوف، أمام المجلس كلمة أشار فيها إلى "لصوص خزنة الدفاع في الداخل، وأبرز بينهم اليهود على وجه الخصوص: في كييف هذه نفسها احتجز عضو مجلس رئاسة المدينة شيفتل، في المخازن أكثر من 150 بوداً من احتياطات المدينة من الطحين، والسمك، والمؤن الأخرى، في الوقت نفسه "كان أصدقاؤه يبيعون أسماكهم بأسعار جنونية"؛ أو عضو مجلس الدوما ف. يا. ديمتشينكو الذي كان يغطي "على كثير من اليهود الأثرياء الفارّين من تأدية الخدمة العسكريّة "؛ أو "المهندس ليفي" الذي قدَّم إلى لجنة الدفاع والصناعة في ساراتوف، "عبر السمسار فرينكل"، مؤناً بأسعار باهظة. لكنَّنا نشير هنا إلى أنَّ لجان الدفاع والصناعة نفسها، كانت تتعامل بالطريقة نفسها مع الخزنة ...

نقرأ في تقرير قسم الشرطة المؤرَّخ في تشرين الأول من العام 1916م ما يلي: "في بيتروغراد تتركّز الأعمال التجارية كلّها من غير استثناء، في أيدي اليهود الذين يُلمُّون إلماماً تاماً بأذواق العامّة ومقاصدها، وطباعها"؛ إلاّ أنَّ الوشاية دفعت باليمينيين إلى طرح الموضوع على النحو الآتي: إنَّ "الحريّة التي مُنحت لليهود في أثناء الحرب"، أخذت تثير سخطاً متعاظماً في الأوساط الشعبيّة، "صحيح أنَّ بعض الشركات الروسيّة مازالت موجودة من الوجهة الرسميّة، إلاّ أنَّ اليهود هم الذين يقفون وراءها: مِن غيرِ السمسار اليهودي لا تستطيع أن تشتري أيَّ شيء" (في إصدارات البلاشفة، كما في كتاب كايوروف"، الذي كان يعمل عندئذٍ في بيتروغراد، أنَّ هؤلاء لم يتردّدوا في أن يوشُّوا معطياتهم باختلاق لا أساس له، فادعوا على سبيل المثال أنَّه في أيار من العام 1915م لدى تحطيم المؤسسات والمخازن التجاريّة الألمانيّة في موسكو، حطَّم الغاضبون أيضاً المؤسسات والمحلات التجارية اليهوديّة، إلاّ أنَّ الأمر لم يكن على هذا النحو البتة، بل على العكس تماماً: في أثناء تحطيم أملاك الألمان وضع اليهود، بسبب تشابه كناهم مع الكنى الألمانية، على لوحات مخازنهم كتابات وقاية مثل: "هذا المخزن

يهودي"، فكان الثائرون يتجاوزونه. إنَّ التجارة اليهوديّة في داخل البلاد لم تتأذَ أبداً طول زمن الحرب).

في الدوائر الملكية العليا، في محيط غريغوري راسبوتين الفاسد، كانت هناك مجموعة صغيرة من الشخصيات المشبوهة التي كان لها دور فاعل مؤثِّر. لم يثر هؤلاء سخط الأوساط اليمينية فقط، فها هو السفير الفرنسي في بيتروغراد موريس باليولوغ يكتب في أيار من العام 1916م في يومياته: "ثمة مجموعة من رجال المال والمضاربين اليهود القذرين أمثال روبينشتين، ومانوس وسواهما، أقام [راسبوتين] معهم تحالفاً، وهم يكافئونه بسخاء لقاء مساعدته لهم. فتنفيذاً لتعليماتهم يُرسل مذكرات إلى الوزراء والمصارف ومختلف الشخصيات النافذة".

بالفعل، في السابق كان البارون غينتسبورغ هو الذي يسعى من أجل اليهود علناً ومن غير مواربة، أمَّا الآن فقد باتت تفعل هذا خفية وعبر الدهاليز القذرة، عصابة من الأنذال تجمَّعت حول راسبوتين. منهم المصرفي د. ل. روبينشتين (كان يعمل مديراً للمصرف التجاري في بيتروغراد، شقَّ لنفسه طريقاً مباشرة نحو أوساط العرش: كان يدير أملاك الأمير العظيم أندريه فلاديميروفيتش، عبر فيروبوف دُعي إلى راسبوتين، ثمَ مُنح وسام القديس فلاديمير ونال لقب مستشار دولة لدى "فخامتكم")، والصناعي السمسار في البورصة إ. ب. مانوس (مدير مصنع صناعة عربات القطارات في بيتروغراد وعضو مجلس إدارة مصنع بوتيلوف، وإدارة مصرفين، وجمعية النقل والمواصلات الروسيّة، كما كان أيضاً برتبة مستشار دولة).

لقد وضع روبينشتين هارون سيمانوفيتش "سكرتيراً" دائماً لدى راسبوتين، وكان هارون هذا رجلاً شبه أُميٌّ، لكنَّه بالمقابل كان داهية واسع الحيلة، وتاجر مجوهرات ثري يعمل في تجارة الألماس (ما الذي كان يمكن أن يؤديه من أعمال "السكرتاريا" عند راسبوتين الفقير المتسوِل؟).

فيما بعد، في المهجر، أصدر هذا السيمانوفيتش ("الأفضل بين اليهود" – زعم أنَّ "الختيار" كتب له على صورته)، كتيباً تفاخر فيه بالدور الذي أدّاه في تلك الآونة. بين مختلف ضروب الهذر والمشاهد الفريدة (نقرأ هنا عن "مئات آلاف اليهود الذي أُعدموا وقُتلوا" بأوامر من الأمير العظيم نيقولاي نيقولايفيتش)، وعلى خلفيّة هذا الزبد والمباهاة، يتطرّق سيمانوفيتش إلى بعض الشؤون الفعليّة المعيَّنة.

نقرأ هنا عن "قضية أطباء الأسنان" التي كانت قد بدأت منذ العام 1913م، وأكثرهم من اليهود، "فقد تأسس معمل كامل لمنح شهادات أطباء الأسنان" الذين أغرقوا موسكو، وبها نالوا حق الإقامة فيها، وامتياز الإعفاء من تأدية الخدمة العسكرية. لقد بلغ عدد هؤلاء قرابة 300 طبيب (200 بحسب سيمانوفيتش)، فحكموا على "أطباء الأسنان" المزوَّرين بالسجن عاماً واحداً، لكنَّ مساعي راسبوتين منحتهم العفو.

"في أثناء الحرب ... لجأ اليهود إلى راسبوتين طلباً للحماية من الشرطة، أو السلطات العسكرية"، ثمَّ تفاخر سيمانوفيتش فيما بعد بأنَّ "كثيراً جداً من الشباب اليهود جاؤوا إليه يتوسلون أن يعفيهم من الخدمة العسكرية "، وهذا ما أتاح لهم في ظروف الحرب، أن ينتسبوا إلى المؤسسات التعليمية العليا؛ "في أحيان كثيرة لم يكن لدى هؤلاء أيُّ عذر مشروع" – لكنَّ سيمانوفيتش يزعم أنَّه كان يجد المخرج دائماً. لقد أصبح راسبوتين صديقاً وراعياً محسناً لليهود، وقف من غير تردد يدعم المساعي لتحسين أوضاعهم".

لا يجوز لنا في سياق حديثنا عن هؤلاء المحاسيب الجدد أن نغفل المغامر البارز مناسيفيتش -مانويلوف. فقد عمل هذا لفترة ما موظفاً في وزارة الداخلية، وعميلاً للشرطة السريّة الروسيّة في باريس؛ وهو من باع في الخارج الوثائق السريّة التي سرقها من إدارة الشرطة؛ وأدار مباحثات سريّة مع غابون؛ وأدّى بعد ذلك في عهد رئيس الوزراء شتيورمير، "مهمات سريّة خاصة".

أمّا روبينشتين، فقد دخل ميدان الرأي العام بعد أن اشترى صحيفة "نوفويه فريميا" (تحدثنا عنها في الفصل الثامن)، التي كانت من قبل معادية لليهود (وإذا شئنا الدعابة يمكننا أن نقول في هذا الشأن: إنّها عدالة التاريخ، فسوفورين اشترى "نوفويه فريميا" في العام 1876م بمال المصرفي البولوني كرونيبيرغ، فاتخذت في بادئ الأمر موقفاً ودياً من اليهود، وعمل فيها عدد من الكتّاب اليهود. لكنْ ابتداء من الحرب الروسيّة التركيّة، انعطفت الصحيفة انعطافاً حاداً "وانتقلت إلى جبهة الرجعيّة"، "ولم تعرف في المسألة اليهوديّة ... حدوداً للكره والتحيُّز ضدَّ كلّ ما له صلة باليهود". في العام 1915م عوّق رئيس الوزراء غوريمكين، ووزير الداخلية خفوستوف - الأصغر، محاولات روبينشتين شراء **"نوفويه فريميا"**، لكنَّ الصفقة تمّت بعد ذلك قبيل الثورة مباشرة، لذلك لم تعطِ جدوى تُذكر (كان مانوس قد اشترى جزئياً صحيفة يمينية أخرى هي **"غراجدانين"** [="المواطن". ـح. إ.]).

وقد كافأ س. ميلغونوف هذه المجموعة بلقب "الجوقة الخماسية" التي تطبخ طبخاتها في "حجرة بواب" القيصر عبر راسبوتين. لكنّها لم تكن نكرة في زمن سلطة راسبوتين: على مقربة مباشرة من العرش، بنفوذ قويّ شديد الخطورة على سير الشؤون الروسيّة العامّة، كانت تقف حفنة من الشخصيّات المشبوهة. وقد رأى السفير الإنكليزي بيوكينين أنَّ روبينشتين على صلة بالمخابرات الألمانيّة. ونحن لا نستبعد أنَّ الأمر كان على هذا النحو فعلاً.

راسبوتين وقضية المصرفي روبينشتين

إنَّ نشاط ماكينة التجسّس الألمانية في روسيا، وصلتها مع المضاربين في الداخل، أرغمت الجنرال ألكسييف على أن يطلب في صيف العام 1916م، إذناً من المقام الأسمى بمنحه الحقّ في التحقيق، لا في الإقليم التابع لسلطة القيادة العامة فقط، -على هذا النحو تأسست "لجنة تحقيق الجنرال باتيوشين". كان هدفها الأول هو المصرفي روبينشتين الذي كان مشتبهاً به "في عمليات مضاربة مشتركة مع الرأسمال الألماني"، وعمليات مالية لصالح العدوِ الهدف منها زعزعة مكانة الروبل، والمدفوعات الزائدة كثيراً عن الحدِّ للوكلاء الخارجيين لدى عقد صفقات لصالح إدارة تموين الجيش، والمضاربة بالقمح في منطقة الفولغا. في 10 تموز من العام 1916م اعتُقل روبينشتين بأمر من وزير العدل ماكاروف بتهمة الخيانة العظمى.

كانت القيصرة نفسها أكثر المتحمسين للدفاع عن روبينشتين الذي كان يهدّده خطر الحكم بالأشغال الشاقة 20 عاماً. بعد شهرين من اعتقاله، طلبت ألكساندرا فيودوروفنا من القيصر "أن يُبعد روبينشتين بهدوء إلى سيبيريا، وألاَّ يبقى هنا لإثارة اليهود"، "تحدَّثْ بشأن روبينشتين" مع بروتوبوبوف. بعد أسبوعين أرسل راسبوتين نفسه برقية إلى القيصر في مقرِّ القيادة العامة: إنَّ بروتوبوبوف "يتوسَّل ألاَ يُربكه أحد"، بمن في ذلك الجاسوسية المضادة ... "لقد تحدَّث عن السجين برفق، بحسب تعاليم المسيحية". بعد ثلاثة أسابيع أخرى قالت ألكساندرا فيودوروفنا للقيصر: "بخصوص روبينشتين، إنَّه يُحتضر. أبرق ... من فورك [إلى قيادة الجبهة الشمالية الغربية] ... بنقل روبينشتين من بسكوف

وتسليمه إلى وزير الداخلية"، أي إلى ذلك المسيحي الرؤوم بروتوبوبوف نفسه. وفي اليوم التالي: "هل أعطيت أوامرك بتسليم روبينشتين إلى وزير الداخلية؟ وإلاّ سيموت إذا بقي في بسكوف، أرجوك يا حبيبي!".

في السادس من كانون الأول أُطلق سراح روبينشتين – قبل عشرة أيام من مقتل راسبوتين، في آخر وقت، كانت تلك آخر خدمات راسبوتين. بعد مقتل راسبوتين مباشرة، أُقيل الوزير ماكاروف الذي كانت القيصرة تكنُّ له بُغضاً شديداً (سرعان ما أعدمه البلاشفة رمياً بالرصاص). بيد أنَّ التحقيق لم يتوقف فور إطلاق سراح روبينشتين، فقد أُلقي القبض عليه مرة أخرى، إلاّ أنَّ ثورة شباط الإنقاذية حرّرته مع حشد المعتقلين الآخرين من سجن بيتروغراد، فغادر روسيا الغدارة، كما فعل في اللحظة المناسبة كلٌّ من ماناسيفيتش، ومانوس، وسيمانوفيتش (على أيِّ حال سنلتقي روبينشتين مرة أخرى).

بالنسبة إلينا نحن، ناس تسعينات القرن العشرين، لا يبدو لنا نهب الداخل الروسيّ في تلك الآونة أكثر من تفصيل تجريبي هزيل محدود ... لكنَّ النموذج العام – في الإدارة الفاشلة المغرورة التي في ظلها أفلت روسيا من بين أيدي قادتها.

على خلفيّة قضيّة روبينشتين صادقت القيادة العامّة على وضع عدد من المصارف تحت المراقبة. وبدأ فضلاً عن ذلك تحقيق ضدَّ أصحاب مصانع السُّكّر في كييف – خيبنير، تسيخانوفسكي، بابوشكين ودوبروف. فقد نال هؤلاء حق تصدير السُّكّر إلى فارس، وأرسلوا كميات كبيرة منه إلى هناك، لكنَّ قليلاً منه عبر النقاط الجمركية الفارسية إلى السوق الداخلية الفارسية، أمّا باقي السُّكّر فقد "اختفى"، إلاّ أنَّ معلومات أفادت بأنّه عبر ترانزيت إلى تركيا حليفة ألمانيا. بغتة ارتفعت أسعار السُّكّر في الإقليم الجنوبي الغربي، وهو مركز تصنيع الشمندر السكري الروسي. كان التحقيق في قضية أصحاب مصانع السُّكّر قد بدأ قاسياً، غير أنَّ لجنة باتيوشين لم تتابعه حتى النهاية، بل عهدوا

به إلى المحقق القضائي الكيفي، فأخلا هذا سبيلهم احتياطاً، ثمَّ ما لبثوا أن وجدوا من يشفع لهم لدى العرش.

حتى لجنة باتيوشين على أهميتها، فشلوا في تأليفها بالشكل اللائق المتماسك. فقد كتب السيناتور زافادسكي عن فشلها في إدارة تحقيق ناجع في قضية روبينشتين. كما كتب الجنرال المتقاعد لوكومسكي يقول في مذكراته: لقد ظهر فيما بعد أنَّ العقيد ريزانوف الذي كان واحداً من أبرز المحامين في اللجنة، كان مقامراً مستهتراً يهوى حياة المطاعم ومعاقرة الخمرة. كما كان أورلوف داهية خدم بعد العام 1917م في اللجنة الاستثنائية في بيتروغراد، ثم انتقل بعد ذلك إلى العمل مع الثورة المضادة، وسلك في المهجر سلوكاً استفزازياً. كما كان بين أعضاء اللجنة أيضاً مشبوهون آخرون، منهم من لم يتعفّف عن الرشاوى وابتزاز فدية لدى المعتقلين. فضلاً عن عدم لباقتها، أثارت اللجنة ضدها إدارة القضاء العسكريّ في بيتروغراد، وكبار موظفيِ وزارة العدل.

مماحكات في المسألة اليهوديّة

لم تكن قضية المضاربات في عهدة مركز قياديّ واحد، تحديداً في سياق النشاط الذي كان يقوم به "اليهود على وجه العموم". ففي 9 كانون الثاني من العام 1916م، وقّع كافافوف المدير المكلف مؤقتاً بقيادة الشرطة، أمراً سريّاً عُمِّم على حكام المقاطعات ورؤساء المدن وقيادات الشرطة في المقاطعات. لكنْ سرعان ما أذاع "الاستطلاع" الشعبي هذا السرّ، وبعد شهر واحد، أي في 10 من شباط، تجاوز تشخيدزه في اجتماع دوما الدولة كل المسائل الملحة الموضوعة على جدول أعمال المجلس، وقرأ هذه الوثيقة على المنصّة. لم يكن فيها أنَّ "اليهود ... مهتمون بالدعاية الثورية" فقط، لكنّهم فضلاً عن "الدعاية الإجرامية ... اختاروا عاملين مهمين آخرين، رفع أسعار المواد التموينيّة الضروريّة بشكل مصطنع، وسحب الوحدات النقدية الصغيرة من التداول"، فاشتروا هذه الأخيرة "ليدفعوا السكان إلى عدم الثقة بالعملة الروسيّة"، وليدخلوا في روعهم أنَّ "الحكومة الروسيّة أفلست، حتى إنَّها لم تعد تملك ما يكفي من المعدن لسكِّ عملتها النقدية". كان الهدف من هذا كله بحسب التعميم، هو "الظفر بإلغاء حدود إقليم الاستيطان اليهودي؛ لأنَّهم يرون أن هذه هي اللحظة المناسبة لتحقيق أهدافهم عبر إشاعة الفوضى وإثارة القلاقل في البلاد". لم تقترح الإدارة اتخاذ أيّ إجراءات في هذا المجال، إنّما أعلنت ذلك "للعلم فقط".

هذا ما علق عليه ماليوكوف: "يستخدمون ضدَّ اليهود أسلوب التحريض: يخرجون بهم إلى الحشود الغاضبة ثمَّ يقولون: خذوا، ها هم المذنبون، نكِّلوا بهم كما تشاؤون". ففي تلك الأيام نفسها حاصرت الشرطة في موسكو بورصة

إيلينكا، وأخذت تدقق في وثائق المتعاملين هناك، فاكتشفت وجود 70 يهودياً لا تحق لهم الإقامة في موسكو؛ وهذا ما حدث في أوديسا أيضاً. نُقلت القضية إلى قاعة مجلس دوما الدولة فأحدثت فيها هزة قوية، اشتعل هناك ما كان يخشاه مجلس الوزراء منذ عام مضى: "في الظروف الحالية ليس مسموحاً أن تُثار في مجلس دوما الدولة مماحكات في المسألة الهودية يمكن أن تتخذ أشكالاً خطيرة قد تتحول إلى ذريعة لتفاقم الخصومة القومية". بيد أنَّ المماحكات بدأت وتواصلت طول أشهر.

في معرض التعبير عن سخطه الشديد على التعميم الذي صدر عن إدارة الشرطة، قال شينغاريوف غاضباً: "ليس هناك ما يمكن أن يكون أكثر قذارة وقبحاً مما فعلته الدولة بانتهاكها حرمة اليهود، وهي دولة مسيحية ... افترت من غير حياء على أُمّة بكاملها ... لن يكون تعايُش الحياة الروسيّة ممكناً إلاَّ بعد أن تقتلعوا هذه الشظيّة، هذه القرحة من حياة الدولة، وأنا أقصد هنا إلى التحريض على العداء القوميّ ... يؤلمني أن تكون الإدارة في روسيا بهذه العقلية، من المخجل أن تسلك الدولة الروسيّة مثل هذا السلوك". فالجيش الروسيّ بقي في هاليسيا من غير ذخائر –"هل اليهود هم من فعلوا ذلك؟". "هناك أسباب لا حصر لها أدت إلى ارتفاع الأسعار ... فلماذا لم يكتبوا في التعميم إلاَّ عن اليهود، لماذا لم يكتبوا عن الروس وغيرهم؟". إنَّ الغلاء يضرب في كل مكان من غير استثناء. هذا نفسه ينسحب على اختفاء الوحدات النقدية الصغيرة، "كما جاء في تعميم إدارة الشرطة نفسه!".

ليس من الصعب أن تكتب تعميماً في دهاليز الدواوين، لكنْ من الصعب أن تتفادى المثول أمام برلمان غاضب. لقد جُرَّ من وضع التعميم كافافوف نفسه، إلى منبر الدوما: صحيح أنَّ التعميم لم يترافق بأيِّ تحركات إدارية، ولم يوجه إلى عامة الناس، بل إلى السلطات المحلية، للعلم فقط وليس لاتخاذ التدابير، - لم يُثِر المخاوف إلاَّ بعد أن باعه "ضعاف النفوس" من الموظفين، وأُعلن من فوق هذا

المنبر. لكنْ ها هو كافافوف يشكو: لماذا لم تُعلن التعاميم السرية الأخرى على هذا المنبر، وهي قطعاً معروفة لدى الرأي العام. في أيار من العام 1915م مثلاً، وقّع هو نفسه التعميم الآتي: "تُثار في الوقت الراهن الضغينة ضدّ اليهود في بعض أوساط سكّان الإمبراطورية"، وإدارة الشرطة "تطلب اتخاذ تدابير حازمة لتفادي خروج أيِّ مظاهرات على هذه الخلفية"، ينبغي أن "تتُخذ تدابير حازمة لقطع دابر التحريض الذي بدأ يظهر في بعض الأماكن، وخنقه في مهده قبل أن يتطور إلى أعمال عنف يأتيها السكّان ضدّ اليهود". أو كما حصل أيضاً من حوالي الشهر. في بداية شباط صدرت تعليمات في بولتافا: التشديد على ضرورة الاطلاع على واقع الأشياء كي "يتسنَّى اتخاذ ما هو ضروري في حينه، لتفادي اندلاع أعمال عنف ضدّ اليهود".

لكنْ لماذا اشتكى كوفافوف، فمثل هذه التعليمات لا يأخذ الاستطلاع الشعبي بها، بل يتركها تأخذ طريقها بهدوء؟

لقد أبدع شينغاريوف في حديثه أمام الدوما، لكنَّه حذَّر في الوقت نفسه من أنَّه ينبغي على الدوما ألاَّ "تسمح بأن يتطور النقاش في المسألة اليهوديّة العويصة التي لا حدود لها". بيد أنَّ هذا هو الذي حصل فعلاً إثر الإعلان عن ذلك التعميم. بل حتى شينغاريوف نفسه لم يتوخَّ الحذر في دفع النقاش بهذا الاتجاه مبتعداً عن الدفاع عن اليهود، لكنَّه اتهم الروس تحديداً بالخيانة: سوخوملينوف، ومياسويدوف، بل حتى الجنرال غريغوريف، وعار تسليم قلعة كوفينسك المذل.

كان لهذا ردُّ فعله مباشرة. فقد عارضه ماركوف قائلاً: إنَّ سوخوملينوف لا يزال قيد التحقيق، لذلك لا يحق له أن يُقرر أيَّ شيء بخصوصه (لقد قطف الحلف التقدمي كثيراً من زهور النجاح على حساب سوخوملينوف، لكنَّهم مع نهاية عهد الحكومة المؤقتة كانوا مرغمينْ على أن يعترفوا بأنَّهم كانوا موهومين، وأنَّه لم تكن هناك أيُّ خيانة). أمَّا مياسويدوف فقد أُدين وأُعدم (مع ذلك ثمة معطيات تؤكد أنَّ قضيته كانت بدورها قضية جوفاء بولغ فيها

كثيراً)، بيد أنَّ ماركوف أضاف، إنَّ "مياسويدوف أُعدم بين ستة ... من الجواسيس اليهود" (لكنِّي لا أعرف هذه المعلومة، فمياسويدوف كان متهماً لوحده)، فقارن النسبة.

بين عدد من النقاط التي حُشرت بصعوبة في آب من العام 1915م، في برنامج الحلف التقدمي، برزت الآن بوضوح قضية "الاستقلال الذاتي لبولونيا"، بعد أن سُلِّمت بولونيا كلها للألمان؛ و"مساواة الفلاحين في الحقوق" التي لم يكن ينبغي أن تُطالب الحكومة بها؛ لأنَّ ستوليبين كان قد أقرَّ هذا الحق منذ زمن بعيد، لكنَّ الدوما هي التي لم تُقرَّه، تحديداً في مباراة مع منح اليهود حقوق المساواة؛ إذن، "كان سلوك طريق التخفيف شيئاً فشيئاً من حدة القيود المفروضة على اليهود"، على الرَّغم من سمة التسويف التي تطبع هذه الصيغة، قد برز الآن واحداً من الشعارات الرئيسة في برنامج الحلف التقدمي. كان المندوبون اليهود قد دخلوا الحلف التقدمي، وفي وسائل النشر باللغة اليهوديّة العامية أعلنوا: "تتمنَّى اليهوديّة للحلف التقدميّ حظاً سعيداً".

ها هم اليمينيون المتطرِفون الآن، بعد عامين مضنيين من الحرب، وبعد هزائم على الجبهة وغليانٍ في الداخل، يتهمون: "لقد أدركتم أنَّه يجب عليكم أن تبرروا أمام الشعب صمتكم عن الاستبداد الألماني، صمتكم عن الصراع مع الغلاء وغيرتكم الزائدة على مساواة اليهود في الحقوق". فأيَّ مطالب "تعلنون عنها الآن للحكومة في أثناء الحرب، - بمعنى آخر أنتم تطردونها خارجاً ولا تعترفون إلاَّ بتلك الحكومة التي تمنح اليهود حقوق المساواة". لكنْ "ليس الآن تُعطى الحقوق، فكلهم غاضب على اليهود حتى السُّعار؛ إنَّكم بهذا تؤلِّبون ضدَّ هؤلاء البائسين".

لكنَّ فريدمان عارض الزعم بأن الغضب الشعبي يغلي الآن ضدَّ اليهود فقال: "على هذه الخلفية القاتمة لاضطهاد اليهود هناك بقعة ضوء تمثلها ظاهرة في الحياة اليومية لا أستطيع أن أغفلها: إنَّها موقف السكان الروس في المقاطعات

الداخلية تجاه اللاجئين اليهود الذين جاؤوا إلى هناك". فهؤلاء اليهود اللاجئون "يجدون هناك حُسن الاستقبال والمساعدة". وهذا "ضمان مستقبلنا، ضمان وحدتنا مع الشعب الروسي". لكنَّ هناك من يصر على اتهام الحكومة بكل ما نزل باليهود من مآسٍ، مرة أخرى حتى درجة اتهامها "بأنَّ المجازر لم تُرتكب ضدَّ اليهود إلاَّ عندما كانت الحكومة تريد ذلك". وها "أنا أتوجه عبر أعضاء مجلس دوما الدولة إلى سكان روسيا 170 مليوناً ... بأيديكم يريدون أن يغرسوا السكين في قلب الشعب اليهودي في روسيا".

فجاء الردُّ على هذا على النحو الآتي: أيعرف أعضاء مجلس الدوما المزاج السائد في البلاد؟ "إنَّ البلاد لا تكتب في الصحف اليهوديّة، البلاد تتألم، تُعاني، وتعمل ... تقاتل في الخنادق، هناك البلاد، وليست في الصحف اليهوديّة، حيث يجلس غرباء يعملون بتعليمات غامضة مصدرها مجهول". حتى "تبعية الصحافة للحكومة شرٌّ، إلاَّ أنَّ هناك شرّاً أعظم: تبعية الصحافة لأعداء الدولة الروسيّة".

كما استشرف شينغاريوف، فالغالبية الليبرالية في الدوما، لم تكن راغبة الآن في مواصلة مناقشة المسألة اليهوديّة، إلاَّ أنَّ وقفها لم يعد ممكناً. فامتد الجدال في إثر الجدال طول أربعة أشهر، أي حتى نهاية الدور التشريعي الخريفي، كانت المسألة اليهوديّة تشقُّ طريقها في أثناء ذلك مراراً وتكراراً بين القضايا الملحَّة الأخرى.

لقد جاء اتهام اليمين للحلف التقدمي قاطعاً: لا، لن تحارب الدوما الغلاء: "أنتم لن تقفوا ضدَّ المصارف، والاحتكارات، وإضرابات الصناعيين؛ لأنَّ هذا يعني أنَّكم تحاربون اليهوديّة". ها هو تموين بيتروغراد كأنَّ "إدارة الإصلاح أعطته تعهُّداً لاثنين من اليهود – ليفينسون وليسمان"، ليفينسون لتزويد العاصمة باللحوم، وليسمان بمواد الحوانيت، لكنَّ هذا باع الدقيق إلى فنلندا خلسة. هناك أمثلة أخرى كثيرة على مورِّدين يسعِّرون نار الأسعار (لم ينبر أيٌّ من أعضاء مجلس الدوما لتبرير سلوك السماسرة).

ولم يكن إلاّ أن يصل النقاش فيما بعد إلى طرح مسألة المعيار النسبي التي باتت ملحة جداً في زمن الحرب. ونحن رأينا أنّها عادت إلى الظهور من جديد بعد ثورة العام 1905م، لكنَّ التخفيف من حدَّتها لم يبدأ إلاّ مع الاستخدام الواسع لمبدأ الدراسة في الخارج بعد المدرسة الثانوية، والسماح للأطباء اليهود الذين نالوا شهادات من الخارج باجتياز الامتحانات الحكوميّة؛ ثم تقدمت طريق التخفيف من حدّتها، وليس إلغاءها، خطوات واسعة في العام 1915م، حينما انهارت حدود إقليم الاستيطان اليهوديّ. في العام 1915 -1916م اتخذ وزير المعارف ب. ن. إيغناتيف الذي كانت له شهرة واسعة في المجتمع (ولم يُلاحق بعد ثورة شباط)، مزيداً الإجراءات التي أفضت إلى التخفيف من المعيار النسبي في مؤسسات التعليم العالي.

لكنَّ هذه القضية ما لبثت حاضرة في مناقشات مجلس دوما الدولة طول ربيع العام 1916م. فقد نوقش الكشف التقديري لوزارة المعارف، وها هو مندوب أوديسا، بروفسور جامعة نوفوروسيا ليفاشيف يقول: إنَّ تعليمات مجلس الوزراء في العام 1915م (حول قبول أبناء اليهود العاملين في الجيش من خارج المعيار النسبي)، عمّمتها وزارة المعارف آلياً على أبناء العاملين في مؤسسات اتحاد المدن، ومؤسسات الإجلاء، والمشافي، وكذلك عل الأشخاص الذين أعلنوا أنفسهم [كذباً] معيلين لقريب يخدم في الجيش. والحصيلة هي أنَّ جامعة نوفوروسيا قبلت في الصف الأول في كلية الطِب البشري، 586 طالباً –"391 طالباً منهم من اليهود"، أي ثلثا المجموع الكلي، ولم يبق سوى ثلث واحد "للقوميات الأخرى"؛ في جامعة وارسو (في روستوف على الدون): بلغ مجموع الطلبة اليهود في كلية الحقوق 81%، في كلية الطِب البشري 56%، في كلية الفيزياء -الرياضيات 54%.

فعارض غوريفيتش ليفاشيف قائلاً: هاك الدليل على أنَّ المعيار النسبي لا لزوم له البتة: "فما هو المغزى من المعيار النسبي عندما في هذا العام نفسه وعلى الرَّغم من تعاظم قبول الطلبة اليهود، بدا أنّه من الممكن قبول كل الطلبة

المسيحيين الذين تقدموا بطلبات الانتساب؟ فهل تريدون قاعات خالية؟ إنَّ في ألمانيا الصغيرة عدداً كبيراً من البروفسورات اليهود، ولم يؤدِّ هذا إلى هلاك ألمانيا.

فعارضه ماركوف قائلاً: "إنَّ الجامعات خالية، [لأنَّ] الطلاب الروس سيقوا إلى الحرب، ويرسلون إلى هناك [إلى الجامعات] حشوداً من الطلبة اليهود". "فهرباً من الخدمة العسكرية"، بات هناك الآن "فيض من اليهود في جامعة بيتروغراد، وعبرها يخرجون إلى صفوف المثقفين الروس ... هذه ظاهرة كارثية بالنسبة إلى الشعب الروسي، بل ظاهرة مهلكة"؛ لأنَّ كلَّ شعب يقع "تحت سلطة مثقّفيه". "ينبغي على الروس أن يحافظوا على طبقتهم العليا، أي على مثقّفيهم، وموظّفيهم، وحكومتهم التي لا يجوز أن تكون إلاَّ روسيّة".

بعد نصف عام، أي في خريف العام 1916م، سيعود عضو مجلس الدوما فريدمان إلى هذه المسألة من جديد، ويطرح على الدوما السؤال التالي: إذن "من الأفضل أن تبقى جامعاتنا خالية ... ولتبق روسيا من غير قوى مثقفة ... فالمهمُّ ألاَّ يكون هناك كثير من اليهود؟"

من جهة، كان غوريفيتش على حقٍ طبعاً: فما الحكمة من أن تخلو القاعات الدراسية؟ فليمارس كلٌّ عمله. بيد أنَّه حينما طرح المسألة على هذا النحو، ألم يُثبت بذلك لليمينيين شكوكهم: إذن قضيتنا ليست واحدة؟ على بعضنا أن يحارب، وعلى بعضنا الآخر أن يتعلم؟ (لكنْ ها هو والدي ترك جامعة موسكو قبل أن يُنهي تعليمه، ومضى إلى الحرب متطوعاً. كانت المعادلة عندئذٍ هكذا: من مقتضيات الشرف أن تتطوع وتمضي إلى الجبهة. مَنْ من المتطوعين الروس الشباب، بل من البروفسورات الذين بقوا في أقسامهم العلمية كان يدرك أنَّ مستقبل البلاد كله كان يتقرّر على جبهات الحرب في المواقع الأماميّة؟ من كان يعلم إلى أين يتجه العصر؟ لا أحد، لا في روسيا ولا في أوروبا).

في ربيع العام 1916م، أُوقفت المماحكات في المسألة اليهوديّة بصفتها عاملاً خطيراً يثير التوتُّر في المجتمع. لكنَّ تعديل قانون المجلس المحلي، أعاد طرح موضوع القوميات من جديد. ففي شتاء العام 1916 -1917م، أي في آخر أشهر الدوما، جرى بحث موضوع المجلس المحليّ الذي كان قد تأسس لأول مرة. وحينما غادر أبرز خطباء الدوما الجلسة، ولم يبق في القاعة سوى نصف أعضاء المجلس، وهم أعضاء مسالمون، نجح الفلاح الفياتي تاراسوف في الوصول إلى المنبر، لم يكن أحد قد سمعه يتحدَّث هنا من قبل قط. بوجل واضح شقَّ طريقه إلى جوهر الموضوع على النحو الآتي: لنفرض مثلاً أنَّ تعديل القانون "قبِلَ الجميع، بمن فيهم اليهود، وأنا أُضيف الألمان أيضاً، فمن الذي لن يأتي إلى دائرتنا عندئذٍ؟ إذن أيَّ حق يمنحه هذا التعديل؟ ... فهؤلاء الأشخاص ما أن ينضموا إلى سجلات الدائرة حتى يشغلوا المناصب، ويبقى الفلاحون مهملين ... وإذا صار يهودي إلى ممثل عن الدائرة، وصارت زوجته إلى أمينة سرٍ، أو سكرتيرة، فأيَّ حقوق سيعطي هذا للفلاحين؟ ها هم مقاتلونا الأشاوس يعودون من الحرب، فما هي الحقوق التي ستُمنح لهم؟ سيقفون في الصفوف الخلفية؛ كما في زمن الحرب، كذلك في المواقع الأمامية، فإنَّ الفلاحين في المعاطف الرمادية ... لا تعتمدوا أنتم مثل هذه التعديلات التي تتعارض كلياً مع معطيات الحياة اليومية التي يعيشها الفلاحون، وأنا أقصد بهذا تحديداً، إلى ألاّ تمنحوا حق المشاركة في انتخابات مجالس الإدارة المحلية لا لليهود ولا للألمان؛ لأنَّ أبناء هاتين القوميتين لن يحملوا أيَّ نفع للسكان بل سينالهم منهم أذى كبير، وستعمُّ القلاقل جميع أرجاء البلاد. فنحن الفلاحين لن نخضع أبداً لهاتين القوميّتين".

مرّة أخرى عن منح اليهود حقوق المساواة

في تلك الأثناء كانت تتواصل الحملة الجماهيرية من أجل منح اليهود حقوق المساواة. وقد دُعيت لتدلي بدلوها، منظمات لم تكن قد اهتمت بمثل هذه المسائل من قبل مثل: مجموعة العمل التي كانت تمثل مصالح البروليتاريا الروسيّة. ففي ربيع العام 1916م، أكّدت مجموعة العمل هذه أنّها على علم بأنّ "الرجعيّة (أي الحكومة وجهاز وزارة الداخليّة)، تُعدُّ علناً لمجزرة ضدّ اليهود في جميع أرجاء روسيا". وقد ردّد كوزما غفوزديف هذا الهراء في مؤتمر اللجان العسكريّة - الصناعيّة. في آذار من العام 1916م، توجهت مجموعة العمل برسالة إلى رودزيانكا تحتجُّ فيها على وقف الدوما مناقشة المسألة اليهوديّة بصفتها عاملاً يثير التوتُّر؛ واتهمت المجموعة الدوما بأنّها بقرارها هذا إنّما تحرِض هي نفسها ضدَ السامية: "إنّ سلوك أكثر أعضاء مجلس دوما الدولة في جلسة 10 آذار لم يكن من الوجهة العمليّة سوى مساندة مباشرة وترسيخ لسياسة الدوائر الحاكمة المعادية للساميّة ... إنّ أكثرية الدوما بدعمها لسياسة معاداة الساميّة التي تعتمدها الدوائر الحاكمة توجه طعنة خطيرة للجاهزية الدفاعية للبلاد" (لم ينسّقوا مواقفهم، لم يفهموا أن اليساريين في الدوما كانوا يحتاجون إلى وقف النقاش). فساندت "المجموعات اليهوديّة" العمال، وبحسب معطيات قسم الشرطة في بيتروغراد عن شهر تشرين الأول من العام 1916م، "إنّ هذه المجموعات تملأ شوارع العاصمة الآن، وليس لها توجهات حزبية محدّدة لكنّها تتخذ موقفاً شديد العداء من السلطة".

فما هو الموقف الذي اتخذته السلطات؟ لا توجد وثائق مباشرة بهذا الخصوص، لكنْ يبدو أنّه كان يجري في الهيئات الوزاريّة التي كانت تتبدّل

دورياً في العام 1916م، عمل جدي على الإعداد لمشروع منح اليهود حقوق المساواة. هذا ما أشار إليه بروتوبوبوف مراراً، إذْ يبدو أنّه كان قد نجح إلى حد بعيد في إقناع نيقولاي الثاني (ما كان يدفع بروتوبوبوف للتعجيل في هذا الأمر هو سعيه للتغطية على الحملة التي كان يشنُّها اليساريون ضده). أمّا آخر قائد شرطة بيتروغراد قبيل الثورة، الجنرال غلوباتشيوف، فقد كتب يقول في مذكراته على لسان دوبروفولسكي، آخر وزير للعدل أيضاً: إنَّ "مشروع قانون منح اليهود حقوق المساواة كان قد أُعدَّ فعلاً [قبيل أشهر قليلة من الثورة]، كان يجب أن يُعلن عشية فصح العام 1917م على أغلب الظنّ. بيد أنَّ فصح العام 1917م حلَّ بعد أن كانت هذه السلطات قد رحلت إلى غير رجعة. لقد تحققت الرغبات الجامحة التي كان يسعى إليها الليبيراليّون والراديكاليّون عندنا.

"كلُّ شيء للنصر!" نعم، لكنْ "ليس مع هذه السلطة!" فالرأي العام الروسيّ واليهوديّ، ووسائل الإعلام، أقاموا على إخلاصهم الثابت لتحقيق النصر. بل كانوا أول المحرضين عليه، لكنْ ليس مع مثل هذه الحكومة! وليس مع هذا القيصر! لقد كانوا لا يزالون أسرى القناعة نفسها التي بدأوا فيها الحرب: تلك القناعة الساذجة والعبقرية: في سياق هذه الحرب، وتحقيق النصر على ألمانيا، سنطيح بالقيصر، وننسف نظام الدولة هذا من أساسه. عندئذٍ ستتحقق المساواة لليهود.

لقد عالجنا في هذا الكتاب بكثير من التفصيل مختلف الظروف التي رافقت عيش الروس واليهود معاً في دولة واحدة. ورأينا أن بعض الصعوبات عالجها الزمن نفسه، وأنَّ أخرى ظهرت في السنوات الأخيرة وتفاقمت حتى ربيع العام 1917م. لكنَّ ارتقاء عمليّة التقدّم هو الذي حقّق الغلبة، ووعد ببناء راسخ ستتشمخ دعائمه في المستقبل.

في هذه اللحظة عينها أودى الانفجار ببناء الدولة الروسيّة، وجرف معه ثمار عملية الارتقاء كلّها، بما فيها الجبروت العسكري الذي دفعنا ثمنه أنهاراً من الدماء، لم يُبق حتى على آمالنا بحياة مزدهرة: لقد قامت ثورة شباط.

أهمُ مراجع البحث ومصادره

1 -ب. بروتسكوس. جذور اليهوديّة الروسيّة. العالم اليهودي: مجلة سنوية. 1939م. باريس اتحاد المثقفين الروس واليهود.

2 - الموسوعة اليهوديّة، م. 16. سانت بطرسبورغ.

3 - الموسوعة اليهوديّة الموجزة. 1976م. م. 2، أورشليم: جمعية دراسة الطوائف اليهوديّة.

4 - ف. ن. توبوروف. المقدَس والقديسون في الثقافة الروحية الروسيّة. في جزأين، الجزء الأول، موسكو: غنوزيس: مدرسة "لغات الثقافة الروسيّة"، 1995م.

5 - ن. م. كارامزين. تاريخ الدولة الروسيّة في اثني عشر مجلَداً، ط. 5. سانت بطرسبورغ: إينيرلينغ، 1842 -1844م. م. 1.

6 - كارامزين. م. 2.

7 - ف. ن. تاتيشيف. التاريخ الروسي: في سبعة مجلدات (1962 -1966م.) م. 2. موسكو -لينينغراد: أكاديمية العلوم السوفييتية، 1963

8 - س. م. سولوفيوف. الكتاب الأول.

9 - كارامزين. م. 6.

10 - س. م. سولوفيوف. الكتاب الثالث.

11 - يو. هوسين. تاريخ الشعب اليهوديّ في روسيا: في مجلَدين. م. 1. لينينغراد، 1925.

12 - القاموس الموسوعي: في اثنين وثمانين مجلَداً. سانت بطرسبورغ: بروكهاوز وإيفرون، 1890 -1904م. م. 22.

13 - أ. ب. كارتاشيف. موجز تاريخ الكنيسة: في مجلَدين، م. 1، باريس، 1959م.

14 - س. ف. بلاتونوف. موسكو والغرب. برلين: اوبيليسك، 1926م.

15 - كارامزين، م. 12: هامش ص. 33.

16 - إ. م. ديجور. اليهود في الحياة الاقتصاديّة الروسيّة. [مجموعة أبحاث] اليهوديّة الروسيّة: من 1860 -حتى ثورة 1917م. نيويورك: اتحاد اليهود الروس، 1960م.

17 - س. م. سولوفيوف، الكتاب، 8

18 - س. م. سولوفيوف، الكتاب، 10، 1963م.

19 - س. م. سولوفيوف، الكتاب 11.

20- S. M. Dubnow. History of the Jews in Russia, from the Earliest Times until the Present Day. Philadelphia: The Jewish Publication Society of America, 1916, v. 1,p. 258.

21- Dr. Ernst Hermann. Geschichte des russischen Staats. Fьnfter Band: Von der Thronbesteigung der Kaiserin Elisabeth bis zur Feier des Friedensvon Kainardsche (1742-1775). Hamburg 1853.

22 - غ. ب. سليوزبيرغ. النظام الروسي قبل الثورة. باريس، 1933م.

23 - جيمس باركس. اليهود بين الشعوب: عرض أسباب معاداة السامية. باريس YMCA-Press, 1923.

24 - س. م. سولوفيوف، م. 14.

25 - إ. م. بيكرمن. روسيا واليهودية الروسيّة. روسيا واليهود: مجموعة أبحاث. الاتحاد الوطني ليهود روسيا في الخارج. باريس: YMCA-Press, 1978.

26 - H. Graetz. Popular History of the Jews. New York: Hebrew Publishing Company, 1919, vol. 5.

27 - غ. ر. ديرجافين. المؤلَفات: في تسعة مجلَدات. مع هوامش يا. غروت. الطبعة 2. سانت بطرسبورغ، 1864 -1883، م. 6.

28 - ديرجافين. م. 7.

29 - ملفَات وزارة العدل، 1800م.

30 - ل. ديتش. دور اليهود في الحركة الثورية الروسيّة. م.1. 1925م

31 - م. كوفاليفسكي. مساواة اليهود وأعداؤها. المجموعة الأدبية، إشراف ل. أندرييف، م. غوركي وف. سولوكوب. موسكو: الجمعية الروسيّة لدراسة حياة اليهود، 1916م.

32 - ف. ن. سوريكوف. الفلاحون اليهود: الوضع التاريخي والقانوني والإداري والمعيشي في المستوطنات منذ إنشائها حتى اليوم. 1807 -1887م. سانت بطرسبورغ، 1887م.

33 - ن. ن. غوليتسين. تاريخ التشريع الروسي عن اليهود. سانت بطرسبورغ، 1886م، م. 1: 1649 -1852م.

34 - س. بوزنير. يهود ليتوانيا وبيلوروسيا منذ 125 عاماً [مجموعة] العالم اليهودي: دورية سنوية 1939م. باريس، اتحاد المثقفين الروس واليهود، ص. 60.

35 - الموسوعة اليهوديّة المختصرة: 1976م. م.7، أورشليم: جمعيّة دراسة الطوائف اليهوديّة.

36 - ف. ف. شولغين. "ما الذي لا يُعجبنا فيهم ..." : عن معاداة الساميّة في روسيا. باريس، 1929م. ص. 129.

37 - ب. إ. بيستل. الحقيقة الروسيّة. سانت بطرسبورغ: الثقافة، 1906م. الفصل 2، المقطع 14، ص. 50 -52.

38 - إ. أورشانسكي. اليهود في روسيا: تحقيقات وأبحاث. الإصدار 1 سانت بطرسبورغ، 1872م.

39 - ب. -تس. دينور. الظاهر الديني -القومي لليهوديّة الروسيّة [مجموعة أبحاث]. كتاب اليهوديّة الروسيّة من العام 1860م. حتى ثورة العام 1917م. نيويورك: اتحاد اليهود الروس، 1960م.

40 - يو. مارك. الأدب اليهودي بالعامية في روسيا. كتاب اليهوديّة الروسيّة. ص. 520.

41 - إ. كيسين. تأمُلات في اليهوديّة الروسيّة وأدبها. العالم اليهودي، نيويورك: اتحاد اليهود الروس في نيويورك، 1944م. ص. 171.

42 - إ. م. تروتسكي. اليهود في المدرسة الروسيّة. كتاب اليهوديّة الروسيّة، ص. 350.

43 - يو. هوسين. تاريخ الشعب اليهودي في روسيا، م2 لينينغراد 1927، ص. 27.

44 - الموسوعة اليهوديّة الروسيّة: 1944م. [ملحق ثاني مدقق ومزيد] م. 1، موسكو، 1944، ص. 317.

45 - رسالة ف. س. سولوفيوف إلى ف. غبتس. ف. س. سولوفيوف. المسألة اليهوديّة - المسألة المسيحية: مجموعة أبحاث. وارسو: برافدا، 1906م. ص. 25.

46 - ن. س. ليسكوف. اليهود في روسيا: بعض الملاحظات في المسألة اليهوديّة. 1919م.

47 - ي. غلينر. طارئة طبيعية بوجه بشري؟ الزمن ونحن: المجلّة العالميّة في الأدب والمسائل الاجتماعية. نيويورك، 1993، N 122, p. 133.

48 - م. غيرشينزون. قدر الشعب اليهودي: مجلة المثقّفين اليهود السوفييت الاجتماعيّة -السياسيّة والأدبيّة في إسرائيل. تل أبيب، 1981م. N 19, p. 111.

49 - م. كرول. القوميّة والادغام في التاريخ اليهوديّ. العالم اليهوديّ: دورية سنوية، 1939م. باريس: اتحاد المثقفين الروس -اليهود، ص. 188.

50 - يو. لارين. اليهود ومناهضة الساميّة في الاتحاد السوفييتي. موسكو - لينينغراد، 1929م.

51 - غ. ب. سليوزبيرغ. قضايا الأيام الخالية: مذكرات يهوديّ روسيّ: في ثلاثة مجلدات. باريس، 1933 -1934م. /م. 1، ص. 95.

51 - أ. ل. غولدينفيزير. الأهليّة القانونيّة لليهود في روسيا. كتاب اليهوديّة الروسيّة: من العام 1860 - حتى ثورة 1917. نيويورك: اتحاد اليهود الروس. 1960م. ص. 119.

52 - إ. م. تروتسكي. استقلاليّة اليهود واعتمادهم على أنفسهم في روسيا. ص. 471.

53 - ن. س. ليسكوف. اليهود في روسيا: ملاحظات على المسألة اليهوديّة. 1919م. ص. 61، 63.

54 - ل. ن. تولستوي عن اليهود /مقدمة او. يا. بيرغامينت. سانت بطرسبورغ: فريميا، 1908، ص. 15.

55 - م. ل. ألادنوف. اليهود الروس في السبعينيّات -الثمانينيّات. تمرين تاريخيّ.

56 - يا. ل. تيتيل. من حياتي خلال أربعين عاماً. يا. يوفولوتسكي وشركاه، 1925، ص. 15.

57 - غ. يا. أرونسون. النضال لنيل حقوق المواطنية والحقوق القوميّة: التيارات الاجتماعيّة في اليهوديّة الروسيّة.

58 - يا. غ. فرومكين. من تاريخ اليهوديّة الروسيّة: يوميات، موادّ، وثائق.

59 - س. م. غينزبورغ. المثقّفون الروس - اليهود. العالم اليهودي. باريس: اتحاد المثقّفين الروس - اليهود.

60 - ب. أورلوف. أليس أولئك من علَمتموهم الألفباء. نحن والعصر: مجلة الأدب العالمي والقضايا الاجتماعية. تل أبيب، 1975 N1.

61 - م. أوشيروفيتش. اليهود الروس في الولايات المتحدة الأميركية.

62 - س. شفارتس. اليهود في الاتحاد السوفييتي منذ بداية الحرب العالميّة الثانية. 1939 -1960م. نيويورك: اللجنة العماليّة اليهوديّة الأميركية، 1966م.

63 - إ. م. بيكرمن. الوعي الذاتيّ عند اليهوديّ: من كنّا، ومن أصبحنا، ومن يجب أن نكون. باريس، 1939.

64 - ك. ليتيس. في ذكرى م. أ. كرول. العالم اليهودي. نيويورك: اتحاد اليهود الروس في نيويورك، ذ944.

65 - أرونسون. وسائل النشر الروسيّة - اليهوديّة.

67 - س. م. غينزنبورغ. طباع الشباب اليهوديّ في ثمانينيّات القرن الماضي.

68 - أ. إ. دينيكين. طريق ضابط روسيّ. نيويورك: دار نشر تشيخوف، 1953.

69 - ل. برايسمن. المجازر والدفاع الذاتيّ: المجلّة الاجتماعية - السياسية الأدبية لمثقفي الاتحاد السوفييتي اليهود في إسرائيل. تل أبيب، 1986م. N51، ص. 174.

70 - س. م. دوبنوف. التاريخ المعاصر. من الثورة الفرنسية 1798م حتى الحرب الكونيّة 1914م. في ثلاثة أجزاء. ج.3 (1881 -1914م)، برلين: غراني، 1923م. التاريخ اليهوديّ العامّ منذ أقدم الأزمنة حتى اليوم.

71 - ر. كانتور. الإسكندر الثالث ومجازر اليهود 1881 -1883م. الحوليات اليهوديّة: المجموعة 1، موسكو، بيتروغراد: رادوغا، 1923م.

72 - أ. لفوف//نوفويا غازيتا، نيويورك، 1918م.

73 - زيرنو: المنشور العمّاليّ، حزيران، 1881م N3 //مجموعة أبحاث تاريخيّة ثوريّة. رئيس التحرير ف. إ. نيفسكوف: في ثلاثة أجزاء، موسكو - لينينغراد: 1924 - 1926م. ج.2.

74- Max Raisin A History of the Jews In Modern Times. 2nd ed. New York: Hebrew Publishing Company. 1923, p. 163.

75 - أ. ليسين. مشاهد من حياتي. ص. 385 -387.

76 - غليب أوسبينسكي. سلطة الأرض. لينينغراد: الفنُ الأدبي، 1967م.

77 - م. ي. سولتيكوف -شيدرين. نسائم تموز //مذكرات وطن، 1882م. N8.

78 - ش. مارشكين. بصدد كره اليهود لروسيا //"22"، 1984م. N38.

79 - إ. م. ديجور. حصيلة الهجرة اليهوديّة وآفاقها //العالم اليهوديّ -2.

80 - يا. د. ليشينسكي. السكان اليهود في روسيا والعمل اليهودي //كتاب اليهوديّة الروسيّة1.

82 - غ. سفيت. اليهود الروس في الحركة الصهيونيّة وبناء فلسطين وإسرائيل //كتاب اليهوديّة الروسيّة1.

83 - د. شوب. اليهود في الثورة الروسيّة //العالم اليهوديّ2. نيويورك: اتحاد اليهود الروس في نيويورك، 1944م.

84 - او. ف. أبتيكمن. ظلأن عزيزان //الماضي: مجلة مكرَسة لتاريخ حركة التحرر. موسكو، 1921م.N16

85 - ب. فرومكين. من تاريخ الحركة الثورية في الأوساط اليهوديّة، 1870م. //إغواء الاشتراكيّة: الثورة في روسيا واليهود. باريس: YMCA-Press؛ خيار روسيا، 1995.

86 - غريغوري غيلدربيرغ في قلعة بيتروپافلوفسك //الأرشيف الأحمر: المجلّة التاريخيّة للأرشيف المركزي في جمهورية روسيا الاتحادية، موسكو 1922 -1941م.

87- Leondard Schapiro. The Role of the Jews In the Russian Revolutionary Movement// The Slavonic and East European Review, vol. 40, London: Athlone Press, 1961-1962, p. 157.

88 - او. س. مينور. الدراما الياقوتية 22 آذار 1889م. مجلة الماضي، 1906م. N9.

89 - إ. إيلياشيفيتش (إ. روبينوفيتش). ما الذي يفعله اليهود في روسيا؟ //إغواء الاشتراكيّة، ص. 185 -186.

90 - يو. مارتوف. مذكرات اشتراكي ديموقراطي. برلين: دار غرجيبين، 1922

91 - ن. أ. بوخبيندر [العمال والحلقات الدعائية] //إغواء الاشتراكيّة، ص. 230.

92 - أبراموفا. هل اليهود أعداء الشعب العامل. تبليسي: لجنة الإصدارات في مجلس جيش القوقاز، 1917م. ص. 3 -31.

93 - من تاريخ محاربة الثورة في العام 1905م. //الأرشيف الأحمر، 1929م. المجلد 32 ص. 229.

94 - ف. ف. شولغين. "ما الذي لا يُعجبنا فيهم ...": عن معاداة السامية في روسيا. باريس، 1929.

95 - دوما الدولة –الدورة الرابعة: تقرير مختزل. كانون الأول، 1916م. ص. 1174.

96 - غ. ب. فيدوتوف. وجه روسيا: مجموعة أبحاث (1918 -1931م.). باريس: YMCA-Press, 1967, p.113-114.

97 - م. أغورسكي. هل تتوافق الصهيونيّة والاشتراكيّة؟ "22": المجلة الأدبية الاجتماعية -السياسية للمثقفين اليهود السوفييت في إسرائيل. تل أبيب، 1984م. N36, p. 130.

98 -م. رافيس ["النزعة" القوميّة عند البوند] //إغواء الاشتراكية، ص. 276.

99 - غ. أ. لانداو. الأفكار الثوريّة لدى الرأي العام اليهودي //روسيا واليهود: الاتحاد الوطنيّ لليهود الروس في الخارج. باريس: YMCA-Press, 1978, p. 106-109.

100 - أ. او. مارشاك. تصريح لراديو "الحرية" //ذكريات عن ثورة 1917م. ميونيخ، 1965م.

101 - أ. غوتشكوف. خطاب في مجلس دوما الدولة: 16 كانون الثاني، 1909م.

102 - إ. او. ليفين. اليهود والثورة. ص. 130 -132.

103 - ف. س. ميندال. الأفكار المحافظة والأفكار الهدّامة في اليهوديّة. ص. 199.

104 - إ. م. فيكرمن. روسيا واليهودية الروسيّة. ص. 34.

105 - يو. مارتوف. نقطة تحوُّل في تاريخ الحركة العمالية اليهوديّة //إغواء الاشتراكيّة، ص. 249.

106 - غ. ف. بليخانوف عن الحركة الثوريّة في الأوساط اليهوديّة //إغواء الاشتراكيّة، ص. 266.

107 - ف. إ. لينين. المؤلفات: في 45 مجلداً، ط.4، 1941 -1967م. م. 5، ص. 463 -464.

108 - س. ديمانشتين. الحركة الثورية بين اليهود [مجموعة أبحاث] 1905: تاريخ الحركة الثورية في أبحاث منفصلة /بإشراف م. ن. بوكروفسكي، م3 موسكو لينينغراد 1927م. ص. 127، 138، 156.

109 - فلاديمير جابوتينسكي. مقدمة //خ. ن. بيليك. أغنيات وملاحم. سانت بطرسبورغ: دار زالتسمان، 1914، ص. 36.

110 - ن. ف. كراينكو. في خمس سنوات. 1918 -1922م. خُطب اتهاميّة في أكبر العمليات، أُلقيت أمام المحاكم الميدانيّة في موسكو والمحكمة الميدانيّة الثوريّة العليا. موسكو -بيتروغراد، 1923م. ص. 353.

111 - فلاديمير جابوتينسكي. التربية القومية. مطبعة "غيرولد"، 1913م. ص. 5 -7.

112 - م. فارتبورغ. ثمن الصهيونية. //"22" المجلة الأدبية والاجتماعية -السياسية للمثقّفين اليهود السوفييت في إسرائيل. تل أبيب، 1987م. N56, p. 112-114.

113 - ستيفان تسفيغ. عالم الأمس. مذكرات أوروبي //"22"، 1994، N92. P. 215-216.

114 - ن. غوتينا. من يخاف من فينينغير؟ //"22"، 1983م. N31, p. 206.

115 - ن. مينسكي. الوجه القوميّ والموقف الوطني //سلوفو، سانت بطرسبورغ، 28 آذار، 1909م. ص. 2.

116 - بروت. سيرغي بولغاكوف. المسيحيّة والمسألة اليهوديّة. باريس: YMCA-Press, 1991, p. 11.

117 - ف. كولكير. الخطة الجديدة لمساعدة اليهود السوفييت // "22", 1983, N31 p. 149.

118 - ن. غوتينا. البحث عن الهوية المفقودة //"22", 1983, N29, p. 216.

119 - عاموس عوز. الحسناء النائمة: الأحلام واليقظة //"22", 1985, N42, p. 117.

120 -س. غينزنبورغ. رحلة تيودور هرتزل إلى بطرسبورغ //العالم اليهودي: المجوعة II نيويورك: اتحاد اليهود الروس في نيويورك، 1944، ص. 199.

121 - س. ف. بوزنير. اليهود في المدرسة المشتركة: تاريخ التشريع والسياسة الحكوميّة في المسألة اليهوديّة. سانت بطرسبورغ: رازوم، 1914، ص. 54 -55.

122 - ف. م. ماكلاكوف. عاما 1905 -1906م. //[مجموعة أبحاث] م. م. فينافير والرأي العام الروسي في أوائل القرن 20م. باريس، 1937م. ص. 63.

123 - ف. ف. ليونتوفيتش. تاريخ الليبراليّة في روسيا: 1762 -1914م. مترجم عن الألمانية، ط2، موسكو: خيار روسيا، 1995م. ص. 251 -252.

124 - المعامل والمصانع في الإمبراطورية الروسيّة. ط2، بيتروغراد: مجلس مؤتمر ممثلي الصناعيين والتجار، 1914م. N890.

125 - ل. تروتسكي. تجربتي وسيرتي الذاتيّة، م1، برلين: غرانيت، 1930م. ص. 42 -43.

126 - أ. مينيس. المسألة اليهوديّة في أوروبا الشرقيّة //العالم اليهودي: دورية سنوية 1939م. باريس: اتحاد المثقّفين الروس -اليهود، ص. 146.

127 - ف. غوركو. ركود الاقتصاد الوطني في روسيا: تحقيق زراعي - اقتصادي، سانت بطرسبورغ، 1902م. ص. 199.

128 - ي. فينكلشتين. اليهود في الاتحاد السوفييتي. الطريق نحو القرن الحادي والعشرين. //البلاد والعالم: مجلّة سياسية، اقتصادية، وثقافية -فلسفية. ميونخ، 1989., N1, p. 70

129 - دوما الدولة –الدور الثاني: تقرير مختزل. الدورة 2، سانت بطرسبورغ، 1907م. الجلسة2، 9نيسان 1907م. ص. 1814.

130 - إ. بن - تسفي. من تاريخ الصهيونية العمّالية في روسيا //كتاب اليهوديّة الروسيّة1، ص. 272.

131 - تاريخ القرن العشرين: في ثمان مجلّدات. إشراف لافيس ورامبة، م7، 1939م. ص. 186، 203.

132 - ر. نودلمان. شبح يجوب أوروبا //تل أبيب، "22", 1992, N84, p. 128.

133 - ف. دال. معجم اللغة الروسيّة، م1 موسكو 1955م. ص. 541.

134 - مجزرة كيشينيوف: قرار الاتهام //أوسفوبوجدينيه، شتوتغارت، 1903 19 , okt. N9، حاشية، ص. 1 -4.

135 - عرض إلى مدّعي عام المحكمة رقم 1392، في 20 ت2 1903م.

عرض إلى مدَعي عام المحكمة رقم 1437، في 1ك2، 1903م. //مواد ال ... ص.319، 322 -323.

136 - منشور وزير الداخلية المعمَم على حكَام المقاطعات ورؤساء المدن وقادة الشرطة عن أحداث كيشينيوف //مواد ال ... ص. 333 -335. الدليل الحكومي، سانت بطرسبورغ .N97, 1903, 29 Apr

137 - كلمة عن يوحنا كرونشتات. رؤيتي عن عنف المسيحيين ضدَ اليهود في كيشينيوف //مواد ال ... ص. 352.

138 - عن مأساة كيشينيوف. كلمة أُلقاها في 30 نيسان 1903م. الأُسقف أنطونيوس //مواد ال ... ص. 354، 356.

139 - بروتوكول الإدارة الطبية في بيسارابيا الصادر في 2 حزيران 1903م. //مواد ال ... ص. 174 -175.

140 - التحقيق القضائي في أعمال العنف التي وقعت ضدَ اليهود في مدينة كيشينيوف 16 ت2 1903م. صفحة من يوميات رقم 11 //مواد ال ... ص. 279.

141 - مدَعي عام محكمة أوديسا أ. إ. بولاَن -أ. أ. لويوخين.

142 - ب. ب. زافارزين. عمل البوليس السري. باريس، 1924م. ص. 68 -69.

143 - A. Solschenizyn. Novomber sechzehn. Munchen-Zurich: Riper, 1986, S. 1149.

144 - د. س. باسمانيك. الثورة الروسيّة واليهوديّة (البلشفيّة واليهوديّة). باريس، 1923م. ص. 142.

145 - مذكَرة سرية إلى مدير إدارة الشرطة، تاريخ 27 نيسان، 1903م. رقم 1963.

146 - فلاديمير جابوتينسكي. في أيام الحزن. سانت بطرسبورغ: مطبعة "غيرولد"، 1913، ص. 25.

147 - ن. أ. بوخبيندير. الحركة العمَالية اليهوديّة في غوميل (1890 -1905م.) //الحولية الحمراء: المجلَة التاريخية. بيتروغراد، 1922م. العددان 2 -3.

148 - محكمة كييف: قضية مجزرة غوميل //برافو، سانت بطرسبورغ، 1904م. العدد44، ص. 3041 -3042.

149 - قضية مجزرة غوميل //برافو، 1904م. العدد 44، ص. 3041 -3043.

150 - الجنرال أ. ن. كوروباتكين. مهمات الجيش الروسي. سانت بطرسبورغ، 1910م. م. 3، ص. 344 -345.

151 - ست. إيفانونوفيتش. اليهود والدكتاتورية السوفييتية. العالم اليهودي: دورية سنويّة، 1939م. باريس: اتحاد المثقفين الروس -اليهود، ص. 41 -42.

152 - د. س. باسمانيك. ما الذي نسعى لتحقيقه؟ //روسيا واليهود: الاتحاد الوطني لليهود الروس في الخارج. باريس: YMCA-Press, 1978, p. 211.

153 - فلاديمير جابوتينسكي. العصيان اليهودي. الهجائية، ص. 43.

154 - أ. فيتلوغين. مغامروُ الحرب الأهلية. باريس: Imprimerie "Zemgor", 1921, p. 65-67, 85.

155 -إ. غروسمان - روشين. أفكار عن الماضي (من تاريخ حركة "الراية السوداء") الزمن الغابر: مجلّة مكرّسة لتاريخ حركة التحرر. موسكو، 1924م. العددان 27 -28، ص. 179.

156 - بن - خويرين. الفوضويّة والجمهور اليهوديّ. إغواء الاشتراكيّة: الثورة في روسيا واليهود. أ. سيريبرينكوف. باريس: YMCA-Press؛ الخيار الروسي، 1995م. ص. 453.

157 - تقرير مدير إدارة الشرطة لوبوخين إلى وزير الداخلية عن أحداث التاسع من كانون الثاني //الحولية الحمراء، 1922م. العدد1، ص. 333.

158 - ف. نيفسكي. أيام كانون الثاني 1905م. في بطرسبورغ //المصدر نفسه. ص. 51، 53.

159 - بيان 17 تشرين الأول //الأرشيف الأحمر، 1925م. م.11/12، ص. 73، 89.

160 - الكونت س. يو. فيتِه. مذكَرات. عهد نيقولاي الثاني: في مجلَدين. برلين: سلوفو، 1922م. م. 1، ص. 376، 393.

161 - فيتِه. مذكرات ... م.2، ص. 52 -53.

162 - كييفليانين، 1905م. العدد305 //شولغين، تمهيد، ص. 271 -274.

163 - د. ب. ماكوفيتسكي. 1905 -1906م. في ياسنايا بوليانا //صوت الماضي، موسكو ... العدد3، ص. 26.

164 - مراسلات ن. أ. رومانوف وب. أ. ستوليبين //الأرشيف الأحمر: المجلة التاريخية التي أصدرها الأرشيف المركزي في جمهورية روسيا الاتحادية. موسكو: 1922 -1941م. م.5، 1924م. ص. 105.

165 - س. ي. كريجانوفسكي. مذكرات من أوراق س. ي. كريجانوفسكي آخر سكرتير دولة في الإمبراطورية الروسيّة. برلين: بيتروبوليس، ص. 94 -95.

166 - نيقولاي بيردياييف. فلسفة اللامساواة. ط2، باريس: YMCA-Press, 1970, p. 72.

167 - ك. أ. كريفوشين. أ. ف. كريفوشين (1857 -1921م.): أهميّته في تاريخ روسيا عند أوائل القرن العشرين. باريس، 1973، ص. 290، 292.

فكر

يفتح هذا الكتاب نافذة واسعة تطلّ على حياة الروس واليهود في ظل الإمبراطوريّة الروسية على مدى قرنين من الزمن (الثامن عشر والتاسع عشر)، و يحلّل الشخصيّتين الروسيّة واليهوديّة تحليلاً سيكولوجيا وسوسيولوجياً بعيداً عن التعصّب والانفعاليّة.

وكان التوتر والعداء هو الطابع الغالب عليهما . إنّه يقدّم قراءة لنشأة العلاقات بينهما وتطوّرها، ويقف عند المحطات الرئيسة التي مرّت بها، مستعرضا السّمات الأساس للشخصيّة اليهوديّة التي نمت وسط مجموعات مغلقة على ذاتها، منظّمة تنظيماً شديد التماسك، وقدرتها الهائلة على استثمار اللحظة الراهنة من أجل الكسب الماديّ، و قدرتهم على التأقلم مع الظروف المتاحة، بحيث سيطروا سيطرة شبه كاملة على قطاعات الصّناعة والتجارة والاستثمارات و البنوك.

ويتناول الكتاب الكثير من المشكلات التي اعترضت هذه العلاقة، والتي تطوّرت إلى صّدام دامٍ في أحيان كثيرة.

وتأتي أهمية الكتاب أيضاً من كون كاتبه هوألكسندر إيسايفيتش سولجينيتسين الروسي المعروف الحائز على جائزة نوبل في الآداب عام 1970.

ISBN 978-9933-507-02-2







